

بحار الولاية المحمدية في مناقب أعلام الصوفية

تراجم علمية صوفية موثقة لخمسين ولياً لله عز وجل
بدءاً من القرن الثاني الهجري إلى عصرنا الحاضر

لالأستاذ الدكتور
جودة محمد أبو اليزيد المهدي
عميد كلية القرآن الكريم بطنطا

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الطابع ١٢ ش بومار لاطرغلى - القاهرة ت ٢٥٤٢ ٧٩
فاكس : ٣٥٥٤٢٢٤

١ ش كامل صدى النخالة - القاهرة ت: ٢١٠٧ ٥٩
٣ ش كامل صدى العجالة - القاهرة ت. ٥٩١٧٩٥٩ } المكتبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« مُقَدِّمَةٌ »

الحمد لله الذى رفع لواء أعلام أوليائه فى سماء حضرته، وتوجههم بتيجان معرفته، وسقامهم من صفو شراب محبته، وأتحفهم بوصاله وكاشفهم بأسرار أحديته؛ فهم ضنائه من عبادته وصفوته من خليقته، المتحققون بكمال الالتزام بشريعته ومنهاجه وطريقته.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد الكائنات، المظهر الأتم لتجليات ربوبيته، المتحقق بالغاية القصوى لأكمالية عبوديته سيدنا ومولانا محمد شمس الهداية والعرفان الساطعة فى عليا سموات مملكته، الممدة بالأنوار والأسرار أقطاب ولايته، المشعة أنوارهم فى قلوب السالكين من أهل طاعته. اللهم بحقهم عندك حققنا بكمال محبتهم وتبعيتهم وإخلاص توحيدهم لنحظى ببركتهم بشرف وراثته، ونشرف فى الدارين بكمال معيته صلى الله عليه وسلم. اللهم آمين.

أما بعد :-

فلقد بوا الحق - تبارك وتعالى - أوليائه العارفين وصفوته المتحققين أرفع مكانة فى عبادته بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ويعظم قدرهم وسامق مجدهم شهد التنزيل الحكيم؛ حيث قال وليهم ومتوليهم- جل شأنه : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾ (١).

(١) سورة يونس / ٦٢ - ٦٤.

ويرفع منزلتهم وجزيل عطائهم نوه الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - حيث قال : (إن من عباد الله عباداً ماهم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانتهم من الله تعالى لا قيل يا رسول الله خبرنا من هم ؟ وما أعمالهم ؟ فلعنا نحبهم . قال : هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) .

وفي نصوص الكتاب والسنة وتراث سلفنا الصالح: الكثير والكثير مما يشيد بفضل الأولياء ويبين سواطع كراماتهم، وسوامق مقاماتهم، وشرائط أحوالهم، ومثاقيب عرفانهم، ومفاخر مناقبهم.

وقد أجمع المحققون من أعلام علماء الأمة على أن طريق السادة الصوفية هو طريق الولاية الحققة لله عز وجل، وهو الصراط المستقيم الذي سلكه سلفنا الصالح ومن تبعهم بإحسان رضى الله تعالى عنهم أجمعين، ومصادر التاريخ الموثقة تشهد بإجلال أئمة علماء الأمة - لا سيما أئمة السلفية - للتصوف ورجاله.

فهاهو ذا الإمام الجليل أحمد بن حنبل - رضوان الله عليه - حضر ذات ليلة مجلس الإمام الصوفي الحارث المحاسبى ومريديه رضى الله عنهم واستمع إلى كلامه في المعرفة فبكى حتى غشى عليه، فقيل له : كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله ؟ فقال : ما أعلم أنى رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل !! « (٢) .

ونقل صاحب (طبقات الحنابلة) عن أبي محمد التميمي الحنبلى أنه قال في

(١) أخرجه أبو داود في سننه عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وروى النمائي نحوه عن سيدنا أبي هريرة رضى الله عنه وخبره الحافظ المنذرى في الترغيب والترهيب (٤/٤٧ - ٤٨ نشر دار الحديث) عن ابن حبان.

(٢) الحافظ ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ١٨٦ نشر دار الآفاق الجديدة ببيروت.

وصف عقيدة الإمام أحمد وبيان مذهبه ومشرّبه : (وكان يُعظم الصوفية ويكرمهم، وقال-وقد سئل عنهم وقيل له : يجلسون فى المساجد - : فقال : العلم أجلسهم)^(١).

وقال الإمام الشعرانى رضى الله عنه : (ويكفينا للقوم - أى للصوفية - مدحاً إذعان الإمام الشافعى رضى الله عنه لشيبيان الراعى حين طلب الإمام أحمد ابن حنبل أن يسأله عن نسي صلاة لا يدرى أى صلاة هى؟.

وإذعان الإمام أحمد بن حنبل لشيبيان كذلك حين قال شيبيان : هذا رجل غفل عن الله عز وجل فجزاؤه أن يؤدب !!).

وكذلك يكفينا إذعان الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - لأبى حمزة البغدادى الصوفى - رضى الله عنه - واعتقاده حين كان يرسل له دقائق المسائل ويقول ما تقول فى هذا يا صوفى ٩٩ (^(٢)).

وها هو ذا حجة الإسلام ومجد القرن الخامس الهجرى الإمام أبو حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه يقول - بعد أن تربع على قمة علماء عصره - :

(والقدر الذى أذكره لينتفع به : أنى علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسنُ السير، وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً؛ فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

(١) عبد الحفيظ بن ملك عبد الحق المكي : موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية ص/٢٥٥ ط دار السلام بالقاهرة، والنقل فيه عن طبقات الحنابلة لأبى الحسين محمد بن أبى يعلى فى آخر الجزء الثانى
(٢) الإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه : الطبقات الكبرى : ٤/١ ط الشرقية، وانظر أيضاً طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى : ٢٦٨/١.

وبالجملة : فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها - وهى أول شروطها -
تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى .

ومفتاحها : - الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة - استغراق القلب
بالكلية بذكر الله .

وآخرها : - الفناء بالكلية فى الله ٩٩ .

وآخرها ، بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها وهى
على التحقيق: أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدلهيز للسالك إليه .

ومن أول الطريقة : تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى إنهم فى يقظتهم
يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم
فوائد ... (١) .

لقد صدر هذا البيان من حجة الإسلام من واقع تجربة صوفية عملية
مسبوقة بإمامة وروسوخ علمى فى شتى علوم الشريعة، وبتفرد فكرى قهر به هذا
الإمام أساطين الفلسفة ومؤلهة العقل؛ ليعلى صرح الريانية بنور الوحي والتركية
الإحسانية. ولئن قيل : إن هذه شهادة من أحد أعمدة الصوفية، وهو بلا شك ممتدح
لاتجاهه ومشربه فماذا يقول المعترضون فى شهادة شيوخ السلفية- بعد الإمام
أحمد - كابن الجوزى، وابن تيمية، وابن القيم ، والحافظ الذهبي، وابن كثير، ثم
محمد بن عبد الوهاب؟ هل وقف هؤلاء من التصوف والصوفية موقف الرفض
بالإطلاق، واعتبروه كضراً وشركاً والحاداً وزندقة كما فعل المتنبتون الحائقون على
التصوف من بعدهم وكما يفعل الكثيرون من سلفية اليوم ؟؟ اللهم كلا ثم كلا .

فقد كان لكل منهم وجهة نظر فى فهم التصوف ورصد إيجابيات الصوفية
وسلبات الأديعاء الدخلاء عليهم.

(١) الإمام أبو حامد الغزالي : المنقذ من الضلال، مع أبحاث فى التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي للدكتور
عبدالحليم محمود : ١٢٨ - ١٢٩ نشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

أما جوهر التصوف وسلوكياته الرفيعة، وعلومه اللدنية، ومقامات الصوفية وأحوالهم وكراماتهم فقد أشاد بها هؤلاء جميعاً على تفاوت بينهم - كما صرحت بذلك كتبهم وفتاويهم.

فهاهو ذا الحافظ أبو الفرج بن الجوزي الذي اشتهر بأنه عدو الصوفية لنقده لهم في كتابه : « تلبيس إبليس » - وهو في الحقيقة نقد للدخلاء عليهم المتشبهين بهم في المقام الأول، ثم نقد لما تراءى له في القوم مما يختلف فيه مع بعضهم- : نجده يعتبر مشايخ الصوفية من أئمة السلف الصالح؛ إذ يقول في أحد مصنفاته المحققة : (وقد كان السلف يحبون جمع كل فضيلة ويكون على فوات واحدة منها؛ قال إبراهيم بن أدهم: دخلنا على عابد مريض وهو ينظر إلى رجليه ويكي، فقلنا : مالك تبكي؟ فقال : ما اغبرتا في سبيل الله تعالى، ويكى مرة أخرى فقيل له : ما بيكيك؟ قال : على يوم مضى ما صمته، وعلى ليلة ذهبت ما قمته... وقعد قوم عند معروف الكرخي فقال : أما تريدون أن تقوموا فإن ملك الشمس يجرها ؟؟ فانظر مدى حرص الكرخي على عدم ضياع الشمس دون تعب!!^(١).

إن ابن الجوزي في هذا النص يؤكد لنا حقيقة هامة ليت سلفية العصر يعرفونها : ألا وهي : أن الصوفية الحقّة تمثل جوهر السلفية الحقّة؛ فإنه هنا استشهد لمعالى الفضائل بسلوك إمامين من أئمة التصوف باعتبارهما من أعيان السلف الصالح!! وإن ابن الجوزي نفسه - وهو الذي يحتج به في رفض الصوفية- هو الذي صنف في مناقبهم موسوعته الرائعة « صفة الصفوة » في أربعة مجلدات، وقلد مشاهير الصوفية أعلى الأوسمة، ووصفهم بأكرم الصفات والمآثر في تراجم شخصياتهم العديدة كالإمام الجنيد والعارف الشبلي، وسيدى أبى يزيد البسطامي، والسيدة رابعة العدوية وسيدى ذى النون المصري رضى الله عنهم أجمعين ، ومن

(١) ابن الجوزي : لفتة الكبد إلى نصيحة الولد بتحقيق د/ هزاد عبد المنعم ص ٢٦- ٢٩ وانظر التصوف في تراث ابن تهمية للدكتور الطباوى محمود سعد : ص / ٤١ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

شاء الرجوع إلى تعرف مناقبهم وكراماتهم في « صفة الصفوة » لابن الجوزي سيجد تجسيد عظمة الإسلام ومثاليته الروحية في هؤلاء القوم.

وناهيك في التعرف على مشرب السلفية الحقبة لابن الجوزي كتابه : « الوفا بأحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم » ففيه توهج نورانية الحب لحضرة النبي صلى الله عليه وسلم من خلال تعرف شمائله ومآثره وجوانب عظمتة صلى الله عليه وسلم، وفيه بيان مشروعية التوسل بذاته الشريفة صلى الله عليه وسلم، بل وفيه «باب الاستسقاء بقبوره صلى الله عليه وسلم» (١).

ثم هاهو ذا شيخ السلفية تقى الدين بن تيمية - الذي اشتهر بأنه خصم الصوفية الأول- لم يكن أبداً رافضاً للتصوف ولا معادياً للصوفية بإطلاق، وإنما كان مؤيداً لصوفية الحقائق دون أغلب صوفية الأرزاق، ودون صوفية الرسوم (٢) المقتصرين على النسبة وهمهم اللباس والآداب الوضعية لا غير.

وإن ابن تيمية ليصرح باتفاقه مع أئمة التصوف على أن الصوفية هم صديقو هذه الأمة بعد الصحابة والتابعين، إذ يقول : (وهم - أي الصوفية - يسيرون بالصوفي إلى معنى الصديق - بتشديد الدال -، وأفضل الخلق بعد الأنبياء: الصديقون كما قال تعالى: ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٣)، ولهذا : ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي .

لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين، فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريقة، كما

(١) أنظر : الوفا بأحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم لابن الجوزي بتحقيق د/ مصطفى عبد الواحد . ٢٠ / ٨٠١ .

(٢) هؤلاء هم الأصناف الثلاثة للصوفية عند ابن تيمية كما ذكر في رسالته الصوفية والفقراء (ص ٢٤ بتقديم د جميل غازي).

(٣) سورة النساء / ٦٩ .

يقال : صدِّيقو العلماء وصدِّيقو الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق،
ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم (١).

قلت شعري : ماذا يقول سلفية اليوم الذين يحكمون على الصوفية بالكفر
والإلحاد في حكم شيخهم الأكبر ابن تيمية للصوفية بأنهم من نوع من الصديقين
الذين هم أفضل الخلق بعد الأنبياء، وأنهم المختصون بالزهد والعبادة على الوجه
الأمثل (١).

وليس هذا فحسب؛ بل إن ابن تيمية قد صرح في كتبه باحترامه وإجلاله
لرواد التصوف وشيوخه العظام من أمثال الأئمة: الفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن
أدهم والسري السقطي، والجنيد وحمام الدباس والشيخ عبد القادر الجيلاني وعدى
ابن مسافر . كما تنطق المصادر الموثقة بأنه كان يشير إلى الشيخ عبد القادر
بنفس المستوى الإجلالي الذي يشير به إلى الإمام أحمد بن حنبل - رضى الله
عنهما - ويصفه بأنه « أعظم مشايخ زمانه أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي
وتقديمه على الذوق، ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية » (٢).

كما يلقيه بـ « قطب العارفين » (٣) - مستعملاً في ذلك مصطلحات التصوف
في مراتب رجاله رغم أنف المنكرين (١).

بل إن بعض الباحثين المعاصرين ليصرح بانتساب ابن تيمية إلى الطريقة
القادرية، حيث يقرر جورج مقدسى ذلك مستنداً إلى أن سلسلة شيوخ ابن تيمية تبدأ
بموفق الدين بن قدامة تلميذ الإمام عبد القادر الجيلاني المباشر وخريج المدرسة
القادرية ببغداد (٤)، كما يستند أيضاً : إلى تأثيره بمنهجه في التربية واستشهاد به

(١) انظر : الصوفية والفقراء بتقديم د. محمد جميل غازي : ٢٢ - ٢٣ وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية : جمع وترتيب
عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي التجدي الحنبلي : المجلد الحادي عشر ص ٤٥ ط الأولى .

(٢) ، (٣) ابن تيمية : الفتاوى : كتاب علم السلوك: المجلد العاشر : ص ٤٤٨ .

(٤) انظر : موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية ص ١٩٦ - ١٩٧ ط دار السلام.

كثيراً في كتبه كمثل أعلى يقتدى به في الاعتقاد وفي السلوك، إلى جانب أنه يصرح بتبعية له إذ يعبر عنه بعبارة : « .. شيخنا أبو محمد قدس الله روحه » (١) .

ثم إن ابن تيمية قد رجع عما اشتهر عنه من تحريمه التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم إلى متجه السادة الصوفية؛ فقال بجواز التوسل بذاته صلى الله عليه وسلم، حيث نقل تلميذه ابن كثير - في البداية والنهاية - عن البرزالي أنه عقد لابن تيمية مجلس في القاهرة ودار بينه وبين الشيخ ابن عطاء الله السكندري رضى الله عنه محاورة جرى فيها أن ابن تيمية قال « .. لا يستغاث إلا بالله، لا يستغاث بالنبي استغاثاً بمعنى العبادة، لكنه يتوسل به ويتشفع به إلى الله » (٢).

ولابن تيمية مؤلفات في التصوف تشهد باستمداده من مناهل شيوخ الصوفية وباستعمال بعض مصطلحاتهم كالمقامات والأحوال وغير ذلك، ومن تلك المؤلفات: « التحفة المراقية في الأعمال القلبية » وكتاب « قاعدة المحبة » و « كتاب الاستقامة » و « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » و « كتاب التصوف » وهو ضمن مجموعة الفتاوى (٣).

وإذا ما انتقلنا إلى تلميذ ابن تيمية الأشهر وخليفته من بعده في إمامة السلفية وهو الإمام ابن القيم نجده هو الآخر قد غاص في لجج محيط التصوف الزاخر بأنوار المعارف والحقائق؛ قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في ترجمة ابن القيم من كتابه « الذيل على طبقات الحنابلة » : « .. وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى (٤) . ثم قال : (وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدبر والتفكير ففتح عليه من ذلك خير كثير، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة وتسلسل بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف (أي السادة الصوفية) والدخول في غوامضهم . وتصانيفه ممثلة بذلك) (٥) .

(١) المصدر الأخير نفسه : في الموضع ذاته .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية بتحقيق د/ أحمد أبو ملحم وآخرين (١٤/١٧ ط ١ : دار الكتب العلمية ببيروت) .

(٣) انظر : التصوف في تراث ابن تيمية للدكتور الطبلاوي محمود سعد : ٣١ - ٣٥ نشر الهيئة المصرية .

(٤)، (٥) ابن رجب الحنبلي : الذيل على طبقات الحنابلة؛ ٢/٤٤٨ وابن العماد؛ شذرات الذهب : ١٦٨/٦ - ١٦٩ .

ومن ثم ندرك : أن ابن القيم قد بدأ سلفياً وانتهى متصوفاً، ويشهد بتصوفه كتابه الرائع « مدارج السالكين فى شرح منازل السائرين » وهو شرح لكتاب « منازل السائرين » لشيخ الإسلام عبد الله الأنصارى الهروى الصوفى رضى الله عنه؛ وكتاب المدارج هذا موسوعة صوفية رفيعة المستوى تناول ابن القيم فيها مقامات العارفين ومنازلهم وقرر حقائقهم وأذواقهم بلغة أهل التصوف العارفين، وقد صرح محققه حامد الفقى فى مقدمته بأن هذا الكتاب من خير ما كتب الإمام ابن القيم^(١).

ثم نخرج على قطب آخر من أقطاب المدرسة السلفية الحنبلية وتلميذ بارز آخر من تلاميذ ابن تيمية؛ وهو الحافظ شمس الدين الذهبي المعروف بموسوعيته العلمية وصرامته فى نقد الرجال، فتجد أن هذا الإمام - برغم ما اشتهر به من تحامل على الصوفية- كان منخرطاً فى سلك القوم، إذ صرح بأنه لبس خرقة التصوف من الشيخ ضياء الدين عيسى بن يحيى الأنصارى السبتي عند رحلته إلى مصر^(٢).

ولقد حظى أئمة الصوفية بعظيم ثناء الذهبي عليهم فى تراجمهم بكتبه لاسيما تذكرة الحفاظ و « سير أعلام النبلاء »؛ فتجده يقول مثلاً فى صدارة ترجمة العارف الصوفى سيدى الفضيل بن عياض رضى الله عنه : (الفضيل بن عياض : الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو على التميمى اليربوعى المروزي شيخ الحرم . سكن مكة، وكان إماماً ربانياً، صمدانياً، قائماً، ثقة، كبير الشأن ..)^(٣).

وفى ترجمته للإمام أحمد فى سير أعلام النبلاء تجلّى تعظيمه للصوفية فى تعقبه لقول محمد بن مصعب العابد « لسوط ضربه أحمد بن حنبل فى الله أكبر من أيام بشر بن الحارث » فقال منصفاً للإمام الصوفى سيدى بشر رضى الله عنه : - (قلت : بشر عظيم القدر كأحمد ، ولا ندرى وزن الأعمال ، إنما الله يعلم

(١) انظر : مقدمة « المحقق » لكتاب مدارج السالكين لابن القيم بالجزء الأول (ص / ث) .

(٢) انظر مقدمة سير أعلام النبلاء للذهبي ١٣٢/١ نقلاً عن تاريخ الإسلام له : الورقة ١٨٠٦ ، ٢٠٠ ، ١٠٠ .

(٣) الحافظ الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ٢٤٥/١ .

ذلك^(١) ثم لقد تجلى موقف الحافظ الذهبي من مسلك الصوفية في التبرك بآثار الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ووصفه للمعارضين له بأنهم من الخوارج المبتدعة، حيث قال في ترجمة الإمام أحمد رضى الله عنه أيضاً : -

(ومن آدابه : قال عبد الله بن أحمد : رأيت أبى يأخذ شعرة من شعر النبى صلى الله عليه وسلم، فيضعها على فيه يقبلها، وأحسب أنى رأيته يضعها على عينه، ويغمسها فى الماء ويشربه يستشفى به.

ورأيته أخذ قصعة النبى صلى الله عليه وسلم، ففسلها فى حب الماء، ثم شرب فيها، ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفى به، ويمسح به يديه ووجهه.

قلت : أين المتطع المنكر على أحمد ، وقد ثبت أن أبا عبد الله سأل أباه عمن يلمس رمانة منبر النبى صلى الله عليه وسلم ويمس الحجرة النبوية، فقال : لا أدري بذلك بأساً. أعاذنا الله وإياكم من رأى الخوارج، ومن البدع «^(٢).

أرأيت إلى الحافظ الذهبي إمام الجرح والتعديل ونقاده المحدثين كيف يحكم على منكرى التبرك بآثار حضرة النبى - صلى الله عليه وسلم - بأنهم يعتقون آراء الخوارج وأهل البدع ؟ ثم نستجلى رأى إمام آخر من أئمة السلفية؛ وهو الحافظ المفسر إسماعيل بن كثير- وهو تلميذ تقي الدين بن تيمية أيضاً - لتتعرف موقفه من سادات الصوفية : -

إنه يترجم للعديد من أعلام الصوفية فى تاريخه : « البداية والنهاية » ضمن أئمة أعيان الأمة، فيثنى عليهم أطيب الثناء، ويشهد بفضلهم وعلمهم وعبادتهم؛ فهاهو ذا يقول فى ترجمة الإمام الجنيد - سيد الطائفة الصوفية - (..... ولازم التعبد ففتح الله عليه بسبب ذلك علوماً كثيرة، وتكلم على طريقة الصوفية، وكان ورده فى كل يوم ثلاثمائة ركعة، وثلاثين ألف تسبيحة، ومكث أربعين سنة لا يأوى إلى

(١) الحافظ الذهبي : سير أعلام النبلاء بتحقيق صالح السر وإشراف شعيب الأرنؤوط ٢٠١/١١.

(٢) الحافظ الذهبي : سير أعلام النبلاء بتحقيق صالح السر وإشراف شعيب الأرنؤوط ٢١٢/١١.

فراش، ففتح عليه من العلم النافع والعمل الصالح بأمور لم تحصل لغيره فى زمانه، وكان يعرف سائر فنون العلم، وإذا أخذ فيها لم يكن له فيها وقفة ولا كبوة، حتى كان يقول فى المسألة الواحدة وجوهاً كثيرة لم تخطر للعلماء ببال، وكذلك فى التصوف وغيره (١).

ثم إننا لنجد ابن كثير - فى بعض تراجم الصوفية من تاريخه - يذعن لمقامات الصوفية، وأحوالهم وكراماتهم ومراتبهم فيعبر عنها بمصطلحات القوم التى ينكرها - تماماً - خصوم الصوفية؛ فتجده - مثلاً - يقول فى ترجمة الشيخ عبد الله الأرمنى رضى الله عنه : - (... أحد العباد الزهاد الذين جابوا البلاد، وسكنوا البرارى والجبال والوهاد، واجتمعوا بالأقطاب والأبدال والأوتاد، ومن كانت لهم الأحوال والمكاشفات، والمجاهدات، والسياحات فى سائر النواحي والجهات...) (٢) وهكذا يظهر للسلفية وجهها السمج الصحيح النظرة للصوفية بلا تعسف ولا غلو ولا دعوى تكفير أو تشريك لصفوة الصفوة من أولياء الرحمن.

بل إننا نجد إقرار حقيقة التصوف وتأصيل انتمائه الحقيقى للإسلام عند رأس الدعوة الوهابية محمد بن عبد الوهاب؛ إذ يقول فى جزء « الفتاوى والمسائل » من مؤلفاته : (... أعلم - أرشدك الله - أن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى الذى هو العلم النافع، ودين الحق الذى هو العمل الصالح .

إذا كان من ينتسب إلى الدين : منهم من يتعانى العلم والفقه ويقول به كالفقهاء، ومنهم من يتعانى العبادة وطلب الآخرة كالصوفية، فبعث الله نبيه بهذا الدين الجامع للنوعين) (٣).

إنه اعتراف صريح لا يقبل التزوير أو التأويل، ينطق بأن التصوف من صميم شريعة الإسلام وأن ديننا الحنيف شامل للفقه وللتصوف على السواء.

(١) ابن كثير : البداية والنهاية بتحقيق د. أحمد أبو ملحم وآخرين: ١٢١/١١ نشر دار الكتب العلمية ببيروت اللبنانية.

(٢) المصدر الأسبق نفسه : ١٥٢/١٣.

(٣) محمد بن عبد الوهاب: القسم الثالث من مجموع مؤلفاته : «فتاوى ومسائل» : جمع وتصحيح : صالح بن عبد الرحمن الأطرم، ومحمد بن عبد الرازق الدويس : المسألة الخامسة ص ٣١.

ثم إن للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رسالة ألفها في دعوة وحركه أبيه محمد بن عبد الوهاب قال في خاتمتها: «.. ولا ننكر الطريقة الصوفية وتنزيه الباطن من رذائل المعاصي المتعلقة بالقلب، والجوارح مهما استقام صاحبها على القانون الشرعي، والمنهج القويم المرعي»^(١).

هذا هو الوجه الصحيح لحقيقة العلاقة بين السلفية والصوفية نقدمه لطلاب الحقيقة بمنأى عن التعصب الجامح والأثرة المذهبية الجائرة.

إننا نقول لمن جعلوا محاربة التصوف في مقدمة أولويات خدمة الإسلام: رويدكم رويدكم .. كفكفوا عن غلوائكم، وراجعوا أنفسكم من خلال حقيقة آراء أئمتكم، وستجدون - بعد وقفة صدق وإنصاف - أن التصوف - بمفهومه الحقيقي الذي عرفه أسيادكم - هو روح الإسلام ، ونورانيته المتألقة ومثاليته الواقعية^(٢).

اقرأوا هذا في تراجم أقطاب الصوفية في تاريخ الإسلام وسير أعلام النبلاء وكتب المناقب والتراجم للذهبي والمشاهير المؤرخين كابن كثير وابن خلكان، وابن العماد وغيرهم.

واقرأوا ذلك أيضاً : في سائر مؤلفات أساطين السلفية ، مثل « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » و « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم »، ورسالة « الصوفية والفقراء » لابن تيمية، و « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراس » وكتاب « الروح » لابن القيم وكتاب « جامع العلوم والحكم » و « لطائف المعارف » لابن رجب الحنبلي، وغير ذلك.

أما الإصرار على موقف الإنكار - وإن بدا الحق كالشمس في وضوح النهار - فإنه نذير العداوة لله عز وجل، القائل في صحيح الحديث القدسي : « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب »^(٣).

(١) الشيخ محمد منظور النعماني : دعايات مكثفة ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب : ص ٧٦ / مكتبة الفرقان وأنظر: موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية للشيخ عبد العفيف بن ملك عبد الحق المكي ص ١٩-٢٠ ط: دار السلام للطباعة والنشر بالقاهرة.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه (٨٧/٤ ط : حجازي).

وإن الإنكار على الأولياء - فى حد ذاته - عقوبة لصاحبه ويخشى عليه بها من سوء الخاتمة - والعياذ بالله - وأثبت ههنا تصريحين لاثنتين من كبار العارفين فى هذا الصدد :-

فقد قال الإمام أبو تراب النخشبى رضى الله عنه : (إذا ألف العبد الإعراض عن الله تعالى صحبته الواقعة فى أولياء الله) (١).

وقال الإمام محمد المغربى الشاذلى رضى الله عنه : « إذا أراد أن يسلب إيمان عبد عند الموت سلطه على ولى يؤذيه » (٢).

وهذا التصريح الذى يبدو غريباً عند البعض إنما هو التفسير الواقعى المؤيد بكشف العارفين لقوله تعالى : « فقد آذنته بالحرب » فتعوذ بالله من الإنكار على أهل الله وصغوته فإن الإنكار عليهم سم قاتل وهلاك محقق، ولقد كشف العارفون بالله تعالى عن أسباب إنكار خصومهم عليهم ومحاربتهم لأهل التصوف، فنقل الإمام الشعرانى عن الإمام محبى الدين بن عربى رضى الله عنهما أنه كان يقول : (أصل منازعة الناس فى المعرفة الإلهية والإشارات الربانية : كونها خارجة عن طور العقول ، ومجيتها بفتة من غير نقل ونظر، ومن غير طريق العقل ، فتتكرت على الناس من حيث طريقها فأنكروها وجهلواها، ومن أنكر طريقاً من الطرق صادى أهلها؛ ضرورة لاعتقاده فسادها وفساد عقائد أهلها. وغاب عنه : أن الإنكار من الوجود، والعاقلة يجب عليه : أن يغير منكر إنكاره ليخرج عن طور الجحود؛ فإن الأولياء والعلماء العاملين قد جلسوا مع الله عز وجل حتى سلموا قيادهم إليه وألقوا نفوسهم سلفاً بين يديه، وتركوا الانتصار لأنفسهم فى وقت من الأوقات حياء من

(١) انظر مقدمة الطبقات الكبرى للإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه : ٤/١ ط: الشرقية .
وقد عقب الإمام الشعرانى رضى الله عنه على عبارة الإمام النخشبى المذكورة بالتوجيه لها بقوله : (قلت : وذلك لأنه لو كان من المقبلين بقلوبهم على حضرة الله تعالى لشم روائح أهل حضرة ربه فتأدب معهم ومدحهم وأحبهم وخدم نعالهم حتى يقرئوه إلى حضرتهم ويصير مثلهم كما هو شأن من يريد التقرب إلى ملوك الدنيا) انظر مقدمة الطبقات الكبرى : ١٠/٢ ط: الشرقية.

(٢) الإمام الشعرانى الطبقات الكبرى : ١٠٢/٢ ط: الشرقية، ١١٧/٢ ط: العلبى (الأولى).

ربوبية ربهم عز وجل، واكتفوا بقيوميته عليهم، فقام لهم بما يقومون لأنفسهم بل أعظم، وكان تعالى هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم (١).

إنها خصوصية معارف الصوفية ودقة مرامى كلامهم وعلو معانى إشاراتهم وجنوحهم إلى الرمز والمصطلحات فى كلامهم لصيانة مداركهم عن الأغيار خشية عليهم من مغبة الإنكار.

وسبب آخر من أقوى أسباب الإنكار على الأولياء رضى الله عنهم: هو تسلل الدخلاء فيهم من الأدعياء الكاذبين؛ يقول الإمام محيى الدين عليه رضوان الله: (ومما يفتح باب قلة الاعتقاد فى أولياء الله تعالى : وقوع زلة ممن تزياً بزيهم وانتسب إلى مثل طريقهم، والوقوف مع ذلك من أكبر القواطع عن الله عز وجل، وقد قال تعالى ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (٢) وقال: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٣).

فمن أين يلزم من إساءة واحد أن يكون جميع أهل حرفته كذلك ؟؟ ما هذا إلا محض عناد وتعصب بباطل (٤).

وسبب آخر من أخطر أسباب المعادة للأولياء وإنكار طريقهم : هو وقوع الدس عليهم من حسادهم وأعدائهم فى كتبهم ومصنفاتهم مما يخالف الشريعة ويبرأ منه أهل الله تعالى .

وقد أوضح الإمام الشعرانى - المفترى عليه من أعداء أولياء الله تعالى - رضى الله عنه هذه الحقيقة بجلاء فى تناوله لعقيدة الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه فى كتابه « اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد

(١) الإمام الشعرانى رضى الله عنه : مقدمة الطبقات الكبرى : ١/٩ ط : الشرفية.

(٢) سورة الأحزاب/ ٣٨.

(٣) سورة فاطر/ ١٨.

(٤) انظر مقدمة الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه : ١/٨ ط : الشرفية.

الأكابر»^(١). حيث قال عليه رضوان الله تعالى :-

وكان رضى الله عنه - أى الشيخ محيى الدين - متقيداً بالكتاب والسنة، ويقول : كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك (١١) وسيأتى قوله : « وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك ».

وهذا اعتقاد الجماعة إلى قيام الساعة، وجميع مالم يفهمه الناس من كلامه إنما هو لعلو مراقبه، وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه كما أخبرنى بذلك سيدى الشيخ أبو الطاهر المغربى نزيل مكة المشرفة ثم أخرج لى نسخة « الفتوحات » التى قابلها على نسخة الشيخ التى بخطه فى مدينة « قونية » فلم أر فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات (١١).

وقد دس الزنادقة تحت وسادة الإمام أحمد بن حنبل - فى مرض موته - عقائد زائفة، ولولا أن أصحاب الشيخ يعلمون منه صحة الاعتقاد لافتتوا بما وجدوه تحت وسادته (١١).

وكذلك دسوا على شيخ الإسلام مجد الدين الفيروزآبادى - صاحب القاموس - كتاباً فى الرد على أبى حنيفة وتكفيره، ودفعوه إلى أبى الخياط اليمنى البغوى فأرسل يلوم الشيخ مجد الدين على ذلك فكتب إليه الشيخ مجد الدين : « إن كان بكفك هذا الكتاب فأحرقه، فإنه افتراء من الأعداء وأنا من أعظم المعتقدين فى الإمام أبى حنيفة، وذكرت مناقبه فى مجلد (١١).

وكذلك دسوا على الإمام الفزالى عدة مسائل فى كتاب « الإحياء » وظفر القاضى عياض بنسخة من تلك النسخ فأمر بإحراقها (١١).

(١) هذا الكتاب من عيون مصنفات ترجمان الأولياء سيدهى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه، وهو حرى بأن يكتب بماء الذهب؛ لتجسيده حقيقة عقائد أئمة الصوفية المارفين بالله تعالى وهى بعينها - على الحقيقة - عقيدة السلف الصالح رضى الله عنهم أجمعين مبراة من دعاوى الحلول والاتحاد وما أخطأ الناس فهمه من وحدة الوجود وغير ذلك.

وكذلك دسوا عليّ أنا في كتابي المسمى بـ: « البحر المورود » جملة من العقائد الزائفة وأشاعوا تلك العقائد في مصر ومكة نحو ثلاث سنين وأنا برىء منها كما بينت ذلك في خطبة الكتاب لما غيرتها، وكان العلماء كتبوا عليه وأجازوه، فما سكنت الفتنة حتى أرسلت إليهم النسخة التي عليها خطوطهم » (١).

وهكذا تتجلى حقيقة الأمر فيما ينسب إليهم ويطنطن به أعداء الصوفية الذين يتصيدون للصوفية تلك المدسوسات والعبارات الموهمة وينسجون منها دعاوى الإلحاد والزندقة ويلصقونها بأولياء الله تعالى ، فيطلع علينا أحدهم بكتاب شيطاني يدعى « مصرع التصوف » وبآخر تحت عنوان « هذه هي الصوفية » وتصدر مجموعة من الكتب تصور التصوف بأنه الوثنية بعينها وأن أبرز مشاهير الأولياء بمصر وغيرها يمثلون شبكة تشييع وجاسوسية للدولة الفاطمية (٢) « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ».

إنها مصداقية الإنذار الإلهي « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » ، وكم حاولوا جهد أنفسهم أن يوهنوا هذا الحديث رغم أنه في صحيح البخاري .

وحينما نتساءل عن الحكمة في وقوع الإنكار على الصوفية وابتلاء الأولياء بطعن المنكرين عليهم :

فإننا نجد الجواب الشافي عند الأولياء أنفسهم ناطقاً بالحكمة الربانية، حيث يقول الإمام الشعراني قدس الله سره :-

(.. وسمعت سيدي علياً الخوّاص رضى الله تعالى عنه يقول : - لو أن كمال الدعاة إلى الله تعالى كان موقوفاً على إطباق الخلق على تصديقهم لكان الأولى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله، وقد صدقهم قوم وهداهم الله بفضلته، وحرّم آخرون فأشقاهاهم الله تعالى بعدله. »

(١) الإمام عبد الوهاب الشعراني رضى الله عنه : الهوايت والجواهر : ١/٧٧ ط : الأزهرية المصرية.

(٢) أنظر كتاب : السيد الهدوى بين الحقيقة والخرافة للدكتور أحمد صبحى منصور ص : ٢٢ وما بعدها وكتاب : السيد الهدوى : دراسة نقدية للدكتور عبد الله صابر ص ٣٠ وفيه النقل عن الكتاب السابق.

ولما كان الأولياء والعلماء على أقدام الرسل عليهم الصلاة والسلام فى مقام التأسى بهم أنقسم الناس فيهم فريقين : فريق معتقد مصدق، وفريق منتقد مكذب؛ كما وقع للرسل عليهم الصلاة والسلام ليحقق الله تعالى بذلك ميراثهم، فلا يصدقهم ويعتقد صحة علومهم وأسرارهم إلا من أراد الله عز وجل أن يلحقه بهم ولو بعد حين.

وأما المكذب لهم، المنكر عليهم؛ فهو مطرود عن حضرتهم، لا يزيده الله تعالى بذلك إلا بعداً^(١).

إن فى اعتراض المعترضين على الصوفية مزيد ترقى وعلو مقام ومضاعفة للحسنات للصفوة الأولياء ومزيد شقاء وحرمان لمخالفيهم. ومن ثم : فإن هذا الاعتراض- الذى هو نتيجة للإعراض - مطلوب لتحقيق مقتضى الحكمة الإلهية، والله در القائل :-

أيها المعرض عنا إن إعراضك منا
لو أردناك جملنا كل ما فيك يردنا

وحسب السادة الصوفية أن الله تعالى اختارهم لقربه وأتحفهم بمشاهدته، وبينما أهل القطيعة فى غيهم يعمهون، إذا هم فى بحار النور سابحون ، وينور المعرفة واصلون!! وإننى لأسجد لله عز وجل شكراً أن من على بالتوجه إلى رحاب السادة الصوفية، وحفز همتى إلى خدمة طريقهم، والتشرف بالكتابة فى مناقب شوامخ أعلامهم، والفضل فى ذلك من الله تعالى خلقاً، ولحضرة والدى وشيخى سيدى محمد أبى اليزيد المهدى - رضى الله تعالى عنه وأرضاه سبباً، فلقد وجهنى رضوان الله عليه إثر تخرجى من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر الشريف - منذ ربع قرن- إلى الكتابة عن أولياء الله تعالى ، بينما كان توجهى أولاً إلى الكتابة

(١) الإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه : الطبقات الكبرى: ٧/١ ط : الشرفية

الأدبية والتحليق في أفق الأدباء والشعراء، فتوجهت ببركة نظره ورعايته إلى تراث العارفين أنهل منها قوام الحياة الروحية ومدد السعادة الأبدية، وأخذت أترجم للسادة الصوفية وأكتب في مناقب أعلامهم على امتداد الأعصر والقرون مقالات شهرية نشرت بمجلة منبر الإسلام على مدى أربع سنوات في سلسلة ذهبية متصلة الحلقات على التوالي، حتى شاء الله تعالى أن أفرغ لإعداد رسالة « الدكتوراه » في التفسير وعلوم القرآن الكريم.

وفي تلك الحقبة: كان الإمام الأكبر الراحل العارف بالله تعالى الدكتور عبدالحليم محمود رضى الله عنه يتابع هذه المقالات التي كانت تنشر لى تحت عنوان « أعلام الصوفية » وكان صديقاً لوالدى عليه رضوان الله تعالى ومحباً له باعتباره من أعلام صوفية العصر، حيث إنه من أجل أتباع شيخى الأكبر جدى الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنه إمام الطريقة النقشبندية الخالدية الجودية، كما أنه يعد من أفراد خاصة أحباب سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه .

وذات يوم كنت بصحبة والدى عليه وضوان الله تعالى لزيارة أستاذى الشيخ عبد الحليم محمود لتهنئته بمنصب وكيل الأزهر الشريف، وإذا به يقول لوالدى- وأنا بجانبه- « أهنتك بالمبقرية الناشئة » (مشيداً بكتابتى عن « أعلام الصوفية » - وأستغفر الله تعالى من حظ النفس فى قصّ هذه الواقعة - وإنما هو تحدث بنعمة الله عز وجل على فى حصول رضا الإمام الأكبر - باعث نهضة التصوف فى الأزهر الشريف - عما أكتب.

ودارت رحى الزمن ، وألفيت نفسى - بعد ربع قرن من الزمان - يعترينى إلحاح ذاتى شديد يساوقه ويجاوبه إلحاح خارجى من عامة الأحباب محبى الأولياء؛ أن أجمع هذه المقالات التى كتبتها عن أعلام الصوفية، وأن أوثق مصادر مادتها العلمية؛ وأضيف إليها ما يتراءى لى بعد بُعد النجعة، وطول الإبحار فى تعرف مناقب الصوفية الأخيار، فاستخرت الله تعالى فى إمضاء ما عن لى وللأحباب، وازدددت بعد الاستخارة توقداً فى العزيمة، وطمحاً فى إنجاز هذا المأرب - لا سيما

بعد أن استشرت في ذلك شيخى العارف بالله تعالى الشيخ عيسى جوده شيخ الطريقة النقشبندية الخالديه الجودية رضى الله عنه وأدام لنا مدده وعطاءه، فزكى لى الإقدام على هذا العمل واستحثى على إتمامه خدمة لطريق الله ولأحاب أوليائه تعالى فأقدمت على ذلك مستهدفاً من نشر هذا المؤلف ما يلى :-

أولاً : التحبب إلى الله تعالى بحب أوليائه وتحبيبهم إلى عبادته؛ بنشر مناقبهم والتعريف بمآثرهم وكراماتهم ومناهجهم ومعارجهم فى القرب والتحقيق، مؤملاً بذلك أن أحشر معهم حيث « يحشر المرء مع من يحب ».

وثانياً : إبراز الجوهر الحقيقى للتصوف الإسلامى من خلال الترجمة لأعلامه وتجسيد نورانية السلوك الصوفى الرشيد المستمد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . لترغيب المستشرفين للنور والتحقيق فى سلوك الطريق إلى الله تعالى على هدى وبصيرة. فقد عرف التصوف بأنه : صفاء ومشاهدة. وبأنه صدق التوجه إلى الله تعالى.

وثالثاً : تجسيد حقيقة فى ذروة الأهمية لأبناء امتى فى هذا العصر : وهى أن «جوهر التصوف الحقيقى هو ذاته جوهر السلفية الحققة » وذلك يتضح منه تعرف عقائد وسلوكيات السادة الصوفية، وإطباق الكافة من أساطين علماء الأمة - لا سيما أئمة السلفية - على تزكيتهم وإجلالهم والثناء على متجهمهم، عسى أن تسفر تجلية هذه الحقيقة عن حسم النزاع المستمر بين السلفية المعاصرة وبين الصوفية.

ورابعاً : إحياء المفاهيم الصوفية الحقيقية التى تبرز مثالية الحياة الروحية فى الإسلام لا سيما تلك المفاهيم الأخلاقية التى كادت أن تندثر تحت وطأة المادية الجامحة من جانب وبفعل التعمية المصطنعة التى يثير غبارها محترفو عداوة التصوف من جانب آخر.

وخامساً : التعرف على مشارب وأذواق الخاصة - بل خاصة الخاصة - من أهل الله تعالى والنهل من مناهلهم العرفانية التى تمثل أرقى ذرى المعرفة الإنسانية المطللة على سماء الحقائق الريفانية.

وسادساً : استطرق لأبواب حل مشكلات عبارات الصوفية الموهمة مخالفة ظواهر النصوص الشرعية فى الكتاب والسنة، بمحاولة الوقوف على حقائق دلالات تلك العبارات من خلال توضيحات أئمة الصوفية أنفسهم أو بالتوفيق إلى استنباطها والحيلولة دون مناقضتها لصريح النقول الشرعية.

ثم سابعاً : إفراغ الوسع، وبذل أنفاس نفيسة من العمر فى عمل أرجو صلاحه وقبوله من الله عز وجل ليكون ذخيرة عند جنابه الأقدس فى الآخرة ، ألا وهو التعايش مع سيرة صفوة أوليائه والاقتباس من أنوارهم، واستخراج لآلى معارفهم وجواهر بحارهم لإحياء القلب بذكرهم ونفع أمة الإسلام بهديهم.

ومنهجى فى هذا الكتاب: يجمع بين خصائص المنهج التاريخى والاستقراى والتحليلى، حيث استمد المادة العلمية من مصادر التاريخ الموثقة كسير أعلام النبلاء وتذكرة الحفاظ وطبقات الصوفية، وكذا من مصادر التصوف الأصيلة كاللمع والرسالة القشيرية وعوارف المعارف والفتوحات المكية وغيرها، وأتبع بناء الأفكار الصوفية وسياقاتها المتعددة للربط بينها، وتحليل موادها العلمية - ما أمكن- وشرح ما تمس الحاجة إليه من عبارات القوم ومصطلحاتهم، وإجلاء الخصائص المنهجية لطرق أئمة القوم، وتحمية ما يتوهم نسبته إليهم مما يخالف حقيقة متجههم، وإبراز الجوانب العلمية- بعد الترجمة التاريخية للأعلام - بما يؤكد تضلمهم العلمى وتأسيس السلوك عليه، وإثبات طائفة من كراماتهم- بجوانبها المتعددة- بما يؤكد مصداقية تحققهم.

وسيكون ترتيب الأعلام تاريخياً نسبياً - حسب تتابع القرون - حيث أبدأ بمشيئة الله تعالى بنخبة من أعلام صوفية القرن الثانى الهجرى، ثم بثلة من أعلام القرن الثالث... وهكذا؛ للتعرف على طابع التصوف فى كل عصر، وللتمكن من ربط جوانب الاتصال والتأثير والتأثر لدى كل طبقة.

أما نسبة الترتيب التاريخى : فمن حيث تصنيف الأعلام فى قرونهم بحسب أغلبية الفترة الزمنية التى عاشتها الشخصية فى قرن ما - وإشتهر اقترانها بهذا

العصر غالباً - وبعد استقطاع خمسة عشر عاماً - هي ما دون البلوغ في الغالب - حيث يكون التأثير الأكبر للشخصية في القرن الذي نسبت إليه، ولن أجد عن هذا السنن إلا لضرورة ينوه عنها في موضعها إن وجدت أو لاشتهار انتماء الشخصية للقرن الذي صنفت فيه.

هذا : وأسأل الله العلي القدير متشفعاً إليه بكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم وبورثته الأولياء أن يهينى الإخلاص والتوفيق والقبول في هذا العمل ، وإن يجنبني فيه الخطأ والزلل وأن يجعله سبباً لنيل سعادة الدارين وأن ينفع به المسلمين إنه تعالى على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفقير إلى الله تعالى

جوذة محمد أبو اليزيد المهدي

من أعلام الصوفية في القرن الثاني

- ١ - سيدنا الإمام الحسن البصري ١١٠هـ
- ٢ - سيدنا مالك بن دينار ١٢٧هـ
- ٣ - سيدنا أبو حنيفة النعمان ١٥٠هـ
- ٤ - سيدنا سفيان الثوري ١٦١هـ
- ٥ - سيدنا إبراهيم بن أدهم ١٦٢هـ
- ٦ - سيدنا داود الطائفي ١٦٦هـ
- ٧ - سيدنا الليث بن سعد ١٧٥هـ
- ٨ - سيدنا الإمام مالك بن أنس ١٧٩هـ
- ٩ - سيدنا الإمام عبد الله بن المبارك ١٨١هـ
- ١٠ - سيدنا الفضيل بن عياض ١٨٧هـ
- ١١ - سيدنا سفيان بن عيينة ١٩٨هـ
- ١٢ - سيدي معروف الكرخي ٢٠٠هـ

سيدنا الإمام الحسن البصرى سيد التابعين .. وإمام الصوفية رضى الله تعالى عنه

إلى الحضرة العلياء والمحل الأسمى سمت أرواح الأولياء العارفين والصفوة الصوفية المقربين بعد أن صفت نفوسهم، وتحررت من رق السوى قلوبهم، وتقابلت الحضرتان، وسطعت أنوار الحضرة الإلهية من قوله تعالى ﴿الله نور السموات والأرض﴾، والتقت بأنوار عبودية القلب وهو ساجد سجد الأبد الذى لا رفع بعده ، فاندرج نور العبودية فى نور الربوبية:

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسال عن الخبر

★ ★ ★

وعلى القمة الشامخة نرى رجالا من أفاضل خير القرون يخلفون صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن نهلوا من ينابيعهم الدفاعة مدد النور المحمدي ليتسلسل الفيض النوراني إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم. ثم الذين يلونهم.

من هؤلاء الصفوة الأولياء والصوفية الأصفياء سيد التابعين ، وإمام الزهاد والعلماء المتحققين ، حامل لواء الدعوة إلى الله على بصيرة شيخ الإسلام الإمام أبوسعيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى رضى الله تعالى عنه .

ولقد آثرت أن يكون هذا العلم الشامخ فى صدارة شخصيات هذا الكتاب
لجملة من الاعتبارات :-

★ فأول هذه الاعتبارات أن الإمام الحسن البصرى رضوان الله عليه يعد رأس التابعين ، وهم أفضل الأمة بعد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . ومن ثم فإن إبراز صوفية هذا الإمام هو تأصيل للتصوف الإسلامى فى وجه من يزعمون خروجه عن دائرة الإسلام جهلا به أو تجاهلا لحقيقته .

★ وثانى هذه الاعتبارات : أن الإمام الحسن رضى الله عنه قد استمد مشربه الصوفى من راحة رابع الخلفاء الراشدين سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وسنده الصوفى متصل به اتصالا مباشرا - كما سيأتى توثيقه فى هذه الترجمة - ومن ثم : يثبت رفع الإسناد الصوفى متصلا إلى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم عن طريق الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين ، وبذلك تندحر دعوى خصوم التصوف القائلين بأنه بدعة لم تكن على عهد السلف .

★ وثالث هذه الاعتبارات : أن الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه كان أول من تكلم فى علم التصوف واستعمل تسمية الصوفية ، وثبت عنه ترديد هذا المصطلح العلمى الذى يزعم خصوم التصوف أنه مبتدع ولم يكن مستعملا على عهد السلف .

ومن ثم يتحقق توثيق تسمية الصوفية أيضا كما تحقق توثيق معناها وانبثاقه من حقيقة الإسلام ذاته .

ولنبدا بالتعرف على جوانب من الترجمة الشخصية للإمام الحسن البصرى رضوان الله تعالى عليه ، من حيث اسمه ، ونسبه ، وكنيته ، ولقبه ، ومولده ونشأته ، وصلته بالبيت النبوى الكريم .

فأما عن اسمه ونسبه وأسرته : فقد نطقت المصادر التاريخية بأنه الحسن ابن أبى الحسن يسار البصرى ، نسبة إلى البصرة بالعراق ؛ لأن أسرته - أصلاً كانت تقطن بليدة تدعى (ميسان) بأسفل البصرة ، بينها وبين واسط .

وكان والده (يسار) يسمى - قبل الإسلام - بـ (فيروز) ثم صار من سبى

ميسان هو وزوجه (خيرة) - أم الحسن - لرجل من بنى النجار من الأنصار (١) ثم أعتق أبوه ، وصارت أمه مولاة لأم المؤمنين سيدتنا أم سلمة المخزومية رضى الله تعالى عنها ، وصار هو مولى لسيدنا زيد بن ثابت الأنصارى رضى الله تعالى عنه .

ويذكر الذهبي - من جملة الروايات فى هذا الصدد أيضا - أن والد الإمام الحسن رضى الله عنه قد تزوج بأم الحسن بعد أن سكن المدينة المنورة ، وأعتق ، وذلك فى خلافة سيدنا عمر رضى الله تعالى عنه . (٢)

وأما كنية الإمام الحسن ولقبه : فإنه كان يكنى بأبى سعيد حيث ولد له سعيد وعبدالله ، كما رزق بنتا . (٣) وكان يلقب بـ (شيخ الإسلام) كما رواه الحافظ الذهبي ، كما كان يلقب بإمام أهل البصرة . (٤)

وأما عن مولده : فقد ولد الإمام الحسن رضى الله تعالى فى بيت السيدة أم سلمة زوج النبی صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة سنة إحدى وعشرين للهجرة النبوية لستين بقيتا من خلافة أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، ويوافق ذلك سنة ٦٤١ م .

وهنا نستشرف أول معالم العظمة من خلال تعرف مولد الإمام الحسن وبيئته الخاصة ، حيث ولد فى هذا البيت النبوى الكريم فى أعطاف العناية الإلهية تظله رعاية أم المؤمنين ، بل وينال الشرف الأعظم من رضاعه منها كما نطقت الروايات الموثقة ؛ فقد روى الحافظ الذهبي عن محمد بن سلام عن أبى عمرو الشعاب بسنده أنه قال : «كانت أم سلمة تبعث أم الحسن فى الحاجة فيبكى وهو طفل فتسكته أم سلمة بثديها (٥) ، وتخرجه إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي ٥٦٤/٤ - ٥٦٥ نشر مؤسسة الرسالة ببيروت ، وانظر أيضا : الحسن البصرى للدكتور مصلح بيومي ص ١٤٠ مل/ النهضة المصرية .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي ٥٦٤/٤ - ٥٦٥ نشر مؤسسة الرسالة ببيروت ، وانظر أيضا : الحسن البصرى للدكتور مصلح بيومي ص ١٤٠ مل/ النهضة المصرية .

(٣) المصدر الأخير : ص ١٤٨ .

(٤) انظر : تذكرة الحفاظ للذهبي ١١/١ وشذرات الذهب لابن العماد ١٣٦/١ .

(٥) جاء فى نظير هذه الرواية فى - حلية الأولياء ١٤٧/٢ - (.. فرقت عليه أم سلمة رضى الله تعالى عنها فأخذته فوضعت فى حجرها فالتقمته ثديها فدر عليه فشرب منه ، فكان يقال إن المبلغ الذى بلغه الحسن من الحكمة من ذلك اللبن الذى شربه من أم سلمة زوج النبی صلى الله عليه وسلم) .

وهو صغير ، وكانت أمه منقطعة إليها ، فكانوا يدعون له ، فأخرجته إلى عمر فدعا له وقال : اللهم فقهه في الدين ، وحببه إلى الناس . (١)

وعن نشأته وتدرجه في مراقى الفلاح وتلقيه عن أئمة من أجلاء الصحابة يقول صاحب (تذكرة الحفاظ) :-

(نشأ بالمدينة ، وحفظ كتاب الله في خلافة عثمان ، وسمعه يخطب مرات ، وكان يوم الدار ابن أربع عشرة سنة ، ثم كبر ، ولازم الجهاد ، ولازم العلم والعمل ، وكان أحد الشجعان الموصوفين ، يذكر مع قطرى بن الفجاءة ، وصار كاتباً في دولة معاوية لوالى خراسان : الربيع بن زياد ، حدث عن عثمان وعمران بن حصين ، والمغيرة بن شعبة ، وعبدالرحمن بن سمرة ، وسمرة بن جندب ، وجندب البجلي ، وابن عباس ، وابن عمر ، وأبى بكر ، وعمرو بن تغلب وجابر ، وطائفة كثيرة) . (٢)

لقد نهل الإمام الحسن رضوان الله عليه من ينابيع علوم الصحابة الذين كانوا أوعية العلم والمعرفة ، وحملة الإرث المحمدي .

لقد روى عنه الحافظ أبو نعيم في الحلية رضى الله عنه أنه كان يقول (والله لقد أدركت سبعين بديراً أكثر لباسهم الصوف) . (٣)

وكان سيدنا الحسن ممن جمع القرآن الكريم على عهد سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه ، فقد روى الذهبي أنه كان يقول : أنا يوم الدار ابن أربع عشرة سنة ، جمعت القرآن أنظر إلى طلحة بن عبيد الله) . (٤)

وكان بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يؤثر الإمام الحسن بالفتيا ، ويشيد بحفظه للعلم ، فقد روى الحافظ الذهبي عن سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سلوا الحسن ، فإنه حفظ ونسنا) . (٥)

كما روى عن سيدنا قتادة التايبي رضى الله عنه أنه قال : (ما جمعت علم الحسن إلى أحد من العلماء إلا وجدت له فضلاً عليه) . (٦)

(١) الحافظ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٦٤/٤ - ٥٦٥ .

(٢) الحافظ الذهبي : تذكرة الحفاظ : ٧١/١ نشر دار إحياء التراث العربي ببيروت .

(٣) الحافظ أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ١٣٤/٢ .

(٤) الحافظ الذهبي : سير أعلام النبلاء . ٥٧٧/٤ . (٥) (٦) المصدر السابق ٥٧٣/٤ .

ولله در محمد بن سعد إذ قال في طبقاته : (كان الحسن رحمه الله جامعاً ، عالماً ، رفيعاً ، فقيهاً ، ثقةً ، حجةً ، مأموناً ، عابداً ، ناسكاً ، كثير العلم ، فصيحاً ، جميلاً ، وسيماً) . (١)

ونجد من معالم عظمة هذا الإمام مزاجته بين العلم والعمل ، حتى لقد كان على رأس التابعين ، وانعقدت له سيادة أهل زمانه ، فقد سجل الذهبي هذه السيادة قائلاً في ترجمته : (وكان سيد أهل زمانه علماً وعملاً) . (٢)

بل إن جانب العمل كان أرجح عند الإمام الحسن من جانب العلم الذي كان يطاول عنان السماء ، ينبئنا عن ذلك قول ابن العماد : (وقيل ليونس بن عبيد : أتعرف أحداً يعمل بعمل الحسن ؟ والله ما أعرف أحداً يقول بقوله ، فكيف يعمل بمعله ؟) ثم وصفه فقال : (كان إذا أقبل فكأنه أقبل من دفن حميمه ، وإذا جلس فكأنه أسير أمر بضرب عنقه ، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له) (٣) .

إنه تجسيد حتى لشدة خوفه من ربه وخشيته من عذابه ، مع أنه كان شديد الاجتهاد في طاعة الله تعالى وعبادته ، إذ يقول الإمام المنأوى في ترجمته من طبقاته . (.. ثم صار من رؤوس العباد الأخيار ، صلى الغداة - أي الصبح - بوضوء العشاء أربعين سنة (٤) . (٥)

لقد كان كبار التابعين يشبهونه بالصحاب ، إذ يروى الذهبي عن علي بن زيد أنه قال : سمعت من ابن المسيب وعروة والقاسم وغيرهم : (ما رأيت مثل الحسن ولو أدرك الصحابة وله مثل أسنانهم ما تقدموه) . (٥)

وعن أبي بردة رضى الله تعالى عنه أنه قال : (ما رأيت أحداً أشبه بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم منه) . (٦)

(١) المصدر السابق ٥٧٢/٤ .

(٢) الحافظ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٦٥/٤ .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، ١٢٨/١ .

(٤) الإمام المنأوى : الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ١٨١/١ نشر الأزهرية للتراث .

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٧٤/٤ .

(٦) المصدر السابق ٥٧٢/٤ .

ومع ذلك كان الإمام الحسن قمة فى التواضع واستقلال قدره بالنسبة للصحابية ، حتى كان يقول رضى الله عنه : (لقد أدركت أقواما ما أنا عندهم إلا لص) (١)}}

لقد كان يرقب الصفوة الذين رباهم النبى صلى الله عليه وسلم على عينه فكانوا مثلا عليا فى العبادة وطرح الدنيا ، فكان يقول : (أدركت أقواما : ما تطوى لأحدهم فى بيته ثوب قط ، ولا أمر فى بيته بصنعة طعام قط ، وما جعل بينه وبين الأرض شيئا قط) (٢)}}

وهنا نقف وقفة لإبراز صوفية الإمام الحسن البصرى رضى الله تعالى عنه وتأصيلها علميا فى مواجهة الذين يطرحون هذا التساؤل : هل كان الإمام الحسن البصرى صوفيا ؟ نقول - بكل التحقق اليقيني - : نعم ، لقد كان الإمام الحسن إماما من كبار أئمة الصوفية على عهد التابعين رضى الله عنهم ، ولتوثيق ذلك : ندلى بهذه الأدلة والحجج والشواهد :

★ أما أولا : فقد صرح جمع كبير من أكابر العارفين بالله تعالى بأن الإمام الحسن البصرى رضوان الله عليه معدود من أئمة الصوفية أهل الطريق إلى الله تعالى ، ومن ذلك ما ذكره الإمام المناوى فى ترجمة الإمام الحسن ضمن تراجم السادة الصوفية إذ قال : وقال ابن عريى رضى الله عنه : (الحسن عندنا من أئمة أهل طريق الله جل جلاله ، ومن أهل الأسرار والإشارات) . (٣) كما عرض تاج الدين الكلاباذى اسم الإمام الحسن تحت عنوان (فى رجال الصوفية) . (٤)

★ وثانيا : إن مؤرخى التصوف ومصنفى طبقات الأولياء الصوفية قد أفردوه بالترجمة وتناول مناقبه فى مصنفاتهم ومناقبهم على أنه أحد أعلام الأئمة الصوفية، نجد ذلك فى (حلية الأولياء) لأبى نعيم و(صفة الصفوة) لابن الجوزى و(الطبقات الكبرى) للإمام الشعرانى ، و(الكواكب الدرية) للإمام المناوى ، وغير ذلك . (٥)

(١) الحافظ ابن الجوزى : صفة الصفوة : ٢٢٤/٣ نشر دار الوعى بحلب .

(٢) الإمام المناوى : الكواكب الدرية ١٨٣/١ - ١٨٤ .

(٣) انظر : الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية للإمام المناوى بتحقيق د. عبد الحميد صالح حمدان ١٨١/١ .

(٤) انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف بالباب الثانى ، و : الحسن البصرى للدكتور مصلح بيومى .

(٥) انظر الحلية ١٢١/٣ وصفة الصفوة : ٢٢٣/٢ وطبقات الإمام الشعرانى ٢٥/١ والكواكب الدرية ١٨١/١ .

★ وثالثا : تقرير الحافظ الأثبات من رؤوس السلفية - كابن الجوزي والذهبي - لصوفية الإمام الحسن وتناقل الروايات الدالة على ذلك في مصنفاتهم ، فهذا هو ذا الحافظ الذهبي يقول في ترجمة الإمام الحسن من (سير أعلام النبلاء) :-

(وقال أبوسعيد بن الأعرابي^(١) في «طبقات النساك» : كان عامة من ذكرنا من النساك يأتون الحسن ، ويسمعون كلامه ، ويذعنون له بالفقه في هذه المعاني خاصة ، وكان عمرو بن عبيد ، وعبدالواحد بن زيد من الملازمين له .

وكان له مجلس خاص في منزله لا يكاد يتكلم فيه إلا في معاني الزهد والنسك وعلوم الباطن ، فإن سألته إنسان غيرها تبرم به ، وقال : إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر. فأما حلقاته في المسجد : فكان يمر فيها الحديث ، والفقه ، وعلم القرآن ، واللغة ، وسائر العلوم .

وكان ربما يسأل عن التصوف فيجيب^(٥) ، وكان منهم من يصحبه للحديث ، ومنهم من يصحبه للقرآن والبيان ، ومنهم من يصحبه للبلاغة ، ومنهم من يصحبه للإخلاص وعلم الخصوص كعمرو بن عبيد ، وأبى جهير ، وعبدالواحد بن زيد ، وصالح المري ، وشميط ، وأبى عبيدة الناجي ، وكل واحد من هؤلاء اشتهر بحال ، يعنى في العبادة.^(١)

أترى بعد ذلك التجسيد الحي لجانب التصوف عند الإمام الحسن - ولاسيما من تقرير الحافظ الذهبي - مجالا للشك في اعتداد سيد التابعين من أعلام الصوفية الواصلين ٩٩

★ ثم رابعا : روى الحافظان الذهبي والمناوي عن سيدنا قتادة (التابعي) رضی الله عنه أن الإمام الحسن رضوان الله عليه كان في عصره من السبعة الذين

(١) عرف به محقق (السير) قائلا : (هو أحمد بن محمد بن زياد أبوسعيد بن الأعرابي البصري الصوفي المتوفى سنة ٢٤٠ هـ ، وكتابه هذا نقل عنه المؤلف في أكثر من موضع) وهذا يدل على أن الصوفية من مصادر السلفية .

(٢) لا ريب أن في ذكر الحافظ الذهبي هذه العبارة مع إقرارها دليل على إقرار علماء السلفية - المنصفين - للتصوف ورجاله .

(٣) الحافظ الذهبي . سير أعلام النبلاء ٥٧٩/٤ .

هم على قدم خليل الرحمن ، بهم يفاث الناس ، وبهم يسقون وينصرون ، وهؤلاء هم المعروفون عند الصوفية بالأبدال ، قال سيدنا قتادة (يقال : ما خلت الأرض قط من سبعة رهط بهم يسقون ، وبهم يدفع عنهم ، وإنى لأرجو أن يكون الحسن أحد السبعة) . (١)

وفى شرح الإمام المناوى لحديث : (لن تخلو الأرض من أربعين رجلا مثل خليل الرحمن فيهم تسقون وبهم تنصرون ، ما مات منهم أحد إلا بدل الله مكانه آخر) قال (قال سعيد : سمعت قتادة يقول : لسنا نشك أن الحسن منهم ، وهؤلاء هم الأبدال المشار إليهم فى حرف الباء (طس عن أنس) - أى رواه الطبرانى فى الاوسط عن أنس رضى الله عنه ، قال الهيثمى : إسناده حسن) (٢) وللتوفيق بين الحديث والأثر أقول : أن الأبدال أربعون رجلا ورؤساؤهم سبعة ، ويستمدون من المشرب الذى ينهل منه خليل الرحمن من حضرة النبى صلى الله عليه وسلم .

★ وخامسا : أن الإمام الحسن رضوان الله عليه يعد - عند أئمة من علماء الصوفية - أول من تكلم فى علم التصوف ومهد سبيله وفق الألسنة به ، ونطق بما فيه ، وأظهر أنواره ، وكشف قناعه ، وكان يتكلم بكلام لم يسمعه من أحد من إخوانه ، ف قيل له : يا أبا سعيد : إنك تتكلم فى هذا العلم بكلام لم نسمعه من أحد من غيرك فممن أخذت هذا ؟ فقال : (من حذيفة بن اليمان رضى الله عنه) ، هكذا صرح الإمام أبوطالب المكي رضى الله عنه وقال فى (قوت القلوب) الذى هو من أعظم مصادر التصوف : - (..والحسن البصرى هو إمامنا فى هذا العلم الذى نتكلم به ، أثره نقفو ، وسبيله نتبع ، ومن مشكاته نستضىء ، أخذنا ذلك بإذن الله تعالى من إمام عن إمام إلى أن ينتهى ذلك إليه ، وكان من خيار التابعين بإحسان) . (٣)

(١) المصدر السابق ٥٧٤/٤ .

(٢) انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى : ٣٠٠/٥ .

(٣) انظر : قوت القلوب لأبى طالب المكي رضى الله عنه : ٣٠٤/١ - ٣٠٥ .

وانظر أيضا : الإنسان والاسلام للشيخ حامد الطاهر العامدى حيث قال عن علم التصوف فى ص ٢١٠ - ٢١٢ : (وأول من تكلم فى هذا اللون من أتباع الراية المحمدية : الحسن البصرى قال أبو سعيد بن الأعرابى (لم يبلغنا أن أحدا تكلم فى هذه المذاهب - يعنى فى أحوال النفس - ودعا إليها ، وزاد فى بيانها وترتيبها ، وصفات أهلها مثل الحسن البصرى) .

وانظر : الحسن البصرى للدكتور مصلح بيومى : ص : ٢٦٢ - ٢٦٣ .

★ ثم إن الإمام الحسن رضوان الله عليه قد أثر عنه استعمال لفظ (صوفى) كمصطلح علمى ، وكتسمية تنازع الناس فى تأصيلها ، وتتطع المتطعون بزعم أنها لم تعرف على عهد السلف ، واتخذوا من ذلك ذريعة لإنكار التصوف والصوفية ، مع أن الإمام الحسن البصرى الذى عاش جل عمره فى القرن الأول ، وعاصر وشافه كبار الصحابة العظام رضوان الله عليهم أجمعين : روى عنه صاحب (عوارف المعارف) أنه قال : (رأيت صوفيا فى الطواف ، فأعطيته شيئا فلم يأخذه ، وقال : «معى أربعة دنانير فيكفينى ما معى» ^(١) . ومن ثم يتأصل استعمال لفظ الصوفى على عهد السلف الصالح رضى الله عنهم .

★ ولقد ربط الإمام الحسن بين مظهر الصوفى - المتمثل فى لبس الصوف - وبين حقيقته الباطنة حيث قال عليه الرضوان (ما كل الناس يصلح للبس الصوف؛ لأنه يطلب صفاء ومراقبة) ^(٢)

وقيل له ذات يوم : ما سبب لبسك الصوف ؟ فسكت ، فقيل له : ألا تجيب؟ قال (إن قلت زهدا زكيت نفسى ، أو فقرا أو ضيقا شكوت ربى) ^(٣))!! أجل : إنه مشرب الصوفية الأطهار.

★ سادسا : أن أئمة من المحققين من الصوفية نصوا على انتهاء إسنادهم فى الطريق إلى سيدنا الحسن البصرى رضى الله عنهم - وتلك حجة عملية لا تقبل المراء لانبناء أسانيد أشهر الطرق الصوفية عليها - ومبنى ذلك : على أن الإمام الحسن البصرى رضوان الله عليه قد لبس خرقة التصوف من سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

ففى تبيان الإمام نور الدين الحلبى - صاحب السيرة الحلبية - لسند طريقة سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه يقول : «والمشهور المحفوظ : أن الحسن أى البصرى - إنما لبس الخرقة من سيدنا على بن أبى طالب ، لكن نوزع فى

(١) الامام السهروردى : عوارف المعارف : ص ٤٨ .

(٢) ، (٣) انظر : الكواكب الدرية للعلامة المناوى : ١٨٥/١ .

اجتماعه بسيدنا على ، وصحح الجلال السيوطي ثبوت اجتماعه ^(١) به ، والحاصل : أن سند إلباس الخرقة ينتهي إما إلى الحسن البصري ، وإما لأويس القرني ، وقد ذكر بعضهم : أن سند سيدي عبدالقادر الجيلاني - الشهير بالكيلاني - بالخرقة ينتهي إلى الحسن البصري أيضا ، وكذلك سيدي أحمد بن الرفاعي بها ينتهي إلى الحسن البصري أيضا ، وأن الحسن البصري أخذها عن سيدنا على كرم الله وجهه. ^(٢)

وكذلك حقق بعض العلماء الجهابذة المعاصرين صحة انتهاء بعض سلاسل الطرق الصوفية إلى سيدنا على كرم الله وجهه من طريق الإمام الحسن البصري رضي الله عنه ، ومن هؤلاء : الدكتور إحسان عباس الذي صنف كتابا قيما عن الإمام الحسن البصري ، وبين فيه سلاسل الطرق الصوفية التي ينتهي إسنادها إليه ، وحصرها في ثلاثة فروع ، ووافقه على ذلك الدكتور على سامي النشار ، وهذه الفروع الصوفية هي :-

الفرع الأول : الذي يبدأ من الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه ، ومنه إلى سيدنا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، ومنه إلى سيدنا الحسن البصري ، ومنه إلى الإمام الحارث المحاسبى عليهما الرضوان . وقد اشتهرت هذه السلسلة وانتشرت في شمال أفريقيا خاصة ، ومن ثم رصد البحث الصوفي ضمن الطرق الصوفية العديدة : طريقة تعرف بـ (الطريقة البصرية) نسبة إلى الإمام الحسن البصري .

والفرع الثاني : يبدأ من حضرة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، ومنه إلى سيدنا على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ومنه إلى سيدنا الحسن البصري رضي الله عنه ، ومنه إلى سيدنا حبيب المعجمي رضي الله عنه ، إلى سيدنا داود الطائفي

(١) علق محقق النصيحة العلوية للإمام : الأستاذ أحمد عز الدين خلف الله على هذا بأنه ذهب جماعة من أهل الحديث إلى صحة إلباس الخرقة من سيدنا على كرم الله وجهه للحسن البصري ، وذهب جماعة إلى بطلان ذلك . وذكر أن ممن ذهب إلى صحة إلباسها الفاكهي في مناقب الإمام أحمد بن حجر الهيتمي ، وروى ذلك عن الهيتمي نفسه ورد على من خالفه ، ونقل التصحيح عن الحافظ السيوطي في كتابه (إتحاف المرقعة بروو الخرقة) .

(٢) انظر : النصيحة العلوية في بيان حسن طريقة السادة الأحمدية للإمام نور الدين الحلبي ص ٣٦ ط : الأولى

رضى الله عنه ، إلى سيدنا معروف الكرخي رضى الله عنه إلى سيدنا السري السقطي رضى الله عنه إلى سيدنا الإمام الجنيد الملقب بـ (سيد الطائفة الصوفية) رضى الله عنه ، وهذا الفرع يعد أحد السلاسل الثلاث التي تنتهى بها الطريقة النقشبندية إلى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والفرع الثالث : يبدأ من حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنه إلى سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه ، ومنه إلى الإمام الحسن البصري ، ومنه إلى سيدنا فرقد السبخي ، ومنه إلى سيدنا معروف الكرخي رضى الله عنهم أجمعين .^(١)

ثم سابعاً : من أدلّ الدلائل على صوفية الإمام الحسن البصري رضى الله عنه وولايته : ثبوت وقوع الكرامات على يديه . فالكرامة للوليّ : بمثابة المعجزة للنبي . والكرامة كما عرفها علماء العقيدة : هي عند جمهور أهل السنة : أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ، ولا هو مقدمة لها ، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته ، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح ، علم بها أو لم يعلم .^(٢)

كما عرفوا الولي بأنه العارف بالله تعالى وبصفاته حسب الإمكان ، المواظب على الطاعات المجتنب للمعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات المباحة .^(٣)

وقد اشتهرت عن الإمام الحسن البصري رضوان الله عليه كرامات ناطقة بولايته وصوفيته ، كما أثبت له العلامة الشيخ يوسف النبهاني رضى الله عنه : ترجمة في كتابه الفريد (جامع كرامات الأولياء) .

(١) انظر : الحسن البصري للدكتور إحسان عباس ص/ ١٠ - ١١ ، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور سامي النشار ١٦٠/٣ - ١٦١ والحسن البصري للدكتور مصلح بيومي ص/ ٣٤٦ . وانظر أسانيد طرق صوفية أخرى إلى الإمام الحسن البصري وثبوت تلقيه عن سيدنا على كرم الله وجهه : في كتاب على إمام العارفين - أو - القول الجلي هي تحقيق انتساب الصوفية إلى على ، للعلامة أحمد الصديق الفماری ص/ ١٦٩ ، ٢٠٠ ط/ السعادة الأولى) وانظر : طبقات الأولياء لابن الملقن ص/ ٤٩٣ .

(٢) ، (٣) انظر إتحاف المريد بجوهرة التوحيد (شرح عبدالسلام على الجوهره) ص/ ١٣٠ نشر مكتبة القاهرة .

★ فمن الكرامات التي تناقلتها المصادر الموثقة عن الإمام الحسن البصري رضي الله عنه ما رواه الحافظ الذهبي في ترجمته عن مطر الوراق أنه قال : (لما ظهر الحسن جاء كأنما كان في الآخرة ؛ فهو يخبر عما عاين) ^(١)))

إنها كرامة المكاشفة بأمور الآخرة ، نظير مكاشفة سيدنا حارثة حيث قال (.. وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أسمع عواء أهل النار ، فقال- اى النبي صلى الله عليه وسلم - : «عرفت فالزم ، مؤمن نور الله قلبه») . ^(٢)

★ ومن كراماته أيضا ما ذكره الذهبي في ترجمته قائلا : (.. ويروى أنه أغمى عليه ، ثم أفاق إفاقة فقال : لقد نبهتموني من جنات وعيون ، ومقام كريم) ^(٣)))

★ ومن كراماته أيضا : ما سجله الإمام النبهانى في «جامع الكرامات» قائلا : (قال الشيخ علوان الحموى في «نسمات الأسحار» : لما بلغ الحسن قتل الحجاج لسعيد بن جبير : قال : اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج . فما بقى إلا ثلاثا حتى وقع في جوفه الأكلة والدود فمات ، وهذه من كرامات الحسن البصري) . ^(٤)

★ ومن كراماته كذلك : ما نص عليه في «جامع الكرامات» بقوله (ومن كراماته - أى الحسن البصري - أنه كان ممن يصلى الصلوات الخمس بمكة - يعنى وهو في البصرة - تطوى له الأرض ، فهو من أهل الخطوة) ^(٥)))

★ ثم من الكرامات الماثورة له : ما ذكره الإمام المناوى رضي الله عنه قائلا : (ورأى بعض الأولياء ليلة موته - أى الإمام الحسن - أبواب السماء مفتحة وكأن منادياً ينادى : ألا إن الحسن البصري قدم على الله وهو عنه راض) . ^(٦)

(١) الحافظ الذهبي : سير أعلام النبلاء : ٥٧٣/٤ .

(٢) رواه البزار في مسنده ، والبيهقي في الشعب ، وله طرق عند ابن المبارك في الزهد ، وعبد الرزاق في التفسير ، والطبراني في المعجم وابن منده . انظر الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام للحافظ أبى الفضل عبد الله الصديق الفخاري ط/ دار لوران بالإسكندرية .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٥٨٧/٤ .

(٤) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى : ٢٨٩/١ ط/ دار الكتب العربية الكبرى .

(٥) المصدر السابق .

(٦) انظر : الكواكب الدرية للعلامة المناوى ١٨٥/١ - ١٨٦ بشر المكتبة الأزهرية للتراث والمصدر السابق .

هذه طائفة من كرامات هذا الإمام العارف بربه تشهد بتحقيق صوفيته وولايته. ويتبقى لنا أن نتساءل عن المشرب الصوفى والمنهج السلوكى والتحقيق الذى تحقق به الإمام الحسن البصرى وارتقى به مكانة شامخة فى قمة عصر التابعين. وصار به إماما للصوفية من بعده إلى عصرنا هذا ٩٩

إن هذا المنهج الذى يسفر عنه البحث فى حياة الإمام الحسن وسلوكه وأقواله وأشاراته يتراءى لنا مرتكزا على أربعة أسس رئيسية ، ألا وهى :-
المعرفة ، والزهد فى الدنيا ، والخوف ، والعمل للمشاهدة على أساس من تزكية النفس وصلاح القلب.

أما الأساس الأول - وهو أساس المعرفة - فعليه تتبنى بقية الأسس ، إذ لا زهد ولا خوف ، ولا عمل للمشاهدة إلا بعد الفقه والتبصر والتفكر السديد فى حقائق الأمور . ولقد كان الإمام الحسن رضوان الله عليه متفردا فى عصره فى علمه ومعرفته ، حتى لقد روى الذهبى عن عوف أنه قال (ما رأيت رجلا أعلم بطريق الجنة من الحسن) . (١)

وقد مر بنا قول الحافظ الذهبى فيه (وكان سيد زمانه علما وعملا) ، كما روى عن أبى قتادة أنه قال : (ما رأيت أحدا أشبه رأيا بعمر بن الخطاب منه - يعنى الحسن -) . (٢)

وقد كان سيدنا عمر بن عبدالمعز رضى الله تعالى عنه يكتب إلى الإمام الحسن كلما أشكل عليه أمر وهو خليفة للمسلمين فيجيبه سيدنا الحسن بثاقب عرفانه ونفاذ بصيرته وروائع وعظه ، مشاركا بدعوته فى بناء الدولة والفرد والمجتمع ، ومن بدائع رسائله إليه ما جاء فى صدرها : (اعلم أن التفكير يدعو إلى الخير والعمل به ، والندم على الشر يدعو إلى تركه ، وليس ما يفنى وإن كان كثيرا يعدل ما يبقى وإن كان طلبة عزيزا ، واحتمال المؤونة المنقطعة التى تعقب الراحة

(١) انظر سير أعلام النبلاء : ٥٧٥/٤

(٢) المصدر السابق ٥٧٤/٤ .

الطويلة خير من تعجيل راحة منقطعة تعقب مؤونة باقية ، فاحذر هذه الدار الصارعة الخادعة الخاتلة ، التي قد تزينت بخدعها وغرت بغرورها ، وقتلت أهلها بأمليها ، وتشوقت لخطابها فأصبحت كالعروس المجلوة .. (١) .

ولقد رصد العلماء والمفكرون للإمام الحسن أنه كان مؤسس (علم القلوب والخواطر) وهو ما سماه الباحثون المحدثون بـ (السيكولوجية التيسكية) وهي المبادئ التي قامت عليها العديد من الطرق الصوفية ، وصرح بعضهم بأن الإمام الحسن كان قطب الفوت في زمانه . (٢)

وقد مربنا أن أبا سعيد الأعرابي قال (لم يبلغنا أن أحدا تكلم في هذه المذاهب - يعنى في أحوال النفس - ودعا إليها ، وزاد في بيانها وترتيبها وصفات أهلها مثل الحسن البصري) . (٣)

وأما الأساس الثانى - وهو الزهد - فإنه من المقطوع به عند العلماء والباحثين فى التصوف : أن الإمام الحسن البصري هو مؤسس مدرسة الزهد فى عصر التابعين ، وقد روى الحافظ أبو نعيم عن علقمة بن مرثد رضى الله عنهما أنه قال (انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين ، فمنهم الحسن بن أبى الحسن فما رأينا أحداً من الناس كان أطول حزناً منه) . (٤)

ولقد كان من روائع حكم الإمام الحسن ونصائحه فى الزهد قوله (إن الدنيا دار عمل ، من صحبها بالنقص لها والزهادة فيها سعد بها ونفعته صحبتها ، ومن صحبها على الرغبة فيها والمحبة لها شقى بها وأجحف بحظه من الله عز وجل ، ثم أسلمته إلى ما لا صبر له عليه ولا طاقة له به من عذاب الله ، فأمرها صغير ، ومتاعها قليل ، والفناء عليها مكتوب ..) (٥)

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهاني ١٢٤/٢ - ١٢٥ .

(٢) انظر التتبع الإسلامى للدكتور محمد غلاب ص ٨٦ ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٣) انظر : الحسن البصري للدكتور مصلح بيومى ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٤) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهاني ١٢٤/٢ .

(٥) المصدر السابق ١٤٠/٢ .

وكانت حياته مرآة لقوله في الزهد ، إذ يروى الذهبي ، عن مطر أنه قال
(دخلنا على الحسن نعوذه فما كان في البيت شيء ، لا فراش ولا بساط ولا وسادة
ولا حصير إلا سرير مرمول هو عليه) ^(١)))

وكان رضى الله عنه يندد بحب الدنيا ويحذر من صرعتها ، فقد كتب يوما
إلى سيدنا عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنهما قائلا (.. أما بعد : فإن الدنيا دار
مخيفة ، إنما أهبط آدم من الجنة إليها عقوبة ، وأعلم أن صرعتها ليست كالصرعة ،
من أكرمها يهن ، ولها في كل حين قتيل ، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوى
جرحه يصبر على شدة الدواء خيفة طول البلاء ، والسلام) . ^(٢)

وأما الأساس الثالث : فهو الخوف والحزن ، ولقد كان الامام الحسن مضرب
المثل في خوفه وخشيته وطول حزنه ، حتى لقد روى ابن الجوزى عن يزيد بن
حوشب أنه قال (ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبدالعزيز ؛ كأن النار لم
تخلق إلا لهما) . ^(٣)

وروى عن يوسف بن أسباط أنه قال (مكث الحسن ثلاثين سنة لم يضحك ،
وأربعين سنة لم يمزح) . ^(٤)

وكان الإمام الحسن رضى الله عنه يرى أن الخوف والحزن إنما هما من
ثمرات صلاح القلوب ، فيقول : (لو أن بالقلوب حياة .. لو أن بالقلوب صلاحا
لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة ، إن ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامة ما
سمع الخلائق بيوم قط أكثر من عورة بادية ، ولا عين باكية من يوم القيامة) . ^(٥)

وروى ابن الجوزى أيضا عن حفص بن عمر أنه قال : بكى الحسن ، فقلنا له
ما يبكيك ؟ فقال (أخاف أن يطرحنى غدا في النار ولا يبالى) ^(٦) . إنه الخوف
العمرى بروعته وجلاله)

(١) انظر : سير أعلام النبلاء ٥٨٢/٤ .

(٢) انظر حلية الأولياء ١٤٨/٢ .

(٣) انظر صفة الصفوة لابن الجوزى : ٢٣٣/٢ .

(٤) انظر المصدر السابق ٢٣٤/٣ .

(٥) انظر المصدر السابق ٢٣٤/٣ .

(٦) انظر المصدر السابق ٢٣٣/٢ .

وأما الأساس الرابع : فإنه العمل الدؤوب على أساس من تطهير النفس
وصلاحية القلب توفقا إلى مشاهدة الله عز وجل .

★ لقد ربط الإمام الحسن رضى الله عنه مداومة العبادة لله تعالى بالفقه
والزهد ، ربط المسبب بالسبب فقال (إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا البصير بدينه
المداوم على عبادة ربه) . (١)

★ وكانت عظاته فى الحث على العمل تقع على القلوب الحية كالصواعق ،
فمنها قوله (عجبا لقوم أمروا بالزاد ونودى بالرحيل فيهم ، وحبس أولاهم عن
أخراهم وهم قعود يلعبون !! ابن آدم : السكين تحد ، والتور يسجر ، والكبش يعلف ،
كفى بالتجارب ويتقلب الأيام عظة ، ويذكر الموت زاجرا عن المعصية ، ذهبت الأيام
وبقيت الآثام قلائد فى الأعناق) (٢) !!

★ وكان يرى رضوان الله عليه أن التقصير فى العمل مرده إلى المعاصى
والخطايا ، فهى التى التى تحبس عن الطاعات ، فقد روى ابن الجوزى عن مبارك بن
فضالة أنه قال : سمعت الحسن وقال له شاب : أعيانى قيام الليل ، فقال : (قيدتك
خطاياك) (٣) !

★ وفى فضل العبادة والانقطاع إلى الله تعالى كان يقول : (من انقطع إلى الله
فى مسجد للذكر والصلاة أقام الله له الدنيا خادمة) . (٤)

وقال : (المقيم فى مسجد مرابط على طاعة الله يدفع الله به وبدعائه البلاء
عن العباد والبلاد) (٥) إنه تجسيد لفضل العبادة وتصريح من الإمام الحسن
بمشروعية التوسل بالصالحين .

(١) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى ١٨٤/١ .

(٢) المصدر السابق ١٨٢/١ .

(٣) انظر : صفة الصفوة لابن الجوزى ٢٢٥/٣ .

(٤) ، (٥) انظر الكواكب الدرية للعلامة المناوى ١٨٢/١ .

★ ولكن ما الغاية التى يقصدها الإمام لحسن بالعبادة ؟ أهو نعيم الجنة ؟ إنه هدف أعلى وأسمى من ذلك : إنه نعيم المشاهدة ، وفى ذلك يقول الإمام الحسن سيد التابعين : «لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم يوم القيامة لماتوا» . (١)

لقد أحسن الدكتور إبراهيم بسيونى فى تعليقه على هذا الأثر بقوله : (فمشاهدة الله إذاً مطمع هذا العابد ، لا الجنة بغرفها ، ولا النار بلظاها ، ورؤية الحبيب أمل يداعب الصوفية ويفنون فى سبيله أعمارهم .

وهكذا يمكن من تتبع منهج الحسن أن نجد عنده أصدق تطبيق عملى لما فى الإسلام من تصوف خلال هذا العصر ، ولهذا يعده كثير من الباحثين واضع أصول التصوف . (٢)

أجل : إنها المشاهدة التى هى مرتجى كل محب لله تعالى ، يقول مولانا القطب الشعرانى رضى الله عنه فى ترجمة سيدنا الحسن البصرى من طبقاته الكبرى (وكان رضى الله عنه يقول : المحب سكران لا يفيق إلا عند مشاهدة محبوبه) . (٣)

تلك غاية الصفوة الذين طهرت قلوبهم من السوى بتصحيح العمل لله والتحرر من أسر النفس والشيطان ؛ وقد وصف الإمام الحسن - حكيم القلوب والنفوس - الدواء للتغلب على العدوين الأكبرين قائلًا (يستعان على دفع وسوسة إبليس بالذكر والقراءة ، والنفوس : بالصوم والصلاة والمجاهدة والرياضة) . (٤)

وإذا صح القلب وطهرت النفس كان الشوق إلى اللقاء والحنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذا كان الإمام الحسن إذا ذكر حديث حنين الخشب التى كان

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ١٥٩/٢ .

(٢) د. إبراهيم بسيونى : نشأة التصوف الإسلامى ص: ١٠٧ .

(٣) سيدى الإمام عبدالوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه : الطبقات الكبرى ٢٦/١ ط/ الشرفية .

(٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١٨٤/١ .

سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جنبها يقول (يا عباد الله :
الخشبة تحن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى
لقائه). (١)

هذا هو الإمام الحسن البصري الذي كان إذا ذكر عند الإمام محمد الباقر
رضي الله عنه قال (ذاك الذي كلامه كلام الأنبياء) (٢) »
لقد لقي ربه رضوان الله عليه سنة عشر ومائة للهجرة الشريفة ، فجزاه الله
تعالى عن الأمة المحمدية خير الجزاء وحشرنا في زمرة في دار البقاء .
وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٥٧٠ / ٤ .

(٢) المصدر السابق ٥٨٥ / ٤ .

سيدي مالك بن دينار رضي الله عنه

على قلوب العارفين تنزل النفعات الإلهية لتضيء ساحتها بالأنوار الريانية وتجذبها إلى حضرة المولى عز وجل، فيظل العارف مستهلكا في بحار التحقيق فانيا في الله قائما به، فلا يشهد غير محبوبه الأزلي، ولا ينشغل إلا بمعشوقه الأبدى مصدر كل جلال وجمال وكمال.

إنه الولاء المطلق للحق تبارك وتعالى الذي خص به صفوته من خليقته، رضى الله عنهم وعنا بهم وأدخلنا بهم في الصالحين.

من أفاض أولئك الأئمة الأخيار والصوفية الأبرار قطب سماء العرفان وولي أهني ذاته في محبة الرحمن.

إنه الإمام العابد، والصوفي الزاهد والرياني الساجد، صاحب الإمداد والنور: سيدي أبويحيى مالك بن دينار. رضى الله تعالى عنه وعنا به إكراما لجناحه الشريف. سيد من سادات التابعين، وعلم من أعلام الصوفية الواصلين، وإمام تفرد في زهده وإخباته وتبته وانقطاعه لمولاه.

فكانت حكمته غذاء القلوب وسلوكه ضياء النفوس ومنهاجه اقتفاء الأثر المحمدي المنير. فلم تحد قدمه عن الطريق حتى وصل إلى مولاه وترك وراءه أثره ليسلك على دربه من تعشق الذروة وامتلك قياد نفسه ليهب عمره لله كما فعل.

وحديث المؤرخين وأصحاب الطبقات عن الإمام مالك بن دينار لم يتناول عن تاريخه الشخصي إلا شذرات قليلة سرعان ما ينتقل منها إلى سرد مآثوراته ومناقبه وإشاراته التي تصور منهجه الروحي واتجاهه الصوفي.

ففى ترجمته يذكر صاحب وفيات الأعيان أنه (من موالى بنى أسامة بن لؤى القرشى، كان عالما زاهدا كثير الورع، قنوعا لا يأكل إلا من كسبه، وكان يكتب المصاحف بالأجرة..) وقد ذكر المؤرخون - منهم ابن خلكان - أن سيدى مالكا قد توفى بالبصرة سنة إحدى وثلاثين ومائة هجرية^(١).

وقد أدرك رضوان الله عليه من الصحابة سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه، وأسند عنه عدة أحاديث روى الإمام أبو نعيم طرغا منها فى الحلية، وذكر أنه روى أيضا من جلة التابعين: عن الحسن وابن سيرين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله وغيرهم.

وقد أخرج له البخارى فى صحيحه وأخرج له الإمام أحمد وروى عنه الثقات من المحدثين^(٢).

وهكذا نجد أن سيدى مالكا قد عاش فى القرنين الأولين للإسلام حيث لا يزال عبير النبوة متضوعا فى الأرجاء لقرب العهد بإشراق شمس النبوة.

فلقى من لقى سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه، واستمد من نوره المدد المحمدى فتمثلت فيه القولة المأثورة: (إذا رأيت من رأى فقد رأيت).

وأخذ سيدى مالك يسبح فى أجواء الطهر والإيمان ويتطلع ببصيرته إلى مرتقى أعد لأمثاله من الصفوة الأصفياء.

وبينما نحن نبحث عن نقطة البداية التى كانت منطلقا لارتقائه إلى القمة، يضع التاريخ بين أيدينا رواية من تلك البداية تحمل فى إطارها طابعا رمزيا ومضمونا له أبعاده ودلالاته.

فيروى الإمام المناوى رضى الله عنه فى طبقاته عن ابن الجوزى أنه قال فى كتاب التوابين: « إنه - أى سيدى مالك - كان أولا شرطيا. وأنه سئل عن سبب توبته فقال:

(١) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان بتحقيق د. إحسان عباس: ١٢٩/٤ - ١٤٠ نشر دار صادر.

(٢) انظر حلية الأولياء: ٢٨٦/٢ ثم انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٦٢/٥ نشر مؤسسة الرسالة.

اشتريت جارية فوقعت منى أحسن موقع، وولدت منى بنتا فشغفت بها، فلما دبت على الأرض ازدادت من قلبى حبا، وألفتى وألفتها، فلما تم لها سنتان ماتت. فأكمد فى حزنها. فلما كان ليلة نصف شعبان - وكانت ليلة جمعة - رأيت فى منامى أن القيامة قامت، ونفخ فى الصور، وحشر الخلائق وأنا معهم.

فسمعت حسا فالتفت فإذا أنا بتتين عظيم أسود أزرق فتح فاه مسرعا نحوى، فمررت بين يديه جاريا مرعوبا.

فمررت بطريقى بشيخ نقى الثوب طيب الرائحة، فسلمت عليه فرد على السلام، فقلت: أجزنى من هذا التتين أبارك الله.

فبكى وقال: أنا ضعيف وهذا أقوى منى، مر وأسرع لعل الله أن يقيض لك ما ينجيك منه، فوليت هاربا على وجهى، فصعدت على شرف القيامة فأشرفت على طبقات النيران فكدت أهوى فيها من فزعى، فصاح صائح: ارجع فلسنت من أهلها.

فاطمأنت لقوله، ورجعت ورجع التتين فى طلبى فأتيت الشيخ فقلت: سألتك أن تجيرنى من هذا التتين فلم تفعل.

فبكى وقال: أنا ضعيف، ولكن سر إلى هذا الجبل فإن فيه ودائع المسلمين، فإن كان لك فيه وديعة فتصرك.

فنظرت إلى جبل مستدير من فضة، فيه طاقات مخرقة وستور معلقة، على كل طاقة مصراعان من ذهب أحمر، على كل مصراع ستر من حرير، فلما نظرت إليه هرولت والتتين من ورائى.

حتى إذا اقتربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصارع.

فأشرفوا على، فرأيت أطفالا كالأقمار، وقرب التتين منى فحرت فى أمرى.

فصاح بعض الأطفال: ويحكم، أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه.

فأشرفوا فوجا بعد فوج فإذا أنا بابنتى التى ماتت.

فنظرت إلى وقالت: أبى والله. ثم وثبت فى كفة من نور كرمية السهم حتى صارت عندى، ومدت يدها الشمال إلى يدى اليمين فتعلقت بها، ومدت يدها اليمين إلى التين فولى هاربا، ثم أجلسنى وقعدت فى حجرى، وضربت يدها اليمنى إلى لحيتى وقالت: يا أبت: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) ٩٩ فبكيت وقلت: وأنتم تمرفون القرآن؟ قالت: نحن أعرف به منكم. قلت: فأخبرينى عن التين الذى أراد أن يهلكنى؟ قالت: ذاك عمك السيئ قويته فأراد إغراقك فى نار الجحيم.

قلت فالشيخ؟ قالت: عمك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السيئ.

فقلت يا بنية: ما تفعلون فى هذا الجبل؟ قالت: أطفال المسلمين أسكنوا فيه إلى قيام الساعة ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم ((قال مالك رحمه الله: (فانتبهت فزعا مرعوبا فكسرت آلات المخالفة، وعقدت مع الله عز وجل توبة نصوحا فتاب على سبحانه). (١) هـ.

وكانت البداية النورانية، وبدأ التحول الروحى يأخذ مجراه على أثر هذا النداء الإلهى الذى سيقى من أجله تلك الواقعة: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) (٢).

إن الولاية لله عز وجل لابد أن ترتكز على دعامتين راسختين هما:
الإيمان بالله، وتقوى الله. ومقياس هذه التقوى هو خشوع القلب لذكر الله.
ولقد كان قلب سيدى مالك عامرا بالإيمان ومهيأ لإشراق نور التقوى.

ولكن اتصال الشعاع كان فى حين معلوم، وما كانت هذه الرؤيا التى رآها سيدى مالك إلا إيذانا بالولاية لله والفرار إلى الله وتخليه القلب لله تخلية يتبعها سجود القلب لله حيث قمة مراتب الولاية.

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى بتحقيق د. عبد الحميد صالح حمدان : ٢٧٧-٢٧٨.

(٢) سورة الحديد : الآية الكريمة / ١٦.

وذاق سيدي مالك منذ ذلك الحين حلاوة العبودية لله وتآلم على ما مضى من العمر سدى ولكن العناية ادخرت له ما هو فوق مطمح الآمال فجاءه الفتح الإلهي وصعد إلى علياء منازل الأبرار والمقربين.

وإذا ما تساءلنا عن الجانب السلوكي عند العارف ابن دينار لوقفنا على قمة قلما نجد نظيرا لها في الأمة.

فلقد رفع لواء الجهاد الأكبر - جهاد النفس - وشهر سيف المجاهدة على نفسه في طاعة الله فسمعه أحد أصحابه وهو يقول: (يقولون الجهاد أنا من نفسي في جهاد) لا وسمعه آخر يقول: (قال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أرايتم نفسا إن أنا أكرمتها ونعمتها وفتقتها ذمتي غدا قدام الله، وإن أنا أتعبتها وأرهقتها وأنصبتها مدحتي غدا قدام الله - يعنى نفسه -) (١).

والجهاد الروحي طريقه طويل لا ينتهى حتى تضمحل النفس وتصفو من أدرانها وشوائبها.

ولما كان حب الدنيا هو السم الزعاف الذى يطفئ نورانية الروح فقد غالب سيدي مالك نفسه بالزهد فى الدنيا وبلغ فى ذلك شأوا لا يدرك.

فما كان يتقوت إلا من عمله فى حرفتين هما كتابة المصاحف - وهى مع كونها حرفة عبادة - وعمل الخوص.

وكان يكتب المصحف فى أربعة أشهر، وكان مجموع ما يتكسبه من حرفتيه لا يعدو درهمين.

فقد روى أبو نعيم عن محمد بن عمر بن كريب قال: (ما كان لمالك بن دينار من الدنيا إلا درهمان: درهم لورقه، ودرهم ليشتري به خوصا يعمل به).

ويبلغ التقلل والزهد مداه عند سيدي مالك حتى ليروى صاحب الحلية أيضا عن أبى بلج قال: (كان آدم مالك بن دينار كل سنة ملحا بفلسين) (١)

(١) انظر حلية الأولياء للحافظ، أبى نعيم الأصفهاني ٣٦٢/٢ - ٣٦٣.

وأما عن متاع بيته: فيقول سيدي عبدالوهاب الشعراني رضي الله عنه: (وكان بيته خاليا ليس فيه غير مصحف وإبريق وحصير، ويقول: هلك أصحاب الأثقال)!! ولم يكن هذا التبري من متاع الدنيا إلا إجابة لدعائه، فقد كان يتضرع إلى ربه قائلاً: (اللهم لا تدخل بيت مالك بن دينار من الدنيا شيئاً)!!^(١)

ولنا هنا وقفة وتساؤل: ما الذي حدا بسيدي مالك بن دينار إلى هذا الزهد والتقل من الدنيا إلى هذا الحد؟

ونجد عنده الجواب ينطق بالحكمة والصواب. فهو الذي يقول: (من غلب شهوة الحياة الدنيا فذلك الذي يفرق الشيطان من ظله)!!^(٢)

وهو الذي كان يقول: (إن في بعض الكتب أن الله تعالى يقول: إن أهون ما أنا صانع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة ذكرى من قلبه)!!^(٣) وكثيراً ما كان يحذر منها قائلاً: (اتقوا السحارة - يعنى الدنيا - فإنها تسحر قلوب العلماء) وصدق الله عز وجل إذ يقول: (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى...).

ولقد كان أمر الآخرة هو الشغل الشاغل لسيدي مالك.

فقد كان يقوم في محرابه ويقول: (يا رب قد عرفت ساكن الجنة وساكن النار فنى أي الدارين مالك؟ ثم يبكي!!).

لقد كان نداء العبودية لله يدوي في أعماق سيدي مالك بكل حرارة ووجد، حتى لقد قال فيما رواه الإمام الشعراني رضي الله عنه: (لولا أخشى أن تكون بدعة لأمرت أني إذا مت أن أغل فأدفع إلى ربي مغلولاً كما يدفع العبد الأبق إلى مولاه)!! وكانت عباداته في جوف الليل سرّاً بينه وبين مولاه يناجيه بقلبه ومشاعره ويسر إليه بحديثه ونجواه.

روى أبو نعيم عن المغيرة بن حبيب - ختن سيدي مالك - يقول: (يموت مالك ابن دينار وأنا معه في الدار لا أدري ما عمله - قال - فصليت معه العشاء الآخرة ثم

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضي الله تعالى عنه ٣٢/١ الشريعة.

(٢) (٣) انظر حلية الأولياء ٣٦٠/٢ ، ٣٦٥.

جئت فلبست قطيفة فى أطول ما يكون الليل - قال - وجاء مالك فقرب رغبته فأكل ثم قام إلى آخر الصلاة فاستفتح ثم أخذ بلحيته فجعل يقول: إذا جمعت الأولين والآخرين فحرم شيبة مالك بن دينار على النار، فوالله ما زال كذلك حتى غلبتني عيني ثم انتبهت، فإذا هو على تلك الحال يقدم رجلا ويؤخر رجلا ويقول: يا رب، إذا جمعت الأولين والآخرين فحرم شيبة مالك بن دينار على النار. فما زال كذلك حتى طلع الفجر^(١). إنه فى مقام الخوف يناجى ربه من شدة خشيته مشفقاً على نفسه.

ولقد سمعه بعض أصحابه يوماً وهو يقول: (لو استطعت أن لا أنام لم أنم، مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعواناً لفرقتهم ينادون فى سائر الدنيا كلها يا أيها الناس: النار.. النار..))

وما أن يعطى مقام الخوف حقه حتى يعود إلى شاطئ الرجاء.

حتى لقد رأى فى النوم بعد وفاته فقيل له: ماذا قدمت به على الله ؟؟ قال: (قدمت بذنوب كثيرة مجاها حسن الظن بالله تعالى) وحسن الظن بالله تعالى هو قمة الرجاء.

وفى كل من مقامى الخوف والرجاء كان سيدى مالك لا يفتر عن ذكر الله. كان يقتات منه، وكان يطرب لسماع القرآن الكريم ويقول لأصحابه: (إن الصديقين إذا قرئ عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة - ثم يقول: - خذوا فيقرأ، ويقول: اسمعوا إلى قول الصادق من فوق عرشه))

ولقد كان الذكر عنده مقياساً لمحبة الله عز وجل. فهو يقول: (علامة محبة الله مداومة ذكره؛ لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره).

إن حب الله قد ملك عليه فؤاده وغمر حواسه ومشاعره، ولقد كان له مع المحبين - فى بدء أمره - وقائع ينتشى القلب من ذكرها:

فمن تلك الوقائع ما ذكره الإمام أبو طالب المكي قائلاً: (وحكى عن مالك

(١) انظر حلية الأولياء ٢: ٣٦٢.

ابن دينار - وهو مما يليق بهذا الفصل - قال، خرجت من البصرة أريد الحج إلى بيت الله الحرام. فلما بلغت مكة استحلّيت الطواف ذات ليلة.

فبينما أنا أطوف بالكعبة وأنا متلذذ بحلاوة الخلوة، فلما دنا قرب الفجر رأيت جارية تطوف أمامي وهي تقول: سيدي ومولاي: يسكري البارحة وخماري الساعة إلا غفرت لي! فقلت: يا جارية.

ما هذا الكلام في مثل هذا المقام؟

فقلت: يا مالك ما قلت إلا ما يليق بحالي، وهذه كلمة تصلح لي ولا تصلح لك. فقلت وأعجبا! كانت المسألة واحدة قصارت اثنتان، أخبرني كيف عرفت أنني مالك بن دينار؟ وكيف صلحت الكلمة لك ولم تصلح لي، فقلت، أما معرفتي بك فإن روعي وروحك التقيا تحت عرش الجبار.

فشم روعي وروحك فعرفتك حين رأيته.

وأما قولي أن هذه كلمة تصلح لي ولا تصلح لك فذاك لأنني أحب الله وأنت تريد الله، فما أبعد ما بينهما.

فأما ما يعجبك من قولي، فوالله ما قلت كذبا. شريت بكأس المحبة مسرورة فأصبحت في ميدان الشوق مخمورة، ثم ولت وهي تقول:

أسقيتي كأسا فأسكرتني	فمنك سكري لا من الكأس
قطعتني عن كل مستوحش	أفديك بالمينين والرأس ^(١)

وثمة واقعة أخرى لسيدى مالك مع أحد المحبين الإلهيين يرويها عنه الإمام المناوي رضى الله عنه قائلا:

وقال: حبس المطر فاستسقيننا مرارا فلم نسق. فانصرف الناس وبقيت بالمصلى.

(١) انظر: علم القلوب لأبي طالب المكي ص ١٩٥-١٩٦.

فلما أظلم الليل إذا أنا بأسود دقيق الساقين عظيم البطن. فصلى، ثم رفع طرفه إلى السماء فقال: سيدي: إلى كم ترد عبادك فيما لا ينقصك؟ أنفد ما عندك؟ أقسمت عليك بحبك لي إلا سقيتنا الساعة، فما تم كلامه حتى أمطرت كأفواه القرب، فخرجنا نخوض، فتعرضت له. فقلت: أما تستحي، تقول بحبك لي؟ وما يدريك أنه يحبك؟ قال: يا من اشتغل عنه بنفسه: أين كنت أنا حين خصني بتوحيده ومعرفته؟ أترأه بدأني بذلك إلا لمحبهته لي؟ ثم بادر يسئى فقلت: أرفق.

فقال: أنا مملوك على طاعة مالكي الصغير، فسألت عن مالكه، فقلت: بعنيه فقال: هذا غلام مشثوم لا همة له إلا البكاء، قلت: ولذا أريده. فاشتريته فقال: لماذا اشتريتي؟ فقلت لأخدمك. فدخل مسجداً فصلى، وقال: هذا سر كان بيني وبينك، أظهرته لمخلوق، أقسمت عليك إلا قبضتني، فإذا هو ميت^(١)!!

لقد كانت تلك الوقائع تعمق في قلب سيدي مالك مشاعر التعلق بالله وتفرغ فيه من دنان المحبة كثوساً مثلثات، وظل ينهل من تلك الدنان الممتقة حتى ارتوى وغمر شعاعها قلبه وانزاحت الأستار وتكشفت له الحقائق العلوية التي لا تتجلى إلا للصفاة، وصار ينعم في الحياة بأحلى ما في الحياة وهو معرفة الله تعالى.

استمع إليه وهو يقول: (خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قالوا: وما هو يا أبا يحيى؟ قال: معرفة الله تعالى).

إنه لم يحكم إلا عن ذوق ولم يخبر إلا عن عيان !.

ولقد روى عنه سيدي أبو طالب المكي في (علم القلوب) أنه قال: (إن في الدنيا جنة من وجدها لم يشفق معها شيئاً، قيل وما هي؟ قال: معرفة الله. وأنشد في ذلك: -

إن عرفان ذي الجلال لعز	وضياء وبهجة وسرور
وعلى العارفين أيضاً بهاء	وعليهم من الجلال نور

(١) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوي: ٢٨١/١ نشر المكتبة الأزهرية للتراث.

فهنيئاً لمن عرفك إلهي هو والله دهره مـــــــــــــرور^(١)

إنها المعرفة بالله التي لا ينالها إلا من والاه واصطفاه وأنسه واجتباها،
فاستوحش من المخلوقين لأنه مع الخالق دائماً.

فهو يقول : (من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوق فقد قل عمله
وعمى قلبه وضيع عمره) .

ويوسفنا أن نتعرف - بعض التعرف- على مقام العارف سيدي مالك من خلال
ما رواه الإمام أبو نعيم في الحلية بسنده عن سيدي مالك قال : (أتينا أنس
ابن مالك - صفوكل قبيلة - أنا وثابت البناني ويزيد الرقاشي وزياد النميري
وأشباهنا، فنظر إلينا فقال :-

ما أشبهكم بأصحاب محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم) .

ثم قال : رؤوسكم ولحاكم. ثم قال : -

والله لأنتم أحب إلي من عدة ولدي إلا أن يكونوا في الفضل مثلكم، وإني
لأدعو لكم بالأسحار^(٢)، هنيئاً لك ياسيدي مالك حظيت بصحبة سيدنا أنس بن
مالك صحابي سيدنا رسول الله-صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وسلم-،
وحظيت بحبه كولد ويدعائه لك في الأسحار ومن قبل ذلك بشهادته لك بشبهك
لصحابته صلى الله عليه وعلى آله وسلم، اللهم إنا لم نحظ بشرف صحبة هؤلاء
الأخيار فالحقنا بهم بحبنا لهم واجعلنا من السائرين على دريهم بحق حبك لهم
هناك أكرم الأكرمين.

ونعود إلى استكشاف بعض ملامح العظمة في شخصية الإمام ابن دينار
فنقف على داعية من دعاة النور والفضيلة وعلى قدوة تضافرت لها مقومات التصدر
للهداية والقيادة الروحية.

(١) انظر : علم القلوب لأبي طالب المكي بتحقيق عبد القادر عطا من ١٣٥ .

(٢) انظر حلية الأولياء ٢/ ٢٨١ - ٢٨٢ .

لقد كان سمته وحده خير ناصح ومرشد، وحاله يدل على أكثر من مقاله ومقاله أروع تجسيد للحكمة الهادية.

كان رضوان الله عليه يقول : (إنكم فى زمان أشهب، لا يبصر زمانكم إلا البصير، إنكم فى زمان كثير تفاخرهم، قد انتفخت ألسنتهم فى أهواهم وطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فاحذروهم على أنفسكم لا يوقعونكم فى شباكهم).

ومن حكمه المضيئة : (إن البدن إذا سقم لم ينجع فيه طعام ولا شراب ولا نوم ولا راحة، وكذلك القلب إذا علقه حب الدنيا لم تنجع فيه الموعظة)^(١).

وكان يقول : (كان الأبرار يتواصلون بثلاث : بسجن اللسان، وكثرة الاستغفار، والعزلة). ولأن الحكمة ثمينة لا يعرفها إلا أهلها فقد نعى سيدى مالك على المعرضين عن الحق وصوّر حالهم قائلاً : (يا هؤلاء : إن الكلب إذا طرح عليه الذهب والفضة لم يعرفها وإذا طرح إليه العظم أكب عليه، كذلك سفهاؤكم لا يعرفون الحق).

وحقاً ما قال فلقد مئى الحق فى كل زمان بالسفهاء كما مئى الأولياء بمن ينكرون عليهم ويناصبون التصوف - وهو قمة الروحية الإسلامية- العداء ولكن وليهم الله ورسوله فلا يبالون بعنت المحجوبين.

وهذا مثل من صميم الواقع يصور لنا إلى أى مدى جعل الله الأولياء سفناً للنجاة.

يروى الماروف المناوى أن سيدى مالكاً دخل لص داره فما وجد شيئاً يسرقه، فجاء ليخرج ومالك ينظره. فقال : سلام عليك، أعلم أن شيئاً من الدنيا ما حصل لك فترغب فى شيء من الآخرة؟ قال نعم . قال توضأ وصل. ففعل إلى الصبح فخرج به مالك إلى المسجد . فقال أصحابه : من هذا؟ قال : هذا جاء يسرق فسرقناه^(٢)!

(١) المصدر السابق ٢/٣٦٢.

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١/٢٧٩ نشر الأزهرية للتراث.

ومن الوقائع اللطيفة أن سيدي مالكاً سُرِق له مصحف. فوعظ أصحابه، فجعلوا يبكون، فقال : كلنا نبكى فمن سرق المصحف ١٩.

وكان من دعائه رضى الله عنه : (أنت أصلحت الصالحين، فاجعلنا صالحين حتى نكون صالحين ..).

وكان يبشر أصحابه ومن على شاكلتهم من الأخيار قائلاً : (عرس المتقين يوم القيامة) ١.

ومن مناقبه وكراماته رضى الله عنه ما رواه ابن خلكان عن أبى القاسم ابن بشكوال حيث قال فى كتابه : (المستغيثين بالله تعالى) : بينما مالك بن دينار يوماً جالس إذا جاءه رجل فقال يا أبا يحيى: أدع الله لامرأة حبلى منذ أربع سنين فقد أصبحت فى كرب شديد، فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القوم إلا أننا أنبياء ١١.

ثم قرأ ثم دعا فقال : (اللهم هذه المرأة إن كان فى بطنها جارية فأبدلها بها غلاماً فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب).

ثم رفع مالك يده ورفع الناس أيديهم . وجاء الرسول إلى الرجل وقال أدرك امرأتك فذهب الرجل فما حط مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد وعلى رقبته غلام جعد قطط ابن أربع سنين قد استوت أسنانه ما قطع سراه ١١(١).

رضى الله عنك يا سيدي مالك وعنك بك وحشرنا معكم وجعلنا من السائرين على دربكم المقتفين أثركم الشريف بجاء سيد الخلق سيدنا محمد- صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، وسلام عليكم فى العالمين وتحية منا إليكم إلى يوم الدين.

★ ★ ★

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان بتحقيق د. إحسان عباس ٥٥٢/٤.

« ٣ »

الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه

على طريق التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى دخل الصفوة الأولياء علماء الصوفية، وصوفية العلماء في ظل الصفات القدسية فغمرتهم تجليات الذات العلية، وترقّوا في منازل القلب والروح حتى فتيت حدثانهم فحفظوا بالبقاء في عين الجمع يستمدون من الأنوار الإلهية ويحظون بالنفحات القدسية أولئك أقطاب الأمة المحمدية رضي الله عنهم وعنا بهم والحقنا بزميرتهم في الدنيا ويوم الدين.

من عين تلك النخبة من رجال الله الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه: بحر من بحور الشريعة المحمدية الفراء، وعلم من شوامخ أعلام الصوفية العظماء.

إنه العالم العامل، والزاهد الواصل، والعابد المتبتل، والعارف المحقق، المجاهد في الله حق جهاده، الناهل من رحيق التقى واليقين زاده لمعاده، سيدي الإمام أبو حنيفة النعمان رضي الله تعالى عنه وعنا به في معية إمامنا الشافعي وسائر أئمة الدين عليهم الرضوان ورزقنا بهم الوصول إلى مقام الإحسان.

يتفرع الإمام الأعظم من شجرة فارسية النسب، فقد ساق المؤرخون نسب الإمام من طرق مختلفة ولكنها متلاقية عند أصله الفارسي.

فابن خلكان يسوق نسبه في الوفيات قائلاً: (الإمام أبو حنيفة النعمان ابن ثابت - رضي الله عنه - بن زوطى بن ماء، الإمام الفقيه الكوفي مولى تيم الله ابن ثعلبة، وهو من رهط حمزة الزيات)^(١).

(١) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان: ٤٠٥/٥.

ويتفق هذا السياق مع ما أخرجه عمر بن حماد بن أبى حنيفة وعلى ذلك يكون الإمام فارسي الأصل تيمى الولاء حيث إن جده زوطى كان مملوكاً لبني تيم الله ابن ثعلبة.

بيد أن رواية أخرى قد ساقها صاحب (تاريخ بغداد) بسنده عن إسماعيل ابن حماد بن أبى حنيفة- أخى عمر السابق- أنه كان يقول : (أنا إسماعيل بن حماد بن النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان، من أبناء فارس الأحرار ، والله ما وقع علينا رق قط، ولد جدى فى سنة ثمانين، وذهب ثابت إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو صغير فدعا له بالبركة فيه وفى ذريته، ونحن نرجو من الله أن يكون قد استجاب ذلك لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه فينا) هـ.

وقد وفق الإمام ابن حجر الهيئى فى مؤلفه البديع (الخيرات الحسان فى مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان) بين رأىى الحفيدين فى اختلافهما فى أن والد ثابت النعمان أو زوطى، وجده المرزبان أو ماه باحتمال أن يكون لكل اسمان أو اسم ولقب أو أن معنى زوطى: النعمان ، والمرزبان: ماه.

كما أجاب عن تخالفهما فى الرق بأن من أثبتته أراد فى الجد ومن نفاه أراد فى الأب^(١).

بيد أن إسماعيل بن حماد قد نفى وقوع الرق أصلاً إذ قال : (والله ما وقع لنا رق قط).

على أن وقوع الرق على أصل الإمام - على فرض صحته - لا يقدر بحال فى مكانه إمام استرق بعلمه وإمامته ملايين المقلدين والمتعبدين على مذهبه القويم.

كما لا يفض كذلك من سمو منزلته أنه فارسي وعجمي فحسبه أن يصدق فيه حديث الصادق المصدوق- صلى الله عليه وآله وسلم- الذى رواه الشيخان وغيرهما

(١) انظر : الخيرات الحسان فى مناقب الإمام الأعظم إلى حنيفة النعمان للعلامة شهاب الدين بن حجر الهيئى ص ٢١ ط/الخيرية، وانظر وفيات الأعيان لابن خلكان : ٤٠٥/٥.

« لو كان العلم معلقاً عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس »^(١) كما لم تمنع هارسية سيدنا سلمان رضى الله تعالى عنه من أن يقول فيه سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم: (سلمان منا آل البيت). فمقياس الفضل والقربى فى الإسلام دائماً وأبداً إنما هو التقوى مناط كل بر وتكريم كما أكد الحق تعالى فى القرآن الكريم: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

وقد ولد الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه بالكوفة سنة ثمانين للهجرة النبوية الشريفة وقد ذكر شيخ الإسلام ابن حجر فى فتاويه أن الإمام أبا حنيفة أدرك جماعة من الصحابة كانوا بالكوفة بعد مولده بها سنة ثمانين.

وإذن فهو من التابعين الذين شملهم قول الحق تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢)

وقد ذكر الذهبى أن الإمام قد رأى سيدنا أنس بن مالك رضى الله عنه وهو صغير. وقال مولانا الإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه وعنا به فى ترجمة الإمام أبى حنيفة من طبقاته: « ولد سنة ثمانين من الهجرة وتوفى ببغداد سنة خمسين ومائة وهو ابن سبعين سنة، وكان فى زمنه أربعة من الصحابة : أنس بن مالك، وعبد الله بن أبى أوفى، وسهل بن سعد، وأبو الطفيل، وهو آخرهم موتاً، ولم يأخذ عن واحد منهم »^(٣).

والمشهور عند الكثير من المحدثين أن مجرد لقيا الصحابى تثبت تابعية من لقيه، إذ يقول صاحب الخيرات الحسان: « وأكثر المحدثين على أن التابعى من لقي

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو نعيم فى الحلية ، وأخرجه كذلك الإمام أحمد عن أبى هريرة بلفظ (لو كان العلم معلقاً بالثريا لتناوله ناس من أولاد فارس).

كما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة بلفظ (لو كان الإيمان عند الثريا لثاله رجال من هؤلاء وأشار لفارس) انظر فيض القدير للمناوى ٣٢٣/٥.

(٢) سورة التوبة / ١٠٠.

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ٤٥/١ ط/ الشرفية.

الصحابي وإن لم يصحبه، وصححه النووي كابن الصلاح « وعلى ذلك تحققت تابعة الإمام الأعظم وإن لم يأخذ عمن لقيهم من الصحابة رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين.

ونشأ الإمام النعمان بالكوفة في بيت مسلم يجمع إلى متانة الدين يسر المعيشة، وكان والد الإمام خزازاً يتاجر في الخز ويختلف إلى السوق فأخذ الإمام في مهنة أبيه في مطلع حياته قبل الاشتغال بالعلم إلى أن قبيض الله له الإمام الشعبي فوجهه وجهه العلم وتوسم فيه الفتوح.

يروى المكي عن الإمام في مناقبه أنه قال : « مررت على الشعبي وهو جالس فدماني فقال لي إلى من تختلف؟ فقلت : أختلف إلى السوق . فقال : لم أعن الاختلاف إلى السوق . عنيت الاختلاف إلى العلماء فقلت له : أنا قليل الاختلاف إليهم . فقال لي : لا تغفل ، وعليك بالنظر في العلم ومجالسة العلماء، فإنني أرى فيك يقظة وحركة ، قال فوقع في قلبي من قوله، فتركنا الاختلاف إلى السوق وأخذت في العلم فنفعني الله بقوله «.

واتجه الإمام إلى مجالس العلماء تحوطه عناية الرحمن لترفعه إلى ذروة التفقه والرسوخ في العلم. فبعد أن حفظ القرآن الكريم على قراءة عاصم خاض غمار العلوم بمختلف تياراتها من حديث وتفسير وكلام ونحو وأدب وشعر، وعلا نجمه في أفق العلم وظل يغوص بذهنه المتوقد في أمهات المسائل ومشكلات علم الكلام حتى عمته شهرته الآفاق.

فيروى أنه كان يرتحل للبصرة ويمكث بها سنة كاملة ليجادل الفرق المختلفة في مسائل الاعتقاد إيماناً منه آنذاك بأولوية علم الكلام على سائر العلوم لتعلقه بأشرف الموضوعات وهو العقيدة.

لكنه قد ألهم بعد ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يخوضوا فيه مع توافر قدراتهم عليه أكثر وأعمق من غيرهم بل إنهم قد نهوا عنه فانصرفوا إلى أمور الشرع والفقه مما يتفهم في معاملاتهم مع الله ومع خلقه. فكره الإمام طرائق

الجدل، وولى وجهه شطر التفقه فى الدين. وقد أكد ذلك عنده - كما يذكر صاحب الخيرات الحسان - أنه كان يجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبى سليمان. فجاءته امرأة فسألته عن رجل يريد أن يطلق امرأته للسنة كيف يقول؟ فلم يجد جواباً فأمرها أن تسأل حماداً ثم تعلمه جوابه، ففعلت، فترك الكلام وجلس فى حلقة حماد فكان يحفظ جميع ما يقوله ويخطئ فيه أصحابه، فأجلسه بحذائه فى صدر الحلقة عشر سنين. ويكمل ابن حجر الهيئى تلك الرواية بعزم الإمام على ملازمة شيخه حماد حتى يموت. وقد كان ١.

ولم يَقْصُرَ الإمام أبو حنيفة همته على الفقه فحسب. بل إنه - كما قلت - خاض غمار العلوم الشرعية من وسائل وغايات حتى إن أبا يوسف كان يقول : (ما رأيت أعلم بتفسير الحديث من أبى حنيفة، وكان أبصر بالحديث الصحيح منى) وروى البيهقى أن الإمام النعمان كان يسأل عن الأخذ عن سفيان الثورى فيقول : اكتب عنه فإنه ثقة ما عدا أحاديث أبى إسحق عن جابر الجعفى.

كما روى الخطيب عن سيدى الإمام سفيان بن عيينة رضى الله عنه أنه قال : أول من أقعدنى للحديث بالكوفة أبو حنيفة، قال لهم هذا أعلم الناس بحديث عمرو ابن دينار ٢.

ومن ذلك تعلم منزلة الإمام أبى حنيفة الرفيعة فى علوم الأثر مما يدحض افتراء القائلين بابتداء مذهبه على الراى فحسب دون الرجوع إلى الأثر لعدم رسوخه فيه .

أما عن شيوخ الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه : فقد ذكر صاحب الخيرات الحسان أن الإمام أبا حفص الكبير قد ذكر من شيوخ الإمام أربعة آلاف شيخ وقال غيره: له أربعة آلاف شيخ من التابعين فما بالك بغيرهم، وعدّ منهم الليث بن سعد، والإمام مالك بن أنس رضى الله عنهما^(١). علماً بأنهما أيضاً من جملة الآخذين عنه.

(١) انظر : الخيرات الحسان للعلامة ابن حجر الهيئى ص/٢٥.

وتذكر المصادر أن الإمام أبا حنيفة قد تتلمذ على أيدي نخبة من صفوة علماء أهل البيت رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين، فقد ذكر الموفق المكي في مناقب الإمام أنه التقى بسيدى محمد الباقر بن سيدى على زين العابدين رضى الله عنهما وتناظر معه بالمدينة المنورة وفي نهاية المناظرة قام الإمام الباقر وعانق الإمام النعمان وقبل وجهه وأكرمه.

كما يذكر المكي كذلك أن الإمام أبا حنيفة التقى بسيدى جعفر الصادق رضى الله عنه وعنا به عند أبى جعفر المنصور قبل العداء بينه وبين العلويين.

وتذكر بعض الروايات أن الإمام أبا حنيفة قد أخذ العهد في الطريق الصوفى على يد الإمام جعفر الصادق رضى الله عنهما^(١).

وهكذا نهل الإمام أبو حنيفة من شتى المنابع التى منحت علمه ومذهبه كل الثقة فى أعين الجميع. يروى الخطيب البغدادي أن الإمام أبا حنيفة قد دخل يوماً على المنصور وعنده عيسى بن موسى. فقال للمنصور: هذا عالم الدنيا اليوم ! فقال له : يا نعمان، ممن أخذت العلم؟ قال : عن أصحاب عمر عن عمر، وعن أصحاب على عن على، وعن أصحاب عبد الله - أى ابن عباس - عن عبد الله، وما كان فى وقت ابن عباس على وجه الأرض أعلم منه.

قال : لقد استوثقت لنفسك !)).

وذكر ابن خلكان أن الإمام قد سمع عطاء بن أبى رباح، وأبا إسحق السبيعي، ومحارب بن دثار، والهيثم بن حبيب الصراف، ومحمد بن المنكدر وناقضاً مولى عبد الله بن عمر وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين.

ومن تلك المنابع الدفافة ويعناية الله واجتباؤه وصل الإمام أبو حنيفة فى العلم إلى الذروة الشامخة والإمامه الراسخة التى شهد له بها الأئمة الأئمة.

(١) انظر حديث الإمام جعفر الصادق مع الإمام أبى حنيفة رضى الله عنهما فى : (حلية الأولياء) لأبى نعيم ١٩٧/٣ .

ولعلنا نستعيز عن القصور عن التعريف بمكانة الإمام العلمية مباشرة بما ترجمه الأئمة في عباراتهم عن الإمام فيروى حرمة عن إمامنا الشافعي رضي الله عنه أنه قال : (من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة، إنه ممن وفق له الفقه) (١).

كما يروى الربيع عن مولانا الشافعي رضي الله عنه أنه قال: (الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة، ما رأيت - أي علمت - أحداً أفقه منه؛ لأنه لم يدرك أحداً أفقه منه) (٢).

ويروى الخطيب عن الإمام الشافعي عليه الرضوان أنه قال (قيل لمالك رحمه الله: هل رأيت أبا حنيفة رحمه الله؟ قال نعم رأيت رجلاً لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته) (٣).

وقال عنه سيدي الإمام عبد الله بن المبارك رضي الله عنه: (كان أفقه الناس، ما رأيت أفقه منه)، وقال النضر بن شميل : (كان الناس نيماً عن الفقه حتى أيقظهم أبو حنيفة بما فتّقه وبيّنه ولخصه)، وقال الإمام سفيان الثوري لمن جاءه من عند أبي حنيفة: (لقد جئت من عند أفقه أهل الأرض).

والآن لننتقل إلى الحديث عن صوفية الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه سلوكاً وعملاً ومنهجاً وتحقيقاً فذلك بيت القصيد الذي نريد أن نقف عنده ونتعاش مع مفهومه لنستجلي الصورة التطبيقية لعلم الإمام.

ونبدأ بجانب العبادة فنقف أمام مثل فذ للمباد القانتين المختبتين الأوّابين. ونعاين تلك الثمرة التي أثمرتها شجرة العلم لرأس مذهب في الفقه أم باجتهاده المطلق في الشريعة جمهوراً يتأبى تعداده من المسلمين على تتابع القرون ومرّ الأحقاب. لقد كان هذا الإمام آية من آيات الله في التعمد والعكوف على طاعة الله.

حتى لقد كان يسمى لدى السلف الصالح من العباد بالوعد من كثرة قيامه

بالليل (٢).

(٢) المصدر السابق : نفس الموضع.

(١) انظر الخيرات الحسان ص ٢١.

(٢) المصدر السابق ص ٢٦.

بل يذكر صاحب الخيرات الحسان وهو ثقة صدوق - وتظاهره روايات متعددة - أن الإمام أبا حنيفة قد أحيا الليل بقراءة القرآن كله في ركعة واحدة على مدى ثلاثين سنة بلا انقطاع^(١) ١١.

أجل يقول الإمام ابن حجر الهيتمي: « وحفظ عنه أن صلى صلاة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة فكان عامة الليل يقرأ جميع القرآن في ركعة واحدة يسمع بكأؤه بالليل حتى يرحمه جيرانه، وحفظ عنه أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة^(٢) » ١١.

ثم يؤكد ذلك بواقعة تاريخية رويت عن الإمام عبد الله بن المبارك رضى الله عنه إذ وقع في الإمام أبي حنيفة رجل عنده فقال له : « ويحك لا أتقع في رجل صلى خمسا وأربعين سنة خمس صلوات على وضوء واحد وكان يختم القرآن في ركعة وتعلمت ما عندي من الفقه منه ٩٩ » ١١.

والرواية التي نقلت المصادر عنها صلاة الإمام الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة وقراءة القرآن الكريم جميعه في ركعة واحدة وختم القرآن الكريم سبعة آلاف مرة في موضع وفاته ذكرت في تاريخ بغداد مسندة إلى أسد بن عمرو .

وقد روى صاحب « الخيرات الحسان » سبب إحيائه الليل كله أنه سمع رجلاً يقول لآخر: هذا أبو حنيفة الذي لا ينام ، فقال لأبي يوسف : سبحان الله! ألا ترى الله تعالى نشر لنا هذا الذكر ؟ أو ليس بقبيح أن يعلم الله تعالى منا ضد ذلك ٩٩ والله لا يتحدث الناس عنى بما لم أفعل ! فكان يحيى الليل صلاة وتضرعاً ودعاء ١١ والرواية بعينها ثابتة في تاريخ بغداد .

وكان الإمام رضى الله عنه يديم الطواف بالكعبة تقريباً إلى الله تعالى : حتى ليروى الخطيب البغدادي عن أبي مطيع أنه قال : « كنت بمكة، فما دخلت الطواف في ساعة من ساعات الليل إلا رأيت أبا حنيفة وسفياناً في الطواف » . وروى الخطيب عن أبي معاذ عن مسعر بن كدام قال : أتيت أبا حنيفة في مسجده فرأيت

(١) ، (٢) المصدر السابق ص ٣٦ .

يصلى الغداة ثم يجلس الناس فى العلم إلى أن يصلى الظهر، ثم يجلس إلى العصر، فإذا صلى العصر جلس إلى المغرب، فإذا صلى المغرب جلس إلى العشاء. فقلت فى نفسى: هذا الرجل فى هذا الشغل متى يتفرغ للعبادة؟ ألا تعاهدته الليلة، قال فتعاهدته، فلما هدأ الناس خرج إلى المسجد فانتصب للصلاة إلى أن طلع الفجر، ودخل منزله ولبس ثيابه وخرج إلى المسجد، وصلى الغداة فجلس للناس إلى الظهر ثم إلى العصر ثم إلى المغرب ثم إلى العشاء. فقلت فى نفسى إن الرجل قد تنشط الليلة الماضية للعبادة لأتعاهدته الليلة، فتعاهدته، فلما هدأ الناس خرج فانتصب للصلاة ففعل كفعله فى الليلة الأولى. فلما أصبح خرج إلى الصلاة وفعل كفعله فى يوميه حتى إذا صلى العشاء فقلت فى نفسى إن الرجل لينشط الليلة واللييلة لاتعاهدنه الليلة، ففعل كفعله فى ليلته فلما أصبح جلس كذلك. فقلت فى نفسى: لألزمته إلى أن أموت أو يموت. قال: فلألزمته فى مسجده قال ابن أبى معاذ: فبلغنى أن مسعراً مات فى مسجد أبى حنيفة فى سجود، رحمه الله تعالى» (١).

ويذكر سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه وعنا به الوقت الذى كان ينامه الإمام أبو حنيفة فى يومه، وليلته فيقول « وكان نومه دائماً ساعة بين الظهر والعصر، وفى الشتاء ساعة أول الليل» (١).

ساعة واحدة كانت لراحة الجسد وبقيّة الوقت وقف على الطاعة مباشرة. بل إن الساعة التى ينامها كانت نفسها طاعة لأنها تعطى الجسم قوة على الطاعة، ولقلة ذلك الوقت الذى ينامه الإمام لم يلحظه مسمر بن كدام كما يبدو فى روايته السابقة.

وأيضاً كان الإمام شريك يقول: « كنت معه سنة فما رأيته وضع جنبه على الفراش». إنه توفيق الله تعالى لمن أراد له لحضرته واستخلصه لنفسه من عباده واجتباها لطاعته ووصاله.

(١) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى: ٤٦/١.

وأما عن خوفه ومراقبته لله تعالى فكان عجباً عجاباً. لقد كان الليل محرابه والخلوة بالحبیب الأعلى قوته وشرابه، یظل طوال اللیل قائماً باكياً حتی یشفق علیه ویرحمه جيرانه لما یمانیه من تردد صدی الوعد فی أعماقه.

یذكر الخطیب فی تاریخه عنه أنه قام رضی الله عنه لیلة بهذه الآیة الکریمة: « بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » یردها ویبکی ویضرع. وروی الخطیب عن یزید بن الکمیت - وكان من أخیار الناس - أنه كان یقول : « كان أبو حنیفة شدید الخوف من الله تعالى، فقرأ بنا علی بن الحسن المؤذن لیلة من عشاء الآخرة (إذا زلزلت)، وأبو حنیفة خلفه، فلما قضی الصلاة وخرج الناس، نظرت إلى أبی حنیفة وهو جالس یفکر ویتنفس، فقلت أقوم، لا یشغل قلبه، فلما خرجت تركت القنديل ولم یكن فیه إلا زیت قليل، فجئت وقد طلع الفجر وهو قائم قد أخذ بلحیة نفسه وهو یقول : « یا من یجزی بمنقال ذرة خیر خیرا، ویا من یجزی بمنقال ذرة شر شرا أجر النعمان عبدك من النار وما یقرب منها من السوء وأدخله فی سعة رحمتك ». قال فأذنت فإذا القنديل یزهو وهو قائم)) فلما دخلت قال لی : تريد أن تأخذ القنديل » قال : قد أذنت لصلاة الغداة. قال : اکتب علی ما رأیت، وركع ركعتی الفجر، وجلس حتی أقمت الصلاة، وصلى معنا الغداة علی وضوء أول اللیل » .

تلك إحدى کرامات الإمام أبی حنیفة رضی الله عنه.

إنه لمن الواضح كل الوضوح أن توفیق الإمام إلى أداء تلك العبادات وعلى هذا النحو إنما هو فی ذاته من قبیل الكرامات التي أكرمه الله بها ومن ثم لا یعترض علی ذكر صلاته الخمس فرائض بوضوء واحد أو قیامه بالقرآن الکریم فی ركة.

یقول الإمام ابن حجر الهیثمی : (وختمه القرآن فی ركة لا ینافی خبر أن من قرأ فی أقل من ثلاث لم یتفقه؛ لأن محله فیمن لم تخرق له العادة فی الحفاظ والسهولة واتساع الزمن، ومن ثم جاء عن كثير من الصحابة والتابعین أنهم كانوا یختمونه فی ركة. بل ختمه بعضهم أربع مرات فیما بین المغرب والعشاء وكل ذلك من باب الكرامات فلا یعترض به » اهـ.

وقصارى القول أن « من ذاق عرف ومن جهل انحرف » وكيف يستبعد على رجال وهبوا أنفسهم لله بالكلية أن يخضع لهم نواميس الكون والطبيعة بينما هم غيروا من نواميسهم وطبائعهم إرضاءً لذاته تعالى.

وأما عن زهد الإمام وورعه فقد روى عن الإمام ابن المبارك رضى الله عنه أنه قال : قدمت الكوفة فسألت عن أزهد أهلها، فقالوا : أبو حنيفة^(١) .

وقال مكى بن إبراهيم : جالست الكوفيين فلم أر فيهم أروع منه .

وقال عنه الحسن بن صالح : « كان شديد الورع هائباً للحرام تاركاً للكثير من الحلال مخافة الشبهة، ما رأيت فقيهاً أشد منه صيانة لنفسه ولعلمه، وكان جهاده كله إلى قبره». وقد روى أن الإمام رضى الله عنه أراد مرة شراء جارية فمكث عشر سنين - وفى رواية عشرين سنة - يختار ويشاور من أى سبى سالم عن الشبهة يشتري^(٢) ! إنها شدة الورع اللائقة بمقام الإمام.

وقد روى الإمام الشعرانى- رضى الله عنه- فى طبقاته من أقوال سيدى أبى حنيفة فى الورع: « لو أن عبداً عبد الله تعالى حتى صار مثل هذه السارية ثم أنه لا يدرى ما يدخل بطنه حلال أو حرام ما تقبل منه» وأيضاً كان - عليه الرضوان - يقول فى ذم الدنيا والدعوة إلى الزهد فيها : « لو لم تبغض الدنيا إلا لأن الله تعالى يعصى فيها لكانت تبغض » ولندرة من فطن إلى تلك المفاهيم السامية وطبقها من العلماء كان الإمام يقول : « بلغنى إنه ليس فى الدنيا أعز من فقيه ورع » .

إنها مقاييس الصفوة الذين أضاء الله بهم حوالك القلوب وعمر بهم الأكوان. لقد امتحن الإمام فى ورعه حين أراد له الخليفة المنصور أن يلى القضاء فاختار الإمام أن يصلى بنار المحنة على أن يحكم بغير ما أنزل الله إرضاءً للخليفة أو رغبة فى الدنيا . فإذا بنار المحبة نور يجلى معدن الذهب ويظهره . واستعمل الإمام كل طاقاته فى البعد عن القضاء.

(١) ، (٢) انظر : الخيرات الحسان للعلامة ابن حجر الهيئى من ٤٢ .

يروى ابن خلكان أن الربيع قال : « رأيت المنصور ينزل أبا حنيفة في أمر القضاء وهو - أي الإمام - يقول : اتق الله ولا ترع في أمانتك إلا من يخاف الله، والله ما أنا مأمون في الرضا فكيف أكون مأمون الفضب ؟؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم تهددتنى أن تفرقتني في الفرات أو تلى الحكم لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ولا أصلح لذلك فقال له : كذبت ، أنت تصلح. فقال له : قد حكمت على نفسك. كيف يحل لك أن تولى قاضياً على أمانتك وهو كذاب^(١)!! وقاسى الإمام رغم ذلك من عسف الخلفاء والولاة بسبب رفضه للقضاء فقد روى الخطيب بسنده أن ابن هبيرة - والى مروان بن محمد على العراقيين - كلم أبا حنيفة أن يلى قضاء الكوفة فأبى عليه فضربه مائة سوط وعشرة أسواط وهو على الامتناع. فلما رأى ذلك خلى سبيله. ويذكر الخطيب أيضاً أن الإمام كان يخرج كل يوم أو بين الأيام فيضرب ليدخل في القضاء فيأبى، ولقد بكى في بعض الأيام فلما أطلق قال : كان غم والدتي أشد على من الضرب !!.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه إذا ذكر له ذلك بكى وترحم عليه خصوصاً بعد أن ضرب هو أيضاً ١.

لقد عانى الإمام في عهد الأمويين وفي عهد العباسيين فيروى أنه بعد المناقشة التي وقعت له مع المنصور. وذكرت آنفاً - أمر به إلى السجن فظل محبوساً إلى أن توفي في السجن سنة ١٥٠ هـ رضى الله عنه.

إنه جهاد الأئمة أقطاب الأمة. ومن ثم ارتفعت منزلته بعلمه وسلوكه وجهاده وتحققه.

إنه عبد رباني أتاه ربه من لدنه علماً واستعمله به.

يروى صاحب الطبقات السنية عن أزهر أنه قال : كنت زاهداً في علم أبى حنيفة فرأيت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وخلفه رجلان فقيل لى المتقدم هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم واللذان خلفه أبو بكر وعمر رضى الله

(١) انظر : الخيرات الحسان ص ٦٥.

عنهما . فقلت لهما أسأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن شيء ؟ فقالا لى . سل
ولا ترفع صوتك . فسألته عن علم أبى حنيفة . فقال هذا علم انتسخ من علم
الْحَضْرَةِ (١) .

إنه الإمام الذى رفع لواؤه فى عليين وظهر نوره فى الأرض فتبرك به الأئمة .
ويروى صاحب الطبقات السنية عن مولانا الإمام الشافعى أنه كان يقول : إني
لأتبرك بأبى حنيفة رضى الله عنه وأجىء إلى قبره فى كل يوم وكنت إذا عرضت لى
حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة . فما تبعد عنى حتى
تقضى ، (٢) .

ألا فليفقه المنكرون على الصوفية زيارة الأولياء والتقرب بهم إلى الله تعالى
والتبرك بآثارهم . رضى الله تعالى عنك ياسيدى أبا حنيفة وعنا بك دنيا وآخرة .

آمين

★ ★ ★

(١) انظر : الطبقات السنية فى تراجم الحنفية لتقى الدين القزى ١٦٨/١ ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
(٢) المصدر الأخير ١٦٧/١ .

أمير المؤمنين في الحديث

سيدنا سفيان الثوري رضى الله عنه

بأحرف من نور سطر التاريخ مجد أولياء الله الذين ارتفعت بهم راية الإسلام وربتهم يد الرسول الأعظم- صلى الله عليه وآله وسلم- بدءاً من الصديق الأكبر- رضى الله عنه وعنا به، وانطلاقاً وتقرعاً من البيت النبوى الشريف حتى سرى النور من الشجرة المباركة ليغذى روح الأمة التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس؛ لأنها أمة خير من أخرجها الله إلى الوجود لينير الوجود. صلى الله عليه وعلى آله ومن سرى فيه مدده الزكى، وجعلنا من خواص أحبابه فى الدنيا ويوم الدين.

ممن شرفوا وجه هذه الأمة وجسّدوا السلوك المحمدى بنورانيته المتألقة وشموخه الفذ، ومثاليته الرفيعة الإمام الورع والعارف الواصل حجة العلماء وزين البررة الأصفياء سيد عصره فى الزهد والتحقيق وواحد دهره فى المعرفة والتخلق أمير المؤمنين فى الحديث، وقدوة الأئمة المقتفين أثر الرسول- صلى الله عليه وآله وسلم- سيدى أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري رضى الله تعالى عنه وعنا به فى معيته الشريفة دنيا وآخره.

إمام توافرت له جوانب العظمة الإنسانية فى شخصيته التى قلما يظفر التاريخ بنظير لها، فأينما توجهت إلى جانب من جوانبها فاجأك الانبهار والتطامن أمام عالم دانت له رقاب أئمة العلم، وزاهد على مائدته ترى أساطين الزهد، وعارف من راحته نهل العارفون، ومصلح اجتماعى تتحسر الإنسانية الآن على فقدان نظير له ينقذها من آفات وآلامها.

وهكذا يجتمع أئمة في إمام، بل أمة في إنسان ومعاد الله من تجاوز صريح الحق إلى شطط المغالاة والإطراء . فإمامنا له في متناول اليد شواهد وشواهد تكل الأوهام عن تصورها وحجج ناطقة تخاطبنا في جدية الحق وقوته : انظروا يا أمة خاتم المرسلين (صلى الله عليه وآله وسلم) : هذا واحد من صوفية الرعيل الأول وقف على ذروة الحقيقة منارة للهدى ودعوة إلى المحمدية، ينطق لسان حاله من وحى الوراثة المحمدية الشريفة ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ ﴾^(١).

فلقد كان من أختيار التابعين للهدى المحمدي ولقد طبق التبعية السلوكية بأشرف مفاهيمها وأنبأ صورها فتجسدت فيه القدوة وتحققت فيه الإمامة.

ولد سيدي سفيان- رضى الله عنه وعنا به- سنة سبع وتسعين هـ. وخرج من الكوفة إلى البصرة سنة خمس وخمسين ومائة. وتوفي رضى الله عنه بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة هـ على ما ذكره مولانا الإمام الشعراني رضى الله عنه وعنا به في طبقاته، وهو ما صححه الحافظ الذهبي في السير^(٢).

أما حديث سائر الأئمة والمؤرخين وأصحاب الطبقات عن سيدي سفيان فهو كأمواج البحر ثراء وفيضاً وتدفعاً، وكلها يقع على كنوز من اللآلئ والجواهر المكنونة. وتبقى بعد ذلك حقيقة سيدي سفيان عند الله من المضمون بمعرفتها؛ لأنه ضمن بذاته وحياته على ما سوى ربه فقد نذر الروح لله بالكلية وأدى رسالته في خدمة دين الله كأوفى ما يكون الأداء.

فلنتعرف على رأى السادة الأئمة في الإمام سفيان. أما رأى صاحبه وقرينه الإمام الصوفي العارف سيدي سفيان بن عيينة رضى الله عنه فقد سجله الإمام أبو نعيم في (حلية الأولياء) إذ روى بسنده أنه كان يقول : (أئمة الناس بعد أصحاب

(١) سورة يوسف : ١٠٨.

(٢) انظر : سير اعلام النبلاء للذهبي : ٢٣٠/٧ ، ٢٧٩ والطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضى الله تعالى عنه ٤٠/١.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابن عباس في زمانه، والشعبي - وفي رواية
والشافعي- في زمانه، وسفيان الثوري في زمانه^(١).

ويروى عنه أيضاً أنه كان يقول : (ما رأيت أحداً أفضل من سفيان ولا أرى
سفيان مثل نفسه).

أما سيدي بشر بن الحارث رضي الله عنه فيروى الإمام أبو نعيم أنه كان
يقول: (سفيان الثوري عندى إمام الناس)^(٢).

وأما الإمام عبد الله بن المبارك رضي الله عنه فقد سئل مرة: هل رأيت مثل
سفيان الثوري؟ فقال : وهل رأى سفيان الثوري مثل نفسه ؟؟^(٣)

ثم روى عنه رضي الله عنه أنه قال : (ما أعلم على الأرض أعلم من سفيان
الثوري رحمه الله)^(٤) ولالإمام يحيى القطان رأى ذكره عنه الإمام المناوي رضي الله
عنه في طبقاته إذ روى أنه كان يقول : (سفيان فوق مالك في كل شيء) كذلك قال
الإمام الأوزاعي رضي الله عنه كلمته في الإمام سفيان إذ روى صاحب الحلية بسنده
عنه أنه كان يقول: لو قيل لى اختر رجلاً يقوم بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله
عليه وآله وسلم لاخترت لهم الثوري.

وللإمام يوسف بن أسباط شهادة جميلة جليلة للإمام سفيان. فقد روى عنه
أنه قال:

(إنى لأرى أهل زمان سفيان سيعاقبون فيقال لهم لم يكن فيكم مثل
سفيان)^(٥).

وثمة المزيد والمزيد من الآراء الصادقة التي تصور سمو شأو الإمام سفيان.
وكلها آراء لا تحيد عن جادة الحق ذرة؛ لأنها لأئمة عدول حملوا أمانة هذه الأمة
عن جدارة واستحقاق، وكل أولئك الأئمة كانوا يرون أن الإمام الثوري منة من الله

(١)، (٢) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم : ٢٥٦/٦ ، ٢٥٧.

(٣)، (٤) المصدر السابق ٢٥٧/٧ ، ٢٥٨ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٥٥/٧.

تعالى بها على هذه الأمة، فيروى عن المعافى بن عمران أنه سمع أباه يقول : (لقد من الله على أهل الإسلام بسفيان الثوري).

كما كانوا يرونه حجة الله على أهل زمانه، فيروى عن الإمام شريك أنه كان يقول : (إن الله تعالى لا يدع الأرض من حجة تكون لله على عباده، يقول ما منعكم أن تكونوا مثل فلان؟ قال شريك - ونرى أن سفيان الثوري منهم .

ونقبض عنان الاسترسال مع عبارات التقدير الحقة التي قلدها الإمام سفيان من أئمة عصره لندخل في مذكورة تفسيرية تشرح لنا في إجمال موجز حيثيات تلك الأحكام والتقديرات التي أشادت بمنزلة الإمام الثوري. وليكن البدء بالإشارة السريعة إلى الجانب العلمي عند سيدي سفيان باعتباره منطلقاً إلى العمل الموصل إلى الله عز وجل.

لقد أوضح لنا الإمام سفيان رسالة العلم وبين منزلتها وغاياتها وطرقها الصحيحة.

فصرّح بأن منزلة العلم هي أشرف المنازل التي ترتفع بالإنسان إلى الذروة وتضيء له طريق الوصول. ومن ثم فالعلم عنده وسيلة لا غاية في نفسه ولكنه أشرف الوسائل لأشرف الغايات.

ويروى صاحب الحلية عن سيدي سفيان أنه قال: (إنما يطلب العلم ليتقى الله به، فمن ثم فُضِّلَ، فلولا ذلك لكان كسائر الأشياء) (١).

وأما عن منزلة العلم فيروى وكيع بن الجراح عن سيدي سفيان أنه قال : (ليس عمل بعد الفرائض أفضل من طلب العلم)، ويرسم سيدي سفيان الخطوات الصحيحة للاضطلاع برسالة العلم كما ينبغي أن يكون فيقول عليه الرضوان (كان يقال : أول العلم الصمت، والثاني الاستماع له وحفظه، والثالث العمل به، والرابع نشره وتعليمه) (٢) .

(١) ، (٢) انظر الحلية لأبي نعيم ٣٦٢/٦.

وقد نهض سيدى سفيان فى أهل عصره معلماً وداعياً إلى العلم. يذكر العارف أبو نعيم فى حليته أن سيدى سفيان كان يقول لرجل من العرب : (اطلبوا العلم ويحكم فإنى أخاف أن يخرج منكم فيصير فى غيركم، اطلبوه ويحكم فإنه عز وشرف فى الدنيا والآخرة)^(١).

وقد جسد رسالة العالم فى ذلك التنظير الحكيم : (مثل العالم مثل الطبيب، لا يضع الدواء إلا على موضع الداء).

وقد أكد رضى الله عنه فى جزم صريح أن العلم ليس مقصوداً لنفسه ولا ينبغى إهدار كرامته لغرض دنىء ولكنه شجرة تجتنى منها الثمرة والثمرة المثلى للعلم يحددها سيدى سفيان فى قوله : (ليس طلب العلم فلان عن فلان إنما طلب العلم الخشية لله عز وجل) ومصدق قولته الحكيمه قول الحق تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء).

وبهمة الأفضاذ دخل سيدى سفيان فى محيط العلم ولا بد لطلب العلم- فى منهج سيدى سفيان- من استعداد فطرى وسلوكى يؤهل الطالب للمطلوب ولقد كان ذلك التأهيل فى نظر سيدى سفيان يتمثل فى أدب النفس لتصلح لبذرة العلم حتى تنبت نباتاً حسناً.

ولقد روى الإمام الشعرائى- رضى الله عنه- أن الإمام سفيان كان يقول : (لا ينبغى للرجل أن يطلب العلم والحديث حتى يعمل فى الأدب عشرين سنة)^(٢).

ولقد اختار سيدى سفيان طريقه فى العلم بأن يضع نفسه فى صفوف حملة الحديث النبوى الشريف وبأن يكون وعاء للسنة المحمدية فدرس الحديث بعد أن أتم بمحصلات العلم التى أعطته مفتاح الريادة والتصدر لأخطر أمانة هى حفظ الأصل الثانى من أصول الدين.

(١) المصدر السابق ٣٦٨/٦.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرائى رضى الله عنه ٤٠/١.

وانظر نحوه عن زائدة - فى الحلية ٣٦١/٧ - بلفظ (سمعت سفيان الثوري يقول (كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث تأدب وتعبد قبل ذلك بعشرين سنة)) .

فتلقن على يد أساطين الرواة والمحدثين طرق التحديث وعلم الرجال وقد
مكنه من النبوغ في ذلك موهبة نادرة في الحفظ ندر أن نجد لها نظيراً .

ففي الحلية يروى عن يحيى بن يمان أنه قال : ﴿ سمعت سفيان الثوري يقول :
(ما استودعت أذنّي شيئاً قط إلا حفظته حتى أني أمرٌ بكذا - كلمة قالها - فأسد
أذنّي مخافة أن أحفظ ما يقول) ^(١) وأيضاً روى أنه كان يقول : (ما استودعت قلبي
شيئاً قط فخانني) .

وقد بلغ ما روى عن الإمام الثوري كثرة كاثرة وذخيرة غزيرة من الأحاديث فقد
ذكر الحافظ أبو نعيم بسنده عن يحيى بن يمان أنه سمع الإمام الثوري يقول : (ما
أحدث من كل عشرة بواحدة - ومع ذلك يقول ابن يمان) وقد كتبنا عنه عشرين ألفاً
وأخبرني الأشجعي أنه كتب عنه ثلاثين ألفاً (وكان سيدي سفيان فوق إمامته في
رواية الحديث يضطلع بمهمة أخرى هي تفسير الحديث وشرحه وحل مشكله وبيان
مبهمه في وقت عني فيه جلة العلماء بالرواية فحسب .

يروى الإمام أبو نعيم عن سليمان بن حيان أنه قال : (كنا نصحب سفيان
الثوري وقد سمعنا ممن سمع منه ، إنما نريد منه تفسير الحديث) ولقد جعلت كل
تلك المميزات والمقومات من سيدي سفيان مثلاً فذا في العلم عامة وفي الحديث
خاصة . فهو مرجع الأئمة في الفقه والتفسير . وكان مجتهداً ذا مذهب مستقل في
الفقه .

وأما في الحديث فقد حصل بإجماع أئمة عصره على لقب أمير المؤمنين في
الحديث .

يروى الحافظ أبو نعيم عن شعبة أنه كان يقول : (سفيان الثوري أمير
المؤمنين في الحديث) ^(٢) . ولو حاولنا استيعاب أبعاد الجانب العلمي عند سيدي
سفيان لاحتجنا إلى مجلدات لتسجيل مجد هذا الإمام العظام .

(١) انظر الحلية لأبي نعيم ٣٦٨/٦ .

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٥٦/٦ .

فلننتقل إلى الجانب العملي لنرى انعكاس الصورة العلمية في شكلها التطبيقي، أو بمعنى آخر لنقف على الثمرة التي أثمرتها شجرة العلم في شخص سيدي سفيان. ولكي نربط النظر بالتطبيق والعلم بالعمل نسترجع ما ذكرناه آنفاً من ارتباط العلم النافع بالخشية والخوف من الله عز وجل.

فماذا كانت صورة هذا الارتباط عند سيدي سفيان ؟؟ هنا سندع الروايات والوقائع وحدها تتحدث.

يروى صاحب الحلية عن علي بن عثام قال : (مرض سفيان الثوري بالكوفة فبعث بمائه إلى متطبب بالكوفة. فلما نظر إليه قال : ويلك! بول من هذا ؟ فقال ما تسأل، انظر ما ترى فيه.

قال : أرى بول رجل قد أحرق الخوف كبده والحزن جوفه^(١)).

ويروى الحافظ أبو نعيم عن عبيد الله بن سعيد يقول : سمعت أسامة يقول : (كان من يرى سفيان الثوري يراه كأنه في سفينة يخاف الفرق، أكثر ما تسمعه يقول : يارب سلم سلم) وكان الخوف من الله يغلب عليه في صلاته حتى ربما ينقطع عنها ثم يعاودها ثانياً وهكذا. ويروى عن مزاحم بن زفر أنه قال : (صلى بنا سفيان الثوري المغرب فقراً حتى بلغ « إياك نعبد وإياك نستعين » بكى حتى انقطعت قراءته ثم عاد فقراً الحمد لله) وقد بلغ من شدة خوفه وإدمانه التفكير أنه كان يبول الدم. إذ يروى عن يوسف بن أسباط أنه قال : (كان سفيان من شدة تفكره يبول الدم)^(٢) إنها قمة الخوف من الله والخشية لله. لقد أحرق الخوف موضع الدنيا من قلبه وصهر نفسه وقتل هواه فارتقى سلم العبادة بتفان واستماتة وإخلاص وانقطاع إلى الله. فكانت الذرة من عباداته ترجع ثقل الجبال.

يروى سيدي أبو نعيم عن ابن وهب أنه قال : (رأيت الثوري في المسجد الحرام بعد المغرب صلى ثم سجد سجدة فلم يرفع رأسه حتى نودي بصلاة العشاء^(٣)) وكذلك كان سيدي سفيان يستغرق أحياناً سجوده مقدار طواف سبعة

(١) المصدر السابق : ١٤/٧.

(٢) المصدر السابق : ٢٣/٧.

(٣) المصدر السابق : ٥٧/٧.

أشواط بالكعبة، إذ يروى صاحب الحلية عن سيدي علي بن فضيل رضي الله عنه قال : (رأيت سفيان الثوري ساجداً حول البيت فطفت سبعة أشواط قبل أن يرفع رأسه)^(١).

وكان ذكر الموت دائماً يورق الإمام سفيان ويملك عليه مجامع نفسه إلى حد الذهول حتى ليروى صاحب الحلية عن أبي نعيم الأحول أنه قال : (كان سفيان الثوري إذا ذكر الموت لا ينتفع به أياماً، وإذا سئل عن شيء قال لا أدري.. لا أدري)^(٢) وكان إذا التقى بصوفية عصره يتذاكر معهم الخوف والرجاء وتتص الروايات على أنه كان يكثر مجالسة الإمام الفضيل بن عياض وسيدي إبراهيم بن أدهم وسيدي سفيان بن عيينة وسيدي شيبان الراعي والسيدة رابعة العدوية وغيرهم رضي الله تعالى عنهم وعنا بهم، وكان رضي الله عنه إذا خلا بنفسه تضرع إلى الله في استكانة وتذلل.

ويذكر الإمام الشعراني أنه كان رضي الله عنه يقول : (إلهي .. البهائم يزجرها الراعي فتزجر عن هواها وأراني لا يزجرني كتابك عما أهواه فيا سؤأتاه)^(٣) وكان سيدي سفيان مع شدة عبادته الظاهرة يرى أن مدار أمر التصوف على عبادة القلب. لقد كان يرى في بعض الليالي قائماً إلى الصباح وبعضها ينام ويقوم فقال له يوماً محمد بن يوسف الغريابي : (أرى الناس يقولون سفيان الثوري وأنت تمام بالليل؟ فقال له : اسكت، ملاك هذا الأمر التقوى)^(٤)

وفي بعض الليالي كان يستولي التفكير في الآخرة على سيدي سفيان فيستغرق إلى الصباح، إذ يروى عن سيدي يوسف بن أسباط أنه قال: قال لي سفيان الثوري- وأنا وهو في المسجد- يا يوسف ناولني المطهرة أتوضأ فناولته فأخذها بيمينه ووضع يساره على خده، ونمت فاستيقظت وقد طلع الفجر. فنظرت إليه فإذا

(١) انظر : حلية الأولياء لأبي نعيم ٥٨/٧.

(٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعراني : ٤١/١.

المطهرة على حالها . فقلت يا أبا عبد الله قد طلع الفجر . قال : لم أزل منذ ناولتني المطهرة أفكر في الآخرة إلى هذه الساعة).

كانت العبادة عنده بشتى ضروبها هي القوت والغذاء ولقد عرفت عنه شدة المجاهدة وبذل الجهد في الطاعة، وقد سئل عن جهده الخارق للعادة فأجاب بمنطق العلم ونور العرفان فقد نقل الإمام التبهاني رضي الله عنه في جامع الكرامات عن الإمام الياقضي رضي الله عنه هذا الواقعة الفريدة قائلاً :

(حكى أن الثوري كلمه أصحابه لما رأوا عليه من شدة الخوف وكثرة المجاهدة والجهد فقالوا له يا شيخ، لو نقصت عن هذه المجاهدة التي نراك بها نلت مرادك إن شاء الله تعالى . فقال لهم كيف لا اجتهد كل الاجتهاد وقد بلغني أن أهل الجنة يكونون في منازلهم فيتجلى لهم نور عظيم تضيء له الجنان الثمان من شدة ضيائه وحسن بهائه فيظنون أن ذلك النور من قبل الرحمن سبحانه وتعالى فيخرون ساجدين فينادي مناد : أرفعوا رؤوسكم ليس هذا الذي تظنون إنما هو نور حورية تبسمت في وجه زوجها فظهر من تبسمها هذا النور . فليس يا إخواني يلام من اجتهد في طلب الحور العسان فكيف بمن طلب المولى الرحمن؟؟(١)

وهكذا تتوافر الداعية إلى العبادة ولكنها لذات الله لا لطلب نعيم أو خوف عذاب الهم بل طلباً للرضا واتقاء للسخط .

كذلك عرف عن سيدي سفيان شدة الورع حتى كان حجة وإماماً للورعين في عصره . وقد حدا به ورعه إلى الفرار من السلاطين والأمراء . وقد كان هارون الرشيد يتمنى أن يجلس معه ويفدق عليه لكن الإمام سفيان كان يرسل إليه يزجره من بعيد ويحذره من ظلم الرعية، وكان الرشيد يبعث في المدائن والأمصار من ينادي : من جاء بسفيان فله عشرة آلاف(٢) . لكن سيدي سفيان كان يرضى بنفسه على بساط الخلفاء اتقاء الركون إلى الدنيا ولكنه إذا التقى مصادفة بأحدهم حاسبه في

(١) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام التبهاني ٩٨/٢ ط المجلس (الثانية) .

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبي نعيم : ١/٧ .

غير هواة. فذات مرة قال للمهدي حين التقى به : كم أنفقت في حجتك؟ فقال ما أدري. فقال له لكن عمر بن الخطاب يدري. أنفق ستة عشر ديناراً فاستكثرها!!.

أما يحق بعد ذلك لمعاصر سيدي يحيى بن يمان أن يقول ما قال : (اتعب سفيان القراء بعده، ولا رأينا مثل سفيان، ولا رأى سفيان مثل نفسه، أقبلت عليه الدنيا فانصرف بوجهه عنها)^(١) ١٩٩.

بلى والله وقد روى صاحب الحلية بسنده عن مصعب بن المقدم أنه قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في النوم آخذاً بيد سفيان الثوري وهو يجزيه خيراً ويقول : حسن الطريقة)^(٢) ١١٠.

هذه شهادة من النبي صلى الله عليه وسلم - ورؤياه حق - بحُسن طَريقته.

لقد تقطعت أفلاده من خشية الله فعبد وزهد وعرف واتصل وجلس على منصة الخصوصية في صفوف ورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام وظل منقطعاً لربه حتى لحق به مع المقربين الأخيار وأمن في جوار الله وجاءت البشرية لخلفه وأتباعه. فيروى سيدي أبو نعيم عن القاسم بن الحكم أنه قال : (لما مات سفيان الثوري جاء شيخ أبيض الرأس واللحية حتى قام على قبره وهو يدفن فقال: ياسفيان، آمنت مما كنت تخاف . وقدمت على من كنت تعبد والله ما يسرنا أن يلي حسابنا أحد غير الله تعالى، ثم لم ير. فكانوا يرونه الخضر)^(٣).

كما روى أبو نعيم عن قبيصة أنه كان يقول : (رأيت سفيان الثوري في النوم فقلت: ما فعل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربي كفاحاً فقال لي	هنيئاً رضائي عنك يا ابن سعيد
فقد كنت قواماً إذا أقبل الدجى	بعبرة مشتاق وقلب عميد
هدونك فاختر أي قصر أردته	وززني فإني منك غير بعيد ^(٤)

(١) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٦٨/٧.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٨٥/٦.

(٣) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٦٢/٧.

(٤) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٧٤/٧.

ولعله يجعل بنا ألا نترك الحديث عن سيدى سفيان دون أن نذكر له كرامة أخرى، فهو كريم ومكرم عند الله، والكرامة دليل الإكرام . والرواية للحافظ أبى نعيم رضى الله عنه الذى حفظ لنا تراثاً زاخراً عن سيدى سفيان فيروى بسنده عن عبد الرزاق أنه سَمِعَ يقول : (بعث أبو جعفر - أى المنصور - الخشابين حين خرج إلى مكة فقال : إن رأيتم سفيان الثوري فأصلبوه . قال : فجاء النجارون فنصبوا الخشب . ونودى سفيان وإذا رأسه فى حجر فضيل بن عياض ورجلاه فى حجر ابن عيينه . فقالوا له يا أبا عبد الله : اتق الله ولا تشمت بنا الأعداء . قال فتقدم إلى الأستار - أستار الكعبة - ثم دخله فأخذه ، وقال هربت منه إن دخلها أبو جعفر . قال فمات قبل أن يدخل مكة . فأخبر بذلك سفيان فلم يقل شيئاً)^(١) .

وذكر الإمام أبو نعيم أن عبد الرحمن بن مهدي سمع يقول : لما أن غسلت سفيان الثوري وجدت في جسده مكتوباً : (فسيكفيكم الله)^(٢)

رضى الله عنك يا إمام الأمة يا وارث النور المحمدي يا سيدى سفيان ورضى عنا بك ومعك وأمدنا بمددك وألحقنا بك فى زمرك فى معية سيد الخلق صلى الله عليه وسلم .

اللهم آمين.

★ ★ ★

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٤١/٧-٤٢ .

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٢٧١/٦ .

سلطان الزاهدين

سيدى إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه

على مشارف الفتح الإلهى ترنو بصائر أهل الولاية والاصطفاء إلى آفاق النور والضياء، وبقلوب تحرقت شوقاً إلى مولاهما واصل السالكون خطاهم على درب المحبة عبر أشواك المجاهدات وهجران المخالفات فاستردت أرواحهم فى الطاعات ذاتيتها النورانية، وتحررت من رق الأشياء بالكلية. هنالك هُبْتُ عليهم نفحات القبول وأديرته لهم كاسات الوصول وصاروا جنداً للحق ومنازل للخلق وأئمة يهتدى بهم إلى جناب رب العالمين.

من خاصة أولئك الأولياء المقربين والأقطاب العارفين: سلطان الزاهدين سيدى إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه . إمام من أئمة السلوك الصوفى الرفيع وأحد أفضاذا الرعيل الأول الذين انطبعت فيهم الصورة المثلى للنهج المحمدى الوضوء وتمثلوا فى سلوكهم أعلى مثل للاقتداء. فكانت حياتهم صفحات من نور أينما نقلبها تتعكس أضواؤها لترسم لنا النماذج، المثلى لمدرسة السلف الصالح رضى الله عنهم أجمعين.

وسيدى إبراهيم بن أدهم- رضوان الله عليه- له فى تاريخ التصوف مكانة سامقة لاقت من التبجيل والإعجاب ما لم تظفر به إلا قلة من المتفردين فى ذروة الزهد والفتوة والإيثار. ولسمو منزلة سيدى إبراهيم فى مقام الزهد خاصة عرف بسلطان الزاهدين. وفى ترجمته يقول العارف الهجويزى فى (كشف المحجوب) :
(كان أوحده زمانه ، وسيد أقرانه فى عصره ، وملك ملوك الرجال ، وكان مرید الخضر)^(١)

(١) انظر : كشف المحجوب للهجويزى دراسة وترجمة وتعليق د. إسماعيل هديلى ، ٢١٤/١ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

والى جانب الزهد الذى تحقق به حتى بلغ فيه مداه فإن ثمة جوانب عديدة ذات أصالة روحية عميقة قد حفلت بها هذه الشخصية العظيمة. وسنحاول أن نتعرف عليها- بعض التعرف- وستبهرنا أضواؤها دون شك؛ لأنها تملك خواص الجاذبية الروحية. وتلك سمة لا تتوافر إلا فى أولئك الذين أسبغت عليهم العناية لحل أنوارها.

ونتساءل عن أول الطريق كيف عرف سيدى إبراهيم الطريق إلى مولاه؟.

ويجيبنا سلطان الزاهدين - كما روى صاحب الحلية :-

كان أبى من أهل بلخ، وكان من ملوك خراسان وكان من المياسر وحبب إلينا الصيد فخرجت راكباً فرسى وكلبى معى فبينما أنا كذلك فثار أرنب أو ثعلب فحركت فرسى فسمعت نداء من ورائى « ليس لذا خلقت ولا بدا أمرت » فوقفت أنظر يمينا ويسرة فلم أرَ أحداً فقلت لعن الله إبليس . ثم حركت فرسى فأسمع نداء أجهر من ذلك « ليس لذا خلقت ولا بدا أمرت » فوقفت أنظر يمينا ويسرة فلم أرَ أحداً فقلت لعن الله إبليس . ثم حركت فرسى فأسمع نداء من قريوس سرجى- أى مقدمته - يا إبراهيم ما لذا خلقت ولا بدا أمرت. فوقفت فقلت : أنبئت أنبئت جاعنى نذير من رب العالمين والله لا عصيت الله بعد يومى هذا ما عصمتى ربى^(١).

وفى رواية أخرى عن يونس بن سليمان البلخى : ذكر فى هذه القصة نفسها أن سيدى إبراهيم بينما هو على فرسه يركضه إذ سمع صوتاً من فوقه (يا إبراهيم ما هذا المبت ٩٩٩) أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة) فنزل عن دابته ورفض الدنيا وأخذ فى عمل الآخرة.

وهكذا ترك سيدى إبراهيم الدنيا وهى أرغد ما تكون له ملكاً وترقاً وأبهى وفر من نفسه إلى الله وخلع عن نفسه طوق الغفلة ليدخل حياة قوامها العبودية

(١) انظر حلية الأولياء للحافظ أبى نعيم الأصبهاني ٢٦٨/٧.

الصادقة لله. لقد ولى وجهه شطر مولا فلم يصبح للعالم وزن عنده. لقد تلاشت الكائنات من مرآة وجوده وانمحت الأغيار فاستقبل عهد الصلح مع الله، وترك وطنه خراسان وسافر إلى العراق ليلتمس فيها الرزق الحلال ويتزود من قوت العبادة وأكسير الطاعة.

وكان ميزانه في طلب الحلال عجباً وحاسته في الورع لا تخطئ ديبب النمل حتى أنه قد أعياه طلب الحلال مع الورع الذي ينشده في العراق فسافر إلى الشام وأقام بمدينة يقال لها (المنصورة) أياماً ثم توجه إلى (طرسوس) واستقر مقاماً بها. وأخذ يعمل - وهو ابن الملوك - في الحصاد ونظارة البساتين بأجر يومي لا يكاد يفي بحاجات خادم في ملك أبيه.

ولكن الصفاء الذي غمر وجدان سيدي إبراهيم وهو يمارس أسباب رزقه بيديه تأسيساً بسيدنا داود على نبينا وعليه السلام واقتداء بسلف الأمة الصالح كان لا يعادله صفاء لا سيما وقد ترك وراءه ملكاً عريضاً كان سيتوج ملكاً عليه والدنيا تفتح له ذراعها. ولكنه قد ربا بنفسه وتعالى بهيمته أن يرتقى في أحضان الدنيا ورأى السعادة - كل السعادة - في كسرة خبز من حلال صاف يتقوى بها على طاعة ربه وقيامه في جوف الليل والناس رقود.

ولقد كانت صورة ورعه وزهده رضى الله عنه وهو يعمل بنظارة البساتين وحراستها - عجيبة تأخذ بالألباب:

إذ وقع له ذات يوم وهو يعمل ناظوراً في بستان بطرسوس أن جاءه خادم صاحب البستان وقال له اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه. فذهب سيدي إبراهيم وأتاه بأكبر رمان في البستان فأخذ الخادم وكسرها فوجدها حامضة. فقال له يا ناظر: أنت في بستاننا منذ كذا وكذا سنة تأكل فاكهتنا وتاكل رماننا لا تعرف الحلو من الحامض ؟ فقال سيدي إبراهيم: والله ما أكلت من فاكهتك شيئا وما أعرف الحلو من الحامض !!

فأشار الخادم إلى أصحابه- وكان لا يعرف أنه سيدي إبراهيم بن أدهم - فقال: أتراك لو أنك إبراهيم بن أدهم ما زاد على هذا ! فلما كان الغد ذكر الخادم صفته للناس فعرفوه فأقبلوا إليه محتشدين لرؤية زاهد الدنيا سيدي إبراهيم ابن أدهم فلما أدرك أنه عرف فيهم اختفى عنهم وولى هارباً من طرسوس .

وأخذ سيدي إبراهيم ينتقل في بلاد الشام من بلد إلى بلد سائحاً عابداً زاهداً متخليقاً بالورع الأمثل متصفاً بالمكرمات التي قلما تجتمع لشخص واحد في عصر بأكمله وكانت عباداته ومجاهداته حديث الدنيا بأسرها وشهرته تسبق ضوء الشمس في شتى البقاع والأمصار .

لقد ضرب باجتهاده في العبادات مثلاً فذا لا يجارى في قهر النفس بكل ما فيها من نوازع وأهواء . كان يتحمل الجوع والسهر وسائر مخالفات العادة بحد مذهل وقد شهد له بذلك أئمة التصوف وأعلامه .

يقول حجة الإسلام الإمام الفزالي رضى الله عنه : (وكان ابن أدهم والثوري رضى الله عنهما يطويان ثلاثاً ثلاثاً ويأكلان في الرابع) ثم قال : (وليس ذلك خارجاً عن العادة بل هو قريب يمكن الوصول إليه بالمجاهدة)^(١) .

ويصور صاحب الحلية جانباً من جهاده رضى الله عنه في العبادة في روايته بسنده عن أبي إسحق الفزاري قال : (كان إبراهيم بن أدهم في شهر رمضان يحصد الزرع بالنهار ويصلى بالليل فمكث ثلاثين يوماً لا ينام بالليل ولا بالنهار)^(٢) ويتحدث الإمام الشعرائي رضى الله عنه في طبقاته عن منهج سيدي إبراهيم في العبادة قائلاً : (وكان يقلل الطعام والأكل ما استطاع ويقول : لا يحتمل الحلال الصريف حتى كان يصلى خمس عشرة صلاة بوضوء واحد)^(٣) .

إنه جهاد الأبرار الذين شفت روحانيتهم بكثرة المجاهدة حتى انخرقت عوائدهم وتذلت لهم طبائعهم الجسدية والنفسية .

(١) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوي ١/١٤٢ .

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبي نعيم ٧/٣٧٨ .

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرائي : ١/٥٩ .

يقول سيدى إبراهيم بن أدهم : (ما قاسيت شيئاً من أمر الدنيا أشد على من نفسى مرة على ومرة لى . وأما هواى فقد - والله - استعنت بالله عليه فأعانتى واستكفيته سوء مغالبته فكفانى فوالله ما آسى على ما أقبل من الدنيا ولا ما أدبر منها) لقد زهد فى الدنيا بالكلية حتى استوى عنده إقبالها وإدبارها . ولقد أعطى الدليل على ذلك مرات عديدة .

ف ذات يوم وبينما هو جالس مع صحبة له عند جامع المصيصة بالشام إذا برجل قادم من خراسان فقال : أيكم إبراهيم بن أدهم ؟ فقال أنا هو . فقال إن إخوتك بعثونى إليك .

فلما سمع ذكر إخوته قام فأخذ بيده جانباً وقال له ما جاء بك ؟ فقال : أنا مملوكك مع فرس وبغلة وعشرة آلاف درهم بعث بها إليك إخوتك . فقال له إن كنت صادقاً فأنت حر وما معك ملك لك : اذهب لا تخبر بذلك أحداً^(١)

إنه العارف سيدى إبراهيم بن أدهم زاهد السلاطين وسلطان الزاهدين وليت شعرى هل يقدر أحد أن ينال هذه المرتبة فى الزهد من أولئك الذين يطعنون فى التصوف والصوفية بينما هم يتكالبون على الدنيا بدينهم ويزحفون وراء بريقها؟؟

أم هل يستطيع أحد ممن يهاجمون أعلام الصوفية أن يكبحوا جماح أنفسهم وأهوائهم كهؤلاء؟؟ كلا والله وما هم وهؤلاء الأعلام إلا كذرات الهباء أمام الجبال الرواسى . ولئن سئلت لهم نفوسهم أن ينالوا من أقدار الأولياء فهم كما قال الشاعر :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ولنعد إلى سلطان الزاهدين الذى ضرب أروع الأمثلة فى الإيثار والفتوة إلى جانب تفردده فى علياء مقام الزهد . وهذا مثل يقف بنا على عظمة هذا الإمام الصوفى : يروى الإمام أبو نعيم فى حليته بسنده عن سهل بن إبراهيم قال : (صحبت إبراهيم بن أدهم فى سفر فأنفق على نفقته كلها . قال : ثم مرضت عليه فاشتيت شهوة - أى شيئاً يشتهى من الحلال - فذهب فأخذ حماره فباعه واشترى

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٢٨٢/٧ .

شهوتي فجاء بها فقلت يا إبراهيم فأين الحمار؟ قال : يا أخى بعناه . قال قلت يا أخى فعلى أى شيء تركب؟ قال يا أخى على عنقي: قال فحمله على عنقه ثلاث منازل قال: فقال الأوزاعي ليس فى هؤلاء القراء - أى الصوفية - أفضل من إبراهيم بن أدهم فإنه أسخى القوم).

إنها أخلاق الرجال الذين ورثوا أخلاق النبوة بما فيها من سماحة وسخاء.

ولقد مسح سيدى إبراهيم نخبة ممتازة من أساطين العلم وأئمة الولاية والتصوف الذين شع نورهم فى القرن الثانى الهجرى كالإمام سفيان الثورى، وسيدى الفضيل بن عياض رضى الله عنهما حيث التقى بهما فى مكة قبل رحلته إلى بلاد الشام كما التقى بالعارف أسلم بن يزيد الجهنى وأخذ عنه جملة من آداب الطريق وأخلاق الولاية والفتوة.

ولما قدم سيدى سفيان الثورى - رضى الله عنه - إلى الرملة أرسل إليه سيدى إبراهيم بن أدهم قائلاً: (تعال فحدثنا) فاستعظم بعض الناس أن يخاطب أمير المؤمنين فى الحديث بمثل هذه العبارة وقالوا لسيدى إبراهيم : تبعث إليه بمثل هذا هكذا؟ فقال لهم : أردت أن أنظر كيف تواضعه (١).

ولقد ذكر الإمام أبو عبد الرحمن السلمى - رضى الله عنه - فى طبقاته : أن سيدى إبراهيم لقي الخضر عليه السلام بالبادية فعلمه الاسم الأعظم وقال له : (لا تدع به على أحد بينك وبينه عداوة فتهلكه هلاك الدنيا والآخرة، ولكن ادع الله أن يشجع به جنبك ويقوى به ضعفك ، ويؤنس به وحشتك ويحدد به فى كل ساعة رغبتك) (١)

وهذه واقعة لطيفة تصور لنا مكانة سيدى إبراهيم فى حب الله وحب أحباب الله . يروى الإمام أبو نعيم بسنده عن فارس النجار قال : بلغنى أن إبراهيم بن أدهم رأى فى المنام كأن جبريل عليه السلام قد نزل إلى الأرض فقال له لم نزلت إلى

(١) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى بتحقيق نور الدين شريعة ص ٢٠-٢١.

الأرض؟ قال لاكتب المحبين. قال مثل من ؟! قال مثل مالك بن دينار وثابت البناني وأيوب السخيتاني (وعد جماعات) قال أنا منهم ؟ قال: لا، فقال له فإذا كتبتهم فاكذب تحتهم : (محب المحبين). قال فنزل الوحي: اكتبه أولهم ^(١).

أرأيت ماذا تصنع محبة الأولياء ؟؟ إنها ترقى بالعبد إلى مدارج من الكمالات لا تتال بشيء سواها.

اللهم فاكذبنا من محبي محبيك بحق سيدي إبراهيم بن أدهم عندك واجعلنا من الصادقين في محبتك آمين.

إن سيدي إبراهيم كان لصدق محبته يناجى ربه ويقول: (اللهم إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة إذا آنستى بذكرك ورزقتني حبك وسهلت على طاعتك أعط الجنة لمن شئت) ^(٢).

لقد كان سيدي إبراهيم ينشد في حبه نعيم الوصل وسرور الأنس ولذة التفانى في خدمة المحبوب. ولقد تحقق له ما أراد وظفر بالمراد فقال في نشوة وصاله (لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور ولذة العيش وقلة التعب لجالدونا عليه بالسيوف ... طلبوا الراحة والنعيم فأخطأوا الصراط المستقيم) ^(٣) ومرة أخرى يقول : (ما أغفل أهل الدنيا عنا .. ما في الدنيا أنعم عيشاً منا) إنه نعيم عيش المنعمين في كفالة الله المحبين له، العارفين به، والمتوكلين عليه.

وتلك الواقعة جرت لسيدي إبراهيم مع سيدي شقيق البلخي رضى الله عنه تبنى بعلو كعبه في التخلق بأخلاق الفتوة والزهادة والإيثار : يقول العارف سيدي حذيفة المرعشي: (دخلنا مكة مع إبراهيم بن أدهم فإذا شقيق البلخي قد حج في تلك السنة فاجتمعنا في شق الطواف فقال إبراهيم لشقيق: على أى شيء أصلتم أصلكم؟ قال : أصلنا على أنا إذا رزقنا أكلنا وإذا مُنعنا: صبرنا فقال، إبراهيم:

(١) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم : ٢٤-٢٥/٨ وانظر الكواكب الدرية للمناوي ١/١٤٧.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم : ٢٥/٨.

(٣) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم : ٢٧٠/٧ - ٢٧١.

هكذا تفعل كلاب بلخ! فقال له شقيق : فعلى ماذا أصلتم أصلكم؟ قال أصلنا على أنا إذا رزقنا أثرنا، وإذا مُتّعنا شكرنا وحمدنا، فقال شقيق فجلس بين يدي إبراهيم فقال : يا أستاذ : أنت أستاذنا !!) .

أجل لقد كان العارف بالله سيدي إبراهيم ابن أدهم أستاذ عصره في الزهد والمعرفة والورع ولا أدل على ذلك مما روى عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أنه قال عنه حين لقيه : (هو سيدنا)^(١).

وما هو ذا يحدد مفهوم الورع عند أهل الطريق قائلًا : (الورع ترك كل شبهة، وترك مالا يعنيك هو ترك الفضلات) .

أي أن الورع يتلخص في اتقاء الشبهات أولاً ثم بطرح مالا يعني مما لا تدعو إليه حاجة دينية لأنه قد صار في عداد الفضلات التي يستغنى عنها وقد سألته يوماً خادمه العارف إبراهيم بن بشار قائلًا : بم يتم الورع ؟ فقال سيدي إبراهيم (بتسوية كل الخلق من قلبك واشتغالك عن عيوبهم بذنبك، وعليك باللفظ الجميل من قلب ذليل لرب جميل. فكر في ذنبك وتب إلى ربك يثبت الورع في قلبك واحسم الطمع إلا من ربك) كلمات وضاعة صدرت عن قلب ريانى سقى بماء الحكمة وارتوى بماء المعرفة.

وننتقل إلى مقام الزهد لنستمع إلى سلطان الزاهدين وهو يقول : (الزهد ثلاثة أصناف: فزهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة. فالفرض الزهد في الحرام، والفضل الزهد في الحلال، والسلامة الزهد في الشبهات) ولا يخفى أن مراده بالزهد في الحلال: الزهد في المباح الذي لا تدعو إليه حاجة شرعية فهو داخل في عداد الفضلات التي أسلفنا بيانها. ويتحقق هذه المراتب الثلاث : يصل العبد إلى ذروة الزهد ويرتقى إلى سماء الواصلين.

ولسيدي إبراهيم بن أدهم فهم عالٍ في كلام الله تعالى وذوق روحى يبهـر العقول.

(١) انظر تاريخ التصوف الإسلامى للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٢٢٤ .

يقول رضى الله عنه فى قوله تعالى: (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات)^(١)

« السابق مضروب بسيف المحبة مقتول بسيف الشوق مضطجع على باب الكرامة. والمقتصد مضروب بسوط الندامة مقتول بسيف الحسرة مضطجع على باب العفو، والظالم لنفسه مضروب بسوط الغفلة مقتول بسيف الأمل مضطجع على باب العقوبة » اهـ^(٢).

هذه إشارات يفهمها أهل الله فى كلام الله. ولقد كان سيدى إبراهيم حين يتحدث يفترق من بحار العلوم الدنية وكان لا يسأل فى شىء إلا أجاب وأبهر. لقد مر يوماً فى أسواق البصرة فاجتمع الناس إليه فقالوا: (يا أبا إسحق: إن الله تعالى يقول: (ادعونى استجب لكم) ونحن ندعوه منذ حين وهو لا يستجيب لنا ٩٩ فقال: (يا أهل البصرة: ماتت قلوبكم فى عشرة أشياء: (١) عرفتم كتاب الله ولم تؤدوا حقه. (٢) وقرأتم كتاب الله ولم تعملوا به. (٣) وادعيتم حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتركتم سنته. (٤) وادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه. (٥) وقتلتم أن الموت حق ولم تستمدوا له. (٦) وقتلتم نخاف النار وارتضيتم أنفسكم لها. (٧) وقتلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها. (٨) واشتغلتم بعبوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم. (٩) وأكلتم نعمة ربيكم ولم تشكروها. (١٠) ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم فكيف يستجاب لكم)^(٣)

أجل يا سلطان الزاهدين كيف يستجاب لمن مات قلبه والله إنما يتقبل من المتقين الذين أحيا قلوبهم بنور معرفته فساروا فى طريق النور.

وكما بين القطب العارف سيدى إبراهيم العقبات التى تقف فى طريق إحياء القلوب وإجابة الدعاء. فقد رسم للسالكين طريق الصلاح والفلاح يقول صاحب

(١) سورة فاطر: ٣٢.

(٢) انظر: حلية الأولياء لأبى نعيم: ٣٦/٨ - ٣٧.

(٣) انظر: حلية الأولياء لأبى نعيم: ١٥/٨٠ - ١٦.

الرسالة القشيرية: (قال إبراهيم بن أدهم لرجل فى الطواف: « أعلم أنك لا تتال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات : أولاها: تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة- أى تنتقل من حياة الترف والدعة إلى حياة الرياضة والمجاهدة- والثانية: تغلق باب العز وتفتح باب الذل - ومرارة ذل النفس فى طريق الجهاد الأكبر- والثالثة : تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد . والرابعة: تغلق باب النوم وتفتح باب السهر. والخامسة : تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر - أى الافتقار إلى الله- والسادسة : تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت). (١) اهـ.

حقيقة إنها عقبات لا يقوى عليها سوى أهلها ومن أهلها سوى الصوفية ٩٩
صفوة الله من خلقه وخواصه من عباده ٩.

ثم تنتقل فى عجلة عاجلة إلى طرف يسير من كرامات الإمام الصوفى سيدى إبراهيم بن أدهم وما أكثر كراماته ١١.

يروى صاحب حلية الأولياء بسنده عن مكى بن إبراهيم يقول كان إبراهيم ابن أدهم بمكة. فسئل : ما يبلغ من كرامة المؤمن على الله عز وجل ؟ قال : يبلغ من كراماته على الله تعالى : لو قال لهذا الجبل تحرك لتحرك. فتحرك الجبل فقال : ما إياك عنيت(٢) ١١

وذكر الإمام المناوى فى طبقاته : أن سيدى إبراهيم بن أدهم أراد ركوب سفينة فأبى الملاح إلا أن يأخذ ديناراً. فصلى ركعتين وقال : اللهم إنهم سألونى ما ليس عندى وهو عندك كثير. فصار الرمل دنانير. فأخذ واحداً ودفعه لهم ولم يأخذ غيره (٣) ١١

إنه عبد ريانى أطلع الله فأطاع الله كل شيء له يقال العلامة المناوى فى نهاية

(١) انظر : الرسالة القشيرية للإمام أبى القاسم القشيرى بتحقيق د. عبد الحليم محمود : ٥٢/١ .

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٤/٨ والكواكب الدرية للإمام المناوى ١٤٤/١ .

(٣) انظر : الكواكب الدرية للعلامة المناوى : ١٤٨/١ .

ترجمته بطبقاته (مات بالجزيرة سنة اثنتين ومائة وحمل فدفن بصور، وقبره بها مشهور) أهـ.

(وبعد) فهذا هو ولى الأولياء وسلطان الزاهدين الأصفياء سيدى إبراهيم بن أدهم الصوفى الذى فر من ملك الدنيا إلى ملك الآخرة، وفر من الخلق إلى الخالق ومن نفسه إلى مولاه فحباه الله بعباء تتقاصر الأوهام عن تصويره، وجعله من خواص أوليائه المتقين. رضى الله عنه وعنا به، وجعلنا من ورثة مدده ومن خاصة أحبائه فى الدارين.

آمين

✱ ✱ ✱

سيدي داود الطائي رضى الله عنه

فى منازل التحقيق والعرفان أسلم الصوفية وجوههم لله وأخبتوا إلى ربهم فوصلوا إلى مقام الإحسان وتحققوا بقول الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم -: (أن تعبد الله كأنك تراه) . والعبادة على المشاهدة ذروة القرب والنعيم الذى تتضاءل دونه متع الجنان بأسرها، من أجل ذلك فاز الأولياء - بعد الأنبياء - بمراتب الخصوصية وبالحظ الأوفر من العطاء الإلهي - رضى الله عنهم وألحقنا بهم فى الأولى والآخرة .

هناك فى تلك الذرى الشامخة من تلك المنازل العالية تربع إمام من صدور الأئمة المحققين والأقطاب الواصلين هو سيدي أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي . رضى الله تعالى عنه وعنا به فى معيته المشرفة دنيا وأخرى . آمين .

هو أحد الكواكب السيارية فى أفق الشهود والتجلي الإلهي . وأحد من عاشوا لربهم وآثروا مولاهم على كل ما سواه، فأخذهم منهم إلى حضرته، وشملهم برداء عزته وخلع عليهم خلع محبته ثم اختارهم أمناء فى خلقه وحفظة على حقه .

على شعاع من نور هذا الإمام المستمد من نور الحقيقة المحمدية نتعاش من خلال التقائنا به فى هذه السطور الواصلة بيننا وبينه فى وقت نحن أحوج ما تكون إلى تمثل مجد السلف الصالح لنسترد للإسلام سالف مجده وللأمة مكانتها فى الصدارة .

ونتساءل : أين ما حفظه لنا التاريخ عن أعلام السلف من أمثال الإمام الطائي فى أسفاره ؟

والجواب : لا شيء إلا أثارة من علم عن جوانب متفرقة من منهجه الروحي ونزراً يسيراً من كلماته مما لا يفى بمكانة هذا المعارف الصوفي. ثم لا شيء عن سيرته وحياته الخاصة.

لذلك سنحاول التقاط الدر من هنا وهناك لننظم في عقد فريد يفى - في حدود المقدرة - ببعض حقه علينا عوضاً عن ظلم التاريخ لحقه في التعريف به .

وقد اختلفت الروايات - اختلافاً يسيراً - في سنة وفاته، على حين لم تتعرض لسنة مولده. فالإمام أبو نعيم يذكر في الحلية أنه توفي سنة ست وقيل خمس وستين ومائة هـ^(١).

بينما يذكر الإمام المناوي في (الكواكب الدرية) أنه مات سنة ثنتين وستين ومائة في السنة التي مات فيها سيدي إبراهيم بن أدهم رضي الله عنهما. وقد عاش إمامنا الطائي حياة حافلة بحق، فقد وسعت أمجاداً عريضة خلدت ذكره على مر القرون . ويتمثل المحور الأساسي لتلك الأمجاد في الاتصال بالله عز وجل اتصالاً بهر أئمة عصره في القرن الثاني ومن يليهم.

وقد بدأ سيدي داود رحلته إلى الوصول بالتفقه والإحاطة بعلوم الدين وثقافة الإسلام من تفسير وحديث - رواية ودراية - وعلم كلام ولغة وتاريخ ... إلخ.

ويذكر لنا التاريخ أنه كان من أكابر أصحاب الإمام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه، وقد أخذ عنه الفقه وأحكمه حتى أنه لا تكاد تطرح مسألة في مجلسه إلا ويتصدى لها بالإجابة، وظل يتزود من معين العلم الفياض حتى صار بحراً خضماً.

ثم حين أتمن الوسيلة شرع في الفاية. وهذه رواية تحدثنا عن نقطة التحول وعن سبب تصوف الإمام الطائي وزهده يرويها صاحب الحلية بسنده عن سيدي أحمد بن أبي الحواري تلميذ سيدي أبي سليمان الداراني رضي الله عنهما إذ قال : (حدثني بعض أصحابنا قال : - إنما كان سبب داود الطائي - أي سبب زهده

(١) انظر : حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم ٣٦١/٧.

وتصوفه - أنه كان يجالس أبا حنيفة فقال له أبو حنيفة : يا أبا سليمان، أما الأداة فقد أحكمناها، فقال داود : فأى شيء بقي؟ قال : بقي العمل به . قال فننازعته نفسى إلى العزلة والوحدة فقلت لها : حتى تجلسى معهم فلا تجيبى فى مسألة قال : فكان يجالسهم سنة قبل أن يمتزل. قال فكانت المسألة تجيء وأنا أشد شهوة للجواب فيها من العطشان إلى الماء فلا أجيب فيها . قال فاعتزلتهم بعد»^(١).

من تلك الواقعة ينكشف لنا أن نقطة التحول كانت لفظة كريمة من الإمام أبى حنيفة لسيدي داود.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن الإمام أبا حنيفة رضى الله عنه أحد كبار الصوفية وأعلامهم. وقد سلك الطريق الصوفى على يد مولانا الإمام جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه وعنا به، كما لا يفوتنا أن نقرر أن بقية أئمة الشريعة الأربعة : - مولانا الإمام الشافعى، والإمام مالك، والإمام أحمد رضوان الله عليهم - هم صوفية على المستوى الرفيع للتصوف. وسنتناول الحديث عنهم - من الجانب الصوفى - فى صفحات مقبلة بمشيئة الله تعالى.

ولم يمتزل سيدي داود دروس العلم ومجالس التفقه والدرس إلا بعد أن أصبح إماماً عظيم الشأن فى مختلف ميادين المعرفة. وقد شهد له بذلك أساطين العلماء والفقهاء . فقد قال عنه الحافظ الذهبي رحمه الله : - (كان إماماً فقيهاً ذا فنون عديدة، ثم تعبد وآثر الخلوة والوحدة وأقبل على شأنه وساد أهل زمانه)^(٢).

وقال عنه الإمام سفيان بن عيينة رضى الله عنه : (كان داود ممن فقه ثم علم ثم عمل) .

وقد كان سيدي داود من رواة الحديث النبوى الشريف الثقات، وأحد من زخرت بأسانيدهم أمهات كتب السنة والمراجع الحديثية الشريفة. وقد روى الإمام أبو نعيم فى الحلية للإمام داود ثيفاً وعشرين حديثاً من مروياته، وتحدث عن إسناده

(١) المصدر السابق ٧/٣٤١-١٤٣.

(٢) انظر الكواكب السرية للإمام المتاوى : ١/١٩٢.

قائلاً : (أسند داود بن نصير الطائي عن جماعة من التابعين منهم عبد الله بن عمير، وإسماعيل بن أبي خالد، والأعمش، وحميد الطويل، وأكثر روايته عن الأعمش أروى الناس عن داود بن صعب بن المقدام، وروى عنه إسماعيل بن عليّة وزافر بن سليمان)^(١).

ومما ذكره الحافظ أبو نعيم من مسانيد الإمام الطائي ما رواه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : (إن لكل نبي دعوة مستجابة، وإنني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي)^(٢).

وهكذا حقق العارف الطائي لنفسه مجدداً علمياً شامخاً رأى بعده أن يشرع في الغاية بعد تحقيق الوسيلة، فكان التحول الذي حدث في الواقعة المذكورة آنفاً له مع الإمام أبي حنيفة رضي الله عنهما.

وتضيف المصادر روايات أخرى تعلق لمنطلقه الصوفي وكلها متلاقية في الجوهر والمضمون ولا يمنع مانع من تعددها إذ إنه حينما تتضافر عدة مؤثرات متفقة فيما بينها على مؤثر فيه واحد يكون الأثر أقوى وأثري. من ذلك ما ذكره صاحب (الكواكب الدرية) قائلاً :- (وقيل إنما سبب توبته: أن امرأة جاءت إلى أبي حنيفة رحمه الله تسأله عن مسألة فأجابها فأعجبت بجوابه. ثم قالت : هذا العلم هأين العمل ؟ فأثر كلامها في قلب داود رحمه الله فاعتزل وتعبّد فصار عظيم الشأن علماً وعملاً وزهداً وورعاً)^(٣) وثمة روايتان أخريان ذكرهما الإمام القشيري رضي الله عنه في رسالته قائلاً : (سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: كان سبب زهد داود الطائي أنه كان يمر ببغداد فمر يوماً فتحاه المطرقون بين يدي حميد الطوسي فالتفت داود فرأى حميداً فقال داود : أف لدنيا سبقك بها حميد،

(١) انظر : حلية الأولياء لأبي نعيم : ٣٦١/٧.

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبي نعيم : ٣٦٤-٣٦٣/٧.

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوي : ١٩٢/١.

ولزم البيت وأخذ في الجهد والعبادة !! وسمعت ببغداد بعض الفقراء يقول : إن سبب زهده أنه سمع نائحة تتوح وتقول.

بأى خـسـديك تبـسـدى البلى

وأى عـسـينيك إذا سـالـا^(١)

وانطلق سيدى داود ليحقق رسالة العلم بالعمل به وليتساءل مع معاصريه قائلاً: (إذا كنا وهنًا في جمع الآلات فمتى يكون البناء؟) وقد أكد هذا المضمون بقوله: (إنما شرع العلم ليعمل به الطالب فإذا قطع عمره في تحصيله فمتى العمل؟).

أجل متى العمل ؟ سؤال يفجر الطاقة الروحية في كل قلب سبقت له الرحمة والعناية. فانطلق سيدى داود بطاقته الإيمانية الكبرى وقد نزع من قلبه كل هم سوى الله.. سوى التحبب للحبيب الأعلى بغية الوصول إليه. وأبصر العارف الطائي أنه لابد له من يد بصيرة تقود خطاه على الدرب الصحيح. لابد له من شيخ وصل إلى الله وعرف معالم الطريق الحق وباشر جهاد النفس وعلم خوافى علل القلب وأبصر سر الرابطة الروحية في تثبيت قدم السائر على الطريق. وسرعان ما جمعته العناية بشيخه الذى وصل على يديه. وهو الإمام العارف سيدى حبيب العجمى رضى الله عنه. كان من أكابر أقطاب الصوفية وقد أخذ الطريق مباشرة عن سيد التابعين مولانا الإمام الحسن البصرى - رضى الله عنه - الذى أخذ بدوره عن باب مدينة العلم صلى الله عليه وسلم سيدنا ومولانا الإمام على كرم الله وجهه. وإذن فبين سيدى داود الطائي رضى الله عنه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة شيوخ فحسب. ومن ثم يعتبر الإمام الطائي وشيخه سيدى حبيب العجمى رضى الله عنهما من رؤساء الطريق الصوفى، وعنهما تفرعت الطريقة النقشبندية العلية وسائر الطرق. وألقى الإمام داود بنفسه في الخضم متجرداً عما سوى الله. فعزفت نفسه

(١) انظر الرسالة التشريعية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف ٧٤/١.

عن الدنيا وأهلها واعتكف لربه ليعبده على صفاء ونقاء. وكانت فلسفة العزلة عنده تتمثل في تمحيض القلب لربه والوفاء بعهده والتلذذ بعبادته.

يروى صاحب الحلية بسنده عن عثمان بن زفر أنه قال : حدثني سعيد قال : كان داود شديد الانقباض، يعالج نفسه بالصمت . وكان قبل ذلك كثير الكلام وكانت معالجته نفسه في ترك الكلام، فأخرجته تلك المعالجة إلى التفكير. فبالتفكير ملك نفسه، ولقد جئته يوماً في وقت الصلاة فانتظرتة حتى خرج فمشيت معه والمسجد منه قريب فسلك بي غير طريقه، فقلت : أين تريد؟ فسلك بي سككاً خالية حتى خرج على المسجد فقلت : الطريق ثمة أقرب عليك، فقال : يا سعيد، فر من الناس فرارك من السبع إنه ما خالط الناس أحد إلا نسي العهد^(١) ومراده رضى الله عنه بمخالطة الناس المخالطة القلبية لا مجرد الخلطة الظاهرية لئلا يستشكل بسلوك الأنبياء المعاشرين أمهم والخلفاء الراشدين رضى الله عنهم .

وإنما أثر سيدى داود العزلة وعدم الخلطة ظاهراً وباطناً لاستجماع كل همه مع ربه، أما الأنبياء والخلفاء الراشدون فلتوافر الكمال الأقصى في الحضور مع الله عندهم؛ لا تنال منهم الخلطة بحال ويطلق على حالتهم تلك (الخلوة في الجلوة)، أى أنهم وهم مع الناس في جلوتهم هم في خلوة قلبية مع ربه.

وقد بدأ سيدى داود بالخلوة الظاهرة ثم ترقى فيما بعد المرحلة الأولية للسلوك إلى خلوة القلب. وكلتا الخلوتين في ذروة التصوف ولهما في النهج المحمدى أصل راسخ . فقد اختلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بربه أولاً خلوة ظاهرية وباطنية في غار حراء ثم بعد البعثة الشريفة خالط أمته ولم يزل في تمام حضوره مع ربه.

وكان سيدى داود في فترة سلوكه تلك في عبادة متواصلة وجانبها الأكبر لم يكن يعلم به أحد من الناس حرصاً منه على الإخلاص لله تعالى وتحاشى الرياء،

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٢٤٢/٧.

فقد ذكر صاحب (الحقائق الوردية) أن سيدى داود صام أربعين سنة لا يعلم به أهله : فقد كان يحمل غذاءه معه ويتصدق به فى الطريق ويرجع إلى أهله ويفطر عندهم عشاء (١)!!

وكان رضى الله عنه يمضى ليله بما بين صلاة وتلاوة قرآن وتفكر، وكان استغراقه فى عبادته ينسيه الوجود وما حواه، يقول معاصره أبو خالد الطائى : (ذهبت أنا وأبى إلى داود الطائى نسلم عليه - أو فى شىء - فرأيتَه يصلى فوقعت شرفة من المسجد، فوقعت بالقرب منه، فما رأيته تأهب لها بل أقبل على صلاته) ! كان كل حرصه على قضاء أنفاسه فى الطاعة ونبذ كل ما يعطل عن العبادة أى كان. يروى الإمام القشيري بسنده عن إسماعيل بن زياد الطائى قال : قالت داية - أى جارية - داود الطائى: ما تشتهى الخبز؟ - وكان طعامه الفتيت المبلول - فقال: (بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية)!!

لقد أثر مبلول الفتيت على الخبز المشتى لثلا يمضى زمن يفوت عليه قراءة خمسين آية من القرآن. فكان مع الله على نفسه وذلك هو طريق الصديقين !

وهذه صورة وصفية لحاله بالليل يرويها الإمام أبو نعيم بسنده عن إسحق السلولى قال : (حدثتني أم سعيد بنت علقمة - وكان سعيد من نساك الخلع وكانت أمه طائية - قالت : - كان بيننا وبين داود الطائى جدار قصير. فكنت أسمع حنينه عامة الليل لا يهدأ، قالت: ولربما سمعته فى جوف الليل يقول :- اللهم همك عطل على الهموم، وحال بينى وبين السهاد، وشوقى إلى النظر إليك منع منى اللذات والشهوات؛ فأنا فى سجنك أيها الكريم مطلوب- قالت - ولربما ترنم فى السحر بشيء من القرآن فأرى أن جميع نعيم الدنيا فى ترنمه تلك الساعة. قالت : وكان يكون فى الدار وحده. وكان لا يصبح - نعى لا يسرج (٢).

(١) انظر : الحقائق الوردية فى حقائق أجلاء النقشبندية للملأمة الشيخ عبد المجيد الخانى : ص ٨٤ نشر الدروبي بدمشق.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٢٥٦/٧ - ٢٥٧ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٢٤/٧.

وكان سيدي داود يربياً بهيمته أن تمتد إلى شيء من حظوظ النفس حتى المباح منها طالما كان مجرداً من العبادة، يقول جبر بن مجاهد : مرض داود الطائي فقيل له : لو خرجت إلى روح - أى مكان راحة وهواء - يفرح قلبك ؟ قال : إنى استحي من ربى أن أنقل قدمي إلى ما فيه راحة لبدني^(١) .

وأما زهده فى الدنيا وتقصفه : فقد كان مضرب الأمثال، يروى صاحب الحلية عن عثمان بن زهر قال : أخبرنى ابن عم لداود قال : (ورث داود الطائي عن أبيه عشرين ديناراً فأكلها فى عشرين سنة، كل سنة ديناراً منه يأكل ومنه يتصدق. وورث بيتاً وكان يكون فيه لا يعمره، كلما خربت ناحية تركها وتحول إلى ناحية أخرى، فخرّب البيت كله إلا زاوية منه يكون فيها) وتحدث سيدي عبد الوهاب الشعراني - رضى الله عنه - وعنا به عن سيدي داود فى طبقاته فقال :

(كان رضى الله عنه كبير الشأن فى باب الزهد والورع حتى أنهم دخلوا عليه فى مرض موته فلم يجدوا فى بيته شيئاً غير دن صغير فيه خبز يابس، ومطهرة. ولبنة كبيرة من التراب هى مخدته وكان رضى الله عنه يقول : إياكم أن يتخذ أحدكم فى داره أكثر من زاد الراكب إلى البلاد البعيدة^(٢) .

وروى عن سيدي أحمد بن أبي الحواري أنه سمع شيخه سيدي أبا سليمان الداراني رضى الله عنه يقول : (أقام داود الطائي أربعاً وستين سنة أعزب فقيل له: كيف صبرت على النساء؟ قال : قاسيت شهوتهن عند إدراكي سنة ثم ذهبت شهوتهن من قلبي، - قال أبو سليمان- فترى أنه من صبر عنهن عند إدراكه سنة لم يعرفهن حلالاً ولا حراماً، أنه يكفى مؤنتهن^(٣) . وكان سيدي داود مع شدة زهده وتقصفه جواداً كريماً لا يقاس بجوده وكرمه، وتلك هى سمات الصوفى الحقيقى، يروى سيدي أبو نعيم أن أبا سعيد السكري قال : (احتجم داود الطائي فدفع ديناراً إلى الحجام فقيل له : هذا إسراف. فقال : لا عبادة لمن لا مروءة له)^(٤) كما يروى

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٥٥/٧.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضى الله تعالى عنه : ١/٦٥٥/الشرقية.

(٣) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٤٩/٧.

(٤) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٥٤/٧.

الإمام أبو نعيم بسنده عن قبيصة أنه قال : (حدثني صاحب لنا أن امرأة من أهل داود الطائي صنعت ثريدة بسمن ثم بعثت بها إلى داود حين إفطاره مع جارية لها - وكان بينها وبينهم رضاع - قالت الجارية - فأتيته بالقصعة فوضعتها بين يديه في الحجر. قال : فسعى ليأكل منها فجاء سائل فوقف على الباب فقام فدفعها إليه وجلس معه على الباب حتى أكلها ثم دخل ففسل القصعة، ثم عمد إلى تمر كان بين يديه، قالت الجارية: ظننت أنه كان أعده لعشائه فوضعه في القصعة ودفعها إلى وقال : أقرئها السلام، قالت الجارية: ودفع إلى السائل ما جئناه به ودفع إلينا ما أراد أن يفطر عليه، قالت وأظنه ما بات إلا طاوياً!! قال قبيصة: كنت أراه قد نحل جداً^(١))

تلك هي مثاليات التصوف وأخلاق الأولياء التي ورثوها عن سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم، ولا يقدر عليها إلا هم وحدهم. أما من ينظر إليهم بعين الانتقاد وينكر عليهم من ذوى القلوب المدنسة بأحوال الدنيا الأرقاء لشهواتهم وظلمة طبعهم. فحسبهم جهالتهم وللأولياء البصيرة وكفاهم ظلمتهم وللأولياء النور والرضوان ١.

وأما عن منزلة سيدى داود في مقام الخوف من الله تعالى فهي الذروة الشامخة. لقد كان مع انقطاعه الكامل إلى الله في العبادة وإخباته وتبتله يقول : (سبقنى العابدون وقطع بى والهفاه ١)

ولقد روى عنه سيدى إبراهيم بن أدهم - رضى الله عنهما - أنه كان يقول : (إن للخوف تحركات تعرف في الخائفين، ومقامات يعرفها المحبون، وإزعاجات يفوز بها المشتاقون. وأين أولئك ؟؟ أولئك هم الفائزون)^(٢) ولقد كان رضى الله عنه يفرق قلبه عند تذكر المعصية ؟ يقول مؤلف (الأنوار القدسية في مناقب السادة النقشبندية) : - (ومرت داود يوماً بموضع فلما وقع نظره عليه خر مغشياً عليه

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٢٤٨/٧.

(٢) المصدر السابق ٢٤٦/٧.

فحمل إلى منزله، فلما أفاق سئل عن ذلك فقال : تذكرت أنى اغتبت رجلاً فى هذا الموضع فذكرت مطالبته إياى بين يدى الله عز وجل فلم أملك نفسى لأجل ذلك) .

ليت شعرى أين تلك الأخلاق الآن، وأين اتقاء الله إلى هذا الحد الذى لا يحده تصور؟ إنه الخوف، والإجلال والتعظيم والخشية . لقد ظل العارف الطائى على خوف دائم من ربه حتى لحق به، بل لقد مات من شدة وطأة هذا الخوف على قلبه، يروى الحافظ أبو نعيم بسنده عن حفص الجعفى أنه قال :

(اشتكى داود الطائى، وكان سبب علته أنه مر بآية فيها ذكر النار فكررها مراراً فى ليلته فأصبح مريضاً فوجدوه قد مات)^(١) وهنا ملحظ نود أن نشير إليه : ذلك أن سيدى داود بعد أن ترقى إلى ذروة تمكينه واكتمل صوفياً كان مناط خوفه إنما هو الحجب عن الله عز وجل كما أن مناط رجائه هو الوصول بلا انقطاع، وهنا حين مر بآية فيها ذكر النار استشعر حال أهلها من الحجاب عن الله عز وجل فأكل الخوف قلبه فأخذه مولاه إليه إلى الأبد فى وصال دائم فالخوف ثمة كان من رب النار لا من نفس النار.

ثم ثمة ملحظ آخر هو أنه مع هذه المنزلة فى الخوف كانت له منزلة لا تقل عنها فى الرجاء وحسن الظن بالله تعالى، فقد كان رضى الله عنه يقول : (ما نعمل إلا على حسن الظن، فأما التفريط فهو المستولى على الأبدان) لقد ظل يتهم نفسه بالتفريط فى جنب مولاه رغم بذله ما أتعب من بعده. ومع ذلك الاتهام كان الرجاء الواسع حتى خرج من سجن الدنيا . يقول صاحب الرسالة القشيرية : (ولما توفى داود رآه بعض الصالحين فى المنام وهو يمدو فقال له : مالك؟ فقال : الساعة تخلصت من السجن، فاستيقظ الرجل من منامه فارتفع الصياح بقول الناس: مات داود الطائى)^(٢)

لقد أمضى حياته محباً لله حتى لحق بحبيبه وعن منطقه فى المحبة : يروى

(١) المصدر نفسه ٢٤٠/٧ .

(٢) انظر : الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ود . محمود بن الشريف ٧٥/١ .

صاحب الحدائق الوردية عنه أنه قال : (رأيت ولياً من أولياء الله تعالى فقلت له : ما غاية بلوغ محبة الله من قلبك؟ فقال: لو جعل حساب الخلائق كلهم معي لسرني ذلك ورغبت فيه فقلت ولم ذلك؟ قال يا داود. وهل للعبد مقام أشرف من وقوفه بين يدي الله عز وجل وهو يشاهده ويخاطبه؟ والله العظيم إن ذلك عندي أشرف الدرجات^(١). ذلك هو منطق المحبة الذي كان سيدي داود يتمثله حتى أسر الحب قلبه وملك الشوق روحه .

كان مقام سيدي داود الطائي شامخاً في ذروة الأولياء العارفين والأقطاب الواصلين. وشاهد ذلك - فوق ما قدمنا- هو نظرة أئمة عصره إليه وأقوالهم فيه وموقفهم منه. لقد كان سيدي سفيان الثوري رضي الله عنه - وهو من هو - يعظم شأن سيدي داود الطائي ويجلس إليه مستنصحاً، وكان إذا ذكر سيدي داود أمامه يقول : (أبصر الطائي أمره)^(٢).

ولقد التقى سيدي داود بالإمام سفيان فقال له : (إذا كنت تشرب الماء المبرد وتأكل اللذيذ المطيب وتمشي في الظل الظليل فمتى تحب الموت والقدوم على الله؟ فبكى سيدي سفيان)^(٣) .

وأما الإمام عبد الله بن المبارك رضي الله عنه فكان يقول : (وهل الأمر إلا ما كان عليه داود الطائي ؟)^(٤) ويروي عن سيدي محمد بن بشر أنه قال : (قدم علينا داود الطائي من السواد فكاننا نضحك منه، فما مات حتى سادنا) (وأكثر من ذلك أن كبار أقطاب التصوف وسادته كانوا يأتون إلى سيدي داود بعد أن انقطع لربه فيلقونه تارة أو يقفون على بابه تارة أخرى وهو يطلب منهم ألا يلقاهم لأنشغاله الكلي بالله) يروي صاحب الحلية عن عبد الله بن خبيق أنه قال : أتى فضيل بن عياض داود الطائي يعودده فقال له : (أقلل من زيارتي فإنني قد قلت الناس) كما

(١) انظر الحدائق الوردية لسيدي عبد المجيد الخاني النقشبندی ص ٨٦.

(٢) انظر سر أعلام النبلاء للذهبي : ٤٢٣/٧.

(٣) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم : ٣٤٦/٧.

(٤) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم : ٣٣٦/٧.

روى فى الحلية عن أبى أسامه أنه قال : (جئت أنا وابن عيينة داود الطائى فقال : جئتماني مرة فلا تعودا إلى)^(١) لا وكان الإمام ابن السماك واعظ الدنيا آنذاك يأتيه ويستوصيه فيروى أنه قال : أوصاني أخى داود بوصية : (أنظر أن لا يراك الله حيث نهاك وأن لا يفقدك حيث أمرك، استع في قربه منك وقدرته عليك)^(٢). وعرفت الدنيا كلها نصائح سيدى داود وحكمه الريانية وكلماته التى دوت فى سمع التاريخ لتثير دياجى القلوب وحوالك النفوس.

كان رضى الله عنه يقول : (كفى باليقين زهداً وكفى بالعلم عبادة، وكفى بالعبادة شغلاً) والعلم هنا هو العلم بالله عز وجل الذى هو ثمرة التقوى.

وأما يوماً رجل من أهله فقال له، يا أبا سليمان قد عرفت الرحم بيننا فأوصنى .. قال : فدمعت عيناه ثم قال لى : (يا أخى، إنما الليل والنهار مراحل تنزل بالناس مرحلة مرحلة حتى ينتهى بهم ذلك إلى آخر سفرهم. فإن استطعت أن تقدم فى كل يوم مرحلة زاداً لما بين يديه فافعل، فإن انقطاع السفر عن قريب ما هو والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك وأقض ما أنت قاض من أمرك فكأنك بالأمر قد بفتك، إنى أقول هذا وما أعلم أحداً أشد تضيقاً منى لذلك ثم قام)^(٣)، ومن روائع حكمه قوله عليه الرضوان : (ما أخرج الله عبداً من ذل المعاصى إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس)^(٤). وكان رضى الله عنه يقول : (لا تمهر الدنيا دينك فمن أمهرها دينه زفت إليه الندم).

وعلى يد هذا الإمام الذى سطعت فى قلبه إشراقات الكتاب والسنة واستغرقت الأنوار المحمدية ترى صفوة صوفية عصره. وحسبنا أن نذكر أنه تربي على يديه الإمام العارف سيدى معروف الكرخى وهو شيخ الإمام السرى السقطى

(١) انظر حلية الأولياء ٢٤٢/٧.

(٢) انظر: حلية الأولياء ٣٥٨/٧.

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى بتحقيق د. عبد الحميد صالح حمدان ١٩٣/١.

(٤) المصدر السابق ١٩٤/١ وحلية الأولياء ٣٥٦/٧.

الذى هو شيخ سيد الطائفة الصوفية الإمام الجنيد رضى الله تعالى عنهم وعنا به أجمعين.

وعن سيدى داود الطائى وتلامذته تفرعت طرق التصوف بسلاسلها المختلفة المنتهية إلى سيد الطائفة. وقد تسلسلت من سيدى داود الطائى الطريقة النقشبندية العلية التى انتهت فى عصرنا هذا إلى الإمام الريانى والقطب الريانى شيخى وجدى وقדותى إلى الله تعالى سيدى الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنه وعنا به، الكائن ضريحه بمنيا القمح شرقية، فهو أحد من رفعوا لواء الطريق إلى الله وقادوا القلوب على درب النور، وعنه تلقى والدى سيدى محمد أبو اليزيد المهدي رضى الله عنه هذه النسبة النقشبندية المباركة. أسأل الله تعالى أن يلحقنى بركبهم الأسعد فى الدنيا والآخرة.

ولعله يجدر بنا أن نذكر طرفاً - ولو يسيراً من كرامات شيخنا الإمام الطائى:

يروى صاب الحلية بسنده عن عبد العزيز بن محمد . قال : (رأيت فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول : من يحضر من يحضر؟ فأتيته فقال لى ما تريد ؟ قلت سمعتك تقول من يحضر من يحضر. فأتيت أسألك عن معنى كلامك فقال لى : أما ترى القائم الذى يخطب الناس ويخبرهم عن أعلى مراتب الأولياء . فأدرك فلعلك تلحق وتسمع كلامه قبل انصرافه. قال : فأتيته فإذا الناس حوله وهو يقول :

ما نال عبيد من الرحمن منزلة

أعلى من الشوق إن الشوق محمود

قال ثم سلم ونزل فقلت لرجل إلى جنبى من هذا؟ قال أما تعرفه؟ قلت لا . قال هذا داود الطائى. فعجبت فى منأى منه. فقال أتعجب مما رأيت؟ والله للذى لداود عند الله أعظم من هذا أو أكثر)^(١) وروى صاحب الحلية أن أحمد بن شراعة قال : (كنت أسبل الماء بالليل فرأيت عند قبر داود الطائى سراجاً . قال

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٣٦٠/٧ .

فذهبت أنظر إليه فإذا هو قد ذهب. ثم قال عدت إلى تسبيل الماء فإذا أنا بالسراج فذهبت فغاب! حتى فعل ذلك ثلاثاً. قال ثم نمت فرأيت فيما يرى النائم كان إنساناً يقول : لا تسبيل الماء عند القبر ولا تدن منه. قال فلم أقبل - قال الراوى عنه : فابتلى فرأيت به السل حتى مات (١).

نعمذ بالله من مخالفة أوليائه ومن التعرض لهم ونسأله تعالى أن يرزقنا حبهم وحب من يحبهم دنيا وآخرة .

وروى الإمام المناوى أن سيدى داود قال : ماتت امرأة بجوارى ولم يكن لها كبير طاعة. فقيل لى يا داود اطلع على قبرها. فاطلعت فرأيت فيه نوراً عظيماً وفرشاً وطبقة وسرراً عالية. فقلت : بيم استوجبت هذا ؟ فتوديت : استأنست بنا فى سجدتها فأنسناها فى وحدتها (٢).

إنه الكشف والمعرفة والكرامة لمن كرمه ربه واصطفاه لمعرفته.

هذا هو الإمام العارف سيدى داود الطائى الذى اغترف من بحار النور المحمدى فاستنار وأنار السبيل للسالكين من بعده. فرضى الله عنك يا سيدى داود فى أعلى مراتب الأولياء العارفين ورضى الله عنا بك ومن علينا بمعيتك المشرفة فى الدنيا ويوم الدين ببركة النبى الكريم صلى الله عليه وسلم اللهم آمين.

✱ ✱ ✱

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٣٥٨/٧ - ٣٥٩.

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١٩٥/١.

الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه

فى سجل العناية الأزلية حظى عشاق الحضرة القدسية بمرسوم السعادة الأبدية، إذ استخلصهم مولاهم لنفسه، واجتباهم لقريه وأنسه، فوفقهم فى بدايتهم للسلوك والمجاهدة، ومن عليهم فى نهايتهم بالوصول والمشاهدة، وأغدق عليهم فى تجليات أسمائه ما غيبيهم عنهم به فيه له. فهم فى جماله مهيمون وفى رياض وصاله يحبرون. رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم وأمدنا بأنوارهم لنكون فى معيتهم فى دار الفناء ودار البقاء.

ممن حظوا بذلك العطاء الإلهى والمدد الاصطفائى: الإمام الريانى ذو الفيض العرفانى حبر الشريعة وبحر الحقيقة، الصوفى التقى والولى السخى سيدى ومولوى الإمام أبو العارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى المصرى رضى الله تعالى عنه وعنا به فى الدارين.

فقيه عرف الله بقلبه وعشقه بروحه وشاهد نوره بسرّه ففرق فى بحار النور. وعالم أضاعت له مصابيح العناية سبيل الهداية فاستغرق فى خضم محيط الشريعة حتى أضحى بحراً من بحورها وطوداً من الراسخين فى علومها. وبنور الشريعة سلك طريقه إلى الحقيقة فكان متحققاً فى شريعته ومتشريعاً فى حقيقته فهو أحد أعاضل الأئمة المجتهدين وأحد أكابر الأولياء الراسخين المحققين.

والإمام الليث - رضى الله عنه - مصرى المولد والموطن والوفاء، فارسى الأصل، عربى الولاء فقد ذكر صاحب الحلية أنه كان يقول : « نحن من أهل أصبهان فاستوصوا بهم خيراً »^(١) وذكر صاحب تاريخ بغداد أن أهل بيت الإمام الليث كانوا يقولون : « نحن من الفرس من أهل أصبهان ».

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٢٢١/٧

وأما عن ولائه العربى : فيقول ابن خلكان فى (الوفيات) فى مستهل ترجمته للإمام الليث : (كان مولى قيس بن رفاعه وهو مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر القهمى)^(١) وبنو فهم الذين ينسب إليهم الإمام الليث هم : كما يذكر القلقشندى فى نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب - بطن من قيس عيلان من العدنانية.

ويؤكد ابن قتيبة الدينورى فى (المعارف) ولاء الإمام الليث لقيس قائلًا : (الليث بن سعد رضى الله عنه هو مولى لقيس ويكنى أبا الحارث)^(٢) وكذلك ذكر الإمام ابن سعد فى الطبقات أن الإمام الليث مولى لقيس. ونقل صاحب (الحديث والمحدثون) عن الإمام محمد بن سعد أنه قال : (كان الليث مولى لقريش)^(٣) وفى ذلك تأكيد لقرشية بنى فهم الذين ينتسب إليهم الإمام الليث بالولاء.

وأما عن مصرية إمامنا الليث - رضى الله عنه - فالخطيب البغدادى يقول فى تاريخه : « والمشهور أنه فهمى ولد بقرقشندة وهى قرية من أسفل أرض مصر » وقرقشندة التى يذكرها الخطيب هى - كما يضبطها ابن خلكان فى وفيات الأعيان - (قلقشندى) التى ينسب إليها العالم المؤرخ أبو العباس القلقشندى صاحب صبح الأعشى، وهى بلدة المعارف بالله تعالى القطب الريانى سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه وعنا به . وهى قرية تقع جنوب مركز طوخ بمحافظة القليوبية.

وقد ولد الإمام الليث رضى الله عنه - فى قلقشندة - سنة أربع وتسعين هـ يقول ابن خلكان « وكان الليث يقول : قال لى بعض أهلى : ولدت سنة اثنتين وتسعين للهجرة، والذى أوقن سنة أربع وتسعين فى شعبان، وتوفى يوم الخميس، وقيل الجمعة منتصف شعبان سنة خمس وسبعين ومائة ودفن يوم الجمعة بمصر فى القرافة الصغرى، وقبره أحد المزارات رضى الله عنه »^(٤).

(١) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان بتحقيق د. إحسان عباس ١٢٧/٤.

(٢) انظر المعارف لابن قتيبة ٥٠٥ - ٥٠٦.

(٣) انظر الحديث والمحدثون للشيخ محمد بن محمد أبو زهو ص ٢٩٧.

(٤) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٨/٤.

وبمقتضى هذه الرواية التى ذكرها صاحب الوفيات والتى تذكر أرجح الآراء فى تاريخى مولد ووفاة الإمام الليث رضى الله عنه يكون قد عاش إحدى وثمانين سنة كانت خيراً وبركة على الأمة بأسرها.

وقد نشأ مولانا الإمام الليث فى أرض مصر لتظفر كنانة الله بهذا الليث المقيض للذود عن عرين دين الله، ولتحمل شرف نسبته إليها ورفع لواء مجدها العلمى على يديه، ولهذا رأينا الحافظ الذهبى يصدر ترجمة الإمام الليث فى تذكرة الحفاظ بقوله : « الليث بن سعد الإمام الحافظ : شيخ الديار المصرية وعالمها ورئيسها أبو الحارث الفهمى مولاها الأصبهانى الأصل المصرى »^(١).

وقد عرف إمامنا الليث منذ شبابه الغض بمتانة دينه وحسن خلقه ونبوغته المبكر وعبقريته الفذة فى تحصيل العلوم.

وهذه رواية تصور نظرة أئمة العلم والدين للإمام منذ حداثة سنه يرويها صاحب تاريخ بغداد بسنده عن شرحبيل بن جميل بن يزيد مولى شرحبيل بن حسنة رضى الله عنهما.

يقول : (أدركت الناس أيام هشام، وكان الليث بن سعد حدث السن، وكان بمصر عبید الله بن جعفر، وجعفر بن ربيعة، والحارث بن يزيد، ويزيد بن أبى حبيب، وابن هبيرة وغيرهم من أهل مصر ومن قدم علينا من فقهاء المدينة وأنهم ليعرفون لليث فضله وورعه وحسن إسلامه على حداثة سنه وناهيك بهؤلاء أن يشهدوا لليث.. ثم يقول الخطيب - قال ابن بكير- ورأيت من رأيت فلم أر مثلاً (الليث).

وقال عنه الحافظ ابن عساكر : « كان كبار العلماء يعرفون فضله ويشيرون إليه وهو شاب ». وتدرج الإمام الليث فى مراقى الفتح والعرفان وأخذ ينهل من أوعية العلم ويثرى محصلته من جهاذة العلماء فى مختلف الأرجاء فارتحل إلى العديد من بلاد العالم الإسلامى ليلتقى بأساطين المعرفة، ويفتخر من فيوضاته

(١) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٢٤/١.

الزائخة المعطاة . يروى الخطيب البغدادي بسنده عن ابن بكير أنه قال : وحج
الليث بن سعد سنة ثلاث عشرة أى بعد المائة- فسمع عن ابن شهاب بمكة، وسمع
من ابن أبي مليكة، وعطاء بن أبي رباح، وأبي الزبير، ونافع، وعمران بن أبي أنس
وعدة مشايخ^(١).

وقد أكد ابن خلكان هذه الرحلة قائلاً : (وكان قد حج سنة ثلاث عشرة
ومائة وهو ابن عشرين سنة وسمع من نافع مولى ابن عمر رضى الله عنهما) وذكر
الحافظ أبو نعيم في الحلية أن الإمام الليث أدرك نيفاً وخمسين رجلاً من التابعين،
وأدرك من تابعي التابعين ومن دونهم مائة وخمسين نفساً^(٢)..

وكان الإمام الليث رضوان الله عليه يطلب العلم لله تعالى منزهاً عن أى
غرض دنيوى لأنه يريد أن يصل إلى الله ومن كان الله مراده تساقطت حظوظ الدنيا
بل وكل ما سوى الله من قلبه.

يدلنا على ذلك الاتجاه الرفيع والمرتقى السامى ما ذكره ابن خلكان قائلاً :
(قال الليث : كتبت من علم محمد بن شهاب الزهرى علماً كثيراً، وطلبت ركوب
البريد إليه إلى الرصافة فخفت ألا يكون ذلك لله تعالى فتركته)^(٣)..

كذلك ارتحل إلى بغداد ونشر فيها علمه ومروياته الحديثية. يقول الخطيب
في تاريخه : (وقدم بغداد وحدث بها فروى عنه من أهلها حجج بن المثنى
ومنصور بن سلمة ويونس بن محمد، وهاشم بن القاسم، ويحيى بن إسحق البلخي،
وشبابة ابن سوار، وموسى بن داود وجماعة من البصريين سمعوا منه ببغداد).

ووصل الإمام الليث إلى منزلة في العلم والحديث يغبطه عليها الأئمة. فهو
المحدث الحافظ الثقة قال عنه الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه- فيما رواه
بسنده صاحب تاريخ بغداد- : « الليث بن سعد كثير العلم صحيح الحديث » ومرة

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : ٢/١٣ وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٢٧/٨.

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبي نعيم : ٣٢٤/٧.

(٣) انظر : وفيات الأهمان لابن خلكان ١٢٧/٤.

أخرى قال - فيما رواه الخطيب أيضاً - « ليس فيهم - يعنى أهل مصر - أصح حديثاً من الليث بن سعد . وعمرو بن الحارث يقاربه » .

وحسبنا أنه أحد شيوخ الشيخين البخارى ومسلم . وقد أحصى الأستاذ عبد الله شحاته فى كتابه « الإمام المصرى الليث بن سعد » مرويات الإمام الليث فى الصحيحين وسنن النسائى فذكر أن البخارى قد ذكر له فى جامعه الصحيح ٢٩٨ حديثاً وروى له مسلم ٢٨٥ حديثاً ، وروى له النسائى ٢٣٢ حديثاً . كذلك ذكر الإمام أبو نعيم فى الحلية من مرويات إمامنا الليث بضعة عشر حديثاً ، ويجمل بنا أن نتبرك بذكر واحد منها من المتفق عليه . فقد روى الحافظ أبو نعيم بسنده عن الإمام الليث عن ابن أبى مليكة عن المسور بن مخرمة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول وهو على المنبر : « إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب ، فلا إذن ، ثم لا إذن ، ثم لا إذن ، فإن ابنتى بضعة منى يرببنى ما رابها ويؤذنينى ما آذاها » (١) .

صدق مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، وأما عن منزلة الإمام الليث فى الفقه : فبحسبنا أن إمامنا الشافعى رضى الله عنه كان يفضل على الإمام مالك رضى الله عنه فى (حسن المحاضرة) « وقال الشافعى : كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه » (٢) ، إذ لم يوجد للإمام تلامذة يقومون بحق مذهبه من التدوين والانتشار كما كان للإمام مالك من تلاميذه الأعلام الذين دونوا مذهبه وآراءه . كذلك روى الإمام أبو نعيم بسنده عن حرملة بن يحيى أنه قال : - « سمعت الشافعى يقول : الليث بن سعد اتبع للأثر من مالك » (٣) ويقول ابن خلكان فى الوفيات : « وكان ابن وهب يقرأ عليه مسائل الليث فمرت به مسألة فقال رجل من الغرياء : - أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكاً فيجيب هو . » فأقل »

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٢٥/٧ .

(٢) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٢٤/١ .

(٣) انظر حلية الأولياء ٣١٩/٧ .

فقال ابن وهب للرجل . بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو . والله الذى لا إله إلا هو ما رأينا أحداً أفقه من الليث «^(١).

وقال ابن وهب مرة أخرى- فيما رواه الخطيب فى تاريخه -« لولا مالك والليث لضل الناس » يتضح لنا من ذلك بجلاء أن الإمام الليث رضى الله عنه كان قمة الحديث والفقه فى عصره .

ونضيف: أنه كان قمة فى شتى المعارف والعلوم بشهادة أئمة عصره، يروى صاحب تاريخ بغداد بسنده عن عبد الملك بن يحيى بن بكير أنه سمع أباه يقول : «ما رأيت أحداً أكمل من الليث بن سعد، كان فقيه البدن عربى اللسان، يحسن القرآن والنحو ويحفظ الشعر والحديث، حسن المذاكرة، وما زال يذكر خصالاً جميلة ويعقد بيديه حتى عقد عشرة . لم أر مثله»

ومما يؤكد موسوعية الإمام الليث العلمية ما ذكره الحافظ ابن حجر فى كتابه « الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية » من أن سيدى شعيب بن الإمام الليث رضى الله عنهما قال :

(قيل لأبى : إنا نسمع منك الحديث ليس فى كتبك! قال : لو كتبت ما فى صدرى فى كتبى ما وسعه هذا المركب).

لله درك يا إمام من حبر تضيق بحمل علمك السفائن ؛ لأنها تسبح فى البحر وأنت البحر الذى غابت عن العلماء سواحه !!

تلك شذرات قليلة وقطرات يسيرة تناولناها من المحيط العلمى لإمام الأئمة مولانا الليث. وقد اقتضت شخصية الإمام الليث أن نشغل من المقال هذا الحيز عن الجانب العلمى، فقد كان هذا الجانب هو القاعدة الراسخة والمنطلق الطبيعى لإمامنا الليث وغيره من علماء الأولياء وأولياء العلماء إلى رحاب التصوف وآفاق الولاية. وقد أكدت لنا شخصية العارف الليث أن الشريعة هى شجرة الحقيقة فإذا أثمرت لدى العالم المتشرع كانت الثمرة هى الولاية وكان النتاج هو معدن الولى.

(١) انظروفيات الأعيان لابن خلكان : ١٢٧/٤ .

وحيثما نتناول الجانب الصوفي عند الإمام الليث بالتعرف ثم بالتعريف نجده الخلفية العملية للجانب العلمى. ولأنه (خلفية) نجده مستوراً وراء هذا الجانب لذا لم نجد فيما كتبه المؤرخون للإمام ما يفى بقليل من حق هذا الجانب الذى عرفه العارفون وهباً ولم يعرفه العلماء كسباً.

لقد ظهر علمه للناس لينتفعوا به. ويطن عمله وتحققه لأنه لله فبقى بينه وبين الله تعالى لم يقف عليه إلا أهل البصيرة عن الله عز وجل ومن ثم لم يتعرف على حقيقة ولاية مولانا الليث إلا الأولياء الذين وقفوا على بحر عطائه وعلمه اللدنى وبركاته الزاخرة وأحواله الفاخرة، فالصوفى من حيث حقيقته مضمون به على غير أهله ومقامه عند الله سر من أسرار الله تعالى هذا وإن اشتهر ذكر كثير من الأولياء للاقتداء بهم ويهديهم المسمى.

ورغم تستر الجانب الصوفى وراء الوجه العلمى لشخصية الإمام الليث فإننا لم نعدم فى محيط العلم الكسبى بعض ما يصلنا بصوفية هذا العارف الواصل إلى الله عز وجل . لقد وقف الإمام الشافعى رضى الله عنه على قبر الإمام الليث حين أتى مصر ولم يظفر بلقائه وقال : « لله أنت يا إمام » لقد حزت أربع خصال لم يكملهن أحد: العلم والعمل والزهد والكرم).

أما العلم فقد تحدثنا عنه بحسب المقام، وأما جانب العمل وهو الجانب التطبيقى الصوفى الذى تثمر به شجرة الحقيقة : فإمامنا نموذج لم نقف عليه لأحد فيما نعلم بعد، يقول الإمام النبهانى فى : « جامع كرامات الأولياء » : - وقال محمد ابن وهب : سمعت الإمام الليث يقول : إني لأعرف رجلاً لم يأت الله بمحرم قط)) قال : فعلمنا أنه يعنى نفسه بذلك لأن هذا لا يعلم من أحد «^(١) إنها قمة التقوى والورع عن محارم الله.

وقد عرف الحق تعالى أولياءه فى محكم كتابه بأنهم : « الذين آمنوا وكانوا يتقون »^(٢) وأى تقوى تلك التى تقى صاحبها محارم الله فلا يباشر معصية قط ؟ « إن

(١) انظر : جامع كرامات للإمام النبهانى ٤١٦/٢ .

(٢) سورة يونس / ٦٢ .

هذا العطاء الإلهي قد بهر الأئمة ومن ثم يروى الإمام النبهاني وغيره أنه لما قدم الإمام الشافعي إلى مصر أتى قبر الإمام الليث وزاره وقال : (ما فاتني شيء أشد على من ابن ذئب والليث بن سعد)^(١) وابن ذئب هذا هو الإمام محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة القرشي أحد الأئمة، وقد قال فيه الإمام أحمد (يشبه بابن المسيب، وهو أصلح وأروع وأقوم بالحق من مالك).

وكان الإمام الليث بشهادة العلماء فيه جامعاً في سلوكه لكل أنواع البر والطاعات فرضها ونفلها حتى كان يراه بعضهم أفضل الخلق في عصره. إذ يروى عن ابن أبي مريم أنه كان يقول : (ما رأيت أحداً من خلق الله أفضل من ليث، وما كانت خصلة يتقرب بها إلى الله عز وجل إلا كانت تلك الخصلة في الليث) ١١.

لقد تقرب إلى الله حتى أحبه، واشتغل قلبه بالله فانشغلت جوارحه في طاعته. كان الليل سترًا بينه وبين الخلق ومحراباً يتجه فيه للحق، وكان نهاره نفعاً وبركة للمسلمين، يروى الخطيب في تاريخه بسنده عن أشهب بن عبد العزيز يقول : «كان الليث له كل يوم أربعة مجالس يجلس فيها. أما أولها فيجلس لنائب السلطان في نوائبه وحوائجه، وكان الليث يغشاه السلطان فإذا أنكر من القاضي أمراً أو من السلطان : كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل، ويجلس إلى أصحاب الحديث، وكان يقول : نجحوا أصحاب الحوانيت فإن قلوبهم معلقة بأسواقهم ويجلس للمسائل - أي الفتوى - يغشاه الناس فيسألونه، ويجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد من الناس فيرده كبرت حاجته أو صغرت) عاش سيدي الإمام الليث حياته في مرضاة الحق ونفع وهذه هي الولاية الكبرى .

ثم نطل على جانبين عظيمين من صوفية هذا الإمام وهما اللذان أشار إليهما إمامنا الشافعي - رضى الله عنه - آنفاً في ثنائيه عليه وهو يزور قبره : الزهد والكرم.

فيذكر المؤرخون أن الإمام الليث كان على جانب عظيم من الثراء والسخاء

(١) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام النبهاني ٤٤٦/٢.

أما ثراؤه فيروى فيه صاحب الحلية بسنده عن ابن رميح أنه قال : (كان دخل الليث ابن سعد في كل سنة ثمانين ألف دينار ما أوجب الله تعالى عليه درهماً بركة قط)^(١) وفي الرواية نفسها يتضح مبلغ كرم ذلك الإمام، فإنه كان لا يحول عليه الحول إلا وقد أنفق ماله في مرضاة الله يصل الفقراء وينفق على البؤساء، ويصون حرمة العلماء .

وقد ضرب الإمام الليث بسخائه أروع مثل للصوفية الأثرياء، ولست مجاوزاً للحقيقة حين أقول أنه لم يبق لحاتم الطائي فضلاً عليه في السخاء . يروى الإمام أبو نعيم بسنده عن يحيى بن بكير أنه قال : (وصل الليث بن سعد ثلاثة أنفس بثلاثة آلاف دينار، احترقت دار ابن لهيعة فبعث إليه بألف دينار، وحج فأهدى إليه مالك بن أنس رطباً على طبق فرد إليه على طبق ألف دينار، ووصل منصور بن عمار القاضي بألف دينار وقال : لا تسمع بهذا ابني فتهون عليه، فبلغ ذلك شعيب ابن الليث فوصله بألف دينار إلا ديناراً، وقال إنما نقصتك هذا الدينار لثلاث أساوي الشيخ في عطيته)^(٢) .

وروى الإمام ابن خلكان في الوفيات أن الإمام مالكا أهدى إلى الإمام الليث صينية فيها تمر فأعادها مملوءة ذهباً^(١) ثم قال صاحب الوفيات : (وكان يتخذ لأصحابه الفالودج ويعمل فيه الدنانير ليحصل لكل من أكل كثيراً أكثر من صاحبه) كما يقول ابن خلكان أيضاً : (وقال منصور بن عمار، أتيت الليث فأعطاني ألف دينار وقال : صن بهذه الحكمة التي آتاك الله تعالى) .

وكان سيدي منصور بن عمار أحد أجلاء الصوفية المارفين بالله تعالى، فمنحه الإمام الليث هذا العطاء لثلاث يبدل حكمته الريانية لغير أهلها تكسباً بالعلم^(١) . ويروى صاحب سير أعلام النبلاء عن ابن وهب أنه قال : (كتب مالك إلى الليث، إنني أريد أن أدخل ابنتي على زوجها فأحب أن تبعث إلي بشيء من عصفر .

(١) انظر : حلية الأولياء لأبي نعيم ٣٢٢/٧ .

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبي نعيم ٣٢٢/٧ .

قال ابن وهب: فبعث إليه الليث بثلاثين جملًا عصفرا فصبيغ منه لابنته وباع منه بخمس مائة دينار وبقي عنده فضلة» (١) !!

لقد أقام سيدي الإمام الليث البرهان الساطع على أن الأولياء هم الزاهدون في الدنيا وهي تتمرغ تحت أقدامهم وألقى بألف حجر في وجه أولئك الذين يزعمون أن التصوف سلبية مع الحياة وفشل في تسخير الدنيا، ومن ناحية أخرى أعطى الإمام الليث الدرس الصوفي العملي على أن الزهد في الدنيا لا يعني بالضرورة الفقر المادي بل إن روعة التصوف تتجلى في الزهد فيها وهي ملك اليمين، ومن ثم نجد هذا الثراء الذي توفر لإمامنا الليث أن إمامنا الشافعي رضى لله عنه يشهد له بالزهد.

وأذكر أن شيخنا العارف بالله تعالى سيدي الشيخ جودة إبراهيم شيخ الطريقة النقشبندية قدس الله سره ورضى عنه وعنا به قد قال يوماً لأحد مريديه: - (أخرج الدنيا من قلبك إلى يدك فإنها لا تضرك) فالزهد لا يعني المعجز عن تحصيل متطلبات الحياة إطلاقاً ، كل ما هنالك أن بعض الصوفية الأجلاء قد يؤثر التجرد الكامل لله تعالى ظاهراً وباطناً لا عن عجز وإنما رغبة في التفرغ لمولاه بينما يؤثر صنف آخر كالإمام الليث التقرب إلى الله بنعم الله مما يتطلب توافر الدنيا مع الزهد فيها بحيث لا يتأثر القلب بفدوها ورواحها . ولعل أصدق شاهد على عزوف مولانا الليث عن الدنيا رغم كونها في يده هو رفضه لعرض الخليفة له أن يكون والياً على مصر.

فيروى الخطيب البغدادي بسنده عن ابن بكير قال : (قال الليث : قال لي أبو جعفر : تلى لي أمر مصر ؟ قلت لا يا أمير المؤمنين إني أضعف عن ذلك ، إني رجل من الموالى ، فقال : ما بك ضعيف معي ، ولكن ضعيف نيتك في العمل عن ذلك لي) (٢) !!

لقد أدرك الخليفة أنه قوى على الإمارة، ولكنه يأبأها رغبة عن الجاه وبعداً

(١) انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي ٢١٩/٨ .

(٢) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي : ٢٢٥/١ .

عن أوضاع يأبأها عليه دينه. ومع بعد الإمام الليث عن الولاية وتحية عن السلطان فإنه لم يدخر وسعاً فى النصيح لأولى الأمر حرصاً على مصلحة المسلمين، يروى الإمام أبو نعيم بسنده عن عبد الله بن صالح يقول : سمعت الليث بن سعد يقول : (لما قدمت على هارون الرشيد قال لى : يا ليث : ما صلاح بلدكم؟ قلت: يا أمير المؤمنين ، صلاح بلدنا بإجراء النيل، وإصلاح أميرها.. ومن رأس العين يأتى الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي) فقال : صدقت يا أبا الحارث(١)))

وفىما يتصل بنظرة الحكام للإمام الليث أنه قال : (لما ودعت أبا جعفر ببيت المقدس قال : أعجبني ما رأيت من شدة عقلك، والحمد لله الذى جعل فى ريعتي مثلك) قال شعيب وكان أبى يقول : لا تخبروا بهذا ما دمت حياً (.)

إنه الإخلاص لله وعدم رؤية النفس وإنكار الذات مع شموخ المنزلة وكلها مثاليات الصوفية، لقد كان سيدى الليث ثريا فى أخلاقه ومثالياته أكثر من ثرائه المادى وكانت له الحجة فى منازعه واتجاهاته فكان قرآنياً بكل ما تحويه الكلمة.

ففىما يتعلق بمنزعه فى الثراء ومشربه فى اقتناء الدنيا- كخادمة للأخرى- يروى صاحب النجوم الزاهرة أن الإمام مالكا كتب إليه من المدينة: (بلغنى أنك تأكل الرقاق - بضم الراء - وتلبس الرقاق - بكسرهما- وتمشى فى الأسواق، فكتب إليه الليث بن سعد: (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق)(٢)).

وسلم الإمام للإمام فى اتجاهه المستمد من كتاب الله تعالى .

وإذا كان لكل ولى شاهد على صدق ولايته للخلق فما أغنى الإمام الليث عن الشواهد. ولكن بعض المحبين للأولياء يفرحون بكرامتهم ويطربون لها بنفس الدرجة التى يفتقر بها ضعفاء اليقين إلى الكرامة كدليل على صحة الولاية، ومن ثم أتمم حديثى الموجز عن الجانب الصوفى عند الإمام الليث بتلك الكرامة التى

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٢٢/٧.

(٢) سورة الأعراف : ٣٢.

ذكرها سيدى الإمام النبهانى فى كتابه جامع الكرامات إذ يقول : (روى عن الفتح بن محمود عن أبيه أنه قال : بنى الإمام الليث داره فهدمها ابن رفاعه عناداً له فى الليل، ثم بناها ثانياً فهدمها أيضاً. فلما كان الليلة الثالثة أتاه آت فى منامه وقال : اسمع يا أبا الحارث (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض)^(١) فلما أصبح فإذا ابن رفاعه قد لحقه الفالج ومات بعد ذلك^(٢) .

وأريد أن أنفذ إلى ما وراء الكرامة هنا كخارقة للعادة يكرم الله به وليه، وأتأمل ملياً فى مضمون الآية التى تحقق بها مولانا الليث رضى الله عن. فقد جعله الله إماماً وجعله وارثاً محمدياً، ومكن له فى الأرض حتى عرضت عليه ولاية مصر فأبأها فى شموخ العالم وزهد الولي وتحقيق العارف .

ومن ثم حق للإمام أبى نعيم أن يصفه فى (حلية الأولياء) ببعض ماله قائلاً : (ومنهم الثرى السخى الملى الوفى، لعلمه عقول، ولماله بذول، أبو الحارث الليث ابن سعد. كان يعلم الأحكام ملياً، ويبذل الأموال سخياً. وقيل إن التصوف : السخاء والوفاء)^(٣).

ومن ثم حق لنا أن نتقرب بذكره إلى الله لأنه حبيبه ووليه، وأن نتوسل به إليه فى أن يحشرنا معه وفى حزيه مرددين مع قائل القوم العارف بالله :

بملاذنا الليثى بحر عطائه	عم البرية للأحبة والعمدا
قطب الزمان ومعدن العرفان من	قد كان يشهد للحقائق محتدا
علم الهدى كالشمس فى إشراقها	كم ذا أجار المستغيث وأيدا
الله ينفعنا بهم وبحبهم	دنيا وأخرى لا يزال مؤيدا

رضى الله عنك يا سيدى يا ليث الأولياء وولى العلماء ومنحنا بحبك وبركاتك جزيل العطاء فى الدنيا ويوم الجزاء بجاه سيدنا ومولانا محمد سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وصحبه الكرام الأصفياء .

(١) سورة القصص / ٥.

(٢) انظر : جامع الكرامات للإمام النبهانى ٤٤٦/٢.

(٣) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ٢١٨/٧ - ٢١٩.

الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه

تحت لواء الولاية لله عز وجل انخرط العلماء العاملون فى سلك زمرة العارفين الريانيين الذين سطعت أنوار الحقيقة فى مرآة قلوبهم بعد أن صقلت بماء العلم وتألقت بأكسير العمل والمجاهدة فلاح فى تلك القلوب إشراق النور الإلهى والفيض الربانى ووسعت معرفة الحق تعالى التى لم تتسع لها أرض ولا سماء .

إنها قلوب العلماء العاملين والصفوة العارفين رضى الله عنهم وعنا بهم تحت لواء ولاية رب العالمين فى الدنيا ويوم الدين .

فى هذا المحيط الربانى تشع أنوار عالم جعله الله حجة فى أرضه واستحفظه على شريعة مصطفىاه من خلقه - صلى الله عليه وآله وسلم - وآتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما ووالاه واجتباؤه إنه الإمام العارف والولى الشامخ إمام دار الهجرة ورافع لواء الحضرة سيدى الإمام مالك بن أنس الأصبحى رضى الله تعالى عنه وعنا به فى معية إمامنا الشافعى رضوان الله عليه دنيا وأخرى .

نلتقى الآن بهذا الإمام فى علياء شوامخ أعلام الصوفية لنؤكد من خلال إبراز صوفية أئمة الشريعة الأربعة التلازم بين الشريعة والحقيقة وأنه لا انفكاك بينها فى نفس الأمر، وفى اعتبارنا إذا صح تصورنا لكل من مفهومى الشريعة والحقيقة؛ وقد لا تجدى الجدليات المنطقية فى هذا الصدد بقدر ما نتمثل ذلك الارتباط واقعا عمليا فى شخصيات تمثل القمة فى التشريع وهى متحققة بالضرورة، أو فى أخرى تتسنى الذروة فى التحقيق وهى راسخة فى التشريع .

وفارس حلبتنا الآن لا يمكننا فى تلك العجالة أن نفى بحق أى جانب من جوانب عظمتهم كمحدث وفقه وكصوفى على النحو اللائق به، ومن ثم فأتجاهنا هو

إجلاء الجانب الصوفى عنده بما يستلزم ذلك من رسم إطار تاريخى وعلمى تتضح فيه - على قدر المقام - المعالم الصوفية. وحين نتعرف على الإطار التاريخى نعلم أولاً إلى نسب الإمام وأصله الذى نبت منه: فنجد أنه ينتمى إلى قبيلة يمنية هى قبيلة (ذى أصبح) ونجد ابن خلكان يذكر نسبه قائلاً: (الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان - بغين معجمة وياء تحتها نقطتان ويقال عثمان - بتاء مثثة وعين مهملة - بن جيثل بجيم وطاء مثثة وياء ساكنة تحتها نقطتان، وقال ابن سعد هو خثيل بخاء معجمة ابن عمرو بن ذى أصبح، واسمه الحارث الأصبحى المدنى^(١)).

وقد ذكر ابن خلدون فى تاريخه أن ذا أصبح كان من ملوك اليمن فى الإسلام. بينما تذكر المصادر الأخرى أن صلة الأسرة بالإسلام بدأت عند أبى عامر الجد الثانى للإمام، إذ يذكر صاحب (ترتيب المدارك)، والمقدسى فى (التتوير) أن أبا عامر كان صحابياً يشهد المغازى كلها مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ماعدا بدر^(٢).

وثمة رواية أخرى تذكر أن أبا عامر كان تابعياً مخضرمًا حضر المدينة بعد انتقال الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى جوار ربه، وصاهر بنى تميم. وتطرقت رواية ثالثة فذكرت أن مالكا الجد الأول كان أول من قدم من الأسرة المدينة المنورة متظلماً من بعض ولاية اليمن.

وقد ذكر المؤرخون أن مالكا جد الإمام من أكابر التابعين العلماء العاملين، وقد روى عن بعض الصحابة وروى له الإمام فى الموطأ وذكرته بعض المصادر أنه كان أحد الأربعة الذين حملوا سيدنا عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وعنا به إلى قبره ليلاً^(٣).

(١) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٥/٤.

(٢) انظر: ترتيب المدارك للقاضى عياض: ١٠٢/١.

(٣) انظر (مالك: تجارب حياة) لأمين الخولى ص ٤٧ سلسلة أعلام العرب.

وأما سيدنا أنس والد الإمام فقد كان رابع إخوة ثلاثة له هو أكبرهم هم: أويس ونافع والربيع. وتذكر الرواية أنه اشتغل بالحديث الشريف كما يذكر المقدسى الحنبلى أنه كان فقيها.

وأما والدة سيدنا الإمام مالك فهي السيدة: العالية بنت شريك الأزدي^(١) -رضى الله عنها - ونخلص من ذلك إلى أن أبوى الإمام - رضى الله عنهما - كانا عربيين يمنيين.

وقد ولد مولانا الإمام مالك رضى الله عنه سنة ثلاث وتسعين للهجرة الشريفة على أشهر الأقوال وأرجحها فيروى صاحب (تزيين الممالك) أنه قال -رضى الله عنه - (ولد سنة ثلاث وتسعين) ويذكر المؤرخون أن أمه حملت به ثلاث سنين، وكان العناية أبت إلا أن تُظهِرَ تَفَرُّدَ هذا الإمام حتى وهو فى عالم الغيب. وقد كان العرب يرون فى طول مدة الحمل إنضاجا للجنين، وفى ذلك يقول طرماح:

يضمن بحملنا الأرحام حتى تتضجنا بطون الحاملات^(٢)

ومما يؤكد صحة ثبوت هذه المدة لحمل الإمام - حيث استبعد ثبوتها بعض العلماء المعاصرين أنه أفتى فى مذهبه بجواز بقاء الجنين ثلاث سنين فى بطن أمه. وفى رحاب دار الهجرة ولد أمام دار الهجرة على مسافة اثنين وتسعين ومائة كيلومتر. تقريبا شمالى المدينة المنورة حيث يقع (ذو المروة) فى بيت تحوطه العيون والبساتين وتحفه روحانية الأصل العريق والمحتد الإسلامى.

ويدرج فى أرجاء تلك البيئة الطفل الأشقر عظيم الرأس واسع العينين كبير الأذنين ذو وجه مليح تشوب بياضه حمرة وضأة تنعكس فيها نورانية الفطرة الزكية. وكانت الوجهة إلى آفاق النور. حفظ الإمام القرآن الكريم وأحكم تجويده فأخذ القراءة عرضا عن نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم إمام أهل المدينة وأحد القراء السبعة.

(١) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٩/٨.

(٢) انظر: مالك: تجارب حياة لأمين الخولى ص ٥٦.

واشتعلت منذ الصبا المبكر عند الإمام جذوة التطلع إلى نور العلم فلازم العلماء ملازمة حياة يتنفس في مجالسهم علما ويتزود من محصلاتهم معرفة. وكانت المدينة في وقته منارة العلم والفتوى ومحط رجال العلماء وموئل الأساطين في العلم والفقه.

وهذه روايه يذكرها صاحب (ترتيب المدارك) تصور لنا إقبال الإمام على العلم منذ صباه الباكر فيذكر أن الإمام مالكا قال : (كان لى أخ فى سن ابن شهاب، فألقى أبى يوما علينا مسألة فأصاب أخى وأخطأت. فقال لى أبى: ألهتك الحمام عن طلب العلم؟ فغضبت وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين - وفى رواية ثمانى سنين - لم اخلطه بغيره وكنت أحمل فى كفى تمرأ وأناوله صبيانه وأقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول). وقال ابن هرمز يوما لجاريته من بالباب فلم تر إلا مالكا فرجعت فقالت: ما ثم إلا ذلك الأشقر. فقال أدعيه فذلك عالم الناس؟

«وكان مالك قد اتخذ ثيابا - أى ثيابا كالسراويل - محشواً للجلوس على باب ابن هرمز يتقى به برد حجر هناك. وقيل بل من برد صخر المسجد وكان فيه مجلس ابن هرمز» كما اختلف الإمام مالك كذلك إلى ربيعة الراى أحد أئمة الفقهاء وعالمقة الجدل والدهاء.

يروى صاحب تاريخ بغداد أن الإمام مالكا كان يقول : (ذهبت حلوة الفقه منذ مات ربيعة بن عبد الرحمن) .

ومن أساتذة الإمام مالك كذلك محمد بن شهاب الزهرى واضع علم الحديث رواية عند كثير من العلماء وكان يلقب بأعلم الحفاظ.

أما الصورة التى كان يتلقى الإمام بها علمه فهناهيك بها ذروة فى الأدب مع الله ومع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

يذكر صاحب المدارك أن سيدنا مالكا سئل: أسمع عن عمرو بن دينار؟ فقال: رأيته يحدث والناس قيام يكتبون فكرهت أن أكتب حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا قائم!!

ولو ذهبنا لتلمس مصدر علم الإمام وشيوخه الذين أخذ عنهم لرمنا فوق الطاقة وحسبنا أن نذكر أن الإمام المناوى قد ذكر فى طبقاته أن سيدنا مالكا قد أخذ عن سبعمائة شيخ فأكثر^(١) وأن الإمام الشعرانى - رضى الله عنه وعنا به - قد ذكر أن الإمام أخذ عن تسعمائة شيخ منهم ثلاثمائة من التابعين^(٢) كما ذكرت المصادر فى ثبت شيوخه مولانا الإمام جعفر الصادق والإمام نافع وابن المنكر وعروة بن أذينة وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين.

ولم يصل الإمام إلى تلك المنزلة التى عرفتها الأمة له إلا بالفتح العلمى المحمدى الذى راع أئمة عصره.

يروى الإمام أبو نعيم فى (حلية الأولياء) بسنده أن الإمام مالكا كان يقول: (ما أفتيت حتى شهد لى سبعون أنى أهل لذلك)^(٣).

ويحدثنا الإمام المناوى عن بعض ما حازه الإمام من منزلة فى العلم فيقول : (كتب بيده مائة ألف حديث، وجلس للتدريس وهو ابن سبع عشرة سنة، وصارت حلقاته أكثر من حلقة مشايخه فى حياتهم، وكان الناس يزدهمون على بابيه لأخذ الحديث والفقه كازدحامهم على باب السلطان)^(٤).

وحسبنا بحق أنه شيخ إمامنا الشافعى - رضى الله عنه - الذى ملأ طباق الأرض علما والذى كان يقول عن أستاذه : (إذا ذكر العلماء فمالك النجم)^(٥) وقال (لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز) وقال عن كتاب شيخه «الموطأ» (ما أعلم بعد كتاب الله أصح من موطأ مالك).

وقال أيضا : (ماكتاب بعد كتاب الله عز وجل أنفع للمسلمين من موطأ مالك).

(١) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى : ٢٨٢/١.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ٤٥/١.

(٣) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٣١٦/٦.

(٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ٢٨٢/١.

(٥) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي : ٥٧/٨.

وهذا هو الإمام يحيى القطان يقول : (ما أقدم على مالك فى زمانه أحد).

ويروى الحافظ أبو نعيم بسنده عن القعنبي أنه قال (أتينا سفيان بن عيينة فرأيت حزيناً. فقيل: بلغه موت مالك بن أنس رحمه الله. ثم قال سفيان: ما ترك على الأرض مثله).

وذروه الأوسمة التى تقلدها إمام دار الهجرة من سيد الخلق - صلى الله عليه وآله وسلم مارواه صاحب الحلية بسنده عن إسماعيل بن مزاحم المروزي - وكان من أصحاب ابن المبارك العباد - قال : (رأيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم فى المنام فقلت يا رسول الله من نسأل بعدك؟ قال: مالك بن أنس)^(١).

وهنا نقف على ساحل المحيط العلمى ونتوجه بعد تلك الرؤية العابرة إلى المحيط الصوفى العلمى لننفى بالدليل القطعى أن ثمة انفصالاً أو ازدواجية حقيقية بين التشريع والتحقق لدى صوفية العلماء وعلماء الصوفية. ونؤكد أن شجرة العلم ما بسقت فروعها وآتت أكلها لدى هؤلاء القوم إلا بعد أن سقيت بماء العناية، وما أثمرت شجرة الحقيقة إلا بعد أن ارتوت بماء الشريعة. وثمة واضح البرهان.

يروى الإمام أبو نعيم بسنده إلى أبى عبد الله مولى الليثيين أنه قال : (رأيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فى المسجد قاعداً والناس حوله ومالك قائم بين يديه، وبين يدي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مسك هو يأخذ منه قبضة قبضة فيدفعها ومالك ينشرها على الناس. قال مطرف: فأولت ذلك العلم واتباع السنة)^(٢).

إن سيدنا مالكا - رضى الله عنه - مثله مثل باقى الأئمة الأربعة - لم يحتجب عن سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولكن الحقيقة سر من أسرار الله عز وجل فى قلوب أصفياه ومن ثم فلا تباح إلا بإذن الله.

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم : ٢١٧/٦.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم : ٢١٧ / ٦.

وإذا احتجبت الشمس عن ذي رمد ففى رؤية السليم دليل!!

وقد يتبدى جزء من الحقيقة للتيقن من وجودها . ومن ذلك القبيل ما رواه الإمام أبو نعيم بسنده عن المثنى بن سعيد القصير قال: سمعت مالك بن أنس يقول: (ما بت ليلة إلا رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)^(١). إنه اتصال الأصل بالفرع.

وكيف يحتجب عن الشمس من يوصل الناس بضياؤها؟؟ وبمقدار ذلك الاتصال الذى هو لب صوفية الإمام كان تعظيمه لصاحب الشرع صلى الله عليه وآله وسلم،،

وفى هذا الصدد يقول الإمام المناوى رضى الله عنه : (.. وإذا أراد الجلوس للحديث اغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا وتعمم وقعد على منصته بخضوع وخشوع ووقار، ويبخر المجلس من أوله إلى آخره بعود أدبا مع المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى بلغ من تعظيمه له أنه لدغته عقرب وهو يحدث ست عشرة مرة فصار يصفى ويتلوى حتى تم المجلس وتفرق الناس وقال صبرت إجلالا للمصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم -)^(٢)}}

إنه فى حضرة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل أن يكون فى مجلس علم، وقد اقتضاه أدبه مع سيد الخلق - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يؤثر الحضور معه على سلامة نفسه. فسلمه الله.

وليت شعرى هل يقدر إنسان عادى على تحمل ست عشرة لدغة من عقرب
مالم يكن محصنا بالمدد المحمدى؟؟

ولقد اقتضاه أدبه الجم مع مولانا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه لم يركب دابة قط فى مدينة سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إكراما لذاته الشريفة واحتراما لمثواه العظيم.

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٦ / ٢١٧.

(٢) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢٨٢/١.

يقول مولانا الشعرانى رضوان الله عليه فى ترجمة سيدنا مالك من طبقاته:
(وكان يمشى فى أزقة المدينة حافيا ماشيا ويقول: أنا استحي من الله تعالى أن أظأ
تربة فيها قبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بحافر دابة)^(١) ١١
ألا فليستح المجترئون على المقام المحمدى الواهمون أنه صلى الله عليه
وسلم كسائر البشر ١١

أما عن عباداته رضى الله عنه: فكانت تلازم أنفاسه فى الليل والنهار من
صوم وتهجد، إلى ذكر وتفكر. كان مثال المخبت المتبتل إلى الله تعالى مع إمامته
ومستوليته العلمية.

يقول مولانا الشعرانى رضوان الله عليه : (وكان إذا دخل بيته يكون شغله
المصحف، وتلاوة القرآن، وكانت السلاطين تهابه)^(٢) ١١

وتحدثنا الروايات أن الإمام مالكا اختلى وانقطع إلى الله. فقد ذكر مولانا
الإمام الغزالى - رضى الله عنه - فى الإحياء إن سيدنا مالكا كان يشهد الجنائز،
ويعود المرضى ويعطى الإخوان حقوقهم، فترك واحدا واحدا ثم تركها كلها وقال: لا
يتهىأ للرجل أن يخبر بكل عذر له. ويقول عنه الإمام الشعرانى عليهما الرضوان:
(ومكث رضى الله عنه خمسا وعشرين سنة لم يشهد الجماعة، فقيل له: ما يمنعك
من الخروج؟ فقال: مخافة أن أرى منكرا أحتاج أن أغیره)^(٣) ١١

ويعلق الإمام الشعرانى على ذلك بقوله: (وقلت إنما سومح فى ذلك لأنه
مجتهد، ولو فعل ذلك غيره لا يقدر على ذلك والله أعلم)^(٤).

وأقول: إن ظاهرة هذه الخلوة هو ما عبر عنه الإمام مالك رضى الله عنه من
تحاشى رؤية منكر لا يقدر على تغييره.

وحقيقة سر تلك الخلوة يكمن فى صوفية الإمام الذى قدم للناس حقهم فى

(١)، (٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ٤٥/١ .

(٣) (٤) المصدر الأخير.

بيان أحكام الشريعة واختلى ليؤدى حق الله فى العبادة فتفرد لله، وعكف على المراقبة والمشاهدة، ولم يطلع الخلق على ما بينه وبين الله تعالى، ولقد أشار إلى حقيقة ما كان عليه من العبادة وما انتهجه من الانقطاع إلى ربه إذ قال - فيما ذكره عنه المناوى - (أدركت الناس وهم يتعلمون العلم حتى يصل أحدهم إلى الأربعين فينقطع للعبادة ويطوى الفراش ويقوم الليل كله)^(١).

ولقد حدد الإمام سن الأربعين لبدء الانقطاع إلى الله تعالى لأنها السن التى بعث فيها كل رسول إذ عندها يكتمل الرجل.

فهى عند علماء الصوفية نقطة تحول من العلم إلى العمل الدائم لله تعالى، ومن التخلي للتخلي، ومن الصفاء للمشاهدة. ولقد أدرك الإمام أن العلم رسالة ومسئولية بقدر ما هو هبة وعناية، فما العلم الحقيقى إلا نور من عند الله للاهتداء به إلى الحق والحقيقة، يقول الإمام: (العلم ليس بكثرة الرواية بل نور يضعه الله فى القلب يفرق بين الحق والباطل) وعن مسئوليته يقول عليه الرضوان: (يلغى أن العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)^(٢) ولعظم تلك المسئولية فقد امتحن الإمام محنة الكبار حتى تألق جوهره أصفى من خالص النضار.

يقول الإمام المناوى: (وامتحن فى خلافة المنصور - أو الرشيد - لإفتائه بعدم وقوع طلاق المكره وتقديمه عثمان على على رضى الله عنهما. فضربه أمير المؤمنين من ثلاثين إلى مائة ومدت يده حتى انحلت كتفاه وصار بعد ذلك لا يمكنه رفع يديه حتى مات، وصار يقول حين ضربه: اللهم اغفر لهم فإنهم لا يعلمون، وحمل مغمى عليه فلما أفاق: قال أشهدكم أنى جعلت ضاربى فى حل. وما زال بعد الضرب فى رفعة من الناس وإعظام حتى كأن تلك الأسواط حليا حلى به)^(٣) إنها

(١) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى رضى الله تعالى عنه ٢٨٤/١.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم: ٣١٩/٦.

(٣) انظر الكواكب الدرية للملازمة للمناوى ٢٨٥/١.

القوة فى الدين التى لم يؤت بها إلا خواص الله فى خلقه ومن ثم كان الخلق يهرعون إلى الإمام مالك فى أمور دينهم وكلهم يقين واطمئنان.

يذكر صاحب الأنوار القدسية أن حماد بن زيد قال لرجل جاء فى مسألة اختلفت الناس فيها : يا أخى إن أردت السلامة لديك فسل عالم المدينة وأصغ إلى قوله فإنه حجة .. مالك بن أنس إمام الناس).

وقال الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه وعنا به : (علم مالك علم تقى، علم مالك أمان لمن يأخذ به من الأنام) ويقول صاحب الأنوار القدسية، (وقال محمد بن ربح: حججت مع أبى وأنا صبى لم أبلغ الحلم فتمت فى مسجد الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فى الروضة بين القبر والمنبر فرأيت النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - قد خرج من قبره وهو متوكئ على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فقمتم فسلمت عليه فرد على السلام. فقلت يا رسول الله: أين أنت ذاهب. فقال أقيم لمالك الصراط المستقيم فأنتهيت فأتيت أنا وأبى فوجدت الناس مجتمعين على مالك وقد أخرج الموطن وكان أول خروجه) ١١

ألم أقل إنه كان إماماً محمدياً؟ لقد كان الإمام مالك يرى مالا يراه الناظرون. يقول صاحب الأنوار القدسية : (وقال مصعب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - يتغير لونه وينحنى حتى يصعب ذلك على جلسائه فقليل له فى ذلك فقال: لو رأيتم ما رأيتم لما أنكرتم ما ترون) بالله ماذا يمكن أن يرى أو يؤخذ من وراء تلك العبارة ؟؟

إنها الحقيقة .. إنه الكشف والمشاهدة .. إنها عظمة أولياء الله الذين يرون مالا يراه الناس لأنهم عبدوا الله فوق ما يعبد سائر الناس واجتباهم ربهم من سائر الناس. فليت شعرى ماذا تجدى محاولات أعداء الأولياء أمام تلك الشمس الساطعة؟ هم يتحدثون فى الظلام وأولياء الله فى وهج النور وفى كنف العناية الإلهية مختصون بالعطاء. ولقد حاول خصوم التصوف أن يحولوا بين التصوف والشريعة فماذا يحاولون الآن ونحن نتفياً ظلال إمام دار الهجرة وأحد أركان الاجتهاد المطلق

فى الشريعة لنستقى منه نهج الحقيقة ؟؟ إنه حجة الشريعة الذى حمل عليه الحديث الذى رواه سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه وعنا به: (يضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة)^(١)

كما حمل على إمامنا الشافعى - رضى الله عنه وعنا به - حديث «عالم قريش يملأ طباق الأرض علماء».

وهل ثمة كرامة تدل على عظم ولايته أكثر من رؤيته لسيدنا المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - مناماً كل ليلة؟ أو من مشاهدة حضرته صلى الله عليه وآله وسلم بمجرد ذكر اسمه الشريف؟ ومن ذلك فلنستزد: يقول الإمام المناوى رضى الله عنه: (ولما ألف الموطأ اتهم نفسه فى الإخلاص فيه فالقاء فى الماء وقال: إن ابتل لأحاجة لى به فلم يبتل منه شيء)^(٢).

ولقد أراه ربه عشية انتقاله إلى جواره الأعلى من عظم بره وكرمه قبل أن يلقاه ما شرح صدره.

يقول الإمام المناوى: (وقال بكر بن سليم الصواف، دخلنا على مالك العشية التى مات فيها فقلنا كيف تجدك؟ قال: لا أدري ما أقول لكم إلا انكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم فى حساب. ثم ما برحنا أن أغمضناه)^(٣).

وأخرج ابن عساكر عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قال: رأيت أبى فى النوم عليه قلنسوة طويلة فقلت ما فعل الله بك؟ قال زيننى بزينة العلم، قلت: هاين مالك ابن أنس؟ قال: فوق فوق فلم يزل يكرر فوق ويرفع رأسه حتى سقطت القلنسوة عن رأسه.

وذكر الإمام القشيرى إنه قيل له - فى الرؤيا - ما فعل الله بك بعد موتك؟ فقال غفر لى بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنازة سبحانه الحى الذى لا يموت^(٤) رضى الله عنه وعنا به آمين.

(١) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ٢٠٨/١.

(٢) انظر الكواكب الدرية للعلامة المناوى ٢٨٤/١.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية للإمام القشيرى بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٢١٩/١.

سيدي الإمام عبد الله بن المبارك رضي الله عنه

في نور الحقيقة المطلقة سار على الدرب رجال عرفوا الطريق إلى الله فلم تجد الدنيا طريقها إلى قلوبهم، ولم يعرف الشيطان سبيله إلى نفوسهم؛ لأنهم - وقد اهتدوا إلى الله - صاروا في كلاءته تعالى وحفظه ودخلوا في خصوصية: ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (١).

وما تحققت العبودية إلا بتحقيق الولاية التي فاز بها المصطفون من عباد الله الأخيار - رضي الله عنهم - وأدخلنا في زميرتهم في هذه الدار وفي تلك الدار.

من صفوة عباد الرحمن السابحين في بحار أنوار القرآن، المستفرقين في ذكر الله والواصلين إلى مقام الإحسان: صوفي من أئمة السلف الصالح المجاهدين في الله حق جهاده، المجتبيين لمعرفة الله والناهلين من صفو وداده.

هو الإمام العارف والزاهد الواصل فقيه العرب وإمام المسلمين سيدي أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك الخراساني - رضي الله تعالى عنه - وأمدنا من فيض بركاته في الدنيا ويوم الدين.

هو من أتباع التابعين لسيد المرسلين - صلى الله عليه وآله وسلم - وأحد أعيان السلف الصالح العلماء العاملين المجمع على جلالتهم وفضلهم.

ولد رضي الله عنه سنة ثمان عشرة ومائة هـ، على ما ذكره الإمام الشعرائي رضي الله عنه وعنا به (٢). ولحق بربه سنة إحدى وثمانين ومائة على أثر عودته من الغزو. ودفن بمدينة (هيت) على نهر الفرات.

(١) سورة الحجر: ٤٢.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرائي رضي الله تعالى عنه: ١/٥٠.

وقد ذكر العارف المناوى - رضى الله عنه - أن أبا سيدى عبد الله كان تركيا مملوكا لرجل من همدان^(١)، وقد نشأ الإمام ابن المبارك وترى فى خراسان فكانت وطنه التى إليها ينتسب.

ولذلك نجد الإمام أبانعيم يلقبه فى (الحلية) بـ (شاهنشاه)^(٢). وهو بحق قد شرف هذه النسبة أيما شرف، كما حق للأمة بأسرها أن تعد نسبة ابن المبارك إليها شرفا وكسبا لها، وإضافة محمديه لمجدها المتواصل على امتداد عصر السلف الصالح وما خلفه من رجال.

وسنبداً - كما هو دأبنا فى هذه السلسلة الصوفية - بإطلالة على الجانب العلمى الذى صارت محصلته زادا للتطبيق العملى. وبالمواءمة والتلازم بين الجانبين لا ندع ثغرة يتسلل منها خصم للتصوف ولا سيما أن الحديث هنا عن أعز ما يعتز بهم الإسلام من رجال السلف الصالح الذين حملوا مجده. فباتضاح الصورة الحقبة للتصوف من خلال هؤلاء الأعلام يظل الباطل قامعا فى ظلمته فارا من سراج الحق الوهاج.

فالعالم دائما وأبدا كان هو المنطلق إلى رحاب الحقيقة، ولم يصل ولى إلا بالتحقق بالكتاب والسنة. وهاهو ذا إمامنا ابن المبارك قد أجمع رجال السلف على جلالته وإمامته فى علوم الإسلام حتى لقد ذكر الإمام المناوى أن الإمام سفيان الثورى سمع رجلا يقول: أين ابن المبارك عالم المشرق؟ فقال: عالم المشرق والمغرب وما بينهما^(٣) اهـ.

وقال عنه الإمام الفراء - فيما رواه الإمام المناوى - : (ابن المبارك إمام المسلمين أجمعين)^(٤).

وروى صاحب الحلية بسنده عن إسماعيل بن مسلمة الفضى أنه سمع محمد

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢٤٠/١.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ١٦٢/٨.

(٣) (٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢٤٠/١.

ابن المعتمر بن سليمان يقول: - (قلت لأبي: يا أبت. من فقيه العرب؟ قال سفيان الثوري، فلما مات سفيان الثوري قلت لأبي: يا أبت. من فقيه العرب؟ قال: عبد الله ابن المبارك)^(١).

وروى صاحب الكواكب الدرية عن ابن معين أنه قال عن ابن المبارك: (هو أعلم من سفيان الثوري رضي الله عنه).

كما يروى أبو نعيم بسنده عن المسيب بن واضح يقول: (سمعت أبا إسحق الفزاري يقول: ابن المبارك إمام المسلمين، قال: ورأيت قاعداً بين يديه يسأله، وروى صاحب الحلية عن العمري أنه قال: (ما رأيت في دهرنا هذا أحدا يصلح لهذا الأمر إلا رجلاً أتاني إلى منزلي فأقام عندي ثلاثاً يسألني عن غير ما يسألني عنه أهل هذا الدهر، فصيح اللسان إلا أن اللغة شرقية، يكنى أبا عبد الرحمن، معه غلام يقال له سفير، فقلنا له هذا عبد الله بن المبارك، فقال: هكذا ينبغي، إن كان معي أحد يصلح لهذا الأمر فذاك، قال عبيد الراوي - يعني الاقتداء بالعلم -)^(٢).

لقد كان الإمام ابن المبارك بحراً من بحور العلم الزاخرة، ولقد اتسعت ملكته العلمية لاستيعاب شتى مناهل المعرفة حتى قال عنه الإمام المناوي: (وجمع الفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشعر والفصاحة والقيام وقلة الكلام فيما لا يعنيه، وكتب الحديث عن مائة وألف شيخ)^(٣)!! وقد روى له الحافظ أبونعيم في حليته نيفا وستين حديثاً من مروياته، ومنها ما رواه بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ). صحيح متفق عليه.

وكان الإمام ابن المبارك داعية إلى العلم في عصره وكان يؤمن أن العلم هو الطريق الصحيح للعبادة الصحيحة.

(١) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ١٦٣/٨.

(٢) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم ١٦٢/٨ - ١٦٣.

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوي ١/٢٤٠ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٨٢/٨.

فيذكر الإمام الشعرائي - رضى الله عنه - فى طبقاته أنه كان يقول : (إذا تعلم أحدكم من القرآن ما يقيم به صلاته فليشتغل بالعلم فإن به تعرف معانى القرآن).

وكانت له فلسفة فى الخلوة لطلب العلم والعكوف على آثار الصحابة والتابعين لاقتفاء أثرهم والسلامة مما ياباه دينه.

يروى عن سيدى شقيق البلخى رضى الله عنه أنه كان يقول : (قيل لابن المبارك : إذا صليت معنا لم لا تجلس معنا؟ قال : أذهب مع الصحابة والتابعين. قلنا له ومن أين الصحابة والتابعون قال : أذهب أنظر فى علمى فأدرك آثارهم وأعمالهم. فما أصنع معكم؟ أنتم تفتابون الناس، فإذا كان سنة ثمانين فالبعد من كثير من الناس أقرب إلى الله، وفر من الناس كفرارك من الأسد، وتمسك بدينك يسلم لك مجهودك)^(١).

ليت شعرى إذا كان أهل القرن الثانى يشكون من زمانهم ترى ماذا كانوا يصنعون لو أدركوا القرن الرابع عشر ؟؟

وهكذا كان الإمام ابن المبارك فذا فى عصره متمسكاً بهدى الأئمة من الصحابة والتابعين. ثم لقد كان يعظم قدر العلم ويرتفع بشأنه ويجل حديث مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيما إجلال.

حتى لقد روى عن سيدى بشر بن الحارث رضى الله عنه أنه قال : (سأل رجل ابن المبارك عن حديث وهو يمشى، قال : ليس هذا من توقير العلم - قال سيدى بشر - فاستحسنته جداً).

وهذه واقعة أخرى تتمثل فيها عزة الإمام العالم ابن المبارك الذى لم يمتعن حديثه ولم يبذل علمه لتجار الدنيا، يروى صاحب الحلية عن سيدى أحمد بن أبى الحواري - رضى الله عنه - أنه قال : حدثنى بعض أصحابنا قال: (جاء عبد الله

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي : ٢٩٨/٨ وحلية الأولياء لأبى نعيم ١٦٤/٨-١٦٥.

ابن أبى العباس الطرسوسى- وكان واليا بمرو- إلى عبد الله بن المبارك بالليل ومعه كاتبه والدواة والقرطاس معه، قال : فسأله عن حديث فأبى أن يحدثه- ثلاث مرات - فقال لكاتبه : أطو قرطاسك، ما أرى عبد الرحمن يرانا أهلاً أن يحدثنا. فلما قام يركب مشى معه ابن المبارك إلى باب الدار فقال له : يا أبا عبد الرحمن، لم لم ترنا أهلاً أن تحدثنا وتمشى معنا . فقال : إنى أحببت أن أذل لك بدنى ولا أذل لك حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال أحمد : فحدثت به محمد ابن أبى شيبه ابن أخت ابن المبارك فقال : ما حفظ الذى حدثك. لم يحسن معه، إنما قام ذلك ليركب وقام خالى إلى قاعة الدار ليبول^(١).

وكان رضى الله عنه يعظم أهل العلم العاملين.

يروى الإمام أبو نعيم عن سنيد بن داود أنه قال : (سألت ابن المبارك: من الناس ؟ قال : العلماء، قلت فمن الملوك؟ قال : الزهاد. قلت فمن الغوغاء؟ قال : خزيمة وأصحابه، قلت فمن السفلة؟ قال : الذين يعيشون بدينهم).^(٢)

وكان ميزان الإمام ابن المبارك العلمى من أدق ما يتصوره وكان متشدداً فى سند الحديث حتى لقد سئل يوماً: الرجل يطلب الحديث لله يشترى فى سنده؟ فقال: إذا كان يطلب الحديث لله فهو أولى أن يشتد فى سنده ١.

ولقد روى الحافظ أبو نعيم أن أبا إسحق الطالقانى قال : (سألت ابن المبارك عن الرجل يصى عن أبيه؟ فقال : من يرويه؟ قلت شهاب بن خراش.. قال: ثقة عمن؟ قلت عن الحجاج بن دينار. قال ثقة عمن؟ قلت عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : بين النبى صلى الله عليه وآله وسلم وبين الحجاج مفاوز تنقطع فيها أعناق الإبل)^(٣).

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ١٦٩/٨.

(٢) المصدر السابق ١٦٧/٨-١٦٨.

. وكان يندد ببخلاء العلم ويقول : (من بخل بالعلم ابتلى بثلاث : إما موت فيذهب علمه ، وإما ينسى ، وإما يصحب فيذهب علمه)^(١).

وكان رضى الله عنه يقول فى أمر الآخرة على العلماء العاملين ويعلق صلاحية العبد على تعظيمه لقدر أهل العلم فكان من كلماته النيرة : (من استخف بالعلماء ذهب آخرته ، ومن استخف بالأمرء ذهب دنياه ، ومن استخف بالإخوان ذهب مروءته).

ثم كان يقول : (الحبر فى الثوب خلوف العلماء).

لقد جمع سيدى عبد الله بن المبارك بين العلم والحكمة فكان ينطق بدرر الحكم وينثر جواهر المعانى من فيض علمه وحكمته . يروى الإمام المناوى فى طبقاته أنه قال : (أربع كلمات انتخبت من أربعة آلاف حديث : لا تثق بامرأة ، ولا تحمل معدتك ما لا تطيق ، ولا تغتر بمال ، ولا تتعلم من العلم إلا ما تعلم أنك تعمل به)^(٢). وسئل رضى الله عنه : ما ينبغى للعالم أن يتكرم عنه ؟ (فقال : ينبغى أن يتكرم عما حرم الله عليه ، ويرفع نفسه عن الدنيا فلا تكون منه على بال . وسئل مرة أخرى : ما ينبغى أن يجعل عظمة شكرنا له ؟ قال : زيادة آخرتكم ونقصان دنياكم . وذلك أن زيادة آخرتكم لا تكون إلا بنقصان دنياكم . وزيادة دنياكم لا تكون إلا بنقصان آخرتكم).

ولقد أدرك سيدى عبد الله بن المبارك أن ثمرة العلم إنما هى فى التطبيق على العمل كما مر بنا فى بعض عباراته ، ولذلك طبع سلوكه على وفق ما حصله من علم فكانت أحواله وأقواله وأفعاله على مقتضى الكتاب والسنة .

ولقد وضع التاريخ أمامنا بعض المرويات التى تصور الجانب العلمى والسلوكى عند الإمام ابن المبارك . فقد كان رضى الله عنه مع مكانته العلمية السامقة يعمل بالتجارة . ولقد نقل الإمام المناوى عن الذهبى أنه قال عن سيدى

(١) انظر : حلية الأولياء ١٦٥/٨ .

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢٤١/١ .

عبد الله: كان يتاجر، وينفق على الفقراء في العام مائة ألف درهم^(١)!! وكان مع ثرائه غاية في الزهد والتقشف والورع صَوَّاماً قَوَّاماً دائم العبادة مع الإخلاص والوفاء، يقول معاصره فطن بن سعيد: (ما أفطر ابن المبارك قط ولا رثى صائماً قط)!! لقد اقتضاه إخلاصه أن يخفى عبادته عن الخلق لينجو من الرياء. أما بينه وبين الله تعالى: فهو صائم عن المفطرات الحسية والمعنوية، الظاهرية والباطنية مستجمع للفضائل والمحامد حتى قال عنه الإمام ابن عياش: (ما على وجه الأرض مثله، ما خلق الله خصلة من خصال الخير إلا وجعلها فيه وهو من أتباع التابعين).

وقال عنه الإمام المناوي رضي الله عنه: (وكان يسيح وحده، شديد الورع جداً بحيث سافر من مَرَّو إلى الشام في رد قلم استعاره ونسيه في رحله وسافر!! وما دخل حماماً قط لشدة تقشفه^(٢))^(٣). وقد أثمر علمه الواسع الغزير خوفاً عظيماً وخشية لله ملكت عليه وجدانه وكان يقول: (أكثركم علماً ينبغى أن يكون أشدكم خوفاً).

وكان يتساءل: (كيف يدعى رجل أنه أكثر علماً وهو أقل خوفاً وزهداً^(٤)) وكان يجالس أهل الخشية من أولياء الله كالإمام الفضيل بن عياض - رضي الله عنه الذي يروى عنه أنه قال: (قال لي ابن المبارك: استعد للموت ولما بعد الموت.. قال الفضيل - فشقق على شقة فلم يزل مغشياً عليه عامة الليل)^(٥). هؤلاء حقاً هم أهل الآخرة وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٦) وأهل الخشية هم أهل الأدب مع الله تعالى، وقد كان سيدي عبد الله يقول: (نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم) وكان ينمى على نفسه أنه لم يدرك الصف الأول من حملة الأدب النبوي الرفيع وهم الصحابة رضي الله عنهم وعنا بهم أجمعين.

(١) انظر المصدر الأخير ١/ ٢٤٠.

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوي ١/ ٢٤٠.

(٣) سورة فاطر / ٢٨.

فكان يقول : (طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون) (١).

وفى مفهوم الأدب عند الصوفية يقول الإمام الطوسي السراج صاحب (اللمع) رضى الله عنه : (الناس فى الأدب على ثلاث طبقات: أما أهل الدنيا: فأكثر آدابهم فى الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسماء الملوك وأشعار العرب. وأما أهل الدين: فأكثر آدابهم فى رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات. وأما أهل الخصوصية فأكثر آدابهم فى طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى الخواطر وحسن الأدب فى مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب) (١).

من ثم ندرك أن الأدب طبقات ومراتب ولكل قوم حظهم من الأدب ولذا نجد المعارف ابن المبارك يقول : (الأدب للمعارف كالتوبة للمستأنف) أى للمريد المبتدئ.

نجد مذاقات الصوفية تتعدد فى المفهوم الواحد، وهى فى تعددها متفقة كل الاتفاق فتعطينا ثراءً روحياً لا نظير له . فبينما يعطى كل صوفى ما عنده فى تحديد مفهوم الأدب نجد إمامنا ابن المبارك - رضى الله عنه - يقف به عند حد مشرق بالمعرفة فيقول قدس سره : (قد أكثر الناس فى الأدب ونحن نقول : هو معرفة النفس) . ونضع هذا المفهوم بجوار الحديث الشريف (من عرف نفسه فقد عرف ربه) (٢).

وقد تحقق سيدى عبد الله بالأدب حتى بلغ الذروة. ومن ثم روى صاحب الحلية أن سيدى عبد الرحمن بن مهدى كان يقول : (ابن المبارك أدب عندنا من سفيان) وكذلك قال الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته : (وكانوا يقدمونه فى الأدب على سفيان الثورى) (٣).

(١) انظر : اللمع للإمام السراج الطوسي رضى الله عنه بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والشيخ طه عبد الباقي سرور ص ١٩٥-١٩٦.

(٢) نقل المجلونى فى (كشف الخفاء) ص ٣٦١ عن الإمام النوى وغيره إن هذا الحديث لم يثبت مرفوعاً وإنما هو من كلام يحيى بن معاذ، بينما استدرك النجم بأنه وقع فى (أدب الدنيا والدين) للماوردي أن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : مثل النبى صلى الله عليه وسلم من أعرف الناس بربه ؟ فقال (أعرفهم بنفسه) .

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٥٠/١.

ولقد جاهد سيدي عبد الله نفسه حتى ذلها وملك زمامها وسخرها في طاعة الله. وحينما عرف نفسه حق المعرفة وجد الأدب في ذل النفس أمام عظمة الله. ولقد ضرب في ذلك أروع الأمثلة بحاله ومقاله فهو القائل رضى الله عنه: (من علامة من عرف نفسه أن يكون أذل من الكلب)^(١) ولم لا وقد وصف الرحمن أحبابه بأنهم «أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين».

وقد طبق الإمام ابن المبارك الجانب الآخر وهو العزة على الكافرين بل وعلى الأشقياء المتكبرين.

يروى الإمام الشعرائي - رضى الله عنه - أنه قيل للإمام ابن المبارك: ما التواضع؟ قال: التكبر على الأغنياء. وفي رواية للإمام المناوي قال: التواضع التكبر على الأغنياء ثقة بالله تعالى.

ومن منطلق التواضع وذل النفس في مرضاة الله أثر سيدي عبد الله نكران الذات وخمول الذكر إخلاصاً لله. ولقد بلغ من تواضعه أنه كان إذا بلغه عن أصحابه أنهم ضافوا إليه مسألة في العلم- وهو سلطان العلماء- يرسل إليهم بكشطها بالسكين ويقول: من أنا حتى يكتب قولي!!

وكان رضى الله عنه يقول: (كن محباً للخمول كارهاً للشهرة ولا تحب من نفسك أنك تحب الخمول فترفع نفسك)!

ونتساءل: أى شيء نتج عن ذل النفس واتضاع حظها حسبما تخلق الإمام ابن المبارك وأرشد إليه؟

والجواب من الواقع الذى نؤرخ له اليوم أنه أذل نفسه فأعزه الله وتواضع فرفعه الله وصار علماً من أعلام الواصلين. لقد أدب نفسه فأكتملت روحه. وصدق رضى الله عنه إذ قال: (كاد الأدب أن يكون ثلثي الدين)^(٢).

(١) هذا الأثر في حلية الأولياء ١٦٨/٨ بلفظ (إذا عرف الرجل قدر نفسه يصير عند نفسه أذل من الكلب) أى تذلل لعظمة الله تعالى.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرائي ٥١/١.

وأين أمثال ابن المبارك اليوم ونحن في زمن يبيع المرء حياته جرياً وراء الشهرة ويلهث وراء الظهور ويدفع دينه ثمناً (للأنا) التي دخل بها إبليس زمرة الأشقياء ليكون في صدارتهم ١١.

كذلك نجد الإمام ابن المبارك في الذروة من الزهد والعزوف عن الدنيا رغبة فيما عند الله بل حباً في الله واتقاء لحسابه يقول الإمام الشعرائي رضي الله عنه : (وكان إذا انتهى شيئاً لا يأكله إلا مع ضيف ويقول : بلغنا أن طعام الضيف لا حساب عليه)^(١).

وكانت الطيبات من الرزق دائماً في متناول يده فيؤثر بها الأصحاب والفقراء . يقول أبو إسحق الطالقاني : (رأيت بعيرين مملوءين دجاجاً مشوياً لسفرة ابن المبارك) إنها لسفرته ولكنها ليست له .

يقول الإمام الشعرائي : (وكان رضي الله عنه يطعم أصحابه الفالوذوج والخبيص ويظل هو نهاره صائماً) وكان رضي الله عنه جواداً بغير حدود حتى أنه قيل له في أخريات حياته: قد قل المال فقل من صلة الناس. فقال : (إن كان المال قد قل فإن العمر قد نفذ) .

ولقد عرف سيدي ابن المبارك الزهد فقال : (الزهد هو الثقة بالله تعالى مع حب الفقر) وحب الفقر هذا فيه تبعية لسيد الخلق - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي آثر الفقر على الغنى لغناه بربه ولعدم حاجته إلى الدنيا . ثم حب الفقر عند سيدي ابن المبارك وهو الثرى المكتسب مرده الجود والإنفاق في سبيل الله تعالى .

ثم إنه يفضل الزهد والقناعة على الإنفاق والبذل عند الموازنة بينها فيقول : (سخاء النفس مما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل) ومع الزهد كانت قمة الورع عند الإمام ابن المبارك وقد سبق لورعه شاهد وذلك آخر يرويه صاحب الرسالة القشيرية قائلاً : (وقيل : سَيَّبَ ابن المبارك دابة قيمتها كثيرة ، وصلى الظهر فرفعت الدابة في زرع قرية سلطانية- أي تابعة للسلطان - فترك ابن

(١) المصدر الأخير.

المبارك الدابة ولم يركبها^(١) وكان سيدي عبد الله بزهده وورعه نافذ البصيرة في أمراض القلب وتشخيص علله.

يروى صاحب الحلية عنه أنه قال : (لو أن رجلين اصطحبا في الطريق فأراد أحدهما أن يصلي ركعتين فتركهما لأجل صاحبه كان ذلك رياء وإن صلاهما من أجل صاحبه فهو مشرك^(٢)) والمراد الإشراك في العمل لا في العقيدة. فإن حقيقة الإخلاص تقتضي تمحيض العبادة لله. وروى الإمام أبو طالب المكي في (علم القلوب) عن الإمام ابن المبارك أنه قال : (خمسة أشياء لا تصعد من الأرض إلى السماء إلا بالتمام : حرمة المؤمن، وشكر نعمة الرب، وحق الوالدين، وإكرام العالم الزاهد، وعبادة الجبار) وذكر الإمام السبكي في طبقات الشافعية أن الإمام ابن المبارك كان يتمثل كثيراً بهذه الأبيات :

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله	إذا كنت فارغاً مستريحاً
وإذا ما هممت بالنطق بالبا	طل فاجعل مكانه تسبيحاً
فاغتنام السكوت أفضل من خو	ض وإن كنت بالكلام فصيحاً

وذكر الإمام أبو نعيم أن الإمام ابن المبارك سُمع يقول : (أحب الصالحين ولست منهم، وأبغض الصالحين وأنا شر منهم، ثم أنشأ سيدي عبد الله يقول :

الصمت أزين بالفتى	من منطلق في غير حينه
والصدق أجمل بالفتى	في القول عندي من يمينه
وعلى الفتى بوقاره	سمة تلوح على جبينه
فمن الذى يخفى عليك	إذا نظرت إلى قـرينه
رب امرئ متيقن	غلب الشقاء على يقينه
فأزاله عن رأيه	فابتاع دنياه بدينه ^(٣)

(١) انظر الرسالة القشيرية ٢٨٩/١.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ١٧١/٨.

(٣) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ١٧٠/٨.

وكان سيدي عبد الله من صفوة أهل السنة الذين ينقمون على من انتقص أحداً من صحابة سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولقد روى صاحب الحلية أن الإمام ابن المبارك روى عن أخبره قال : قدم وفد من وفود العرب على معاوية فقال لهم : ما تعدون المروءة فيكم؟ قالوا العفاف في الدين والإصلاح في المعيشة. فقال معاوية: اسمع يا يزيد (ومؤدى هذه الرواية أن سيدنا معاوية برئ مما أحدثه يزيد من بعده وأن ابتداء الظلم كان من أول عهد يزيد، أما الصحابة فهم في ذروة الكمال لأنهم مدرسة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وأما ساداتنا أهل البيت المحمدي - رضى الله عنهم وعنا بهم فهم عين الكمال.

ولقد كان سيدنا ابن المبارك من أكثر الناس أدباً مع آل البيت ومع الصحابة عليهم رضوان الله، ولم لا وقد غلبت محبة الله عليه حتى كان كلامه يقطر حياً والمحبة لله يحب أحبائه.

إن الإمام ابن المبارك لم تفارقه الخشية ولا المحبة حتى آخر نفس من حياته وقد كان يوازن بينهما حتى أنه القائل : (من أعطى شيئاً من المحبة ولم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع). ولقد خشى الله حتى لقيه فأمن وأحب الله حتى فنى فيه وسكر سكرأ لم يصح منه إلا بمشاهدة محبوبه فنطق بلسان القوم كما حكى في الرسالة القشيرية:

فأسكر القوم دور كأس وكان سكرى من المدير

هذا هو الإمام ابن المبارك المحب الإلهي الذي أحله الله مكانة في القرب لم ينلها إلا خواص الخواص من عباده، وأحله عند خلقه مكانة أشادت بها السنة الأئمة وأقلام جهابذة الأمة حتى قال سيدي عبد الرحمن بن مهدي : (ما رأيت عيناً مثل سفيان ولا أقدم على عبد الله بن المبارك أحداً)^(١) وحتى قال المعتمر بن سليمان (ما رأيت مثل ابن المبارك تصيب عنده الشيء الذي لا تصيبه عند أحد) وحتى قال

(١) انظر : حلية الأولياء لأبي نعيم ١٦٣/٨ .

سيدي سفيان الثوري - رضى الله عنه - أمير المؤمنين في الحديث- وهو من هو-
(لو جهدت جهدى أن أكون فى السنة ثلاثة أيام على ما كان عليه ابن المبارك لم
أقدر)^(١) .

وهذا هو الإمام الأوزاعي - رضى الله عنه - يقول لعبد الله بن يزيد بن
عثمان الحمصى : رأيت عبد الله بن المبارك ؟ فيقول لا . فيقول لو رأيته لقرت
عينك .

ثم هذا هو عطاء بن مسلم يقول لعبيد بن جناد : يا عبيد ، رأيت عبد الله بن
المبارك ؟ فيقول نعم . فيقول : ما رأيت مثله ولا ترى مثله .

هذه أوسمة من الأئمة تقلدها سيدي عبد الله عن أحقية وجدارة .
ثم هذه بعض كراماته- يقول الإمام القشيري فى رسالته : (وقيل كان ابن
المبارك يقاتل عِلْجاً - أى كافراً - مرة فدخل وقت صلاة العليج فاستمهله مهلة فلما
سجد للشمس أراد ابن المبارك أن يضربه بسيفه فسمع من الهواء قائلاً يقول :
﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾^(٢) فأمسك . فلما سلم المجوسى قال له لم
أمسكت عما هممت به ؟ فذكر له ما سمع فقال المجوسى (نعم الرب رب يعاتب
وليه فى عدوه . فأسلم وحسن إسلامه)^(٣) .

وذكر الإمام المناوى رضى الله عنه فى طبقاته : أن سيدي عبد الله بن
المبارك لما احتضر فتح عينيه وضحك وقال : ﴿ لِمِثْلِ هَذَا لَيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾^(٤) .

وذكر الإمام القشيري أن سيدي سفيان الثوري رضى الله عنه رؤى فى المنام
فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : رحمنى فقيل له ، ما حال عبد الله بن المبارك ؟
فقال : هو ممن يلج على ربه كل يوم مرتين^(٥) .

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ١٦٣/٨ .

(٢) سورة الإسراء / ٣٤ .

(٣) انظر : الرسالة القشيرية ٣٢٢/١ .

(٤) سورة الصافات / ٦١ .

(٥) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢٤١/١ والرسالة القشيرية ٥٩١/٢ .

(٦) انظر : الرسالة القشيرية ٧٢٠/٢ .

هؤلاء هم أولياء الله وصفوة الرحمن.

ومن عجب أن مفهوم الولاية بعد كل تلك الشواهد يظل ملتبساً على كثير من الناس حتى أنى استمعت خلال هذا الشهر إلى برنامج نقد إذاعي يتولى فيه أحد الفنانين التصدي لبعض المفاهيم بالنقد فإذا به في الحديث عن الأولياء يتهكم من كراماتهم ومن التوسل بهم إلى الله تعالى خالطاً بين مفهوم الولاية والشعوذة ونحو ذلك مما يبرأ منه التصوف والأولياء.

ولكن أماننا هذه النماذج المثلث التي تصور حقيقة الأولياء وبحسبنا منهم الإمام ابن المبارك الذي أضاء الدنيا بعلمه ونوره وبركاته ، رضى الله عنك يا إمام المسلمين يا سيدى عبد الله بن المبارك. ونفعنا بك وأمدنا بمددك وحشرنا فى زمرك مع الأولياء المقربين المباركين.

* * *

سيدى الفضيل بن عياض رضى الله عنه

على هدى النبوة وفى طريق الله سلك ربانيو هذه الأمة العارفون بربهم .
 هبذلوا المهج والأرواح وأذابوا قلوبهم عشقاً لمولاهم، وقدموا حياتهم على أكف
 التذلل والعبودية قرباناً إليه متجردين عن رِق الأكوان لا يرون إلا معشوقهم الواحد
 الديان فسابقوا أنفاسهم سراعاً إلى طاعته لا يفترّون عن ذكره ولا ينقطعون عن
 عبادته ولا يبرحون بابه، فجذبهم الحق تعالى إلى حضرته وأفناهم فيه، وأغناهم
 بوصله، وسقاهم من كأس أنسه .

أولئك هم أصفياؤه المقربون وأولياؤه العارفون . رضى الله عنهم وعنا بهم
 وكتبنا فى سجلهم بمنه وفضله إنه أكرم الأكرمين .

من عيون أولئك الصفوة العارفين إمام خلقت روحه فى آفاق النور ، وارتوت
 ذاتيته من كرم الوصال فعاش حياته متمحضاً لربه، مشاهداً لقدس جلاله ، فانيا
 فى عشق جماله، مضياً طريق الواصلين ومريباً للأرواح العارفين .

إنه القطب العارف والصوفى الواصل شيخ الحرم سيدى ومولاي الإمام
 الفضيل بن عياض رضى الله تعالى عنه وعنا به وأمدنا بمدده فى الدارين .

هو أحد أئمة سلفنا الصالح الذين يعتز بهم الإسلام ويهيب ببنيه اليوم أن
 يحتذوا حذوهم كى يضيئوا آفاق هذا العصر بنور الروحية الإسلامية المستمدة من
 هدى الكتاب والسنة .

فلقد كان الإمام الفضيل داعية كأشرف وأنبل وأنجح ما يكون الداعية . ولقد
 كان عالماً تجسدت فيه قدسية الكلمة ومثالية القدوة مع روعة الزهد وشرف الغاية
 ومن ثم كان عظيماً فى أمته، وما أقل العظماء من طراز الفضيل (١) .

إننا لن نسترسل فى حديثنا من بعيد خارج الإطار. بل سننفذ إلى الداخل وسنترك المواقف وحدها تحدثنا من داخل هذه الشخصية العظيمة عن بعض الملامح التى دفعتها إلى الصدارة وزجت بها نحو القمة.

وسنبداً ببعض الخطوط التاريخية التى توصلنا إلى المحتوى الصوفى .

ذكر الإمام السلمى فى طبقاته أنه : خراسانى من ناحية « مرو » - مدينة بفارس- بقرية يقال لها قندين ونشأ بأبيورد من بلاد التركستان . قال الفضيل: ولدت بسمرقند ونشأت بأبيورد، ورأيت بسمرقند عشرة آلاف جوزة بدرهم^(١).

وقال ابنه أبو عبيدة : (أبى فضيل بن عياض بن مسعود بن بشر. يكنى بأبى على من بنى تميم من بنى يربوع. من أنفسهم. ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد. والأصل من الكوفة ومات فى المحرم سنة سبع وثمانين ومائة بمكة ..)^(٢) أ هـ.

وقد ذكر الإمام المناوى أن الإمام الفضيل قد مات عن نحو ثمانين عاماً فتكون ولادته حوالى سنة سبع ومائة هجرية أو خمس ومائة على ما ذكر فى بعض الروايات،^(٣)

ولقد كانت حياة الإمام الفضيل - شأنها شأن غيرها من حياة الصوفية بصفة عامة- مكتتفة فى تفاصيلها التاريخية الجزئية بقدر كبير من الخفاء .

بيد أن الجوانب الموضوعية التى ينشدها الباحث والتى هى مناط التأسى ومحور الانطلاق الروحى نستطيع التعرف عليها بوضوح وتكوين صورة حية نرى من خلالها أبعاد هذه الشخصية الفريدة.

وإذا ما أردنا أن نحدد زوايا البحث فى شخصية هذا الإمام العارف لوجدنا أنها تتمثل فى ثلاثة جوانب : هى الجانِب العلمى ثم الجانِب العملى الذى هو التطبيق للجانِب العلمى وأخيراً جانب التحقق والوصول : الذى هو ثمرة العلم

(١) . (٢) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى (ص ٦ ، ٨) بتحقيق نور الدين شريعة .

(٣) انظر : الكواكب الدرية للعارف المناوى ١ / ٣٧١ .

والعمل. ونعني به جانب الأحوال والمقامات التي تنتهي بالسالك إلى ذروة الولاية.
فأما عن الجانب العلمي عند سيدي الفضيل رضى الله عنه:

فإنه بتحديد الفترة التي عاش فيها منذ أوائل القرن الثاني الهجرى حتى
أواخر العقد الثامن منه نجد أنه قد عاصر كثيرين من أعلام التابعين، ولقد أتاح له
ذلك أن يأخذ الحديث عنهم ويكون أحد الرواة الثقات.

فقد ذكر الحافظ أبو نعيم أن الإمام الفضيل أسند الحديث عن أعلام
التابعين وعلمائهم: منهم سليمان الأعمش، ومنصور بن المعتمر- أدركا أنس
ابن مالك- وعبد الله بن أبي أوفى - رضى الله تعالى عنهم. ومنهم عطاء بن
السائب وحسين بن عبد الرحمن، ومسلم الأعور، وأبان بن أبي عياش، وكلهم أدركوا
أنس بن مالك رضى الله عنه (١).

ثم ذكر أن الإمام الفضيل قد روى عنه كثير من الأعلام والأئمة: منهم الإمام
سفيان الثوري- أمير المؤمنين في الحديث- والإمام سفيان بن عيينة، ويحيى بن
سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي، ويحيى النيسابوري ونظراؤهم (٢).

ثم لقد شهد للإمام الفضيل كثير من أئمة العلماء والحفاظ بمكانته في العلم
والحديث. فهذا هو الإمام المناوي يقول عنه في طبقاته (وكان من أعظم أئمة
المحدثين، خرج له الجماعة إلا ابن ماجه، وعنه أخذ الشافعي وابن المبارك رضى
الله عنهما، وأسند الستة إليه، وخلق ..) (٣).

ثم لقد شهد الحافظ الذهبي بسمو منزلته قائلاً: (كان سيداً عابداً ورعاً
زاهداً ، إماماً ربانياً، فقيهاً محدثاً أضاء الدنيا) (٤).

فما ظنك بعالم أخذ عنه الإمام الشافعي والسفيانان وأسند إليه الأئمة الستة

(١) ، (٢) انظر حلية الأولياء لابی نعيم ٨ / ١١٤ .

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوي ١ / ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوي ١ / ٢٧١ - ٢٧٢ .

رضوان الله عليهم، وشهد له الذهبى وهو من هو فى النقد لاسيما فى جانب المتصوفة؟؟.

لاشك أن ذلك يعطينا صورة فريدة لهذا العالم الذى شرف العلماء وذلك الصوفى الذى شرف الصوفية.

ولكن الإمام الفضيل لم يقف بالعلم عند حد التحصيل والدراية بل أدرك أن للعلم رسالة سامية لا بد من أدائها وهى الدعوة إلى الله التى يتحمل أمانتها العلماء بحكم أنهم ورثة للأنبياء .

فلقد كان رضى الله عنه يقول: (من قرأ القرآن سئل يوم القيامة كما تسأل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن تبليغ الرسالة فإنه وارثهم)^(١).

وانطلاقاً من فهم هذه الرسالة على هذا النحو فقد وجه الإمام فضيل كلمته للعلماء، وانتقد فى غير هوادة أولئك الذين انحرفوا بالعلم عن رسالته، فكان يقول : (عالم الآخرة علمه مستور وعالم الدنيا علمه منشور فاتبعوا عالم الآخرة واحذروا عالم الدنيا أن تجالسوه فإنه يفتكم بفروره وزخرفته ودعواه العمل من غير عمل أو العمل من غير صدق)^(٢). ولقد رأى الإمام الفضيل أن آفة العالم هى حب الدنيا الذى يميل به عن مقصد العلم ويجعل منه سلعة فى يده لتحقيق أهوائه فينتكس إلى الحضيض، فأطلق كلمته التى دوت فى سمع التاريخ (لو أن أهل العلم زهدوا فى الدنيا لخضعت إليهم رقاب الجبابرة، وانقادت الناس لهم، ولكن بذلوا علمهم لأبناء الدنيا ليصيبوا بذلك مما فى أيديهم فذلوا وهانوا على الناس)^(٣).

وهذه واقعة لسيدى الفضيل مع سيدى سفيان بن عيينه وهو من هو علماً وفضلاً، يسوقها الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته فيقول : (وجلس إليه سفيان بن عيينه، فقال له الفضيل: كنتم معاشر العلماء سرجاً للبلاد يستضاء بكم فصرتم ظلمة، وكنتم نجوماً يهتدى بكم فصرتم حيرة، أما يستحى أحدكم من الله إذا أتى إلى هؤلاء الأمراء وأخذ من مالهم وهو لا يعلم من أين أخذوا ثم يسند بعد ذلك ظهره إلى محرابه ويقول : حدثنى فلان عن فلان؟ فطأطأ سفيان رأسه وقال : نستغفر الله ونتوب إليه)^(٤) ١١.

(١) . (٢) . (٣) . (٤) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ١ / ٥٩ وحليه الأولياء ٨ / ٩٢ .

ليت شعرى إذا كان مثل الإمام سفيان بن عيينه يُقال له مثل هذا فيستغفر
فيكف بمن تبتنهم الدنيا بالكلية وصاروا لها خداماً ٩٩.

الا لمثل الفضيل وسفيان شهد التنزيل الحكيم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ ﴾ (١).

ثم ماذا عن الجانب العملى والسلوكى عند الإمام الفضيل ٩.

نبدأ بنقطة التحول التى بدأ سيدى الفضيل منها طريقه إلى الله. ويدهشنا
أن نعلم أن الإمام الفضيل لم يبدأ حياته فى رحاب التصوف، وإنما كان فى واد آخر
تماماً لم يلبث أن جذبته دواعى الحضرة الإلهية لكى يدخل فى ديوان الصفوة
ليصبح إمام الزهاد وقطب العارفين.

وعن نقطة التحول يحدثنا الإمام القشيري فى رسالته فيقول : (كان الفضيل
شاطرأً يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما
هو يرتقى الجدران إليها سمع تالياً يتلو ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ
اللَّهِ ﴾ (٢) فقال : يارب قد آن. فرجع فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة فقال
بعضهم: نرتحل، وقال قوم : حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا.

فتاب الفضيل وأمنهم وجاور الحرم حتى مات (٣) أ.هـ.

ومن ثم نتبين أن الإمام الفضيل قد حصل له الوصل من بعد القطع، وأنه قد
تمثلت فيه قولة بعض الصوفية : (فى لمحة تقع الصلحة)، وفى ذلك أيما دلالة على
أن الولاية فى الأصل إنما هى محض اجتناء من الله تعالى ،، وقد تتحقق بلا
مقدمات . بل ربما يجذب العبد إلى حظيرة القدس على غرة منه بسابق العناية
الأزلية.

(١) سورة فاطر / ٢٨ .

(٢) سورة الحديد / ١٦ .

(٣) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ود / محمود بن الشريف ١ / ٥٧ .

وهكذا تحول الإمام الفضيل بكليته إلى الله تعالى على ظمأٍ للتعوى وتعطشٍ للوصال . فامتلاً قلبه من الخشية والتعظيم لربه ما لا يحده تصور .

حتى لقد روى صاحب الحلية بسنده أن إبراهيم الأشعث قال (ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله أو ذكر عنده أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه حتى يرحمه من بحضرته، وكان دائم الحزن شديد الفكرة، ما رأيت رجلاً يريد الله بعلمه وأخذه وإعطائه، ومنعه وبذله، ويفضه وحبه وخصاله كلها غيره- يعنى الفضيل) (١) أهـ .

لقد أدرك سيدى الفضيل- رضى الله عنه- أن بالمزاوجة بين العلم والعمل تتصهر الذات في محراب العبودية لكي تشف الروح وتتصل بالملأ الأعلى ويدخل العبد إلى حضرة مولاه فيأنس وينعم بقربه، ومن ثم فقد ضرب مولانا الفضيل المثل الرائع في التفانى في طاعة الله والإقبال عليه كأصدق وأخلص وأبر ما يكون، ولم لا؟ وهو على يقين من أنه عبد والعبد مكلف بخدمة سيده، وعلى قدر عظمة السيد يكون خضوع العبد وتذلل وانقطاعه لسيده .

ومن هنا كان الجهاد الروحي المنقطع النظير عند الإمام الفضيل فيذكر الإمام المناوى في طبقاته أن سيدى الفضيل (كان إذا صلى العشاء انتصب للصلاة إلى الفجر وربما أمسك لحيته وهو واقف ويكي حتى بل الثرى من العشاء إلى الصباح ويقول : ويحك يا فضيل، كنت في صباحك فاسقاً وصرت في آخر عمرك مرثياً . والله للمراثى أشد من الفاسق، وكان كثيراً ما يغلب عليه النوم فيصير دائراً في داره تصدم رأسه الشيطان إلى الصباح ثم ينشد :

وكيف تنام المـين وهى قـريرة

ولم تدر فى أى المحلين تنزل (٢) أهـ .

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٨ / ٨٤ .

(٢) انظر : الكواكب النورية للإمام : ١ / ٢٧٠ .

كما يذكر الإمام السلمي أيضاً أن سيدي الفضيل (كان إذا صلى العشاء انتصب للصلاة إلى الفجر وهو يبكي) ١.

لقد كانت الطاعة عند الإمام الفضيل في القوت والغذاء وهي الدواء والشفاء فلم يدع لحظة من حياته منذ اتصل بالله تضيع هباء ، ولقد سمعه معاصره إسحق ابن إبراهيم الطبري يقول: (إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبل بكبتك خطيئتك)^(١). إنه منهج الأفذاذ في الطاعة.

لقد سقطت عنه المشقة في الطاعة والعبادة لأنهم صاروا يحبونها ويتلذذون بها لأنها تصلهم بمحبيهم الأعلى، وعين المحب لا تنام ١١.

روى الإمام أبو نعيم أن الحسين بن زياد قال: (أخذ فضيل بن عياض بيدي فقال : يا حسين، ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول الرب : من ادعى محبتي إذا جئته الليل نام عني ؟؟ أليس كل حبيب يحب خلوة حبيبه ؟؟ ها أنذا مطلع على أحيائي إذا جنهم الليل مثلت نفسي بين أعينهم فخاطبوني على المشاهدة وكلموني على حضوري، فذا أقر أعين أحيائي في جناتي)^(٢) ١١.

ولقد أيقن الإمام الفضيل أن عليه واجباً هاماً وخطيراً حيال مجتمعه وأمته يتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال كلمته التي ترضى ربه وواجه بها الدنيا بأسرها، وكان يؤمن أن صلاح الرعية معقود بصلاح الراعي ومن ثم كان يقول (لو أن لي دعوة مستجابة ما صيرتها إلا في الإمام، قيل له : وكيف ذلك يا أبا علي؟ قال : متى صيرتها في نفسي لم تجزني. ومتى صيرتها في الإمام فصلاح الإمام صلاح العباد والبلاد ..)^(٣) ١١ .

ولقد كان للإمام الفضيل مع هارون الرشيد مواقف ومواقف سجلها التاريخ بمداد من نور. فهي خير شاهد على مجد علماء الإسلام الذين حملوا لواء الدعوة إلى الله على هدى وبصيرة.

(١) انظر حلية الأولياء ٨ / ٩٦ ، ٩٩ .

(٢) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٨ / ٩٢ .

من تلك المواقف ما رواه صاحب حلية الأولياء بسنده عن يحيى بن يوسف عن الفضيل بن عياض قال : (لما دخل على هارون أمير المؤمنين قال : أيكم هو ؟ قال فأشاروا إلى أمير المؤمنين .

فقال أنت هو يا حسن الوجه ؟ لقد وليت أمراً عظيماً . أنى ما رأيت أحداً هو أحسن وجهاً منك . فإن قدرت ألا تسود هذا الوجه بلفحة من النار فافعل . فقال لى : " عظمى ، فقلت ، بماذا أعظك ؟ هذا كتاب الله تعالى بين الدفتين . انظر ماذا عمل بمن أطاعه وماذا عمل بمن عصاه - وقال - إنى رأيت الناس يفوصون على النار غوصاً شديداً ويطلبونها طلباً حثيثاً . أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها . فقال عد إلى . فقال : لو لم تبعث إلى لم آتك ، وإن انتفعت بما سمعت منى عدت إليك ^(١) .

وثمة واقعة أخرى للإمام الفضيل مع الرشيد يرويها ابن خلكان قائلاً : حدث سفيان بن عيينة قال : دعانا هارون الرشيد فدخلنا عليه ودخل الفضيل آخرنا مقنعاً رأسه بردائه فقال : يا سفيان ، وأيهم أمير المؤمنين ؟ فقلت هذا وأومات إلى الرشيد فقال له يا حسن الوجه : أنت الذى أمر هذه الأمة هى يدك وعنقك ؟ لقد تقلدت أمراً عظيماً .

فبكى الرشيد ثم أتى كل رجل منا ببذرة فكل قبلها إلا الفضيل ، فقال الرشيد يا أبا على ، إن لم تستحل أخذها فأعطاها ذا دين أو أشبع بها جائعاً واكس بها عارياً . فاستعفاه منها فلما خرجنا قلت : يا أبا على ، أخطأت . ألا أخذتها وصرفتها فى أبواب البر ؟ فأخذ بلحيتى ثم قال يا أبا محمد : أنت فقيه البلد والمنظور وتغلط مثل هذا الغلط ؟ لو طابت لأولئك لطابت لى ^(٢) .

(ويحكى أن الرشيد قال له يوماً : ما أزهذك ؟ فقال له الفضيل أنت أزهده منى قال وكيف ذلك ؟ قال : لأننى أزهده فى الدنيا وأنت تزهد فى الآخرة ، و الدنيا فانية والآخرة باقية) ^(٣) .

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٨ / ١٥٥ .

(٢) انظر : رفيات الأعيان لابن خلكان بتحقيق وإحسان عباس ٤ / ٤٧ - ٤٨ نشر دار صادر .

(٣) انظر شذرات الذهب لابن العماد ١ / ٢١٧ - ١٥٠ -

لقد كان ثقل المسؤولية أمام الله يؤرق الإمام الفضيل فلم يدخر وسعاً في أداء الأمانة لأهلها وكان ذلك الوعد والتذكير جزءاً لا يتجزأ من عبادته لله .

ثم لعنا وقد طوفنا في آفاق الجانب العملي عند الإمام الفضيل - أن نكون قد استكشفنا بعض ملامح الجانب الثالث وهو جانب التحقق والوصول . وماذا يمكن أن يقال عن إمام كالفضيل .

وقد ارتوى من معين العلم والحكمة حتى بلغ مرتبة الإمامة للأئمة ثم شربت روحه من دنان الطاعة والتبذل حتى صفت واستنارت وتعلقت بالله بلا انقطاع ٥٩ .

ليس بعد إلا ثمار الوصل الطيبة، وليس إلا العروج في آفاق الولاية إلى القمة ومن ثم فقد تربع الإمام الفضيل على عرش الولاية وصار عارفاً ريانياً راسخاً في العلوم الدنية كما شهد له بذلك أساطين العلم والولاية .

وناهيك بشهادة سيدي عبد الله بن المبارك - رضى الله عنه - إذ يقول في الإمام الفضيل : (ما بقى على ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل بن عياض)^(١)، ويقول عنه الإمام الغزالي رضى الله عنه (كان الفضيل غصناً مثمراً في شجرة التقوى) .

وفي مقام الخوف من الله ضرب المثل الأعلى في عصره حتى لقد قال فيه سيدي عبدالله بن المبارك : (إذا مات الفضيل ارتفع الحزن)^(٢) .

وقال الإمام سفيان بن عيينة : (ما رأيت أحداً أخوف من الفضيل وأبيه)^(٣) .

وفي مقام الزهد يرتفع الإمام الفضيل فوق الذروة، فقد روى الإمام أبو نعيم عن إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول : (لو أن الدنيا بحذاخيرها عرضت على لا أحاسب بها في الآخرة لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه)^(٤) .

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٨ / ٤٢٤ .

(٢) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٨ / ٨٧ .

(٣) (٤) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٨ / ٨٥ ، ٨٩ .

لقد أشرب قلبه الإخلاص لله في كل شيء وقصرت رغبته على الله وحده،
وهو هو ذا يصور إخلاصه في الإيمان بقوله: (لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعد
البلاء نعمة والرخاء مصيبة، وحتى لا ييأس من أكل الدنيا وحتى لا يحب أن يحمد
على عبادة الله عز وجل) .

ومعنى هذه البلاء نعمة أنه تكفير عن الخطايا ورفع في الدرجات، واعتبار
الرخاء مصيبة من حيث إنه ابتلاء شاق للعبد فيما فوضه الله فيه وهو محاسبه
عليه لا محالة .

إن الإخلاص والصدق متلازمان، ومن ثم حرص عليهما الإمام الفضيل أيما
حرص إنه يقول : (ما تزين العباد بشيء أفضل من الصدق . إن الله يسأل
الصادقين عن صدقهم فكيف بالكاذبين) (١) .

ثم يتجلى صدق إيمان الإمام الفضيل في شدة محبته للرسول - صلى الله
عليه وسلم - ولآل بيته رضوان الله عليهم أجمعين فهو يقول : (إذا نظرت إلى رجل
من أصحاب أهل البيت كأني نظرت إلى رجل أصحاب من رسول الله صلى الله عليه
وسلم) (٢) .

وأيضاً فهو يندد بأصحاب الأهواء والبدع ومن ينتقصون أحداً من صحابة
سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فيقول : (إنى أحب من أحبهم
الله وهم الذين يسلم منهم أصحاب محمد - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ،
وأبغض من أبغضه الله وهم أصحاب الأهواء والبدع) .

وفي مقام المحبة نجد الإمام غارقاً في بحارها ثملاً من كرمها ولقد عبر عن
حقيقة المحبة لله تعالى بعبارة تذوب لها شغاف القلوب إذ يقول : (حقيقة المحبة
إيثار المحبوب على الكونين في القرب والبعد) (٣) وقال : (إذا أحب الله عبداً أسكن
محبته في قلوب خلقه) .

(١) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٨ / ٩٦ .

(٢) انظر الكواكب الدرية للعلامة المناوي ١ / ٢٧١ .

وأما مقام الرضا: فقد بلغ فيه الإمام الفضيل منزلة لا تسامى، ذكر ابن خلكان أن أبا علي الرازي قال : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكاً ولا متبسماً إلا يوم مات ابنه علي فقلت له فى ذلك فقال : (إن الله أحب أمراً فأحببت ذلك الأمر وكان ولده المذكور شاباً ثرياً من كبار الصالحين وهو معدود فى جملة من قتلهم محبة البارى سبحانه وتعالى)^(١).

من خلال ذلك كله يتضح جلياً أن الإمام الفضيل قد تحقق بأعلى مقامات الولاية، وأنه قد صار ربانياً من خواص الحق تعالى وأوليائه المقربين.

وهذه واقعة تصور تمكنه فى الولاية يرويها الإمام أبو نعيم بسنده عن مليح ابن وكيع قال سمعتهم يقولون خرجنا من مكة فى طلب فضيل بن عياض إلى رأس الجبل : فقرأنا القرآن. فإذا هو قد خرج علينا فى شعب لم نره فقال لنا: أخرجتموني من منزلى ومنعتموني الصلاة والطواف. أما إنكم لو أطعتم الله ثم شئتم أن تزول الجبال معكم لزالن. ثم دق الجبل بيده فرأينا الجبال - أو الجبل اهتزت وتحركت)^(*).

حقيقة أنه من جنود الحق الذين لهم ما يشاءون عند ربهم وإنه لحجة الله على خلقه^(٢).

ولقد ذكر الإمام المناوى أن ابن عساكر أخرج عن بعض المكيين: (رأيت سعد بن سالم القداح فى النوم فقلت : من أفضل من فى هذه المقبرة ؟

قال صاحب ذاك القبر. قلت : بم فضلهم؟ قال : ابتلى فصبر. قلت: ما فعل فضيل؟ قال : هيهات كُسيَ حلة لا تقوم لها الدنيا بحواشيها)^(٣).

رضى الله عنك يا مولانا الفضيل وأمدنا بمددك وألحقنا بركابك فى زمرة العلماء العاملين والأولياء المقربين بجاء الرسول الكريم - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين دائماً أبداً إلى يوم الدين.

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٤ / ٤٩ .

* انظر نحو هذه الكرامة فى الرسالة القشيرية ٢ / ٦٨٧ .

(٢) انظر : سير اعلام النبلاء للذهبي ٨ / ٤٢٥ .

(٣) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى / ٢٧٢ .

الإمام سفيان بن عيينة رضى الله عنه

نال الصفة من عباد الرحمن من المولى عز وجل خلعة الرضوان، ومنحوا منشور الولاية بسابق العناية، إذ ألقى الحق تعالى عليهم محبة منه فهموا في بحار محبته، وأفاض عليهم من لدنه علماً فعرفوا آداب عبوديته، فاستبقوا الخيرات، واغتموا النفعات، وارتقوا إلى أعلى الدرجات، - رضى الله عنهم وعنا بهم ومعهم، - وأفاء علينا من بركاتهم في الدنيا ويوم لا ظل إلا ظله.

من أولئك الذين تسنّموا ذروة المعرفة والتحقيق، وكشفوا بنور علمهم ومعرفتهم معالم الطريق، وقادوا مواكب النور على درب النور إلى النور المطلق والرضوان المحقق: إمام العلماء وعلم الأولياء، وكوكب الزهاد والأتقياء سيدي الإمام أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالي الكوفي رضى الله تعالى عنه وعنا به .

هو أحد أعلام أتباع التابعين لسيد المرسلين - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - وهو أحد أئمة السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

الذين كانوا بحاراً زاخرة في العلم ومثالاً علياً في تطبيق مثاليات الإسلام ومبادئه التي قهرت أعداءه، وصمدت على مر الزمن تعلن معجزة نبي في صنع أمة، وشموخ أمة في تمثيلها لنهج رسولها - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - ذلك النهج الصوفي الرفيع الذي يجعل العبد ربانياً بكل ما في هذا الوصف من روعة وجلال .

من هنا كان التصوف بحق هو التطبيق المثالي لروح الإسلام شريعة ومنهاجاً، وكان أعلام الصوفية الأولياء على مر الحقب وامتداد الزمن سرجاً مضيئة تقود قوافل السائرين إلى رحاب الحقيقة.

وسيدى سفيان بن عيينة كان من أولئك الأعلام الشامخين والعلماء الريانيين والأولياء العارفين.

ترجم له الإمام أبو نعيم الأصبهاني في (حلية الأولياء) قائلاً : « ومنهم الإمام الأمين ذو العقل الرصين، والرأى الراجح المكين، المستنبط للمعاني ، والمرتبط للمباني أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالي. كان عالماً ناهداً، وزاهداً عابداً، علمه مشهور، وزهده معمر» (١).

وذكره ابن خلكان في (وفيات الأعيان) قائلاً : « أبو محمد سفيان بن عيينة ابن أبي عمران ميمون الهلالي مولى امرأة من بنى هلال بن عامر رهط ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

وقيل : مولى بنى هاشم، وقيل مولى الضحاك بن مزاحم، وقيل مولى مسعر ابن كدام، وأصله من الكوفة، وقيل ولد بالكوفة ونقله أبوه إلى مكة.

ذكره ابن سعد في كتاب الطبقات وعده في الطبقة الخامسة من أهل مكة» (٢). وقد ذكر الإمام العارف سيدى عبد الوهاب الشعراني رضى الله عنه وعنا به في طبقاته أن سيدى سفيان قد (ولد بالكوفة سنة سبع ومائة وسكن مكة وتوفي بها سنة ثمان وتسعين ومائة ودفن بالحجون وهو ابن إحدى وتسعين سنة رضى الله عنه) (٣).

وحين نحاول التعرف على الجانب العلمى عند سيدى سفيان فإننا بلا شك لن نستطيع في تلك الصفحات القلائل أن نعطي لهذا الجانب حقه ، ولا بعض حقه ، ولكننا تبعاً لما التزمناه غالباً في تلك السلسلة من إلقاء بعض الضوء على الصورة العلمية قبل التعرف على الصورة العملية : سنأخذ قدراً من هذا الجانب قبل ذلك.

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٢٧٠/٧ .

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٩١/٢ .

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضى الله تعالى عنه ٤٩/١ .

أما عن الصورة التي نقلها العلماء والمؤرخون لسيدى سفيان العالم فإنها تضعه في صدارة أقداد الأمة وأساطين علمائها الراسخين وأئمة فقهاؤها ومحدثيها الأثبات المحققين. وحينما نتتبع هذه الصورة من بدايتها سوف ندهش بحق لهذا النبوغ العلمي المبكر الذي حظى به سيدى سفيان .

يقول الإمام الشعرائى رضى الله عنه فى مستهل ترجمة الإمام ابن عيينة: «حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين وكتب الحديث وهو ابن سبع سنين» (١).

وقد نقل هذه العبارة الإمام المناوى فى طبقاته وأتبعها بقوله: «ثم برع حتى صار أوحد زمانه علماً وزهداً وورعاً، قال فى الربيع: كان يحضر مجلسه مائة ألف، وكان يقول: أنا لكم جبل أبى قبيس، اصعدوا على واطلموا على التابعين، وكان يفعل ما يقول ولا يقول ما يفعل» (١).

وقد شهد بسمو منزلة هذا الإمام علمياً أكابر أئمة الأمة وأعيان علمائها فلقد ذكر صاحب شذرات الذهب أن الإمام الشافعى رضى الله عنه قال: «لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز» (٢).

وذكر صاحب (وفيات الأعيان) أن إمامنا الشافعى رضى الله عنه قال: (ما رأيت أحداً فيه من آلة الفتيا ما فى سفيان - أى ابن عيينة - وما رأيت أكف منه عن الفتيا) (٣).

وذكر صاحب الشذرات أيضاً أن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه قال: (ما رأيت أعلم بالسنن من ابن عيينة) (٤) ولا ريب أن هذه الشهادة فى علم السنة من إمام السنة أحمد بن حنبل تعطينا مدى شموخ سيدى سفيان فى علم الحديث.

(١) انظر أولاً: الطبقات الكبرى للإمام الشعرائى ٤٨/١ ثم الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢١٦/١.

(٢) انظر شذرات الذهب لابن العماد ٢٥٤/١.

(٣) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٢٩٢ والمصدر السابق ٣٥٥/١.

(٤) انظر شذرات الذهب لابن العماد ٢٥٤/١.

وقد وصفه صاحب الوفيات أيضاً بأنه : (كان إماماً عالماً ثباتاً زاهداً ورعاً مجمماً على صحة حديثه وروايته).

ويضيف صاحب الشذرات أيضاً فيما يتعلق بعلم سيدي سفيان بالحديث الشريف أن أحمد المجلى قال : (كان حديثه نحواً من سبعة آلاف حديث لم يكن له كتب)^(١).

وقد لقى سيدي سفيان الكثير من أعلام التابعين وأخذ عنهم مدداً فياضاً من العلم والحديث الشريف والفقه وغير ذلك.

فيقول الحافظ أبو نعيم في الحلية : « أسند سفيان بن عيينة عن الجماهير من التابعين. أدرك ستة وثمانين نفساً من أعلام التابعين وأركانهم كعمرو بن دينار، والزهرى، ومحمد بن المنكدر، وعبدالله بن دينار، وزيد بن أسلم، وأبى حازم، ويحيى بن سعيد الأنصارى..

ومن الكوفيين: أبو إسحق، وعبد الملك بن عمير، والشيباني، والأعمش، ومنصور، وإسماعيل ابن أبى خالد..

ومن البصريين : أيوب، وسليمان التيمي، وداود بن أبى هند، وعلى بن زيد ابن جدعان، وحميد الطويل.

وحدث عنه من الأئمة، سفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، والأعمش، والأوزاعي»^(٢).

وقد روى الحافظ أبو نعيم من إسناد سيدي سفيان قرابة خمسين حديثاً في الحلية. نذكر منها- تبركاً- هذا الحديث الشريف المتفق عليه الذي رواه سيدي سفيان عن محمد بن المنكدر قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم : دخلت الجنة فرأيت فيها قصراً - أو داراً -

(١) انظر شذرات الذهب لابن العماد ٢٥٤/١.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٢٠٧/٧ ، ٢٠٩ والحديث المذكور متفق عليه.

فسمعت فيها ضوضاء فقلت : لمن هذا ؟ فقيل لرجل من قريش، فرجوت أن أكون هو، فقيل : لعمر بن الخطاب، فلولا غيرتك يا أبا حفص لدخلته. فبكى عمر وقال : أيفار عليك يا رسول الله ١٩ « ^(١).

وقد كان علم سيدي سفيان المأخوذ عن التابعين محل تقدير الأئمة وهو الذي حدا بهم أن يقدموه للفتيا وهو في ريعان شبابه، يذكر ابن خلكان أن سيدي سفيان قال : « دخلت الكوفة ولم يتم لي عشرون سنة فقال أبو حنيفة لأصحابه ولأهل الكوفة: جاءكم حافظ علم عمرو بن دينار، قال فجاء الناس يسألونني عن عمرو بن دينار.

فأول من صيرني محدثاً أبو حنيفة، فذاكرته فقال لي : يا بني، ما سمعت من عمرو إلا ثلاثة أحاديث، يضطرب في حفظ تلك الأحاديث » ^(٢).

وأما علم سيدي سفيان بتفسير القرآن الكريم : فقد كان آية عصره، يذكر صاحب الشذرات أن ابن وهب قال : (لا أعلم أحداً أعلم بالتفسير من ابن عيينة) ^(٣).

وقد روى الإمام أبو نعيم في مناقبه بضع إشارات مضيئة وتفسيرات بديعة لبعض آيات التنزيل الحكيم مروية عن الإمام ابن عيينة.

منها قوله في قوله تعالى: « أنزل الله من السماء ماء فسالأت أودية بقدرها » ^(٤) إلخ: - أنزل من السماء قرآناً فاحتمله الرجال بعقولها. « فأما الزيد فيذهب جفاء » قال : وهو قول أهل البدع والأهواء. « وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » قال : وهو الحلال والحرام - أي علمهما - ^(٥) اهـ.

(١) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٣٠٧/٧ ، ٣٠٩ والعديد المذكور متفق عليه.

(٢) انظر وهيات الأعيان لابن خلكان ٢٩٣/٢.

(٣) انظر شذرات الذهب لابن العماد ٢٥٤/١.

(٤) سورة الرعد / ١٧.

(٥) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٧٧/٧.

وقال في قوله تعالى : « ولدينا مزيد » ^(١) ليس تكاد أبصارهم تسمو إلى شيء مما هم فيه حتى يفتح لهم شيء يقال له المزيد. فإذا فتح ذلك جاء شيء بالذي كانوا فيه فيشرف عليهم فينادونه فيقولون: من أنت ؟ فيقول : أنا من الذين قال الله: « ولدينا مزيد » ^(٢) .

ويروى صاحب الحلية بسنده عن أبي بكر الأصيلي قال : (وقف فضيل بن عياض على رأس سفيان بن عيينة وحوله جماعة فقال له، يا أبا محمد ، « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فإلفرحوا هو خير مما يجمعون » فقال له سفيان : يا أبا على ، والله لا يفرح أبداً حتى يأخذ دواء القرآن فيضعه على داء قلبه ^(٣)) .

وسئل سيدي سفيان عن قوله تعالى: « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون » .

فقال : (أنزل الله عليه القرآن بمكارم الأخلاق فهم الذين كانوا يشرفون بها ويفضل بعضهم بعضاً بها من حسن الجوار ووفاء بالعهد وصدق الحديث وأداء الأمانة. فقال : إنما جاء محمد - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - بمكارم أخلاقكم التي كنتم بها تشرفون وتعظمون. انظروا هل جاء بشيء مما كنتم تعيبون من الأخلاق القبيحة التي كنتم تعيبونها فلم يقبح القبيح ولم يحسن الحسن ؟ .

وقال الحسن بن أبي الحسن: أمسك عليكم دينكم أخلاق القرآن .

وقال مجاهد: « ورفعنا لك ذكرك » قال : لا أذكر إلا ذُكرت معي . أشهد أنه لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ^(٤) اهـ .

(١) سورة (ق) / ٢٥ .

(٢) انظر حلية الأوتياء لأبي نعيم ٢٧٥/٧ .

(٣) انظر حلية الأوتياء لأبي نعيم ٢٧٨/٧ - ٢٧٩ .

(٤) انظر حلية الأوتياء لأبي نعيم ٢٩١/٧ - ٢٩٢ .

والمتصفح للجانب العلمى عند سيدى سفيان يجد أنه كان يقدس العلم ويقدر له مسئوليته التى عبر عنها بقوله رضى الله عنه : « من قرأ القرآن يسأل عما يسأل عنه الأنبياء عليهم السلام إلا تبليغ الرسالة! وكان يقول فى طالب علم الحديث الشريف: ؟ « من طلب الحديث فقد بايع الله »^(١).

وروى صاحب الحلية عنه أنه كان يقول : « لو أن رجلاً استقبل القبلة ثم ذكر الحديث لرجوت ألا يقوم حتى يغفر له »^(٢).

ولكن مسئولية العالم إلى جانب فضل العلم جسيمة أيضاً كما مر آنفاً حتى لقد حدث سيدى سفيان عن سيدى الفضيل بن عياض رضى الله عنهما أنه قال: « يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب »^(٣) .

إنها المسئولية تسير جنباً إلى جنب مع المنزلة التى يكون فيها العبد . وقد كان سيدى سفيان يقدر مسئوليته كعالم وكمؤمن . حتى أنه مع درجته السامية فى العلم والتى أشرنا إليها لم يكن يجيب عن كل سؤال يوجه إليه إلا إذا تيقن من علمه بالإجابة.

يقول على المدينى : (كان سفيان إذا سئل عن شيء - لا يعرف إجابته - يقول: لا أحسن . فيقول : من يسأل ؟ فيقول سل العلماء وسل الله التوفيق)^(٤) وتعليلاً لذلك يروى أن سيدى سفيان كان يقول : -

(إذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقاتله) !! هذا عن مسئولية العالم بالنسبة للوثوق من علمه نجد سيدى سفيان يجزل له تقديره .

ثم نجد محور الارتكاز الذى يعطى الإمام سفيان له كل الاهتمام هو التلازم بين العلم والعمل ووجوب تطبيق هذا التلازم والقيام بحق العلم فى العمل به وفى

(١) المصدر نفسه لأبى نعيم ٧ / ٢٨٠ .

(٢) المصدر نفسه لأبى نعيم ٧ / ٢٨٠ .

(٣) انظر حلية الأولياء / ١٥٧ .

(٤) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٨ / ٤٦٨ .

ذلك يقول عليه الرضوان : (إنما أرياب العلم هم أهله الذين يعملون به)^(١) وكان يضع مراتب العلم الصحيح النافع هكذا كما قال : (أول العلم الاستماع ثم الإنصات ثم الحفظ، ثم العمل ثم النشر) . ومن أقواله في هذا الصدد : (قال بعض الفقهاء : كان يقال : العلماء ثلاثة عالم بالله وعالم بأمر الله وعالم بالله ويأمر الله . فأما العالم بأمر الله - أى مجرد العلم النظرى - فهو الذى يعلم السنة ولا يخاف الله . وأما العالم بالله فهو الذى يخاف الله ولا يعلم السنة - أى علماً كسبياً - وأما العالم بالله ويأمر الله فهو الذى يعلم السنة ويخاف الله، فذاك يدعى عظيماً فى ملكوت السموات)^(٢) وكان رضى الله عنه يقول : (ما عليك أضر من علم لا تعمل به)^(٣) من أجل ذلك حرص سيدي سفيان كل الحرص على أن يعمل بما علم ومع ذروة الإخلاص .

ولا نجد فى هذا المضمار أدق من وصف الإمام المناوى السابق له : (وكان يفعل ما يقول ولا يقول ما يفعل) ((وفى هذا الربط والملازمة بين العلم والعمل تكمن صوفية الإمام سفيان فى أروع صورها .

ومن خلال هذا الربط تنتقل إلى الجانب الصوفى عند العارف بالله سيدي سفيان بن عيينة . لقد كان ثمة سؤال يؤرقه منذ بدء اشتغاله بالعلم وهو سؤال ينطوى على اتهامه نفسه بالتفريط فى جنب الله وتحفز دائب للعبادة والخدمة .

كان يردد هذا التساؤل : (إذا كان نهارى نهار سفيه، وليلى ليل جاهل فما أصنع بالعلم الذى كتبت)^(٤) .

ومن ثم هرع إلى محراب الطاعة، وأخذ نفسه ليحررها من أنيتها فى مظهر الجهاد النفسى على النهج المحمدى الوضاء .

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٧/ ٢٧١ .

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٧/ ٢٨٠ .

(٣) انظر طبقات الإمام الشمرانى رضى الله تعالى عنه ١/ ٤٩ .

(٤) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشمرانى ١/ ٤٨ .

فانغمس سيدي سفيان في محيط القيادة بمظاهرها المتنوعة من صيام وقيام وحج وجهاد وذكر لا ينقطع.

فما أن يسدل الليل ستوره، ويخلد الخلق إلى الراحة حتى يهرع سيدي سفيان إلى محرابه مستغرقاً في صلاة تحمل كل معاني الصلة بالله تعالى ثم يروى الرواة أنه ما إن يفرغ من صلاته حتى يدعو مولاه عز وجل قائلاً: (اللهم اغفر لي ما كان فيها)^(١).

وكان يهيب بأهل عصره أن يحضروا للصلاة من قبل أن يؤذن المؤذن لوقتها فيقول: (ائتوا للصلاة قبل النداء ولا تكونوا كالعبد السوء لا يأتي للصلاة حتى يدعى إليها)^(٢). وكان رضى الله عنه يكثر من الذكر الأكبر وهو تلاوة القرآن الكريم متمثلاً بقول سيدنا عثمان رضى الله عنه وعنا به : (إِنَّ قُلُوبُنَا طَهَّرَتْ مَا شَبِعَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ)^(٣). ويقول عليه الرضوان: (ما أحب أن يأتي على يوم ولا ليلة إلا أنظر في كلام الله في المصحف)^(٤). وأما عن عبادة الحج فيذكر ابن خلكان في الوفيات أن سيدي سفيان بن عيينة قد حج سبعين حجة^(٥) .

وأما في ميدان الجهاد فيروى صاحب الحلية بسنده عن سيدي سفيان أنه كان يقول : (شهدت ثمانين موقفاً)^(٦).

ثم انتقل سيدي سفيان إلى الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس الذي قال فيه :
(الجهاد عشرة أجزاء : جهاد العدو جزء، وجهاد النفس تسعة أجزاء)^(٧).

(١) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٨٢/٧.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشيرازي ٤٩/١.

(٣) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٧٢، ٧، ٣٠٠.

(٤) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٧٢، ٧، ٣٠٠.

(٥) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٩٢/٢ وانظر شذرات الذهب لابن العماد ٣٥٤/١ - ٣٥٥.

(٦) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٨٩ / ٧.

(٧) انظر الحلية لأبي نعيم ٢٨٤ / ٧.

وفى مطهر الجهاد الأكبر ألقى سيدى سفيان بنفسه فى الخضم ليصهر معدنها فتتجلبب عنها الغشاوات المظلمة وتتمحى أدرانها القاتمة ليصفو نضارها وتتألق أنوارها.

أدرك سيدى سفيان أن لا سبيل لكسب الآخرة إلا بالزهد فى الدنيا.

فقد روى الحافظ أبو نعيم أن سيدى سفيان قد روى عن حصين عن سالم ابن أبى الجعد أن سيدنا عمر رضى الله عنه استعمل النعمان بن مقرن على (كسكر) فكتب إليه النعمان : يا أمير المؤمنين، اعزلنى عن كسكر وابعثنى فى بعض جيوش المسلمين فإنما مثل كسكر مثل مومسة بنى إسرائيل، تعطر وتزين فى اليوم مرتين! فكان عمر إذا ذكر النعمان بن مقرن بعد موته قال : يا لهف نفسى على النعمان (١)}}

وأدرك سيدى سفيان أن صحة العبادة لا تتحقق إلا بأمر ثلاثة، فقد روى صاحب الحلية أنه قال : (لا تصلح عبادة إلا بزهد، ولا يصلح زهد إلا بفقه، ولا يصلح فقه إلا بصبر) (٢).

فأيقن بحتمية توافر هذه الأمور فيه ومن ثم وصل فى الزهد إلى قمته.
يروى صاحب الحلية أن حرمة بن يحيى قال : (أخذ سفيان بن عيينة بيدي فأقامنى فى ناحية، وأخرج من كفه رغيف شمير وقال لى : دع يا حرمة ما يقوله الناس هذا طعامى منذ ستين سنة) (٣) } .

ويتساءل بعض أدعياء العلم من متحذلقى العصر، ولماذا يحرم الإنسان نفسه من طيبات الرزق ويلزم نفسه هذا التقشف المضنى ؟ أفى الإسلام مشروعية لهذا السلوك ؟ ونقول لهؤلاء القابعين فى رق نفوسهم: أما لديكم من مفهوم لطيبات الرزق غير مشتبهيات البطن ورغائب الحس ؟ كيف وقد ندد القرآن الكريم بالكفار

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٧ / ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ٧ / ٣٠٢ .

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ٧ / ٢٧٣ .

قائلاً : (أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها)^(١) ووصف الكفار بأبشع وصف إذ قال : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم »^(٢).

يا قوم : إن طيبات الرزق هى الحلالات المباحة ولو كانت كسرة من خبز يابس وليست كل ما تهفو إليه المعدة .!

لقد ذكر الواحدى وغيره من المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾^(٣) والمعنى : كلوا من الحلال.

وهذا التقشف الذى يسلكه الصوفية فإنه وإن أضنى النفس فى أول ممارسته فإنه مطفى لنار الشهوة المتأججة التى تأكل دين الرجل وعفته .

ثم هو مضىء لسراج الروح الذى أطفأته رياح المعاصى والفعلات . وصلى الله على سيدنا محمد الذى كان يمر الشهر والشهران فلا يوجد فى بيته إلا الأسودان التمر والماء . وما أروع ما قاله سيدى سفيان بن عيينة :

(من أعطى القرآن فمد عينيه إلى شىء مما صغر القرآن فقد خالف القرآن ، ألم تسمع قوله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى »^(٤) يعنى القرآن »^(٥) .

وللزهد عند سيدى سفيان مفاهيم متعددة تتلاقى فى جوهرها وإن تعددت وجهة النظر إليها . فتارة يعرفه بقوله : (الزهد فى الدنيا الصبر وارتياب الموت)^(٦)

(١) سورة الأحقاف / ٢٠ .

(٢) سورة سيدنا (محمد) صلى الله عليه وسلم / ١٢ .

(٣) سورة (المؤمنون) : ٥١ .

(٤) سورة (طه) صلى الله عليه وسلم / ١٣١ .

(٥) اسطر الحلية لأبى نعيم : ٣٠٣/٧ .

(٦) انظر الحلية لأبى نعيم : ٢٧٢/٧ .

وهنا نلاحظ أن ترقب الموت مدعاة للزهد فى الدنيا، والصبر عون على الزهد وأداة له .

وتارة أخرى يعرفه بأنه الصبر والشكر، إذ يروى صاحب الحلية أن سيدى أحمد بن أبى الحوارى قال : (قلت لسفيان : يا أبا محمد ، أى شىء الزهد فى الدنيا قال : من إذا أنعم الله عليه بنعمة فشكرها وابتلى ببليّة فصبر فذلك الزهد . قلت له : يا أبا محمد فإن أنعم الله عليه بنعمة فشكر وابتلى فصبر وهو ممسك للدنيا كيف يكون زاهداً ؟ قال : اسكت فمن لم تمنعه البلوى من الصبر والنعمة من الشكر فذلك الزاهد)^(١) ولكن ما هو الشكر الذى يعد زهداً مع وجود النعمة؟ إنه الطاعة وعدم المعصية بالكلية. إذ يروى الإمام المناوى أن سيدى سفيان قال :

(ما شكر الله عبد استعان بنعمته على معصيته) .

وأما الصبر فيجعله سيدى سفيان رأس الأمر. يقول الإمام القشيري فى رسالته: (وقال ابن عيينة فى معنى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾^(٢) قال : لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤساء^(٣)) .

وبنظرة فاحصة وعميقة نجد أن مفهوم الصبر داخل فى مفهوم الشكر على ضوء ما ورد من كلام سيدى سفيان.

فحيث إن الشكر هو عدم الاستعانة بالنعمة على المعصية وذلك بالقطع يستلزم الصبر على الطاعة وعن المعصية مع توافر دواعى المعصية وصوارف الطاعة وهى النعم كان الصبر جزءاً جوهرياً من مدلول الشكر.

ولذا نجد سيدى سفيان يفضل الشكر مع العافية على الصبر، يروى الإمام أبو نعيم بسنده عن عمر بن السكن قال : (كنت عند سفيان بن عيينة فقام إليه رجل

(١) انظر الحلية لأبى نعيم : ٢٧٣/٧ .

(٢) سورة السجدة / ٢٤ .

(٣) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ١ / ٤٠٣ - ٤٠٤ .

من أهل بغداد فقال : يا محمد أخبرني عن قول مطرف : لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر. أهو أحب إليك أم قول أخيه : اللهم رضيت بنفسى ما رضيت لى ؟ قال : فسكت سكتة ثم قال : قول مطرف أحب إلى . فقال الرجل كيف وقد رضى هذا لنفسه ما رضى الله له ؟ فقال سفيان : إنى قرأت القرآن فوجدت صفة سليمان عليه السلام مع العافية التى كان فيها نعم (العبد إنه أواب) ووجدت صفة أيوب مع البلاء الذى كان فيه « نعم العبد إنه أواب » فاستوت الصفتان وهذا معافى وهذا مهتلى . فوجدت الشكر قد قام مقام الصبر . فلما اعتدلا كانت العافية مع الشكر أحب إلى من البلاء مع الصبر (١) اهـ.

ثم نطل على جانب آخر من صوفية سيدى سفيان وهو ارتقاب الموت والتأهب للأخرة. يروى مولانا الإمام الشعرانى رضى الله عنه أن سيدى سفيان بن عيينة كتب إلى أخ له : أما آن لك يا أخى أن تستوحش من الناس ؟ لقد أدركنا الناس وهم إذا بلغ أحدهم الأربعين سنة جنَّ عن معارفه وصار كأنه مختلط العقل من شدة تأهبه للموت (٢) اهـ.

وروى صاحب الحلية أنه كان يقول : (كأنك بالدنيا ولم تكن، وكأنك بالآخرة ولم تزل، وكأنك بآخر من يموت وقد مات) اهـ.

ألا هل ليت شعرى هل تصفى إلى تلك المفاهيم أفئدة مسلمى القرن الرابع عشر الهجرى الذين لا يخطر الموت ببال أحدهم ويظل طوال عمره يرتع فى وادى الغفلة بين لهو الحياة الدنيا ولعبها حتى يذكره الموت بنفسه لحظة انقضاء أجله ٩٩٩.

تالله لو استشعر معنى الموت تاجر لما غش فى تجارته، أو موظف لما فطرط فى أمانة وظيفته، أو شاب لما أضاع شبابه فى إرضاء غريزته أو فى إماتة رجولته، أو أى مسلم لتقانى فى عبادة ربه وفى نفع أمته. إن فى ارتقاب الموت معنى الحياة لمن عرف حق الحياة!.

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٧ / ٢٨٣.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١ / ٤٨.

ولقد كان سيدي سفيان من شدة تأهبه للأخرة دائم الحزن والخوف من الله عز وجل، وكان يرى الحزن والخوف رحمة، إذ يروى سيدي أبو القاسم القشيري رضي الله عنه أن سيدي سفيان قال : (لو أن محزوناً بكى في أمة لرحم الله تلك الأمة ببكائه)^(١).

ويروى الإمام أبو نعيم أنه قال : (خلقت النار رحمة يخوف الله بها عباده لينتهوا)^(٢) وكان يستدر من نفسه الحزن على التفريط فيقول : (واحزنه على أن لا أحزن) .

ولقد روى صاحب الحلية أن سيدي منصور بن عمار قال : (تكلمت في مجلس فيه سفيان بن عيينة، وفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك. فأما سفيان ابن عيينة فتغرغرت عيناه ثم نشفتا من الدموع. وأما ابن المبارك فسالت دموعه، وأما الفضيل فانتحب. فلما قام الفضيل وابن المبارك قلت لسفيان: ما منعك أن يجيء منك ما جاء من صاحبك ؟ قال : هذا أكمد للحزن، إن الدمعة إذا خرجت استراح القلب)^(٣) .

ثم مع هذا الحزن والخوف كانت قمة الرجاء عند سيدي سفيان وقمة حسن الظن بالله عز وجل. ولم لا وقد روى أنه قال : (صلى محمد بن المكندر على رجل فقيل له : تصلى على فلان ؟ فقال : إنى أستحي من الله أن يعلم منى أن رحمته تعجز عن أحد من خلقه) .

بل لقد تحقق سيدي سفيان بما فوق مقام الرجاء وهو مقام الرضا إذ يروى الإمام أبو نعيم عن أبي عبد الله الرازي أنه قال : (قال لي سفيان بن عيينة : يا أبا عبد الله، عليك بالنصح لله في خلقه فلن تلقاه بعمل أفضل منه. ألا لا تأنس بمراد

(١) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ١ / ٢٢٩.

(٢) انظر الحلية لأبي نعيم ٧ / ٢٧٥.

(٣) انظر الحلية لأبي نعيم ٧ / ٣٠٢.

هؤلاء. فلو نادى مناد من السماء أن الناس كلهم يدخلون الجنة وأنا وحدي أدخل النار لكنت بذلك راضياً (١).

إذن فمن أى شيء كان يخاف سيدي سفيان ويرجو ؟؟

إنه لم يخف إلا الله وليسست النار أو أى شيء سوى الله، وأنه لم يرج إلا الله وليسست الجنة أو أى شيء سوى الله. فتلك عبادة خواص الرحمن الذين تحرروا من رق السوى وأفردوا عبوديتهم له وحده ١١.

لقد كان سيدي سفيان من أبرز الدعاة إلى الإخلاص لله وترك الطمع فيهما سواء ولقد عبر عن صعوبة الترقى إلى هذا المقام فقال : (خصلتان يعسر علاجهما: ترك الطمع فيما بأيدي الناس وإخلاص العمل لله) ولكنه هو قد تغلب على ذلك العسر منذ أول قدم فصار عبداً ربانياً قد أفنى مراده في مراد سيده، وذلك هو منطق المحبة الصادقة لله. تلك المحبة التي سرت في دمه وملكت أنفاسه وخواطره حتى كان داعية من دعاة المحبة لله وفي الله عن صدق وتحقيق.

يروى صاحب الحلية أن سيدي أحمد بن أبي الحواري قال : (سمعت سفيان ابن عيينة يقول : لا تبلغوا ذروة هذا الأمر إلا حتى لا يكون شيء أحب إليكم من الله، ومن أحب القرآن فقد أحب الله. افقهوا ما يقال لكم) (٢).

ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره. لذا نجد سيدي سفيان مستغرقاً دائماً في الذكر سرّاً وجهرّاً وكان يعبر عن شعوره أصدق تعبير وهو يقول - فيما رواه صاحب الحلية . (ما تنعم متعم بمثل ذكر الله) ولقد وصل سيدي سفيان بالمحبة والعبادة إلى المعرفة الحقة.

وكان له لسان في الحقائق واللدنيات والحكم الإلهامية والمكاشفات ما يضيق عنه ذلك المقام ولكن مالا يدرك كله لا يترك كله.

كان رضى الله عنه يقول في كلمة التوحيد : لا إله إلا الله في الآخرة بمنزلة

(١) . (٢) انظر الحلية لأبي نعيم ٧ / ٢٧٨ .

الماء فى الدنيا لا يحيا شىء فى الدنيا إلا على الماء) قال الله تعالى : ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون ﴾ (١) فلا إله إلا الله بمنزلة الماء فى الدنيا، من لم تكن معه لا إله إلا الله فهو ميت ومن كانت معه لا إله إلا الله فهو حى (٢).

ويذكر الإمام أبو نعيم - رضى الله عنه - عن رواية تحث على التخلق بأخلاق الله تعالى تلقاها العارف سيدى سفيان من سيدنا الخضر عليه السلام أو بعض الأبدال.

إذ يروى عن سيدى سفيان أنه قال : « بينما أنا أطوف بالبیت إذا أنا برجل مشرف على الناس حسن الشيب. فقلنا بعضنا لبعض. ما أشبه هذا الرجل أن يكون من أهل العلم ! قال : فاتبعناه حتى قضى طوافه وصار إلى المقام فصلى ركعتين ولما سلم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا له : وماذا قال ربنا؟ قال : قال ربكم : أنا الملك أدعوكم إلى أن تكونوا ملوكاً.

ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا له : وماذا قال ربنا يرحمك الله؟ قال : قال ربكم : أنا الحى الذى لا يموت أدعوكم إلى أن تكونوا أحياء لا تموتون.

ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قلنا ماذا قال ربنا؟ حدثنا يرحمك الله . قال : قال ربكم : أنا الذى إذا أردت شيئاً كان. أدعوكم إلى أن تكونوا بحال إذا أردتم شيئاً كان لكم .

قال ابن عيينة، ثم ذهب فلم نره فلقيت سفيان الثورى فأخبرته بذلك فقال : ما أشبه أن يكون هذا الخضر. أو بعض هؤلاء - يعنى الإبدال - (٣) اهـ.

وهذه الواقعة بلا شك تتطوى على عدة كرامات:

(١) سورة الأنبياء / ٣٠ .

(٢) انظر : الحلية لأبى نعيم ٧/ ٢٧٢ .

(٣) المصدر نفسه ٧ / ٣٠٢ .

منها : التقاء الإمام سفيان ابن عيينة بسيدنا الخضر عليه السلام . أو ببعض أبدال الأولياء الذين يظهر أحدهم في عدة أماكن مختلفة في وقت واحد .

ثم منها تحديث سيدنا الخضر أو ذلك البديل عن الله تعالى إلهاماً وتلك مرتبة التحديث التي قال عنها مولانا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، (قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم فعمر منهم)^(١) وهذه الكرامات إكرامات من الله تعالى للمخلصين من عباده .

وقد ظل أناس من الجاحدين والمعاندين ينفون تلك الكرامات عن الأولياء برغم ثبوتها في الكتاب والسنة ولا يزالون يمارون في ثبوتها في الوقت الذي تطالعنا فيه الصحف الآن بما يرويهِ بعض الكتاب من خوارق للعادة في غير الجو الإسلامي .
رضى الله عن أوليائه المكرمين ورضى عنك يا إمام العلماء الأولياء يا سيدي سفيان بن عيينة وعنا بك، وحشرنا في زمرك وجعلنا من خواص أحبابك دنيا وأخرى آمين .



(١) رواه البخاري والإمام أحمد عن سيدنا أبي هريرة ، كما رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن السيدة عائشة رضي الله عنها . انظر الفتح الكبير للذهبي ٢/٢٩٨ .

سيدي معروف الكرخي رضى الله عنه

كما تشرق الشمس بعد ظلمة الليل بالسنا الوضاء لتغمر آفاق الكون بالضياء يشرق نور المعرفة في قلب الولي بعد انقشاع الحجب التي كانت تحول بينه وبين مصدر الإشراق. فإذا بجوهر العبد يتحول من إنيته الترابية إلى روح نيرة شفافة متصلة بالله عز وجل وإذا بتلك الروح تصفو وترقى في معارج الصفاء في رحلة النور إلى منتهى الغايات ﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (١).

وممن انتهت غاياتهم إلى الله تعالى وشريت أرواحهم من معين الحب الإلهي الإمام العارف : سيدي أبو محفوظ معروف الكرخي رضى الله عنه .

فهو أحد من حظوا من الله تعالى بموفقور العناية وكمال الرعاية، فجالت أرواحهم في ملكوت الله سابحة في النور الإلهي عابدة أوابة تستمطر الفيوضات الريانية وتستلهم اللطائف الرحمانية. إنهم جنود الله وحراسه على شريعته وطريقته وحقيقته.

وسيدي معروف هو شيخ التصوف بالعراق في عصره. وقد انتهت إليه تربية المريدين وإمامة المريين، وقد شهد له مشايخ عصره بأنه لم يكن في زمنه من يربى المريدين مثله (٢)، وناهيك بمن هو شيخ للسرى السقطي الذي هو شيخ الإمام الجنيد سيد الطائفة الصوفية لذا فهو يعتبر بحق شيخاً للسلسلة الصوفية التي نهلت من نبع آل البيت رضوان الله عليهم واستمدت من أنوارهم ضياءها.

(١) سورة النجم/٤٢.

(٢) انظر الكواكب الدرية للعارف اللماوى ١/٤٨٨.

فسيدى معروف هو واسطة العقد النفيس بين آل البيت وأقطاب التصوف
رضى الله عنهم. وقد امتدت حياته فى القرن الثانى حتى نهايته حيث أرخ لوفاته
بسنة مائتين أو إحدى أو أربع ومائتين هـ والأول هو الصحيح كما حققه
الذهبى^(١).

ولقد كانت حياة سيدى معروف - رضى الله عنه - وقفاً على طاعته لربه
وعبوديته الصادقة لله تعالى فلم تشبها رائحة الدنيا، ولم يكن فيها متسع لمأرب
آخر سوى الاتصال بالله عز وجل. فلقد نذر حياته لله تعالى ولم يأل جهداً فى
وفائه بحق هذا النذر فلم تسترع الدنيا منه أدنى التفاتة، لأنه أدرك أنها دنيا، ومن
تعلق بها قلبه فهو دنى الهمة أبق من سيده، فار من ساحة الميدان.

وحينما نتصفح سيرة الإمام الكرخى نقف فى السطور الأولى من تاريخ حياته
على أحداث عدة تلقى أضواءها على هذه الشخصية الفذة التى توافرت لها سُبُل
الرعاية الإلهية والعناية الربانية.

فلقد ولد رضى الله عنه من أبوين كانا يعتنقان النصرانية، وما أن بدأ
يستقبل بواكير صباه حتى أسلمه أبواه للمعلم ليلقنه تعاليم النصرانية، فأخذه وصار
يقول له قل ثالث ثلاثة فيقول له بل إله واحد. فيكرر عليه المعلم قولته. وتصمد
الفطرة المؤمنة أمام كلمة الكفر حتى لم يجد المعلم بدا من اللجوء إلى القوة
والإكراه فضربه ضرباً مبرحاً ليكرهه على دينه جبراً وتمسكاً فهرب سيدى معروف
منه ومن أبويه. أو بالأحرى فرّ إلى ربه. فألقت به العناية الإلهية فى أحضان بيت
النبوة إذ التقى بفرع الدوحة النبوية سيدى على بن موسى الرضا رضى الله عنه
وعنا به. فتلقته يدُ حانية لتمسح عنه آلامه ثم لتغسل عنه أدرانته ثم لتملأ قلبه
بالنور. فَعَبَّ من نبع الهدى والصفاء وشرب من منهل الحنيفية السمحاء. ولما
افتقده والداه صاروا يقولان : ليتته يرجع إلينا على أى دين شاء فتوافقه عليه. وذات
يوم دق الباب. فقيل: من؟ قال معروف. فقالا له على أى دين أتيت؟ فقال على

(١) سيرة أعلام النبلاء للذهبى ٢٤٤/٩.

الإسلام. فأسلم أبواه^(١). وبذا سجل العارف معروف أول فتح للإسلام على يديه مبتدئاً بأبويه. وحين أخذ مفتاح فتوحه من سيدي على الرضا كان قد بدأ حياة جديدة قوامها الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس في طاعة الله تعالى واقتفاء أثر السلف الصالح رضوان الله عليهم وتزود لكل ذلك بالعلم فتضلع منه حتى كان مرجعاً للأئمة في عصره فقد ذكر الإمام الغزالي رضى الله عنه أن الإمام أحمد ابن حنبل كان يختلف إليه هو وابن معين ويسألانه ولم يكن في علم الظاهر مثلهما - فيقال لهما، مثلكما يفعل ذلك؟ فيقولان كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجد في كتاب الله ولا سنة رسوله وقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم (سلوا الصالحين)^(٢).

وكان الإمام الكرخي ذا رواية في الحديث. ويذكر الحافظ أبو نعيم أن من مسانيد حديثه هذا الحديث الذي رواه عن عبد الله بن موسى عن عبد الأعلى بن أعين عن يحيى بن أبي كثير عن عروة عن السيدة عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: - الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء وأدناه أن تحب على شيء من الجور أو تبغض على شيء من العدل. وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله؟ قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾^(٣).

وكان الإمام معروف الكرخي - وهو شيخ وإمام في علوم القوم- ذا منهج خاص في التربية الصوفية ويتضح هذا المنهج من تتبع أقواله الماثورة في التصوف والتي تنبئ عن علو قدمه في ميدان المعرفة. .

فقد سئل سيدي معروف عن حقيقة الوفاء فقال . حقيقة الوفاء : إفاقة السر عن رقدة الغفلات وفراغ الهم من فضول الآفات)^(٤) .

(١) انظر : الرسالة التشريعية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٦١/١ و: سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٣٩/٩.

(٢) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوي ٤٨٨/١ - ٤٨٩ .

(٣) سورة آل عمران / ٣١، وانظر : العلية لأبي نعيم ٣٦٧/٨ - ٣٦٨ .

(٤) انظر : طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمى بتحقيق نور الدين شريعة ص ٨٨.

وخلصه جوابه هي تخليته السر لله تعالى وتصفيه القلب من الغفلة ومن كل ما من شأنه أن يشغل عن الله تعالى .

وسئل رضى الله عنه : بم تخرج الدنيا من القلب؟ فقال : بصفاء الود وحسن المعاملة . وللصفاء علامات ثلاث: وفاء بلاخلاف وعطاء بلاسؤال ومدح بلا جود^(١) .

ويقول : (وصلامة الأولياء ثلاثة : همومهم لله ، وشغلهم فيه ، وفرارهم إليه)^(٢) وسأله أبو سليمان الداراني عن الطائعين بأى شيء قدروا على الطاعة؟ فقال بإخراج الدنيا من قلوبهم . ولو كان منها شيء فى قلوبهم ما صحت لهم سجدة)

أرأيت إلى هذا المعراج السامى فى مراقى الحقائق؟ إن الإمام معروف الكرخى لم ينطق بهذه الكلمات إلا بعد أن تحقق بها . لذلك فإن كلماته تنفذ إلى القلب لأنها من القلب ولأنها صدرت عن إخلاص لله وبغير ذلك لا يمكن أن تثمر الكلمات . ولقد ترجم سيدى معروف سلوكه مع الله فى هذه الكلمات التى فيها غذاء القلب وقوت الروح .

إنه يقول : (توكل على الله حتى يكون هو معلمك ومؤنسك وموضع شكواك ، وليكن ذكر الموت جليسك لا يفارقك)^(٣) .

إن من يفعل ذلك فقد صار محلاً لولاية الله تعالى وهنا تنزل عليه الرحمات وتفيض عليه الإلهامات وتخرق له العادات لأنه صار ريانياً يسمع بالله ويبصر بالله ويفعل كل شيء بالله ولأنه جاهد فى الله حق جهاده . ومما وقع لسيدى معروف من الكرامات ما رواه صاحب الحلية عن إبراهيم بن عبد الله بن إسحق عن محمد بن إسحق النقنى قال سمعت أبا سليمان الرومى يقول سمعت خليلاً الصياد يقول : غاب ابنى محمد فجزعت أمه عليه جزعاً شديداً فأتيت معروفاً فقلت أبا محفوظ .

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٣٦٧/٨ .

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ٣٦٠/٨ .

قال: ما تشاء؟ قلت: - ابني محمد غاب وجزعت أمه عليه جزعاً شديداً فادع الله أن يرده عليها. فقال: اللهم إن السماء سماءك والأرض أرضك وما بينهما لك فأت به. قال خليل فأتيت باب الشام فإذا ابني محمد قائم منبهر قلت محمد؟ قال :- ياأبت كنت الساعة بالأنبار^(١) ۝

وليس عجيباً أن يجيب الله دعاء من أطاعه مهما كان خارقاً للعادة. وليس عجيباً أن تخرق العادة لمن خرج عن مألوف عاداته بجهاده لنفسه في طاعة الله. بل إن خرقه للعادة أقل القليل بالنسبة لعطاء هؤلاء الصفوة الخواص. إنهم أهل الحضرة الإلهية وضنائن الله في خلقه .

يقول العارف السرى السقطلى (رأيت معروفاً الكرخى فى النوم كأنه تحت العرش والبارى جلّت قدرته يقول لملائكته: من هذا؟ وهم يقولون أنت أعلم يا ربنا منا فقال هذا معروف الكرخى سكر من حبى فلا يفيق إلا بلقائى)^(٢) ۝

هذه هى منزلة سيدى معروف قد أراها الله لخليفته سيدى السرى الذى أخذ عنه الطريق. ومنازل الأولياء فى الحقيقة لا يعلمها إلا الله تعالى وإنما هى إشارات تقرينا منهم وتدلنا عليهم وتخبرنا بمدى صدقهم مع الله تعالى.

ولقد عرف الصوفية الطريق إلى الله تعالى فسلكوه ولم يلتفتوا عنه طرفة عين وحسبنا من العلم بمنازلهم أنهم آثروا الله على كل شيء فمنحهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

إن الإمام العارف سيدى معروفاً الكرخى قد أجمعت آراء صفوة العارفين على إمامته فى علوم القوم وعلى أنه كان فريداً فى عصره علماً وذوقاً وسلوكاً وشرب من راحة آل البيت حتى ارتوى وأروى وفاضت من ينبوع معرفته لطائف الإشارات التى هادت قلوباً وأرواحاً إلى الله تعالى وهو الذى استغرقت محبة الله روحه وأنفاسه فعاش عيشة الأبرار ولقى ربه مع المصطفين الأخيار رضى الله عنه ورضى عنا به

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٣٦٢/٨ .

(٢) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٦١/١ .

وآمدنا ببركاته دنيا وأخرى آمين. لقد كان الإمام معروف رضى الله عنه كما قال الحافظ الذهبي فى صدارة ترجمته (عَلم الزهاد ، بركة العصر) ، ولا يدلك على العارف إلا عارف مثله.

فقد روى عن سيدنا سفيان بن عيينة أنه قال لمعاصره إسماعيل بن شداد :
ما فعل ذلك الحَبْر الذى فيكم ببغداد؟

فقال من هو ؟ قال : أبو محفوظ معروف. قال : بخير. فقال الإمام سفيان :
(لا يزال أهل تلك المدينة بخير ما بقى)^(١).

كما ذكر الحافظ الذهبي من كرامات سيدى معروف رضى الله عنه أن ابن شيرويه قال : قلت لمعروف : بلغنى أنك تمشى على الماء.

فقال له ما وقع هذا ، ولكن إذا هممت بالعبور جُمع لى طرفا النهر فأتخطاه^(٢)
إن سيدى معروفًا ممن لهم جاه عظيم يتوسل به إلى الله تعالى ، فقد روى الإمام القشيري أنه قال لمريده الإمام السرى السقطى رضى الله عنهما (إذا كانت لك حاجة إلى الله فأقسم عليه بى)^(٣)!!

ألا وإن جأه عند الله تعالى لم ينقطع بوفاته ، فقد قال أبو عبد الرحمن السلمى فى ترجمته : (وهو من جلة المشايخ وقدمائهم ، والمذكورين بالورع والفتوة ، كان أستاذ السرى السقطى ، صاحب داود الطائى ، وقبره ببغداد ظاهر يستشفى به ويُتبرك بزيارته)^(٤).

ثم روى عن إبراهيم بن الجزرى أنه كان يقول (قبر معروف الترياق المجرب)^(٥) وقد منَّ الله تعالى على فقيره مؤلف هذا الكتاب بزيارة مقام الإمام معروف الكرخى ببغداد سنة ١٩٩٠ هـ حيث كنت فى مؤتمر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية. أفاض الله علينا بركاته وحشرنا فى زمرة رضى الله تعالى عنه.

(١) انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي : ٣٣٩/٩ - ٣٤٠.

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي : ٣٤٢/٩.

(٣) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٦١/١.

(٤) ، (٥) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٨٤-٨٥.

القرن الثالث

- ١ - سيدنا الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٠٤.
- ٢ - سيدنا أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه وعنا سنة ٢١٥.
- ٣ - سيدنا بشر الحافي رضي الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٢٧.
- ٤ - سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٤١.
- ٥ - سيدنا الحارث المحاسبى رضي الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٤٣.
- ٦ - سيدنا أبو تراب النخشبى رضي الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٤٥.
- ٧ - سيدنا ذو النون المصري رضي الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٤٥.
- ٨ - سيدنا السرى السقطى رضي الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٥١.
- ٩ - سيدنا يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٥٨.
- ١٠ - سيدنا أبو يزيد البسطامي رضي الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٦٠.
- ١١ - سيدنا أبوسعيد الخراز رضي الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٧٩.
- ١٢ - سيدنا سهل التستري رضي الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٩٣.
- ١٣ - سيدنا الإمام الجنيد رضي الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٩٧.
- ١٤ - سيدنا ممشاد الدينورى رضي الله تعالى عنه وعنا سنة ٢٩٩.

عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً «الإمام الشافعي رضي الله عنه»

في وهج نور الشريعة وضياء الحقيقة سلك الأخيار طريقهم إلى النور المطلق الذي أذابت محبته قلوب العاشقين الريانيين فسبحت في بحار النور تُسْتَقَى وتُسْقَى وتُسْتَضِيء وتضيء وتحرق رداء أنيتها بنار عشقها الأبدى، فتحقق لأولئك الصفوة الأخيار ربانيتهم حين خلعوا ربة أنيتهم، وارتشفوا من المعين المحمدي نورانيتهم المتألقة فكانوا ذخائر الله في الوجود وأنواره في الأكوان. رضي الله تعالى عنهم وعنا بهم ، وزج بنا في زميرتهم في الدنيا ويوم الدين.

في أعلى تلك الأفاق المتوهجة يسطع نور من الحضرة المحمدية ليضيء لأهل الحنيفية سبل الوصول إلى الله تعالى فيسرى شعاعه الدفاق ليغمر الأرض بالنور. وهو نور لا يرى إلا بأعين القلوب، فيصل هذا النور الأرض بالسماء ويحيل ظلمتها إلى ضياء، ولا عجب فهذا القبس المحمدي هو من صدق فيه حديث سيد الخلق صلى الله عليه وسلم: (عالم قريش يملأ الأرض علماً) (١).

إنه الإمام الأعظم والعارف الأفخم بحر الشريعة وقطب الحقيقة، مفخرة الإسلام، وأحد أركان الشريعة الأربعة العظام: سيدنا ومولانا وإمامنا وقودتنا إلى الله تعالى الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي المطلبى قدس الله سره. وأعلى في عليين قدره، ورفع في العالمين ذكره ، ورضى الله عنه وعنا به، وأمدنا

(١) أخرجه الذهبي في السير (٨٢/١٠) عن سند الطيالسي والإمام أحمد وأبي نعيم في الحلية، ومناقب الشافعي للبيهقي.

بمدده الأعلى ما يلحقنا به ويحقق لنا معيته المباركة ومحسوبيته المشرفة في الدنيا وأبد الأبدین.

أطل هذا النور المحمدی على الوجود سنة خمسين ومائة للهجرة الشريفة^(١) في نفس العام الذي لحق فيه بربه مولانا الإمام أبو حنيفة النعمان رضي الله تعالى عنه وعنا به، إذ شاءت العناية الإلهية ألا تغيب في سماء هذه الأمة شمس محمدية حتى تبزغ أخرى ليتواصل النور ويظل صرح الدين مرتقعا على هامات سدنته وحفاظه. وهذه الشمس - أو هذا الإمام الذي قيضه الله لحفظ دينه وشريعة مصطفاه - صلى الله عليه وآله وسلم - هو ابن عم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، إذ يلتقى معه في عبد مناف وهو الجد الثالث لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والجد التاسع لمولانا الشافعي رضي الله عنه فقد أورد البيهقي في (مناقب الشافعي) بسنده عن أبي عبدالله البوشنجي نسب الإمام الشافعي شعرا:

هو الشافعي الهاشمي محمد	ووالده إدريس حمّالٌ قَداح
وعباس ينميه أبو الأب رتبة	ومن بعده عثمان عون المنادح
إلى شافع بن السائب بن عبيدها	بنى الغر والشم الأنوف الججاجح
وعبد يزيد بعده ثم هاشم	نماه لأعراق كرام المناكح
ومطلب من بعده هاشم قد نما	لعبد مناف سرُّ نصر المناجِح ^(٢)

وقد كان الإمام الشافعي رضي الله عنه - لانتماؤه في النسب للمطلب بن عبدمناف - يلقب بالمطلبی. وقد حقق العلماء انتسابه إلى سيدنا هاشم بن عبدمناف جد أبي سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقد ذكر البيهقي نقلا عن كتاب أبي يحيى الساجی بسنده إلى النسابة، أحمد بن محمد العدوی أنه قال - بعد أن ساق نسب الشافعي على النحو السالف - : (وقد ولده هاشم بن عبدمناف ثلاث مرات:

(١) انظر مناقب الشافعي للبيهقي بتحقيق السيد صقر ٧٣/١.

(٢) انظر مناقب الشافعي لأبي بكر البيهقي بتحقيق السيد صقر: ٨٣/١ - ٨٤.

أم السائب: الشفاء بنت الأرقم بن هاشم بن عبد مناف - أسر السائب يوم بدر كافرا وكان يشبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأم الشفاء بنت الأرقم: خلدة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وأم يزيد: الشفاء بنت هاشم بن عبد مناف ابن قصي...) (١) أهـ.

والى جانب ثبوت مطلبيته ثم هاشميته من جهة الأب يثبت العلماء هاشميته وشرف نسبه كذلك من جهة الأم فيذكر البيهقي أن يونس بن عبد الأعلى كان يقول: (لا أعلم هاشميا ولدته هاشمية إلا على بن أبي طالب ثم الشافعي رضي الله عنه، فأمر على رضي الله عنه: فاطمة بنت أسد بن هاشم، وجدة الشافعي: الشفاء بنت أسد بن الحسن: وأم الشافعي: فاطمة بنت عبيد الله بن الحسن بن الحسين بن على بن أبي طالب...). وقد رجح البيهقي - بروايات أخرى - أن أم الشافعي رضي الله عنها تنتمي نسبا إلى قبيلة الأزد، وهي قبيلة لها فضل في الإسلام فقد قال فيها مولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: (نعم الحي الأزد والأشعريون، لا يفرون في القتال ولا يفلون. هم مني وأنا منهم) (٢).

وقد رجح الإمام السبكي في طبقات الشافعية هاشمية أم الإمام. وذلك بناء على روايات ثابتة أيضاً وأدلة في غاية القوة.

وإذن: فإمامنا رضي الله عنه هاشمي من آل بيت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم ورضي عنهم وعنا بهم أجمعين في الدنيا والآخرة - فهو كما قال الفرزدق صادقا:

من معشر حبهم دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصم
ولا يخفى بحال ما لهذا الأصل العريق والمحتد الشريف من أثر في إمامنا الشافعي. فلقريش منزلة سامقة في الفضل وأى منزلة!! فبحسبها أن سيدنا رسول

(١) المصدر نفسه: ٨٤/١ - ٨٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٢٩/٤ والترمذي في المناقب ٣٣٠/٢ وقال: (حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث وهب بن جرير) وأشار إليه ابن حجر في الإصابة ١٢٠/٧ - ١٢١.

الله صلى الله عليه وآله وسلم قال عنها: (لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يمد طباق الأرض علماً - اللهم أذقت أولها نكالاً فأذق آخرها نوالاً) ^(١) وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (الأئمة من قريش) ^(٢).

وناهيك بما لوشائج القرى للإمام مع سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم من نورانية غمرته وغذته برحيقها المحمدى!

ونمود بعد التحليق في هذا الأفق المحمدى القرشى إلى تتبع هذا النور الزاحف بإشرافه في منتصف القرن الثانى للهجرة لتحقيق البقعة التى ظفرت بمشرقه.

ف نجد روايات متعددة تنص على جهة مولده ونشأته. منها ما رواه البيهقى بسنده عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم يقول: سمعت الشافعى يقول: (ولدت بغزة وحملتى أمى إلى عسقلان) ^(٣) ويجانب ذلك نجد روايات أخرى بعضها يفيد أنه ولد باليمن والآخر ينص على ولادته بعسقلان التى تقع من غزة على سنة أميال كما ذكر البيهقى. والراجع المحقق أنه ولد بغزة. وقد حقق ذلك البيهقى وقال: (والذى يدل عليه سائر الروايات من ولادته بغزة ثم حمله منها إلى عسقلان ثم إلى مكة أشهر والله أعلم) كما أول ما ورد من ولادته باليمن قائلًا: (ويحتمل أن يكون أراد موضعاً يسكنه بطون اليمن، وغزة من ذلك).

وأيضاً فإن عسقلان كلها من قبائل اليمن ووطنها، وبها كانت نشأته.

ومن ثم لا يلتبس علينا ما يرد من نصوص تقيد ولادته باليمن أو بعسقلان.

وننتقل إلى النشأة الشريفة فيذكر لنا البيهقى بسنده عن ابن وهب أنه قال: (سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول: ولدت باليمن فخافت أمى على الضيعة فقالت: الحق بأهلك فتكون مثلهم. فجهزتنى إلى مكة وأنا يومئذ ابن عشر

(١) انظر: مسند أبى داود الطيالسى (ص ٣٩ - ٤٠) وحلية الأولياء لأبى نعيم ٢٩٥/٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ١٢٩/٢ والنسائى فى سننه الكبرى كما ذكر صاحب (تحفة الأشراف ١٠٢/١) والبيهقى فى السنن الكبرى ١٤٤/٨.

(٣) انظر: حلية الأولياء ٦٧/٩ ومناقب الشافعى للبيهقى ٧١/١.

سنيين^(١) وأضاف البيهقي تنمة أخرى لتلك الرواية بسند آخر: ... فإنني أخاف أن تغلب على نسبك ، فجهزتنى إلى مكة فقدمتها وأنا يومئذ ابن عشر سنين أو شبيه بذلك، فصرت إلى نسب لي فجعلت أطلب العلم - أى مطلق العلم - فيقول لى: لا تشتغل بهذا وأقبل على ما ينفعك. فجعلت همتي فى هذا العلم فطلبته حتى رزقنى الله منه ما رزق^(٢).

وفى رواية أخرى بسند البيهقي عن مولانا الشافعى يقول: (ولدت بمسقلان. فلما أتت على سنتان حملتنى أمى إلى مكة وكانت نهمتى فى شيئين: الرمي وطلب العلم، فنلت من الرمي حتى أنه لأصيب من عشرة عشرة وسكت عن العلم فقلت: أنت والله فى العلم أكثر منك فى الرمي^(٣) أهـ.

ونلاحظ أن الرواية الأولى تنص على انتقاله إلى مكة مع أمه وهو ابن عشر بينما تثبت الثانية انتقاله وهو ابن سنتين. ويجمع بين الروایتين بأنه انتقل مرتين إلى مكة. أولاهما مع أمه وهو ابن عامين، لتأكيد انتمائه إلى أهله ونسبته لهم. ثم ارتحل وهو ابن عشر لطلب العلم ولتشثته مع أهله أو توثيق صلته بهم.

وتحدثنا الروايات أن أبا الإمام الشافعى رضى الله عنهما قد مات وابنه صغير خارج مكة ، وكان قليل ذات اليد. فنشأ الإمام نشأة الأصفياء المكتنفين برعاية الله تعالى وولايته. والله ما أبهى حلة الفقر إذ يتحلى بها الشريف مع يتمه فيتحقق افتقاره لله تعالى وتأسيه بسيد الخلق - صلى الله عليه وآله وسلم - وفى هذا الجو النبوى بدأ الإمام أولى خطاه على درب العناية وهو فى كفالة الله.

يقول الإمام رضى الله عنه - فيما أسنده إليه البيهقي - (كنت يتيما فى حجر أمى فدفعتنى إلى الكتاب، ولم يكن عندها ما تعطى المعلم، وكان المعلم قد رضى منى أن أخلفه إذا قام. فلما جمعت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث والمسألة فأحفظها، فلم يكن عند أمى ما تعطينى

(١) ، (٢) ، (٣) انظر: مناقب الشافعى للبيهقى بتحقيق السيد صقر ١/ ٧٣ ، ٧٤ .

أشترى به القرامطيس، فكنت أنظر إلى العظم فأخذه فأكتب فيه فإذا امتلأ طرحته في جرة فاجتمع عندي حبان - أي جرتان (١).

ويقول الإمام رضى الله عنه في رواية أخرى: (كنت وأنا في الكتاب أسمع المعلم يلحن الصبى الآية فأحفظها أنا، ولقد كان الصبيان يكتبون إملاءهم. فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم كنت قد حفظت جميع ما أُملى، فقال لى ذات يوم: ما يحل لى أن آخذ منك شيئاً. قال: ثم لما أن خرجت من الكتاب كنت ألتقط الخزف، والرقوق، وكَرَبَ النخل، وأكتاف الجمال أكتب فيها الحديث، وأجىء إلى الدواوين وأستوهب منها الظهور فأكتب فيها حتى كان لأمى حبان فملأتهما أكتافاً وخزفاً وكريا مملوءة حديثاً) (٢).

واتجه إمامنا الشافعى - رضى الله عنه - في ابتداء أمره بعد حفظه لكتاب الله تعالى ومع أخذه في الحديث الشريف إلى تعلم أصول العربية وآدابها وشعر العرب وتاريخهم، ولم يقنع بدراسة العربية حيث يقيم، بل ارتحل إلى البادية ليتلقى اللغة الخالصة من معدنها حيث لم تشبهاً لكنة غير عربية، وظل ينهل من معين اللغة الخالصة وآدابها حتى بلغ في ذلك شأواً عظيماً لا يمكننا هنا استقصاؤه، وبحسبنا أن نذكر أن الأصمعى - هو من هو في العربية - قال يوماً: «صححت أشعار هذيل على هتي من قریش يقال له محمد بن إدريس» (٣) ۱۱

ولكن اللغة وسيلة وما كان لإمامنا أن يقف عندها دون الغاية. فمضى إلى محيط الشريعة يرتوى منه ليكون البحر الزاخر. وتحديثا الروايات المختلفة عن الأسباب المباشرة التي دفعت إمامنا للتفرغ لدراسة الفقه.

وهي أسباب نعتبرها منبهات مباشرة للشروع في المهمة التي خلق إمامنا من أجلها، فالدوافع الحقيقية كامنة في فطرة الإمام بلا ريب. لذلك نجد الروايات التي

(١) المصدر السابق ٩٢/١.

(٢) المصدر السابق ٩٥/١.

(٣) انظر مناقب الشافعى للبيهقى ٤٤/٢ وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤٩/١٠.

ذكرت سبب تفقهه متعدد، ولكنها تتلاقى عند محور الإيقاظ المباشر لانطلاق مواهبه وإبراز طاقاته.

يروى البيهقي بسنده إلى الإمام الشافعي قال: (كنت أنظر في الشعر فارتقيت عقبة فإذا صوت من خلفي : عليك بالفقه!!) (١).

إنه نداء العناية لعالم قريش الذي سيملاً طباق الأرض علماً.
والرواية الثانية: وهي بسند البيهقي أيضاً إلى الإمام الشافعي يقول:
(خرجت أطلب النحو والأدب فلقيني مسلم بن خالد فقال: يا فتى! من أين أنت؟
قلت : من أهل مكة. قال: وأين منزلك بها؟ قلت: بشعب الحنيف، قال: من أي
قبيلة أنت؟ قلت: من ولد عبدمناف. قال: بخ بخ!! لقد شرفك الله في الدنيا
والآخرة ألا جعلت فهمك هذا في الفقه فكان أحسن بك!!) (٢).

وأؤكد هنا مرات ومرات أن العناية كانت للإمام سابقة على الاكتساب،
والمواهب متقدمة على الأسباب، وثمة الدليل: يقول الربيع بن سليمان: سمعت
الشافعي يقول: رأيت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فيما يرى النائم قبل
حلمي فقال لي: يا غلام، قلت لبيك يا رسول الله، قال: ممن أنت؟ قلت من رهطك
يا رسول الله!! قال: اذن مني. فدنوت منه فأخذ من ريقه ففتحت فمي، فأمر
بريقه على لساني وفمي وشفتي وقال: امض بارك الله فيك!! فما أذكر أني لحت
في حديث بعد ذلك ولا شعر» (٣).

وأخذ إمامنا مفتاح الفتوح من مصدر الفتوح صلى الله عليه وآله وسلم
فانطلقت مواهبه الحمديدية وعبقريته الفذة القرشية فأخذ يجمع شتات العلم ويلم
بفروع الفقه وروايات الحديث الشريف حتى بلغ مرتقى الأئمة وهو لا يزال شاباً
ياضاً حتى قال له مسلم بن خالد الزنجي الذي تفقه عليه بمكة: «أفت يا عبد الله
فقد أن لك أن تفتي» ولكن نهم الإمام في طلب العلم كان يملك عليه خاطره
ووجدانه فما أن يسمع بعالم أو فقيه حتى يهرع إليه.

(١) . (٢) . (٣) انظر مناقب الشافعي للبيهقي ٩٧/١ ، ٩٨ .

وكان الإمام مالك في ذلك الوقت حديث الدنيا بأسرها وإمام المسلمين. فوقع في قلب مولانا الشافعي قصد ذلك الإمام. ولكنه لم يذهب إليه وهو في الثالثة عشرة من عمره إلا وقد حفظ موطأة عن ظهر قلب.

يروى البيهقي بسنده إلى الإمام أنه قال: «حفظت الموطأ قبل أن أتى مالك ابن أنس فلما أتيت قال اطلب من يقرأ لك فقلت لا عليك أن تسمع قراءتي، فإن أعجبتك قراءتي وإلا طلبت من يقرأ لي. فقال لي: هات. فلما قرأت أعجبت قراءتي فقرأت عليه» وفي رواية أخرى بسند البيهقي إلى حرمة يقول: سمعت الشافعي يقول: «أتيت مالك بن أنس وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، وكان ابن عم لي والي المدينة، فكلم لي مالكا فلقبته لأقرأ عليه، فقال: اطلب من يقرأ لك فقلت أنا أقرأ. قال فقرأت عليه، وكان ربما قال لي شيء قد مر: أعد حديث كذا، فأعيد حفظا، فكانه أعجبه ثم سأله عن مسألة فأجابني ثم أخرى ثم أخرى فقال: أنت يجب أن تكون قاضيا»^(١).

ولزم إمامنا الشافعي الإمام مالكا حجة الله في أرضه. وإمام أئمة عصره الذي تلقى العلم عن أكثر من تسعمائة شيخ وما أفتى حتى شهد له سبعون إماما بأهليته للفتيا. ووجد الإمام مالك في إمامنا الشافعي ضالته المنشودة فهو الوارث الذي سيأخذ المسلمون عنه دينهم.

وتحدثنا المصادر أنه ألقى إلى إمامنا الشافعي المفتاح الأمثل للعلم اللدني ممثلا في تلك الوصية التي يرويها البيهقي بسنده عن أبي حاتم الحسن بن أحمد الفقيه يقول: قال مالك بن أنس للشافعي رضى الله عنهما: «إن الله عز وجل قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بالمعصية»^(٢) !!

إنها التقوى باب كل خير ومفتاح كل فتح. ولقد بشره في أول لقاء بينهما بما ينتظره من فتح وأوصاه بالتقوى قائلا: (اتق الله فإنه سيكون لك شأن) وعض .

(١) انظر مناقب الشافعي للبيهقي ١٠٠/١ - ١٠١.

(٢) انظر مناقب الشافعي للبيهقي ١٠٤/١.

الإمام على وصية شيخه بالنواجذ فأثمرت التقوى في قلبه نوراً على نور فجاب الآفاق بالعلم والنور والهدى والمعرفة. يقول مولانا الشعراني رضي الله عنه وعنا به: (.. ثم رحل إلى اليمن حين تولى القضاء بها. واشتهر بها ثم رحل إلى العراق وجد في الاشتغال بالعلم. وناظر محمد بن الحسن وغيره. ونشر علم الحديث، وأقام مذهب أهله ونصر السنة واستخرج الأحكام منها، ورجع كثير من العلماء عن مذاهب كانوا عليها إلى مذهبه، ثم خرج إلى مصر آخر سنة تسع وتسعين ومائة، وصنف كتبه الجديدة بها ورحل الناس إليه من سائر الأقطار) ^(١).

لقد أجمل الإمام الشعراني رضي الله عنه في تلك السطور ما بعد رحلة مولانا الشافعي إلى الإمام مالك حتى قدومه مصر قبيل وفاته بخمس سنين إذ توفي رضي الله عنه بمصر ليلة الجمعة بعد المغرب سنة أربع ومائتين ^(٢).

وقد تناولت كتب المناقب المطولة للإمام رضي الله عنه تفصيل تلك الرحلات العلمية وأحداثها، وجهود الإمام رضي الله عنه في تأسيس مذهب ونشر علمه ومكانته في شتى فروع العلم.

يقول الإمام المناوي رضي الله عنه «وقد أكثر القوم التصانيف في مناقبه. فمن أفرد ذلك بالتأليف الإمام داود الظاهري والساجي وابن أبي حاتم، والأبري والحاكم والأصبهاني والقطان والقرباب، والأستاذ أبو منصور البغدادي، والبيهقي والخطيب البغدادي، والإمام الرازي وابن المقرئ وفندق، وإمام الحرمين والدارقطني والأجري والسرخسي والصاحب بن عباد، ونضر المقدسي والسبكي وخلائق بين متقدم ومتأخر» ^(٣).

بلغ الإمام الشافعي منزلة في الفقه والحديث حتى لقب بناصر السنة وأسس علم أصول الفقه بوضعه لكتاب الرسالة، وشب مذهبه على القرآن الكريم وصحيح

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضي الله عنه ٤٣/١.

(٢) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٦٨/٩.

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوي ٤٨٠/١.

السنة فكان رضى الله عنه يقول: (إذا صح الحديث فهو مذهبي) ^(١) واجتمع طلاب العلم والأئمة عند بابه، يقول مولانا الشعرانى رضى الله عنه: (قال الربيع ابن سليمان: رأيت على باب دار الإمام الشافعى رضى الله عنه سبعمائة راحلة تطلب سماع كتبه رضى الله عنه) ^(٢).

ولو حاولنا هنا أن نتفمس فى الجو العلمى للإمام الشافعى رضوان الله عليه وتتبع مناهجه وآرائه لرمنا المحال ، ففى كل جانب من جوانبه العلمية لا تفى مجلدات ولكننا نشير فقط إلى مكانة الإمام وسندعم الإشارة القاصرة ببعض ما شهد به أئمة عصر الشافعى له فهذا الإمام محمد بن الحسن يقول - فيما رواه صاحب الحلية بسنده - «إن تكلم أصحاب الحديث يوماً بفلسان الشافعى - يعنى لما وضع كتابه -».

ويسند الإمام أبى نعيم أيضاً عن أحمد بن محمد الشافعى يقول: «كانت الحلقة فى الفتيا بمكة فى المسجد الحرام لابن عباس وبعد ابن عباس لعطاء بن أبى رباح، وبعد عطاء لعبد الملك بن عبدالعزيز بن جريج وبعد ابن جريج لمسلم بن خالد الزنجى، وبعد مسلم لسعيد بن سالم القداح، وبعد سعيد لمحمد بن إدريس الشافعى وهو شاب» ويذكر صاحب الحلية أن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه قال: (ما رأيت أحداً أتبع للأثر من الشافعى) ^(٣)}}

ومرة أخرى قال عنه (ما سبق أحد الشافعى إلى كتاب الحديث).

وقد بلغ إجلال مولانا الشافعى رضى الله عنه لأهل الحديث أنه قال - فيما رواه أبو نعيم بسنده - : (إذا رأيت رجلاً من أصحاب الحديث كأنى رأيت رجلاً من أصحاب النبى - صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) ^(٤).

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ١٠٦/٩ والطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٤٣/١ واللفظ منه.

(٢) انظر المصدر الأخير.

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ١٠٠/٩.

(٤) انظر الحلية لأبى نعيم ١٠٩/٩.

وكان إمامنا الشافعي رضي الله عنه مع تمسكه بالأثر في الدرجة الأولى وصاحب رأى ومناظرة لم يداخله أحد فيهما .

يروى البيهقي بسنده عن قتيبة بن سعيد يقول: (رأيت الشافعي يناظر محمد بن الحسن، فكان محمد بن الحسن في يده كالكرة يديرها كيف شاء) وكان على علم بالتفسير لا يبارى . وقد أثبت البيهقي في مناقبه عددا من الآراء التي تشير إلى عظم مكانته .

وجماع القول في الإمام الشافعي العالم لا نجد فيه خيراً مما قاله من أوتي جوامع الكلم - صلى الله عليه وسلم - إذ قال: (عالم قریش يملأ طباق الأرض علماً) فلقد جدد الله به للأمة دينها . يروى الحافظ أبو نعيم بسنده عن حميد بن زنجويه قال سمعت أحمد بن حنبل يقول: يروى الحديث عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «إن الله يمن على أهل دينه في رأس كل مائة سنة برجل من أهل بيتي يبين لهم أمر دينهم وإنى نظرت في سنة مائة فإذا رجل من آل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عمر بن عبدالعزيز ونظرت في المائة الثانية فإذا هو رجل من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محمد بن إدريس الشافعي» (١) .

ولتكف بهذا القدر من الحديث عن علم الإمام الشافعي فمهما قلنا فالتقصير لازم والقصور وافر ، ولنتناول صوفية الإمام الشافعي رضي الله عنه علماً بأن هذا الجانب العلمي بعينه فيه كفاء لمن رام لب التصوف، وذروة الولاية ولكن يأبى البعض إلا أن يقرأ عن التصوف بلغة التصوف المألوفة في كتب القوم من حديث عن الجانب التعبدى، والأحوال والمقامات والإشارات والكرامات .

ووفاء ببعض حق الإمام في إبراز هذا الجانب بتلك اللغة وحتى لا يقول متعنت كيف يعد الإمام الشافعي من أعلام الصوفية وهو إمام في الشريعة

(١) انظر الحلية لأبي نعيم ٩٧/٩ - ٩٨ .

فحسب^١ من أجل ذلك أسجل هنا ظاهرة التصوف التي تملأ كيان الإمام الشافعي والتي لم تفارق الجانب الظاهري الشرعي.

فلعله من نافلة القول أن الشريعة والحقيقة متلازمان وأن الحقيقة هي - هي بعض ما يطلق عليها من تعبيرات ثمرة شجرة الشريعة، والتصوف هو الوصول إلى الحقيقة. وما كان للإمام الشافعي - وهو من آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين هم معدن الطهر والصفاء - أن يكتفى بالشجرة دون الثمرة. بل وما كان لإمام مجتهد كمولانا الشافعي عليه الرضوان ألا ينشد الحقيقة وهو رأس مذهب تقلده فيه أقطاب التصوف من أمثال سلطان الأولياء سيدي أحمد البدوي وسيدي إبراهيم الدسوقي والإمام الشعراني رضي الله عنهم وعنا بهم أجمعين.

ولقد ذكر الإمام الشعراني رضي الله عنه في الميزان أن مرتبة الاجتهاد المطلق لا تتحقق لإمام إلا إذا صار ينهل من عين الشريعة المحمدية بلا واسطة ، أي أن يستمد من سيد الوجود - صلى الله عليه وآله وسلم - مباشرة وتلك مرتبة خواص الخواص^(١) .

ومع ذلك ننتعرف - بالقدر الممكن - على الجانب العملي والتحقيقي عند إمامنا الشافعي رضوان الله عليه:

أما عن عباداته فقد كان رضي الله عنه آية من آيات الله في مواصلة الطاعة والعبادة مع مسؤولياته العلمية، يقول الإمام الشعراني رضي الله عنه في مناقب الإمام من طبقاته: (وكان قد جرز الليل ثلاثة أجزاء: الثلث الأول يكتب، والثاني يصلي، والثالث ينام، وفي رواية ما كان ينام من الليل إلا يسيراً، وكان يختم في كل ليل ختمة، وكان يقول: ما كذبت قط، وما حلفت بالله لا صادقاً ولا كاذباً، وما تركت غسل الجمعة قط لا في برد ولا في سفر ولا في حضر، وما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا شبعة طرحتها من ساعتى)^(٢) .

(١) انظر: الميزان الكبير لأبي المواهب سيدي الإمام عبدالوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه ٢٠/١، ٢٤، ٣٠ ط/الطبع.

(٢) انظر المطبوعات الكبرى للإمام الشعراني رضي الله تعالى عنه وعنا به ٤٣/١ وانظر حلية الأولياء لأبي نعيم ١٢٤/٩، ١٣٥ -

ويروى البيهقي بسنده عن الربيع بن سليمان يقول: (خرجت مع محمد بن إدريس الشافعي من الفسطاط إلى الإسكندرية مرابطا وكان يصلي الصلوات الخمس في المسجد الجامع ثم يسير إلى المحرس فيستقبل البحر بوجهه جالسا يقرأ القرآن في الليل والنهار حتى أحصيت عليه ستين ختمة في شهر رمضان) (١)}}

وبهذا السند عن الأرسوفي قال: سمعت بحر بن نصر يقول: (ما رأيت ولا سمعت كان في عصر الشافعي أتقى لله ولا أروع من الشافعي ولا أحسن صوتا منه بالقرآن) (٢).

وعن زهده في الدنيا يقول رضى الله عنه - فيما أسنده إليه البيهقي - :
(طلب فضول الدنيا عقوبة، عاقب الله بها أهل التوحيد) (٣).

وبسند البيهقي عن الربيع بن سليمان يقول: قال لى الشافعي: (يا ربيع عليك بالزهد فللزهد على الزاهد أحسن من الحلوى على المرأة الناهد)}}

وفى معنى غنى النفس يقول رضى الله عنه:

إذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها

ولقد كان الإمام الشافعي رضى الله عنه إماما في السلوك الصوفي ومصدرا لأئمة الصوفية.

فقد روى البيهقي بسنده عن سيد الطائفة الصوفية مولانا الإمام الجنيد رضى الله عنه وعنا به أنه سمع يقول: (كان الشافعي من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدين، وعظ أخا له في الله عز وجل وخوفه بأسه فقال: يا أخى إن الدنيا دحض مزلة ودار مذلة عمرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله تعالى، وارض برزق الله، لا تستسلف من دار

(١) ، (٢) انظر: مناقب الشافعي للبيهقي ١٥٨/٢ .

(٣) انظر: مناقب الشافعي للبيهقي ١٦٩/٢ .

بقائك في دار فنائك فإن عيشك في زائل وجدار مائل، أكثر على عملك، وقصر
من أملك^(١) . أ هـ .

ليت شعري أي لسان هذا سوى لسان العارف الله المعرض عن الدنيا، والآمل
في الآخرة؟.

ويروي البيهقي بسنده عن الحسين بن يزدان البصري عن بعض شيوخه قال:
كان الشافعي في مجلس سفيان بن عيينة يسمع منه الحديث، إذ مر به حديث
فيه رقائق فبكى الشافعي حتى أغشى عليه^(٢) قال: فقال الناس: قد مات محمد بن
إدريس الشافعي، فقال سفيان بن عيينة: إن كان محمد بن إدريس قد مات فقد
مات أفضل أهل زمانه^(٣) !!

لقد بلغ الإخلاص في قلب مولانا الشافعي - رضي الله عنه - إلى حد أنه
كان يقول - كما روى الإمام الشعراني - (وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن
لا ينسب إليّ منه حرف) يقول الإمام الشعراني. قال شيخنا شيخ الإسلام أبو
يحيى زكريا الأنصاري. وقد أجابه الحق إلى ذلك فلا يكاد يسمع في مذهبه إلا
مقالات أصحابه قال الرافعي، قال النووي، قال الزركشي ونحو ذلك^(٤) . أ هـ .

ومن أقوال الإمام الصوفية الحكيمة: (من أحب أن يفتح الله عليه بنور القلب
فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السفهاء، وبغض أهل العلم الذين لا يريدون
بعلمهم إلا الدنيا)^(٥) .

وكان رضي الله عنه يقول: (لا بد للعالم من ورد من أعماله يكون بينه وبين
الله تعالى) وذكر الإمام الشعراني رضي الله عنه أن مولانا الشافعي رضي الله عنه

(١) انظر: مناقب الشافعي للبيهقي ١٧١/٢ .

(٢) انظر: مناقب الشافعي للبيهقي ١٧٨/٢ .

(٣) المصدر نفسه ١٧٥/٢ .

(٤) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضي الله عنه ٤٢/١ .

(٥) المصدر نفسه ٤٤/١ .

كان يقول: (صحبت الصوفية عشر سنين ما استفدت منهم إلا هذين الحرفين: الوقت سيف، وأفضل العصمة ألا تجد) ^(١).

وفى ذلك نص صريح على صحبته للقوم رضى الله عنهم.

وأما ما استفاده منهم فهو قضاء الأنفاس فى طاعة الله تعالى، وعدم إمساك الدنيا درءاً لحبها.

ثم ختاماً يحدثنا الإمام القشيري رضى الله عنه عن بعض المقامات التى وصلها إمامنا الشافعى - رضى الله عنه - فيروى بسنده عن بلال الخواص يقول: كنت فى تيه بنى إسرائيل فإذا رجل يماشيئنى فتعجبت منه ثم ألهمت أنه الخضر عليه السلام فقلت له: بحق الحق من أنت؟ فقال: أخوك الخضر، فقلت له: أريد أن أسألك، فقال: سل. فقلت، ما تقول فى الشافعى؟ فقال: هو من الأوتاد - أى الرجال الأربعة الذين يحفظ الله بهم جهات العالم الأربع - فقلت ما تقول فى أحمد بن حنبل رضى الله عنه؟ قال رجل صديق ^(٢) أ هـ.

رضى الله عنك يا سيدى يا إمام الشريعة والحقيقة يا مولانا الشافعى ورضى عنابك وجعلنا فى زمرك فى الدنيا ويوم الدين وصلى الله على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

★ ★ ★

(١) المصدر نفسه ٤٢/١.

(٢) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ٦٩/١ - ٧٠.

« سيدى أبو سليمان الداراني رضى الله عنه »

إلى الدرجات العلى صعد النجباء الأتقياء الأولياء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وباعوا الدارين بحبه تعالى فمنحهم نعيم قربه ولذة مشاهدته وحلاوة مناجاته، فتبثلت أرواحهم فى محراب الوصول تنشد المزيد من الوصول، وتذوب عشقا فى الجناح القدسى الأعلى فتقترب وتقترب وتقنى ثم تبقى وعليها من خلع الرضوان ما عز وصفه وسما شأوه. فطوبى لهم من صفوة نجباء ومن خاصة أولياء رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم فى سجل أحبابه المقربين.

من أئمة أولئك الصفوة العارفين والأقطاب المقربين: ولى خاض بحار الشوق فى طلب الحقيقة حتى وصل إلى الله بقلب ليس فيه غيره، وروح لم تستعبد لسواه. إنه الإمام العارف سيدى أبو سليمان عبدالرحمن بن أحمد بن عطية بن سليمان العنسى الداراني رضى الله تعالى عنه وأمدنا بمدده فى الدارين.

هو أحد أركان الطريق الصوفى وإمام من صفوة الرعيل الأول الذى أرسى مناهج السلوك وزاوج فى التصوف بين الصبغة العلمية والعملية فكانت أقواله وأعماله منارات على الطريق تهدى السائرين وتوجه السالكين.

والإمام الداراني شامى الموطن فهو من أهل (دَارِيَا) على ما ذكره السلمى^(١). وهى قرية من قرى الشام بغوطة دمشق.

وقد رحل إلى بغداد وأقام بها ثم عاد إلى الشام وتوفى ببلده . وقد ذكر ياقوت الحموى أنه توفى بداريا سنة خمس وثلاثين ومائتين هـ وقبره بها مشهور

(١) انظر: طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى بتحقيق نور الدين شريعة من ٧٥.

يزار. بينما ذكر غيره من المؤرخين والصوفية أنه توفي سنة خمس عشرة ومائتين هـ، كما روى الإمام القشيري في رسالته^(١).

هذا ونسبته إلى قرية داريا وقيل إلى داران إحدى قرى دمشق كما ذكره القشيري ورجحه صاحب الشذرات.

وأما تلقيبه بالعنسي، فنسبة إلى أحد أصول عنس بن مالك بن أدد حَيٍّ من مذحج كما ذكره ابن خلكان^(٢).

وقد التقى سيدي أبو سليمان بصفوة من أعيان التابعين وأخذ عن الإمام سفيان الثوري رضي الله عنه، وأسند الحديث الشريف المروي عن أبي هريرة (من تواضع لله رفعه). كما أخذ عن الإمام الداراني ثلة من أعيان الصوفية ومن أبرزهم مريده العارف سيدي أحمد بن أبي الحواري رضي الله عنه الذي قال فيه الإمام الجنيد رضي الله عنه: أحمد بن أبي الحواري ريحانة الشام^(٣)!!

وقد انخرط العارف أبو سليمان في سلك الصفوة منذ لمعت له أول بارقة من شعاع الطريق فقد ذكر الإمام القشيري في رسالته أنه حكى عن أبي سليمان الداراني أنه قال: (اختلفت إلى مجلس قاض، فأثر كلامه في قلبي، فلما قمت لم يبق في قلبي منه شيء.. فعدت ثانيا فبقي أثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي فكسرت آلات المخالفات ولزمت الطريق.. ثم يقول الإمام القشيري - فحكى هذه الحكاية ليحيى بن معاذ فقال: عصفور اصطاد كركيا!! أراد بالعصفور ذلك القاضي، وبالكركي: أبا سليمان الداراني)^(٤) أ هـ.

وبدأ الإمام الداراني أول خطوة له على الطريق حيث انفتحت له أنوار الهداية في قلبه وذاق حلاوة العبودية لله، فعكف على طاعة مولاه وخدمته، وألفت

(١) انظر: الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ٨٦/١.

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان: ٣/٣٦٣.

(٣) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ٩٥/١ وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٨٢/١٠.

(٤) انظر المصدر السابق ٢٥٥/١ - ٢٥٦.

روحه العبادة بل عشقتها ، ويازدياد الطاعة يتأجج لظى الشوق، وتتساب العبرات
فى جوف الليل لتقضى بأسرار المحبة وتبدى كوامن العشق الإلهى.

يقول تلميذه سيدى أحمد بن أبى الحوارى: (دخلت على أبى سليمان يوما
وهو يبكى، فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: يا أحمد، ولم لا أبكى وإذا جن الليل ونامت
العيون وخلا كل حبيب بحبيبه، وافترش أهل المحبة أقدامهم، وجرت دموعهم على
خدودهم وتقطرت فى محاريبهم، أشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى: يا جبريل،
بعينى من تلذذ بكلامى واستراح إلى ذكرى. وإنى لمطلع عليهم فى خلواتهم، أسمع
أنينهم وأرى بكاءهم. فلم لا تنادى فيهم يا جبريل: ما هذا البكاء؟ هل رأيتم حبيبا
يعذب أحباءه؟ أم كيف يجمل بى أن آخذ قوما إذا أجنتهم الليل تملقوا إلى؟ فبى
حلفت أنهم إذا وردوا على يوم القيامة لأكشفن لهم عن وجهى الكريم حتى ينظروا
إلى وأنظر إليهم) (١)

وكان منهج سيدى أبى سليمان السلوكى ينحصر فى: عبادة مبنية على علم،
وعلم مشيد على هدى الكتاب والسنة.

فيروى الإمام القشيرى بسنده عن سيد الطائفة الإمام الجنيد رضى الله
عنه أنه كان يقول: (قال أبو سليمان الداراني: ربما يقع فى قلبى النكته - أى كلمة
الحكمة - من نكت القوم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب
والسنة) (٢)

هذا هو التصوف الحق الذى نؤمن به ونعتقد مبادئه، ونسعى إلى غايته.
وهو التصوف الذى يتحدى دعاوى المفرضين الذين يضعون حدودا مصطنعة
بينه وبين الكتاب والسنة بينما سداه ولحمته من هدى الكتاب والسنة!
وكل من حاد عن الكتاب والسنة قيد شعرة: تلفظه الطريق طوعا أو كرها.
هذا منطلق لا بد أن نُعبّر عنه لاستشراف آفاق التصوف من قريب أو بعيد.

(١) انظر المصدر السابق ٨٧/١ - ٨٨.

(٢) انظر المصدر السابق ٨٦/١ وانظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٧٨.

ولسوف نرى ثمار هذا المنهج من خلال مسيرتنا مع الإمام الداراني حجة ناصعة له والتصوف بصفة عامة.

وبدهى أن عرض كل مسألة تطراً للإمام الداراني على الكتاب والسنة - كما ذكر آنفاً - يستلزم الإحاطة والتبحر في علوم الشريعة بالقدر الذي يسمح باستيعاب جوانب السلوك العملية بأسرها. ثم إن المزاوجة بين العلم والعمل من شأنها أن تكسب الإنسان علم مالم يعلم من حيث إنه وفي بحق ما علم.

ومن هنا نقف على نبعين استقى منهما الإمام الداراني زاده العلمى هما: العلم الكسبي الذي تزود به أساساً ليمارس في ضوئه عباداته ، ثم العلم الوهبي اللدني الذي جاءه ثمرة لتطبيق العلم الكسبي عملياً.

فلنتعرف على بعض ملامح الجانب العلمى عند سيدى أبى سليمان: ونبدأ بنقطة لها خطورتها وأهميتها في محيط التصوف. والكلام للإمام أبى سليمان. يقول رضى الله عنه: (ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يفت لك، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد) ^(١) - ويضيف قائلًا - ولا خير في قلب يتوقع قرع الباب يتوقع إنساناً يجيء يعطيه شيئاً)!!

إنه الرد الحاسم العلمى على من يزعم أن التصوف هروب من الكسب الحلال أو تقاعس عن السعى في طلب الرزق. كلا. فأخص متطلبات الصوفى هو القوت الحلال. فضلاً عن أن أهل التجريد من الصوفية لا يتكفّفون الناس بل يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون كما كان في شأن السيدة مريم رضى الله عنها: (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله. إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) ^(٢)..

ثم نقف بعد ذلك على الصورة المشرفة لأبى سليمان العابد. الذى أشتهر في عصره بأنه كان من الذين يصلون الصبح بوضوء العشاء!

(١) اطر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٤٥٩/١.

(٢) سورة آل عمران / ٣٧.

كان يصف أقدامه في حندس الليل ويظل قائماً لربه حتى غلبت عليه الهيبة والدهشة والجلال فكان لا يقوى على القيام لما فيه من غلبة الهيبة والجلال فيقضى الليل في الذكر. ولذا يسمعه مريده سيدي أحمد بن أبي الحواري يقول: (حيل بيني وبين قيام الليل) فيعلق على قوله موضحاً: (كان الذكر يغلب عليه فإذا قام غشى عليه).

كان الإمام الداراني موقناً بأن الطاعة هي سبيل المعرفة، وأنها لا تنال إلا بمحض الهبة والتوفيق من عند الله. فقد سأله أحد معاصريه: (يا أبا سليمان: بأي شيء تنال معرفته؟ قال: بطاعته. قال فبأي شيء تنال طاعته؟ قال: به) ^(١).

ولقد قسم أبو سليمان منهجه في الطريق إلى وسائل وغايات. وقد ربط هذا التقسيم بين سياحاته ورحلاته. فقد سمعه مريده سيدي أحمد يقول: (كنت بالعراق أعمل وأنا بالشام أعرف. قال مريده: فحدثت به سليمان ابنه فقال: معرفة أبي الله بالشام لطاعته له بالعراق، ولو ازداد لله بالشام طاعة لازداد بالله معرفة) ^(٢).

وكان للإمام أبي سليمان في عباداته سبحات من القرآن الكريم واستشراف لأفاق أنواره وانغماس في محيط أسرار.

يروى صاحب الحلية عن سيدي أحمد مريده أنه قال: سمعت أبا سليمان يقول: (ربما أقيمت هي الآية الواحدة خمس ليال، ولولا أنني بعد أدع الفكر فيها ما جزتها أبداً، وربما جاءت الآية من القرآن تطير العقل، فسبحان الذي رده إليهم بعد) ^(٣)}}

ومع هذا الذكر المتصل والفكر المتواصل كان سيدي أبو سليمان يجد للطاعة لذة لا تعادلها لذة، ونعيم لا يساويه نعيم. فكان يقول: (ذهب المطيعون لله بلذيت

(١) انظر الحلية لأبي نعيم ٣٧٢/٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر الحلية لأبي نعيم ٣٦٢/٩.

العيش في الدنيا والآخرة، يقول الله تعالى لهم يوم القيامة: رضيتم بي بدلا دون خلقى وآثرتموني على شهواتكم في الدنيا، فعندى اليوم فباشروها، فلکم اليوم عندى تحياتى وكرامتى، فبى فافرحوا وبقرى فتعموا فوعزتى وجلالى ما خلقت الجنات إلا من أهلكم^(١).

وكان لتعايشه المستمر مع الطاعة يتعجب للمنقطعين عنها فيقول: (ليس العجب ممن لم يجد لذة الطاعة إنما العجب ممن وجد لذتها ثم انقطع عنها، والعجب أن يصبر على الجفاء بعد الوصال، والقطيعة بعد المؤانسة، ولقد كانت لذته في الطاعة لرؤية المطاع فيها، فهو في الصلاة في صلة مع المصلى له، وهو في الذكر والمذكور وهو في ذلك في غيبته عن الخلق والأكوان.

يروى العارف المناوى أن سيدى أحمد بن أبى الحوارى قال له يوما: (صليت أمس صلاة في خلوة فرأيت لها لذة. قال: ما لذتك منها؟ قال: كوني لم ير أحد. قال: إنك لضعيف حيث خطر بقلبك ذكر الخلق)^(٢)!!

هذا هو صدق المعاملة مع الله عز وجل! وكان الإمام الداراني يرى أن الطاعة تثمر مزيدا من الطاعة، وأن الشهوات والمعاصي حجب تحرم العبد من نعيم الخدمة والقرية.

فكان يقول: (من أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه، والله أكرم من أن يعذب عبدا بشهوة تركت له)^(٣).

ولقد شكّا إليه مريده يوما فقال له: (لم أوتر البارحة ولم أصل ركعتي الفجر، ولم أصل الصبح في جماعة. فقال له: بما كسبت يداك والله ليس بظلام للعبيد - شهوة أصبتها)^(٤).

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٢٥٥/٩.

(٢) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ٤٦١/١ وطبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٧٩.

(٣) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه ص ٧٧.

(٤) انظر الحلية لأبى نعيم ٢٥٨/٩.

إن الصوفى دائماً فى جهاد مع نفسه إلى أن تتقشع الحجب وتتلاشى الأستار، وكان الإمام أبو سليمان متعلق الهممة بربه قاصراً غايته عليه غير ملتفت إلى السوى. جاء رجل يسأله عن أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل فقال له: (أن يطلع الله على قلبك وأنت لا تريد فى الدارين غيره) ^(١) !!

إنها همّة الأفذاذ، وإنها لقمة لم يسم إلى عليائها بعد الأنبياء إلا الصوفية ورثتهم. ولا ريب أن التحليق فى هذا الأفق السامى لا يعنى القدح فيمن يطلب ثواب الآخرة. فنحن متعبدون بطلب الثواب. وإنما الأمر ترق من حسن إلى أحسن ومن كمال إلى أكمل (هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) ^(٢).

وللطاعات عند الإمام الداراني أنماط متعددة تمتد لتشمل جوانب السلوك المختلفة. فهي عنده ليست قاصرة على أعمال الجوارح بل هناك ما هو أعظم منها وهو أعمال القلوب.

يروى عنه سيدى أحمد بن أبى الحوارى أنه قال: (لم يبلغ الأبدال ما بلغوا بصوم ولا بصلاة ولكن بالسخاء وشجاعة القلوب وسلامة الصدور، وذمهم أنفسهم عند أنفسهم) ^(٣).

إن مكمن الداء المعوق عن الوصول إلى الحضرة الإلهية إنما هو النفس. فإذا ظهرت من أدناسها وانقمع هواها ألفت الطاعات وتحولت عاداتها إلى عبادات. فمخالفة هواها من أعظم القربات ؛ ولذا يقول سيدى أبو سليمان: (أفضل الأعمال خلاف هوى النفس) ^(٤) ولقد خالف هواها حتى غدت طوع أمره وذللت فى مرضاة الله وخف وزنها عنده حتى كان يقول: (لو اجتمع الناس على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى لما قدروا عليه). وكان رسوخ سيدى أبى سليمان فى سبر أغوار النفس وكشف قناعها عجيباً. فكان يقول (من توسل إلى الله بتلف نفسه حفظ الله عليه نفسه وحكمه فى جنته) ^(٥) وكان جهاده لنفسه فى العزوف عن الدنيا مثلاً رائعاً

(١) المصدر السابق ٢٥٦/٩ - ٢٥٧ وطبقات الأولياء لابن الملقص ص ٢٨٧.

(٢) سورة آل عمران / ١٦٣.

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم: ٢٧٤/٩.

(٤) (٥) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٨١.

مبنيا على الحكمة والتبصر. فالدنيا هي مهوى النفس الأمارة. وقد حذر الله تعالى منها بقوله: (فلا تفرنكم الحياة الدنيا) ^(١) وكشف حقيقتها بقوله سبحانه (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ^(٢). ونعى على المؤثرين لها على الآخرة بقوله تعالى: (بلى تؤثرن الحياة الدنيا. والآخرة خير وأبقى) ^(٣) ومن ثم كانت نظرة العارف أبي سليمان إلى الدنيا نظرة الحكيم الريانى. وقد فلسف هذه النظرة فى إشاراتهِ الصوفية. فهو يقول: (الفكر فى الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية) ^(٤) ثم يضع بين يدي السالك هذه المعادلة: (من ترك الدنيا للآخرة ربحهما ومن ترك الآخرة للدنيا خسرهما، وكل أم يتبعها بنوها). ويكشف اللثام عن حقيقتها محذراً: (الدنيا تطلب الهارب منها وتهرب ممن طلبها فإن أدركت الهارب منها جرحته، وإن أدركها طالبتها قتلته) ^(٥))).

ثم يبرز التضاد بين الدنيا والآخرة قائلاً: (إذا جاءت الدنيا إلى القلب ترحلت منه الآخرة، وإذا كانت الدنيا فى القلب لم تجئ الآخرة تزحمها لأن الدنيا لثيمة والآخرة عزيزة).

ويسمعه سيدى أحد مريده يوماً وهو يقول: (خذ الكيزان تجد الماء) فيفسر ذلك قائلاً: (يريد بذلك أخرج الدنيا من القلب تجد الحكمة فيه).

ومن ثم فقد زهد الإمام الدارانى فى الدنيا زهد الكبار، وهجر شهواتها هجر الأبرار. كان يتقلل فى معيشتة ويجوع ويتقشف، ويقول: (مفتاح الآخرة الجوع ومفتاح الدنيا الشره) ^(٦) وكان يوصى مريده: (عليك بالجوع فإنه مذلة للنفس ويورث العلم السماوى).

وكان منطقهُ فى الجوع مبنياً على حكم ريانية أوضحها قائلاً: (من شبع دخل عليه خمس آفات: فقد حلاوة العبادة، وتمذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق لظنه أن الخلق كلهم شباع، وثقل العبادة وزيادة الشهوة) ^(٧).

(١) سورة فاطر/ ٥ . (٢) سورة آل عمران/ ١٨٥ .

(٣) سورة الأعلى/ ١٦ - ١٧ .

(٤) ، (٥) انظر: الكواكب الدرية للعارف المناوى ١/ ٤٥٨ ، ٤٦١ .

(٦) ، (٧) المصدر الأخير ١/ ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

ولعلنا فى غنى عن التحفظ بأن مراد الصوفية من الجوع ليس هو المخصصة المهلكة للنفس، فذلك بمنأى عن منطق الشرع، وبالتالي عن منطق التصوف من حيث إن مبناه هو الشرع نفسه. كما أن الشيع مراد به ما فوق الكفاية مما هو ضار بالروح والجسم معا. فقد انتهز خصوم التصوف موهومات هذه المفاهيم ليهاجموها بها وهم بين الجهل والعناد فى لجاج.

ثم ننتقل إلى جانب الأحوال والمقامات عند العارف الداراني رضى الله عنه. ونحتاج إلى صفحات وصفحات نسجل فيها هذا التفرد الصوفى والسمو الروحى الذى ينضح بالنور والإشراق. ولكن سنقبس من هذا الوهج قبسات نستضىء بها ونتعرف فى ضوئها على معالم هذه القمة الشامخة.

إن مفتاح الشموخ الروحى عند العارف أبى سليمان يتمثل فى شدة خوفه من ربه. كان خوف إجلال وكان خوف عقاب وخوف مسئولية. وأبلغ تصوير لمقامه فى الخوف قد سمعه منه مريده الشيخ أحمد بن أبى الحوارى يقول: (أمثل لى رأسى بين جبلين من نار، وربما رأيتنى أهوى فيها حتى أبلغ قرارها. فكيف تهنا الدنيا من كانت هذه صفته ^(١) ٩١) ولقد تعايش مع هذا المقام حتى أدرك ثماره. وقد جسدها بقوله (أصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله تعالى) وفى قوله: (إذا سكن الخوف القلب أحرق الشهوات، وطرد الغفلة من القلب) فالخوف إذن يورث الحضور مع الله على الدوام ويظهر ساحات القلب من الغفلات حتى تشرق أنوار الوصول. ولقد بلغ من منزلة الخوف عنده أنه كان يقول: (لو أن محزوناً بكى فى أمة لرحم الله تلك الأمة) (♦).

وكان يرى أيضاً أن الخوف مقياس اليقين، إذ يقول عليه الرضوان: (لكل شىء صدق وصدق اليقين الخوف من الله تعالى).

ولقد وصل سيدى أبو سليمان إلى قمة اليقين إلى حد أنه كان يقول: (لو

(١) انظر حلية الاولياء لأبى نعيم ٣٦١/٩.

♦ انظر طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى ص/ ٨٢.

شك الناس كلهم فى الحق ما شككت فيه وحدى) وكان الإمام ابن أبى الحوارى
يسمعه آنذاك فعلق قائلاً: (كان قلبه فى هذا مثل قلب أبى بكر الصديق يوم
الردة) ^(١) ۝

إنها قمة القمم التى لا يستشرف عليها إلا الصديقون. وفى مقام المحبة
صعد سيدى أبو سليمان إلى الذروة فكان يناجى ربه فى جنح الليل فى خلوته
ويبوح له - وهو أعلم - بمحبته.

روى صاحب الحلية بسنده عن سيدى ذى النون المصرى رضى الله عنه
يقول: (تسمعوا ليلاً على أبى سليمان الدارانى فسمعوه يقول: يارب: إن طالبتى
بسريرتى طالبتك بتوحيديك، وإن طالبتى بذنوبى طالبتك بكرمك، وإن جعلتلى من
أهل النار أخبرت أهل النار بحبى إياك) ^(٢) ۝

وذكر الإمام أبو طالب المكى فى (علم القلوب): أنه سئل أبو سليمان الدارانى
عن علامة المحب فقال أن يكون فاراً من الناس كالوحوش، واسمه - أى المولى عز
وجل فى قلبه منقوش وهو بين يدى الله تعالى كالهائم المدهوش) ^(٣).

وفى مقام الزهد وصل العارف الدارانى بهيمته إلى غاية ما بعدها غاية.
فالزهد عنده مقياس للصدق مع الله تعالى. إذ يقول: (لكل شىء معدن ومعدن
الصدق قلوب الزاهدين) ثم إن للزهد - عند العارفين - مفاهيم متعددة. كل
بحسب ما يرى ويتحقق، ولكن المفهوم الذى أطلقه سيدى أبو سليمان هو قمة
المفاهيم التى أطلقت على الزهد، روى الإمام أبو نعيم عن سيدى أحمد بن أبى
الحوارى أنه سمع أبا سليمان يقول: (اختلفوا علينا بالزهد فى العراق فمنهم من
قال: إن الزهد فى ترك الناس، ومنهم من قال: فى ترك الشهوات، ومنهم من قال

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٢٥٦/٨.

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ٢٥٥/٨.

(٣) انظر: علم القلوب لأبى طالب المكى بتحقيق عبد القادر عطا ص ٢٧١.

فى ترك الشبع. وكلامهم قريب بعضه من بعض. وأنا أذهب إلى أن الزهد فى ترك ما يشغلك عن الله^(١).

كان كل همه الانقطاع إلى الله تعالى ، وهو يصور الالتزام الذى يفرضه هذا الانقطاع بقوله: (من أظهر الانقطاع إلى الله فقد لزمه خلع ما دونه من عنقه) إنه صريح العبودية لله تعالى، وصريح الحرية من كل ما سواه. وهذا هو لب الولاية وجوهر الصدق مع الله عز وجل.

وتحدث الإمام الداراني رضى الله عنه عن مقام الرضا حديث المتحقق الراسخ. فهو يقول: (الرضا عن الله عز وجل والرحمة للخلق درجة المرسلين) فقرة الرضا تنتهى عند درجة الرسل ويتدرج الأولياء فى منازل هذا المقام كل بحسب مقامه.

أما عن درجة شيخنا الداراني فى الرضا: فهو يصفها بقوله: (أرجو أن أكون قد رزقت من الرضا طريقا لو أدخلنى النار لكنت راضيا)^(٢).

أما المعرفة فقد تربع سيدى أبو سليمان فى عليها. كان رضى الله عنه يقول: (لو أعلم أن بمكة رجلا يقيدنى فى هذا العلم كلمة - يعنى علم المعرفة - لحضرنى فيه أن أمشى على رجلى ولو ألف فرسخ حتى أسمعها منه) وفى هذه العبارة إشارة إلى أنه كان عارف زمانه ولم يوجد فى عصره من يفوقه ولو بكلمة وإلا لرحل إليه. والثابت أنه منذ فتح عليه بالشام لم يرتحل.

لقد استغرق فى محيط المعرفة حتى كان فتحه واتصاله ملازما له فى كل حال. فكان يقول: (إن الله يفتح للعارف وهو على فراشه مالا يفتح لغيره وهو قائم يصلى)^(٣) ١١

والمعرفة عنده اتصال يرتقى إلى المشاهدة فقد سمعه مريده سيدى أحمد

(١) انظر: الحلية لأبى نعيم: ٢٥٨/٩.

(٢) انظر: الحلية لأبى نعيم: ٣٦٣/٩.

(٣) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ١/٤٥٩.

يقول: لو لم يكن لأهل المعرفة إلا هذه الآية الواحدة لاكتفوا بها: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) (١) !! (٢)

ولقد سمعه أيضاً يقول: (أى شيء أراد أهل المعرفة؟ والله ما أرادوا إلا ما سأل موسى عليه السلام) (٣) !!

تحقق سيدى أبو سليمان بالمقامات وارتقى فيها إلى القمة وكان من أوائل من تحدثوا من الصوفية عن ترتيب المقامات والأحوال ، وذلك لا يتسنى إلا للراسخين الواصلين.

كان رضوان الله عليه يقول: (القناعة أول الرضا والورع أول الزهد) (٤) ثم يقول: (إذا بلغ العبد الزهد أخرجه إلى التوكل) (٥) وهكذا حتى ينتهى السائر إلى غايته ويصل ، وليس بعد الوصل قطع بمقتضى الكرم الإلهى وإنما القطع لمن لم يصل.

يقول العارف أبو سليمان قدس الله سره: (إذا وصلوا إليه لم يرجعوا أبداً وإنما رجع من رجع من أول الطريق، (٦) وإنما حرموا الوصول لتضييع الأصول، ومن لم يتخلق لم يتحقق، وعلامة من صح وصوله الخروج من الطبع والأدب مع الشرع واتباعه حيث سلك) .

ولقد ترجم رضوان الله عليه عن تعظيم المصطفى - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - ومحبة القوم لجنابه الشريف إذ سمعه مريده يقول: (لما حج أويس - أى القرنى سيد التابعين - دخل المدينة.. فلما وقف على باب المسجد: قيل له: هذا قبر النبى - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - ففشى عليه. فلما أفاق قال: أخرجونى فليس بلادى بلدا محمد صلى الله عليه وسلم فيه مدفون)!! (٧) فدتك الروح يا معظم الجناح المحمدي.

(١) سورة القيامة ٢٢ - ٢٣.

(٢) . (٣) انظر الحلية لأبى نعيم ٢٦٤/٩.

(٥) المصدر الأخير ٢٥٦/٩.

(٤) المصدر الأخير ٢٥٧/٩.

(٧) المصدر الأخير ٢٦٢/٩.

(٦) المصدر الأخير ٢٦١/٩.

حقيقة والله: ليس من راء كمن سمعا!

كما يتجلى حب سيدى أبى سليمان للنبي - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - فى تعظيمه لقدر صحابته - رضى الله عنهم وعنا بهم - وعرفانه بحقهم وإجلاله لمقامهم. يقول مريده: (قلت لأبى سليمان كان عثمان بن عفان وعبدالرحمن ابن عوف موسرين؟ قال : اسكت. إنما كان عثمان وعبدالرحمن من خزان الله فى أرضه ينفقان فى وجوه الخير - قال - وسمعت أبا سليمان يقول: هم عاملوا ربهم بقلوبهم)^(١).

لله أنت يا سيدى أبى سليمان من عارف بحقوق الصلبة المحمدية! كان خلقه محمديا ومنطقه إلهاميا. يسأله رجل عن النكاح فيقول له: الصبر عنهن خير من الصبر عليهن ، والصبر عليهن خير من الصبر على النار! وكان يقول: (تحذر من إبليس بمخالفة هواك، وتزين له - أى لمولاك - بالإخلاص والصدق، وتعرض للمغو بالحياء منه والمراقبة، واستجلب زيادة النعم بالشكر، واستدم النعمة بخوف زوالها، ولا عمل كطلب السلامة، ولا سلامة كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى).

ثم تنتقل إلى الكرامات التى هى آيات على صدق الولاية..

روى الإمام القشيري بسنده عن يوسف بن الحسين أنه سَمِعَ يقول: (كان بين أبى سليمان وأحمد بن أبى الحواري عقد، لا يخالفه أحمد فى شيء يأمره به.. فجاءه يوما وهو يتكلم فى مجلسه، فقال: إن التور قد سجر - أى حمى - فما تأمر؟ فلم يجبه.. فقال مرتين أو ثلاثة. فقال أبو سليمان اذهب فاقعد فيه!! كأنه ضاق به قلبه. وتغافل عنه أبو سليمان ساعة ثم ذكر. فقال: أدركوا أحمد فإنه فى التور، لأنه آلى على نفسه أن لا يخالفنى.. فنظروا فإذا هو فى التور لم تحترق منه شعره)^(٢)!!

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٣١٢/٩.

(٢) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ٤٣٥.

وهذه كرامة أخرى يرويها الإمام القشيري قائلًا: (وقال أبو سليمان نمت عن وردى فإذا أنا بحوراء تقول لي: تمام وأنا أرى لك في الخدور منذ خمسمائة عام)^(١) لا هذا هو الإمام الداراني العارف المحقق الذي افتخر به الإمام النووي قائلًا: (كان من كبار العارفين أصحاب الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة والحكم المتناظرة وهو أحد مفاخر بلادنا دمشق وما حولها)^(٢) رضى الله عنك يا سيدي أبا سليمان وأمدنا بمددك وجعلنا من خواص أحبائك وألحقنا بركبك المحمدي في الدنيا ويوم الدين.



(١) انظر الحلية لأبي نعيم ٢٥٩/٩.

(٢) انظر الكواكب الدرية للمناوي ٤٥٧/١.

« سيدى بشر الحافى رضى الله عنه »

إلى عالم القدس والنور تطير أرواح المشتاقين إلى حضرة المولى عز وجل لمطالعة الجمال المطلق، والاستغراق فى محيط الأنوار الإلهية.

هنالك تحظى قلوب الريانيين من عباد الله بالأنس والمشاهدة وتنعم بالقرب والمناجاة، وتتحقق بأسمى مراتب العبودية باستمدادها من أنوار الربوبية . إنها معارج أهل الصفاء والمشاهدة الذين اختصهم الله بولايته وجعلهم من أهل وده ورعايته.

ومن خاصة أولئك الصفوة الأولياء والأبرار الأصفياء : سيدى أبو نصر بشر ابن الحارث الحافى رضى الله عنه .

إمام عصره فى الزهد والورع ، وأوحد وقته فى التبتل والانتقطاع إلى الله تعالى ، وهو أحد رؤساء الطريق ، وله الصدارة فى علوم القوم ، والإشارة العالية فى دقائق التصوف وسبر أغواره.

أصله من مرو . وقد ولد سنة ١٥٠هـ ثم سكن بغداد وأقام بها والتقى بأعلام الصوفية فى عصره كالإمام الفضيل بن عياض ومن فى طبقته.

كما التقى بالإمام السرى السقطى خال الإمام الجنيد وأستاذه. رضى الله عنهم أجمعين.

وقد أفاد العارف بشر من شيوخه ومعاصريه فى الطريق حتى صار إماما يشار إليه بالبنان لا يدانى فى ذوقه وعرفانه.

. وكانت وفاته - رضى الله عنه - ببغداد سنة سبع وعشرين ومائتين^(١) هـ.

ولنقف أولا على سبب تسميته بالحافى : لقد كان سيدى بشر رضى الله عنه يسير حافى القدمين منذ أن فتح عليه حتى لقى ربه.

وسبب ذلك أنه قد جلس يوما فى ابتداء أمره مع بعض رفقائه فى مجلس لهو وطرب ومسامرة. وبينما هو كذلك إذا برجل يدق بابه فخرجت له الجارية.

فقال لها : صاحب هذه الدار حُرٌّ أَمْ عَبْدٌ ؟ قالت حر. قال: صدقت لو كان عبدا لاستعمل آداب العبودية وترك اللهو !!

ثم ولى الرجل ودخلت الجارية فأخبرت بشرا بما قال ذلك الرجل فخرج يعدو خلفه حافيا حتى أدركه.

فقال له : أنت الذى وقفت بالباب ؟ قال: نعم.

فقال له: أعد على ما قلته فأعاده . فهوى بشر إلى الأرض وأخذ يمرغ خده على التراب ويقول : بل عبد ابن عبد.

ثم هام على وجهه حافيا ومن ثم عرف بالحافى^(٢) .

لقد كانت كلمات ذلك الرجل الذى ساقه القدر المغيب شرارات تفجرت منها أعماق بشر بكل ما يكمن فيها من طاقات إيمانية كانت تنتظر هذا الميقات لتشق طريقها كالإعصار يجتاح كل مخالفة ، ويمحق كل خطيئة لكي تثبت أزهار الحب الإلهى فى ذلك القلب النقى الذى خلق لله فحرام عليه بعد اليوم أن يعيش لغير الله. وتلفت العارف بشر وأخذ يجول بنظره فى آفاق الوجود ويبحث عن مصيره. إن مكانه هناك بين صفوف الزاهدين العارفين مع الفضيل والسرى وأضرابهما من أهل الحضرة الإلهية.

(١) انظر سير أعلام النبلاء للنهبي ٤٧٦/١٠ .

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ٣٦٩/١ .

ولقد سئل سيدي بشر بعد ذلك : لم لا تلبس نعلين تقيانك من الحر والبرد ؟

فقال : ما صالحنى مولاي إلا وأنا حاف فلا أزول عن هذه الحالة !!

وثمة حادثة أخرى كان لها أثر كبير في التحول الروحي عند العارف بشر : يقول الإمام القشيري في رسالته : (وكان سبب تويته أنه أصاب في الطريق كاغدة - أى ورقة - مكتوبا فيها اسم الله عز وجل . قد وطئتها الأقدام فأخذها واشترى بدرهم كان معه غالية فطيب بها الكاغدة وجعلها في شق حائط . فرأى فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول له : يا بشر طيب اسمى لأطيبين اسمك في الدنيا والآخرة)^(١).

وقد تحقق الوعد الإلهي لسيدي بشر إذ طيب الله ذكره في الدنيا وبعد انتقاله منها حتى لقد قال معاصره محمد بن الصلت : (كان اسمه بين الناس كأنه اسم نبي)^(٢) وحتى لقد كان رضى الله عنه ينجى ربه في مرض موته (إلهي : رفعتني فوق قدرى ونوهت باسمى وشهرتني بين الناس فأسألك بوجهك الكريم ألا تفضحنى غدا يوم القيامة)^(٣).

وللإمام بشر منزلة علمية رفيعة أقر له بها أساطين العلم والحديث في عصره .

فقد كان من رواة الحديث الثقات ، وشهد له الإمام الدارقطني قائلاً : (وهو ثقة لا يروى إلا حديثاً صحيحاً)^(٤)

وله مرويات كثيرة تلقاها عن محدثي عصره كمعبد الرحمن بن أسلم وابن المبارك وحماد وغيرهم ، كما روى عنه جماعة منهم محمد بن المثنى والسري السقطي ونعيم بن الهضيم وغيرهم .

وكذلك التقى بالإمام مالك وحج معه وسمع منه كما ذكر في تاريخ بغداد .

(١) « الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٦٨/١ والعلية لأبي نعيم : ٢٣٦/٨ .

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبي نعيم ٢٣٦/٨ والكواكب الدرية للعلامة المناوي ٣٦٩/١ .

(٣) انظر : الكواكب الدرية : ٣٧٣/١ .

(٤) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي : ١٠/٤٧٥ .

ومن مروياته هذا الحديث الذي ذكره صاحب كتاب تاريخ بغداد بسنده عن محمد ابن المثنى السمار قال سمعت بشر بن الحارث يقول سمعت العوفى يذكر عن الزهرى عن أنس رضى الله عنه قال: (اتخذ النبى - صلى الله عليه وسلم - خاتما فلبسه ثم ألقاه).

ولكن الإمام بشرا قد توقف عن الرواية بعد أن رسخت قدمه فى الولاية، وبعد أن صار العلم فى عصره حرفة ومطية للجاه ووسيلة للدنيا لا للأخرة. لذلك كان الإمام بشر ينمى على المتكسبين بالعلم والذين قصر حظهم عن العمل به ولم يحققوا منه غايته.

فكان رضى الله عنه يقول : (يا طالب العلم أنت متلذذ متفكه بالعلم تسمع وتحكى لا غير . ولو عملت بما علمت لتجرعت مرارة العلم . ويحك . إنما يراد بالعلم العمل فاسمع يا أخى وتعلم ثم اعمل واهرب . ألا ترى إلى سفيان الثورى رضى الله عنه كيف طلب العلم وتعلم ثم هرب ؟ فاسمع ما أقول لك فإن طلب العلم إنما يدل على الهرب من الدنيا لا على حبها^(١).

ومراد الإمام بشر من الهرب من الدنيا الزهد فيها وعدم التكالب على مناصبها فإن غاية العلم شريفة، وهى أسمى من ذلك.

وفى الركون إلى الدنيا إهانة للعلم وإجحاف بحقه وإماتة لرسالته.

أما سمات العلماء الحقيقيين فيصورها العارف بشر بقوله : (أدركنا العلماء وفيهم ثلاث خصال: صدق الحديث، والزهد فى الدنيا، وأكل الحلال، ولا نرى فيهم اليوم واحدة منها، فلذلك لا يعبا بهم)^(٢).

ولقد انتهج الإمام بشر نهج أئمة الصوفية فى أداء حق العلم وهو العمل به . وكان عمله فى الخفاء بينه وبين موله حتى لا يداخله رياء ولا سمعة.

(١) انظر : الطبقات الكبرى لسيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٦٢/١.

(٢) المصدر السابق ٦٣/١.

وكان يطوى الليالى ساجدا لله ، وكان يقتات من الطاعة ويلتمس فيها غذاء الروح ونعيم القلب وسرور الفؤاد ، كان يعشق الصفاء ويهيم فى التفكير فى عظمة الخالق ويسبح بوجدانه فى أعماق الحقيقة ونبض فؤاده لا يكف عن تردد أحلى نغم تمسقه الروح (الله ... الله ...) لقد سكبت هذه الكلمة فى روحه راح المعرفة وإكسير المحبة وسلاف اليقين، فأخذ يترقى فى معارج الاصطفاء من مقام إلى مقام، وكل مقام له سماء هى أرض لما فوقه ... وأن إلى ربك المنتهى.

ولقد تربع العارف بشر على عرش المحبة وارتوت روحه من دنان المعارف والأسرار فنطلق بجوهر الحكمة النورانية وتدفع فى أعماقه نبع من المعرفة اللدنية فأخذ يسقى منه كل من صلح له وتأهل لاستمداده.

لقد سأل المازنى يوما عن التوكل فقال له : (اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب)^(١) فقال له المازنى: ليس نفعه هذا . قال: نعم. ليس هذا من إزاركم. قال: ففسره لنا حتى نفقه. قال: اضطراب بلا سكون: رجل يضطرب بجوارحه وقلبه ساكن إلى الله لا إلى عمله. وسكون بلا اضطراب : رجل ساكن إلى الله عز وجل بلا حركة وهذا عزيز وهو من صفات الأبدال^(٢) ا.هـ.

وكان العارف بشر يرنو فى بداية سيره إلى الله تعالى إلى حياة القلب التى تلى موت النفس والتى يليها حياة الروح والسر. وهى مراق يعرفها أهل الله.

فكان رضى الله عنه يقول : (حسبك أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم ، وأن أقواما أحياء تقسو القلوب برؤيتهم)^(٣).

ولقد أدرك العارف بشر منذ البداية أن استئصال حظ النفس من العبد هو بداية صعوده إلى مراقى الرجال.

وحظ النفس إنما يتمثل فى الشهوات والأهواء واللذات وكل علائق الطينية

(١) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ٣٧٠/١ .

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ٣٥١/٨ .

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشمرانى ١٢/١ .

التي تجذب القلب إلى الأرض - أرض النفس - حتى لا يرقى إلى سماء الروح. لذلك حدد بصره إلى غايته وألقى بحظ النفس بعيداً وأطلق هذه العبارة التي أرسى بها قاعدة للسلوك (لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد)^(١).

إنها عزيمة الأحرار الذين ملكوا نفوسهم ولم يمكنوها من أن تملكهم. ولقد نأى سيدى بشر عن كل مظنات الهوى النفسى فى كل أشكاله وصوره والتزم جانب الورع فى قمة المنازل ، وأعلى المراتب حتى لقد عرف عند الصوفية أكثر ما عرف بشدة ورعه .

فهذا هو أبو عبد الله بن الجلاء يقول : (رأيت ذا النون وكانت له العبارة ورأيت سهلا وكانت له الإشارة ورأيت بشر بن الحارث وكان له الورع . فقليل له : فإلى من كنت تميل ؟ فقال : لبشر بن الحارث أستاذنا)^(٢).

وقد بلغ الورع عند سيدى بشر إلى حد يفوق التصور حتى لقد كان يقول (إنى أشتى الشواء منذ أربعين سنة ما صفا لى ثمنه)^(٣).

وذكر الطوسى فى اللمع : إن سيدى بشرا حمل إلى دعوة - أى وليمة - فوضع بين يديه طعام فجهد أن يمد يده فلم تمتد ثم جهد فلم تمتد ثلاث مرات .

فقال رجل ممن كان يعرفه: إن يده لا تمتد إلى طعام حرام أو فيه شبهة، ما كان أغنى صاحب هذه الدعوة أن يدعو هذا الرجل إلى بيته^(٤) هـ .

وكان سيدى بشر - رضى الله عنه - يحذر من عدم التورع فى المطعم أهل عصره وكأنه صوت من السماء يدوى فى أعماق النفوس فتمتلئ القلوب بالخشية والهيبة. فما هو ذا يقول فى صرامة أهل الحق: (انظر خبزك من أين هو ولا تعرض لحملك للنار).

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهاني ٣٥٤/٨.

(٢) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٧٠/١.

(٣) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود.

(٤) انظر اللمع للإمام السراج الطوسى بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٧٠-٧١.

وجاءت أخته يوماً إلى الإمام أحمد بن حنبل فقالت له: إنا نغزل على سطوحنا فتتمر المشاعل فيقع الشماع علينا فهل لنا أن نغزل في شعاعها؟ فقال: من أنت؟ قالت: أنا أخت بشر، فبكى حتى أبكى من حوله، وقال: من بيتكم خرج الورع.^(١)
لا تغزلي في شعاعها!!

وروى الإمام الغزالي - رضى الله عنه - في الإحياء عن بعض الصالحين :
قال: ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها غير بشر^(٢).

أتاه رجل في مرضه فشكى إليه الحاجة فنزع قميصه فأعطاه فاستمار ثوباً
هلمات فيه !!

إنه الإمام بشر الذى أعجب من بعده لأنه سما بسلوكه وهديه إلى مستوى
القمة. قمة الزهد وقمة الإيثار وقمة التفانى في مرضاة الله.

لقد دخل عليه رجل في يوم شديد البرد فوجده عرياناً يردد وينتفض فقال
له: يا أبا نصر، ما هذا؟ فقال: ذكرت الفقراء وماهم فيه وليس لى ما أواسيهم به
فأحببت أن أواسيهم بنفسى في مقاساة البرد^(٣)!!

لله درك أيها العارف المتخلق بأخلاق النبوة. إنها الشفقة الرحيمة بالفقراء،
والمشاركة لهم في البأساء والضراء. وإنها لصفات قد يجفوها غلاظ القلوب وقساة
النفوس، ولكنها تمس شغاف القلب المؤمن وتعلمه كيف الرحمة بعباد الله.

أما عن مكانة القطب العارف سيدى بشر ومنزلته الصوفية عند شيوخ
الطريق وأئمة السلوك: فإنها بلغت شأواً لا تتاله إدراكات العقول.

وناهيك بمعرفته وورعه وزهده وأخلاقه.

أيما توجهت في مناحى سموه وقفت على شواهد العظمة الإنسانية ممثلة
في أحد أفعذاتها.

(١) انظر الرسالة التشريعية: ٢٨٦/١ - ٢٨٧.

(٢) انظر الكواكب الدرية للمناوى ٣٧٣/١.

(٣) انظر النعم للعارف أبى نصر الطوسي ص ٢٧٣.

لقد ذكر سيدي محيي الدين بن عربي - رضى الله عنه - فى فتوحاته كما ذكر الإمام القشيري فى رسالته (أن بعض الصالحين لقي الخضر فقال له : ما تقول فى الشافعى ؟ قال : من الأوتاد . قال : فأحمد بن حنبل ؟ قال : صديق . قال : فبشر الحافى ؟ قال : ما ترك بعده مثله ^(١)).

وذكر صاحب تاريخ بغداد أن محمد بن المثنى قال للإمام أحمد بن حنبل : (ما تقول فى هذا الرجل ؟ قال له : أى الرجال ؟ قال له : بشر ، فقال له : سألتى عن رابع سبعة من الأبدال ^(١)).

ولقد كان سيدي بشر كثيراً ما يلتقى بسيدنا الخضر . ويروى الإمام الشعرانى أن العارف بشراً كان يقول : (دخلت دارى يوماً فإذا رجل جالس فى الدار فقلت له كيف دخلت دارى بفير إذن فقال أنا أخوك الخضر . فقلت ادع لله تعالى لى . فقال عليه السلام : هون الله عليك طاعته . فقلت زدنى . قال وسترها عليك ^(٢)).

ولقد كان سيدي بشر كما يقول العارف المناوى من الذين إذا رؤوا ذكّر الله . ولقد صلى يوماً فأطال وأحسن ورجل يصلى خلفه ففطن به الإمام بشر ، فقال له : لا يعجبك ما رأيت منى فإبليس عبّد الله مع الملائكة دهرأ ثم صار إلى ما صار إليه ^(٣) .

لقد قصد سيدي بشر بذلك أن يسد منافذ الشيطان إلى قلبه والى يتسلل منها عن طريق العجب والرياء .

ومن كبشر فى ذلك : إن الخليفة المأمون لم يكتف مشاعره بالإجلال تجاه هذا الولي العارف فقال يوماً ليحيى بن أكثم : (لم يبق فى هذه الكورة أحد يستحى منه غير هذا الشيخ بشر بن الحارث) .

(١) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ٦٩/١ - ٧٠ والكواكب الدرية للمناوى ٣٧٢/١ .

(٢) انظر المطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٦٢/١ .

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٣٧٢/١ .

أجل بشر بن الحارث ذلك الرجل الذى أقام الدنيا وأقعدھا وهى لا تساوى عنده جناح بعوضة.

ولقد لخص العارف بشر فلفسفته الصوفية فى هذه العبارة حين سئل عن التصوف فقال : (هو اسم لثلاث معان ألا يطفى نور معرفة العارف نور ورعه ، وألا يتكلم فى علم باطن ينقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله تعالى)^(١).

كلمات تفيض بالحكمة والنور والإشراق ومعان لا تصدر إلا عن أهل الله ، أهل المعرفة والورع . إنها قوانين القلوب التى تعرف الطريق لمولاهما فتسير إليه على هديها .

ومن أقباس الحكمة الربانية عند العارف بشر (من حرم المعرفة لم يجد للطاعة حلاوة ، ومن لا يعرف ثواب الأعمال ثقلت عليه فى جميع الأحوال ، ومن زهد فى الدنيا على حقيقة كانت مؤنته خفيفة ، ومن وهب الرضا فقد بلغ أفضل الدرجات . والمؤمن إذا عاش حزينا ولم يرد القيمة أفضل من الراضين عن الله)^(٢). تلك آفاق مضيئة بالنور الإلهى يعرفها أهلها ويخلقون فى أجوائها كما خلق الإمام بشر الذى منحه الله من العطاء ما لا يخطر على قلب بشر.

يقول الإمام المناوى فى طبقاته : إن أحد الصالحين رآه - أى سيدى بشرا - فى منامه بعد موته ماشيا فقال له من أين ؟ قال من عليين . قال ما فعل أحمد بن حنبل ؟ قال تركته الساعة يأكل ويشرب بيدى الله . قال فأنتم ؟ قال : علم الله قلة رغبتى فى الطعام فأباحنى النظر إليه^(٣) .

رضى الله عن الإمام بشر فى عليين ورضى عنا به مع أوليائه المتقين وأمدنا بمدده فى الدارين . آمين .

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشمرانى ٦٣/١ .

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهاني : ٢٤٩/٨ - ٣٥٠ .

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ٣٧٤/١ .

إمام السَّلَفِيَّةِ الحَقَّةِ والصَّوْفِيَّةِ الصَّادِقَةِ « الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه »

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . فلم يشغلهم فى الوجود إلا الوصول إليه ، ولم تحجبهم الأكوان عن التحقيق بمقام الإحسان لديه ، ففلسوا أرواحهم فى محيط الطاعات ، وخاضوا بنفوسهم بحار المجاهدات حتى صارت العبادات عندهم عادات ، وتبتلوا بقلوبهم فى محراب الجهاد الأكبر حتى نفذت إلى سرائرهم أشعة النور المحمدى فاتصلوا بالحضرة الإلهية وصاروا فى كنف الذات العلية . أولئك هم أهل ود الله ووداده ، وعيون صفوته من عباده . رضى الله عنهم وأمدنا بمددهم لنلحق بركبهم ونظفر بمعيتهم فى الدنيا ويوم الدين .

من رؤوس أولئك الأولياء الصادقين ، وأعيان أئمة الشريعة المجتهدين إمام ملأ الدنيا بعلمه وعمله ، ونصر الدين بحاله ومقاله ، ورفع لواء السنة برسوخه وشموخه ، وسما على الأفذاذ بجهده وجهاده ، فكان إشراقة نور محمدى شَرَفَتْ وجه التاريخ ، ودعامة إيمان مكنت لصرح الإسلام ، إنه الإمام الصديق حجة الشرع وقدوة أهل التحقيق ، سيدى ومولای الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى رضى الله عنه وعنا به ، وغمرنا بأنواره وأمدنا بأسراره فى معية إمامنا الشافعى الأعظم عليه الرضوان دنيا وآخرة بجاه سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين فى كل وقت وحين .

فى صحبة رابع أئمة الشريعة والحقيقة مولانا الإمام أحمد نحلقت فى أفق نوره المحمدى بعد أن حلقتنا فى آفاق الأنوار الثلاثة - فى سالف حلقات أعلام الصوفية - مؤكدين بمنطلق العلم والواقع - من خلال إبراز صوفيتهم الرفيعة

الممثلة في نهجهم وتحققهم ومجاهداتهم وإشاراتهم ، وأحوالهم ومقاماتهم وكراماتهم .

إن التصوف في جوهره المثالية وصورته الحقيقية ما هو إلا ثمرة الشريعة ونتاجها الشرعي الذي لا يمكن بحال فصله عنها مهما أُرْجفت زُمُرٌ لم يكتب لها أن تخترق ظلمة الحجب لتستشرف آفاق النور وتعاين جوهر الإسلام ، فكان في إجلال الجانِبِ الصوفي عند أئمة الشريعة حُسمٌ للقضية ، ودلالةٌ بواضح البرهان حيث تمعّن العيان .

ولابد لنا من نظرة تاريخية عابرة في حياة الإمام نتبعها بأخرى في الجانِبِ العلمي عنده لنصل إلى الثمرة عند الجانِبِ الصوفي، وعنده نضرب الأطناب ونحل بالرحاب ، ولولا ضرورة التكامل الموضوعي لآثرنا قصد الجانِبِ الصوفي مباشرة ، ولكن من الأبواب تؤتي البيوت ، ولولا بياض العين ما حفظ السواد .

يتفرع الإمام أحمد عليه الرضوان من شجرة عربية عدنانية يذكر التاريخ مآثرها وأمجادها في صفحاته وهي قبيلة شيبان ، وتمتد أصولها إلى نزار بن معد ابن عدنان حيث يلتقي إمامنا في النسب مع أشرف الخلق صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

ولا ينسى التاريخ من أعضاء تلك الشجرة المباركة البطل الإسلامي الجليل سيدنا المثنى بن حارثة رضي الله عنه الذي قاد جيوش المسلمين في عهد الصديق الأكبر سيدنا أبي بكر رضي الله تعالى عنه وعنا به .

وكانت شيبان تقيم بالبصرة؛ ولهذا عرف الإمام بأنه بصرى الأصل ولذا يروى أنه كان إذا مر بالبصرة صلى في مسجد مازن بن شيبان وقال : إنه مسجد آبائي^(١).. ثم انتقل جده حنبل بأسرته إلى خراسان حيث كان والياً للأمويين على سرخس وكانت ميوله إلى العباسيين فكان داعية لهم .

(١) انظر : مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ١٨ - ٢٠ .
نشر دار الأفاق الجديدة ببغروت، وانظر الحلية لأبي نعيم : ١٦٢/٩ .

ولما لهذا الجد من شهرة ودور تاريخي كانت نسبة الإمام أحمد له فصار يقال أحمد بن حنبل وغلبت نسبته لأبيه محمد بن حنبل الذي كان جندياً غزياً . كذلك كانت أم الإمام شيبانية الأصل ، فهي السيدة صفية بنت ميمونة بنت عبد الله الشيباني^(١) .

أما عن مولد الإمام ووفاته وطرف من نشأته فيحدثنا ابنه سيدي أبو الفضل صالح - فيما رواه سيدي أبو نعيم الأصبهاني بسنده في حليته - قائلاً : « سمعت أبي يقول : ولدت سنة أربع وستين ومائة في أولها في ربيع الأول ، وجيء بي حملاً من مرو - وتوفي أبوه محمد بن حنبل وله ثلاثون سنة فوليته أمه - قال أبي : وكان قد بعث أداما لي فكانت أمي رحمها الله تصبر فيه حبة لؤلؤ ، فلما ترعرعت فكانت عندها فدفعتمها إليّ فبعتها بنحو من ثلاثين درهما ١١ - قال أبو الفضل - وتوفي أبي رحمه الله ليلة الجمعة لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين ومائتين ، فكانت سنة من يوم ولد إلى أن توفي سبعا وسبعين سنة .

قال أبو الفضل : - قال أبي : طلبت الحديث وأنا ابن ست عشرة سنة . ومات هشيم وأنا ابن عشرين سنة ، وأول سماعي من هشيم سنة تسع وسبعين وكان ابن المبارك قدم في هذه السنة ، وهي آخر قدمة قدمها ، فذهبت إلى مجلسه فقالوا قد خرج إلى طرطوس وتوفي سنة إحدى وثمانين^(٢) هـ .

ولد الإمام ونشأ في بغداد حاضرة العالم الإسلامي وملتقى علوم الإسلام وثقافات العالم آنذاك . فبدأ الإمام رحلة النور بحفظ كتاب الله تعالى وتلقى وسائل العلم الأولية ، إذ يقول رضي الله عنه : (كنت وأنا غليم أختلف إلى الكتاب ، ثم اختلفت إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة)^(٣) .

ثم كان المتجه العلمي الأول بعد ذلك هو حلقات المحدثين للإمام بالأصل

(١) انظر : مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ١٨ - ٢٠ .

نشر دار الأفاق الجديدة ببيروت ، وانظر العلية لأبي نعيم : ١٦٢/٩ .

(٢) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم : ١٦٢/٩ .

(٣) انظر مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ٢١ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨٥/١١ .

الثانى من أصول الدين وهو حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أن وقع بصر الأئمة على هذا الفتى حتى تمنى كل منهم أن يحظى بنسبته إليه وإفراغ محصلته فى صدره لما بدا عليه من سمات الفتح الربانى .

فهذا هو الهيثم بن جميل - وكان من شيوخ الحديث - يرى الإمام أحمد وهو فى مقتبل فتوته فيرى فيه مالا يراه الآخرون فيهتف : (أحسب هذا الفتى إن عاش يكون حجة على أهل زمانه)^(١) !

وتمضى خطى الزمن ، ويحدث الهيثم بن جميل ذات يوم بحديث عن هشيم فيوهم فيه فيقال له : خالفوك فى هذا ، فيقول من خالفنى ؟ فيقال له أحمد ابن حنبل فيقول ، وددت أنه لو نقص من عمرى وزيد فى عمر أحمد بن حنبل (!!) .

وتختلف الروايات فى أول شيوخ الإمام أحمد فى الحديث ، فالرواية التى سلفت هنا تثبت أن أول شيوخه - على التقريب - كان الإمام هشيم بن بشير الواسطى شيخ المحدثين بالمراق فى عصره^(٢) وقد أخذ عنه الإمام مالك ووكيع بن الجراح وعبد الرحمن بن مهدي الذى يراه أحفظ للحديث من الإمام سفيان بن عيينة الذى أخذ عنه إمامنا الشافعى والإمام أحمد رضى الله عنهما والذى كان محدث مكة ومرجع الحفاظ بها .

وثمة رواية أخرى عن الإمام أحمد تقول : (أول من كتبت عنه الحديث أبو يوسف) وهو صاحب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنهما وهو كصاحبه إمام فى فقهه الرأى .

فاجتمع للإمام أحمد من هشيم وأبى يوسف فقه الرأى مع فقه الأثر .

وقد أخذت همه الإمام تحلق فى أجواء العلم منذ عرف الدواة والقرطاس بمزيمة تسابق الأنفاس ، فقد روى أنه كان يقول : « كنت ربما أردت البكور فى

(١) انظر : العلية لأبى نعيم ١٦٧/٩ .

(٢) انظر مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزى ص ٢٤ وحلية الأولياء ١٦٣/٩ .

الحديث فتأخذ أُمى بثيابي وتقول : حتى يُؤذَنَ الناسُ أو يصبحوا ! وكنت ربما بكرت إلى مجلس أبي بكر بن عباس « !! لقد هجر الكرى وقلَى الهجوع تعشقا لطلب العلم . وظل الإمام منذ بدء تلقيه الحديث الشريف سنة ١٧٩هـ يتلقى على أئمة بغداد وأساطين حفاظها حتى سنة ١٨٦هـ حيث بدأت رحلاته العلمية مبتدئاً بالبصرة ثم الحجاز في العام التالي ، وتعاقبت رحلاته من بعد إلى اليمن والكوفة وغيرها من البلدان فالتقى بعيون الحفاظ ولأزم أئمة الرواة من أمثال يحيى القطان ويزيد بن هارون ووكيع بن الجراح وعبد الرزاق بن همام محدث صنعاء وغيرهم متحملاً شاق الارتحال مستهيناً بما لاقاه من صعاب في سبيل حمل الأثر النبوي الشريف وأخذه من مصادره الوثيقة .

يروى أبو نعيم بسنده إلى إبراهيم الدورقي أنه قال : (لما قدم أحمد بن حنبل مكة من عند عبد الرزاق رأيت شحوباً وقد تبين عليه أثر النصب والتعب ، فقلت : يا أبا عبد الله ، لقد شققت على نفسك في خروجك إلى عبد الرزاق ، فقال : - ما أهون المشقة فيما استفدنا من عبد الرزاق ، كتبنا عنه حديث الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة) .

وفي رحلة الإمام الأولى إلى الحجاز سنة ١٨٧هـ حيث كان الإمام يقصد الإمام سفيان بن عيينة : محدث مكة الكبير التقى في جوار الله الحرام بأعظم شيوخه ، الإمام الأكبر ، عالم قريش الذي ملأ طباق الأرض علماً .

إنه إمامنا الشافعي رضي الله عنه وعنا به ابن عم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وناصر سنته . فوجد فيه الإمام ابن حنبل بغيته المنشودة أو بالأحرى وجد فيه ذاته . فكل ما كان ينشده الإمام أحمد في إمام وشيخ وأستاذ وجده في مولانا الشافعي .

فقد رأى سيدي أحمد في شيخه الشافعي الإمام في فقه الحديث وحسبنا أنه قال فيه : « ما كان أصحاب الحديث يعرفون معاني حديث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى قدم الشافعي فبينها لهم » !! .

كما صور الإمام أحمد تمسك شيخه بالسنة أشد التمسك علما وعملا بقوله عنه : (كان إذا جاءه الحديث من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أو عن أصحابه لم يلتفت إلى غيره، وكان رجلا جمع الله فيه العلم والفقه وقراءة القرآن والخضوع^(١)).

وما أحسب أحد بلغ مبلغ الإمام أحمد في تقدير إمامنا الشافعي إذ قال :
(ما مس أحد بيده محبرة وقلما إلا وللشافعي في عنقه منة)^(٢)))

لقد عرف لشيخه حقه ، وكما تملأ طبائع الأشياء أن تمام إدراك الشيء منوط بمعظم درجة القرب منه فإن الإمام أحمد قد أذاب كل مسافة بينه وبين شيخه من حيث الاتصال فلم ينسه حتى في صلاته فقد روى عنه البيهقي أنه كان يقول : «إني لأدعو الله للشافعي في صلاتي منذ أربعين سنة أقول اللهم اغفر لي ولوالدي ولمحمد بن إدريس الشافعي فما كان منهم أتبع لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منه »^(٣) .

ومصدق تلك التبعية ما ذكره الإمام المناوي من أن إمامنا الشافعي عليه الرضوان رأى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد أعطاه ميزاناً فأولت بأن مذهبه أعدل المذاهب وأوفقها للسنة التي هي أعدل الملل^(٤)))

ومن ثم كان الإمام أحمد يفتي برأى شيخه الشافعي حين يفتقد الأثر إذ ذكر البيهقي بسنده إليه أنه كان يقول : (إذا سئلت عن مسألة لا أعرف فيها خبراً ، قلت فيها بقول الشافعي ؛ لأنه إمام عالم من قريش ، وروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً) .

وأخذ الإمام عن شيخه تمسكه المثالي بالسنة والأثر لدرجة أنه نهى أن تروى عنه الفتيا اكتفاء بالحديث الشريف، وقد وضع مُسنَدَه العظيم مصدراً لتتلقى الأمة

(١) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم ٩ / ١٨٤ .

(٢) انظر مناقب الشافعي للبيهقي بتحقيق السيد صقر ٢٥٥/٢ .

(٣) انظر : مناقب الشافعي للبيهقي ٢٥٤/٢ - ٢٥٥ .

(٤) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوي ١/ ٤٨٠ نشر المكتبة الأزهرية للتراث .

أحكامها مباشرة من محيط السنة ولذلك عد بعض الأئمة كابن جرير الطبري وابن قتيبة الإمام أحمد في زمرة المحدثين لا الفقهاء رغم أن له مصنفات في الفقه كالمناسك الكبير والصغير وغيرهما.

ولقد لقي الإمام أحمد من أئمة العلماء ما هو جدير به من تقدير.

فهذا يحيى القطان يقول : (ما قدم على مثل أحمد بن حنبل) ^(١) وأبو زرعة يقول : (ما رأيت مثل أحمد بن حنبل في فنون العلم وما قام أحد بمثل ما قام أحمد به) ^(٢).

ويقول سعيد بن خليل الخراز : (لو كان أحمد بن حنبل في بني إسرائيل لكان آية) ^(٣) وهو والله في أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم آية وإى آية .

ولله در أبي العباس أحمد بن إبراهيم إذ قال : « من دون أحمد كلهم في ميزان أحمد كما أن الناس دون أبي بكر في ميزان أبي بكر الصديق » ^(٤) .

وليس ذلك بمغالاة في حق إمام أهل السنة الذي يذكر الإمام المناوي أنه كان يحفظ ألف ألف حديث ^(٥) .

وأخذ عنه الحديث كل من البخاري ومسلم وأبي داود وغيرهم من أئمة علماء السنة رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين.

انتقل بعد ذلك إلى صوفية الإمام أحمد حيث بيت القصيد وغاية الحديث لتكتمل أماننا صورة الإمام الرياني والصديق الثاني إمام الأولياء وقدوة الأصفياء.

أما الصورة التي يضعها إمامنا المؤرخون وأصحاب الطبقات للإمام أحمد العابد والزاهد فهي صورة تتحنى لها هامة التاريخ لإجلالا وإعزازاً.

(١) انظر مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ٧٣ - ٧٤.

(٢) انظر العلية لأبي نعيم ١٦٤/٩.

(٣) المصدر نفسه ١٦٦/٩.

(٤) المصدر نفسه ١٦٦/٩.

(٥) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوي ٢٤٢/١ وانظر مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ٥٩.

وفى مقدمة الشهادات التى يمتاز بها التاريخ للإمام فى الجانب العلمى إلى جوار الجانب العلمى على السواء شهادة إمامنا الشافعى رضى الله عنه له إذ قال فيما أسنده إلى البيهقى : « خرجت من بغداد وما خلفت بها أحداً أتقى ولا أروع ولا أعلم - قال الراوى حرمة - وأظنه قال ولا أفقه من أحمد بن حنبل »^(١).

وعن بعض جوانب الصورة السلوكية للإمام يقول الإمام المناوى رضى الله عنه : « وكان مجلسه خاصاً بالحديث وبأمر الآخرة لا يذكر فيها شيئاً من شئون الدنيا إلا لضرورة ، وكان أكثر إدامه الغل ، وإذا اشتهى الطعام طبخوا له عدساً وشحمأ فى فخارة ، وكان يحيى الليل كله ، ويميل إلى العزلة ويؤثرها حتى كان لا يرى إلا بالمسجد أو جنازة أو عيادة مريض ، وحج خمس حجات ثلاثة منها ماشياً »^(٢).

ويحدثنا سيدى عبد الله بن الإمام أحمد عن بعض أوراد أبيه فى العبادة فيقول بإسناد صاحب الحلية إليه : « كان أبى يصلى فى كل يوم ليلة ثلاثمائة ركعة ، فلما مرض من تلك الأسواط أضعفته فكان يصلى كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة وكان قرب الثمانين »^(٣).

كان الإمام مع كل مسئولياته العلمية وغيرها منقطعاً لربه فاراً من الأكوان إلى المكون يناجيه ويتحجب إليه بكلامه لا سيما وقد أعلمه الحق تعالى أن مناجاة الله عز وجل بكلامه وتلاوة قرآنه العظيم هى أفضل ما يتقرب به العبد من ربه .

يقول حجة الإسلام مولانا الغزالى - رضى الله عنه وعنا به - فى الإحياء : « وقال أحمد بن حنبل : رأيت الله عز وجل فى المنام فقلت يا رب ، ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك ؟ قال : بكلامى يا أحمد ، قال : قلت يا رب بفهم أو بغير فهم ؟ قال : بفهم وبغير فهم »^(٤)))

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ١٩٥/١١ .

(٢) انظر الكواكب الدرية للمعارف المناوى ٢٤٢/١ .

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ١٨١/٩ .

(٤) انظر إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالى ٢٤٦/١ ط/ المثمانية .

وفى سياق ذكر عبادات الإمام أحمد رضى الله عنه يروى ربحانة الأولياء
سیدی عبد الوهاب الشعرانی رضى الله تعالى عنه وعنا به طرفاً من هذا الجانب
قائلاً : « وكان رضى الله عنه يضرب به المثل فى اتباع السنة واجتناب البدعة ،
وكان لا يدع قيام الليل ، وله فى كل يوم وليل ختمة ، وكان يسر ذلك عن الناس »^(١)
وكان رضى الله عنه يتمجب ممن يطلب العلم الشرعى ولا يكون له قدم فى العبادة
وعلى الأخص قيام الليل .

فيذكر الإمام الشعرانى أن أبا عصمة - وكان من طلاب العلم عند الإمام -
قال : بت ليلة عند أحمد رضى الله عنه فجاءنى بماء فوضعه . فلما أصبح نظر إلى
الماء كما هو . فقال : يا سبحان الله ! رجل يطلب العلم ولا يكون له ورد من قيام
الليل^(٢) ۝

وعاش الإمام أحمد على التقلل والزهد فى الدنيا وقد كانت رهن بنائه .
فيذكر الإمام أبو نعيم فى بعض رواياته أن الإمام أحمد كانت تمضى عليه الثلاثة
أيام لا يطعم فيها شيئاً ، وقد عرض عليه يزيد بن هارون وهو يتلقى عنه الحديث
الشریف مع يحيى بن معين خمسمائة درهم ، فأخذ بن معين ورفض الإمام .^(٣)

كما روى أن ابن الجروى جاءه بثلاثة آلاف دينار كانت له من إرث حلال يريد
منحها إياه فقام وتركه ۝ .

وحين كان الإمام أحمد ملازماً للإمام الشافعى ببغداد ورأى الإمام الشافعى
تلميذه أحمد يرحل لليمن بين الحين والآخر لتلقى الحديث الشريف عند عبد
الرزاق مع ضيق ذات اليد وكان الأمين قد فوضه فى اختيار قاض لليمن فاختار
الإمام أحمد وعرض عليه لينال رزقاً يعينه على طلب العلم واجه الإمام شيخه
الشافعى وبعضمة التقدير والحب والاحترام قائلاً : « يا أبا عبد الله ، إن سمعت
منك هذا ثانياً لم ترنى عندك »^(٤) ۝

(١) ، (٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٤٧/١ .

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ١٧٧/٩ ، ١٧٩ .

(٤) انظر مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزى ٢٧٠ - ٢٧١ .

ولا يخفى أن ذلك كله من باب الورع والزهد تخلياً لله لا سلبية في الحياة والدور الذي قام به الإمام يعجز عن أدائه الفحول . ولولا ثقة شيخه الشافعي بأن الدنيا لن تنال منه ما عرض عليه القضاء، ولولا رغبة الإمام أحمد في التخلي لربه لما رفض . إنها همة الأفذاذ التي ترفض ما سوى الله مأرباً فكان الإمام في زهده متعلقاً بالله تعلقاً لم يدع فيه بقية لغيره .

وهذا منطق يعبر عن مقامه . يقول رضى الله عنه - فيما رواه المناوى :-
(زهد العوام عن الحرام ، وزهد الخواص عن الفضول من الحلال : وزهد العارفين في ترك ما يشغل عن الله) .

وكان رضى الله عنه آية في الورع ومرجعاً لأئمة القوم في فلسفته ، يذكر الإمام المناوى عن الإمام الطرطوسى أنه قال : (ذهب أنا ويعبى بن الجلاء وكان من الأبدال إلى أحمد فسألناه: بما تلين القلوب ؟ فقال بأكـل الحلال . فمررنا من عنده إلى بشر - أى الحافى - فسألناه عنه فقال : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) ^(١) . فقلت : إن أحمد سألته . فقال : إيش قال ؟ فقلت قال : بأكـل الحلال . قال : جاء بالأصل . الأصل ما قاله أحمد) ^(٢) .

أى أن أكل الحلال هو أساس اطمئنان القلب بذكر الله لأن من ذكر الله وطعامه حرام لا يطمئن له قلب . وهل ينبئك مثل خبير ؟ وكان الإمام أحمد على خوف عظيم من ربه والخوف مقام عظيم عند الصوفية ؛ ولذلك يذكر المناوى أن الإمام أحمد قال : (سألت ربي أن يفتح على بابا من الخوف ففتح فخفت على عقلى، فقلت يا رب على قدر ما أطيق ففعل ذلك فسكنت) ^(٣) .

ولقد برح الخوف بإمامنا الصوفى أحمد حتى لقد ذكر مولانا الشعرانى عنه أنه : (لما مرض عرضوا بوله على الطبيب فنظر إليه وقال هذا بول رجل قد فتت الغم والحزن كبده) ^(٤) .

(١) سورة الرعد / ٢٨ .

(٢) ، (٣) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/٢٤٢ .

(٤) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/٤٧ .

إنه خوف من ربه قد ملك عليه جوانب قلبه وقد أثر هذا الخوف إثارة الإمام دينه وأمانته في العقيدة على كل شيء فامتحن أخص امتحان تعرض له إمام فقد أراد الخليفة العباسي المأمون - وكان معتزلياً أن يحمل الإمام أحمد على القول بخلق القرآن إذ كان المعتزلة ينفون عن الله سبحانه وتعالى صفات المعاني ، وأنكروا كونه تعالى متكلماً وثبت الإمام أحمد كالطود الشامخ يقول إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وكان مع الإمام في المحنة محمد بن نوح وسجادة والقواريري فعقدت مناظرات ومجادلات لم تسفر إلا عن رسوخ الإمام وأصالة مذهبه فلم يبق لدى الخليفة إلا التكييل بالإمام ومن تبعه ثم الإنذار بالإعدام وشد الإمام وصحبه بالأصفاد وكتبوا بالحديد ولم يحتمل القواريري وسجادة العذاب فأجابا إسحق بن إبراهيم نائب الخليفة ببغداد لطلبه وبقي الإمام ومحمد بن نوح في قلب المحنة وسيقا إلى الخليفة بطرسوس لينفذ فيهما أمره، واستشهد سيدي محمد بن نوح في الطريق ومضى الإمام بإيمانه بربه فتلقاه خادم المأمون باكياً يقول له : عزَّ علىَّ يا أبا عبد الله ما نزل بك قد جرد أمير المؤمنين سيفاً لم يجرده قط ويسط نطعاً لم يبسطه قط ثم قال : وقرابتي من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لا رفعت السيف عن أحمد وصاحبه حتى يقولوا : (القرآن مخلوق) .

وهنا تظهر بحق كرامه الولي ومقام الإمام عند ربه . يقول الراوي أحمد المسال - فيما ذكره الإمام الشعرائي - (فجثا أحمد على ركبتيه ولحظ السماء بعينيهِ ودعا . فما مضى الثلث الأول من الليل إلا ونحن بصيحة وضجة فأقبل علينا خادمه وهو يقول صدقت يا أحمد ، القرآن كلام الله غير مخلوق . قد مات والله أمير المؤمنين) (١) .

ولكن المحنة لم تنته بعد فتولى المعتصم وظل الإمام - كما يروى الإمام الشعرائي عن سيدنا الفضيل بن عياض - محبوساً ثمانية وعشرين شهراً وكان فيها يضرب كل قليل بالسياط إلى أن يغمى عليه ولم يزل كذلك إلى أن مات المعتصم

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرائي رضي الله تعالى عنه ٤٧/١ .

وتولى الواثق فاشتد الأمر على الإمام أحمد ، وقال لا أسكن بلدا أجد فيه ، وأقام
مختفيا لا يخرج لصلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولى المتوكل فرغ المحنة))
وقد شهد الأئمة للإمام أحمد بأوسمة من المجد ومقاليد من العرفان بحقه .
فيروى مولانا الشعراني أن سيدي بشر الحافى رضى الله عنه كان يقول :
(امتحن أحمد بعد ما أدخل الكير فخرج ذهباً أحمر)^(١) .

ويقول مولانا الشعراني عليه الرضوان : (وأرسل له الخضر فقيرا فقال يا
أحمد إن ساكني السماء ومن حول العرش راضون عنك بما صبرت نفسك لله عز
وجل)^(٢) .

وشهد سيدنا الخضر - عليه السلام - للإمام أحمد بالصديقية . يروى
الإمام القشيري في رسالته بسنده عن بلال الخواص أنه قال : (كنت في تيه بني
إسرائيل فإذا رجل يماشيني فتعجبت منه ثم ألهمت أنه الخضر عليه السلام . فقلت
له : بحق الحق من أنت ؟ فقال : أخوك الخضر ، فقلت له أريد أن أسألك فقال : سل
فقلت : ما تقول في الشافعي رحمه الله ؟ فقال : هو من الأوتاد . فقلت ما تقول في
أحمد بن حنبل رضى الله عنه ؟ قال : رجل صديق)^(٣) .

والصديقية تحتل ذروة الولاية وليس بينها وبين النبوة إلا مقام القرية وهو
مقام سيدنا الخضر كما ذكر سلطان العارفين سيدي محيي الدين بن عربي رضى
الله عنه وعنا به .

وكان الإمام أحمد رضى الله عنه من أئمة الصوفية المدافعين عن التصوف ،
فيروى الإمام المناوي أن ابن الإمام قال : (سمعت أبي يقول وقد قيل له : إن هؤلاء
الصوفية همود في المساجد على التوكل بغير علم . قال : العلم أقدمهم . قيل له إن
همتهم كسير وخرقة . قال : لا أعلم أعظم قدرا ممن هذه صفته .

(١) . (٢) المصدر السابق ٤٨/١ .

(٣) انظر : الرسالة القشيرية بتحقيق د. عبد الحلیم محمود ٦٩/١ .

قيل فإنهم إن سمعوا السماع يقومون فيرقصون . قال : دعهم يفرحون
بريهم^(١).

وكان الإمام من أعظم المتوسلين بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -
المتبركين بأثاره . يروى صاحب الحلية عن عبد الله بن الإمام أحمد قال (رأيت
أبى حرج على النمل أن يخرج من داره ، ثم رأيت النمل قد خرج بعد ذلك نملا
سوداء ، ورأيت أبى أخذ شعرة من شعر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -
فيضعها على فيه يقبلها ، وأحسب أنى رأيت يضعها على عينيه ويفمسها في الماء
ثم يشربه ثم يستشفى بها ، ورأيت قد أخذ قصعة للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -
ففلسها في جب الماء ثم شرب فيها ، ورأيت غير مرة يشرب ماء زمزم يستشفى
به ويمسح به يديه ورجليه)^(٢) .

بالله ماذا يقول أعداء الصوفية المتمسحين في الإمام أحمد بعد ذلك ؟

وماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ؟

ومن كرامات الإمام ما أخرجه الطبراني أنه كان لرجل أم مقعدة نحو عشرين
سنة فقالت له : اذهب إلى أحمد وسله يدعو لي فذهب وسأله ثم رجع إلى الباب
فوجد أمه قد خرجت تمشي على قدميها من ساعتها^(٣) !!

إنه الإمام الصديق الصوفي الولي ، رضى الله عنك يا سيدي أحمد ورضى
عنا بك .

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوي ٢٤٤/١ .

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ١٨٣/٩ - ١٨٤ وانظر أيضا تبرك الإمام أحمد بن حنبل بشعرة النبي صلى الله عليه وسلم
وبقصته وإقرار الحافظ الذهبي له على ذلك قائلًا :

(قلت أين المتطع المنكر على أحمد ؟... ثم قال : عافانا الله وإياكم من رأى الخوارج ومن البدع) انظر سير
أعلام النبلاء للذهبي ٢١٢/١١ .

(٣) انظر : الحلية لأبى نعيم ١٨٦/٩ - ١٨٧ .

أستاذ السائرين وعلمُ الواصلين « الإمام المحاسبى رضى الله عنه »

من مشكاة النور المحمدى تستمد أرواح العارفين ضيائها لتضيء للناس طريق الوصول إلى الله عز وجل . فبالنور تَجِنُّ القلوب إلى أوطانها وتتجذب الأرواح لخالقها وسيدها ، وبأجنحة المحبة والشوق والخوف والرجاء يحلق العارفون في سماء الحضرة الريانية حيث تهب عليهم نسائم الاصطفاء وترتوى أرواحهم من مناهل القرب والصفاء إنهم عباد الحق المكرمون وأولياؤه العارفون .

ومن نخبة العارفين وصفوة الواصلين : سيدى أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى رضى الله عنه .

عارف تربع على القمة ، وصوفى شيد دعائم مدرسة روحية تربية تربي فيها أئمة وأقطاب ضربوا أروع الأمثلة في التفانى في محبة الله تعالى وإيثار جنابه على كل ما سواه .

والإمام المحاسبى بصرى المولد والمنشأ . فلقد ولد في العقد السابع من القرن الثانى الهجرى حوالى سنة مائة وخمس وستين هجرية (١) . وأمضى عدة سنوات من باكورة صباه بالبصرة حيث نشأ وأمضى أولى خطواته على طريق العناية الريانية . ثم انتقل إلى بغداد ليواصل خطاه على درب المعرفة فيتعرف على كل الاتجاهات العلمية ليختار الإطار العلمى الذى يناسبه .

(١) انظر مقدمة الرعاية لحقوق الله تقديم الدكتور عبد الحليم محمود ص ٩ وانظر أيضا مقدمة كتاب المسائل في أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل للإمام المحاسبى بتقديم أ . عبد القادر عطا ص ٨ / و انظر : أستاذ السائرين العارث بن أسد المحاسبى للدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٩ ط / دار المعارف .

وكانت بغداد آنذاك حافلة بمختلف التيارات العلمية من ثقافات يونانية وفارسية وغيرها بالإضافة إلى علوم الإسلام الأصلية . وسرعان ما وجد المحاسبى الجو العلمى الذى يناسبه . إنه الجو الإسلامى الممثل فى هدى الكتاب والسنة ، وهو الامتداد المستقيم لنهج السلف الصالح، فعكف على دراسة علوم القرآن والحديث والفقه والكلام وغيرها ، وأخذ يتزود من محصلات جهابذة العلم وأساطين المعرفة حتى اكتملت شخصيته العلمية وارتقى إلى قمة لم ينازعه فيها منازع ، وصار إماماً فى علوم المعاملات ومضرباً للأمثال فى عمق نظرته ، وسبره لأغوار العلوم حتى لقد قال عنه التميمي : « هو إمام المسلمين فى الفقه والتصوف والحديث والكلام » (١) .

ويصرح الإمام الغزالى فى كتابه الإحياء « المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على نفسه » (٢) .

ويضيف ابن الأثير تعزيزاً لتلك الشواهد الدالة على سمو المكانة العلمية للإمام المحاسبى فيقول : « هو إمام علم الكلام وسيد المتحدثين عن الأخلاق وحجة فى أمراض القلوب » .

ومع إسهام المحاسبى فى هذه المجالات العلمية فقد كان فرداً فى عباداته ومطبّقاً لعلمه فى سلوكه الشخصى تطبيقاً يملأ النفس بالإعجاب والإكبار لهذا الإمام الحجة . ولقد شارك الإمام المحاسبى فى معركة الرأى التى كانت على أشدها بين مختلف الفرق الإسلامية، فناصر مبادئ أهل السنة وألف فى الرد على المعتزلة وغيرهم مؤلفات ترد الشبه وتدحض المفتريات الكلامية ، ولقد قال ابن الأثير ، إنه أول من تكلم فى إثبات الصفات . بالإضافة إلى ذلك فقد أسند الحديث . ويذكر الإمام السلمى صاحب طبقات الصوفية إن هذا الحديث من إسناد

(١) انظر . الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢٨٩/١ .

(٢) المصدر السابق ٢٨٩/١ .

المحاسبى: عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أثقل ما يوضع فى الميزان حسن الخلق)^(١).

ولقد أنتج الإمام المحاسبى فيضا زاخراً من الكتب والمصنفات أثرى بها المكتبة الإسلامية وأضاف بها تراثا حافلا بفداء القلب ونور العقل وامتعة الروح. وهذه المؤلفات تقدر بمائتى كتاب كما روى السبكي والمناوى^(٢). وعلى رأس هذه المؤلفات كتابه النفس : « الرعاية لحقوق الله عز وجل » وهذا الكتاب له منزلته السامية فى التراث الصوفى ، إذ يعتبر منهاجاً للسلوك ونبراساً يضىء للعبد سبيل رعايته لحقوق مولاه .

ولقد أفاد أئمة التصوف من هذا الكتاب ونسجوا على منواله حتى لقد قال الشيخ محمد زاهد الكوثرى رحمه الله أن الإمام الغزالى تبطن كتاب الرعاية فى كتاب الإحياء^(٣).

ويعزز هذا القول أن الإمام الغزالى نفسه صرح فى : « المنقذ من الضلال » بأنه قرأ كتب المحاسبى. ولم تقتصر الإشارة بالمحاسبى عن كتاب الرعاية على جمهرة العلماء المسلمين وحدهم . فهذا هو المستشرق « مسينيون » يقول عنه (إن المحاسبى سما فيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا نجد لها مثيلاً فى الآداب العالمية إلا نادراً)^(٤).

وبجانب كتاب الرعاية فهناك من التراث المحاسبى المطبوع : كتاب الوصايا وكتاب المسائل فى أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل وكتاب التوهم وهذه الكتب كنوز علمية لا نظير لها فى المكتبة الإسلامية . هذه نظرة إجمالية إلى الجانب العلمى عند الإمام المحاسبى .

(١) أخرجه الحافظ أبو نعيم فى الحلية ١١٠/١٠٠ ولفظه (ما يوضع فى الميزان أثقل من خلق حسن) كما أخرجه ابن حبان والبيهقى (انظر الفتح الكبير للبيهانى ٤١/١ ط/ العلى).

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢٨٩/١.

(٣) . (٤) انظر مقدمة الرعاية لحقوق الله عز وجل للدكتور عبد الحليم محمود ص ١٤.

ومن خلال هذه النظرة يتضح لنا مدى تفرد هذه الشخصية بمكانة لم تتسع في هذه الأمة إلا لأفراد معدودين قد هيأت لهم العناية مكان الصدارة والسمو ليتقلدوا أمانة أمة . وليست هذه الأمانة إلا وراثة الأنبياء في القيام من بعدهم بتبعية القيادة الروحية التي تصل الخلق بالخالق ، وتدلهم على أشرف غاية وهي معرفة الله والتفاني في محبته والقيام بخدمته ليكونوا ربابيين يسمعون بالله ويبصرون بالله وينطقون بالله .

إنها الصوفية التي تصفى العبد وتمحضه لمولاه.

ثم لنطرق الجانب الذي له الأهمية القصوى في دراستنا للإمام المحاسبي والذي هو محور ارتكازنا في البحث عنه ، إنه الجانب الصوفي العلمي . وأحب أن أشير إلى أن الإمام المحاسبي على كثرة الدراسات التي تناولته من مختلف الزوايا لم يعرف به صوفياً بالقدر الذي يبرز مكانته في الطريق ويبين منهجه الروحي في التربية ومشرية في الولاية .

أما فيما يتصل بناحية السلوك الصوفي عند المحاسبي : فلهل أول ما يستوقفنا هو تسميته بالمحاسبي، ويعمل الإمام المناوي إطلاق هذه التسمية عليه بأحد أمرين : أولهما - وهو المشهور عند الصوفية - هو كثرة محاسبته نفسه . والثاني هو أنه كان له حصى يمدّها ويحسبها حال الذكر .

ولمحاسبة النفس منهج علمي عند المحاسبي . فقد روى أحمد بن محمد بن مسروق قال : سئل الحارث بن تمّاحسب نفسك ؟ قال : بقيام العقل على حراسة جنابة النفس هيتمقد زيادتها من نقصها فقليل له : ومم تتولد المحاسبة ؟ فقال : من مخاوف النقص وشين البخس والرغبة في زيادة الأرباح ، والمحاسبة تورث الزيادة في البصيرة والكيس في الفطنة والسرعة إلى إثبات الحجة ، واتساع المعرفة ، وكل ذلك على قدر لزوم القلب للتفتيش . فقليل له : من أين تتخلف العقول والقلوب عن محاسبة النفوس قال : من طريق غلبة الهوى والشهوة ؛ لأن الهوى والشهوة يغلبان العقل والعلم والبيان . وسئل : ومم يتولد الصدق في ذلك ؟ قال : من المعرفة بأن

اللَّهُ يسمع ويرى ، وخوف السؤال عن مثاقيل الذر من إرسال اللفظ وخلف الوعد وتأخير الضمان . فالمعرفة أصل للصدق والصدق أصل لسائر أعمال البر^(١).

أرأيت تحليلاً نفسياً يكشف عن دقائق أحوال النفس الإنسانية وخوافيها بمثل هذه المقدرة ؟ إن علم النفس الحقيقي وكما ينبغي أن يكون لا يمكن أن يقوم إلا على أساس معرفة النفس ذاتها حتى يتأتى معرفة أمراضها وعلاجها لأن دوافع السلوك كامنة في أعماق النفس والظواهر الخارجية لا تصلح في كل حال مقياساً لما هو كامن في حقيقة مجهولة ومن ثم فإن الصوفية هم أقدر الناس على تكييف طباع النفس بل وقمعها وما ذاك إلا لوقوفهم على كنهها وحقيقتها ذوقاً وكشفاً .

ونعود إلى إلقاء الضوء على المنهج الصوفي عند المحاسبى . لقد تحدثنا عن منهج المحاسبية ومع المحاسبية يكون الورع إذ الارتباط بينهما منطقي فبالمحاسبية تتفقد مواضع الشبه وتتكشف الأمور التي يتورع عنها .

وعن الورع عند المحاسبى يقول الإمام القشيري في رسالته : (إنه - أى المحاسبى - ورث من أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئاً . قيل لأن أباه كان يقول بالقدر - أى ينكر القدر لأنه كان معتزلياً وقدرياً - فرأى من الورع أنه لا يأخذ من ميراثه شيئاً وقال : صحت الرواية عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « لا يتوارث أهل ملتين شيئاً »^(٢).

ويقول الإمام أبو على الدقاق (كان الحارث إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على إصبعه عرق فكان يمتنع عنه)^(٣) ومن كلام المحاسبى عن الورع وصلته بالطاعات هذه الفقرات المضيئة ، (أصل الطاعة الورع وأصل الورع التقوى ، وأصل التقوى محاسبة النفس ، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء ، وأصل الخوف

(١) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم : ٨٨/١٠ .

(٢) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود : ٧٢/١ والحديث أخرجه الترمذى عن سيدنا جابر ، والنسائي والحاكم عن سيدنا أسامة ، والإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن سيدنا عبدالله بن عمرو رضى الله عنهم (الفتح الكبير ٣/٣٥٢) .

(٣) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ٧٢/١ .

والرجاء معرفة الوعد والوعيد ومعرفة أصل معرفة الوعد والوعيد عظم الجزء وأصل ذلك الفكرة والعبرة (١).

إن كل هذه خطوات على طريق المحبة والمحبة هي سبب الوصول إلى غاية المأمول .

وفى المحبة يقول الحارث المحب : (إن أول المحبة الطاعة وهي منتزعة من حبه عز وجل إذ كان هو المبتدئ بها وذلك أنه عرفهم نفسه ودلهم على طاعته وتحبب إليهم على غناه عنهم فجعل المحبة له ودائع فى قلوب محبيه ثم ألبسهم النور الساطع فى أفاضلهم من شدة نور محبته فى قلوبهم فلما فعل ذلك بهم عرضهم سرورا بهم على ملائكته حتى أحبهم الذين ارتضاهم لسكنى أطباق سمواته ، نشر لهم الذكر الرفيع عن خليقته ، قبل أن يخلقهم مدحهم ، وقبل أن يحمدوه شكرهم) (٢).

وسئل يوماً : ما علامة من سقاه الله بكأس محبته ؟ فقال : (علامة أن يكون عليل الفؤاد بذكر المعاد بطيء الفتور فى جميع الأمور كثير الصيام شديد السقام عفيفا كفيفا قلبه فى العرش جوال والله مراده فى كل الأحوال) (٣).

إن العارف المحاسبى لم يتكلم عن المحبة إلا بعد أن ارتوى من دنائها حتى الثمالة، وثمالة المحبة تزيد فى العقول ولا تنقصها، وأن المحب لا تقر له عين إلا بشهود محبوبه فهو يسمع عنه ويبصر به لأنه لا حجاب بين المحب والمحبوب لذلك يقول الحارث : (مكثت ثلاثين سنة لا يسمع لسانى إلا من سرى ثم ثلاثين لا يسمع سرى إلا من ربى) (٤) .

إن لسان العارف لا يترجم إلا عن سره - وهذا معنى قوله لا يسمع لسانى ، وسره إنما يستمد من مولاه بالإلهام . إنها حياة المحبين : حضور دائم مع الله وأنس

(١) انظر الحلية لأبى نعيم : ٧٦/١٠ .

(٢) المصدر الأخير: نفس الموضع .

(٣) المصدر الأخير ٨٤/١٠ .

(٤) انظر : الكواكب الدرية للعارف المناوى ٢٩٠/١ .

به فالحب لله هو استتارة القلب للفرح بقربه من حبيبه فإذا استنار القلب بالفرح استلذ الخلوة بذكر حبيبه وهذا يكون الأنس والمنادمة.

لقد شرب سيدنا الحارث من كنوس الحب المترعة ووقف على ساحل المحيط البعيد بعد أن خاض عيابه وارتوى من صفو شرابه يدعو المتعطشين إليه ويستحثهم على الإقبال عليه فإن فيه الحياة كأحلى وأصفى ما تكون الحياة.

ولقد نال المحاسبى نصيبه مع الفريقين مع المتشرعين الواقفين على الحدود ومع المتحققين أهل الكشف والشهود، وأدلى بدلوه فى كلا البحرين؛ ولذلك عده الصوفية من أهل الاقتداء فى الظاهر والباطن ، فقال العارف أبو عبد الله بن خفيف (اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلموا لهم حالهم : الحارث بن أسد المحاسبى ، والجنيدي بن محمد ، وأبو محمد رويم ، وأبو العباس بن عطاء - وعمر بن عثمان المكي ؛ لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق)^(١).

والإمام المحاسبى هو أحد شيوخ الإمام الجنيدي سيد الطائفة الصوفية الذى تلقى الطريق عن خاله الإمام السرى السقطى ، وقد سأل السرى عمن يصحبه من العلماء غيره ، فقال الجنيدي : المحاسبى.. قال نعم : (خذ من علمه وأدبه ودع عنك تشقيقه للكلام وردة على المتكلمين)^(٢) .

ومراد أن الذى يهيك وتبتيه من مصاحبتة إنما هو إفادتك من علمه وأدبه أما ما يتعلق بعلم الكلام ومعرفة قواعد الجدل التى يستخدمها فى الرد على خصومه فليس لك فيها مأرب . وصحب الجنيدي المحاسبى وأفاد منه، ويروى الإمام أبو نعيم بسنده عن الإمام الجنيدي : أنه قال : (كنت كثيراً أقول للحارث عزلتى أنس وتخرجنى إلى وحشة رؤية الناس والطرقات ؟ فيقول لى : كم تقول لى أنس فى عزلتى ؟ لو أن نصف الخلق تقرىوا منى ما وجدت بهم أنسا ولو أن النصف الآخر نأى عنى ما استوحشت لبعدهم)^(٣).

(١) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ٧٣/١ .

(٢) انظر مقدمة (المسائل فى أعمال القلوب والجوارح) للإمام المحاسبى تحقيق وتقديم عبد القادر عطا ص ١٢ (وفيه رد على النقد المذكور هنا) .

(٣) انظر الحلية : ٧٤/١٠ وسير أعلام النبلاء للذهبي ١١١/١٢ .

ولعل من أكبر ما يشيد بفضل الإمام المحاسبي أنه اجتذب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه إلى صفوف الصوفية حتى صار يشهد لهم بالمعرفة وينظر لهم بعين الإجلال، والواقعة كما يقصها الإمام الشعراني في طبقاته : هي (أنه قيل لأحمد بن حنبل رضي الله عنه إن الحارث المحاسبي يتكلم في علوم الصوفية ويحتج لها بالآي والحديث ، فهل لك أن تسمع كلامه من حيث لا يشعر ؟ فقال : نعم فحضر معه ليلة إلى الصباح ولم ينكر من أحواله ولا من أحوال أصحابه شيئاً . قال لأنى رأيتم لما أذن بالمغرب تقدم فصلى ثم حضر الطعام فجعل يحدث أصحابه وهو يأكل وهذا من السنة فلما فرغوا من الطعام وغسلوا أيديهم جلس وجلس أصحابه بين يديه وقال : من أراد منكم أن يسأل عن شيء فليسأل فسألوه عن الرياء والإخلاص وعن مسائل كثيرة فأجاب عنها واستشهد عليه بالآي والحديث فلما مر جانب من الليل أمر الحارث قارئاً يقرأ فقروا فبكوا وصاحوا وانتحبوا ثم سكوت القارئ فدعا الحارث بدعوات خفاف ثم قام إلى الصلاة فلما أصبحوا اعترف أحمد رضي الله عنه بفضله وقال: كنت أسمع من الصوفية خلاف هذا أستغفر الله العظيم (١).

وبعد : فهذا الإمام المحاسبي بحر الشريعة والحقيقة وصاحب الفتح الرياني الأكبر عشنا مع أنواره وسبحاته القدسية نقتبس من هديه ونفترف من بحره ، أمدنا الله من بركاته في الأولى والآخرة اللهم آمين .



(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضي الله تعالى عنه ٦٤/١.

شيخ عصره بالاتفاق :-

« سيدى أبو تراب النخشبى رضى الله عنه »

فى المعية الإلهية استغرق عشاق الحضرة القدسية من خواص الرحمن، الذين سطعت فى بواطنهم أسرار القرآن ، ووصلوا إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجد ، فتفجرت ينباع الحكمة فى قلوبهم ، وفقهوا عن الله فأدركوا عز الدارين بالقرب من محبوبهم. إنهم أهل المحبة والموالة من أصفياء الحق تعالى وأوليائه المقربين ، رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

من عيون أولئك الأولياء المقربين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون إمام من أخيار العارفين المحققين وشيخ من رؤساء الصوفية المتمكنين. ذو الفتح الريانى والذوق العرفانى سيدى أبو تراب النخشبى قدس الله سره وأفاض علينا مدده وبره فى الدنيا والآخرة.

ترجم لهذا العارف جمهرة من مؤرخى التصوف بعبيد من المناقب الصوفية الباهرة التى تستهوى أفئدة الباحثين عن أمجاد الأولياء، وتجذب قلوبهم وعقولهم إلى فيضه العرفانى المذهل، وإلى رسوخه فى علوم القوم ويصره بأدواء القلب وعمله، وإسهامه الناجع فى مداواتها بحكمة ريانة نيرة تتهافت دونها شتى الدعاوى المحدثثة التى تزعم إصلاح النفس الإنسانية معتمدة على أسس نظرية لم تتمكن بعد من سبر أغوار النفس فضلاً عن الوقوف على كنهها.

ومن ثم نؤكد أن علم النفس الحقيقى قد سبق إليه الصوفية منذ عهد السلف الصالح ولم يلحقوا. وفى الحدود الضيقة لهذا المقال وداخل إطار التعرف على

أمجاد الأولياء وكشف النقاب عن حقيقة التصوف من خلال أعلامه: نحاول إبراز بعض الشواهد التي تضع أمامنا صورة عملية نستوضح من خلالها بعض ملامح علم النفس الصوفي في الإسلام.

والإمام الذي نحل ضيوقا على مآكده الروحية الآن : هو الإمام العارف سيدي أبو تراب عسكر بن حصين . أو عسكر بن محمد بن حصين على ما ذكره الإمام السلمي في طبقاته^(١).

و(نخشب) التي ينسب إليها عارفنا أبو تراب: هي بلدة وراء النهر. وقد عريت فصار يقال لها (نسف) كما ذكر العارف المناوي في طبقاته.

والإمام النخشبي هو أحد أئمة التصوف الذين نبثوا في خراسان في عصر التصوف الزاهر، في القرن الثالث الهجري حيث أرخ لوفاته بسنة ٢٤٥هـ.

وقد صحب سيدي أبو تراب أعلام القوم في عصره وشرب من رحيق معارفهم، وسلك طريقهم الموصل إلى حضرة المولى عز وجل فصار من أئمتهم المعدودين الذين يشار إليهم بالبنان في التحقق والتربية الروحية.

ولقد وصفه أكثر من مؤرخ صوفي - على مستوى الإمامة الصوفية - بأنه كان من رؤساء مشايخ الطريق في عصره ، ومن أرسخهم علما، وأكثرهم ورعا وزهدا وأصدقهم توكلا.

يقول الإمام السلمي عنه في طبقاته : (صحب أبا حاتم العطار البصري ، وحاتما الأصم البلخي ، وهو من جلة مشايخ خراسان ، والمذكورين بالعلم ، والفتوة ، والتوكل ، والزهد ، والورع)^(٢).

ويقول عنه الإمام أبو نعيم في (حلية الأولياء) كان أحد أعلام المتوكلين وإمام المتجردين تأدب بأدب حاتم الأصم وعلى الرازي المذبوح. له الرياضات

(١) انظر : طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي بتحقيق نور الدين شريعة ص ١٤٦ .

(٢) المصدر نفسه.

المشهوره والسياحات المذكورة. دخل أصبهان وسمع من عبدالله بن محمد بن زكريا، ومحمد بن عبدالله بن مصعب، وصحبه جدى محمد بن يوسف بمكة وبالحجاز مدة مديدة، وكذلك صحبه أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبى عاصم النبيل بالبادية^(٣).

أما الإمام المناوى فيقول عنه فى طبقاته : (وكان شيخ عصره بالاتفاق جامعاً بين العلم والدين والزهد والتصوف بلا شقاق، متقشفا متوكلاً، متخشعاً متبتلاً. قد أضاء فى سماء المعالى بدره، واشتهر فى الآفاق حسنه، وخدمه أكابر الصوفية وتطلعوا عليه لهمته السرية، وخضع المريدون له ودانوا، وتطامنوا لرفعته واستكانوا. له الرياضات المذكورة والسياحات المشهورة. صحب حاتماً الأصم والخواص والطبقة، وكتب الحديث الكثير وتقفه على مذهب الشافعى، وأخذ عنه أحمد بن حنبل وابن الجلاء وآخرون من الأجلاء^(١).

من خلال هذه الأقوال والآراء التى أدلى بها العارفون الثقات والمحققون الأثبات : نقف على عدة مؤشرات تشير إلى مناحى التفرد، والشموخ فى شخصية الإمام النخشبى. وأول هذه المؤشرات : صحبته لأساطين التصوف والمعرفة أمثال سيدى حاتم الأصم وشيخه سيدى شقيق البلخى وسيدى إبراهيم الخواص وأيضاً سيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين وغير أولئك جم غفير من شيوخ الطريق ورد ذكر صحبة إمامنا النخشبى لهم فى سائر كتب الطبقات والتاريخ.

وقبيل أن نتناول أثر تلك الصحبة وما أسفرت عنه من نتائج نقف عند نقطة هامة هى مؤشر آخر للتعرف على العارف النخشبى. ألا وهى الجمع بين العلم والدين والتضلع من علوم الشريعة قبل خوض بحار الحقيقة.

(١) انظر الحلية لأبى نعيم : ٤٥/١٠٠.

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٣٥٨/١ نشر المكتبة الأزهرية للتراث.

وقد أكدت هذه النقطة مرارا في سلسلة (أعلام الصوفية) درأ لمزاعم خصوم الصوفية الذين ييغون الحيلولة بين التصوف وعلم الكتاب والسنة. أو بين الثمرة والشجرة. مستندين إلى حقيقة خيلها لهم وهمهم الباطل وهى أن الصوفية قوم بمعزل عن فقه الإسلام وعن التبحر فى علومه (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) كيف وكل أئمة الإسلام ومجتهدى الشريعة الذين رهموا لواء الدين ونشروا هديه كانوا صوفية روحا وقلبا وعقلاً وجسداً.

وقد تناولت كتب طبقات الصوفية الجانب الصوفى لدى الأئمة الأربعة وغيرهم من أساطين العلم الأجلاء. ومن ناحية أخرى فإننى أتناول فى دراسة ساداتنا الصوفية الجانب العلمى الكسبى توطئة لإبراز الجانب العلمى المشيد على علم الكتاب والسنة. وهنا فى شخصية الإمام النخشبى نجد أن من أبرز جوانبها العلمية أنه محدث وفقهه. وقد ذكر الإمام السبكى فى ترجمة سيدى أبى تراب من (طبقات الشافعية) أنه : (كتب الكثير من الحديث، ونظر فى كتب الشافعى وتفقه على مذهبه)^(١) وهذا يفيد أن سيدى أبا تراب محدث مكثر.

وقد ذكر بعض مروياته فى الحديث كل من الإمام أبى نعيم فى (الحلية) والإمام السلمى فى طبقاته . إذ روى كل منهما بسنده إليه أنه روى بسنده عن جابر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : (لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن ربهم يطعمهم ويسقيهم)^(٢).

ثم يوقفنا الإمام المناوى على رسوخ الإمام أبى تراب فى الفقه إذ قال فيه : (وتفقه على مذهب الشافعى وأخذ عنه أحمد بن حنبل ، وابن الجلاء وآخرون من الأجلاء)^(٣) .

(١) انظر طبقات الشافعية للإمام السبكى بتحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطنحافى (٢/٣٠٧).

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم : ٥٠/١٠ - ٥١ وطبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ١٤٨ وفيه تخريج الحديث بالعاشية عن الترمذى وابن ماجه والحاكم والعكم بصحته.

(٣) انظر : الكواكب الدرية للمعارف المناوى ٣٥٨/١.

فقد توسط سيدى أبو تراب بين إمامين شامخين هما رأسا المذهبين الشافعى والحنبلى فأخذ عن إمامنا الشافعى مباشرة ، وأخذ عنه الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنهم أجمعين، وناهيك بتلك من منزلة سامقة فى العلم والتقفة . ومن هنا كان الأساس والمنطق إلى الجانب الصوفى العملى الذى دخله الإمام أبو تراب على علم بين بالسنة وآدابها، وبالشريع وأحكامه .

وهنا نمود للمؤثر الأول وهو الصحبة فى شخصية سيدى أبى تراب . ونجد فى مقدمة من تأثر بهم شيخنا فى تربيته الصوفية سيدى شقيقا البلخى وتلميذه فى الطريق سيدى حاتما الأصم رضى الله عنهما .

أما سيدى شقيق فيقول عنه الإمام السلمى : (وهو من مشاهير مشايخ خراسان ، وأظنه أول من تكلم فى علوم الأحوال بكور خراسان ، وهو أستاذ حاتم الأصم وصحب إبراهيم بن أدهم وأخذ عنه الطريقة)^(١) .

كان لسيدى شقيق منهج فى السلوك وأسلوب فى التربية أفاد منه العارف النخشبى . فها هو ذا يروى عنه بعض الوصايا فى الطريق . إذ يروى صاحب الحلية بسنده عنه أنه قال : (سمعت محمد بن شقيق بن إبراهيم وحاتما الأصم يقولان : كان لشقيق وصيتان : إذا جاء رجل يوصيه بالعربية ويقول : توحده الله بقلبك ولسانك وسعيك ، وأن تكون بالله أوثق مما فى يديك ، والثالث : أن ترضى عن الله ، وإذا جاءه رجل أعجمى قال له : بُنى ، احفظ منى خصالا : أول خصلة أن تحفظ الحق . ولا يكون الحق حقا إلا بإجماع . فإذا اجتمع الناس فقالوا إن هذا الحق : تعمل ذلك الحق برؤية الثواب مع الإياس من الخلق . ولا يكون الباطل باطلاً إلا بالإجماع . فإذا كنت لا تعلم هذا الشيء حق أو باطل فينبغى لك أن تقف حتى تعلم ، فإنه حرام عليك دخوله إلا أن يكون معك بيان لذلك الشيء وعلمه)^(٢) .

وثمة درس آخر حفظه الإمام أبو تراب عن شيخه حاتم عن شيخه شقيق . وفى هذا الدرس يكمن لب المعرفة وتتضح معالم الطريق الصوفى .

(١) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٦١ .

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٦٢/٨ .

يروى صاحب الحلية بسنده عن سيدى أبى تراب قال : قال حاتم عن شقيق :
 (لو أن رجلاً عاش مائتي سنة لم يعرف هذه الأربعة أشياء لم ينج من النار إن شاء
 الله . أحدها : معرفة الله ، والثانى : معرفة نفسه ، والثالث : معرفة أمر الله ونهيه ،
 والرابع : معرفة عدو الله وعدو نفسه ، وتفسير معرفة الله : أن تعرف بقلبك أن لا
 معطى غيره ولا مانع غيره ولا نافع غيره ولا ضار غيره . وأما معرفة النفس : فإن
 تعرف نفسك أنك لا تضر ولا تنفع ولا تستطيع شيئاً من الأشياء . وخلاف النفس :
 أن تكون متضرعاً إليه ، وأما معرفة أمر الله ونهيه فإن تعرف أمر الله عليك وأن
 رزقك على الله ، وأن تكون واثقاً بالرزق مخلصاً فى العمل . وعلامة الإخلاص إلا
 يكون فيك خصلتان : الطمع والثناء . وأما معرفة عدو الله : فإن تعلم أن عدواً لك
 لا يقبل الله منك شيئاً إلا بمحاربته . والمحاربة فى القلب أن يكون محارباً مجاهداً
 نافعاً للعدو) (١).

وبالسند السابق عن سيدى شقيق يقول رضى الله عنه : (أصحاب الناس كما
 تصحب النار ، خذ منفعتها وحاذر أن تحرقك) (٢) .
 وهذه العبارة تصور منهج سيدى شقيق الذى تربي عليه سيدى أبو تراب فى
 معايشة الخلق . فالخلق لهم جانبان : نافع وضار . وعلى الحكيم تحصيل النفع مع
 تجنب الضرر . وليس المراد الاستئثار بالنفع ، بل المراد تحصيل مطلق النفع الذى
 يعود أثره على النافع والمنفع .

أما الشيخ الثانى الذى أفاد سيدى أبو تراب من صحبتته فهو سيدى حاتم
 الأصم - رضى الله عنه - وقد كان امتداداً لسيدى شقيق شيخه فى الطريق . وكان
 سيدى حاتم خبيراً بخفايا النفس ودسائسها . وقد أخذ عنه سيدى أبو تراب ذلك
 التمرس على فهم أسرار النفس ومعرفة خباياها .

فقد روى الإمام أبو نعيم أن سيدى أبا تراب قال : قال حاتم الأصم : (لا
 أدرى أيهما أشد على الناس : العجب أو الرياء ؟ العجب داخل فيك والرياء

(١) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٤٦/١٠ .

(٢) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم ٤٧/١٠ .

يدخل عليك. العجب أشد عليك من الرياء . ومثلهما أن يكون لك في البيت كلب عقور، وكلب آخر خارج البيت . فأيهما أشد عليك ؟ الداخل معك أو الخارج ؟ أما الداخل فهو العجب وأما الخارج فهو الرياء .

وقال حاتم ، الحزن على وجهين : (حزن لك وحزن عليك . فأما الحزن الذي عليك فكل شيء فاتك من الآخرة فتحزن عليه فهو لك . وتمسيره : إذا كان عندك درهمان فسقط منك درهم حزنك عليه فهذا حزن الدنيا . وإذا خرجت منك زلة أو غيبة أو حسد أو شيء ، فما تحزن عليه وتندم فهو لك) (١).

إنه سبر لأغوار النفس لترويضها على السلوك القويم .

ولقد كان على سيدى أبى تراب أن يعرف أعماق النفس وهو بصدد سلوك الطريق . وكان عليه أن يقف على مناهج الشيوخ الراسخين ويفيد من علمهم وتحققهم ليدخل الطريق على نور من ربه . وكان عليه - بعد أن حصل على زاد وفير من العلوم الشرعية المكتسبة - أن يحصل على علم القلوب الذى يحتوى على علم النفس لكى يقتحم عقبات النفس ثم يأتى إلى مقام القلب ثم الروح ثم السر الذى هو محل المشاهدة . وبالفعل زواج سيدى عسكر بن حصين بين علم العقول وعلم القلوب ، وسبر النفس وخاض غمار المجاهدة، واستشعر المراقبة وسلك طريق الصفة متخذاً من مناهج شيوخه وأصحابه منارات تهديه فى الطريق الحافل بالمجاهدات والمكابدات . فقد عكف شيخنا على إصلاح قلبه فأخذ يصقل مرآته وينقى غواشيه الترابية ويصلح خواطره . وكان هذا الأمر هو شغله الشاغل فى الطريق ، وقد كان يفضل على كل عبادة . فكان يقول رضوان الله عليه - فيما رواه الإمام السلمى : - (ليس من العبادات شيء أنفع من إصلاح خواطر القلوب) (٢).

وقبل الترقى إلى مقام القلب لابد من إصلاح النفس لتخليصها من الرعونات والكدورات . ولذا فقد أخذ الإمام أبو تراب يروضها ويجاهدها بشتى ضروب

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٤٨/١٠ - ٤٩ .

(٢) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى من ١٤٩ .

المجاهدات حتى تذلت له . كان يجاهدها بالجوع الذى يطلق عليه شيخه حاتم الأصم : (الموت الأبيض) وهو ضرب من إماتة النفس الأمارة بالسوء وفى هذا المضممار يحدثنا الإمام القشيري فى رسالته قائلاً :

(وحكى ابن الجلاء قال : دخل أبو تراب مكة طيب النفس . فقلت : أين أكلت أيها الأستاذ ؟ فقال : أكلة بالبصرة وأكلة بالنجاج وأكلة ههنا) ^(١) إنهما أكلتان فحسب هما كل ما طعم الإمام أبو تراب فى رحلته من البصرة إلى مكة .

وفى نفس المضممار أيضاً يروى صاحب الرسالة القشيرية تلك الواقعة الطريفة الفكه ذات المدلول السامى فقد سمع سيدى أبو تراب يقول : (ما تمننت نفسى على شيئاً قط إلا مرة واحدة . تمننت على خبزاً وبيضاً وأنا فى سفرى فعدلت عن الطريق إلى قرية . فوثب رجل وتعلق بى وقال : - كان هذا مع اللصوص فبطحونى وضربونى سبعين خشبة ! قال فوقف علينا رجل صوفى فصرخ وقال : ويحكم هذا هو أبو تراب النخشبي ! فخلونى واعتذروا إلى . وأدخلنى الرجل منزله وقدم إلى خبزاً وبيضاً . فقلت : كلها بعد سبعين جلدة) ^(٢))

حتى المباحات كانت عند سيدى أبى تراب وهو فى مرحلة الجهاد النفسى من الأمور البعيدة المنال والتي لا تتال إلا بعقوبة إن لم تكن نفسها هى العقوبة ! لأن الطريق الذى سلكه يفرض عليه ألا يتعدى دائرة الواجبات والمندوبات إلى المباحات إلا للضرورة .

وهكذا يظل المباح عنده متحرراً طالما فيه حفظ للنفس الأمارة ، فإذا انقطع حظها وخلصت لله بالتربية عادت المباحات طامعات لخلوها من البطالات. ومع ذلك يظل المعارف متقللاً من الدنيا لإيثار جانب مولاه بالانشغال به على جانبه . والمستند المثالى لهذا السلوك الفذ هو سلوك القائد الروحى الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته الأطهار رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين . فقد تقللوا

(١) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) : ٩٨/١ .

(٢) المصدر نفسه فى ذات الموضوع .

من الدنيا ورغائبها وهى تتمرغ تحت أقدامهم لأنهم مع الله لا يتركون نفسا من أنفاسهم يخرج فى غير حضور مع الله .

ونجد الإمام أبا تراب يُيسِّطُ تكاليف المادة والجسد ما استطاع إلى ذلك سبيلا ؛ ليوثر الاهتمام بالقلب والروح . فيقول عليه الرضوان : (الفقير - أى الصوفى - قوته ما وجده ، ولباسه ما ستره ، وسكنه حيث نزل)^(١).

إن مطلب الروح له الأولوية .

ولقد أخذ أبو تراب طريق البادية يوماً فقال له على بن الحسين : لا بد من القوت . فقال : (لا بد ممن لا بد منه)^(٢) .

أى لا بد من المقيت لا من القوت . وتلك منزلة عالية فى التوكل والتجرد ، وهى خاصة بخواص الحق تعالى من أمثال سيدى أبى تراب .

فقد روى الإمام السلمى أنه كان يقول : (القناعة : أخذ القوت من الله عز وجل)^(٣) .

لقد صحت له همته وعزمته فكان انقطاعه لربه شغله الشاغل . كان يبيت الليل قائماً لربه ويصبح صائماً ويمسى متفكراً ذاكراً . وحج لله خمسا وخمسين حجة . وكانت له فى حجته الأخيرة واقعة يرويها الإمام السبكي فى (طبقات الشافعية) بسنده عن أبى تراب قال : (وقفت خمسا وخمسين وقفة ، فلما كان من قابل رأيت الناس بعرفات ما رأيت قط أكثر منهم ولا أكبر خشوعا ولا تضرعا . فأعجبني ذلك فقلت : اللهم من لم تقبل حجته من هذا الخلق فأجعل ثواب حجتي له . وأفضنا من عرفات ويتنا بجمع . فرأيت فى المنام هاتفا يهتف بى : تتسخرى علينا وأنا أسخرى الأسخياء ؟ وعزتى وجلالى ما وقف هذا الموقف أحد إلا غفرت له . فانتبهت فرحا بهذه الرؤيا فرأيت يحيى بن معاذ وقصصت عليه الرؤيا . فقال

(١) انظر : الرسالة التفسيرية - المحققة - ٩٧/١ وطبقات الصوفية للسلمى ص ١٤٩ .

(٢) ، (٣) طبقات الصوفية للسلمى : ١٤٩ ، ١٥١ .

إن صدقت رؤيتك فإنك تعيش أربعين يوماً . قال الراوى : فلما كان يوم أحد وأربعين جاءوا إلى يحيى بن معاذ ، قالوا : إن أبا تراب مات . ففسلته وكفنته (١) . هـ .

قمة العبادة وقمة الفتوة والإيثار . وليس بعجب أن نرى ذلك فى سيدى أبى تراب وقد كان مولاه هو شغله الشاغل . فقد تبطل إليه واعتزل الخلق لينفرد لله . وكان يحذر ممن يشغل الولى عن الله قائلاً : (من شغل مشغولاً بالله عن الله أدركه المقت من ساعته) (٢) نعوذ بالله من مقتته ونسأله دوام الانشغال به .

ولقد روى الإمام العارف سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه وعنا به فى طبقاته أن سيدى أبى تراب كان يقول : (رأيت رجلاً بالبادية . فقلت له : من أنت؟ فقال : أنا الخضر الموكل بالأولياء أرد قلوبهم إذا شردت عن الله عز وجل . يا أبا تراب : التلف فى أول قدم والنجاة فى آخر قدم (٣) .

لقد آتاه سيدنا الخضر رضى الله عنه وعنا به ، وهو بصدد سلوكه الطريق والانقطاع إلى الله ليقول له ، إن تلف النفس الأماراة بالمجاهدة فى أول قدم فى الطريق بينما نجاة القلب والروح والسر لا تكون إلا فى آخر قدم فى السلوك ولم يلتفت سيدى أبو تراب عن الله منذ أول قدم حتى انتهى من آخر قدم .

فقد كانت تحفه العناية وتحوطه الرعاية . فكان رضى الله عنه يقول : (بينى وبين الله عهد ألا أمد يدي إلى حرام إلا قصرت عنه يدي) (٤) .

إنها قمة التحرز والورع .

أما التوكل فقد صمد فيه الإمام النخشبى إلى الذروة وكان يقول عليه الرضوان : (شرط التوكل : طرح البدن فى العبودية وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية فإن أعطى شكر وإن منع صبر) (٥) .

(١) انظر طبقات الشافعية - المحققة - للسبكي : ٢٠٨/٢ .

(٢) انظر طبقات الشافعية - المحققة - للسبكي : ٣١٠/٢ .

(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٧١/١ .

(٤) انظر الرسالة القشيرية - المحققة - ٩٨/١ وانظر الحلية لأبى نعيم ٤٨/١٠ .

(٥) انظر طبقات الشافعية للسبكي (المحققة) ٢١٠/٢ .

ثم يشيد بقدر القناعة والتقلل من الدنيا قائلاً : (صحبت مائة شيخ ما نفعنى شيء مثل شد رأس الجراب)^(١) .

وكان سيدى أبو تراب ولوعا بذكر الصالحين وأقطاب القوم يقول الإمام المناوى (وكان يكثر ذكر أبى يزيد البسطامى ، ويقول لتلميذ حظى عنده : لو رأيته : فقال : قد أكثرت من ذكر أبى يزيد البسطامى . من يتجلى له الحق بضع مرات كل يوم ما يصنع بأبى يزيد ؟ فقال : لو رأيته لرأيت مرأى عظيماً .

فلم يزل يشوقه حتى ارتحل إليه فقبل له أنه فى الفيضة مع السباع، وكان يأوى إليها فقعد على طريقه . فعندما وقع بصر الفتى عليه خر ميتاً . فعجب أبو تراب من ثبوته لتجلى الحق دون رؤية أبى يزيد . فقال أبو يزيد : كان الحق يتجلى له كل يوم على حسب ما عنده . فلما رآنى تجلى له الحق على قدرى فلم يطلق، فلا عجب)^(٢) .

هؤلاء والله هم الرجال ، ضنائن الله فى خلقه . ولقد ارتقى الإمام النخشبى إلى مصاف الصفوة سلوكاً وعلماً وحالاً وتحققاً حتى صار إماماً فى الطريق وصاحب مدرسة صوفية يشيد بها عمل الرجال . فهذا هو الإمام ابن الجلاء الذى كان يسميه الإمام الجنيد رضى الله عنه (ربحانة الشام) يقول - فيما رواه الإمام القشيري : (صحبت ستمائة شيخ ما لقيت فيهم مثل أربعة . أولهم أبو تراب النخشبى)^(٣) ١١

كان إماماً فى الطريق وخبيراً فى علوم القوم ومقامات الرجال ومراتب الواصلين . روى الإمام السلمى أنه كان يقول : (سبب الوصول إلى الله سبع عشرة درجة أدناها الإجابة وأعلىها التوكل على الله بحقيقة)^(٤) .

(١) انظر طبقات الشافعية للسبكي (المحققة) ٢/٢١٠ .
(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/٢٥٩ ، وانظر المرجع السابق .
(٣) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ١/٩٧ .
(٤) انظر طبقات الصوفية للسلمى ص ١٤٩ .

ويروى صاحب العلية أن سيدى أبا تراب سمع يقول : (يا أيها الناس : أنتم تحبون ثلاثة وليس هي لكم . تحبون النفس وهى لله ، وتحبون الروح والروح لله ، وتحبون المال والمال للورثة ، وتطلبون الثين ولا تجدونهما : الفرح والراحة وهما فى الجنة) (١) . ولقد حدد الإمام أبو تراب ضوابط الشيخ المربى فى طريق الله تعالى هائلاً : (لأبد للأستاذ من أربعة أشياء : تمييز فعل الله عن فعل الخلق ، ومعرفة مقامات العمال - أى السالكين - ومعرفة الطبائع والنفوس ، وتمييز الخلاف من الاختلاف) (٢) . ومن أبرز كراماته كما روى المناوى أنه وجد بالبادية قائماً ميتاً لا يمسكه شيء فأراد بعض أصحابه حمله ليواريه فما أمكنه وسمع هاتفا يقول : دع لى الله مع الله بلا تكلف (٣) .

رضى الله عنه وعنا به آمين .



(١) انظر العلية لأبى نعيم . ٥٠/١٠ .

(٢) انظر العلية لأبى نعيم . ٤٧/١٠ .

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٣٦١/١ .

شيخ الديار المصرية واحد وقته « سيدى ذوالنون المصرى رضى الله عنه »

على صراط المحبة والوفاء تفجرت ينابيع النور والحكمة فى قلوب العاشقين
الأصفياء ، وبمدايع الشوق خاضوا لجج البحار حتى تراءت لهم شواطئ الحقيقة
فوصلوا إلى غاياتهم حيث تحققوا وتخلقوا وشاهدوا وتواجدوا . هنالك صبت عليهم
النفحات ونصبت لهم فوق العلا الرايات . أولئك هم أولياء الله المقربون وأحبابه
العارفون أئمة الهدى وأعلام الدين رضوان الله عليهم أجمعين .

ومن زمرة هؤلاء الصفوة الأقطاب : الإمام العارف والصوفى الواصل سيدى
أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الشهير بذى النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ رضى
الله عنه .

إمام حاز فى مقامات الرجال أشرف مراتب الوصال . وولى نفذت إشاراته
إلى أعماق السالكين لدرب الحقيقة فأضاءت دجنات نفوسهم ووضعت لهم السبيل
وصوفى شرفت مصر بأن حازت نسبته إليها فكان أول من تكلم فيها عن ترتيب
الأحوال ، وفى مقامات الأولياء فحول الرجال .

وأصله من بلاد النوبة ثم نزل أخميم فأقام بها فسمع صوت لهم ودقات .
فقال : ما هذا ؟ قيل : عرس . وسمع بجانبه بكاء وصياحا فقليل : ما هذا ؟ قيل :
مات فلان . فقال : أعطى هؤلاء فما شكروا وابتلى هؤلاء فما صبروا . لله على أن
بت بهذا البلد . وخرج إلى مصر فقطنها ^(١) .

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ٤٠٠/١ .

والمتمصفح لحياة العارفين يرى فيها دائماً مفاتيح للتحويل والارتقاء يستطيع الباحث أن يمعن النظر فيها فيخرج بمضامين ذات دلالة واضحة على نوعية هذه الشخصيات التي يدرسها ويتأملها . فكثيراً ما نرى تحول الشخصيات الصوفية إلى صميم الجو الروحي يأتي عن طريق أحداث مؤثرة لها وقع يدير دفة الحياة إلى الجانب الأسمى فتندفع الروح بكل ما فيها من قوة فطرية واصطفائية لتجد طريقها النوراني نحو الغاية العليا : نحو الله . وهنالك الفوز الأكبر .

وعن نقطة التحويل عند سيدي ذى النون : يروى صاحب الرسالة القشيرية أن سالماً المغربي جاءه فسأله : يا أبا الفيض ما كان سبب توبتك ؟

قال : عجب لا تطيقه . قال : بمعبودك إلا أخبرتكى .

فقال ذو النون : أردت عدم الخروج من مصر إلى بعض القرى فتمت فى الطريق فى بعض الصحارى ففتحت عينى فإذا أنا بقنبرة - أى نوع من العصافير - عمياء سقطت من وكرها على الأرض فانشقت الأرض فخرج منها (سكرجتان) إحداهما ذهب ، والأخرى فضة . وفى إحداهما سمس وفى الأخرى ماء . فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا . فقلت : حسبى . قد تبت . ولزمت الباب إلى أن قبلنى الله عز وجل^(١) .

ولنا هنا وقفة قصيرة إذ ربما يستبعد البعض من قصار النظر فى حق الأولياء أمراً خارقاً كهذا .

ونقول : إن الله تعالى خرق العوائد بما شاء كيف شاء . وليس ببعيد أن يظهر الله تعالى هذا الخارق ليكون سبباً فى ولاية رجل صار شأنه إلى ما سنرى فى هذه السطور .

وقبل أن نطل على الجانب الصوفى عند سيدي ذى النون يحق لنا أن نتعرف مكانته العلمية . فلقد كان سيدي ذى النون بشهادة أهل عصره وغيرهم : إماماً فى

(١) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ٥٥/١ - ٥٦ .

العلم والمعرفة . فيقول عنه مسلمة بن قاسم : (كان عالماً صالحاً زاهداً ورعاً مفتياً فى العلوم واحداً فى عصره) ^(١) . وكان سيدى ذو النون من رواة الحديث وقد ذكر الحافظ أبو نعيم فى الحلية والذهبى فى تاريخه الكبير أنه روى عن مالك والليث وابن لهيعة وفضيل بن عياض وابن عيينة ومسلم الخواص وغيرهم . كما روى عنه الحسن بن مصعب النخعى وأحمد بن صبيح الفيومى والطائى وغيرهم . ويذكر الإمام أبو عبد الرحمن السلمى فى طبقاته : أن سيدى ذا النون روى هذا الحديث بسنده عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) ^(٢) .

والى جانب إحاطة سيدى ذى النون بشتى العلوم الشرعية وتقفه فيها فقد برز إلى أهل عصره بنوع آخر من العلم لم يسطر فى كتاب ولم يرد إليه بواسطة؛ إنه العلم اللدنى الذى اختص الله به أحبائه وأصفياؤه، فتكلم سيدى ذو النون على أهل عصره فى علوم الإشارات ، والأحوال بما يبهر العقول . وأفاض عليهم من مشكاة معرفته بما يحيى موات القلوب . وفجأة أحس أدعياء العلم من متفقهة عصره بمراجل الفيرة والحسد تاكل فى قلوبهم لأنه بزهم فى ميدانهم أولاً ثم تفرد عنهم بهذا العلم الريانى فرموه بالزندقة . وكانت حيثيات التهمة الموجهة نحوه : أنه أتاهم بعلم جديد لا عهد لهم به وهو علم الحقائق . ووشوا به إلى خليفة بغداد المتوكل . فاستدعى من قبل الخليفة للمحاكمة ، وحمل مع بعض أصحابه مغلولاً مقيداً . ولما مثل بين يدى الخليفة قال له : أنت زاهد مصر ؟ قال : هكذا يقولون . فقال أحد رجال الخليفة : فإن أمير المؤمنين يحب أن يسمع من كلام الزهاد . فأطرق سيدى ذو النون ملياً ثم قال :

يا أمير المؤمنين : إن الجهل علق بنكتة أهل الفهم . يا أمير المؤمنين : إن لله

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ٤٠٠/١ .

(٢) انظر طبقات الصوفية للسلمى ص ١٧ والحديث الشريف رواه الأئمة : أحمد ، ومسلم والترمذى وابن ماجه عن سيدنا أبى هريرة رضى الله عنه ، وانظر التخرىج مفصلاً فى الفتحة الكبير للإمام النبهانى رضى الله عنه ١١٦/٢ ط/ الحلبي .

عبادا عبدوه بخالص من السر فشرَّفَهُمْ بخالص من شكره . فهم الذين تَمَرُّ صحفهم مع الملائكة فَرَّغًا حتى إذا صارت إليه ملأها من سر ما أسروا إليه . أبدانهم دنيوية وقلوبهم سماوية . قد احتوت قلوبهم من المعرفة كأنهم يعبدونه مع الملائكة بين تلك الفرج وأطباق السماوات ، لم يخبتوا فى ربيع الباطل ولم يرتعوا فى مصيف الآثام . ونزهوا الله أن يراهم يثبون على حبال مكره هيبه منهم وإجلالا له أن يراهم يبيعون أخلاقهم بشيء لا يدوم ويلذة من العيش مزهودة . فأولئك الذين أجلسهم على كراسى أطباق أهل المعرفة بالإرواء والنظر فى منابت الدواء . فجعل تلامذتهم أهل الورع والبصر ، فقال لهم : إن أتاكم عليل من فقدى فداووه أو مريض من تذكرى فادنوه أو ناس للنعمتى فذكروه أو مبارز لى بالمعاصى فتنايذوه أو محب لى فواصلوا (١) . وظل سيدى ذو النون يتكلم والدموع تنهمر من عينى الخليفة وما أن أتم سيدى ذو النون حديثه حتى امتلأ قلب الخليفة بالإجلال والتقدير لهذا الولي العارف ، فقال للملأ الذين أتوا ليشهدوا محاكمة العارف ذى النون - مشيراً إليه ولأصحابه - : (إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم (١)) (١)

ثم لقي سيدى ذو النون وصحبه أعظم التقدير والتبجيل من الخليفة . ورد إلى مصر مكرماً تاركاً وراءه فى قلب الخليفة زاداً من الحكمة وأقباساً من الضياء حتى لقد ذكر أصحاب الطبقات أن الخليفة المتوكل كان إذا ذكر بين يديه أهل الورع يبكي ويقول : (إذا ذكر أهل الورع فحيهلاً بذى النون) (٢) . أى فأسرع بذكر ذى النون فإنه أفضلهم ، وحقا ما قال فإن مكانة سيدى ذى النون بين أئمة الصوفية ، فى القمة الشامخة . وفى ترجمته الصوفية يقول عنه الإمام القشيري : (هائق فى هذا الشأن- أى التصوف - وأوحد وقته علما وورعا وحالاً وأدباً) (٣) .

ويقول معاصره الصوفى العارف أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء : (لقيت

(١) انظر : الحلية لأبى نعيم رضى الله تعالى عنه : ٣٣٧/٩ والكواكب الدرية للعارف المناوى ٤٠١/١ .

(٢) انظر الرسالة القشيرية - المصنعة - ٥٤/١ .

(٣) انظر : المصدر السابق من ذات الموضع .

ستمائة شيخ فما رأيت مثل أربعة ، ذى النون المصرى ، وأبى ، وأبى تراب ، وأبى عبيد البسرى (١) .

بل إن ترجمان الصوفية الأكبر سلطان العارفين سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه يقول عن سيدى ذى النون : (لقد غدا إماماً بل إمامنا) (٢) .

ومما يدلنا أيضاً على سمو مكانة سيدى ذى النون عند أكابر الصوفية : ما رواه العارف المناوى فى طبقاته قائلاً : (وأقام سهل - أى التستري أحد أئمة الصوفية العظام - سنين لا يسند ظهره للمحراب ولا يتكلم ، فلما كان ذات يوم بكى واستند وتكلم وبانغ فى إبراز المعانى العجيبة والإشارات الغريبة فقليل له فيه - أى سئل عن سبب سكوته أولاً ثم تكلمه ثانياً - فقال : كان ذو النون بمصر حياً فما تكلمت ولا استندت إجلالا له . والآن قد مات فقل لى تكلم فقد أذنت) (٣) .

هكذا مقامات الأقطاب وهكذا تكون آداب الأولياء ! لقد ارتضع سيدى ذو النون ندى العناية وشرب من معدن الحكمة وغاص فى بحار المعرفة فأتى بالعجب العجائب ، وتتلذذ على يديه صفوة من الأقطاب وأذعن له الخاص والعام ، وشرب صوفية عصره من معدن روحانيته ونبع معرفته ، وسرى كيف أرسى منهجه فى المعرفة ونهل من بحار المحبة حتى أفاض بحكمته المشرقة وإشاراته الوضاعة ، ولقد هيأت له العناية أن يلتقى فى سياحاته الصوفية بنماذج من شوامخ أهل الحقيقة وأقطاب الولاية وكانت له معهم أحوال ومساجلات وكرامات وإشارات سنقف على طرف منها . يقول سيدى ذو النون : (خرجت فى طلب المناجاة فإذا أنا برجل قد غاص فى بحر الوله وخرج على ساحل الكمة وهو يقول فى دعائه : أنت تعلم منى أنى لا أعلم أن الاستغفار مع الإصرار لؤم ، وأن تركى الاستغفار مع معرفتى بسعة رحمتك لعجز . إلهى : أنت الذى خصصت خصائصك بخالص الإخلاص ، وأنت الذى سلمت قلوب العارفين من اعتراض الوسواس ، وأنت آنست الأنسين من

(١) انظر : المصدر السابق ٢٢٤/١ .

(٢) انظر الكواكب الدرية للشيخ المناوى ٤٠١/١ .

أوليائك وأعطيتهم كفاية رعاية المتوكلين عليك ، تكلؤهم في مضاجعهم وتطلع على سرائرهم ، وسرى عندك مكشوف ، وأنا إليك ملهوف . قال ثم سكنت صرخته فلم أسمع له صوتاً (١) وفي واقعة أخرى - ذكرها صاحب الحلية - يقول سيدي ذو النون : (بينما أنا أسير في جبال أنطاكية وإذا بجارية كأنها مجنونة وعليها جبة من صوف فسلمت عليها فردت السلام ثم قالت : ألسنت ذا النون المصري ؟ قلت عافاك الله كيف عرفتيني ؟ قالت : فتق الحبيب بيني وبين قلبك فعرفتك باتصال معرفة حب الحبيب . ثم قالت : أسألك مسألة ؟ قلت : سألني . قالت : أى شيء السخاء ؟ قلت : البذل والعطاء . قالت : هذا السخاء في الدنيا فما السخاء في الدين ؟ قلت : المسارعة إلى طاعة المولى . قالت : فإذا سارعت إلى طاعة المولى تحب منه خيراً ؟ نعم للواحد عشرة - أى الحسنة بعشر أمثالها - قالت : مر بإبطال هذا . هذا في الدين قبيح . ولكن المسارعة إلى طاعة المولى أن يطلع إلى قلبك ، وأنت لا تريد منه شيئاً بشيء . ويحك يا ذا النون . إنى أريد أن أقسم عليه في طلب شيء منذ عشرين سنة فأستحي منه مخافة أن أكون كأجير السوء إذا عمل طلب الأجر ولكن أعمل تعظيماً لهيبته وعز جلاله . قال : ثم مرت وتركتني (٢).

وفي واقعة ثالثة رواها الإمام المناوي : قال سيدي ذو النون : (وصف لي رجل بالجبل المقطم فقصدته فمكثت عنده أربعين يوماً ثم سألته فقلت : فيم النجاة ؟ قال : في التقوى والمراقبة . قلت : زدني . قال : فر من الخلق - أى إلى الله - ولا تأنس بهم - أى دونه تعالى - قلت زدني . قال : أن لله عبادةً حالفوه فسقاهاهم كأساً من محبته . فهم في شربهم عطاش وفي عطشهم أرواء . ثم تركني (٣).

وقال سيدي ذو النون رضى الله عنه : (صحبت زنجياً في التيه . فكان إذا ذكر الله أبيض لا فورد على أمر عظيم فسألته فأنشد : -

(١) انظر حلية الأولياء لسيدي أبي نعيم الأصبهاني : ٢٣٥/٩ .

(٢) انظر حلية الأولياء لسيدي أبي نعيم الأصبهاني : ٣٤٠/٩ .

(٣) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوي ٤١٠/١ .

ذكرنا وما كنا لننسى هنذكر

ولكن نسيم القرب يبدو فيخبر

فأحيا به عنى وأحيا به له

إذ الحق عنه مخبر ومعبّر^(١)

ومن الوقائع التي صادف فيها سيدي ذو النون أصحاب الكرامات والخوارق من الأولياء ما رواه الإمام القشيري في رسالته . قال : (وقال ذو النون : كنت وقتا في السفينة فسرقت جوهرة فاتهموا بها رجلاً . فقلت : دعوه حتى أرفق به . وإذا الشاب نائم في عباءة فأخرج رأسه من العبءة - فقال له ذو النون في ذلك المعنى - فقال : إلى تقول ذلك ؟ أقسمت عليك يارب ألا تدع واحداً من الحيتان إلا جاء بجوهرة قال فرأينا وجه الماء حيتانا في أفواهها الجواهر . ثم ألقى الفتى نفسه في البحر ومروا إلى الساحل)^(٢) .

ولا ريب أن شخصية العارف ذي النون قد استوعبت كل ما لاح لها من شواهد العرفان والولاية فتحققت بكل تلك المقامات واكتملت فيها تلك الأوصاف والمراتب التي ظهرت بجلاء وصدرت عنها هذه الإشراقات الفيضية والأحوال السنية بصورة لم تعرف إلا لكمل المتحققين من الرجال .

ففي ميدان المعرفة استطاعت إشارات سيدي ذي النون أن تنفذ إلى شغاف القلوب وتجسد المعنى الحق للمعرفة اليقينية بالذات العلية . فقد سئل سيدي ذو النون : بم عرفت ربك ؟ فقال : (عرفت ربى برى ، ولولا ربى ما عرفت ربى)^(٣) . ولما كانت معرفة الله تعالى لا تنتهى بل كلما ازدادت تقضى إلى مزيد من التحير لمعظمة الذات العلية قال : (أعرف الناس بالله أشدهم فيه تحيراً)^(٤) . ثم تحدث

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المنلوى ١/٤١٠ .

(٢) انظر : الرسالة القشيرية - المحققة - ٦٨٢/٢ .

(٣) انظر : الرسالة القشيرية - المحققة - ٦٠٦/٢ .

(٤) انظر الرسالة القشيرية ٦٠٥/٢ .

عن وسائل المعرفة قائلاً : (تتال المعرفة بثلاث : بالنظر فى الأمور كيف دبرها
وفى المقادير كيف قدرها وفى الخلائق كيف خلقها)^(١) . وقد سئل العارف ذو
النون عن أول درجة يلقاها العارف فقال : التحير ثم الافتقار ثم الاتصال ثم انتهى
عقل العقلاء إلى الحيرة^(٢) . وسئل : ما أغلب الأحوال على العارف ؟ فقال : حبه
والحب فيه ، ونشر الآلاء وهى الأحوال التى لا تفارقه^(٣) .

ويصف العارف ذو النون حياة هؤلاء العارفين ومقاماتهم قائلاً : -

مجال قلوب العارفين بروضه

سماوية من دونها حجب الرب

تكنفها من عالم السرقرية

فلو قدر الأجال ذابت من الحب

وأروى صداها كأس صرف بحبه

ويرد نسيم جل عن منتهى الخطب

فيا القلوب قرئت فتقرت

لذى العرش مما زين الملك بالقرب

رضيها فأرضاه فحازت مدى الرضا

وحلت من المحبوب بالمنزل الرحب

لها من لطيف العزم عزم سرت به

وتهتك بالأفكار ما داخل الحجب

سرى سرها بين الحبيب وبينها

فأضحى مصونا عن سوى القرب فى القرب^(٤)

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٣٢٩/١ والكواكب الدرية للإمام المناوى ٤٠٤/١ .

(٢) (٣) انظر الحلية لأبى نعيم ٤٧٤/٩ .

(٤) انظر الحلية لأبى نعيم ٣٦٩/٩ .

إنها معارج المعرفة يصفها عارف ذائق ومحب عاشق فتى فى محبوبه فنطق به عنه فى حضرة القرب بما يروى ظمأ المتعطشين للجمال الأزلى والضياء القدسى. وفى مقام المحبة الإلهية دارت كأس العارف ذى النون ودار معها حديث أرق من النسيم حديث يأخذ بالألباب ويسكر العقول والأرواح . يقول سيدى ذو النون : (إن لله عبادة على الأرائك يسمعون كلام الله ، إذا كلم المحبين فى المشهد الأعلى لأنهم عبده سراً فأوصل إلى قلوبهم لطائف البر . عملوا ببعض ما علموا فلما وقفوا فى الظلام بين يديه هدى قلوبهم إلى ما يعملون . فحسرت ألبابهم لمعرفة الوقوف بين يديه)^(١) ويقول سيدى ذو النون :- (قل لمن أظهر حب الله : احذر أن تذلل لغير الله .. ومن علامات المحب فى الله : ألا يكون له حاجة إلى غير الله) .

ثم يبرز هذه السمة المميزة لطريق المحبين فيقول : (من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله - صلى الله عليه وسلم - فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه)^(٢) .

إنه قانون المحبة القرآنى الذى وصفه رب العزة جل شأنه حيث قال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله ﴾^(٣) .

ولقد تكاملت شواهد المحبة فى العارف ذى النون حيث ارتقى فيها ذروة السنام وصعد إلى قمته الشامخة وأخذ يردد أهزيجه التى صاغها من ذوب فؤاده لمحبوبه الأسمى فيخاطبه ويناجيه قائلاً : -

أموت وما ماتت إليك صبابتي

ولا قضيت من صدق حبك أوطاري

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٣٥٥/٩ .

(٢) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ٥٥/١ .

(٣) سورة آل عمران - الآية ٣١ .

منأى المنى كل المنى أنت لى منى
وأنت الفنى كل الفنى عند إقتارى
وأنت مدى سؤلى وغاية رغبتى
وموضع آمالى ومكنون إضمارى
تحمل قلبى فىك مالا أبثه
وإن طال سقى فىك أو طال إضرارى
وبين ضلوعى منك مالىك قد بدا
ولم يبد باده لأهل ولا جبار^(١)

ويرسل العارف ذو النون أناته وزفرات محبته لمحبيه الذى ملك منه الحشا
والشفاف ولم يبق فيه بقية لنفسه ، إنها المحبة الإلهية التى تثير ظلمة النفس
وتقشع حجب القلب فيبصر بنور الله إلى عز جلال الله .

ويضع سيدى ذو النون الأسس التى يقوم عليها التصوف قائلاً : (مدار
الطريق على أربع : حب الجليل ، وبغض الفانى القليل ، واتباع التزليل ، وخوف
التحويل)^(٢) .

تلك هى دعائم التصوف يبرزها سيدى ذو النون ويضعها أمام نواظر الذين
يناصبون التصوف وأهله العدا عن جهل بحقيقته أو تجاهل مبنى على عناد
وضلال .

ليعلم أولئك وغيرهم أن التصوف هو روح الدين الإسلامى بل هو قمة
الروحية الإسلامية بسموها وعظمتها . ولنستمع إلى كنوز الفتح الربانى وفيوضات
العلم اللدنى عند العارف الواصل سيدى ذى النون .

(١) انظر : الحلية لأبى نعيم ٣٩٠/٩ وبها بقية القصيدة الرائعة وكذا هى طبقات السلمى ص ٢١-٢٢ .

(٢) انظر : الكواكب الدرية للعارف المناوى ٤٠٢/١ .

يروى صاحب العلية بسنده عن محمد بن عبد الملك بن هاشم قال : (قلت لذي النون : كم الأبواب إلى الفطنة ؟ قال : أربعة أبواب . أولها الخوف ثم الرجاء ثم المحبة ثم الشوق . ولها أربعة مفاتيح : فالفرض مفتاح باب الخوف ، والنافلة : مفتاح باب الرجاء وحب العبادة والشوق مفتاح المحبة ، وذكر الله الدائم بالقلب واللسان مفتاح باب الشوق . وهي درجة الولاية . فإذا هممت بالارتقاء في هذه الدرجة فتناول مفتاح باب الخوف فإذا فتحته اتصلت إلى باب الفطنة مفتوحاً لأغلق عليه فإذا دخلته فما أظنك تطيق ما ترى فيه . حينئذ يجوز شرفك الأشراف ويعلو ملكك على الملوك . واعلم أي أخى أنه ليس بالخوف ينال الفرض ولكن بالفرض ينال الخوف ، ولا بالرجاء تنال النافلة ولكن بالنافلة ينال الرجاء . كما أنه ليس بالأبواب تنال المفاتيح ولكن بالمفاتيح تنال الأبواب . واعلم أنه من تكامل فيه الفرض فقد تكامل فيه الخوف ومن جاء بالنافلة فقد جاء بالرجاء ومن جاء بمحبة العبادة فقد وصل إلى الله ، ومن شغل قلبه ولسانه بالذكر قذف الله في قلبه نور الاشتياق إليه . وهذا سر الملكوت فاعلمه واحفظه حتى يكون الله عز وجل هو الذي يناوله من يشاء من عباده) (١) .

ويصف سيدي ذو النون أولياء الله قائلاً : (أن لله خاصة من عباده ونجباء من خلقه وصفوة من بريته صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملكوت . أولئك نجباء الله من عباده وأمناء الله في بلاده والدعاة إلى معرفته والوسيلة إلى دينه . هيهات بعدوا وفاتوا . وارتهم بطون الأرض وفجاجها . على أنه لا تخلو الأرض بعد ذلك من قائم فيها بحجة الله على خلقه . لئلا تبطل حجج الله) (٢) .

وأما عن أحوال الشيخ ذي النون وكراماته وخوارقه : فإنها لا يحدها حصر ولا وصف ، فإن الولي إذا سلك الطريق وقطع عقبات النفس وارتقى في مقامات الرجال تصير الخوارق له عادات ؛ لأنه صار ريانياً . وقد أطلعنا القرآن الكريم على

(١) انظر : العلية لأبي نعيم ٣٧٨/٩ - ٣٧٩ .

(٢) انظر : العلية لأبي نعيم ٣٤٩/٩ .

نماذج من تلك الكرامات فى قصة أهل الكهف والسيدة مريم والذى عنده علم من الكتاب . فلا نكران إذاً على الكرامات من أى مؤمن بالكتاب والسنة .

ومن كرامات سيدى ذى النون رضى الله عنه ما رواه الإمام النبهانى فى جامع الكرامات حيث حكى عن أحمد بن محمد السلمى قال : دخلت على ذى النون المصرى يوماً فرأيت بين يديه طستاً من ذهب وحوله الند والعنبر يسجر . فقال لى : أنت ممن يدخل على الملوك فى حال بسطهم . ثم أعطانى درهما فأنفقت منه إلى بلخ ^(١) . هـ . لقد تواجد لسيدى ذى النون فى حال البسط لما لم يكن له به عهد من قبل وهو الند والعنبر وطست الذهب وكل ذلك على سبيل الكرامة .

وذكر الإمام اليافعى كرامة أخرى للشيخ - من بعض ما ذكر - ، قال أبو جعفر كنت عند ذى النون المصرى فتذاكرنا طاعة الأشياء للأولياء . فقال ذو النون : من الطاعة أن أقول لهذا السرير يدور فى أربع زوايا البيت ثم يرجع مكانه فيفعل . قال فدار السرير فى أربع زوايا البيت وعاد إلى مكانه ، وهناك شاب قاعد فأخذ يبكى حتى مات فى الوقت ^(٢) ۝

ومن كراماته أيضاً : أن غلاماً من غلمانه دخل بغداد فسمع قوالاً - أى شخصاً ذا حال ينشد ويقول فصاح ووقع ميتاً . فلما دخل ذو النون بغداد سأل عن القوال وقال له : قل فقال . فصاح ذو النون فخر القوال ميتاً . فخرج سيدى ذو النون وهو يقول (النفس بالنفس) ^(٣) .

وقال بكر بن عبد الرحمن : كنت معه فى البادية فجلسنا تحت شجرة أم غيلان . فقلت : ما أطيب الموضع لو كان فيه رطب فحرك - سيدى ذو النون الشجرة فقال : أقسمت عليك بالذى ابتدأك وخلقك شجرة إلا نثرت علينا رطباً جنياً . فتساقط الرطب فأكلنا وشبعنا ثم نمت وقمت حركت الشجرة فنثرت شوكة ^(٤) ۝

(١) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى ٦٢٤/٢ ط/ الحلبي (الثانية) .

(٢) انظر جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى : ٦٢٤/١ ط/ الحلبي (الثانية) .

(٣) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ٤٠٨/١ .

(٤) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ٤٠٩/١ .

ومن كرامات سيدى ذى النون أيضاً ما رواه القطب العارف سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته أن سيدى ذا النون قال : قد جاءتني امرأة فقالت إن ابني قد أخذه التمساح . فلما رأيت حرقتها على ولدها أتيت النيل وقلت : اللهم أظهر التمساح . فخرج إلى فشقت عن جوفه فأخرجت ابنها حيا صحيحا فأخذته ومضت وقالت اجعلني فى حل فإنى كنت إذا رأيتك سخرت منك وأنا تائبة إلى الله عز وجل (١).

وهكذا يبتلى الأولياء فيصبرون ثم تظهر فتوتهم مع من أساء إليهم . ثم هكذا يتجلى صدق الولاية لله عز وجل بطاعة الأشياء لولى رب الأشياء .

وأخيراً : هكذا نرى الإمام الولى العارف سيدى ذا النون المصرى رضى الله عنه يتربع فى قمة المعرفة والسلوك والولاية ، ويضئ بمشعل الكلمة دياجى النفوس ، ويزرع فى جديب القلوب أزهار الحكمة ، ويسجل فى صفحات الخلود آيات الهداية والعرفان . رضى الله عنك يا قطب الولاية ومختار العناية يا سيدى ذا النون وأمدنا منك بفيض من العطف والبركات وجعلنا من أحبابك ورشائك فى روضات الجنات إنه نعم المجيب .

★ ★ ★

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ٣٦٦/٩.

شيخ صوفية العراق

« سيدى الإمام السرى السقطى رضى الله عنه »

على بساط الأنس والمشاهدة شرب العارفون من رحيق النور الأزلى وارتبوا من معين الوصل الإلهى فهامت أرواحهم فى سرادقات الجلال والجمال مستفرقة فى عظمة المولى عز وجل فانية فى وجوده متغمة بشهوده . إنها أرواح مختصة بالعطاء ، وقلوب سجلت لها العناية مراسيم الولاء . تلك منح وعطايا وهبها الله تعالى لأحبابه الأولياء الذين رضى عنهم ورضوا عنه . ذلك الفوز العظيم .

ومن خواص أهل الولاية والاصطفاء والعناية والاجتباء : الإمام العارف والصوفى الشامخ سيدى أبو الحسن السرى بن المغلس السقطى رضى الله عنه . أحد أئمة الصوفية العظام الذين تفجرت عيون مواردهم فى المعارف الإلهية وفاضت مناهل عرفانهم بالنفحات القدسية .

وناهيك بمن هو شيخ للإمام الجنيد سيد الطائفة الصوفية . فهو خاله وأستاذه ، وهو إمام التصوف بالعراق فى عصره ، وهو - كما قال الإمام القشيري فى رسالته : (أوجد زمانه فى الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد) ^(١) .

ويقول عنه أبو عبد الرحمن السلمى فى طبقاته : (وهو أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال وهو إمام البغداديين وشيخهم فى وقته) ^(٢) .

فالإمام السرى إذاً يعد رائد عصره فى كشف حقائق التصوف وعلومه . ثم

(١) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحلیم محمود : ٦٤/١ .
(٢) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى رضى الله تعالى عنه ص ٤٨ .

هو : إمام زمانه في أحوال القوم وأخلاقهم ومناهجهم السلوكية التي ترتقى بالعبد إلى قمة الوصول .

والعارف أبو الحسن السري بغدادى المولد كما أنه بغدادى الوفاة ، إذ توفي في سنة إحدى وخمسين ومائتين هجرية ^(١) ومقامه بالشونيزية ظاهر ، يزار وتلتبس منه البركات.

وقد منَّ الله تعالى على بزيارة ضريحه في بغداد بالعراق سنة ١٤١١هـ - سنة ١٩٩٠م حيث كنت عضواً بالمؤتمر الإسلامى ضمن وفد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وقد تلقى القطب السرى طريقته عن قطب عصره الإمام العارف سيدى معروف الكرخى - رضى الله عنه - الذى يعد شيخ التصوف بالعراق في زمنه والذى تلقى بدوره الطريق عن سليل البيت النبوى سيدى على بن موسى الرضا رضى الله عنه . وقد استمد الإمام السرى المبدد الصوفى من سيدى معروف ليسرى إليه نور هذه السلسلة المنتهية إلى بيت النبوة ثم منه إلى الإمام أبى القاسم الجنيد الملقب بسيد الطائفة الصوفية .

وعن قصة البداية في الطريق الصوفى للإمام السرى مع شيخه سيدى معروف : يروى الإمام القشيرى بسنده عن أبى العباس بن مسروق يقول : (بلغنى أن السرى السقطلى كان يتجر فى السوق - وهو من أصحاب معروف الكرخى - فجاءه معروف يوماً ومعه صبي يتيم فقال اكس هذا اليتيم . قال سرى : فكسوته ففرح به معروف وقال : « بغض الله إليك الدنيا وأراحك مما أنت فيه » فقامت من الحانوت وليس شيء أبغض إلى من الدنيا وكل ما أنا فيه من بركات معروف ^(٢) . هـ .

وعلى أثر هذا الحادث ، واستجابة لدعوة سيدى معروف توجه الإمام السرى إلى الله ، وترك تجارة الدنيا ليشرع في تجارة الآخرة . بل ليستقبل عهده مع الله

(١) انظر المصدر الأخير.

(٢) انظر الرسالة القشيرية - المحققة - ٦٤/١ .

فى محراب العبادة والمبودية . يعبدته تقرباً إليه لا طمعاً فى ثوابه ولا خوفاً من عذابه كما هو الشأن فى عبادة الأحرار .

ولقد سلك الإمام السرى طريق القوم على تعطش للعبادة والمعرفة فأقبل على الطاعات بروح تواقفة شغوفة بالتححرر من الأتية والغيرية ، دموية على الخدمة والعكوف بباب المولى حتى يؤذن لها بالدخول .

وأخبار عبادات الإمام السرى تثير العجب وتفوق الخيال : يقول الإمام الجنيد رضى الله عنه : (ما رأيت أعبد من السرى . أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رُئى مضطجعاً إلا فى علة الموت)^(١) !!

أى طراز هذا من الرجال ؟ إنه الطراز الملائكى الذى يقتات من العبادات ويتنفس بالطاعات كما قال تعالى فى حق الملائكة : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾^(٢) .

وهذا هو دأب العارف السرى . وقد كان يوصى به أصحابه ومريديه . ولقد سمعه الإمام الجنيد يقول : (إنى أعرف طريقاً يؤدى إلى الجنة قصداً . فقيل له ما هو يا أبا الحسن ؟ فقال : أن تشتغل بالعبادة وتقبل عليها حتى لا يكون لك فيها فضل)^(٣) .

لقد فسر هو بنفسه معنى قوله : (حتى لا يكون لك فيها فضل) عملياً وذلك بعبادته المتصلة ثمانية وتسعين عاماً أمضاها بين صيام وذكر وفكر حتى لقد كان يقول : (إذا فاتنى جزء من وردى لا يمكن أن أقضيه أبداً)^(٤) . وعلل لذلك الإمام الجنيد قائلاً : (لأن السرى كان متصل التفل) .

وكان رضى الله عنه يقول : (من قام بين يدى الله فى الظلام نشرت له يوم القيامة الأعلام)^(٥) .

(١) المصدر السابق / ٦٥ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨٦/١٢ .

(٢) سورة الأنبياء : ٢٠ .

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ١١٩/١٠ .

(٤) انظر الحلية لأبى نعيم ١٢٤/١٠ وانظر : سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨٧/١٢ .

(٥) انظر الكواكب السرية للإمام المناوى : ٤١٩/١ .

ولقد كان المنهج السلوكي عند العارف السري ذا جوانب متعددة عميقة الغور مترامية الأبعاد . وكانت تلك الجوانب في مجموعها تمثل حلقات متصلة بحيث تشمل كل المعاملات الظاهرة والباطنة للعبد مع الخالق ومع المخلوقين أيضاً بحيث تفضي هذه الجوانب في النهاية إلى بلوغ قمة النضج الروحي حيث تحلق الروح في سماء المعرفة والولاية .

ففي مجال جهاد النفس مثلاً : تطالعنا عند الإمام السري صفحات مضيئة يكاد سنا برقها يذهب بالأبصار . يقول رضي الله عنه : (إن نفسي تطالبني منذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة أن أغمس جزرة في دبس - أي غسل التمر وعسل النحل - فما أطعتها)^(١) ٥

إنها مجاهدة النفس في شهوة حلال من أجل قطع مآربها لكي يصفو الجو للروح فتتطلق إلى معارج الوصول .

ولقد دخل عليه الإمام الجنيد يوماً فقال له : يا جنيد : عصفور يجيء كل يوم أهت له الخبز في يدي فيأكله فنزل الساعة ولم يسقط على يدي فتذكرت أني أكلت ملحاً بأبزار فأليت ألا أكله بعدها فعاد كما كان^(٢) ٥

ولطالما تحرى الإمام السري الحلال مع شدة الورع حتى تحمل في ورعه الكثير والكثير وكان يقول دائماً : (آه على لقمة ليس لله فيها تبعمة ولا لمخلوق فيها منة)^(٣) ٥

ومن تلك الوقائع التي تجلى فيها ورع سيدي السري ما رواه الإمام الشعراني رضي الله عنه في طبقاته إذ قال : وقال علي بن الحسين بعثني أبي للسري رضي الله عنه بشيء من حب السعال لسعال كان به . فقال لي : كم ثمنه ؟ فقلت له : لم يخبرني بشيء . فقال اقرأ عليه السلام وقل له : نحن نعلم الناس منذ خمسين سنة

(١) انظر الحلية لأبي نعيم ١١٦/١٠ .

(٢) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوي ٤١٧/١ .

أن لا يأكلوا بأديانهم أفتراني اليوم أكل بديني ١٩٩ ثم رده ولم يأخذ منه شيئاً^(١) . هـ .
ويؤكد صاحب الحلية هذا المرتقى السامي عند الشيخ السري قائلًا :
(وسمعت أبا علي الحسن البزاز يقول سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن السري
بعد قدومه من الثغر فقال : أليس الشيخ الذي يعرف بطيب الفداء ؟ قلت : بلى .
قال : هو علي سيره عندنا قبل أن يخرج .

ثم يقول أبو نعيم : وقد كان السري يعرف بطيب الفداء وتصفية القوة وشدة
الورع حتى انتشر ذلك عنه ، وبلغ ذلك أبا عبد الله أحمد بن حنبل فقال : الشيخ
الذي يعرف بطيب الفداء)^(٢) .

وقد كان منهج السري في الورع منطوياً على جواهر الحكم السلوكية
الصوفية . فما هو ذا يقول : (لا يقوى على الشهوات إلا من ترك الشبهات)^(٣)
ويؤيده ما ورد في الحديث الشريف : « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه
وعرضه » وأيضاً فقد كان العارف السري يقول : (تصفية العمل من الآفات أشد
من العمل)^(٤) .

ثم إلى جانب الزهد والورع فقد كانت المراقبة في أعلى درجاتها متمثلة في
سلوك الإمام السري . والمراقبة هي إحدى مرتبتي الإحسان الوارد معناه في
الحديث الشريف إذ قال سيد الوجود صلى الله عليه وآله وسلم : « الإحسان أن
تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فالشق الأول للمشاهدة ، والثاني
للمراقبة ، والمراقبة عند العارفين لها درجات ومنازل . ولقد تربع سيدي السري في
قمة المراقبة والحضور ، يقول رضى الله عنه : (صليت وردى ليلة فمددت رجلى
في المحراب فتوديت : يا سري : كذا تجالس الملوك ، قال : فضممت رجلى ثم
قلت : وعزتك لا مددت رجلى أبداً)^(٥) .

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضى الله تعالى عنه ٦٣/١ .

(٢) (٣) انظر الحلية لأبي نعيم ١٣٦/١٠ .

(٤) انظر الحلية لأبي نعيم ١٢٢/١٠ .

(٥) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨٥/١٢ .

إنه نداء المراقبة من قبل الحضرة العلية للعارف السرى . ولقد عرف نفس النداء مع سيدى أبى يزيد البسطامى وسيدى إبراهيم بن أدهم رضى الله تعالى عنهما .

ومع المراقبة هناك التوكل والرضا . ولكل مفهومه عند العارف السرى . فهو يعرف التوكل بأنه : (الانخلاع عن الحول والقوة) ^(١) .

ثم يقول عن الرضا والورع والعبادة والشكر : (رأس الأعمال الرضا عن الله ، وعمود الدين الورع ، ومخ العبادة الجوع ، وضبط اللسان حصن حصين . ومن شكر الله جرى فى ميدان الزيادة) .

ويرى الإمام السقطى أن التجرد لله تعالى هو أقرب ما يوصل إلى الحضرة الإلهية ، فلقد سئل يوماً : كيف الطريق إلى الله ؟ فقال : (إن أردت العبادة فعليك بالصيام والقيام ، وإن أردته فاترك كل ما سواه تصل إليه) ^(٢) .

أى أن هناك طريقتين موصولين إلا أن أقربهما للوصول هو ترك السوى . ولقد ترك الإمام السرى كل ما سوى الله فوصل إلى الله . وصل إليه على جناحى المحبة والشوق . وللمحبة عند العارف السرى مقام لا يرام بالكلام ولا يسطر بالأقلام . يقول الإمام الجنيد : (سألتنى السرى يوماً عن المحبة فقلت : قال قوم هى الموافقة . وقال قوم الإيثار . وقال قوم كذا وكذا . فأخذ السرى جلدة ذراعه ومدها فلم تمتد . ثم قال : وعزته لو قلت إن هذه الجلدة ييسر على هذا العظم من محبته لصدقت . ثم غشى عليه فصار وجهه كأنه قمر مشرق . وكان السرى به أدمة - أى سمرة) ^(٣) ١ .

ومصدراً لمنطق هذه الواقعة فلقد رفع السرى إلى الإمام الجنيد يوماً رقعة وقال له : انظر ما فيها ، فتظر فإذا فيها .

(١) انظر : طبقات الصوفية للسلمى ص/ ٥٠ .

(٢) انظر : الكواكب الدرية للعلامة المناوى ٤١٩/١ .

(٣) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) : ٦٥/١ .

إذا ما شكوت الحب قالت كذبتنى فما لى أرى الأعضاء منك كواسيا
فلا حب حتى يلصق الجلد بالحشا وتذبل حتى لا تجيب المناديا (١)
ولقد جاء رجل وقال يوماً للعارف السرى : كيف أنت ؟ فأجابه قائلاً :
من لم يبت والحب حشوا فؤاده لم يدر كيف تفتت الأكباد (٢)

إنها محبة العبد لسيدته ومولاه ، هى القوت والغذاء ، وهى الخمر وهى
الكأس، وهى النعيم وهى السرور فأعجب لنعيم يفتت الأكباد ويذيب المهج ويلصق
الجلد بالحشا ويقطع المحب عن كل شئ سوى محبوبه .

ولقد ارتفع سيدى السرى بمحبته إلى درجة العشق . حتى أنه مرض يوماً ولم
ير عليه تغير . فأخذ الإمام الجنيد بوله فذهب إلى طبيب نصرانى . فتأمله وقال :
هذا بول عاشق ! فصنع الإمام الجنيد وأغمى عليه ثم أخبر شيخه السرى فقال :
قاتله الله ما أخبره ! ما كنت أظن أن الحب يظهر فى هذا ! (٣)

وما من شك فى أن غاية المحب ومناه هى الوصال .

ومن ثم فالحجاب عن المحبوب هو أشد ما يعانى به المحب من العذاب . لذلك
كان الإمام السرى يتضرع إلى ربه ويناجيه قائلاً : (اللهم مهما عذبتنى بشئ فلا
تعذبنى بذل الحجاب) (٤).

إن الأولياء ينشدون الوصال دائماً فهو مطلبهم الأسمى . ومع الوصال يكون
الأنس والرضا والهيبة والجلال . وكلها مقامات لها شأنها عند أهلها . وقصارى ما
يمكن أن نصل إليه هو المدلول النظرى عن طريق التعرف والبحث . أما الإدراك
الصوفى العملى فهو وقف على أهله الذين اصطفاهم ربهم واجتباهم . وقد أوجد
البون الشاسع بين النظر والتطبيق عقبة منيعة فى التصديق . ولكن لا يسعنا إلا
نشدان الحقيقة والتعرف عليها من أى الوجوه والزوايا .

(١) انظر طبقات الأولياء لابن الملقن : ص ١٦٣ .

(٢) انظر العلية لأبى نعيم : ١١٩/١٠ .

(٣) انظر : الكواكب الدرية للشيخ المناوى ١/٤٢٠ .

(٤) انظر العلية لأبى نعيم : ١٢٠/١٠ .

وفى مقام الأنس والهيبة يقول الإمام السرى رضى الله عنه : (يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لا يشعر)^(١) .

ويعلق الإمام الجنيد على كلام شيخه قائلاً : (وكان فى قلبى منه شيء حتى بان لى الأمر كذلك ، وذلك لأن الهيبة والأنس حالتان فوق القبض والبسط) .
والقبض والبسط : فوق الخوف والرجاء . فالهيبة مقتضاها الغيبة والدهشة . فكل هائب غائب حتى لو قطع قطعاً لم يحضر من غيبته إلا بزوال الهيبة عنه .

والأنس مقتضاها الصحو والإفاقة . ثم إنهم يتفاوتون فى الهيبة والأنس . وقيل أدنى مرتبة فى الأنس أنه لو ألقى فى النار ما تكدر أنسه . ألا ترى إلى قول السرى : (يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر) . وذلك لأن الأنس يتولد من السرور بالله ، ومن صبح له أنس بالله استوحش مما سواه .
أ . هـ .

هذه مقامات العارفين السابحين فى بحار القرب الفائزين برضا الرب ، الناعمين بالولاية الربانية والمجتبيين للمعرفة الإلهية . وللمعرفة علامات أبان منها العارف السرى إذ قال : (من علامة المعرفة بالله القيام بحقوق الله وإيثاره على النفس فيما أمكنت فيه القدرة)^(٢) .

والإيثار بصفة عامة خلق من أخلاق الكمل من الرجال . وقد نال الإمام السرى منه الغاية القصوى وهى الفتوة فى الطريق ، وحمل أثقال المسلمين وتقديم مصلحتهم على الجانب الشخصى . فلقد أثر عن سيدى السرى أنه كان يقول :
(وددت أن أحزان الخلق كلهم على)^(٣) .

إنه يريد أن يتحمل وحده عبء أحزان الخلائق شفقة منه عليهم وإيثارا لهم على نفسه . وذلك هو عين المشرب المحمدى وأنعم به من مشرب .

(١) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ١/ ١٩٩ .

(٢) انظر طبقات الصوفية للسلمى ص ٥٢ .

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم ١٠/ ١١٨ .

ومن النماذج التطبيقية لخلق الفتوة عند الشيخ السرى ما ذكره الإمام القشيري في رسالته قائلاً :

(ويحكى عن السرى أنه قال : (منذ ثلاثين سنة أنا في الاستغفار من قولي (الحمد لله) مرة . قيل : وكيف ؟ فقال : وقع ببغداد حريق فاستقبلني رجل فقال لي : نجا حانوتك . فقلت الحمد لله فمئذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت حيث أردت لنفسى خيراً مما حصل للمسلمين ^(١)) .

لله درك أيها العارف . هذه هي أخلاق الإسلام التي ارتفع بها صرحه وساد العالمين ، وبها تتحقق ذاتية المسلم الكامل الوارث لأخلاق النبوة . إن هذا السمو الأخلاقي هو وليد التربية الصوفية التي تنزع من العبد نفسه الأماراة بالسوء وتمحو منه أنانيته لكي يصفو ويسمو حيث يحلق في أجواء الحب النقي الطاهر لله الواحد الأحد . ولقد وضع أقطاب الصوفية في مناهجهم السلوكية أكمل المبادئ والأسس الأخلاقية التي ترتقى بالعبد إلى مصاف الأبرار المقربين .

يقول الإمام السرى رضوان الله عليه : (ثلاث من أخلاق الأبرار : القيام بالفرائض ، واجتناب المحارم ، وترك الغفلة . وثلاث من أخلاق الأبرار يبلغن بالعبد رضوان الله : كثرة الاستغفار ، وخفض الجناح ، وكثرة الصدقات . وثلاث من أبواب سخط الله : اللعب ، والمزاح ، والفيبة . والعاشر من هذه الثلاث : عمود الدين وذروة سنامه : حسن الظن بالله ^(٢)) .

إنها مدارج الكمال ومعاريج الاتصال يصفها العارف الولي سيدي الإمام السرى . كما يحدثنا عن عقبات الوصول ووسائل الاتصال بالله تعالى قائلاً : (انقطع من انقطع عن الله بخصلتين واتصل من اتصل بأربع خصال . فأما من انقطع عن الله بخصلتين : فيتخطى إلى نافذة بتضييع فرض . والثاني عمل بظاهر

(١) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) ٦٦/١ .

(٢) انظر الحلية لأبي نعيم ١٢٣/١٠ .

الجوارح لم يواظب عليه صدق القلوب . وأما الذي اتصل به المتصلون : فلزوم الباب، والتشمير في الخدمة ، والصبر على المكارِه ، وصيانة الكرامات (١) .

ولمعنى الصبر تحليل جميل عند العارف السرى ، إذ يقول : (معنى الصبر أن تكون مثل الأرض تحمل الجبال وبنى آدم وكل ما عليها لا تأبى ذلك . كذلك الصابر يحتمل كل ما كرهته النفوس لا يأبى ذلك ولا يسميه بلاء بل يسميه نعمة وموهبة من الله سبحانه وتعالى (٢) .

ثم لقد تعرض العارف السرى لبيان أخلاق الصديقين . فقد قال الإمام الجنيد رضى الله عنه : (دخلت يوماً على السرى فقال لى : ما أوائل أحوال الصديقين ؟ قلت : لا أدري . قال ثلاثة : أن يكونوا بما فى أيديهم مع إخوانهم سواء ، ويطالبوا نفوسهم بما للناس عليهم ، وإذا عرض أمران لله عز وجل فيهما رضا حملوا أنفسهم على أصعبهما وأشدّهما وإن كان فيه تلف نفوسهم) . ويعقد الإمام السرى مقارنة صوفية بين الأبرار والمقربين قائلاً : (قلوب المقربين معلقة بالسوابق ، وقلوب الأبرار معلقة بالخواتيم . هؤلاء يقولون : بماذا يختم لنا ، وأولئك يقولون : ماذا سبق من الله لنا) (٣) .

وأما من أخلاق الأبدال من الأولياء فيقول رضى الله عنه : (أربع من أخلاق الأبدال : استقصاء الورع ، وتصحيح الإرادة ، وسلامة الصدر للخلق ، والنصح لهم) .

تلك إشارات ولطائف رقيقة نورانية اتصف بها قوم فى الذروة العليا من الصفاء والطهر والنقاء ، وتكلم بها إمام فى المعرفة تفجرت فى قلبه ينابيع الحكمة فتحدث عن موارد القلوب . يقول الإمام الجنيد : (بعثنى السرى يوماً فى حاجة فأبطلت عليه . فلما جئت قال لى : إذا بعث بك رجل يتكلم فى موارد القلوب فى حاجة فلا تبطل عليه فإنك تشغل قلبه) (٤) إنه إمام فذ فى عصره فريد فى طرازه وقد كانت نظرة عصره إليه نظرة المأموم للإمام . فلقد روى صاحب الحلية أن

(١) انظر الحلية لأبى نعيم ١٢٠/١٠ .

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم نعيم ١٢١/١٠ .

(٣) انظر طبقات السلمى ص ٥١ .

الإمام الجنيد سمع الحسن البزاز يقول : (كان أحمد بن حنبل هاهنا وكان بشر بن الحارث هاهنا وكنا نرجو أن يحفظنا الله بهما . ثم إنهما ماتا وبقي السري وإني أرجو أن يحفظنا الله بالسري) (١) .

ولقد كان للإمام السري مع الإمام أحمد بن حنبل - في حياته - شأن جليل في أمور الحقائق . ومن ذلك ما ذكره الإمام الغزالي رضى الله عنه قائلاً : (وأرسل السري إلى أحمد بن حنبل شيئاً فردّه . فقال له : احذر آفة الرد فإنها أشد من آفة الأخذ ، فقال : أعد على ما قلت . فأعاده . فقال : ما رددت إلا لأن عيني قوت شهر . فاحبسه عندك وأرسله بعد شهر) (٢) .

لقد تلاقى علم الشريعة وعلم الحقيقة في أعلى قمّتين شامختين في العصر كله . واتفقت الكلمتان وتوحدتا وما كان لهما أن تختلفا أو تتفرقا أبداً برغم ما يقوله أهل الزور من أعداء الصوفية الذين عميت بصائرهم عن رؤية الحقيقة . ولقد أوضح الإمام السري الحقيقة بجلاء في قوله : (من ادعى باطن علم ينقضه ظاهر حكيم فهو ضالط) . ولنعم ما قاله أهل الله تعالى : (الشريعة أن تعبد ، والطريقة أن تقصده ، والحقيقة أن تشهد) ولكن ما ذنب الشمس في أن يحجب عنها أعمى أو لا يحس بها فاقده لجوهر الحياة ؟؟ ألا فليبك المحجوبون على أنفسهم بدلاً من أن يصبوا أحقادهم على المتعممين بشهود الجمال القدسي . فالذين رفعت لهم أعلام الولاية لن يضيرهم عداة أهل الظلمة والغواية .

ولننتقل إلى جانب الكرامات عند قطب الأقطاب العارف المعروف سيدي السري السقطلي : - ولن نضع في حسابنا الذين ينكرون على الأولياء كراماتهم برغم ورودها في صحيح الكتاب والسنة : - يروى صاحب الحلية بسنده عن علي ابن عبد الحميد الفضائري يقول : سمعت سرياً السقطلي ودققت عليه الباب . فقام إلى عضادتي الباب فسمعته يقول : (اللهم اشغل من شغلني عنك بك) فكان من

(١) انظر الحلية ١٠/١٢٦ .

(٢) انظر الأنوار القدسية في مناقب السادة النقشبندية للشيخ عبد المجيد الغاني والشيخ يس السنهوتي : ص ٤٣ ط / السعادة .

بركة دعائه أنى حججت أربعين سنة من حلب على رجلى ماشياً ذاهباً وجائياً (١) .
ومما ذكره الإمام النبهانى فى جامع الكرامات : قال : (وحكى أن السرى السقطلى
لما ترك التجارة كانت أخته تتفق عليه من ثمن غزلها . فأبطأت يوماً فقال لها
السرى : لم أبطأت ؟ فقالت : لأن غزلى لم يشتتر ، وذكروا أنه مخلط . فامتنع
السرى عن طعامها . ثم إن أخته دخلت عليه يوماً فرأت عجوزاً تكنس بيته وتحمل
كل يوم إليه رغيفين فحزنت أخته وشكت إلى أحمد بن حنبل . فقال أحمد بن حنبل
للسرى فيها فقال : (لما امتنعت عن أكل طعامها قيض الله لى الدنيا لتتفق على
وتخدمنى) (٢) . وقال أحمد بن خلف : دخلت يوماً على السرى فرأيت فى
غرفته كوزاً جديداً مكسوراً . فقال : أردت ماء بارداً فى كوز جديد فوضعت على
هذا الرواق ونمت . فرأيت فى منامى جارية مدنية فقالت : يا سرى : من يخطب
مثلئى يبرد الماء « ثم رمته برجلها فاستيقظت من نومى فإذا هو مطروح مكسور » .
قال الجنيد : فرأيت الخزف المكسور لم يمسسه ولم يرفعه حتى عفى عليه التراب
وعلمت أن مخالفة النفس وقمع الشهوات واللذات من دواعى الوصول وشواهد
المشاهد (٣) . ا . هـ .

ولقد فلسف العارف السرى نظرته للكرامات بقوله : (من أطاع من فوقه
أطاعه من دونه) (٤) . كما فلسف من قبل نظرته للمحبة الإلهية إذ قال : (لا تكمل
محبة بين اثنين حتى يقول كل للآخر يا أنا) (٥) .

والصوفية لا يعرفون المحبة إلا لله أو فى الله لأن قلوبهم محضه لله . إنهم
عباد إلهيون ربانيون . اجتمعت قلوبهم فى محراب الخصوصية والاصطفاء لتتال من
الله واخر العطاء .

(١) انظر الحلية ١١٧/١٠ .

(٢) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى ٨٨/٢ - ٨٩ ص العلى (الثانية) .

(٣) المصدر الأخير .

(٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى رضى الله عنه : ٤٢٠/١ .

(٥) انظر الأنوار القدسية للشيخين : الغانى والسنهوتى ص ٤٢ .

وبعد : فقد أمضينا هذه الرحلة النورانية مع قطب من أقطاب الصوفية
الأمجاد وإمام من أئمة الولاية الأفراد سيدي الإمام العارف السرى السقطى شيخ
الإمام الجنيد وإمام التصوف فى عصره . وقد اقتبسنا منه هذه النفحات المباركات
زاداً لأرواحنا ونوراً لقلوبنا علناً نقتفى الأثر ونسير على الدرب ونسلك السبيل .

رضى الله عنك يا مولانا السرى وأمدنا منك بالمدد الأعلى وشرفنا معك
بالصحبة المباركة يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسمى نورهم بين أيديهم وبأيامهم
بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم .

* * *

« الإمام يحيى بن معاذ رضى الله عنه »

فى بحار العشق الإلهى هام أهل المحبة الممتلئة قلوبهم من فيض الأنوار ،
المستمدة أرواحهم من معدن الأسرار ، السابحة أنفاسهم بالذكر والاستغفار مع
نسائم الأسحار، فهم فى أعطاف نعيم العبادة والعبودية متعممون ، وفى معارج
السلوك صاعدون وواصلون ، لا تلهيهم شواغل المحدثات عن مراقبة مبدع
الكائنات، ولا تستأثرهم قيود العادات عن التبتل فى محاريب العبادات . إنهم أهل
الصفاء والوفاء والولاء .

عبيد ولكن الملوك عبيدهم

وعبيدهم أضجى له الكون خادماً

رضى الله عنه وعنا بهم وألحقنا بركبهم مع السائرين على طريق الله
المخصوصين بولايته ورضاه فى الدنيا ويوم الدين . آمين .

من صفوة أولئك الهداة العارفين والأئمة المرين : الإمام العارف ، الناطق
بلسان الحقيقة ، والداعى إلى هدى الطريقة ، والناهل من ورد الشريعة زاد السمو
إلى الدرجات الرفيعة : سيدى أبو زكريا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازى - رضى الله
تعالى عنه وعنا به فى عليين .

هو أحد الدعاة إلى الله تعالى العاكفين على طاعته والمتفانين فى مرضاته ،
والذين رسموا للسالكين مناهج سيرهم إلى الجناب الأعلى مستلهمين الإلهام
والمعرفة. فهو بحق أحد الصوفية الراسخين والعارفين المحققين الذين أضاموا
الدنيا نورا وهداية فى القرن الثالث الهجرى.

وحين نتصفح الجانب التاريخي لهذا الإمام لا نجد عند المؤرخين عن سيرته الشخصية إلا فقرات قليلة ثم يكون التركيز والإطناب بعدها متناولاً مناحي فكره ومعرفته وإشارات الوعظية التي تأخذ طريقها إلى القلب كوميض البرق سرعة وضياء ، بيد أنها لا تخبو لتوها كالبرق الخاطف بل تسكن أعماق القلب لترويه بالنور والحكمة.

فلنتعرف على تلك الشذرات التاريخية من بعض الأقلام المترجمة لحياته . يقول الإمام أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه فى مستهل حديثه عنه فى طبقاته : (ومنهم يحيى بن معاذ جعفر الرازى الواعظ . تكلم فى علم الرجاء وأحسن الكلام فيه ، وكانوا ثلاثة إخوة : يحيى وإسماعيل وإبراهيم . أكبرهم سناً إسماعيل ويحيى أوسطهم وأصغرهم إبراهيم ، وكانوا كلهم زهاداً وإبراهيم خرج مع يحيى إلى خراسان وتوفى بين نيسابور وبلخ ، وقيل إنه مات فى بعض بلاد جوزجان - بخراسان - وخرج يحيى إلى بلخ وأقام بها مدة ثم رجع إلى نيسابور ومات بها سنة ثمان وخمسين ومائتين ..) (١).

عاش سيدى يحيى إذن فى القرن الثالث الهجرى وعلى وجه التحديد فى النصف الأول وبداية النصف الثانى منه ، ومن ثم فقد عاصر جمهرة التصوف الذين قام بهم صرح التصوف وغزا الآفاق بعد أن استوى على سوقه على يدي أقطابه وأئمته .

وكان من جملة من صحبهم سيدى يحيى وانتفع بصحبتهم وسلوكهم سيد الطائفة الصوفية الإمام الجنيد رضى الله عنه فيذكر الإمام الطوسى فى اللمع أن الإمام الجنيد رضى الله عنه كان يكاثر سيدى يحيى بن معاذ ، وذكر فقرات له من إحدى رسائله يحدثه فيها بلسان الخواص عن حقيقة التوحيد (٢).

(١) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى بتحقيق نور الدين شريعة ص ١٠٧ .

(٢) انظر : اللمع للسراج الطوسى بتحقيق د . عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ص ٢١١ .

وأيضاً فقد صحب سيدى يحيى القطب العارف سيدى أبا يزيد البسطامى
رضى الله عنه وأفاد منه فى علوم القوم . كذلك صحب أبا عثمان الحيرى أحد
أقطاب نيسابور العارفين . وغير أولئك كثير وكثير عرفهم الإمام ابن معاذ وأفاد من
صحبتهم .

وقد روى سيدى يحيى الحديث كما روى عنه . فيذكر الخطيب البغدادي عنه
أنه سمع من إسحاق بن سليمان الرازى ومكى بن إبراهيم البلخى ومحمد بن على
الطنافسى. ثم يقول الخطيب فى تاريخه : (روى عنه الغرياء من أهل الرى وهمذان
وخراسان أحاديث مستندة قليلة ، وكان قد انتقل عن الرى وسكن نيسابور إلى أن
مات بها ، وقدم بغداد واجتمع بها إليه مشايخ الصوفية ..) .

وقد روى الحافظ أبو نعيم فى الحلية عدة أحاديث من مسانيد الإمام يحيى
ابن معاذ . ومنها ما رواه بسنده عن مكحول قال : قال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم : (ما من عبد يخلص العبادة لله أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من
قلبه على لسانه) (١) .

ولقد أثرت ذكر هذا الحديث من بين مروياته لأن مدلوله ينطبق على شخصية
الإمام يحيى ويتمثل فيها أيما تمثل . فلقد كان بحق حكيم زمانه ولسان عصره فى
الزهد والخوف والرجاء والمعرفة .

كان عابداً من خيرة العباد فانطلقت عباراته وإشاراته ترجماناً لما وقر فى
قلبه من المحبة الصادقة لله والإصرار عن زيف الدنيا والإخلاص لعامة
المسلمين .

وكان طبيعياً لمن يعد نفسه لتلك القمة التى تطلع إليها الإمام يحيى أن يأخذ
من العلم زاده الأوفى كما يؤسس عليه بناء الشامخ فى ميدان الجهاد الروحى ،
وليقول كلمته فيصغى لها التاريخ وتسمعه الدنيا بأسرها .

(١) انظر : الحلية لأبى نعيم : ٧٠/١٠ .

وكان إيمانه برسالة العلم عميقاً ونيراً . وها هو ذا يجسد خطورة هذه الرسالة وأثرها العميق في وجدان الأمة قائلاً : (العلماء العاملون أراف بأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - من آبائهم وأمهاتهم) قيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : (لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا والعلماء يحفظونهم من نار الآخرة وأهوالها) (١) .

بل إن رسالة العلم عنده لا تنتهي بانتهاء الدنيا بل هي باقية في الآخرة أيضاً، إذ يقول - فيما رواه الإمام الشمراني رضي الله عنه في طبقاته : (العامة يحتاجون إلى أهل العلم في الجنة كما في الدنيا - فقليل له : كيف ؟ فقال : يقال للعامة في الجنة : تمنوا . فلا يدرون ما يقولون . فيقولون : نرجع لأهل العلم فنسألهم ! فيكون ذلك تمام مكرمة لأهل العلم) (٢) . وإذن فرسالة العلماء في الدنيا تكليف وفي الآخرة تشريف . ولكن العلماء الحقيقيين لهم عند أهل الحقيقة أوصاف وسمات بغيرها لا يقتدى بهم ولا يكونون أسوة حسنة . فالعالم مالم يعمل بعلمه أخرى به ألا يستمع إليه لأنه فشل في إقناع نفسه برسائله فكيف يقنع بها الآخرين ؟؟ فالعالم المتكالب على الدنيا ، والعالم الغافل عن ذكر الله ، والعالم المرائي : كل أولئك صور مشوهة لا تدخل في حساب رسالة العلم بحال .

وكان سيدي يحيى يقول : (لو أن رجلاً في علم ابن عباس وهو راغب في الدنيا لنهت الناس عن مجالسته ، فإنه لا ينصحك من خان نفسه) (٣) لقد كان ذلك الميزان الدقيق الذي أمسك به الإمام يحيى ليقس به صدق العلماء منطلقه وفلسفته أن إصلاح الأمة رهن إصلاح العلماء وصدقهم مع الله تعالى ، ولن يفسد حال أمة فيها علماء صالحون . وكان يحذر أصحابه من أولئك المحسوبيين - زورا - على العلم بل وعلى القرآن والتصوف فيقول : (اجتنبوا صحبة ثلاثة أصناف من الناس : العلماء الغافلون والقراء المدهنون ، والمتصوفة الجاهلون الذين يتعبدون قبل تعلمهم فروض دينهم) (٤) .

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشمراني رضي الله تعالى عنه ٦٩/١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشمراني رضي الله تعالى عنه ٧٠/١ .

(٤) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشمراني رضي الله تعالى عنه ٦٩/١ .

إنها دعوة إصلاحية كبرى تبدأ بالرعاة وتنتهى بالرعية . وقد كان البدء بتحية الأديعاء عن صفوف المخلصين الصادقين . ولقد كان الإمام يحيى ينظر بنور الله حينما ندد بالمندسين فى صفوف المتصوفة حتى لا يطعن التصوف بسببهم . وتلك قضية قديمة حديثة ؛ لأنها بدأت مع التصوف ولم تنته للآن ، وانتهزها أعداء الصوفية ليشهرُوا حراب حقدهم وعدائهم فى وجه التصوف والصوفية ، فظلم التصوف بين الأعداء والأديعاء . ولكن لم يضع حق وراء أنصاره ، فقد قدم التصوف على مر الأجيال جنوداً صادقين رفعوا لواءه ، وقدموا الحقيقة فى وضوح النهار أوضح من شمسهِ . كما نقدم صاحب هذه الترجمة آية على وجود الشمس لمن لم تسعفهم أبصارهم على رؤيتها ، ومزيداً من الضياء لأهل النور والصفاء .

ثم ماذا كان من أمر الإمام يحيى بعد أن أدرك رسالة العلم ونهل من ينابيعه الثرة حتى ارتوى ؟ هل وقف فى منتصف الطريق ليعطى الناس من ثمرات علمه وحسب ؟ كلا . فما كان ليقع فى محذور حذر منه غيره . ولكنه بدأ من منطلق العلم طريقه الطويل وخطا أولى خطوات النور على الدرب المضى .

حقاً إنه العالم المحدث المتكلم الفقيه . ولكن كل هذه المقومات وسائل . ولابد من الشروع فى المقاصد والغايات . وكان البدء بالتوبة الصادقة التى هى محور التحول إلى الله تعالى . والتوبة التى يفتسل فيها العبد من دنس الخطيئة ومن كل قاطع عن الله . ثم يتبع التوبة منازل ودرجات وأحوال ومقامات تصعد بالسالك إلى أوج السمو والاصطفاء . وعن تلك الدرجات العلى يحدثنا سيدي الإمام يحيى - فيما رواه صاحب الحلية - قائلاً : (الدرجات التى يسعى إليها أبناء الآخرة سبع : التوبة ثم الزهد ثم الرضا ثم الخوف ثم الشوق ثم المحبة ثم المعرفة ،،، فبالتوبة تطهروا من الذنوب ، وبالزهد خرجوا من الدنيا ، وبالرضا ألبسوا قراطن العبودية وبالخوف جازوا قتاطر النار وبالشوق إلى الجنة استوجبوها وبالمحبة عقلوا النعيم،

وبالمعرفة وصلوا إلى الله . وهو - أى الوصول - فى البحر السابع ، ولا يزالون فيه
أبد الأبدين فى الدنيا والآخرة (١).

وحين انغمس الإمام يحيى فى بحر التوبة استثار قلبه ، وآب إلى ربه أوبة
الصادقين المخلصين وأخذ يناجى مولاه متذللاً ومتضرعاً :

أشكو إليك ذنوباً لست أذكرها

وقد رجوتك يا ذا المن تغفرها

من قبل سؤلك لى فى الحشر يا أملى

يوم الجزاء على الأهوال تذكرها

أرجوك تغفرها فى الحشر يا أملى

إذ كنت سؤلى كما فى الأرض تسترها (٢)

وعقد الإمام أبو زكريا عزمه على الوصلة لأن فيها الحياة كل الحياة أما
القطيعة - وهى التى يعبر عنها بالفوت فيقول فيها : (الفوت أشد من الموت ؛ لأن
الفوت انقطاع عن الحق والموت انقطاع عن الخلق) (٣) ١١

وكانت الخلوة والمحراب والأنين والشكوى والحنين والمناجاة ، وتسابيح
وضراعات تصعد إلى الله فى انكسار وتذلل . يروى صاحب الحلية أنه كان يقول فى
مناجاته : (إلهى ، ذنبى إلى نفسى فأنا معناه ، وحبى لك هو لك فأنت معناه ،
والحب أعتقده لك طائعاً ، والذنب آتية كارها ، فهب كراهية ذنبى لطواعية حبى ،
إنك أرحم الراحمين) (٤).

وكان يقول : (إلهى وسيدى ومولائى ومن جميع الأشياء مغناى : ضيعت نفسى

(١) انظر : الحلية لأبى نعيم ٦٤/١٠ .

(٢) انظر . الحلية لأبى نعيم ٦٢/١٠ .

(٣) انظر : طبقات الصوفية للمسلمى ص ١١٢ .

(٤) انظر : الحلية لأبى نعيم ٥١/١٠ .

بالذنوب فردها على بالتوبة . أنت تعلم أن الكريم من عبادك يعفو عن ظلمه ، وقد ظلمت نفسك وأنت أكرم الأكرمين . فاعف عني . إلهي : أنت تعلم أن إبليس عدو لك ولي ، وليس شيء أنكى لكمدّه وأقطع لكيدّه من غفرانك لي فاعفر لي يا أرحم الراحمين (١) .

وأسلمته التوبة الصادقة إلى الزهد الصادق ، والزهد عند الصوفية - وكما أوضحت في مقالات سابقة بهذه السلسلة - ليس معناه السلبية كما يتصور البعض . اللهم إلا إذا كان سلبية مع الشيطان والهوى . وإنما هو إيجابية مع الحق تعالى وإيجابية مع الحياة بمفهومها السامي ، فالصحابة رضوان الله عليهم كانوا في قمة الزهد والتقلل حتى أن أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعنا به كان يخطب على المنبر مرتدياً ثوباً فيه اثنتا عشرة رقعة بينما كانت جيوشه تجوب المعمورة شرقاً وغرباً وخزائن الدنيا طوع بئانه . وإنما هو السمو والترفع عن متاع لا يزن بأسره عند الله جناح بعوضة ، فالزهد تفريغ القلب لله من كل شاغل عن الله . ولما كانت الدنيا تمثل هذه الشواغل حين يتمكن حبها في القلب كان الزهد فيها مطلوباً لتخليص القلب لله . ولذا يقول الإمام يحيى : (لا يزال دين المبد متمزقاً ما دام قلبه بحب الدنيا متعلقاً) (٢) وكان يقول : (إياكم والركون إلى دار الدنيا فإنها دار ممر لا دار مقر ، الزاد منها والمقيل في غيرها) (٣) ثم يفصح عن حقيقة الدنيا في روعة بيانه (الدنيا خمر الشيطان من سكر فيها لا يفيق إلا في عسكر الموتى) (٤) ثم يقول : (الدنيا لا قدر لها عند ربها وهي له . فما ينبغي أن يكون قدرها عندك وهي ليست لك) (٥) لا ويصور حتمية فناء الدنيا قائلاً : (لو سمع الخلق صوت النياحة على الدنيا في الغيب من السنة الفناء لتساقطت القلوب منهم حزناً . ولو سمع الخليفة دمدمة النار على الخليقة لتصدعت القلوب فرقاً) (٦) .

(١) انظر : اللمع للطوسي ص ٣٣١ .

(٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشمراني ٦٩/١ .

(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشمراني ٧٠/١ .

(٤) انظر : الكواكب الدرية للعارف المناوي ٤٩٨/١ .

(٥) انظر : الحلية ٥٧/١٠ .

(٦) انظر : الحلية لأبي نعيم ٥٦/١٠ .

ويعلم الإمام يحيى أن فريقاً من الناس يتوهمون أن الزهد سلبيه مع رسالة الحياة فقطع عليهم الطريق حاسماً إذ يقول : (طلب الزهد فراراً من مشقة الأعمال الشاقة بطلالة ، ولبس الصوف من غير إماتة النفس جهالة ، وترك المكاسب مع الحاجة إليها كسل ، والكسل مع وجود الاستغناء عنه كلفة ، والصبر على العزلة علامة وجود الطريق ، والتعبد مع تضييع العيال جهل) (١) ١١

هل هناك نص أحسم من هذا فيصلاً بين الزهد والبطالة من لسان صوفى يقرر الحقيقة ؟؟ فمن أين إذن يطلق على التصوف سلبيه ؟ إنه قمة الإيجابية مع الحق ومع الخلق . وفوق ما سبق يحذر الإمام أبو زكريا من احتراف الزهد لنيل مآرب الدنيا فيقول : (لا تجعل الزهد حرفتك لتكتسب بها الدنيا ولكن اجعلها عبادتك لتتال بها الآخرة) . أما سمات الزهد عنده فيجدها بقوله : (الزهد ثلاثة أشياء : القلة والخلة والجوع) (٢) أما الركن الثالث وهو الجوع فيفسره قائلاً : (الجوع نور والشبع نار ، والشهوة كالحطب يتولد منه الإحراق ولا تتطفئ ناره حتى تحرق صاحبه) ويتحقق العبد بمقام الزهد يشرف على مقام الرضا حيث الروح والريحان في سكون العبد لاختيار مولاه إنها العبودية الحققة لله ، ولا يصل العبد إلى الله إلا بتحقيق عبوديته الكاملة حين يكون راضياً بفعل سيده . يقول سيدي يحيى : (لو لم يسكنهم ببلواه لطارت بهم نعماء ، ولم يصل إليه من لم يرض بقسمه ولم يعرفه من لم يتمتع بنعمه ، ولم يحبه من لم يته في كرمه) .

وبالتأمل فيما أثر عن الإمام يحيى من أقوال يتضح جانباً الخوف والرجاء . فكل مناجياته وتضرعاته مبعثها الخوف والرجاء . وقد قدمنا نماذج لذلك بيد أننا هنا نرجع الرجاء عنده على جانب الخوف بناء على ما قيل عنه وما قاله هو . أما ما قيل عنه فقد ذكرنا في تعريف الإمام السلمى به في مستهل حديثه عنه بطبقاته أنه قال : (تكلم في علم الرجاء وأحسن الكلام فيه) (٣)

(١) انظر . الطبقات الكبرى للإمام الشعرائي رضى الله تعالى عنه ٧٠/١ .

(٢) انظر . الكواكب الدرية للإمام المناوى ٤٩٩/١ وانظر : الحلية ٥٧/١٠ .

(٣) انظر : طبقات الصوفية للسلمى ص ١٠٧ .

ويقول مولانا الإمام الشعرائي رضى الله عنه فى مفتتح ترجمته أيضاً : (له لسان فى الرجاء خصوصاً وكلام فى المعرفة) (١) ومما يدل - من كلامه هو - على غلبة مقام الرجاء عنده على مقام الخوف أنه كان يقول فى مناجاته : (كيف أمتنع بالذنوب من رجائك ولا أراك تمتنع للذنوب من عطائك ؟؟) وكان رضوان الله عليه يقول أيضاً : (يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك من الأعمال ؛ لأنى أجدنى فى الأعمال أعتمد على الإخلاص ، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف ؟؟ وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف ؟؟) (٢) .

وصعد الإمام يحيى إلى قمة الشوق والمحبة بعد جهاد نفسى عظيم هجر خلاله المألوفات واستتر ببرد الطاعات ، وعكف على صقل مرآة قلبه وتغذيته بالإمدادات . فكان يقول مخبراً عن حاله آنذاك : (أنا فى نصب المناير وتعبية المساكر والناس لا يعملون) (٣) .

وكان يقول : (علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات) (٤) وكان الإمام السرى السقطلى رضى الله عنه يقول فى الشوق : (الشوق أجل مقام للعارف إذا تحقق فيه ، وإذا تحقق فى الشوق لها عن كل شيء يشغله عمن يشتاق إليه) وكذلك كان الإمام يحيى فى شغل دائم بربه حتى وقف على حياض المحبة ينهل من كاساتها المترعة حتى الثمالة فكان رضوان الله عليه يقول :

نفس المحب إلى الحبيب تطلع

وفؤاده من حبه يتقطع

عز الحبيب إذا خلا فى ليله

بحبيبته يشكو إليه ويضرع

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرائي ٦٩/١ .

(٢) انظر الرسالة القشيرية (المعققة) ٣٢٠/١ .

(٣) انظر : الحلية لأبى نعيم ٥٢/١ .

(٤) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى ٤٩٨/١ .

ويَقُومُ فِي الْمَحْرَابِ يَشْكُو بِهِ

وَالْقَلْبُ مِنْهُ إِلَى الْمَحَبَّةِ يَنْزِعُ (١)

ولقد وجد سيدي يحيى أمامه أقطابا يستحثون همته ويقولون له لا تتوقف
فالمحيط هادر والعطاء عظيم والرجل من لا يقف في المحبة عند حد مهما وصل .
وجد أمامه سلمان العارفين سيدي أبا يزيد البسطامي غوث عصره - رضى الله
عنه يشمل طموحه في ذرى المحبة . فيروى الإمام القشيري - رضى الله عنه في
رسالته أن سيدي يحيى بن معاذ كتب إلى سيدي أبي يزيد يقول : (سكرت من كثرة
ما شربت من كأس محبته) لا فكتب إليه سيدي أبو يزيد قائلاً : (غيرك شرب
بحور السموات والأرض وما روى بعد ، ولسانه خارج ويقول هل من مزيد ٩٩) (٢) !!!
فسمت همة سيدي يحيى وصار ينهل بغير ارتواء ويردد نغمات الحب مع نسائم
الشوق قائلاً :

طرب الحب على الحب

مع الحب يـدوم

عجباً لمن رأيناه

على الحب يـلوم

حول حب الله ما عـشـ

ت مع الشـوق أحـوم

وبه أقـعد ما عـشـ

ت حـياتي وأقـوم (٣)

وكان في ابتداء أمره يحب الجنة ويترنم بحبها ، ولكنه بعد أن ذاق حب مولاه

(١) انظر : الحلية ٦١/١٠ .

(٢) انظر : الرسالة القشيرية ٢٢١/١ .

(٣) انظر : الحلية ٦١/١٠ .

استصغر كل شيء فى جانب محبته وصار يحب الجنة لا لذاتها وإنما للقاء الحبيب فيها فهي عنده وليمة الحبيب ، وهو يقول - فيما رواه الإمام الشعرانى : (كم بين من يريد حضور الوليمة للوليمة وبين من يريد حضور الوليمة ليلتقى بالحبيب فى الوليمة ^(١))).

وآية المحبة عند سيدى يحيى : حفظ حدود الله تعالى ، فإنه يقول عليه الرضوان : (ليس بصادق من ادعى حبه ولم يحفظ حده) ^(٢) ، وأن المحب الدائم التوفان والحنين إلى حبيبه لا يطيق عنه صبراً . ومن ثم يقول سيدى يحيى : (صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين واصجبا لا كيف يصبرون ٥٩) ويقول شاعر القوم :

الصبر يحمى فى المواطن كلها

إلا عليك فإنه لا يحمى ^(٣)

وحين تمكنت المحبة من قلب سيدى يحيى استحالت إلى داء عظيم هو النعيم بعينه ومن ثم قال :

أموت بداء لا يصاب دوائيا

ولا فرج مما أرى فى بلائيا

يقولون يحيى جن من بعد صحة

ولا يعلم المزال ما فى حشائيا

إذا كان داء المرء حب ملىكه

فمن غيره يرجو طبيباً مداويا

مع الله يقضى دهره متلذذا

تراه مطيماً كان أو كان عاصياً

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٧٠/١.

(٢) انظر : العلية لأبى نعيم ٦٧/١٠.

(٣) انظر : الرسالة القشيرية بتحقيق د. عبد الحليم محمود ٢٩٩/١.

ذرونى وشأنى لا تزيدون كـريتى
وخلوا عنانى نحو مولى المواليا
ألا فاهجرونى وارغبوا فى قطيـمتى
ولا تكشفوا عما يجن فـؤاديا
كلونى إلى المولى وكفـوا ملامتى
لأنس بالمولى على كل ما بيا

وارتقى الإمام يحيى إلى معراج العارفين المقربين فكان مع الله على الدوام .
وحين سئل ذات مرة عن العارف قال : (رجل كائن بائن) ^(١) أى كائن مع الله بائن
عن الخلق . ومرة أخرى قال عنه : (رجل كان فبان) أى كان مع الخلق فبان عنهم .
وقد يقال فى معنى التعبير الأول : أنه كائن مع الخلق ببذنه بائن عنهم بقلبه لأنه مع
الله تعالى على الدوام : وكان رضى الله عنه يقول : (من صفة العارف : جسم ناعم ،
وقلب هائم ، وشوق دائم ، وذكر لازم) ^(٢) .

ثم يبين عبادة العارف قائلاً : (عبادة العارف فى ثلاثة أشياء : معاشرة
الخلق بالجميل ، وإدامة الذكر للجليل ، وصحة جسم بين جنبيه قلب عليل) ^(٣) .

ويروى صاحب الحلية أنه سمع يقول : (سبحان من طيب الدنيا للعارفين
بمعرفته ، وسبحان من طيب لهم الآخرة بمعذرتة ، فتلذذوا أيام الحياة بالذكر فى
مجالس معرفته ، وغدا يتلذذون فى رياض القدس بشراب مغفرته . فلهم فى الدنيا
زرع ذكر ، ولهم فى الآخرة ربيع بر ، ساروا على المطايا من ذخره ، فإنه ملك
كريم) ^(٤) .

وكان يقول قدس سره : (أهل المعرفة وحش الله فى الأرض لا يأنسون إلى
أحد ، والزاهدون غرباء فى الدنيا ، والعارفون غرباء فى الآخرة) أى لأنهم عند

(١) انظر : اللمع للإمام الطوسى ص ٥٨ ، ١٧٦ .

(٢) ، (٣) ، (٤) انظر : الحلية لأبى نعيم ٥٧/١٠ .

مليكهم فى حجاب الأنس . ويقول رضوان الله عليه : (تضاحكت الأشياء إلى أولياء الله العارفين بأفواه القدرة عن ملكهم لما يرون من آثار صنعه فيها ويعاينون من بدائع خلقه معها ، فلهم فى كل شىء معتبر ، وعند كل شىء مدكر)^(١)

وتحدث الإمام يحيى عن أولياء الله تعالى حديث الخواص العارفين والذائقين المحققين يقول رضى الله عنه : (الولي ربحان الله تعالى فى الأرض يشمه الصديقون فتصل رائحته إلى قلوبهم فيشتاقون به إلى مولاهم ويزدادون عبادة على تفاوت أخلاقهم)^(٢) .

ويصف الأولياء العارفين قائلاً : (هم عباد تسريلوا بالأنس بالله تعالى بعد المكابدة واعتنقوا الروح بعد المجاهدة بوصولهم إلى مقام الولاية)^(٣) . ثم يبين رضوان الله تعالى عليه مهمة الأولياء ورسالتهم تجاه الخلق وهى الهداية والدلالة على الله تعالى قائلاً : (مثل الأولياء مثل الصيادين يصطادون العباد من أفواه الشياطين ، ولو لم يصد الولي طول عمره إلا واحداً لكان قد أوتى خيراً كثيراً) إنها أمانة الصفوة من جنود الله فى الأرض ، وهى أمانة قد أداها الإمام يحيى بن معاذ بنفسه خير أداء . فقد وقف على منبر الدعوة إلى الله تعالى يجذب الأرواح إلى طريق الله ، ويقودها إليه . وتلك هى رسالة العلماء العاملين والأولياء العارفين . كانت حكمته ، وعباراته منارات شامخة وجنوداً مجندة تهدى الحيارى فى دروب الحياة . ومن ثم فليس بعجب أن يقول عنه الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته : (كان أوحده وقتبه فى زمانه) ، كان ترجماناً للصوفية وواعظ عصره وأحد الأوتاد فى زمانه^(٤) ولسان الرجاء فى عصره الدال على سبيل السعادة الأبدية . فهو القائل : أوثق الرجاء رجاء المبد بربه وأصدق الظنون حسن الظن بالله .

(١) انظر : الحلية لأبى نعيم ٥٤/١٠ .

(٢) ، (٣) انظر : الرسالة القشيرية ٥٢٢/٢ - ٥٢٣ .

(٤) قال العلامة سراج الدين بن الملقن فى صدارة ترجمة سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه من كتابه (طبقات الأولياء ص ٣٢١) : (يحيى بن معاذ الرازى الواعظ أبو زكريا أحد الأوتاد ، وكان أوحده وقته فى فقه) اهـ .

ولما سئل عن وجد الصوفية وطريهم وتمايلهم حال الذكر قال :

دَقَقْنَا الْأَرْضَ بِالرَّقْصِ

عَلَى غَيْبِ مَعَانِيكَ

وَلَا عَمَّيْبِ عَلَى الرَّقْصِ

لَمَبْدِ هَائِمِ فَيَاكَ

وَهَذَا دَقَقْنَا الْأَرْضَ

إِذَا طَفَفْنَا بِوَادِيكَ (١)

رضى الله عنك يا سيدى يحيى بن معاذ فى زمرة المحبين الإلهيين و الصفة
العارفين. ورضى عنا بك فى معيتك مع الأبرار والمقربين وأمدنا منكم بمدد المحبة
والعرفان إنه نعم المجيب .

* * *

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهاني ٦١/١٠.

سلطان العارفين

« سيدى أبويزید البسطامی رضى الله عنه »

لله فى خلقه رجال اختصهم بمزيد عنايته ، وجبل قلوبهم على محبته . فهم أولياؤه وأصفياءه وهم ضنائه بين عباده ، فأرواحهم تقف بذكره ومشاعرهم تهفو إلى مناجاته ، أولئك الذين سبقت لهم منا الحسنى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

من هؤلاء الأولياء العارفين والخواص الواصلين الفوئد الأكبر والقطب الأشهر والكبريت الأحمر سيدى أبويزید البسطامى رضى الله عنه . قمة علياء من قمم التصوف الإسلامى وذروة شامخة من ذرى المعرفة والتحقيق الريانى .

رجل استغرق حب الله كل ذرة فى كيانه فهام فى حب الله عابداً زاهداً متشجعاً متحققاً سابحاً فى النور الإلهى .

لقد وزن الدنيا بالميزان الإلهى فلم تعدل عنده جناح بموضة فتركها لأهلها ومضى إلى الله فأمضى حياته على بساط العبودية مع الراكعين والساجدين ولطلاب الحقيقة كان منهلاً للواردين .

لقد تناول شخصية العارف أبويزید كثير من مؤرخى الصوفية وأصحاب الطبقات حيث كان لكل منهم جانب يتناول منه بعض ما ألمت به هذه الشخصية الفذة من عناصر النبوغ الإنسانى .

فى ترجمته الشخصية يقول عنه ابن خلكان :-

هو طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن على البسطامى الزاهد المشهور

كان جده مجوسيا فأسلم وكان له أخوان زاهدان عابدان : آدم وعلى كان أبو يزيد
أجلهم (١) ١٠ هـ.

وقال الحافظ الذهبي في ترجمته (سلطان العارفين أبو يزيد طيفور بن
عيسى بن شروسان البسطامي أحد الزهاد أخو الزاهدين آدم وعلى) (٢).

وقد ولد العارف أبو يزيد رضى الله عنه سنة مائة وثمان وثمانين ببسطام في
بلاد خراسان في محلة يقال لها محلة موبدان - باسم أجداده رضى الله عنه -
وتوفي سنة إحدى وستين ومائتين هـ. عن ثلاث وسبعين سنة (٣).

ولم يثبت محل دفنه على وجه التحديد بل اشتهرت له أضرحة كثيرة في
أماكن متفرقة . منها ضريحه ببسطام وضريحه بالزمرونية مركز كفر شكر قليوبية
وضريحه بمنيل الروضة بالقاهرة وضريحه بسديمة مركز كفر الزيات.

وقد ذكر مؤلف « النور من كلمات أبي طيفور » - نقلاً عن المشايخ - : أن
عيسى - والد سيدى أبى يزيد رحمه الله ، لما تزوج بأمه ، وزفها ، لم يباشرها
ويلامسها أربعين ليلة حتى علم أن لم يبق في جوفها أثر ما أكلته من قبل ، وتناولته
فيما غبر من الأيام التي كانت في بيت والدها ثم لما باشرها ظهر من أولاده
مثل أبى يزيد (٤).

وقد تلقى العارف أبو يزيد طريقته الصوفية عن عدة سلاسل ترتقى إلى آل
بيت النبى - صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإلى صحابته الأكرمين .

فأحد هذه الروافد عن الإمام على الرضا بن سيدى موسى الكاظم عن أبيه
وجده حتى البيت العلوى .

(١) انظر : وفیات الأعيان لابن خلكان بتحقيق د. إحسان عباس ٥٣١/٢.

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي بتحقيق شعيب الأرنؤوط وعلى أبو زيد : ٨٦/١٣ نشر مؤسسة الرسالة.

(٣) انظر : وفیات الأعيان ٥٣١/٢ ومطبقات الأولياء لابن الملقن ص ٣٩٨.

(٤) انظر : كتاب النور من كلمات أبى طيفور للسهرلى ، ضمن كتاب (شطحات الصوفية) تأليف د. عبد الرحمن بدوى ص ٦٢.

وقد أخبرني الشيخ علي إبراهيم مصطفى خادماً مقام سيدي داود بن ماخلا أن سيدي عليا الرضا هو الذي لقب سيدي أبا يزيد بطيفور ومعناه الطائر الذي لا يعلوه طائر . أما اسمه فأحمد كما وجد محفوراً على ضريحه بمنيل الروضة .

وهناك سند آخر يبتدئ به عن طريق محمد بن فارس عن حاتم الأصم عن شقيق البلخي عن إبراهيم بن أدهم عن مالك بن دينار عن أبي مسلم الخولاني عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين .

والمشهور لدى أهل الطريق أن سيدي أبا يزيد أويسى التريية (نسبة إلى سيدنا أويى القرنى سيد التابعين) الذي ربه روحانية سيدنا المصطفى - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين - بالخصوص وبشر به أصحابه ، ونعته لهم وأمر سيدنا عمر أن يسأله الاستغفار إذا اجتمع به (كما روى مسلم في صحيحه) .

ونسبة أبي يزيد إلى الأويسية مَرَدُّه أنه ربه روحانية سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه ^(١) إذ لم يلتق به ، فقد توفي قبل ولادته بنحو أربعين سنة . وهذه التربية الروحية وقف على أهل الطريق الصوفي - طريق الخواص - ولا يطالب بالإذعان لها إلا من كان من أهلها ؛ إنهم الصفوة المختارة .

وها نحن أولاء مع علم من أعلامهم نتأمل - ما وسعنا التأمل - منهجه وطريقته وأسلوبه ومكانته وأثره الذي أثمرته شخصيته .

فلنتعرف على مكانة سيدي أبي يزيد على ضوء ما كتبه عنه علماء الصوفية :-

لقد ذكره الإمام أبو عبد الرحمن السلمي صاحب طبقات الصوفية ضمن

(١) نص على ذلك السهلي في كتاب (النور في كلمات أبي طيفور) ص ٦٢ وروى في نفس الموضوع من كتابه : هن أبي عبد الله الداستاني قوله : (سمعت مشايخنا يقولون : خدم أبو يزيد رضي الله عنه ثلاثمائة وثلاثة عشر أستاذاً - أي بعدد الرميل - آخرهم جعفر الصادق رضي الله عنه - إلى أن قال - حتى قال له : إنني أرى فيك أثر جدي) . وأقول : إن هذا من قبيل التربية البرزخية السالفة الذكر ، لعدم التعاصر الزمني . ثم أقول أيضاً لقد نض الماروف الطوسي في (اللع ص ٢٢٥) والماروف الجامي في (نقعات الأنس ص ١٧٦) على أن أبا علي السندي كان أستاذاً لسيدي أبي يزيد البسطامي رضي الله تعالى عنهما .

الطبقة الأولى مع أئمة التصوف من أمثال الحارث المحاسبى وذى النون المصرى وأبى سليمان الدرانى (١) رضوان الله عليهم أجمعين .

ويترجم له المناوى فيقول : هو رضى الله عنه إمام أئمة العارفين وشيخ مشايخ الصوفية المحققين ، وناهيك بقول الخوافى (هو سلطان العارفين) (٢) .

وحسبنا فى التعرف على مقام أبى يزيد أن ترجمان الصوفية الأكبر سيدى محبى الدين بن عربى كان يسميه أبى يزيد الأكبر وذكر فى كتبه أنه كان القطب الفوئ فى زمانه حيث قال رضى الله تعالى عنه « من الأقطاب من يكون ظاهر الحكم ويحوز الخلافة الباطنة من جهة المقام : كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن عبد العزيز ، ومنهم من له الخلافة الباطنة خاصة ولا يكون له حكم فى الظاهر كأبى يزيد (٣) .

وقال العارف الهجويرى فى كشف المحجوب فى ترجمة سيدى أبى يزيد رضى الله عنه : كان من جلة المشايخ وأكبرهم مالا وأعظمهم شأنًا ، إلى حد أن قال الجنيد رحمه الله : (أبو يزيد منا بمنزلة جبريل من الملائكة) (٤) .

وهى مرتبة لا تكون فى العصر إلا لواحد هو نادرة ذلك العصر فى معرفته وتحققه .

ولقد كان كذلك سيدى أبو يزيد فهو العالم اللدن الذى يأخذ علمه عن الله تعالى إلهاما بغير واسطة . أجل إنه القائل : (ليس العالم من يحفظ من كتاب فإذا نسى ما حفظ صار جاهلاً بل من يأخذ العلم من ربه أى وقت شاء بلا حفظ ولا درس وهذا هو العالم الريانى) (٥) .

(١) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٦٧ .

(٢) انظر . الكواكب الدرية للإمام المناوى ٤٤٢/١ .

(٣) انظر : المصدر السابق ٤٤٣/١ .

(٤) انظر : كشف المحجوب للهجويرى بتحقيق د/ إسماعيل قنديل ج ١ ص ٣١٧ .

(٥) انظر : الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية للشيخين الغانى والستهولى ص ٩٩ .

والعلم الرياني هو ثمرة إيمان الطاعة والمجاهدة . وهو المشار إليه بقوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) (١) .

فأهل الله يعلمهم الله ، وعلمهم عن الله لا يداخله لبس ولا يعتريه خطأ بخلاف العلم الكسبي الذي يعتريه الجدل والخلافات ؛ لأن للعقل مدخلا إليه والمقول متفاوتة ، أما العلم الوهبي فهو نور محض وهو بمنأى عن اللبس والخلاف .

وأن أبا يزيد يقول : (أخذتم علمكم ميتا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت) (٢) .

ونمضي مع الإمام أبي يزيد في أحواله ومقاماته ومراقبته لله تعالى : - إنه يقول : قعدت ليلة في محرابي فمددت رجلي فهتف بي هاتف : من يجالس الملوك ينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب) (٣) .

إنه الأدب الرياني أدب العبيد مع سيدهم في حركاتهم وسكناتهم ومن البدهة أن هذا الصنف من الناس لا يشغله عن شأنه في العبادة والمراقبة شهوة ولا حظ دنيوي .

إن سيدي أبا يزيد يقول : (لا يعرف نفسه من سحب شهوته) (٤) ومعلوم أن من لا يعرف نفسه لا يعرف ربه ، فالحفظ الحسية والمآرب النفسية كلها قواطع عن الطريق الرياني . إن الصوفي لابد أن يكون محرراً من كل استرقاق لنفسه أو غريزي لأن ربه متمحض لله تعالى فلا سلطان عليه لغير سيده ، وهنا تكون حلوة العبودية .

ولقد كان دأب المارفي أبي يزيد هو الحفاظ المنقطع النظير عن آداب الشريعة ولا يبيح التحلل من هذه الآداب مهما كانت الدوافع والأسباب بخلاف ما شاع - افتراءً وزورا - عن طوائف الصوفية .

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

(٢) انظر : الموضوع السابق من : (الأنوار القدسية) ، والكواكب الدرية للعارف المناوي ١/٤٤٦ .

(٣) انظر : طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ص ٦٩ .

(٤) انظر : الأنوار القدسية للعلامتين الخاني والمنهوي ص ١٠١ .

إنه يقول : (لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرفع في الهواء فلا تغفروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة)^(١) .

ولقد روى عنه أنه كان يقول : « عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً أشد على من العلم ومتابعته ولولا اختلاف العلماء لتعبت واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد »^(٢) .

وفى أدب أبي يزيد مع ربه تحجير الأبواب ، لقد قال : (لم أزل ثلاثين سنة كلما أردت أن أذكر الله أتمضمض وأغسل لساني قبل أن أذكره)^(٣) .

لقد عكف أبو يزيد على تطهير نفسه وإزهاق رعونتها ثم ظل يترقى في معارج الصفاء حتى وصل إلى مقام الفناء ، ففناء النفس في الله هو شرط دخول الحضرة الإلهية ؛ لأن حضرة القدوس لا يدخلها أرياب النفوس .

ولقد قيل يوماً لسيدى أبي يزيد رضى الله عنه حدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك . فقال : دعوتها إلى الله فنكلت على فعزمت عليها أن لا أشرب الماء ولا أذوق النوم سنة فأذعنت^(٤) .

وها هو ذا مثل يصور درجة الفناء عند سيدى أبي يزيد : لقد سار رجل من أصحاب سيدى ذى النون المصرى خلف أبي يزيد فقال له : من تطلب ؟ قال : أبا يزيد . فقال : يا بنى أبو يزيد يطلب أبا يزيد من أربعين سنة لا فرجع الرجل إلى ذى النون وأخبره بما حدث فغشى عليه ، فلما أفاق قال : إن أخى أبا يزيد فقد نفسه في حب الله فصار يطلبها مع الطالبين^(٥) .

(١) انظر : الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ٨٢/١ .

(٢) انظر : الحلية لأبي نعيم الأصبهاني : ٣٦/١٠ والطبقات الكبرى للإمام الشيرازي ٦٥/١ .

(٣) انظر : الحلية لأبي نعيم الأصبهاني : ٣٥/١٠ .

(٤) انظر : الأنوار القدسية في مناقب السادة النقشبندية لسيدى عبد المجيد الغاني والشيخ يس السنهوتى ص ٩٩ .

(٥) انظر : النور في كلمات أبي طيفور للسهرلي بتحقيق د/ عبد الرحمن بدوي ص ٩٥ .

وفى مقام التوكل صعد أبو يزيد إلى القمة .

فها هو يصلى مرة خلف إمام فلما فرغ من صلاته سأله الإمام : يا أبا يزيد من أين تأكل ؟ قال : اصبر حتى أعيد صلاتى فإنك شككت فى رزق المخلوق ولا تجوز الصلاة خلف من لا يعرف الرزاق ^(١) .

إنها قمة التوكل التى لا يرتقى إليها إلا مثل أبى يزيد ولا يطالب بها إلا مثله أيضاً ، ويسقط المطالبة يجب أن تسقط المعارضة .

ويسأله رجل : دلتنى على عمل أتقرب به إلى الله ؟ قال : (أحبب أولياءه ليحبوك فإنه ينظر فى قلوبهم إلى اسمك فى قلب وليه فيغفر لك) ^(٢) هل رأيت طريقاً أقرب إلى المغفرة والوصال من ذلك ؟ إن حب الأولياء بجانب هذا فريضة على كل مسلم لأنهم أحباب الله ، وناهيك بمحبة آل بيت النبى - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - ففيها يقول أحد العارفين:

أرى حب آل البيت عندى فريضة

على رغم أهل البعد تورثنى القربا

فما اختار خير الخلق منا جزاءه

على هديه إلا المودة فى القرى

فلله دُرٌ سيدى أبى يزيد ، لقد وقف على خزائن الحكمة ينفق منها للطلالين . وهذا رجل يسأله عن الاسم الأعظم فيجيبه : ليس له حد محدود وإنما هو فراغ قلبك لوحدانيتته ، فإذا كنت كذلك فارجع إلى أى اسم شئت فإنك تصير به من المشرق إلى المغرب ^(٣) .

ويسأله رجل : بم نالوا المعرفة ؟ فيجيبه : (إنما نالوا ما نالوا بتضييع ما لهم والوقوف مع ما له تعالى) ^(٤) .

(١) انظر . الأوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية للشيخين الخانى والمنهوتى ص ٩٨ .

(٢) انظر . طبقات الأولياء لابن الملقن ص ٤٠٠ وانظر : (النور فى كلمات أبى طيفور) للسهلى ص ١١٥ .

(٣) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم ٢٩/١٠ .

(٤) انظر . طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٧١ .

نعم لقد ضيعوا حظوظ أنفسهم من ملذات هذه الحياة العاجلة وشهدوا ما لله عليهم من واجبات العبودية فأنا لهم قريه وأودعهم مكنون الأسرار وحجبهم عن الأغيار، وجعلهم من عباده الأبرار ، ألا لمثل هذا فليعمل العاملون . إن أبا يزيد داعية من دعاة الحضرة الإلهية فهو يسوق القلوب إلى الله ويفقهها عن الله .

لقد سمع رجلاً يكبر فقال له : ما معنى الله أكبر ؟ قال : الله أكبر من كل ما سواه ، فقال أبو يزيد : ليس معه شيء فيكون أكبر منه . قال : فما معناه ؟ قال معناه أكبر من أن يقاس أو يدخل تحت القياس أو تدركه الحواس ^(١) .

إن سيدي أبا يزيد الأكبر رضى الله تعالى عنه كان مراداً لله تعالى منذ الأزل، وقد سلك الطريق إليه وهو مراد وهو يظن ابتداء أنه مريد ؛ يقول رضى الله عنه (طلبت الله ثلاثين سنة فإذا أنا ظننت أنى أردته ، فإذا هو أرادنى) ^(٢) .

ولأنه مراد الحق تعالى فقد كان منذ صباه يعبد الله عبادة العارفين مكتسباً بحلى الأنوار . فلقد روى أن رجلاً من أهل الحديث قال لسيدي أبا يزيد رضى الله عنه - وهو صبي - : يا غلام : تُحَسِّنُ أن تصلى ؟ فقال : نعم إن شاء الله ، فقال له : كيف تصلى ؟ قال : أكْبَرُ بالتلبية ، وأقرأ بالترتيل ، وأركع بالتعظيم ، وأسجد بالتواضع وأُسَلِّمُ بالتودُّع .

فقال : يا غلام ، إذا كان لك هذا الفهم والفضل والمعرفة ، فلم تدع الناس يتمسحون بك ؟ قال سيدي أبو يزيد : ليس بى يتمسحون ، لكن يتمسحون بحلية حلانيها ربي ، فكيف أمنعهم من ذلك ؟ وذلك لغيري ؟ ^(٣) .

وبهذا المنطق النوراني الذى أدلى به سيدي أبو يزيد البسطامي رضى الله تعالى عنه : يُرَدُّ على منكرى التبرك والتمسح بالأولياء ، إنه ليس عبادة لغير الله ولكنه تبرك بأنوار الله التى يخلعها على وليه . وهكذا تَعَرَّفْنَا على صلاة العارف أبا

(١) انظر : الكواكب الدرية للعلامة المناوى ٤٤٩/١ .

(٢) انظر : النور فى كلمات أبى طيفور للمهلكى ضمن كتاب شطحات الصوفية للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٩٠ .

(٣) انظر : النور فى كلمات أبى طيفور للمهلكى ضمن كتاب شطحات الصوفية للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٩٩ .

يزيد منذ نعومة أظفاره ، قمة الخشوع والتعظيم لله . وكذلك نجده فى عبادة الحج ،
يحج حج العارفين بالله فيقول : (صرت مرة إلى مكة فرأيت البيت - أى الكعبة -
مفردا ، فقلت : حجى غير مقبول ، لأنى رأيت أحجاراً كثيرة من هذا الجنس .
وذهبت مرة أخرى فرأيت البيت ورب البيت ، قلت : لا حقيقة للتوحيد بعدُ .

وذهبت مرة ثالثة فرأيت الكل رب البيت ولا بيت !! فتوديت فى سرى : أن يا
أبا يزيد : إذا لم تر نفسك ورأيت العالم كله لما كنت مشركاً ، وإذا لم تر العالم كله
ورأيت نفسك كنت مشركاً ، وعندئذ تبتُّ ، وتبت أيضاً عن رؤية وجودى)^(٢) !!
ويحدثنا الإمام أبو يزيد رضى الله عنه عن بعض مقاماته وتحققاته الربانية
فيقول :-

(لم أزل أجول فى ميدان التوحيد ، حتى خرجت إلى دار التفريد ، ثم لم أزل
أجول فى دار التفريد حتى خرجت إلى الديمومية ، فشريت بكأسه شربة لا
أظمان من ذكره بعدها أبداً)^(٣) !!

لقد ارتقى سيدى أبو يزيد قدس الله سره إلى ذروة المعرفة والمحبة حيث لا
منتهى لها ولا حدود ، إذ يقول الإمام أبو نعيم فى الحلية : (كتب يحيى بن معاذ إلى
أبى يزيد : سكرت من كثرة ما شريت من كأس محبته .

فكتب أبو يزيد فى جوابه : سكرت وما شريت من الدرر غيرك شرب بحور
السموات والأرض وما روى بعد ، ولسانه مطروح من العطش وهو يقول : هل من
مزيد ؟؟ وأنشد يقول :

عجبتُ لمن يقول ذكرت ربي .: وهل أنسى فأذكر من نسيت؟

شريت الحب كأسا بعد كأس .: فما نفذ الشراب ولا رويت !!^(٤)

ويقص علينا سيدى يحيى بن معاذ رضى الله عنه بعض مشاهدات سيدى أبى

(١) ليس بالمراد بالشرك هنا شرك العقيدة المخلد فى النار وإنما هو شرك الشهود عند العارفين .

(٢) انظر : كشف المحجوب للهجویری بتحقيق د . إسماعيل قنديل ١/٣١٩ .

(٣) انظر : الحلية لأبى نعيم ١٠/٤٠ وطبقات الأولياء لابن الملقن ص ٤٠٢ .

يزيد رضى الله عنه فيقول : (رأيته فى بعض مشاهداته كالغريق ، ضارياً بذقنه على صدره ، شاخصاً بعينييه من العشاء إلى الفجر ، ثم سجد عند السحر ، فأطال سجوده ، ثم قعد فقال : - اللهم إن قوماً طلبوا منك فأعطيتهم طى الأرض ، والمشى على الماء ، وركوب الهواء ، وانقلاب الأعيان . وإنى أعوذ بك منها !!)

ثم التفت فرأى ، فقالت : يا سيدى ، حدثنى بشئ . قال : أحدثك بما يصلح لك : - أدخلنى الحق فى الفلك الأسفل ، فدورنى فى الملكوت الأسفل ، فأرانيه ، ثم أدخلنى فى الفلك العلوى ، وطوّف بى السموات ، فأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ، ثم أوقفنى بين يديه ، فقال : سلنى أى شئ رأيته حتى أهبه لك !!)

قلت : ما رأيته شيئاً حسناً ^(١) فأسألك إياه ، فقال : أنت عبدى حقاً تعبدنى لأجلى صدقاً ، لأفعلن بك .. وأفعلن ... وذكر أشياء .

قال ابن معاذ : فهأنى ذلك ، وقلت : لمّ لمّ تسأله المعرفة ٩٩ - أى معرفة كنه الذات - قال : غرّبت عليه منى ، لا أحب أن يعرفه سواه ^(٢) (١١)

أرأيت هذا المرتقى السامى فى المعرفة والأدب مع الله تبارك وتعالى ٩٩

ومما هو متصل بالتحقق العرفانى اليزيدى أيضاً ما رواه صاحب (النور فى كلمات أبى طيفور) قائلاً : (يُحكى عن أبى يزيد أنه قال : غصت فى بحار المعارف حتى بلغت بحر محمد صلى الله عليه وسلم ، فرأيت بينى وبينه ألف مقام . لو اقتربت من واحد منها لاحتترقت) ^(٣) .

ولقد وقف الإمام أبو يزيد قدس الله سره على مقامات الأولياء جميعاً وحددها تحديد العارف المتحقق فقال عليه رضوان الله تعالى :-

« المقام مائة وأربعة وعشرون ألفاً - يعنى فى طريق الله تعالى - فى كل مقام نور لا يشبه بعضه بعضاً ، فمن ادّعى بمقام من تلك المقامات : أسأله عن صفة نور

(١) المقصود أنه لم يستحسّن شيئاً بجانب حُسن الحق تبارك وتعالى ، لاستغراقه فيه .

(٢) انظر : الأنوار القدسية للشيخ الخافى والشيخ يس السنهوتى ص ١٠٧ نقلاً عن الإحياء .

(٣) انظر : النور فى كلمات أبى طيفور للسهلكى ضمن (شطحات الصوفية) ص ٨٦ .

ذلك المقام - يعنى حتى يتبين صدق دعواه فى مبناء هذا - وإنى قد حددت لك حدًا ، وعددت لك عدًا ، فاجدد فى ذلك جهدًا وجدًا « (١) .

وهكذا يكشف لنا سلطان العارفين سيدى أبو يزيد رضى الله تعالى عنه مقامات الأولياء التى هى بعدد جميع الأنبياء ، مع تمييز كل مقام منها بنوره الخاص به الذى يكشف به كبار الأولياء كسيدى أبى يزيد .

إنه العارف الكبير الذى لا يرضى بحبه بديلاً حتى ولو كانت الجنان بأسرها ، فهو القائل مخبراً عن نفسه : (إن لله خواصاً من عباده لو حجبهم فى الجنة عن رؤيته لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار) (٢) . (رضى الله عنك يا سيدى أبا اليزيد ورضى عنا بك وحشرنا فى معيتك يوم يحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) .

* * *

(١) انظر : المصدر السابق : ص ٨٢ .

(٢) انظر : العلية لأبى نعيم : ٣٤ / ١٠ .

قمر الصوفية

« سيدى أبو سعيد الخراز رضى الله عنه »

اجتنبى المولى عز وجل أناساً من عباده ألقى عليهم من نور ذاته فاستخلص
أرواحهم لقريه ومحبتة ، وصفى سرائرهم لنجواه وطاعته .

فلا يزالون سابحين فى بحار القرب إلى أن يَفَنُّوا عن التعلق بالأكوان
استغراقاً فى محبة الرحمن .

ثم يرتقى الولى إلى مقام البقاء حيث يدرك بقاء الأنوار القدسية بعد فناء
الظلمة الحسية ، ويستشعر بقاء المشهود بفناء الشاهد ، ويظل فى عروج دائم إلى
حضرة الرحمن حيث ينال من خزائن الجود الإلهى ما لا يخطر على قلب بشر .
هؤلاء هم أولياء الله .. نخبة الإنسانية ، ومهبط الأسرار الإلهية . منحنا الله تعالى
بهم رضوانه الأكبر فى الدنيا ويوم الدين .

فى هذه الآفاق السامية - التى هى وقف على أهل الخصوص من أولياء الحق
تبارك وتعالى يحلّق إمام من أكابر أئمة الصوفية الأمجاد ، وعلم من خواص
العارفين الأفراد ، هو الإمام العارف شيخ الطائفة الصوفية ^(١) سيدى أبو سعيد
أحمد بن عيسى الخراز رضى الله تعالى عنه وعنا به وأمدنا بمدده العميم .

هو بغدادى الموطن ، وقد ولد رضوان الله عليه فى أوائل القرن الثالث
الهجرى ، وشهد مجد التصوف وهو يتألق على أيدي أقطابه وأئمته .

(١) هكذا جاء لقب سيدى أبى سعيد الخراز رضى الله تعالى عنه فى (الكواكب الدرية) للإمام المناوى (٢٣٧/١)
حيث قال فى صدارة ترجمته (.. أحمد بن عيسى أبو سعيد الخراز البغدادى شيخ الطائفة المجاهد ، المراقب ،
عارف يضرب به المثل ، خبير بالأدواء بصير بالعلل ، ناصر للتصوف وأهله ، قائم برفع منار الذكر وجمع شمله) .

فجذبته النور واحتضنته العناية ، وأقبل إلى رحاب القوم يتلمس هدى قلبه
بالسير على منهاجهم . إذ رآه أروع تجسيد لهدى الكتاب والسنة .

فألقى بنفسه في الخضم لتتصهر روحه ويصفو معدنه ويتألق نضاره .
فصحب من أئمة الطريق شيوخاً كثيرين ، وكان لكل طريقته ومنهجه السلوكي ولكن
الجوهر واحد لا يتعدد . فالهدف الجامع المشترك هو الوصول إلى الله تعالى .
وكان في صدارة من صحب من أساطين الولاية وأقطاب المعرفة . سيدي ذو النون
المصري ، والإمام السري السقطي ، والعارف بشر بن الحارث والإمام أحمد بن
عطاء وغيرهم كثير وكثير رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين .

هذا وقد أرخ لوفاته رضوان الله عليه بسنة تسع وسبعين ومائتين هجرية على
ما ذكره الإمام السلمي ومولانا الإمام الشعرائي رضى الله عنهما كل في طبقاته^(١) .

وقد كانت حياة الإمام أبي سعيد مددا متصلاً من الإشراق والفتح الإلهي ليس
من السهل أن نحيط بجوانبه ، إذ لم تتوافر لنا معاريج الارتقاء الروحي التي تدنينا
من مقامه لتصفه عن عيان . ولكننا سنرى براهين شموخه جلية من خلال استطلاع
منهاجه في المعرفة ، وآراء أئمة القوم فيه .

سلك الإمام أبو سعيد الطريق على فرط تعطش وبروح تواقفة للمعرفة ،
عزوفة عن أوشاب المادة متطلعة إلى المقصد الأسمى ، وكانت صحبته لأئمة
التصوف هي المصعد الذي ارتقى به إلى صفوف الأقطاب .

فقطع عقبات النفس ، وخاض عباب المجاهدات حتى صفت مرآة قلبه
واستشرف الآفاق العليا . وكانت الصحبة مباركة لأنه أدى حقها أوفى ما يكون الأداء .

يقول الإمام الطوسي في كتاب اللمع : قال أبو سعيد الخراز رحمه الله :
(صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بيني وبينهم خلاف . فقليل له : وكيف ذاك ؟

قال : لأنني كنت مفهم على نفسي) (٢) ١

(١) انظر طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ص : ٢٢٨ والطبقات الكبرى للإمام الشعرائي ط ١ - ص ٧٨ .
وانظر الرسالة القشيرية - المعققة - : ١ / ١٢٩ ، ١٣٥ .

(٢) انظر . اللمع للإمام السراج الطوسي رضى الله تعالى عنه ٣٣٤ .

هذا هو النموذج الأسمى لأدب الصحبة لأولياء الله تعالى !!

ومن قبل ذلك كون الإمام الخراز في نفسه صورة للشيخ الكامل الذي يقوده إلى الفتح والمعرفة . وقد رسم ملامح هذه الصورة في رسالة بعث بها إلى معاصره العارف أبي العباس أحمد بن عطاء رضى الله عنه ، يقول له فيها : (يا أبا العباس : تعرف لي رجلاً قد كملت طهارته ، وبرئ من آثار نفسه عنه به له ، موقوف مع الحق بالحق للحق من حيث أوقفه الحق لا له ولا عليه ، فالحق يعلله ، امتحان له وامتحان للخلق به ، فإن عرفت لي هذا فدلني عليه حتى إن قبلني كنت له خادماً)^(١) !

وبهذا المفهوم الذي رسخ في وجدان سيدي أبي سعيد عن الشيخ المري : كان يقطع فجاج الأرض طلباً لهذا الشيخ وبحناً عن قبس من النور على يديه .

يقول صاحب اللمع : (وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى : ذكر لي أبو حاتم المطار وفضله وكان بالبصرة . فرحلت إليه من مصر حتى وافيت البصرة ، فدخلت جامع البصرة فإذا به جالساً وحوله جماعة من أصحابه وهو يتكلم عليهم ، فأول شيء سمعته منه يقول بعد ما نظر إلى أنه قال : إنما جلست لواحد وأين ذلك الواحد ؟ ومن لي بذلك الواحد ؟ ثم أشار إلى أنه أنت .

ثم قال : أَظْهَرَهُمْ إلى ما أَهْلُهُمْ ، وَأَعَانَهُمْ على ما أَلْزَمَهُمْ ، وَغَيَّبَهُمْ عما أَحْضَرَهُمْ ، فهم به له عاملون ، ومنه إليه راجعون)^(٢) .

وهكذا كان سيدي أبو سعيد كبيراً في عين الشيوخ ومطمحاً لأبصارهم ، إذ يرون فيه أهلية الفتح وشواهد الاصطفاء .

ومن خلال هذا التجاوب والتجاذب كان للصحبة ثمارها الجنية التي يبذل في سبيلها النفس والنفيس . ولقد ظهرت للإمام الخراز خلال سياحاته نماذج فريدة من أهل الله ، كان للقاءها انطباع عميق الأثر في وجدانه .

(١) انظر اللمع للطوسي ص ٢٠٥ .

(٢) انظر اللمع للطوسي ... ص ٢٣٩ .

فيذكر عنه الإمام المناوي في طبقاته أنه قال : (رأيت فقيراً بالمسجد الحرام وعليه خرقتان فقلت في سرى ، هذا وشبهه كل على الناس . فناداني : ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ ^(١) . فاستغفرت الله في سرى فناداني : ﴿وهوالذي يقبل التوبة عن عباده﴾ ^(٢) ثم غاب عني .

وروى الإمام المناوي أيضاً أنه قال : (كنت بمكة فجزت على باب بنى شيبه فرأيت شاباً حسناً ميتاً . فنظرت في وجهه ، فتبسم وقال : يا أبا سعيد : أما علمت أن الأخيار أحياء وإن ماتوا ٩٩ وإنما ينقلون من دار إلى دار ٩٩) ^(٣) .

ولا ريب في أن هذه الأحداث الخارقة إنما هي من قبيل الكرامات التي خص الله بها أوليائه كما خص أنبياءه بالمعجزات التي كان من بينها إحياء الموتى بإذن الله ، وخلق البحر ، وتسبيح الجمادات بصوت مسموع ونحوه ، وما هذه الكرامات إلا ثمرة للتصديق بالأنبياء وإذاً : فهي بهذا الاعتبار ملحقة بالمعجزات ومن ثم قيل : (ما من كرامة لولى إلا وهي معجزة للنبي الذي يتبعه ذلك الولي) وبهذا ندراً عنت المعادين لأولياء وسفه المكذبين الذين استحوز عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله وأنساهم فضل أوليائه حتى تظل قلوبهم غلفاً محجوبة عن شعاع النور والهداية . ولنمض مع النور في مسراه .. مع قمر الصوفية أبى سعيد .

لقد أثمرت لقاءاته مع الشيوخ ، وانقذت أنوار السلوك مع صفاء الاستعداد في قلبه وانصهرت النفس بالمجاهدة ، واستنارت الجوارح بالطاعة ، وانقطعت مآرب الشيطان فيه انقطاعاً مبرماً .

يروى صاحب الرسالة القشيرية بسنده أن سيدى أبا العباس الصياد سمع الإمام الخراز يقول : (رأيت إبليس في النوم وهو يمر عنى ناحية . فقلت له تعال ،

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٥ .

(٢) سورة الشورى الآية ٢٥ .

(٣) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوي رضى الله تعالى عنه : ٢٤٠/١ .

مالك ؟ قال : إيش أعمل بكم ؟ أنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس . قلت ما هو ؟ قال : الدنيا (١) .

وكان الإمام الخراز فى ذكره وعباداته مضرب المثل بين الكبار ، وعلى مستوى الأقطاب . يقول العارف المناوى فى طبقاته : (قال الجنيد : لو طالبنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد لهلكنا أقام كذا كذا سنة ما فاته ذكر الحق تعالى بين الخريزتين) (٢) .

ليت شعرى أى طاقة تتحمل مدلول هذه العبارة ؟ ومن ؟ من سيد الطائفة الصوفية الإمام الجنيد رضوان الله عليه .

لقد كان الإمام الخراز - كما تنبئ تسميته - يحترف الخرازة . وقد ذكر صاحب اللمع أنه رحمه الله خرج سنة من السنين من الشام إلى مكة مع القافلة . فجلس ليلة إلى الصباح يخرز نعال أصحابه من الفقراء والصوفية (٣) .
لله ما أجل أدب الكبار وتواضع العظماء .

وكان الإمام الخراز بحرفته المتواضعة أسمى منزلة من الملوك فى نظر الخاصة والعامة . لأنه حرر عبادته لله من أغراض الدنيا ، واستعان على عبادته بكسب الحلال من يديه . فاكتملت لديه أركان ثلاثة هى دعائم شموخه ومجده الصوفى : وهى : الكسب الحلال الذى يستعين به على عبادة الله . ثم العلم النافع الذى ذهب يلتمسه عند شيوخ الطريق . ثم العمل المؤسس على العلم .

ومن هذا المطلق الذى يركز عليه السلوك الصوفى الصحيح بدأ الإمام أبو سعيد مسيرته وارتقاءه إلى عالم القدس . وولى وجهه شطر ربه معرضاً عن كل ما يشغله عن الله مستجمعاً كل همته فى الوصول إلى الله . وصاغ حاله فى لسان

(١) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود : ١/ ١٢٩ .

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى بتحقيق د . عبد الحميد صالح حمدان ١/ ٣٢٧ .

(٣) انظر اللمع للعارف الطوسى من ٢٥٩ - ٢٦٠ .

مقاله فوضع حكيمته الذهبية التي هي مفتاح التفرد لله والانقطاع إليه والتي أضاء بها طريق أهل العناية .

يقول رضوان الله عليه : (كل ما فاتك من الله سوى الله يسير ، وكل حظ لك سوى الله قليل) (١) .

إن مدلول هذه العبارة يؤكد أن الإنسان الذي لم يسلك طريق الله إنما يدور في فراغ لا يجد فيه ذاته ولا يحقق فيه وجوده . بل هو كالهباء الضائع .. كالعديم .

أما العبد الملتزم لمنهج الشرعية والسائر على الطريقة والواصل إلى الحقيقة فهو الذي أدرك الغاية كلها فلم يفته شيء لأنه نال كل شيء بوصوله لمالك الأشياء . وإذا : فليس سلوك الطريق الصوفي إلا امتثالاً حرفياً لأمر الحق تبارك وتعالى إذ يقول : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ (٢) .

وماذا كانت الثمرة التي حققها الإمام أبو سعيد من بحثه عن الحقيقة في طريق القوم ؟ إنها الولاية . وهل أذاك حديث الولاية ٩٩ .

أجل حقيقة مسفرة أبلغ من نور الشمس يضمها الذكر الحكيم والسنة الفراء . ولكن النفس بلا شك مشوقة لأن تتعرف على مفاهيم الولاية من ولى ليتجلى تمثل القواعد الكلية في النماذج التطبيقية فترسخ المفاهيم في الأعماق نظراً وعملاً فلنستمع إلى حديث الولاية من أبي سعيد الولي :-

يروى الإمام القشيري أنه كان يقول عليه الرضوان : (إذا أراد الله تعالى أن يوالى عبداً من عبده فتح عليه باب ذكره فإذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه إلى مجالس الأنس به ، ثم أجلسه على كرسي التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب ، وأدخله دار الفردانية ، وكشف له عن الجلال والعظمة ، فإذا وقع بصره على الجلال

(١) انظر حلية الأولياء لأبي نعيم : ٢٤٩/١٠ .

(٢) سورة الانعام الآية ٥٣ .

والعظمة بقى بلا هو . فحينئذ صار العبد زَمناً فانياً ، فوقع فى حفظه سبحانه ويرئى من دعاوى نفسه (١) .

حديث ينبض بالذوق الصوفى الرفيع والتحقيق الراسخ ، لا تملك النفس بعده عنان تشوقها إلى المزيد . ولا بد من مزيد .

يروى صاحب حلية الأولياء أن الإمام الخراز سمع يقول : (إن الله عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره والوصول إلى قربه وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم وأجزل لهم نصيبهم من كل كائن . فعيش أبدانهم عيش الجنانيين - أهل الجنة - وعيش أرواحهم عيش الربانيين لهم لسانان : لسان فى الباطن يعرفهم صنع الصانع فى المصنوع ، ولسان فى الظاهر يُعَلِّمُهُم علم المخلوقين . فلسان الظاهر يكلم أجسامهم ، ولسان الباطن يناجى أرواحهم) (٢) . هـ .

إنه حديث الخواص الذى يقطع بأن الولاية محض اختصاص . ثم هو حديث ينم عن رسوخ قدم فى الولاية وأن صاحبه لم يصف إلا عن ذوق ، ولم يتحدث إلا من خلال ذاته .

لقد وصل الإمام أبو سعيد إلى مرتبة فى الولاية لا يعرفها إلا خواص الخواص . وقد تحدثوا عن مقامه بعبارات لو أمعنا النظر فيها لضاق بنا أفق التصور والتخيل ، وحسبنا من ذلك تلك العبارة التى أوردناها آنفاً للإمام الجنيد إذ يقول - وهو بإجماع الأولياء سيد الطائفة الصوفية - (لو طالبنا الله بحقيقة ما عليه أبو سعيد لهلكنا) (٣) .

إذا كان هذا هو رأى سيد الطائفة ترى ماذا يكون رأى جمهرة الأولياء ؟ لا ريب أنهم لم يقدموه على الإمام الجنيد ، التزاماً بإجماعهم على سيادته للطائفة . ولكنهم لم يملكوا إلا أن يجعلوه تالياً له فى الفضل فالعارف المناوى يقول فى طبقاته (قال السلمى : الخراز إمام القوم فى كل فن من علومهم وأحسنهم كلاماً

(١) انظر الرسالة القشيرية - المحققة - ٥٢٤/٢ .

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم : ٢٤٧/١٠ .

خلا الجنيد فإنه الإمام الأكبر . ولذلك كان الطرسوسى وغيره يقولون : الخراز قمر الصوفية . فأفاد أن أمثلهم مطلقاً الجنيد ثم الخراز فذاك الشمس وهذا القمر^(١) . ولقد لقبه الإمام المناوى فى طبقاته بشيخ الطائفة كما لقب سيدى الجنيد بسيد الطائفة ، فهو يقول فى مفتتح ترجمته للعارف أبى سعيد من طبقاته (أبو سعيد شيخ الطائفة المجاهد المراقب عارف يضرب به المثل خبير بالأدواء بصير بالعلل، ناصر للتصوف وأهله ، قائم برفع منار الذكر وجمع شمله)^(٢) .

أما الحافظ أبو نعيم فيستهل حديثه عنه فى الحلية قائلاً : (ومنهم العارف المعروف الكامل بالبيان موصوف ، له الكتب المذكورة والأجوبة المشهورة : أبو سعيد الخراز أحمد بن عيسى)^(٣) ثم يقول مشيراً إلى فضله وسمو منزلته وتحقيقه وتمكينه : (صاحب ذا النون ونظراء . انتشرت بركاته على أصحابه ومتبعيه ، سيد من تكلم فى علم الفناء والبقاء)^(٤) ويقول عنه الإمام السلمى فى طبقاته : (وهو من أئمة القوم وجلة مشايخهم ، قيل أنه أول من تكلم فى علم الفناء والبقاء) أما الإمام الكلاباذى فيصفه فى كتاب (التعرف) بأنه (لسان التصوف)^(٥) .

ولاشك أن هذه الآراء التى أدلى بها أئمة الصوفية وعيون أعيان أهل الخصوصية تعطينا شواهد السمو العرفانى والاصطفاء الربانى يترع الإمام على قمة المعرفة والتحقيق . بيد أننا سنمضى لنتمس هذه الشواهد نفسها من كلام العارف الخراز نفسه .. من لسان التصوف . وسنجد عنده بلا شك فوق ما نبتغى ، لأننا نتعرف عليه وهو يعرفنا بالله ، ويضع بين أيدينا مفاتيح المعرفة لندخل البيوت من أبوابها ، ونخطو إلى الحقيقة على هدى من سناها المتألق . فهو يحدثنا فيما رواه صاحب الحلية بسنده - عن مصادر المعرفة قائلاً : (المعرفة تأتى القلب من وجهين : من عين الجود ومن بذل المجهود)^(٦) .

(١) ، (٢) انظر : الكواكب الدرية للعارف المناوى : ٣٣٧/١ - ٣٣٨ .

(٣) ، (٤) انظر الحلية لأبى نعيم : ٢٤٦/١٠ .

(٥) انظر : التعرف لمذهب أهل التصوف لتاج الإسلام أبى بكر محمد الكلاباذى بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ،

وطه عبد الباقي سرور ص ٢٠ ط/ الحلبي .

(٦) انظر : الحلية لأبى نعيم : ٢٤٧/١٠ .

فهو يرى أن المعرفة إنما مصدرها الوهب الإلهي الذي عبر عنه بعين الجود وكسب العبد الذي عبر عنه ببذل المجهود وإذا فالولاية تعتمد على الأمرين معاً . وهو يؤكد هذا المعنى قائلاً : (من ظن أنه يبذل الجهد يصل إلى مطلوبه فمتعن^(١) ، ومن ظن أنه بغير الجهد يصل فمتعن^(٢)) .

ومعنى قوله (فمتعن) : أنه متعب نفسه بلا جدوى مادام هو بمنأى عن الجود الإلهي . وأما المتمنى فهو من يتوقع حصول الشيء البعيد ويقف عند حد الأمانى دون أن يصاحبها العمل . وعندما تتوافر مصادر المعرفة : يصل العبد إلى منزلة لا يجد العقل وحده سبيلاً إلى إدراك شأوها .

يقول الإمام الخراز رضى الله عنه : (للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة وأشياء عجيبة يتكلمون فيها بلسان الأبدية ويخبرون عنها بعبارة الأزلية)^(٣) ويعلق الإمام المناوى على ذلك بقوله : أى لأنهم ينطقون بالله كما قال فى الحديث القدسى : (فبى يسمع وبى ينطق) وهو العلم اللدنى الذى أوتيهِ الخضر^(٤) . ا . هـ .

وتحدث الإمام أبو سعيد عن مقامات الطريق (مرتبة) وعن ثمراتها وكيف يندرج السالك فيها من مقام إلى مقام حتى يبلغ إلى علياء منازل المقربين .

يروى الإمام أبو نعيم فى الحلية بسنده عن العارفين : أبى بكر الكتانى وأبى الحسن الرملى أنهما قالَا : (سألنا أبا سعيد الخراز فقلنا : أخبرنا عن أوائل الطريق إلى الله ؟

فقال : التوبة - وذكر شرائطها - ثم ينقل من مقام التوبة إلى مقام الخوف ، ومن مقام الخوف إلى مقام الرجاء ، ومن مقام الرجاء إلى مقام الصالحين ، ومن مقام الصالحين إلى مقام المريدين ومن مقام المريدين إلى مقام المطيعين ، ومن مقام المطيعين إلى مقام المحبين ، ومن مقام المحبين إلى مقام المشتاقين ، ومن

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/٣٣٨ .

(٢) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم : ١٠/٢٤٨ .

(٣) انظر الكواكب الدرية للشيخ المناوى ١/٣٣٨ .

مقام المشتاقين إلى مقام الأولياء ، ومن مقام الأولياء إلى مقام المقربين ، وذكروا لكل مقام عشر شرائط إذا عاناهما وأحكمها ، وحلت القلوب هذه المحلة : أدمنت النظر في النعمة ، وفكرت في الأيادي والإحسان فانفردت النفوس بالذكر ، وجالت الأرواح في ملكوت عزه بخالص العلم به واردة على حياض المعرفة ، إليه صادرة ، ولبابه قارعة ، وإليه في محبته ناظرة ، أما سمعت قول الحكيم وهو يقول :

أراعى سواد الليل أنسا بذكره وشوقاً إليه غير مستكره الصبر
ولكن سرورا دائماً وتعرضاً وقرعاً لباب الرب ذى العز والفخر
فحالهم أنهم قريبوا فلم يتباعدوا ، ورفعت لهم منازل فلم يخفضوا ، ونورت قلوبهم لكي ينظروا إلى ملك عدن بها ينزلون ، فتأهوا بمن يعبدون ، وتعززوا بمن به يكتنفون . حلوا فلم يظلموا ، واستوطنوا محلته فلم يرحلوا ، فهم الأولياء وهم العاملون ، وهم الأصفياء وهم المقربون .

أين يذهبون عن مقام قرب هم به آمنون ؟ وعزوا في غرف هم بها ساكنون جزاء بما كانوا يعملون ؟ فلمثل هذا فليعمل العاملون (١) أ. هـ .

إنها قيم الإسلام المثلى وروحيته العظمى التي تعطى للحياة قيمتها وترتفع بالعبد إلى أفق النور . ولكنه مهما قيل عن تلك المنازل والمقامات فإن المعول عليه في معرفتها تماماً إنما هو الذوق الروحي العملى وحده ، ومهمة الوصف إذاً إنما هي الدلالة على حقيقة الشيء وجوهره دلالة نظرية لا تؤتي ثمارها إلا بالمباشرة العملية .

ولقد أعطانا الإمام الخراز - في سخاء وعن تحقق - أروع المفاهيم التي تشعل طموح العبد وتطلعه إلى تلك الآفاق العليا تحيى فيه روعة التأسى وعلو الهمة ، وصدق القصد إلى الله تعالى ، ومن تلك المفاهيم التي عنى الإمام أبو سعيد بإبرازها : حقيقة التوحيد كما يراها الخواص من أولياء الله تعالى . وأقول (الخواص) حتى لا يظن أن من لم تتحقق فيه تلك الأوصاف لا يعد موحداً ،

(١) انظر . حلية الأولياء لأبى نعيم : ٢٤٨/١٠ - ٢٤٩ .

فللتوحيد مراتب ومعاريج تبدأ بإفراد الله تعالى بالألوهية ، ثم تتدرج حتى تصل إلى توحيد الخواص الذي يحدثنا عنه الإمام أبو سعيد قائلاً :

(أول مقام لمن وجد علم التوحيد وحقق بذلك فناء ذكر الأشياء عن قلبه وانفراده بالله عز وجل) (١) ثم يقول رضوان الله عليه : (أول علامة التوحيد خروج العبد عن كل شيء ورد جميع الأشياء إلى موليتها حتى يكون المتولى بالمتولى ناظراً إلى الأشياء قائماً بها متمكناً فيها . ثم يخفيهم في أنفسهم من أنفسهم ويميت أنفسهم في أنفسهم ويصطنعهم لنفسه . فهذا أول دخول في التوحيد من حيث ظهور التوحيد بالديمومية) (٢) . ولما كانت هذه العبارات في حاجة إلى إيضاح وبيان : تولى الإمام أبو نصر الطوسي رضي الله عنه في كتاب اللع شرحها قائلاً : (وبيان ذلك - والله أعلم - فناء ذكر الأشياء بذكر الله تعالى ، ومعنى خروجه عن كل شيء : يعنى : لا يضيف إلى نفسه واستطاعته شيئاً ، ويرى قوام الأشياء بالله في الحقيقة لا بهم . ومعنى قوله : حتى يكون المتولى بالمتولى ناظراً إلى الأشياء قائماً بها : يشير إلى تولية الحق له وما يستولى عليه من حقائق التوحيد حتى يرى قوام الأشياء بالله عز وجل لا بذواتها . ألا ترى إلى قول القائل :

وفى كل شيء له شـاهد يدل على أنه واحد ؟

وأما قوله متمكناً فيها : يريد بذلك أن التلويح لا يجرى عليه في نظره إلى الأشياء فإن قوامها بالله عز وجل ، ثم قال : (يخفيهم في أنفسهم من أنفسهم ويميت أنفسهم عن أنفسهم) : يعنى لا يحسون حساً ولا يلاحظون حركة من حركاتهم الظاهرة والباطنة يوماً إليها في الحقيقة إلا وهى منطمسة تحت سلطان القدرة وإنفاذ المشيئة وإن أضيفت إلى المضاف إليه) (٣) .

هذا قبس من مشكاة معرفة الإمام الخراز في التوحيد عند الخواص فلنقتبس قبساً آخر من أنوار تحققه وآدابه ومعرفته من خلال نظرته إلى العبادات

(١) . (٢) انظر اللع للإمام الطوسي ص ٥٢ .

(٣) انظر اللع للإمام الطوسي : ص ٥٢ .

وبخاصة الصلاة ؛ لندرك الفرق بين عبادة الخواص والعوام . يقول صاحب اللمع :
سئل أبو سعيد الخراز رحمه الله : كيف الدخول في الصلاة ؟ فقال : هو أن تقبل
على الله تعالى كإقبالك عليه يوم القيامة ، ووقوفك بين يدي الله تعالى ليس بينك
وبينه ترجمان وهو مقبل عليك وأنت تتأجيه ، وتعلم بين يدي من أنت واقف ؟ فإنه
الملك العظيم (١) .

ويقول صاحب اللمع : وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله في كتاب له يصف
أدب الصلاة : (إذا رفعت يدك بالتكبير فلا يكن في قلبك إلا الكبرياء - أي لله
تعالى - ولا يكن عندك في وقت التكبير شيء أكبر من الله تعالى حتى تنسى الدنيا
والآخرة في كبريائه) (٢) ويفسر الإمام الطوسي ذلك قائلاً : والمعنى في ما قاله أبو
سعيد الخراز رحمه الله : إن العبد إذا قال الله أكبر ويكون في قلبه شيء غير الله
فلا يكون صادقاً في قوله الله أكبر ثم إذا أخذ في التلاوة فالأدب في ذلك أن
يشاهد بسمع قلبه كأنه يسمع من الله تعالى أو كأنه يقرأ على الله تعالى (٣) .

ثم يقول : قال أبو سعيد الخراز رحمه الله : (وفيه العلم الجليل لأهل الفهم ،
وإذا ركع فالأدب في ركوعه أن ينصب ويدنو ويتدلى حتى لا يبقى فيه مفصل إلا وهو
منتصب نحو العرش ، ثم يعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم من الله
عز وجل ويصغر نفسه حتى يكون أقل من الهباء .

فإذا رفع رأسه وحمد الله يعلم أنه هو ذا يسمع ذلك . فإذا سجد فالأدب في
سجوده ألا يكون في قلبه عند السجود شيء أقرب إليه من الله تعالى لأن أقرب ما
يكون العبد من ربه عند السجود . فيجب أن ينزله عن الأضداد بلسانه ولا يكون في
قلبه أجل منه ولا أعز منه ويتم صلاته على هذا ويكون معه من الخشية والهيبة ما
يكاد يذوب . ولا يكون له في صلاته شغل أكثر من شغله بصلاته حتى لا يشتغل
بشيء غير الذي هو واقف بين يديه في صلاته .

(١) . (٢) . (٣) انظر : اللمع للإمام الطوسي : ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

وكذلك إذا تشهد ودعا وسلم . كل ذلك يعقل ما يقول وما يخاطب حتى يخرج من الصلاة بالمقد الذي قد دخل في الصلاة (١) . ا. هـ .

كان حال الإمام الخراز مع العبادة والذكر عجيباً . يروى الإمام الشعرائي رضي الله عنه أنه قال : (لقيت مرة شخصاً متظاهراً بالجنون . فناديته . قف يامجنون . فالتفت إلي وقال لي : أتدرى من المجنون ؟ فقلت له : لا . فقال : المجنون من يخطو خطوة ولم يذكر ربه فيها) (٢) . ا .

فكان الإمام الخراز يقول : (لا يتصف عبد بالشرف حتى تصير الأذكار غذاءه والتراب فراشه) (٣) وليس معنى افتراشه التراب في حالة مجاهدته للنفس أن يكون غير حسن المظهر ، فالإمام أبو سعيد يناشد الصوفية حسن الملبس وجمال الهيئة قائلاً : (ينبغي للصوفي أن يكون لطيف اللبسة ملازماً للخلوة حسن الصيانة فلا يطلب إلا عند وجود الفاقات وإلا فهو والكذابون سواء) (٤) . ا .

وكان يعلم الصوفية أن يزاوجوا بين ملاحظة العبودية الكاملة للعبد والربوبية الحققة لله تعالى فيقول : (لا تغتر بصفاء العبودية فإن فيها نسيان الربوبية فقليل له فما الخلاص ؟ قال : أن يشهد صنع الربوبية في إقامة العبودية فينقطع عن نفسه ويسكن إلى ربه وهناك يسلم من الاستدراج) (٥) .

كان الإمام أبو سعيد عبداً محضاً لربه فأنيا فيه حتى عن شهود فنائه مستهلكاً في وجوده ببقائه ولذلك تكلم عن تحقق فقال فيه الإمام أبو نعيم أنه سيد من تكلم في علم الفناء . وكان سيدي أبو سعيد يقول في معنى قوله تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ (٦) : أخلاهم في أفعالهم من أفعالهم وهو أول حال الفناء (٧) . ا . هـ .

(١) المصدر السابق .

(٢) ، (٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرائي رضي الله تعالى عنه ٧٩/١ .

(٤) ، (٥) المصدر الأخير .

(٦) سورة النحل الآية ٥٢ .

(٧) ، انظر : اللع للعارف الطوسي : ص ٢٨٥ .

ولقد ورد من كرامات سيدي أبي سعيد ما حكاه عن الإمام القشيري أنه قال :
(كنت في بعض أسفاري وكان يظهر لي كل ثلاثة أيام شيء فكنت أكله واستقل به .
فمضى على ثلاثة أيام وقتاً من الأوقات ولم يظهر شيء فضعفت . وجلست فهتف
بي هاتف . أيما أحب إليك . سبب أم قوة ؟ فقلت القوة . فقامت من وقتي ومشيت
اثني عشر يوماً لم أذق فيها شيئاً ولم أضعف (١).

ولما احتضر كان كثير التواجد عند الموت فقليل ذلك للإمام الجديد قال لم
يكن بمعجيب أن تطير روحه اشتياقاً (٢) .

لله أنت يا إمام من عظيم ولا يعظم قدر الأولياء إلا من كان عظيم القدر عن
الله تعالى كما قال سيدي الحسن بن بنان قدس الله سره .

يروى الإمام القشيري في رسالته عن الإمام العارف سيدي رويم أنه قال :
حضرت وفاة أبي سعيد الخراز وهو يقول في آخر نفسه :

وتذكاهم وقت المناجاة للسر	حنين قلوب العارفين إلى الذكر
فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي السكر	أديرت كئوس للمنايا عليهم
به أهل ود الله كالأنجم الزهر	همومهم جواله بممسكر
وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسرى	فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه
وما عرجوا عن مس يؤس ولا ضر (٣)	فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم

إنه حديث لسان التصوف يتألق في عالم الحقيقة شعراً كما تألق نثراً في
سفره الخالد : الطريق إلى الله (كتاب الصدق) .

هذا هو الإمام أبو سعيد الخراز الذي قال فيه شيخ الإسلام سيدي عبد الله
الأنصاري (لا أعرف أحداً من المشايخ فاق الخراز في علوم التوحيد) !! وقال :

(١) انظر : اللمع للعارف الطوسي : ص ٤٠٥ .

(٢) المصدر الأخير نفسه الطوسي : ٢٨٢ .

(٣) انظر الرسالة القشيرية : ٥٩١/٢ .

(كاد الخراز أن يكون نبياً من جهة علو شأنه وكان إمام هذا الطريق) ((وقال أيضاً:
ما كان أحد فوق الخراز هو فى غاية الغايات) (١).

رضى الله عنك يا مولانا يا أبا سعيد ورضى عنا بك والحقنا بك فى زمرة
الصفوة المقربين وأفاء علينا من مددك القدسى عز الدنيا والآخرة بالوصول
والرضوان والأنس والمحبة والفناء و المشاهدة بجاه الرسول الكريم عليه وعلى آله
الصلاة والتسليم .



(١) انظر : نقعات الأنس من حضرات القدس للشيخ عبد الرحمن الجامى . ص ٢٣٧ - ٢٣٨ . ط/دار التراث العربى
بالقاهرة.

حجة الله على أهل زمانه

الإمام العارف بالله تعالى

« ساجد القلب »

« سيدى سهل التستري رضى الله عنه »

بنور اليقين استضاءت بصائر أهل العرفان والتمكين ، وعلى النهج المحمدى واصلوا المسير . فكانت خطواتهم على الدرب هى مفاتيح القرب ، ويزاد من التقوى تزودوا فى رحلة النور حيث كان غذاؤهم الذكر وقوتهم الفكر وأنفاسهم مسافات من العمر قطعوها فى مرضاة الله خشعاً ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً فمنّ عليهم ربهم بالوصول وأنالهم منه القبول وجعلهم خاصته وصفوته من عباده .

ومن أعلام أولئك الأئمة الواصلين والأقطاب العارفين : سيدى أبو محمد سهل بن عبد الله التستري رضى الله عنه . ولد على رأس القرن الثالث الهجرى سنة مائتين أو إحدى ومائتين ببلدة (تُسْتَر) إحدى مدن خراسان والتى إليها نسبته .

وشخصية العارف التستري لها بين أئمة العارفين منزلة سامية وقدم لا يلحق فى ميدان المعرفة والذوق الروحى .

فهو إمام عصره فى العلوم والمعاملات وأوحد أهل زمانه فى الورع والمجاهدات ، لقى الصوفى العارف سيدى ذا النون المصرى ، وتربى على يديه نخبة من السالكين والأقطاب .

والإمام التستري قد عرف الطريق إلى مولاه منذ ترقرق فيه ماء الصبا حيث
تفتحت زهرة طفولته الناضرة في بيت تأسس على التقوى وارتوى من معين الإيمان
الذي لا ينضب .

فخاله محمد بن سوار أحد الزهاد الورعين العاكفين على طاعة مولاهم .
وكان سهل وهو في الثالثة من عمره يقوم في أثناء الليل لينظر إلى خاله وهو يقطع
أنفاس الليل في صلاة لربه حتى يؤذن الفجر فاستغرق سهل في هذا المشهد
الجميل بفطرتة السوية ، واعتاد أن يقطع بدوره هجمة الكرى لكي يسقى قلبه من
روعة هذا المشهد . وذات ليلة قال له خاله : يا سهل.. اذهب فتم فقد شغلت قلبي.
ولكن ما للنوم ومن تعدد العناية للولاية ، فلما رأى منه خاله هذا الميل الفطري
للمعبادة أقبل عليه قائلاً : ألا تذكر الله الذي خلقك ؟ فقال : وكيف أذكره ؟ قال له :
قل بقلبك عند تقليبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك : (الله
شاهدي) . ففعل ذلك ثلاثة أيام ثم أشار عليه خاله بأن يزيد العدد إلى سبع ثم إلى
إحدى عشرة مرة . وكانت النتيجة كما قال سهل نفسه : (هوقع في قلبي له حلوة)
وحثه خاله على المواظبة على هذا الذكر قائلاً : احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن
تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة (١).

وكان خاله يعدة بهذا الذكر للفتح الإلهي ، فاكتمل له من تلقين خاله ورّد
صار معراجاً للفتح الرباني وعرف بورده التستري وهو : « الله معي .. الله ناظر إلي
.. الله شاهد علي » . لقد كان هذا الورد معراجاً لفتح الشيخ الأكبر سيدي محيي
الدين بن عربي رضي الله عنه إذ يقول في الفتوحات : (دخلت به الخلوة ففتح لي
به في ليلة واحدة وفيه أسرار عجيبة وأذواق غريبة ومن ذكره حبيت إليه الطامعات
وبغضت إليه المنكرات) (٢).

تلك أسرار عجيبة حظى بها العارف سهل ولم يزل بعد غلاماً زكياً ثم مضى
إلى الكتاب فحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين وكان يصوم الدهر آنذاك

(١) انظر : الرسالة القشيرية بتحقيق د . عبد الحليم محمود . ٨٢/١ - ٨٤ .

(٢) انظر : الكواكب الدرية للعارف المناوي : ٤٤٠/١ .

ويقتصر في غذائه على خبز الشعير ويمكف على طاعات ربه من صيام إلى قيام ومن ذكر إلى علم ، كافا جوارحه عن المعاصي وقلبه عن الشهوات ^(١) ، فاكتمل في طفولته ما لم يكتمل لأحد من قرنائه في عصره حتى لقد روى عن أحمد بن سالم في كتاب صفة الأولياء أنه قال : (ذكر سهل التستري وهو ابن ثلاث سنين وصام وهو ابن خمس سنين وترك الشهوات وهو ابن سبع سنين وساح في طلب العلم وهو ابن تسع سنين وكانت تلقى مشكلات المسائل على العلماء ثم لا يوجد جوابها إلا عنده وهو ابن إحدى عشرة سنة وحينئذ ظهرت عليه الكرامات) . ولقد ذكر العارف المناوي في طبقاته أن العارف سهلاً كان أعلم أهل تستر وهو ابن اثنتي عشرة سنة . إنه فتوح من الله خص به أحبابه المقربين إليه . وفي تلك الفترة التي كان فيها العارف سهل يخوض غمار المجاهدات ويتطهر من أوشاب أنيته ويجتاز العقبات في سيره إلى الله وجد روحه من فرط شفافيتها تحلق في عالم الملكوت وترشف من رحيق المحبة الإلهية . ووصل في سيره إلى الله إلى مقام لم يظفر به في ديوان الولاية إلا بعض خواص الخواص إنه مقام (سجود القلب لله) لقد دهش العارف سهل نفسه من نفسه لأنه لم يسمع من قبل بشيء يسمى سجود القلب لله ومع ذلك فقد تحقق عملياً قبل أن يعرفه نظرياً . وعن تلك الواقعة وأسرارها يحدثنا الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي في فتوحاته : (كان بدء سهل في هذا الطريق سجود القلب . وكم من ولى كبير الشأن طویل العمر مات وما حصل له سجود القلب ولا يعلم أن للقلب سجوداً مع تحققه بالولاية ورسوخ قدمه فيها فإن سجوده - أي القلب - إذا حصل لا يرفع رأسه أبداً من سجده ، فهو ثابت على تلك القدم الواحدة التي تتفرع منها أقدام كثيرة . وأكثر الأولياء يرون تقلب القلب من حال إلى حال ولهذا سمى قلباً . وصاحب هذا المقام وإن تقلبت أحواله فمن عين واحدة هو عليها ثابت يعبر عنها بسجود القلب . ولهذا لما رأى سهل في ابتداء دخوله الطريق أن قلبه سجد وانتظر أن يرفع فلم يرفع فبقى حائراً فما زال يسأل شيوخ الطريق فما وجد أحداً يعرفها فإنهم أهل صدق لا ينطقون إلا عن ذوق محقق . فقيل له أن

(١) انظر الرسالة القشيرية - المحققة - ٨٤/١ والمصدر السابق ٤٢٩/١ .

فى عبادان شيخاً معتبراً لو رحلت إليه؟ ففعل فقال له: أيها الشيخ: أيسجد القلب؟ فقال: إلى الأبد.. فوجد شفاءه عنده فلزم خدمته فإلله يؤتى ما شاء من علمه من شاء من عباده ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ (١) .

وكان الرجل الذى وجد العارف سهل عنده جوابه هو عارف عبادان الشيخ حمزة بن عبد الله رضى الله عنه . وكان فيما قاله له حين أخبره بواقعة : (بشراك يا سهل وطوبى لك . لقد بلغت الذروة العليا وانتقلت إلى المقام الأسمى . لقد سجد قلبك وهو أعلا مراتب اليمين وما أحسب اليوم أن فى الأرض سواك فى هذا المقام) .

إن العارف سهلاً لم يصل إلى تلك المنزلة الرفيعة إلا بأن فرغ قلبه لله وأعرض عن الأكوان فناء فى المكون وفر إلى الله من نفسه. هناك وجد قلبه وهناك سجد قلبه .

وإذا ما أردنا أن نتعرف على المنهج السلوكى عند العارف التستري لوجدنا آفاقاً تتوهج بالنور وتشع بالضياء . فإن هذا العارف لم يترك سبيلاً للطاعة والعبادة إلا والتمسه حتى انصهرت روحه فى محراب المجاهدة الروحية فأسلمت له نفسه القياد وصارت الطاعات عنده عادات بفضل قهره للنفس ودحضه لأهوائها .

ولقد سئل سيدى سهل يوماً عن سر النفس فقال : (للنفس سر ما ظهر ذلك السر على أحد من خلقه إلا على فرعون - أى ما اكتمل ظهور ذلك السر إلا فى شخص فرعون - فقال : أنا ريكم الأعلى . ولها سبع حجب سماوية وسبع حجب أرضية . فكلما يدفن العبد نفسه أرضاً سما قلبه سماء فإذا دفنت النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش) (٢) .

ولقد حرص العارف سهل على أن يصل إلى تلك الغاية السامية وهى وصول

(١) سورة النحل الآية ٢ وانظر الرسالة القشيرية (المحققة) ٨٤-٨٥ والكواكب الدرية للإمام المناوى بتحقيق

د. عبد الحميد صالح حمدان : ١/٤٣٠ .

(٢) انظر . حلية الأولياء لأبى نعيم ١٠/٢٠٨ ح.

القلب إلى العرش فجاهد نفسه حتى دفنها تحت الثرى فتال ما أمل . وكما جاهد نفسه فقد حارب إبليس وقطع عليه الطريق إلى قلبه حتى آيس اللعين منه . ولقد تغلب على الشيطان بالعلم الذى كشف به عقبات الطريق .

فها هو ذا يقول : (ما من قلب ولا نفس إلا واللّه مطلع عليه فى ساعات الليل والنهار فأيما قلب أو نفس رأى فيه حاجة لسواء سلط عليه إبليس) (١) .

فالسبيل إلى تطهير ساحة القلب من عدوه إبليس إنما هو بتعلق القلب باللّه بالمراقبة والذكر ﴿ وإما يزعجك من الشيطان نزع فاستعد باللّه ﴾ (٢) .

ولقد كان العارف سهل دائماً مع اللّه ساجد القلب صفى الروح . ولقد سلك هذا الطريق بأسلحة الجهاد الروحى وأوصى غيره بالتذرع بهذا السلاح قائلاً : (اعلموا أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلا بذبح نفسه بالجوع والصبر والجهاد لفساد ما عليه أهل الزمان) (٣) .

ولا يغيب عن الذهن أن هذا المنهج للجهاد الروحى إنما هو منهج خاص لا يتأتى إلا لمن لديه الاستعداد الشخصى له . ولقد وصل به الصوفية إلى ما وصلوا من مراتب الحب الإلهى والترقى إلى مقامات اليقين والمشاهدة .

ومما يشير إلى مكانة القطب التستري بعد أن طبق منهجه السلوكى فى الطريق : تلك الواقعة التى ذكرها الإمام الشعرانى رضى اللّه عنه فى طبقاته إذ يقول عن العارف سهل : (وكان رضى اللّه عنه يقول : أنا حجة اللّه على الخلق ، وأنا حجة على أولياء زمانى . فبلغ ذلك أبا زكريا الساجى وأبا عبد اللّه الزيبرى فذهبا إليه فقال له أبو عبد اللّه الزيبرى - وكان جسوراً لأنه ضرير - بلغنا عنك أنك تقول : أنا حجة اللّه على الخلق وأنا حجة اللّه على أولياء زمانى فيماذا صرت ؟ هل أنت نبي أو صديق ؟ فقال سهل : لم أذهب حيث ظننت ولست أنا نبياً . إنما قلت هذا

(١) المصدر نفسه : ١٠/١٩٤ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠٠ .

(٣) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى : ص ٢٠٩ .

لأننى صححت أكل الحلال دون غيرى . فقال له : أنت صححت الحلال ؟ قال : نعم . لا أكل دائماً إلا حلالاً . فقال له الزبيرى : وكيف ذلك ؟ فقال له سهل : قسمت عقلى ومعرفتى وقوتى على سبعة أجزاء فأترك الأكل حتى يذهب ذلك الجزء وتتلف معه نفسى أكلت بقدر البلغة خوفاً أن أكون قد أعنت على نفسى ولترد على الستة الأخرى فهذا صح لى الحلال . فقال له الزبيرى : نحن لا نقدر على المداومة على هذا ولا نعرف أن نقسم عقولنا ومعرفتنا وقوتنا إلى سبعة أجزاء واعترفنا بفضل سهل رضى الله عنه (١) .

هذا عن جانب من جوانب السمو الروحى عند العارف سهل وهو جانب تحرى الحلال بتلك الدقة الخارقة . وهو يعمل لهذا التحرى الدقيق للمطعم الحلال وبالقدر الضرورى بقوله : (إنما حجب الخلق عن مشاهدة الملكوت وعن الوصول بسبب سوء المطعم وأذى الخلق) (٢) ومرة أخرى يقول (الدنيا حرام على صفوة خلق الله لا يتناولون منها إلا بقدر الضرورة) (٣) . بعد هذا يحدد لنا الإمام سهل أصول هذا الطريق الصوفى قائلاً : (أصولنا سبعة : التمسك بكتاب الله والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل الحلال وكف الأذى ، واجتناب المعاصى ، والتوبة ، وأداء الحقوق) (٤) بهذه الأصول السبعة يتحقق العبد بولاية الله تعالى لأنه قد وافق فى أفعاله ما يحبه الله من عبده .

والعارف سهل يقول حين سئل عن الولى : (هو الذى تواتل أفعاله على الموافقة (٥) . وينسب الولى إلى الله تعالى فإن فى معاداته محاربة لله عز وجل كما جاء فى الحديث القدسى (من عادى لى وليا فقد أذنته بالحرب) . وتأكيداً لهذا

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشمرانى ٦٧/١ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٨/١ .

(٣) المصدر نفسه : ٦٧/١ .

(٤) انظر طبقات الصوفية للمسلمى : ٢١٠ والكواكب الدرية للإمام المناوى ٤٣٢/١ .

(٥) المصدر الأخير نفسه ، وطبقات الإمام الشمرانى الكبرى ٦٧/١ .

المعنى يقول سيدى سهل : (إياكم ومعاداة من أشهره الله بالولاية فإنه كان بالبصرة ولى فعاداه أهلها وآذوه فغضب الله عليهم فهلكوا أجمعين فى ليلة) (١) .

وفى مقابلة التحذير من المعاداة يكون الترغيب فى الموالاتة إذ يقول الإمام سهل : (طوبى لمن تعرف بالأولياء فإنه ربما استدرك ما فاتته وإن لم يستدرك شفّعوا فيه لأنهم أهل فتوة) (٢) .

ذلك حديث الأولياء (٣) من قطب الأولياء سيدى سهل بن عبد الله الذى أقام فى مقام البقاء بعد الفناء حيث كان مع الله بقلبه ومع الخلق بجسده وعقله ومن ثم أطلق عبارته النافذة إلى شغاف القلوب : (لى أربعون سنة أكلم الله والناس يظنون أنى أكلهم) (٤) إنه لم يخاطب فى الخلق إلا تجليات الحق فهو فان فى الحق باق به معه فى الخلق ولسان حاله يقول :

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى

وأبحث جسسى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجلوس مؤانس

وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

ولقد وقف المعارف سهل على أسرار الفهم اللدنى لكتاب الله تعالى فألف تفسيراً موجزاً للقرآن الكريم عرف بتفسير التستري . وفى هذا التفسير من دهائق الفهم فى كتاب الله تعالى ما لا يصفه واصف . انظر إليه وهو يفسر معنى الإخلاص فى قوله تعالى : ﴿ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾ (٥) : الإخلاص هو المشاهدة وحياة القلب

(١) المصدر الأخير للإمام الشعمرانى رضى الله تعالى عنه .

(٢) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى رضى الله تعالى عنه ٤٣٣/١ .

(٣) ومما رواه الإمام الشعمرانى فى طبقاته (٦٧/١) عن الإمام سهل - فيما يتعلق بالأولياء - أنه قال : (ما من لى صحت ولايته إلا ويحضر مكة فى كل ليلة جمعة لا يتأخر عن ذلك) (١) .

(٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ٤٣٨/١ .

(٥) سورة يونس / بعض الآية الكريمة ٢٢ وصدرها (فلما ركبوا فى الفلك دعوا الله) .

فى شىئين : الإيمان فى الأصل والإخلاص فى الفرع . وأن الإخلاص خطر عظيم وصاحبه منه على حذر حتى يصل إخلاصه بالموت لأن الأعمال بالخواتيم ﴿ واعبد ربك حتى يأتىك اليقين ﴾ (١) . هـ .

ومن روائع أقوال الإمام سهل رضى الله عنه : (لو أعطى العبد لكل حرف من القرآن ألف فهم ، لما بلغ نهاية ما جعل الله تعالى فى آية من كتاب الله تعالى من الفهم لأنه كلام الله تعالى ، وكلامه صفته وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهمون على مقدار ما يفتح الله تعالى على قلوب أوليائه من فهم كلامه وكلام الله غير مخلوق فلا تبلغ إلى نهاية الفهم فيه فهو الخلق لأنها محدثة مخلوقة) (٢) .

ومن كرامات هذا الولي المارف أنه حصل له فالج آخر عمره فكان إذا حضرت الصلاة زال عنه فإذا فرغ منها عاد إليه (٣) .

ومنها أن رجلاً دخل إليه يوم الجمعة قبل الصلاة فرأى فى بيته حية عظيمة فوقف فقال له سيدى سهل: ادخل . لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان وعلى وجه الأرض شىء يخافه ! ثم قال : هل لك فى صلاة الجمعة ؟ فقال بيننا وبين الجامع مسيرة يوم . فأخذ بيده فأدخله إليه فوراً فصليا ثم خرج ينظر الناس خارجين . فقال : أهل لا إله إلا الله كثير والمخلصون منهم قليل (٤) .

وكرامات هذا الإمام ومناقبه لا تقع تحت حصر ، وهى مذكورة فى كتب الصوفية ، وطبقاتهم .

(أما بعد) فهذا إمام من أئمة الصوفية سبحنا فى محيط أنواره نلتقط بعض جواهره ودرره لنقدمها للمتعطشين إلى الضياء . على أننا لم نقدم إلا أقل القليل من

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم لأبى محمد سهل بن عبد الله التستري ص/٤٥ وقوله تعالى : (واعبد ربك حتى يأتىك اليقين) الآية ٩٩ والأخيرة من سورة العجر .

(٢) انظر : اللمع للإمام الطوسي ص/١٠٧ .

(٣) . (٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ٤٣٩/١ .

ذلك العطاء الكثير الذى هو منحة الله لخواصه الذين هداهم واجتباهم . وعسى أن
تشفع لنا هذه الكلمات فى أن نشرف ببركة هذا الولى العارف سيدى سهل التستري
وأن نكون فى معيته مع المنعم عليهم من الأولياء والصالحين رضى الله عنهم
أجمعين .

* * *

سيد الطائفة الصوفية « الإمام الجنيد رضى الله عنه »

على طريق النور تمضى مواكب العارفين إلى غاية الغايات . حيث تنعم الأرواح التى شربت من ينابيع المحبة والصفاء حتى لم تبق فيها لغير الله بقية . فهي دائماً وأبداً مع الله وبالله . إنها أرواح الصفوة الأولياء . الذين اصطفاهم الله تعالى لهداية خليقته . فهم الضياء المنبعث فى أرجاء هذه الحياة ليفخر سناه آفاق هذه الإنسانية فيجذب الأرواح التائقة إلى النور.

ومع قمة شامخة من قمم التصوف نلتقى على طريق النور مع الإمام الجنيد رضى الله تعالى عنه . فهو أحد أركان الطريق الصوفى الذين يشار إليهم بالبنان ، وهو إمام من أئمة السلوك الذين ارتفعت على أيديهم منارات المعرفة وشربت من منابهم العذبة أرواح المريدين والسالكين .

ولو ذهبنا نلتمس كلمة أو عبارة نستوحى من خلالها التعرف على مكانة الإمام الجنيد - رضى الله عنه - لما وجدنا خيراً من عبارة الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى رضوان الله عليه إذ قال فيه : « هو سيد هذه الطائفة » ولقد صارت هذه الكلمة اصطلاحاً لدى الصوفية على شخصية العارف الجنيد . بجانب ما قيل فيه من أنه شيخ التصوف على الإطلاق وإمام أهل الخرقه ومقدم الجماعة وغير ذلك.

وهو أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج . أصله من نهاوند . ومولده ومنشؤه بالعراق وقد تفقه على مذهب أبى ثور من أصحاب الإمام الشافعى رضى الله عنه

وراوى مذهبه القديم ، وكان الجنيد يفتى بحضرته وهو فى العشرين من عمره فذاعت شهرته فى مختلف الأوساط العلمية ببغداد (١).

أما عن تربيته الصوفية : فقد أخذ الطريق عن خاله السرى السقطى وهو من أئمة رجال التصوف فى عصره . وقد قال عنه الإمام القشيرى : (كان أوحده زمانه فى الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد) (٢) فتلقى عنه أصول الطريق كما صحب كلا من الحارث المحاسبى ومحمدا بن على القصاب البغدادى وغيرهما . ويقول الإمام المناوى فى طبقاته : أنه صحب من هذه الطائفة أربع طبقات كل طبقة ثلاثون رجلا وانتهت إليه الرئاسة (٣) . هذا ويؤرخ لوفاته رضى الله عنه بسنة سبع أو ثمان وتسعين ومائتين هـ (٤).

والمتصفح لتاريخ الإمام الجنيد : يقف فى كل اتجاه على سر من الأسرار التى توحى بجملتها أن هذا الطراز من الرجال قد أعدته العناية الإلهية ليحمل مشعل الهداية لبنى أمته ، وليقدم لها ميزان العبودية الصادق الذى تزن به نفسها فى إطار علاقتها مع خالقها جل شأنه . وهو يعد منذ صغره لتحمل هذه الأمانة . انظر إليه وهو يقول : (كنت بين يدى السرى أعب وأنا ابن سبع والجماعة يتكلمون فى الشكر . فقال : يا غلام ما الشكر ؟ قلت ألا يعصى الله بنعمه . فقال : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . فلا أزال أبكى على هذه الكلمة) (٥) .

أجل .. فقد أحدثت هذه الكلمة من خاله السرى فى نفسه دوبا هز أركان نفسه . إذ خشى على نفسه أن يكون حظه من التصوف مجرد الكلام فيه وترديد عباراته وأن يحرم من التحقق بمضمون هذا الكلام فعمل من ساعته على أن يكون صوفياً بالحقيقة والحال لا باللسان والمقال . وحين تصدق من العبد الإرادة

(١) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ١٥٥ . والرسالة القشيرية (المعققة) ١٠٥/١ .

(٢) المصدر الأخير للإمام القشيرى : ٦٤/١ .

(٣) انظر الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية للشيخ الإمام عبد الرؤوف المناوى ٢٧٧/١

(٤) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ١٥٦ والرسالة القشيرية ١٠٥/١ والمصدر الأخير .

(٥) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق د . عبد الحليم محمود ٣٨٦/١ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٦٦/٢ .

ويصاحبها من الله العون والتوفيق فقل من الخير ما شئت . فهذا هو الإمام الجنيد يقبل على مولاه إقبالاً يفضيه عن نفسه وعن وجوده . وهو يصور معنى هذا الإقبال ودرجته قائلاً : (لو أقبل صادق على الله ألف ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة كان ما فاته أكثر مما ناله)^(١) .

إنه يرى أن لحظة تفوت العبد مع ربه فيها هوات مغنم تودي خسارته بكل مكاسب العمر . رأيت همة أرقى من هذه الهمة ؟ وتعبيراً يصور ما صورته من معانٍ ؟

ولكن التساؤل الآن هو : بم تكون معية المخلوق مع خالقه ؟ وما هي الصفات التي تؤهل العبد للإقبال على ربه وترفعه إلى مصاف المقربين ؟ وفصل الخطاب في ذلك إنما هو اتباع منهاج الشريعة المحمدية اتباعاً كلياً ليس بالأشباح فقط وإنما بتطويع النفس لطاعة الله وبمكابدة النفس لأنواع المجاهدات درجة فدرجة حتى يساير هوى النفس مقصود الشارع الحكيم وحتى تصير الطاعات عادات تألفها النفس وتتوق إليها ، وأساس ذلك كله صدق النية في اتباع الشريعة المحمدية اتباعاً مبنياً على علم فلا وصول إلا من هذا الباب ؛ ولذا يقول الإمام الجنيد (الطرق كلها مسدودة عن الخلق إلا من اقتضى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام واتبع سنته ولزم طريقته)^(٢) وبعد أن بين معالم السبيل بصراحة لا لبس فيها . تجده يربط بإحكام بين منبع الطريق الصوفي ومصبه . فالمنبع هو الشريعة المحمدية ممثلة في هدى الكتاب والسنة، والمصب : هو الحقيقة التي يصلها العبد باتباعه لمنهاج الشريعة المستقيم . فما هو يقول : (مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة)^(٣) وهذا التقييد إنما هو من قبيل تقييد النتيجة بالمقدمة . وهو بلا جدال قاطع لأي منافاة بينهما . ثم تعال معي لننظر إلى مدى بعمد الرؤية عند الإمام الجنيد : لقد أدرك

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوي : ٢٧٨/١ والرسالة القشيرية ١٠٧/١ .

(٢) انظر : الحلية لابي سيم ٢٥٧/١٠ والرسالة القشيرية ١٠٧/١ .

(٣) انظر المصدر الأخير

هذا الرجل الذى كان يعيش فى القرن الثالث الهجرى ورأى ببصيرته التى نورها الله أن ثمة دعاوى سيلفقتها أعداء التصوف ويلصقونها به بعد حين من الزمن ، وهى القول بخروج التصوف على الشريعة ودعوى أن الصوفية يسقطون الأعمال والتكاليف فقطع عليهم الطريق وقطع أسنتهم . إذ ذكر أمامه أن شخصاً قال : (إن أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات - أى الأعمال - من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل . فقال الإمام الجنيد : (إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيم والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها . ولو بقيت ألف عام لم انتقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بى دونها)^(١).

هذا هو قول سيد الطائفة الصوفية الرجل الذى أقام عشرين سنة وورده من النوافل فى كل يوم ثلاثمائة ركعة ، وثلاثون ألف تسبيحة^(٢).

إلى جانب مجالسه العلمية التى كانت ببغداد حديث الرائج والغادى والتى كان يؤمها الأدباء لينهلوا من بلاغته وروعة أسلوبه ، والفقهاء ليأخذوا من فتاواه واستباطاته ، والفلاسفة لدقة نظره وسمو أفكاره ، والمتكلمون لبراعته وتحقيقه ، والصوفية لإشارته وحقائقه^(٣).

ثم هو القطب الصوفى الذى كان آية عصره علماً وتحقيقاً . فأوضح منهاج التصوف وأبرز معالمه وآدابه للسالكين حيث قال : (التصوف جامع لمشر خصال : التقلل من كل شئ فى الدنيا مع القدرة عليه ، واعتماد القلب على الله سبحانه وتعالى مع عدم السكون إلى الأسباب ، والرغبة فى الطاعة بما استطاع منها ، والصبر عند فقد الدنيا عن المسألة والشكوى ، والتميز فى الشبهات والحلال ، والشغل بالله تعالى عن سواه ودوام الذكر بالقلب واللسان ، وتحقيق الإخلاص مع الصدق واستواء السريرة والعلانية ودوام المراقبة لله مع السكون إليه فى جميع

(١) انظر المصدر الأخير ١/١٠٦ .

(٢) انظر طبقات الشافعية للسبكي ٢/٣٦١ .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي : ٦٨-٦٧/١٤٠ .

الأحوال . فإذا اجتمعت هذه الخصال : كان الصوفى فى أول مراتب المحبة ، ثم يرقى إلى حالة المشاهدة ، فيؤخذ منه إليه ويبقى معه فى ميدان المحبة والدهشة^(١) .

هذه هى آداب التصوف التى بها يدنو العبد من باب الحضرة الإلهية حيث الأنس والمشاهدة .

ثم نمضى مع سيد الطائفة لنقبس قبسات من إشارات الصوفية ولمحاته العلوية . إنه يقول : (إن الله يخلص إلى القلوب من بره بحسب ما تخلص إليه القلوب من ذكره فانظر ماذا خالط قلبك) (٢) .

وها هو ذا يندد بالغفلة عن الله قائلاً : (الغفلة عن الله أشد من دخول النار) (٣) .

وفى تصويره لمعنى الشوق والمحبة يقول : (بلغنى أن يونس عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه وقام حتى انحنى وصلى حتى أقعد ثم قال : (وعزتك لو كان بينى وبينك بحر من نار لخضته شوقاً إليك) (٤) .

ثم يوضح ماهية التصوف قائلاً : (التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى وأصله الصرف عن الدنيا كما قال حارثة : صرفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظلمات نهارى) (٥) .

ثم فى شرحه لمفهوم المبودية لله تعالى يقول : (إنك لن تكون له على الحقيقة عبداً وشيء مما دونه لك مسترق . وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقيقة عبودية بقية . فإذا كنت له وحده عبداً كنت مما دونه حراً) (٦) هذه هى حكمة الجنيد فى إشراقها وعمق مقزاها .

(١) انظر : الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية ص ٨٩-٩٠ .

(٢) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه : ص ١٥٧ .

(٣) انظر المصدر الأخير ص ١٥٩ .

(٤) انظر الكواكب الدرية للمعارف المناوى ١/٣٨٤ .

(٥) انظر حلية الأولياء لأبى نعيم : ٢٧٨/١٠ .

(٦) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ١٥٨ .

وأما عن جانب الكرامات والخوارق: فإننا نجتزئ من كثرتها بهذه الكرامة كمثال ؛ فيسوق لنا الإمام الجنيد هذه الواقعة فيقول : (كان السرى يقول لى تكلم على الناس . وكان فى قلبى حشمة - أى حياء - من الكلام على الناس وكنت أتهم نفسى فى استحقاق ذلك حياء . فرأيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فى المنام ليلة جمعة فقال لى تكلم على الناس . فانتبهت وأتيت باب السرى قبل أن أصبح ودققت عليه الباب فقال - قبل أن يسمع منه شيئاً - لم تصدقنا حتى قيل لك ذلك : فقعد الجنيد للناس فى الجامع بالفداء . فانتشر فى الناس أن الجنيد قد يتكلم على الناس . فوقف عليه غلام نصرانى ، وقال أيها الشيخ : ما معنى قول الرسول - صلى الله عليه وسلم : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) ؟ فأطرق الجنيد رأسه ثم رفعه فقال : أسلم فقد حان وقت إسلامك ! فأسلم الغلام وقطع الزنار^(١).

هذا هو نور البصيرة الذى يمنحه الله لمن اجتبه من خلقه وجعله من خواص عباده . ﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ . ويعد : فهذا هو الإمام الجنيد سيد الطائفة الصوفية . الإمام الربانى والعالم اللدننى الذى قال : (ما أخرج الله إلى الأرض علما وجعل للخلق إليه سبيلا إلا وقد جعل لى فيه حظاً^(٢)) وقد شهد له أبو العباس بن عطاء قائل : (إمامنا فى هذا العلم ومرجعنا والمقتدى به الجنيد^(٣)) . إنه مقدم الجماعة وإمام أهل الخرقه وشيخ التصوف الذى كان لا يفل عن الله طرفه عين ويقول : (الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار^(٤)) .

هذا هو إمام أهل الحقيقة وعلم الأولياء فى زمانه الذى كان يناجى مولاه قائل : (يا من هو كل يوم فى شأن : اجعلنى من بعض شأنك^(٥)) .

وهو الذى تكلم فى المحبة - وهو شاب - بمكة فى موسم الحج ، على كبار

(١) انظر جامع الكرامات للإمام النبهانى ١١/٢-١٢ .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء للعافظ، الذهبى : ٦٧/١٤ .

(٣) انظر : نفحات الأنس للمعارف أبى عبد الرحمن الجامى ص ٢٥٧ ط / دار التراث العربى .

(٤) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ٧٢/١ .

(٥) انظر الحلية لأبى نعيم : ٢٧٠/١٠ .

المشايع إذ قالوا له : هات ما عندك يا عراقى ، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال واصفا من تحقق بالمحبة (عبد ذاهل عن نفسه ، متصل بربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، قد أحرق قلبه الأنوار الإلهية ، وصفا شربه من كأس ورده ، وانكشف له الحق من أستار عينه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فمِن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ومع الله .

فبكى المشايخ ، وقالوا : ما على هذا من مزيد ، جبرك الله يا تاج العارفين ! إنه الرجل الذى اكتملت فيه ولاية الله تعالى وفاضت من ينبوع معرفته لطائف الحكم لترتوى بها أرواح العارفين . وهو الإمام الذى ضرب بعلمه وحاله وسلوكه أروع المثل . وقدم من جوهر صوفيته وتحققه أنصح البراهين وأقوى الحجج على أن التصوف يمثل أعلى قمة فى الإسلام يظل لواؤها صفوة عباد الله . فسلام عليه فى الخالدين . وسلام عليه مع النبیین والصديقين بمدده وبركته دنيا وآخرة . اللهم آمين .

✱ ✱ ✱

« سيدى ممشاذ الدينورى رضى الله عنه »

فى أفق النور الأعلى حَلَّتْ قلوب العارفين الريانيين بأجنحة الشوق والمحبة
تنشد الحقيقة المطلقة وتطير إلى رحاب الجنب الأعلى لتسجد سجدة العبودية
الصادقة على بساط حضرة الربوبية فتنال شرف الرضوان الأكبر والعز المؤيد .
فحياة هذه القلوب لا توجد إلا بالقرب من سيدها ، وأرواح هذه النخبة لا تنفك عن
باب الحضرة . إنها أرواح والهة بحب الله ، هائمة فى ملكوته ، غارقة فى بحار
عشقه ، لا تزال مع كل نفس تذكره وتستغرق فى عظمتة ، وتقنى فى عشق جماله ،
وتذوب هيبة من جلاله . إنها أرواح الصفوة من جند الله وأوليائه وخاصته من
أحبابه .. رضى الله عنهم وعنا بهم فى زمرة المحبين الإلهيين .

من كبار أقطاب أولئك الصفوة الأخيار : عارف عرفت روحه الطريق إلى
سيدها فطارت إليه . وذاق قلبه حلاوة الطاعة وعز العبودية فتبتل إلى ربه تبتيلاً .
وأنابت نفسه إلى خالقها على شوق ومحبة فأناخت على باب الحبيب حتى أذن لها
بالدخول إلى وطنها الأول . فطاب هنالك المقام وارتقت فى الولاية إلى أعلى مقام .
إنه الصوفى الشامخ والعارف الراسخ : سيدى ممشاذ الدينورى رضى الله تعالى عنه
وعنا به وأمدنا بمدده فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

هو أحد أركان التصوف فى القرن الثالث الهجرى ممن ترجموا الهدى القرآنى
الحنيفى إلى سلوك عملى ، وعرفت عنهم الأحوال والمقامات ، ومهدوا الطريق
لرعييل لاحق من الصفوة ينسج على منوالهم مسترشداً بمناهجهم التربوية الروحية
التي لم تعرف الإنسانية لها نظيراً لأنها إرث النبوة وثمره للتحقق بالكتاب والسنة .
وعارفنا الإمام ممشاذ على الرغم من سطوع شهرته فى الآفاق الصوفية والإذعان

لمكانته السامية، إلا أنه لم ينل حقه فى التاريخ كإمام عارف وصوفى محقق. وقد استرعى انتباهى وأنا أقرأ فى كتب القوم ما أثر عنه من فقرات قليلة هنا وهناك أجدها قليلة فى الكم إلى حد لا يفى بحاجة المتطلع لمعرفة الكثير عن هذا الإمام ولكنى أجدنى أقف مشدوها ومشدوداً أمام كل جملة قرأتها لهذا العارف، وأمام كل فقرة يترجم له بها أحد مؤرخى التصوف. على الرغم من أن أحدا ممن قرأت له عن سيدى ممشاذ لم يشر إلى الجانب الشخصى من حياته من نسب أو مولد أو نشأة على الإطلاق. وقد كان هذا مثار فضول علمى وتعطش أكبر إلى التعرف والبحث عن تلك الشخصية الفذة.

وقد اختلف المترجمون لسيدى ممشاذ فى ضبط اسمه. فالإمام أبو نعيم فى الحلية والإمام القشيري فى رسالته ثم الإمام الشعرانى فى طبقاته كلهم يذكره باسم (ممشاذ) بالذال المهملة. بينما يذكره الإمام الطوسى فى اللمع والإمام السلمى فى طبقاته باسم (ممشاذ) بالذال المعجمة. وأيضاً فصاحب اللمع يذكره بكسر الميم الأولى بينما يضمها الإمام السلمى. ودينور التى ينسب إليها الإمام ممشاذ : هى - كما يقول ياقوت فى معجم البلدان : (مدينة من أعمال الجبل قرب (قرميسين) . وهى بلدة تقارب فى حجمها ثلثى همذان. كثيرة الزروع وإليها ينسب كثير من أهل العلم والفضل).

أما عن تاريخ وفاة العارف ممشاذ : فيذكر الإمام السلمى - نقلاً عن أبى زرعة الجنيدى - كما يذكر صاحب الرسالة القشيرية : أنه مات سنة تسع وتسعين ومائتين هـ.

وإذن فقد عاش الإمام الدينورى فى القرن الثالث الهجرى حتى نهايته تقريباً وعاصر جمهرة صوفية هذا القرن الذين ارتفع بهم صرح التصوف نظرياً وعملياً وكان من أبرز من عرفه شيخنا من أئمتهم : سيد الطائفة الإمام الجنيد رضى الله تعالى عنه وعنا به . وقد ذكر الإمام الطوسى فى صدارة باب : مكاتبات بعض الصوفية إلى بعض من كتاب اللمع : رواية عن أحمد بن على الكرخى يقول فيها:

(كتب الجنيد إلى ممشاد الدينوري رحمه الله تعالى كتابا، فلما وصل الكتاب إليه قلبه وكتب على ظهره: (ما كتب صحيح إلى صحيح قط ولا افترقا في الحقيقة)^(١) وفي هذه الفقرة الوجيزة تكمن أسرار وأسرار دونها بحار وبحار . لكن الذي نستطيع أن نستنبطه منها : أن الإمام ممشاد آنذاك كان لا يزال في الطريق سالكا بينما قد وصل الإمام الجنيد إلى نهاية السلوك فصار صحيحا . ومن ثم كانت المكاتبه وإنما تسقط المكاتبه بين صحيحين يرى كل منهما الآخر بنور الله في قلبه فلا يحتاج لمكاتبته لأنه لا افتراق بينهما في الحقيقة .

ولقد مضى الإمام ممشاد في طريق الله حتى صار صحيحا في مفهوم القوم . أو بمعنى أصح في مفهومه هو . فقد صحب العديد من شيوخ التصوف وأئمتهم في عصره . وقد صرحت بذلك المصادر المترجمة له دون أن تفصل شيوخه في الطريق . بيد أنها توافقات على ذكر واحد منهم بالتعيين وهو الإمام العارف سيدي يحيى الجلاء رضى الله عنه . وسيدي يحيى الجلاء هو أحد أجلاء الصوفية العظام، صحب سيدي بشر بن الحارث وروى عنه كما صحب الحكيم الترمذي وطاهر المقدسي وغيرهم وابنه هو عارف الشام الكبير سيدي أبو عبد الله بن الجلاء الذي كان يعده الصوفية أحد ثلاثة لا نظير لهم في وقتهم : الإمام الجنيد ببغداد وأبو عثمان بنيسابور وهو بالشام^(٢) .

وقد روى صاحب (تاريخ بغداد) عن محمد بن داود الرقي أنه قال : قلت لابن الجلاء : لم سمى أبوك الجلاء ؟ فقال : (ما جلا أبى قط ، وما كان له صنعة قط ، وكان يتكلم على الناس فيجلو القلوب فسمى الجلاء) .

هذا هو أحد شيوخ الإمام ممشاد الذين تتلمذ على يديهم . وقد ذكرت المصادر أيضاً أن سيدي ممشاداً قد صحب الطبقة التي فوق العارف الجلاء أيضاً . لقد دخل سيدي ممشاد الطريق على تعطش ونهم . وحين وضع القدم في أول

(١) انظر اللمع للسراج الطوسي : ص ٢٠٥ .

(٢) انظر طبقات الصوفية للإمام السلمي ص ١٧٦ .

الطريق أضاءت له منارات العرفان في عصره ، وتوقدت عزيمته وارتفعت همته إلى أفق النور فلم يرتد طرفه إلى الأرض ثانياً . لقد صار قلبه علوياً لا يخلد إلى الطين ولا ينقاد للهوى . فمن كان عبداً لله تحرر روحه من عبودية ما سواه .

وكانت إشارة البدء على يد شيوخ الطريق الذين صحبهم سيدي ممشاد كما أشرنا . واقتضاه ذلك الاقتفاء لأثار شيوخه والمتابعة لهم أن يسبح في الأرض تلمساً للمناهل العذبة والموارد الدفافة التي يروى منها تعطشه إلى النور . وكان له مع كل شيخ درس وعظة ولمحة وإشارة . بيد أن مفتاح الوصول لا يكون للمريد - عادة - إلا عند شيخ واحد . وهذا نموذج من تلك الإشارات المضيئة التي انتفع بها شيخنا ممشاد من شيوخه في سلوكه .

يروى الإمام السلمي في طبقاته أنه كان يقول : (رأيت في بعض أسفارى شيخاً توسمت فيه الخير . فقلت يا سيدي كلمة تزودني ، فقال : همتك فاحفظها فإن الهمة مقدمة الأشياء . ومن صلحت له همته وصدق فيها صلح له ما وراءها من الأعمال والأحوال ^(١) .

واشتعلت جذوة همة العارف ممشاد حتى طارت به في معاريج الفلاح . فأكب على العمل الدائب والخدمة الدائمة لمن سكن حبه في أحشائه ووقر سره في قلبه عكف على العبادة بشتى أشكالها وصورها فلم يدع باباً من أبواب البر إلا وكان له فيه قدم . وسارع إلى النوافل المقرية إلى الله بعد الفرائض المحببة إليه فأودعها أنفاسه، وتعايش بوجدانه مع الطاعات والقربات فكان يعبد الله على حب وشوق . وكانت آدابه مع شيوخه في الطريق كفيلة بأن تدخله في زميرتهم . كانت مثلاً علياً في التواضع والخلق السامي يقول رضى الله عنه : (ما دخلت قط على أحد من شيوخى إلا وأنا خال من جميع مالى أنتظر بركة ما يرد على من رؤيته أو كلامه ، فإن من دخل على شيخ بحظه انقطع بحظه عن بركات رؤيته ومجالسته وأدبه وكلامه) ^(٢) .

(١) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمي : ص ٣١٨ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٣١٧ .

وكان منطق سيدى ممشاد فى الصحبة نابضاً بالحكمة الرفيعة يقول قدس سره : (صحبة أهل الصلاح تورث فى القلب الصلاح ، وصحبة أهل الفساد تورث فيه الفساد)^(١) .

ولقد صحب سيدى ممشاد أهل الصلاح حتى صلح والصالح فى عرف الطريق : هو من صلح لحضرة الله عز وجل . وذاق الإمام ممشاد شراب القوم ونهل من حياض المعرفة ، وأخذ يترقى ويترقى وقلبه مستغرق مع الله ، وجوارحه نابضة بطاعة الله حتى صار ريانياً صرفاً وعارفاً حقاً فأذعنت له جمهرة أهل التحقيق وشهدوا له بالرسوخ والعرفان والتمكن . وها هو ذا الإمام السلمى يصفه فى ترجمته من طبقاته بأنه : (من كبار مشايخهم)^(٢) ويقول عنه أنه : (عظيم المرمى فى هذه العلوم ، أحد فتيان الجبال ، كبير الحال ، ظاهر الفتوة)^(٣) .

ولنا مع هذه الفقرات وقفات وسبحات ، إذ إن عبارات الصوفية حين تطلق فى مضممار الوصف والتعريف توزن الذرة منها بأطنان الذهب ؛ لأنه الحقيقة بجوهرها عارية عن أى شوائب تخرج بها عن نطاق الحق الصرف . فسيدى أبو عبد الرحمن السلمى يشهد للإمام ممشاد أولاً : بأنه من كبار مشايخ الصوفية . ولا يجدر بصوفى أن يحسب فى عداد المشايخ حتى يكمل تربية وسلوكاً وحالاً ومقاماً ليتأتى له أن يرى غيره على منهج خاص استحق به أن يكون شيخاً .

ولم يكتف الإمام السلمى بوصفه بالمشيخة فحسب . بل جعله من كبار مشايخ القوم فهو إذن صاحب مدرسة لها أسلوبها الخاص فى التربية والترقى .

وثانياً : شهد له الإمام السلمى بأنه عظيم المرمى فى علوم الحقائق . وهى العلوم الوهبية اللدنية التى أوتيت لسيدنا الخضر عليه السلام كما قال سبحانه : ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾^(٤) .

(١) المصدر نفسه : ص ٣١٨ .

(٢) ، (٣) المصدر نفسه : ص ٣١٦ .

(٤) سورة الكهف الآية ٦٥ .

وكلمة : عظيم المرمى هنا ، ومن الإمام السلمى بالذات تحتاج إلى مجلدات)).

ولكن علوم القوم فى الحقائق مضمون بها على غير أهلها فلا تغشى إلا لمن صلح وتزكى . ومن ثم لا يمكن الوقوف على تلك العلوم نظراً أو اكتساباً كما لا يتسنى التعرف عليها ممن لم يدخل فى عداد القوم . وإذن فهذه العبارة تجسد لنا مقام (العارف) ممشاد ومنزلته فى المعارف الإلهية .

ثم ثالثاً: قوله (أحد هتيان الجبال) : يعطينا أن الإمام ممشاد كان يؤثر منطق العزلة والسياسة فى الجبال . وذلك أن الصوفى حين يصافى من جانب الحق تعالى : لا يجد له راحة إلا فى التفرد لحبيبه والانقطاع التام إليه فيحظى بنعيم الأنس الإلهى والوصل الربانى ويكون وحدانى الذات لا عيش له إلا مع ربه .

ثم يصفه الإمام السلمى رابعاً : بأنه كبير الحال . والحال يعرفه الإمام أحمد ضياء الدين النقشبندى شيخ شيخنا العارف بالله تعالى مولانا الشيخ جودة إبراهيم قدس الله سرهما ورضى عنهما وعنا بهما بأنه : (ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير عمل ولا اجتلاب كحزن أو خوف أو بسط أو قبض أو ذوق . ويزول بظهور صفات النفس سواء تعقبه المثل أو لا . فإذا دام وصار ملكا سمي مقاماً^(١) .

وعبارة كبير الحال توحى بعظم الواردات التى سرعان ما تتمكن فى القلب فتصبح مقامات .

ثم خامساً وأخيراً : يصفه الإمام السلمى بأنه ظاهر الفتوة . والفتوة عند العارفين مقام سام من مقامات الخواص المقربين . وقد عبر عنه شيخ شيخنا الإمام أحمد ضياء الدين فى (جامع الأصول) بمعمان تبدل فيها الأرواح إذ قال قدس سره : (وأصلها فى هذا القسم : طهارة القلب عن غواشى النشآت والرجوع إلى صفاء الفطرة حتى يتصف بالعدالة التى هى جماع الفضائل الخلقية ، وظل الوحدة الحقيقية ، ويتنزه عن الرذائل النفسية والألوات الطبيعية .

(١) انظر : جامع الأصول فى الأولياء وأنواعهم وأوصافهم لسيدى أحمد الكمخشانوى ص ٥٨ .

وصورته فى البدايات : الوفاء بعهد الإيمان وعقود الإسلام وترك الخصومة مع الأنام .

وفى الأبواب : نسيان الأحقاد والأذيال والتغافل عن الزلات .

وفى المعاملات : قطع النظر عن الأعمال - أى عن رؤيتها - والإعراض عن الأعراض ودرجتها فى الأصول : ألا يتعلق فى المسير إليه بدليل ولا يأنس مما سواه بخليل .

وفى الأدوية : تنوير العقل بنور القدس وتنزيهه عن الميل إلى جانب الوهم والحس .

وفى الأحوال : الاكتفاء بالمواهب والارتقاء عن ريب المكاسب .

وفى الولايات : التخلّى عن كمالات القلب والتحلّى بصفات الحق . وفى الحقائق : بذل الروح للفوز بحياة المحبوب .

وفى النهايات : القيام بالحق من غير رسم ، والوقوف مع الحقيقة لا مع الاسم (١) .

أرأيت إلى هذا المرتقى السامى الذى ارتقاه عارفنا الإمام ممشاد وعبر عنه شيخ شيخنا الإمام أحمد ضياء الدين ؟؟ إنه مرتقى أهل الفتوة العارفين .

ولقد استطردنا للتعرف على حقيقة ما شهد به عدول الصوفية لسيدي ممشاد . ولكنه استطرد فى الصميم يهدف إلى فتح الأقواس لإيضاح عبارات قليلة تحمل جبالا من المعانى تحققت فى الإمام ممشاد . فرأينا عوضا عن قلة ما ترجم به أن نبسط القليل مما قيل فى شأنه مع التحليل لمصطلحات القوم التى تنطبق عليه من خلال شهادتهم له .

ولكن ما الذى يشهد للإمام ممشاد من خلال نفسه هو ؟؟

(١) انظر المصدر الأخير : ص ٢٠٣ .

إنها أقواله المعبرة عن حاله وسلوكه ، ولا سيما أن من أخص صفات الصوفى أنه لا يتكلم إلا عن ذوق وتجربة ذاتية .

ولنا أن نتساءل : ما سر تفرد هذا الإمام فى عالم الولاية والتحقيق والمعرفة .
والجواب بأيسر منطوق : هو الاصطفاء الإلهى المحض والاختيار الريانى الذى أدخل هذا العارف فى زمرة المقربين .

ثم هنالك جانب مكتسب حصله الإمام ممشاد بجهاذه الروحى وعباداته المتصلة وسلوكه للطريق . ولكنى أعود فأقول : إن هذا الجانب الكسبى نفسه هو وليد التوفيق الإلهى، فيرد آخر الأمر إلى الهبة المحضة . فمأذا عن جوانب السلوك عند العارف ممشاد من خلال أقواله هو ؟ نجده يركز بصفة خاصة على الحضور مع الله فى الطاعات وعدم الغفلة عنه بدوام ذكره منددا بقبح الغفلة ومبرراً لذلك إذ يقول : (ما أقبح الغفلة عن طاعة من لا يفقل عن برك ، وما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يفقل عن ذكرك) (١) .

ولا يتأتى محو الغفلة إلا بإخلاء القلب لله وفراغه من السوى وذلك الفراغ يستلزم الزهد فى الدنيا كما يقول عليه الرضوان : (فراغ القلب فى التخلّى مما تمسك به أهل الدنيا من فضول دنياهم) (٢) ثم يؤكد لنا الإمام ممشاد أن التوكل على الله بالمفهوم الصوفى الصحيح للتوكل من أعظم مقومات الوصول إليه سبحانه .

وقد سئل سيدى ممشاد عن حقيقة التوكل فقال : (التوكل حسم الطمع عن كل ما يميل إليه قلبك ونفسك) (٣) .

ومستند هذا التوكل عند سيدى ممشاد : هو الثقة فى الله . ومحال أن يصل إلى الله عبد لم تكتمل ثقته به . يقول الإمام ممشاد - فيما رواه عنه الإمام السلمى

(١) انظر طبقات الصوفية لميبدى أبى عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه من ٢١٧ وحلية الأولياء ٢٥٣/١٠

(٢) المصدر السابق : ص ٣١٧ .

(٣) المصدر السابق : ص ٣١٨ .

بإسناده - (لو جمعت حكمة الأولين والآخرين ، وادعيت أحوال السادة من الأولياء : فلن تصل إلى درجات العارفين حتى يسكن شرك إلى الله تعالى وتثق به فيما ضمن لك)^(١) .

وحين يسكن سر العبد إلى ربه ويتوكل عليه ترتفع همته من الأكوان إلى المكون فيصير في حرز الله وأمانه ويصبح من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وقد صاغ الإمام ممشاد هذا المضمون في قوله : (من يكن الله همته لم تستقطعه الأقدار ولم تملكه الأخطار)^(٢) .

ونتساءل عن المعرفة عند سيدي ممشاد : ما السبيل إليها ؟ وما غايته ؟ ويجيبنا رضى الله عنه بقوله : (جماع المعرفة : صدق الافتقار إلى الله تعالى)^(٣) فطريق المعرفة إذن هو صدق العبد في شعوره بالافتقار إلى ربه تعالى فيلوذ به ويتقرب إليه بطاعته ومحبته فيدنيه مولاه من حضرته ويعرف به . وعندما يعرف العبد ربه يتزايد افتقاره إليه ، وكلما افتقر إليه اغتنى به والفنى بالله غاية معرفته ، وبين الوسيلة والغاية لا انفكاك عن الافتقار إلى الله فهو عماد المعرفة الحقة والعبودية الخالصة .

ويصف لنا الإمام ممشاد الطريق إلى الله بأنه طويل وشاق ولا يقدر عليه إلا الأبطال الأقوياء يقول رضى الله عنه : (طريق الحق بعيد ، والصبر مع الحق شديد)^(٤) . أجل .. إن الغاية سامية فلا بد أن يكون صعباً مرهاها . ولكن لا بعيد على مريد . والمريد هو الرامى بأول قصده إلى الله تعالى فلا يلتفت عنه حتى يصل إليه . وهو في أول طريقه مريد وفي وسطه سالك ومتصوف وفي منتهاه صوفي وواصل .

(١) انظر الحلية لأبي نعيم : ٣٥٢/١٠ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) انظر : طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمى ص ٣١٦ .

(٤) المصدر الأخير .

والمريد آداب عند سيدى ممشاد يوضحها بقوله رضى الله عنه : (آداب المريد فى أربعة أشياء : التزام حرمان المشايخ ، وخدمة الإخوان ، والخروج عن الأسباب ، وحفظ آداب الشرع على نفسه) (١) .

هذه هى الآداب التى تمثل منهج الإمام ممشاد فى التربية وتعكس لنا مشربه السلوكى واتجاهاته العملية التى تجسد طابع مدرسته الصوفية .

فهو أولا: يبحث على التزام حرمان المشايخ . والمراد هنا : الكاملون من أهل الحقائق . فتأدب المريد معهم والانقياد لأوامرهم هو مفتاح السلوك .

ثم هناك واجب آخر يحدده الإمام ممشاد تجاه إخوان الطريق هو خدمتهم والتواضع لهم . وفى ذلك جهاد للنفس وخروج عن حظها . وهو باب عظيم من أبواب الفتح .

ثم الأدب الثالث وهو الخروج عن الأسباب وليس المراد به عدم مباشرة الأسباب توكلا كما فهم الجهلة من خصوم التصوف . بل المراد الخروج عن رؤية تأثيرها فى المسببات بإسناد الحول والقوة لله وحده سبحانه .

ثم يأتى عماد هذه الآداب ، وأساسها الرئيسى وهو (حفظ آداب الشرع) فيقصم ظهر أعداء الصوفية الذين يرمونهم بالتحلل من الشريعة بينما لا يعتبر الصوفية من يتحلل من الشرع مسلما فكيف يدخل فى عداد الصوفية وهم الذين تحققوا بأعلى مراتب الإسلام ؟

إن قمة الإسلام وحقيقته العليا هى إسلام الوجه لله فى مقام الإحسان وهو مقام المشاهدة كما يطلق عليه الصوفية وفى هذا المقام يحضر العبد مع ربه ليراقب مشاهدته له أو يشاهده هو فيكون فى غيبة عن الأكوان بحيث لا تؤثر فيه ولا تنال من حضوره مع ربه ، وهكذا كان دأب العارف سيدى ممشاد فقد روى الإمام القشيرى فى رسالة بسنده عن أحمد بن على الكرخى أنه قال : (كان جماعة من

(١) المصدر نفسه / ٢١٨ والرسالة القشيرية بتحقيق د . عبد العليم محمود ١٤٤/١ .

الصوفية متجمعين في بيت الحسن القزاز ومعهم قوالون يقولون ويتواجدون فأشرف عليهم ممشاد الدينوري فسكتوا . فقال : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلو جمع ملاهي الدنيا في أذن ما شغل همي ولا شفى بعض ما بي (١) .

لقد انشغل سيدي ممشاد بالله حتى فقد قلبه مع الله إلى الأبد ، يقول الإمام الطوسي في اللمع : (سمعت بعض أصحاب ممشاد الدينوري يحكي عن ممشاد رحمه الله تعالى : أنه اعتل علة شديدة فدخل عليه أصحابه عائدين له . فقالوا : كيف تجدك ؟ قال : لا أدري ولكن سلوا العلة كيف تجدني ؟ فقالوا له : كيف تجد قلبك ؟ فقال : قد فقدت قلبي منذ ثلاثين سنة (٢) .

لقد صار قلبه مع ربه فلم تعد فيه بقية يتلفت بها لما سوى الله . حتى ولو كانت الجنة بنعيمها . انظر إلى الإمام القشيري وهو يقول في رسالته : (دخل جماعة على ممشاد الدينوري في مرض موته فقالوا : ما فعل الله بك وما صنع ؟ فقال ، منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرتها طرفي) (٣) وقالوا له عند النزاع : كيف تجد قلبك ؟ فقال : منذ ثلاثين سنة فقدت قلبي (٤) . ومن الأسس التي بنى عليها الإمام ممشاد منهاجه الصوفي : إسقاط رؤية الخلق تخلصا من الرياء الذي يطلق عليه الصوفية : الشرك الأصغر . يقول سيدي ممشاد : (الأسباب علائق ، وهي التعرّيج مواقع ، والاستثناء إلى مسبوق القضاء فراغة وأحسن الناس حالا من أسقط عن نفسه رؤية الخلق ، وراعى سره في الخلوات مع الله ، واعتمد عليه في جميع الأمور) (٥) .

وحين سقطت رؤية الخلق عند سيدي ممشاد وفقد قلبه مع الله تعالى : ألقى اختياره في بحر التدبير الإلهي فمنحه الله تعالى سر (كن) الذي لا يناله إلا الربانيون من عباد الله تعالى . ولكن هل استعمل سيدي ممشاد سر (كن) ؟ كلا . لأنه قد ترك اختياره لله تعالى بالكلية إذ فقد قلبه معه .

(١) انظر : الرسالة القشيرية ٦٥٥/٢ .

(٢) انظر اللمع للإمام الطوسي : ص ٢٧١ .

(٣) انظر : الرسالة القشيرية (المحققة) : ٥٩٧/٢ .

(٤) انظر طبقات الصوفية للإمام الملمى : ص ٣١٨ .

ثم إنه وهو العارف المحقق العليم بآداب الحضرة الإلهية قد أثر التأدب مع الله تعالى ففقت إرادته في إرادة مولاه . يروى الإمام العارف سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه وعنا به أن سيدي ممشاد كان يقول : (فقدت قلبي من عشرين سنة مع الله تعالى ، وتركت قولي للشئ كن فيكون منذ عشرين سنة أدبا مع الله عز وجل) . ثم يعلق مولانا الشعراني على ذلك بقوله : (قال بعضهم معناه أنه كان يرجع إلى قلبه ثم يرجع بقلبه إلى الله . ومعنى : تركت قولي للشئ كن فيكون : أنه كان مجاب الدعوة كلما دعا أجيب . ثم ارتفع عن ذلك إلى الله فصار بمراد الله لا بمراده فترك الدعاء ا. هـ (١) .

ثم يعرفنا الإمام ممشاد بمعاريج المعرفة والقرب قائلاً : (أرواح الأنبياء في حال الكشف والمشاهدة وأرواح الصديقين في القرب والاطلاع) (٢) .

أما كرامات سيدي ممشاد فتكتفى منها بذكر هذه الكرامات التي رواها الإمام السلمي بسنده عن فارس الدينوري يقول : (خرج ممشاد من باب الدار فنبج عليه كلب فقال ممشاد (لا إله إلا الله) فمات الكلب مكانه) (٣) ا. هـ .

لقد تحقق بسر لا إله إلا الله فصار من خواص العارفين . رضي الله عنك ياسيدي ممشاد وجعلنا في معيتك من خواص أحبابك في الدنيا والآخرة آمين .

× × ×

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضي الله عنه ٨٨/١ .

(٢) المصدر الأخير .

(٣) انظر : طبقات الصوفية للإمام السلمي : ص ٣١٧ .

نهاية القرن الثالث وأول القرن الرابع

- ١ - سيدى رويم رضى الله عنه ٣٠٢
- ٢ - سيدنا أبوبكر الكتانى رضى الله عنه ٣٢٢
- ٣ - سيدنا الشبلى رضى الله عنه سنة ٣٣٤

«سيدى رويم بن أحمد البغدادي رضى الله عنه»

لله عز وجل خواص من عباده اصطفاهم لولايته وأمد أرواحهم بالنور الساطع عن جماله القدسي، فنجذبت نفوسهم إلى رحال طاعته، وعقولهم إلى رياض معرفته، وأسرارهم إلى أهق مشاهدته أجلسهم على بساط القرية وكساهم حلل التقريب والمحبة، فأضحوا رياحين الوجود ونخبة البرية رضى الله عنهم وجعلنا منهم ومعهم في الدنيا ويوم الدين.

من صفوة أولئك المقربين: عارف جذبته أنوار العناية ليحتل مكانته في صفوف الأقطاب المحمديين، والأئمة الراسخين إنه الإمام الواصل والعارف المحقق سيدى أبو محمد رويم بن أحمد بن رويم بن يزيد البغدادي رضى الله عنه وعنا به في معيته الشريفة دنيا وأخرى آمين.

هو أحد الشموس الساطعة التي سكبت ينبوع الضياء في أرواح السائرين وأمدت بالنور والعرفان بصائر السالكين إلى جناب رب العالمين.

بزغ كوكب هذا العارف في القرن الثالث الهجري الذي تفجرت فيه منابع الثروة الروحية وارتفعت فيه أعلام التصوف لتظل موكب السائرين على الدرب المحمدي. ولم تعدد لنا المصادر التاريخية في أى سنة ولد ولكنها أرخت لوفاته بسنة ثلاث وثلاثمائة (١) هـ.

وقد ذكر سيدى عبد الوهاب الشعراني رضى الله عنه وعنا به أن سيدى رويما قد دفن بالشونيزية في التاريخ المذكور (٢).

(١) انظر الطبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمي : ص / ١٨٠.

(٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضى الله عنه ٧٥/١.

وتذكر لنا المصادر أيضا أن العارف رويما بغدادى الأصل، عريق المنبت، وقد اكتسب من بيئته نسبة إلى العلم والدين تلاقت مع فطرته المتألقة يتحدث عنه الإمام السلمي في طبقاته قائلا: (وهو من أهل بغداد من جلة مشايخهم وجده رويم ابن يزيد، حدث عن ليث بن سعد وغيره وقيل كنيته أبو بكر)^(١).

ويكشف لنا الإمام أبو نعيم في (حلية الأولياء) عن مكانة الإمام رويم في التصوف والعلم وذلك في مطلع ترجمته الرائعة إذ يقول: (ومنهم الفطن المكين، له البيان والتبيين والرأى المتين رويم بن أحمد أبو الحسن الأمين كان بالقرآن عالما، وبالمعاني عارفا وعلى الحقائق عاكفا، قلد بفصل الخطاب، ولم تؤثر فيه العلل والأسباب، كان سمى جده رويم بن يزيد المقرئ الراوى عن ليث بن سعد وإسماعيل ابن يحيى التميمي)^(٢).

وتعطينا الروايات المتعددة في جزم مؤكد أن سيدي رويما كان قرآنيا منذ البداية ومن بيت قرآنى كان عالما بالقرآن الكريم وقراءاته ملما بعلومه الواسعة وفي الوقت نفسه كان غارقا في معانى التنزيل الحكيم وفيوضاته الدنية لا تدخل تحت طائلة العلم الكسبي فطرق باب الجود الإلهي لينال من عطاء الله وفتحته.

وقد وجد الطريق لكل ذلك في إصلاح النفس والقلب للوصول إلى تحقيق مرتبة التقوى (واتقوا الله ويعلمكم الله)^(٣).

وقد تحقق فعلا من أن التصوف مدخل لفهم أسرار كلام الله عز وجل، ولأن طريق التصوف هو طريق العلم والعمل فقد بدأ سيدي رويم سلوكه بالتفقه والدرس مع اشتغاله بالقرآن الكريم، وعن هذا الجانب يقول الإمام السلمي في ترجمة سيدي رويم من طبقاته: (وكان فقيها على مذهب داود الأصبهاني وكان مقرئا فقرأ على إدريس بن عبد الكريم الحداد)^(٤).

(١) انظر المصدر قبل الأخير.

(٢) انظر الحلية لأبي نعيم ٢٩٦/١٠.

(٣) سورة البقرة / ٢٨٢.

(٤) انظر: طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ص / ١٨٠.

وأيضا روى الإمام أبو نعيم رضى الله عنه من مسانيد جد العارف رويم - الشيخ رويم بن يزيد المقرئ حديثا عن سيدنا جابر رضى الله عنه قال: (رأى النبی - صلى الله عليه وسلم - أبا الدرداء يمشى قدام أبي بكر. فقال يا أبا الدرداء أتمشى قدام رجل ما طلعت الشمس على رجل مسلم خير منه؟ قال فما روى أبو الدرداء بعد هذا يمشى إلا خلف أبي بكر) (١).

ومن منطق العلم والتفقه انطلق سيدى رويم إلى ساحة الجهاد الروحى وسلك الطريق فى عصر كان يزخر بالسادة الأمجاد الذى حملوا لواء التصوف واقتفوا الأثر المحمدى على هدى من ربهم ومن ثم أتيح لسيدى رويم أن يصحب كبار الأئمة والأقطاب وينهل من راحتهم زاد المسير إلى حضرة العلى القدير.

ونجده قد صاحب فى المقدمة سيد الطائفة الصوفية مولانا الإمام الجنيد رضى الله عنه وعنا به وأفاد من صحبته أيما إفادة، كما صحب العديد من أقطاب الطريق أمثال سيدى أبى سعيد الخراز، والإمام أبى العباس بن عطاء وأبى محمد الجريرى وأبى عمرو الزجاجى وأبى عبد الله بن خفيف وغيرهم من أوعية النور ومهبط الإمداد الإلهية.

وقبيل أن نتذوق أثارة من علم عن أثر تلك الصحبة المباركة يجمل بنا أن نتعرف على بعض النماذج السلوكية التى تصور منهج سيدى رويم فى الخدمة والعبادة؛ لقد بلغ سيدى رويم شأوا سامقا فى العبادة والطاعة لا يناله إلا صفوة الصفوة وهذه كلماته تنبئ عن مقامه.

يروى الإمام القشيرى - رضى الله عنه - بسنده عن سيدى أبى عبد الله بن خفيف رضى الله عنه الذى كان من أبرز المريدين المتلمذين على الإمام رويم - أنه سمع يقول: سألت رويما فقلت: أوصنى فقال: (ما هذا الأمر - أى التصوف - إلا ببذل الروح. فإن أمكتك الدخول فى هذا وإلا: فلا تشتغل بترهات الصوفية) (٢).

(١) انظر . الحلية لأبى نعيم : ٣٠١/١٠.

(٢) انظر : الرسالة القشيرية بتحقيق د. عبد الحلیم محمود ١١٦/١.

لعمري إن هذه العبارة التي أطلقها سيدي رويم لهى قاعدة السلوك التي وصل بها إلى ملك الملوك والتي لا بديل عنها للوصول فأساس الطريق هو بذل الروح لله تعالى وإفراغ الجهد فى الطاعة.

وفى بذل الروح على هذا النحو نجاتها وتحررها من ريقة التراب وقيود الأثام لكى تنطلق إلى الأفق الأعلى.

وليس المراد إهلاكها كما يتصور السذج من نقاد التصوف بأن يكلفها ما لا تطيق من المشقات حتى يزهقها. كلا وإنما يبذل المريد أو السالك روحه ونفسه لله بأن يوقفها على خدمته وينذرها قربانا لله فلا تشتغل بما سواه ، ثم نجد سيدي رويما ينهى مريده عن التقاعس عن بذل الروح لله اكتفاء بزخارف الكلام والتحاكى بمقامات التصوف مع البطالة، والاستغناء عن الأعمال بالأقوال فتلك كلها عند الصوفية المحققين ' ترهات حجب بها الصوفية الأدياء.

وقد أكد لنا الإمام الشعرانى هذا المعنى نفسه عند سيدي رويم حين قال فى ترجمته : (وكان رضى الله عنه لا يعبأ بالمريد إذا لم يبذل روحه فى الطريق)^(١) هذا عن المنهج الذى ترى به العارف رويم وتعايش عمليا مع مفهومه ثم ربى عليه مدرسته الصوفية.

أما عن التطبيق فهامى تلك نماذجه منذ البداية السلوكية لسيدي رويم: يروى الإمام الطوسى فى اللمع عن قاضى الدينور أحمد بن محمد بن سنيد يقول: (سمعت رويما يقول: اجتزت فى الهاجرة ببعض سكك بغداد فعطشت فتقدمت إلى باب دار فاستسقيت فإذا بجارية وقد فتحت باب الدار وخرجت ومعها كوز ملآن من الماء المبرد فلما أردت أن أتناول من يدها قالت لى: ويحك! صوفى يشرب بالنهار؟ وضربت بالكوز على الأرض وانصرفت. قال رويم: فلقد استحيت منها ونذرت ألا أفطر أبدا)^(٢).

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ٧٥/١.

(٢) انظر اللمع للإمام الطوسى : من ١٧.

وفى رواية الإمام القشيري يقول سيدى رويم: (فما أفطرت بعد ذلك اليوم قط)!! أى ماعدا الأيام التى يحرم صومها بالطبع كالعيدين، فالاستثناء فيها واضح القرينة.

وقد ظل سيدى رويم يترقى ويرتقى فى المجاهدة حتى عز نظراؤه، يقول الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى ترجمته من طبقاته: (وكان يقول لى: منذ عشرين سنة لم يخطر فى قلبى ذكر الطعام حتى يحضر، ولى منذ عشرين سنة أصلى الغداة بوضوء العشاء الأخيرة رضى الله عنه) ^(١) !!

عشرون سنة حتى وقت قوله هذا يصل الليل بالنهار والنهار بالليل بين صيام دائم وذكر لازم، وجوع وسهر، وتَحَنُّ وتبتل.

ثم يقول له قائل ذات مرة: كيف حالك؟ فيجيبه: كيف حال من دينه هواه وهمته شقاء، ليس بصالح تقى ولا عارف نقى ^(٢) !!

إنه اتهام النفس وهى فى ذروة الطاعة وقمة العبودية.

وبين الجهاد المتواصل والصحة المباركة لأقطاب الطريق لاحت إشراقات الفتح فى قلب العارف رويم، وشق الإلهام طريقه إلى نفسه الزكية، وتفجرت فى قلبه منابع المعرفة فنطق لسانه بالحكمة الريانية.

وقد ظهرت آثار هذا الفتح وذلك الإلهام وتلك المعرفة جلية من خلال وقائع لم يحفظ لنا التاريخ منها - للأسف - إلا قليلا. ولكنه قليل مبارك فيه.

والواقعة التى نسوقها الآن قد ضمت أربعة من أئمة الطريق الصوفى. وكان موضوع الحديث «طريق النجاة». والرواية للإمام القشيري بسنده عن محمد بن عبد الله الفرغانى يقول: (كان الجنيد جالسا مع رويم والجريرى وابن عطاء، فقال الجنيد: ما نجا من نجا إلا بصدق اللجا - أى الالتجاء إلى الله عز وجل - قال الله

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٧٥/١.

(٢) انظر طبقات الصوفية للشيخ أبى عبد الرحمن السلمى ص ١٨٤.

تعالى: (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) (١).

وقال رويم رحمه الله: ما نجا من نجا إلا بصدق التقى، قال الله تعالى: (وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم) (٢).

وقال الجريري: ما نجا من نجا إلا بمراعاة الوفا قال الله تعالى: (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) (٣).

وقال ابن عطاء: ما نجا من نجا إلا بصدق الحيا قال الله تعالى: (ألم يعلم بأن الله يرى) (٤).

ثم أدلى الإمام القشيري بدلوه فقال: ما نجا من نجا إلا بالحكم والقضاء. قال الله تعالى: (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى . . الآية) (٥). وقال أيضا: ما نجا من نجا إلا بما سبق له من الاجتباء . . قال الله تعالى: (واجتبناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) (٦) ، (٧).

إنه وصف الحكماء الريانيين لطريقة النجاة. كل يرى بمشكاة معرفته.

وكلهم من رسول الله ملتمس رشفا من البحر أو غرغا من الدميم

كذلك نجد لسيدى رويم مع أستاذ الطائفة سيدنا الجنيد عليه الرضوان مواقف يسأله فيها عن مقامات الطريق وأذواقه.

يروى صاحب الرسالة القشيرية بسنده عن سيدى إبراهيم بن فاتك يقول: سمعت الجنيد يقول - وقد سأله رويم عن الزهد - فقال: (هو استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب) (٨) وكما أهاد سيدى رويم من صحبته لسيد الطائفة رضى

(٢) سورة الزمر / ٦١.

(٤) سورة العلق / ١٤.

(٦) سورة الأنعام / ٨٧.

(١) سورة التوبة / ١١٨.

(٣) سورة الرعد / ٢٠.

(٥) سورة الأنبياء / ١٠١.

(٧) انظر: الرسالة القشيرية ٢٨٢/١.

(٨) انظر: الرسالة القشيرية ٢٩٥/١.

الله عنه وعنا به فقد أفاد كذلك من صحبته الإمام الخراز أحد شوامخ الصوفية
رضى الله عنه وعنا به .

فيروى صاحب الرسالة أيضا أن أبا علي الروذباري سمع يقول : قال لى رويم
قال أبو سعيد الخراز: (رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين) ^(١) وهذا من
باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فإن العارف يرى بنور الله ما لا يراه المريـد
من دسائس النفس التي تخرج بالعمل عن حد الإخلاص.

ومن ثم فإن ما يراه المريـد إخلاصا بحسب مرتبته لا تخفى خوافيه على
العارف فيبصر بنور معرفته ما فيه من الدخل. وهكذا استفاد سيدي رويم واستمد
من منابع النور المتدفقة وطبق هذه المعارف في سمته وسلوكه، وكابد مشقة
الجهاد، وعب ونهل من محيط العبادة، واغتسل في مطهر التصوف بماء العبودية
الحقة والتبتل الصادق والإنابة إلى المولى عز وجل. فانجلت مرآة قلبه واستقبل
إشراقات المعرفة بعد أن اكتمل سلوكا وتصفية. وعرف في أوساط بغداد بل وفي
الجو الإسلامي كله بزهده وعبادته. وعلمه وفتوحاته. وأضحى قبلة للباحثين عن
الحقيقة وإماما في الطريقة. وشهد له أكابر القوم بإمامته وتقدمه.

فهذا هو الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي الذي قال عنه الإمام
القشيري في رسالته (وهو شيخ الشيوخ وواحد وقته) ^(٢)، والذي أخذ عن سيدي
رويم وأخذ عنه القاضي الباقلاني. يروى عنه صاحب الرسالة القشيرية أنه قال:
(اقتدوا بخمسة من شيوخنا والباقون سلموا لهم أحوالهم: الحارث بن أسد
المحاسبي؛ والجنيـد بن محمد، وأبو محمد رويم، وأبو العباس بن عطاء، وعمرو بن
عثمان المكي لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق) ^(٣).

إن الصوفية قسمان: قسم أخذہ الحق تعالى منه إليه وجذبہ إلى حضرته

(١) انظر: الرسالة القشيرية ٤٤٥/٢.

(٢) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) : ١٧٣/١.

(٣) المصدر نفسه : ٧٣/١.

واستأثر به لنفسه، وأصبح من ضنائن الله عز وجل من عباده كالملامية وأرباب الأحوال والسياحين في الأرض، وهؤلاء لا معاملة لهم إلا مع الله عز وجل. وقد حدد الإمام ابن خفيف موقفنا من هذا القسم بقوله: (والباقون سلموا لهم أحوالهم) فلا اعتراض ولا إنكار عليهم: لأنهم في كفالة الله، وأنفاسهم تجرى على الموافقة للشرعية الغراء في حركاتهم وسكناتهم على الرغم مما قد يستشكل على بعض المحجوبين من أمورهم. لكن ليحذر المنكرون من معاداتهم ففيهم يقول الحق تعالى: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب).

أما القسم الآخر: وهم أهل الاقتداء والإمامة. فهم كما يقول الإمام ابن خفيف: (جمعوا بين العلم والحقائق) فلهم نصيب في الظاهر والباطن إذ نالوا الوراثة المحمدية الشريفة في العلم والهداية ظاهراً وباطناً. فهم أهل الإرشاد والتأسي والحال والمقال. لهم الصدارة عند الخلق والحظوة عن الحق. ولكلا القسمين في التنزيل الحكيم مثل ونظير. فالقسم الأول يمثل العبد الصالح سيدنا الخضر عليه السلام، والقسم الثاني يمثله كلیم الله سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والتسليم. ولا يخفى أن نبوة الكليم مشتملة على الولاية. ليتم التقابل بين القسمين.

وقد كان سيدي رويم عليه الرضوان من أهل الإمامة والاقتداء الجامعين بين العلم والحقائق. ولقد كان عارفاً من الطراز الرفيع. فالمعرفة عنده تمثل الحق الأول والأساسي لله على خلقه. يقول الإمام أبو نصر الطوسي رضي الله عنه: سئل رويم عن أول فرض افترضه الله عز وجل على خلقه ما هو؟ فقال: المعرفة. لقوله عز وجل (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ^(١) قال ابن عباس: إلا ليعرفون ^(٢).

ولقد عنى سيدي رويم بإنارة السبيل أمام طلاب المعرفة وتبيان المناهج المتهاففة التي خذلت أصحابها في الوصول إلى مقصدهم. فيذكر لنا صاحب

(١) سورة الداريات / ٥٦.

(٢) انظر: الرسالة القشيرية (المحققة) ٢٦/١.

الحلية مقالاً مطولاً للإمام رويم يصنف فيه طبقات المنتسبين إلى علم المعرفة الذين تسوروا على ذرى قصرت عنها مقاماتهم عجزاً عن بلوغها واغتراراً بما سمعوه من علوها . وقد علل لوقوعهم فى هذا المهوى بأمرين : أحدهما : استعجال المنزلة قبل وقتها عجزاً عما عمل فيه الصادقون وبذله المحققون . والآخر : الجهل بطريق السالكين إليها ، وإغفال التقوى عما لها وعليها .

واستعرض سيدى رويم تلك الفرق التى وقع فيها اللبس ، فيقول رضى الله عنه فى وصف إحدى هذه الفرق : (وفرقة أخرى من العارفين - أى المنتسبين للمعرفة النظرية دون التحقق بها - أشرفت على عجائبهم فى مقاماتهم وعظيم طرقتهم فى سيرهم وسيرهم وقطع مفازمهم فى تيه مضلة العقول وتنسم عقاب الحيرة ، وقطع لجة الهلكة وصراط الاستقامة . فرأيتهم بعين لا يستتر عنها متوار فى حجابها ، قد خدع المغرور منهم بمكانة .

فمن بين صريح تحت إشارات فى بحر عميق بين الجمع والتفريق . فرأيته أسوأ ممن خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ^(١) .

ولقد قصد سيدى رويم ببيانه الحكيم لانحراف تلك الفرق ، تحذير المبتدئين والمريدين وطلاب المعرفة الاغترار بأولئك المغترين والنسج على منوالهم .

فطريق المعرفة عند سيدى رويم هو التحقق بالشريعة المحمدية علماً وعملاً والاهتداء فى السلوك بصحبة أهل الحقيقة . وهى صحبة أهل الحقيقة يقول سيدى رويم قدس الله سره : (قعودك مع كل طبقة من الناس أسلم - أى أقل تبعة - من قعودك مع الصوفية ، فإن كل الخلق قعدوا على الرسوم - أى الظواهر - وقعدت هذه الطائفة على الحقائق ، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع وطالبوا هم أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق .

(١) انظر : الحلية لأبى نعيم : ٢٩٩/١٠ .

فمن قعد معهم وخالفهم فى شىء مما يتحققون فيه نزع الله نور الإيمان من قلبه) (١).

أما عن معرفة سيدى رويم بأحوال الصوفية ومقاماتهم وعلومهم، وأذواقهم فهو البحر الزاخر والإمام الحجة، وهذه قطرات من فيوضاته فى مقامات التصوف يرويها الإمام أبو نعيم عن محمد بن إبراهيم إذ يقول: (سمعت رويما يقول: الصبر ترك الشكوى، والرضا: استلذاذ البلوى، واليقين: المشاهدة، والتوكل: إسقاط رؤية الوسائط، والتعلق بأعلى الوثائق، والأنس: أن تستوحش من سوى محبوبك).

وسئل عن المحبة فقال: الموافقة فى جميع الأحوال وأنشد:

ولو قيل لى مت مت سمعا وطاعة وقلت لداعى الموت أهلا ومرحبا (٢)

وأما عن مفهوم التصوف عند سيدى رويم فقد سئل فيه فقال: استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريده (٣).

وقال رضى الله عنه: التصوف مبنى على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار (٤).

رضى الله عنك يا سيدى رويم فى علياء منازل العارفين، وسقانا من بحار معرفتك ومحبتك وحشرنا فى زمرك مع خواص الحق المتقين (إن المتقين فى جنات ونهر، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) (٥).

* * *

(١) انظر: الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ١١٦/١-١١٧.

(٢) انظر العلية لأبى نعيم: ٣٠١/١٠.

(٣) انظر اللمع للإمام الطوسى: ص ٤٥.

(٤) انظر الرسالة القشيرية (المحققة): ٥٥٢/٢.

(٥) سورة القمر / ٥٤ - ٥٥.

سراج الحرم :-

« سيدى أبو بكر الكتانى رضى الله عنه »

من قبضة الرحمة الإلهية تخلصت ذوات العارفين الريانيين، فتولدت قلوبهم فى عشق متوليهم على بساط ديموميته، ونهلت أرواحهم من فيوضات العلوم المتلاطمة أمواجها فى بحار صمدانيته ، وتحيرت عقولهم فى إدراك كنه حقائق مشيئته: فهم النخبة الأصفياء والأولياء الأحباء. رضى الله تعالى عنهم، وزج بنا فى زميرتهم فى خضم أنوار: (يحبهم ويحبونه) إنه هو الولي الحميد.

ممن تولاهم ربهم بعنايته واجتباهم لرعايته ذلك الإمام الذى غمر الحب الإلهى قلبه فتعلق قلبه بربه ووهب الروح لخالقها فلم يكدر صفوها برق المحدثات، وغلب عليه شهود الحق بالحق فكان هو الدليل والمدلول.

إنه الإمام العارف والصوفى الشامخ سراج الحرم وشمس بغداد شيخ الصوفية سيدى أبو بكر محمد بن على بن جعفر الكتانى قدس الله سره ورضى عنه وعنا به فى معيته من أهل العناية المقربين.

هو أحد الأفاضل الأوائل الذين سطعت من بواطنهم إشراقات الحقائق وفاضت من منابعهم أسرار الطرائق، ونهض بهم صرح السلوك الصوفى فى أروع صوره، وأجلى مفاهيمه. عاش رضوان الله عليه فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وكانت وفاته - كما ذكر الإمام السلمى فى طبقاته - سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة (١).

والعارف الكتانى - كما يذكر الإمام السلمى أيضا: (أصله من بغداد، صحب الجنيد وأبا سعيد الخراز، وأبا الحسين النورى، وأقام بمكة مجاورا بها إلى أن مات) (٢).

(١) ، (٢) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى من ٣٧٣.

واذن: فالمدرسة الصوفية التي تربي الإمام الكتاني في أحضانها تتمثل بصفة خاصة في هؤلاء الأئمة الثلاثة الذين ذكرهم - كأصحاب في الطريق للعارف الكتاني - أكثر من مصدر تاريخي موثق، ولذكر هذه الصحبة أثره البالغ في التعرف على المنابع الصوفية التي استقى منها الإمام أبو بكر، ولاسيما أن هؤلاء الصوفية الثلاثة هم من أكبر أقطاب الطريق، وألسنته الناطقة بمنهجه وإشاراته. فالإمام الجنيد رضى الله عنه هو كما عرف به الإمام القشيري في صدارة ترجمته له في رسالته قائلًا: (سيد هذه الطائفة وإمامهم) وكما قال عنه سلطان العارفين سيدي محيي الدين بن عربي رضى الله عنه وعنا به في الفتوحات: (هو سيد أهل الطائفة) وهو الذي أسس دعائم التصوف كعلم وشيد بنيانه على أصول الكتاب والسنة.

فهو القائل رضى الله عنه: (من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة) (١).

وكما صحب العارف الكتاني سيد الطائفة فقد صحب شيخا آخر من كبار شيوخ الطريق هو سيدي أبو الحسين النوري. وقد قال عنه الإمام السلمي: (وكان من أجل مشايخ القوم وعلمائهم، لم يكن في وقته أحسن طريقة منه ولا أطف كلاما) (٢). وأيضًا قال عنه الإمام الجنيد رضى الله عنه بعد وفاته: (منذ مات النوري لم يخبر عن حقيقة الصدق أحد) وقد كان كصاحبه الإمام الجنيد أشد ما يكون تمسكًا بالشرعية وآدابها فلقد سمعه سيدي أبو محمد المرتعش رضى الله عنه يقول: (من رأيتَه يدعى مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقرين منه) (٣).

هذا هو منطق أعلام التصوف يدحض ظلم المفترين من أعداء الأولياء المدعين تحلل الصوفية وحاشاهم - من الشريعة المطهرة. أنى وهم نجومها المتلألئة في سماء الطهر والصفاء.

(١) انظر الرسالة القشيرية (المحققة) : ١٠٧/١.

(٢) انظر طبقات الصوفية للإمام السلمي ص ١٦٤.

(٣) انظر الرسالة القشيرية : ١١٢/١.

أما الشيخ الثالث الذى أفاد إمامنا الكتانى من صحبته فهو لسان التصوف سيدى أبو سعيد الخراز عليه سحائب الرضوان، وهو أحد أئمة الصوفية الناطقين بأبكار الحقائق، وقد قيل فيه أنه أول من تكلم فى علم الفناء والبقاء. وقد كان لصحبة العارف الكتانى للإمام الخراز أثر صوفى خاص، إذ صرح بعض المؤرخين بأخذه عنه الطريق. فقد قال ابن العماد فى شذرات الذهب وهو يترجم للإمام الكتانى: (أخذ عن أبى سعيد الخراز وغيره) ^(١).

ولقد شرع سيدى أبو بكر الكتانى فى دخول الطريق مستجمعا كل الوسائل التى توصله إلى غايته ومقصده، وهو بنفسه يحدثنا - فيما رواه الإمام المناوى - عن تلك الوسائل قائلا: (من يدخل هذه المفازة يحتاج إلى أربعة أشياء: حال يحمله، وعلم يسوسه، وورع يحجزه، وذكر يؤنسه) ^(٢).

إنها مقومات السلوك الصوفى التى لا بد من توافرها فى المرید لصحة دخوله الطريق.

فلا بد من توافر عنصر الموهبة الإلهية وهى التى عبر عنها سيدى أبو بكر الكتانى بقوله: (حال يحمله) لأن الأحوال عند القوم: هى مواهب الحق تعالى التى تأتى من عين الجود الإلهى، وفى مقابلتها المقامات التى يكتسبها العبد ويرتقى من الأحوال إليها.

ومن ثم قال الإمام القشيرى رضى الله عنه: (فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تأتى من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكن فى مقامه وصاحب الحال مُتَرَقٍّ عن حاله) ^(٣).

فالحال الذى يحمل المرید أول الأمر هو توافر الموهبة والعناية الإلهية والصلاحية للسلوك. ثم بعد ذلك لا بد من علم يسوس المرید ويقوده إلى العمل

(١) انظر شذرات الذهب لابن العماد ٢/٢٩٦.

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/٥١٨.

(٣) انظر: الرسالة القشيرية: ١/١٩٣.

والترقى. فلاتصوف على جهل بأمور الشريعة. إذ لابد من التبحر في علومها إما وهبا أو كسبا. ثم بعد ذلك يأتى - فى كلام الشيخ الكتانى - ركن الورع. وهو قمة التقوى التى ينبئ عليها مع الإيمان صرح الولاء كما قال تعالى: (الذين آمنوا وكانوا يتقون)^(١). ثم الأنس مع الله تعالى بدوام ذكره والحضور معه. هذه وسائل الوصول إلى الله عز وجل التى وصل بها الإمام الكتانى ووصل غيره.

والإمام الكتانى كصاحب مدرسة فى الطريق قد قنن السلوك وحدد المعالم التى يجب التعرف عليها حتى يسلك المريد على بينة. ولقد أوضح أن الطريق يتطلب من المريد الصادق التقاى الكامل فى الطاعة والعبادة.

يروى صاحب الرسالة القشيرية عن العارف الكتانى أنه كان يقول: (من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء: نومه غلبة، وأكله فاقة، وكلامه ضرورة)^(٢)، إن النوم عند رجال الطريق أخو الموت ولا بد للمريد أن يكون حيا غالب أوقاته حتى يحيا قلبه. ووقت المريد من أثنى ما وهبه الله من نعم فينبغى لذلك أن يرضن به على النوم إلا إذا غلبه النوم. كذلك إذا امتلأت البطن أثقلت عن الطاعة وأوقعت المريد فى برائن الكسل وأدخلت عليه غواشى الشهوة ومن ثم يجب ألا يأكل إلا عند شدة الجوع ويقدر الحاجة فحسب.

ثم يجب أن يتخلق المريد - من حيث هو مؤمن - يقول الحق تعالى: (والذين هم عن اللغو معرضون)^(٣)، فلا يتكلم إلا عند الضرورة. والمراد الكلام الدنيوى. وإلا فغالب أوقاته ذكر لله عز وجل. فالصمت والعزلة والجوع والسهر: أركان أربعة للوصول.

وقد أفرد لها سلطان العارفين سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه وعنا به رسالة أسماها: (حلية الأبدال) ولقد أوضح لنا الإمام الكتانى مقومات

(١) سورة يونس / ٦٣.

(٢) انظر الرسالة القشيرية : ٤٣٦/٢.

(٣) سورة المؤمنون / ٣.

السلوك وآداب المرید ودعائم الوصول من خلال تجربته الذاتية، فلقد كلاًته العناية وسهرت عليه الرعاية منذ بداية أمره. وتبحر في العلم الظاهر قبل أن يسبر غور العلم الباطن وهو علم الحقيقة. وكان إماماً في الدين، وصفه الإمام المناوي رضي الله عنه في مفتتح ترجمته في طبقاته بقوله: (... وكان يأمر الناس بتقوى الله على المنابر، وتطلق بها السنة أقلامه من أفواه المحابر)^(١).

أجل . . لقد بدأ بالعلم والتفقه، والمعرفة الواسعة بعلوم الدين ونصب نفسه لإفادة الخلق وتبصيرهم بدينهم. ثم كان الجانب العلمي الذي ضرب فيه الإمام الكتاني مثلاً هذا يشرف هذه الأمة التي أنجبته.

ففي محاريب العبادة نقف على الصورة المثلى للعابد الذاكر المتقي الخاشع. لقد غلب عليه شعور الإجلال لعظمة ربه حتى كان يقول: (لولا أن ذكره فرض على ما ذكرته إجلالا له. مثلى يذكره ولم يغفل فمه بألف توبة مقبلة ٩٩)^(٢).

لقد وقف على لب الطاعة وجوهر العبادة.

ومن ثم فقد روى الإمام الشعرائي رضي الله عنه أنه كان يقول: (العبادة اثنان وسبعون باباً، أحد وسبعون منها في الحياء من الله تعالى وواحد في جميع أنواع البرد)^(٣). ولتخلقه بالحياء من الله تعالى كان يرى نفسه أقل من أن يذكر الله عز وجل ما لم يقدم للذكر بألف توبة مقبولة !! إنه الأدب مع الله يراه أهل الله. أما درجته في العبادة فتتعرف على طرف من خلال ما رواه الإمام القشيري بسنده عن محمد بن إسماعيل الفرغاني رضي الله عنه أنه قال: (كنا نساغر مقدار عشرين سنة أنا وأبو بكر الزقاق والكتاني لا نختلط بأحد ولا نعاشر أحداً. فإذا قدمنا بلداً فإن كان فيه شيخ سلمنا عليه وجالسناه إلى الليل ثم نرجع إلى مسجد، فيصلي الكتاني من أول الليل إلى آخره ويختم القرآن. ويجلس الزقاق مستقبل القبلة، وكنت

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوي ٥٩٧/١.

(٢) المصدر السابق ٥٩٩/١ والرسالة القشيرية ٤٦٨/٢.

(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرائي رضي الله تعالى عنه ٩٥/١.

أستلقى متفكراً. ثم نصبح ونصلى صلاة الفجر على وضوء العتمة - أى العشاء -
فإذا وقع معنا إنسان ينام كنا نراه أفضلنا^(١).

هؤلاء هم فرسان الليل الذين قال فيهم ربهم: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع
يدعون ربهم خوفاً وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من
قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) (٢).

وشيخنا الكتانى على هذا القدم فى العبادة منذ بداية أمره يظل قائماً لربه
طوال الليل فى استغراق دائم ثم لا يسفر ضوء الصبح إلا وقد ختم القرآن الكريم،
وهذا هو بدء أمره فى الطريق إذ يروى سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه
وعنا به فى طبقاته أن الشيخ الكتانى كان يقول: (كنا معاشر الفقراء - فى
بداية أمرنا - نصلى إلى الصباح بوضوء العشاء. فإذا وقع منا أن أحدا ينام نراه
أفضلنا) (٣). والأعجب من العبادة نفسها عدم رؤيتهم لها حتى أن النائم كان يرى
أفضل ، النائم لعدم رؤية الطاعة من جهة ولأن النائم فى هذه الزمرة يعد صاحبا
لنومه على طهارة القلب. إنه الجهاد فى الطاعة: مجهود متصل وراحة منقطعة إذ لا
راحة فى الخدمة مع السيد الأعلى عند العبيد الخواص.

لقد تلقى الإمام الكتانى هذا الدرس منذ البداية؟ إذ يروى الخطيب البغدادي
بسند من ابن شاذان أنه قال: سمعت أبا بكر الكتانى يقول: سألت ابن الفرجي
فقلت: إن لله صفوة وإن لله خيرة. فمتى يعرف العبد أنه من صفوة الله ومن خيرة
الله؟

فقال: كيف وقعت على هذا؟ قلت : جرى على لساني، قال: إذا خلع الراحة
وأعطى المجهود فى الطاعة، وأحب سقوط المنزل - أى عند الخلق - وصار المدح
والذم عنده سواء).

(١) انظر : الرسالة القشيرية ٥٦٧/٢ - ٥٦٨ .

(٢) سورة السجدة / ١٦ - ١٧ .

(٣) انظر الطبقات الشعرانية الكبرى : ٩٤/١ .

أجل .. إنه قتل حظ النفس بالاستغراق في الطاعة والتطهر من الرياء والمعجب وغيره من معوقات الوصول. لذلك كان الإمام الكتاني دائما يحث مريديه على التخلص من الرياء.

يروى الإمام السلمي عن محمد بن عبد الله الرازي أنه قال - عن العارف الكتاني - (وسأله بعض المريدين فقال له: أوصني! فقال: كن كما ترى الناس ولا تفار الناس ما تكون) ((^(١)).

قمة الموازنة بين الظاهر والباطن ، وقمة الصدق مع الله ومع الناس.

لقد كان الإمام الكتاني يدعو دائما ومن خلال نفسه وتخلقه إلى الإخلاص في العبادة وإسقاط حظ النفس، يقول الإمام أبو نعيم رضي الله عنه: سمعنا أبا جعفر الخياط الأصبهاني يقول: (صحبت - أي الشيخ الكتاني - سنين فكان يزداد على الأيام ارتفاعا وفي نفسه اتضاعا) ((^(٢).

إنه تناسب عكسي مع النفس كلما ارتفع هو سقط حظها عنده، وهكذا شأن الربانيين ، ومن ثم كان يعبد الله على طهارة قلب ونظافة روح فحضر أروع الأمثلة.

فإلى جانب قيامه الليل وصيامه النهار وذكره وتفكره ضرب المثل الأعلى في ملازمة تلاوة القرآن الكريم. فيذكر صاحب (تاريخ بغداد) بسنده عن محمد بن عبد الله بن شاذان أنه قال: (كان يقال أن الكتاني ختم في الطواف اثني عشر ألف ختمة) ((إنها أقرب ما يتقرب به العبد إلى ربه وهي مناجاته بكلامه لاسيما أثناء الطواف ببيته الحرام.

ولقد كان سيدي أبو بكر الكتاني ملازما للحرم عابدا وذاكرا، قائما ومتفكرا حتى غلب عليه لقب لقبه به أحد أئمة التصوف وهو الإمام المرتعش إذ كان يقول فيه: (الكتاني سراج الحرم) ((^(٣). لقد أضاء الحرم بعبادته المتواصلة وسهره الدائم.

(١) انظر طبقات الصوفية للإمام السلمي / ٣٧٤.

(٢) انظر الحلية لأبي نعيم ٣٥٨/١٠.

(٣) انظر الطبقات الصوفية للإمام السلمي ٣٧٢.

وقد نتساءل عن سر مواصلة الإمام الكتاني الليل بالنهار وصلاته الصبح بوضوء العشاء، ويجيبنا رضى الله عنه فيما رواه عنه الإمام السلمي قائلا: (إن لله ريحا تسمى ريح الصبيحة مخزونة تحت العرش تهب عند الأسحار تحمل الأنين والاستفطار إلى الملك الجبار)^(١).

ولقد وقف الإمام الكتاني أيضا على ما هو أفضل من عبادة الجوارح وأرجح في الميزان من الأعمال الظاهرة، فقال عليه الرضوان: (روعة عند انتباه من غفلة، وانقطاع عن حظ النفسانية وارتعاد من خوف قطيعة أفضل من عبادة الثقلين)^(٢) ذلك لأنها عبادات القلب والذرة منها تزن الجبال من عبادات الجوارح.

بل إن هناك ما هو أفضل منزلة من سائر العبادات الظاهرة - وإن كان داخلا في نطاق مطلق العبادة - ألا وهو المعرفة بالله، فصاحب الحلية يروى أن الإمام الكتاني رضى الله عنه كان يقول: (العلم بالله أعلى وأولى من العبادة له)^(٣) وذلك بلا ريب تفضيل لنوع على الآخر من مطلق العبادة، فالمعرفة هي سنام العبادات كلها.

ومن ثم يرى الإمام الكتاني أن أهل المعرفة هم الطبقة العليا من الخواص؛ فالعارفون أولا ثم العباد ثانيا. ولذلك يقول العارف الكتاني في حكمة ربانية رفيعة: (إن الله نظر إلى عبده من عبده فلم يرهم أهلا لمعرفته فشغلهم بخدمته)^(٤) فالعبودية درجات وأعلاها للعارفين.

والعباد مع كون العارفين يفضلونهم هم بلا شك في منزلة عظيمة، ولكنها منازل ودرجات فأدنى منازل الأولياء العبادة وهى للمؤمنين الذى لهم الولاية العامة ثم العبودية وهى للخواص ثم العبودة لخواص الخواص. ومصادق هذه الموازنة التى

(١) المصدر نفسه.

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم : ٢٥٨/١٠.

(٣) المصدر نفسه .

(٤) انظر : طبقات الصوفية للإمام السلمي ٣٧٥.

عقدها سيدى أبو بكر الكتانى بين العارفين والعباد قول الحق تعالى: «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» ^(١) واليقين قمة المعرفة.

ومرة أخرى يقول الإمام الكتانى - كما روى عنه سيدى أبو طالب المكى فى علم القلوب: (العلم بالله أفضل من العلم لله ومن العبادة له) ^(٢) لذلك نجد حديث العارف الكتانى فى المعرفة حديث الذائق المتحقق. ولقد روى عن صاحبه الإمام الخراز رضى الله عنهما بعض العبارات التى تترجم منزلته فى المعرفة يقول الإمام السلمى: سمعت أحمد بن على بن جعفر يقول: سمعت محمد بن على الكتانى يقول: سمعت أبا سعيد الخراز يقول: (للعارفين خزائن أودعوها علوما غريبة وأنباء عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية ويخبرون عنها بعبارات الأزلية) ^(٣).

ولقد وجد سيدى محمد الكتانى منذ وضع القدم فى الطريق بشائر المعرفة مجسدة فيما هدى إليه من الحكمة. فالحكمة أرفع منزلة من العلم والمعرفة غاية الحكمة. ومنذ البداية فى الطريق تفجرت ينابيع الحكمة فى قلبه. يقول الإمام أبو طالب المكى فى (علم القلوب): (وقال الكتانى رحمه الله: كنت فى بدايتى أرى غليان الحكمة فى صدرى لا أمنعها من المستحق ولا غير المستحق. فرأيت ليلة من الليالى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى منامى فقال لى: إلى متى تستخف بالحكمة؟ إن من استخف بالحكمة فقد استخف بالله، ومن استخف بالله فما أسوأ حاله يوم القيامة) ^(٤).

ومن ساعتها لم يتحدث العارف الكتانى إلا بإذن باطنى لأهل الحكمة والمعرفة. وظل يترقى ويترقى من مقام النفس إلى مقام القلب ثم الروح ثم السر حيث المشاهدات والتجليات، وحيث المحو والمحق والفناء فى عين الجمع.

(١) سورة الحجر : الآية : ٩٩ .

(٢) انظر : علم القلوب لأبى طالب المكى ص ٥٥ .

(٣) انظر طبقات الصوفية للعارف السلمى ص ٢٣٢ .

(٤) انظر : علم القلوب لأبى طالب المكى . بتحقيق عبد القادر عطا ص ٤٢ .

ولقد ترجم الشيخ الكتاني عن بعض تلك المعاني بإشارات لأهل الإشارات
يتجلى فيها مقامه وقدمه في المعرفة.

يقول الإمام السلمي في طبقاته: (وقال محمد بن علي الكتاني : حقائق الحق
إذا تجلت لسر أزالته عنه الظنون والأمانى؛ لأن الحق إذا استولى على سر قهره ولا
يبقى للغير معه أثر)^(١).

أما سمات العارف وصفاته فقد تحدث الإمام الكتاني عنها حديث المتحقق
الراسخ. يقول الإمام السلمي: (وقيل للكتاني: من العارف؟ فقال: من يوافق معروفة
في أوامره ولا يخالفه في شيء من أحواله، ويتحجب إليه بمحبة أوليائه: ولا يفتر عن
ذكره طرفة عين)^(٢).

وإذن فضابط العارف موافقة الشرع في أوامره إيجابا وفي نواهيه سلبا ثم
يحب أوليائه وأحبابه تحببا إليه.

فمحبة الأولياء إذن من سمات العارفين ، وهي موصلة إلى درجاتهم متى قام
المحب بشروطها ، وهي باب عظيم من أبواب الولاية فتحه الله رحمة لخلقه ، من
أجل ذلك نحبهم ونتقانى في محبتهم ونقف على أعتابهم ونتوسل بهم إلى الله تعالى
أن يحشرنا في زميرتهم ويجعلنا من حزبهم.

أما الغافلون الجاهلون بأقدار الأولياء الذين يقدحون في موالاة الأولياء
ويحطون على من يتقرب إليهم فأولئك هم الضالون المضلون المحجوبون
المحرومون. جعلنا الله ممن يحب أولياءه ويسمى في محبتهم ويحب خلقه إليهم،
لنكون في معيتهم في الدنيا والآخرة.

ثم يذكر لنا الإمام الكتاني من سمات العارفين أن لا يفتر عن ذكر معرفته
تعالى طرفة عين. فهو حاضر معه دائما. ثم يتحدث في عبارة أخرى عن عطاء الله

(١) انظر : طبقات الصوفية للإمام السلمي ٢٧٧.

(٢) المصدر السابق للإمام السلمي ٣٧٤.

تعالى لخواصه ، وأن ذلك العطاء إنما هو شهوده به سبحانه فيقول: (وجود العطاء من الحق شهود الحق بالحق؛ لأن الحق دليل على كل شيء، ولا يكون شيء دونه دليلا عليه) (١).

ولقد تعرض العارف الكتاني رضى الله عنه لبيان كثير من الحقائق والمقامات كما تناول بإشارات ونصائحه لمريديه كثيرا من آداب السلوك فلقد سئل عن حقيقة الزهد فقال - فيما رواه الإمام السلمي - (فقد الشيء والسرور من القلب بفقد، وملازمة الجهد إلى الموت، واحتمال الذل - أى لله - صبرا والرضا به حتى تموت) (٢) ومرة أخرى يبين حقيقة الزهد - فيما رواه عنه الإمام الشعراني - قائلا: (سرور القلب بفقد الشيء، وملازمة تحمل الأذى من جميع الخلائق، وكل شيء أتاه منهم يقول، أنا أستحق أعظم من ذلك ، ويرى أنه استحق النار وصولح بالرماد) (٣). إنها قمة الزهد والفتوة التي لا يتحقق بها إلا خواص الحق تعالى وقليل فاهم.

وقال الإمام السلمي: (وسمعت أحمد بن على بن جعفر يقول: سئل الكتاني عن السنة التي لم يتنازع فيها أحد من أهل العلم. فقال: الزهد في الدنيا، وسخاوة النفس ، ونصيحة الخلق) (٤).

قال وسئل عن المتقى فقال: (من اتقى ما لهج به العوام من متابعة الشهوات وركوب المخالفات. ولزوم باب الموافقة، وأنس براحة اليقين، واستند إلى ركن التوكل، وأتته الفوائد من الله عز وجل في كل حال فلم يغفل عنها) (٥) هذه سمات الأولياء الأتقياء (الذين آمنوا وكانوا يتقون).

أما التصوف فقد عرفه الإمام الكتاني بتعريف جامع مانع في كلمتين فقال: «التصوف صفاء ومشاهدة» يشير بالصفاء إلى جانب السلوك، وبالمشاهدة إلى جانب الوصول.

(١) ، (٢) المصدر الأخير.

(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضى الله تعالى عنه ٩٤/١ .

(٤) ، (٥) انظر طبقات الصوفية للإمام السلمي / ٣٧٦ .

وهو التعريف الذى اختاره أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود للتصوف فى مؤلفاته^(١).

وتحدث الإمام الكتانى عن السماع فقال: (سماع العوام على متابعة الطبع، وسماع المريدين رغبة ورهبة، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعم، وسماع العارفين على المشاهدة، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان، ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام). ومرة أخرى يقول: (المستمع يجب أن يكون فى سماعه غير مستروح إليه. يهيج السماع منه وجدا أو شوقا أو غلبة وارد عليه يفنيه عن كل مسكون ومألوف. وأنشد على أثره:

فـالـوـجـد والشوق فى مكانى قـد منعـانى من الفرار
هـما مـعـا لا يـفـارـقـانى فـذا شـعـارى وذا دثارى^(٢)

ولقد كان الإمام الكتانى لشدة محبته لمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يراه مناما. فقد قال: (رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى المنام فقلت: يا رسول الله: ادع الله لى أن لا يميت قلبى. فقال: قل فى كل يوم أربعين مرة: يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت)^(٣).

وقال: (كان فى رأسى وجع فرأيت المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فقال اكتب هذا الدعاء. (اللهم بثبوت الربوبية ويعظيم الصمدانية وبسطوات الإلهية وبقدم الجبروتية وبقدرة الوحدانية).

قال فكتبته وجملته فى رأسى فسكن حالا. وتحدث رضى الله عنه عن أنواع الأولياء فقال: (النقباء ثلاثمائة والنجباء سبعون والأبدال أربعون والأخيار سبعة

(١) انظر: المنقذ من الضلال للإمام أبى حامد الغزالى مع أبحاث فى التصوف للدكتور عبد الحليم محمود ص/ ١٧١ نشر دار الكتب الحديثة وقد أورد صاحب الرسالة القشيرية (٥٥٤/٢، ٥٩٥) ترميزاً آخر للتصوف عند الإمام الكتانى وهو: (التصوف خلق، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء).

(٢) انظر: طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ص ٣٧٥.

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشمرانى رضى الله تعالى عنه ٩٤/١ - ٩٥.

والعمد أربعة والفوٲ واحد. فمسكن النقباء المغرب والنجباء مصر؁ والأبدال الشام؁ والأخيار سياحون فى الأرض؁ والعمد فى زوايا الأرض والفوٲ مسكنه مكة فإذا عرض حاجة من أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد ثم الفوٲ فلا يتم الفوٲ مسأله حتى تجاب دعوته (١).

رضى الله تعالى عنهم جميعا ويهم وعنك يا سيدى أبا بكر الكتانى وعنا بك
فى الدنيا ويوم الدين.

* * *

(١) انظر المصدر الأخير.

تاج الصوفية:

«الإمام الشبلى رضى الله عنه»

فى رياض المحبة الإلهية تنزل النفحات القدسية والمعارف الريانية على
قلوب العارفين الذين رفعت لهم ألوية الاصطفاء فى سجل الأزل فشربت ذواتهم من
معين الحب أحلى كاسات الوصال. وهامت أراوحهم فى محيط النور اللانهائى حتى
صارت نوراً محضاً يسبح فى النور، واحتجبت عن عيون الأغيار بحجاب البشرية،
واستترت بغلاف هذه الترايبية، فالمظهر مع الخلق، والجوهر مع الحق ، والمعنى
فى قول الشاعر:

وما هو منهمو بالعيش فيهم

ولكن مـمـدن الذهب الرغام

وفى ذرى المحبة الشامخة نلتقى بعارف من صفوة أولياء الله تعالى هو تاج
الصوفية الإمام الريانى سيدى أبو بكر الشبلى رضى الله عنه.

قطب حلقت روحه بالأفق الأعلى وارتفعت إلى منازل الصديقين، وولى
أسكرته أنوار التجريد فنطق عن حقائق التوحيد بما يقطع أوهام الحائرين وينير
دروب السالكين. فلنلتمس زادا من النور المشع من قبس عرفانه لعل جذبة من
إشراق فيضه تستل من أعماقنا أستار الحجب، وتصل بنا إلى ساحل الحقيقة وإلى
أفق النور.

ولنأخذ أولاً فيما لا بد منه من ترجمته الشخصية بالقدر الموصول لمدخل
شخصيته:

- فى تحقيق تسميته ذكر كثير من مؤرخى الصوفية أن اسمه دلف بن جحدر الشبلى، بينما ذهب آخرون إلى أن اسمه جعفر بن يونس. وقد روى السلمى هذه التسمية الأخيرة فى طبقاته عن أحد معاصريه ، ورأى ذلك مكتوبا على قبر الإمام الشبلى ببغداد^(١).

وأيا كان: فالكل متفق على الكنية واللقب اللذين اشتهر بهما سيدى أبو بكر الشبلى.

وقد ولد رضى الله عنه ببغداد^(٢) سنة ٢٤٧ هـ ولحق بربه سنة ٣٣٤ عن سبع وثمانين سنة، وهو خراسانى الأصل. وقد نشأ فى بغداد. وكان والده حاجب الحجاب للخليفة الموفق. فترى الشبلى فى ظلال النعمة والمكرمة آخذاً بنصيبه من الدين والدنيا. حيث تفقه على مذهب الإمام مالك واشتغل بعلم الحديث وروى منه الكثير. ومن مروياته هذا الحديث الذى ذكره السلمى بإسناده عن أبى سميد قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لبلال: الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا. قال: يا رسول الله كيف لى بذلك؟ قال: ما سئلت فلا تمنع ، وما رزقت فلا تخبأ. قال: يا رسول الله كيف لى بذلك؟ قال: هو ذاك وإلا هانئنا^(٣).

ومع روايته للحديث واشتغاله بالعلم فقد ترقى فى مناصب الدولة حتى صار واليا بنهاوند والبصرة، وأصبح مقربا من الخليفة واتسع مجده وشهرته، ولكن المقادير كانت تدخر له من العناية ما لم يدر بخلده. فكان بدء عهده بطريق القوم حينما هيات له الأقدار ان يحضر إلى مجلس الصوفى العارف سيدى خير النساج رضى الله عنه، فاستمع إلى حديثه فى علوم القوم ورأى ما أبداه الشيخ من عجائب

(١) انظر : طبقات سيدنا السلمى ص / ٣٣٧.

(٢) ذكر الإمام القشيري فى رسالته (١٤٨/١) فى ترجمة الإمام الشبلى أنه بفدادى المولد والمنشأ، وأن أصله من أسروشة - وهى مدينة بما وراء النهر من بلاد الهياطلة بين سيحون وجيحون - بينما ذكر الذهبى فى (تنبير أعلام النبلاء : ١٥ / ٣٦٧) أن أصله من (الشبلىة) - وهى قرية من قرى (أسروشة) وراء سمرقند ، وأن مولده بسامراء.

(٣) انظر : طبقات الصوفية لأبى عبدالرحمن السلمى ص ٣٣٨ - ٣٣٩.

أحواله وخوارقه . وأحس الشبلى بوقع كلمات الشيخ فى أعماق نفسه ووجدانه
تكشف له عن مدى تقريطه فى حق مولاه وإعراضه عن طاعة سيده، فانهمرت دموع
ندمه وتوبته وقام من مجلس الشيخ، وقد تقجرت فى أعماقه ذرات الخشية والإنابة .
وعزم على المضى فى طريق مولاه فترك مركزه ورمى بجاهه وشهرته حتى لقد
ذهب إلى مقاطعة (ودماوند) التى أقطعه إياها الخليفة، وقال لأهلها : كنت والى
بلدكم فاجعلونى فى حل . وبدأ التحول الخطير فى حياة العارف الشبلى . لقد صار
يحس بتيار جارف من التعلق بالله يهز فى أركان نفسه ، وماذا يساوى ملك الدنيا
بأسرها بجانب نعيم لحظة يتصل فيها العبد بخالقه؟ أليس منه البدء وإليه المنتهى
«فإلام الفرار من الله ومتى الفرار إليه؟» وأسرع الشبلى للقاء الإمام الجنيد سيد
الطائفة الصوفية ليتلقى عنه أصول الطريق الصوفى ولينخرط فى سلك أكرم
طائفة . إنها طائفة الريانيين من عباد الله .

وعلى أهبة الاستعداد من محيط إمدادات القوم جرى بينه وبين الإمام الجنيد
هذا الحوار الحافل بدرر المعانى ، وهو كما يذكره صاحب كتاب التبر المسبوك: أن
الشبلى قال للجنيد: (لقد حدثونى عنك أن عندك جوهرة العلم الريانى الذى لا
يضل صاحبه ولا يشقى، فإذا أن تمنح، وإما أن تبيع . فقال الجنيد: لا أستطيع أن
أبيعها لك فما عندك ثمنها . وإن منحتها لك أخذتها رخيصة فلا تعرف قدرها . ولكن
وقد رزقت هذا العزم فهو علامة الإذن، وبشير التوفيق . فألق بنفسك غير هباب فى
عباب هذا المحيط مثلما فعلت أنا . ولعلك إن صبرت وصاحبك التوفيق أن تظفر
بها . واعلم أن طريقنا طريق المجاهدين الآخذين بقوله تعالى: (والذين جاهدوا فىنا
لنهدينهم سبلنا) ^(١) فاجعل هذه الآية نصب عينيك فهى معراجك إلى ما
تريد ^(٢) .

ووضع الإمام الشبلى قدمه على أول الطريق حيث تلقى نسبته الصوفية عن
الإمام الجنيد عن سيدى السرى السقطلى عن سيدى معروف الكرخى الذى نهل من

(١) سورة الفكيوت / ٦٩ .

(٢) انظر : من أعلام التصوف الإسلامى للشيخ طه عبد الباقي سرور ١/ ١٣٣ .

نبيع آل البيت ، حيث أخذ عن سيدى على الرضا - رضى الله عنه - من جهة كما أخذ عن سيدى داود الطائى عن التابعين من جهة أخرى. وكان الارتباط بين سيدى أبى بكر الشبلى وسيدى أبى القاسم الجنيد - رضى الله عنهما - يفوق فى مدلوله حد التصور. إنها صعبة الولاية فى طريق الحق عز وجل، وإنها خلة الروح على صراط المحبة، ولقد كان كل منهما كبيراً فى عين الآخر شامخاً فى منزلته سامقاً فى رفعة. ولقد بلغ من تقدير الإمام الجنيد لمكانة العارف الشبلى بين أقطاب الصوفية أنه قال (لكل قوم تاج وتاج قومنا الشبلى) ^(١) إنها كلمة حق من سيد الطائفة. الإمام الشبلى خليف بها وأهل لها؛ لأننا حينما نقلت صفحات الجهاد الروحى ونستطلع الجانب العلمى عند العارف الشبلى سنجد - ولاشك - سطورا من النور تشير إلى سمو هذه الشخصية وعظم منزلتها، فمن الناحية العلمية - وقد أشرنا إليها بصدد الحديث عن نشأته - يروى صاحب كتاب تاريخ بغداد بسنده عن الشبلى أنه قال: (كتبت الحديث عشرين سنة وجالست الفقهاء عشرين سنة) ^(٢) ومرة أخرى يقول الشبلى مشيراً إلى نفسه: (أعرف من لم يدخل فى هذا الشأن حتى أنفق جميع ملكه وغرق فى هذه الدجلة التى ترون سبعين قمطراً مكتوباً بخطه. وحفظ الموطأ وقرأ بكذا وكذا قراءة) ^(٣).

ويرى صاحب الرسالة القشيرية أن فقيها من أكابر الفقهاء كانت حلقة بجانب حلقة الشبلى فى جامع المنصور ؛ وكان يقال لذلك الفقيه (أبو عمران) وكانت تتعطل عليهم حلقاتهم لكلام الشبلى. فسأل أصحاب أبى عمران يوماً الشبلى عن مسألة فى الحيز - وقصدوا إخراجها - فذكر مقالات الناس فى تلك المسألة والخلاف فيها. فقام أبو عمران وقبل رأس الشبلى وقال: يا أبا بكر: استفتت فى هذه المسألة عشر مقالات لم أسمعها. وكان عندي من جملة ما قلت ثلاثة أقاويل. أ. ه. ^(٤).

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٦٨/١٥ - ٣٦٩ .

(٤) انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي : ١٥ / ٣٦٨ .

وكان للشبلى لسان عال فى الطريق ومحجة قوية فى الشريعة يشهد بهما كل من تصدى لجذائه من الفقهاء ، فقد كان ابن بشار ينهى الناس عن الاجتماع للشبلى والاستماع لكلامه فجاءه ابن بشار يوماً ممتحناً فقال له: كم فى خمس من الإبل: فسكت الشبلى فأكثر عليه ابن بشار فقال له الشبلى: (فى واجب الشرع شاة وفيما يلزم أمثالنا كلها. فقال له ابن بشار: هل لك فى ذلك إمام؟ قال نعم. قال: من؟ قال: أبو بكر الصديق رضى الله عنه حيث أخرج ماله، فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : ما خلقت لعيالك؟ قال: الله ورسوله.

فرجع ابن بشار ولم ينه بعد ذلك أحدا عن الاجتماع بالشبلى^(١).

لقد كان وراء علم الشبلى بالشرع علم آخر أخذه عن الله إلهاماً بلا واسطة، وكان يقول عن علم القوم: (ما ظنك بعلم علم العلماء فيه تهمة) لا فالعلم المكتسب لا يقاس بعلم أهل الله وشتان بين علم أخذ عن الخالق وعلم أخذ عن المخلوق.

وهذه صفحة أخرى من جهاد الشيخ فى عبادته وعلمه: لقد دخل عليه أبو بكر بن مجاهد فحادثه فسأله عن حاله فقال: (ترجو الخير تختم فى كل يوم ختمتين أو ثلاثاً؟) فقال له الشبلى: (أيها الشيخ قد ختمت فى تلك الزاوية ثلاث عشرة ألف ختمة. إن كان فيها شيء فقد وهبته لك وإنى لفى درسه منذ ثلاث وأربعين سنة ما أنتهيت إلى ريع القرآن). لقد قصد الشبلى بتلاوة القرآن الكريم وجه الله، أما الثواب فقد وهبه لمن يبتغيه. لقد كان حسبه أن يناجى مولاه بكلامه ثلاث عشرة ألف ختمة، ولم يرد ثمناً لهذه المناجاة؛ لأنها خالصة لله. فأى نوع هذا من الإخلاص؟ إنه إخلاص الحب لذات الله بعيداً عن منطلق الثواب والعقاب^(٢).

ثم لننظر على جانب آخر من جوانب الجهاد الروحى عن الإمام الشبلى حيث نرى جهاد النفس فى طاعة الله، وحيث نشرف على مقام المحبة عن هذا الولى:

(١) انظر اللمع للإمام الطومى ص ٢١٠ وفيه (ابن شيبان) بدلاً من (ابن بشار) وانظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراوى رضى الله عنه ٩٠/١.
(٢) انظر اللمع للطومى : ص ٢٤١.

إن الشبلى منذ عرف طريق القوم قد قطع على نفسه عهداً بالتجرد لمولاه. فالحب الذى غمر قلبه لله يأبى أدنى مشاركة. فاختم لنفسه طريق الجهاد الأكبر مع نفسه وهواه. وبلغ به الحد فى مجاهدته نفسه أنه كان يكتحل بالملح حتى لا ينام ويعتاد السهر. وحينما لامه أصحابه فى قلة النوم قال لهم: (سمعت الحق يقول لى: من نام غفل ومن غفل حجب، وكان هذا سبب اكتحالى بالملح حتى لا أنام)^(١). لقد كان يبيت الليل ساهراً يقطع أنفاس السحر فى قيام لربه ويسكب فى دياجى الليل أنات الخشبية والإنابة. إنه الحب الإلهى الذى لا يقاس به حب فى الوجود. وإذا كان عشق المخلوق قد أفضى بقيس بنى عامر إلى الجنون بليلاء فكيف بعشق الخالق؟. والمحبة الإلهية لها وصف لا يعرفه إلا من ارتوى من سلافها. وقد وصف الشبلى المحب قائلاً: (المحبة كأس لها وهج إن استقرت فى الحواس قتلت، وإن سكنت فى النفوس أسكرت، فهى سكر فى الظاهر ومحبة فى الباطن)^(٢).

ومرة أخرى يقول: (المحبة بحار بلا شاطئ وليل بلا آخر وهم بلا فرح وعلة بلا طبيب وبلاء بلا صبر ويأس بلا رجاء) إنها قمة المحبة التى تفنى المحب وتأخذ عن نفسه لمحبيه، وإن الولى لا يصل إلا بإشراق شمسها فى قلبه، فهى دليله ومنهاجه لذا يقول الشبلى: (صراط الأولياء المحبة)^(٣) ولكثرة ما بدا على الشبلى من لوائح هذه المحبة مع أنه كان على بسطة فى الجسم فقد قال له أحد أصحابه يا أبا بكر: نراك جسيماً بديناً والمحبة تضنى؟ فأشدد قائلاً:

أحب قلبى وما درى بدنى ولو درى ما أقام فى السمن^(٤).

وللإمام الشبلى معراج فى الحقيقة يسمو إلى مراقى يضيق عنها حد العبارة. ولقد عبر عن تلك المراقى السامية فى مقام يسميه الصوفية مقام الاستطالة. حيث يؤذن للولى أن يتحدث بما أنعم الله به عليه. فلقد سئل مرة من أنت؟ فقال: (النقطة التى تحت الياء)^(٥).

(١) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى ٥٥٤/١ والطبقات الكبرى للإمام الشمرانى ٩٠/١.

(٢) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى ٥٥٧/١.

(٣) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى ٥٥٩/١.

(٤) انظر العلية لأبى نعيم: ٢٧٠/١ - ٢٧١، وطبقات الصوفية للمسلمى: ص ٣٤٢.

(٥) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشمرانى: ٨٩/١.

وهذه العبارة رمز لفنائه فى حقيقة الحقائق التى قامت بها العوالم كلها. ولقد حدث أن العارف الحلاج - وهو من أقرب أصحاب الشبلى وأحبهم إليه - قد صرح فى هذا المقام بمالا تطبيقه عقول العامة وأشباههم، فكان من أمره ما كان، وإذا قال العارف الشبلى (كنت أنا والحسين بن منصور شيئاً واحداً إلا أنه أظهر وكتمت). ولقد تحدث الشبلى عن مفهوم التصوف والصوفية فأعطى لهذا المفهوم روحاً جيدة من نفس مترعة فى الحب والتحقيق. فهو يعرف التصوف قائلًا: (هو العصمة عن رؤية الأكوان) أى عن الرؤية القلبية التى يحتجب فيها الإنسان بالكون عن المكون. ثم يقول عن الصوفى: (الصوفى منقطع عن الخلق متصل بالحق كقوله تعالى: (واصطنعتك لنفسى). قطعه عن كل غير ثم قال له: «لن ترانى»^(١).

وقيل له : لم سميت الصوفية بهذا الاسم؟ فقال: لبقية بقيت عليهم، ولولا ذلك ما تعلق بهم تسمية. ومرمى عبارته: أن الصوفى حين ينقطع عن نفسه لمولاه لا يتم له هذا الانقطاع تماماً إذ يتبقى له جزء من أنيته وحقيقته. وهذا الجزء هو متعلق التسمية ولولاه لكان عدماً محضاً، والعدم لا تلحقه التسمية.

أما عن المنهج الذى سار عليه الإمام الشبلى فى تربية المريدين فهو ينحصر فى التعلق التام والدائم بالله تعالى. فإن صفاء القلب يتعكر بأدنى شاغل عن الله.

ومن صور تطبيق هذا المنهج ما ذكره الإمام الشعرانى من أن العارف الشبلى كان يقول لتلميذه الحصرى وهو فى بداية أمره بالطريق (إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة الثانية غير الله فحرام عليك أن تحضرنى)^(٢) إنها تربية الرجال لولاية الله. فتفريغ القلب من الدنيا هو أول خطوة على طريق الوصول.

يقول الشبلى: (أنا الملك أين الملوك؟ إن الله لم يحتجب عن خلقه إنما الخلق احتجبوا عنه بحب الدنيا)^(٣) وهو يسائل من ركن بقلبه إلى الدنيا قائلًا:

(١) انظر : جامع الأصول فى الأولياء وأنواعهم لسيدى أحمد ضياء الدين الكمشخاوى ص ١٨٧.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ٩٠/١.

(٣) انظر الحلية لأبى نعيم : ٣٧٠/١٠.

(كيف يصح لك شيء من التوحيد وكلما ملكت شيئاً من الدنيا ملكك وكلما أبصرت شيئاً صرت أسيره^(١)). وإذا فلفسة الزهد عند الشبلى إنما هى تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء ، وعندئذ لا يضير الصوفى أن يملك الدنيا بأسرها لأن قلبه ملك لله وحده. ومن أطرف ما يروى عن الشبلى ما يصور نظرته للدنيا أنه كان عنده جماعة من الفقراء فأصابتهم فاقة وشدة، فكتب إلى وزير الخليفة: بسم الله الرحمن الرحيم.

أما بعد: وجه لنا شيئاً من دنياك. فكتب إليه الوزير على ظهر الرقعة: يا شبلى سل دنياك من مولاك، فكتب إليه الشبلى (إنما الدنيا شيء دنى، ولا يسأل الدنى إلا من الدنى، الدنيا هذه ولك منها عبدة فمن يريد العبدة فهو أقل من العبدة) فوجه إليه الوزير عشرة آلاف درهم.

إن الشبلى لم يكن مقصده فى هذه الواقعة طلب الدنيا لنفسه، وإنما هو طلب حق الفقراء فى مال الأمة. أما هو فما له وللدنيا ، إنه عاكف فى حضرة مولاه يناجيه ويتقرب إليه ويقول: (إلهى إن هربت منك طلبتني وإن قصدتك أتعبتني فليس لى معك راحة ولا مع غيرك أنس. فالمستغاث منك إليك)^(٢). وقال له الإمام الجنيد يوماً: (لو رددت أمرك إلى الله لاسترحمت) فقال له الشبلى: (يا أبا القاسم لو رد الله إليك أمرك لاسترحمت) فقال الجنيد (سيوف الشبلى تقطر دما)^(٣). إنه العارف المستغرق مع ربه، وهو القائل: (سهو طرفة عين لأهل المعرفة شرك بالله). عارف يتحدث عن نفسه وعن حاله مع الله. وسئل متى يكون العارف بمشهد من الحق؟ فقال: (إذا بدا الشاهد وفنى الشواهد وذهب الحواس واضمحل الإحساس).

وقال فى حقيقة الذكر: ليس من استأنس بالذكر كمن استأنس بالمذكور.

وأنشد قائلاً:

(١) انظر طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى : ص ٣٤٧.

(٢) انظر : الكواكب الدرية للمناوى ٥٥٩/١.

(٣) انظر طبقات الصوفية للإمام السلمى ص ٣٤٣.

ذكرتك لا أنى نسيته لمحبة
وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى
وكدت بلا وجد أموت من الهوى
وهام على القلب بالخفقة
فلما أرانى الوجد أنك حاضرى
شهدتك موجودا بكل مكان
فخطبت موجودا بغير تكلم
ولاحظت معلوما بغير عيان^(١).

(وبعد): فلماذا نقول عن إمام فى المعرفة ارتفعت فوق قمة المحبة الإلهية
أعلامه. وسرت عبر آماذ الدهر أقباس أنواره لتوقد مصابيح القلوب وتحدو ركب
السائرين إلى نهاية المطاف. فمهما يخط القلم فلن يجف النبع ولن تتناول الأعيان
لكى تحرق فى عين الشمس لتحيط بجوهرها. وإنما هو شعاع من الضوء اقتبسناه
لنتطلع إلى أفق ملء بالنور. فرضى الله عن الإمام الشبلى فى الخالدين ، وجمعنا
به فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

★ ★ ★

(١) انظر الرسالة القشيرية بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، ود. محمود بن الشريف ٤٦٧/٢ .

القرن الخامس

حُجَّةُ الْإِسْلَام

١ - سيدنا أبو حامد الغزالي رضي الله عنه سنة ٥٠٥ .

حجة الإسلام:

« سيدنا أبو حامد الغزالي رضى الله عنه »

مجدد القرن الخامس

على الدرب المحمدى سار الصفوة من جنود الله الذين أقامهم الله حجة لحقه على خلقه فغذى قلوبهم بنور معرفته، وأغرق أرواحهم فى بحار محبته. فهم الخواص والندماء، وهم الضنائن الأصفياء الذين سجل لهم فى كتابه الكريم محكم الولاء. وبشر بما لهم عنده من جزيل العطاء. وحسبك من العلم بهم أنهم قوم آثروا الله على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء، واستأثر بهم لنفسه شهودا لحضرته ولأسراره وتجلياته. ثم أقامهم فى خلقه شموسا تهدى إليه ودلائل موصلة إلى جنبه الأعلى. فرضى الله عنهم وعنا بهم فى الدنيا ويوم الدين.

على القمة الشامخة من منازل أولئك الخواص العارفين والأئمة المحققين: علّم رفعه الله فى علياء منازل المقربين. ورضع ذكره عنده فى أعلى عليين، إنه الإمام العارف زين الدين وحجة الإسلام والمسلمين وحامل لواء الصوفية الواصلين سيدى ومولاي الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه ورضى عنه وعنا به وأمدنا منه بالنفحات والبركات والمدد العظيم.

إن الحديث عن الإمام أبى حامد رضى الله عنه - منذ أشرقت شمسُه فى منتصف القرن الخامس الهجرى إلى الآن - قد أجهد أقلام الباحثين وأخذ من أفكارهم وتأملاتهم القدر الكبير. ومع هذا فلا تزال شخصية هذا الإمام إلى اليوم فيها من الأبعاد ما هو فوق متناول الأفكار وما هو أبعد من مطامح العقول؛ ذلك لأنها شخصية حملت طابع التفرد من شتى الزوايا والاتجاهات. فالجانب العقلى

عند الإمام الغزالي قد أعْيَا عقول الباحثين، ومن قبلهم عقول الفلاسفة الذين تهافتوا من حول مصباح فكره.

وفى الجانب العلمى النقلى نجد موسوعية الإمام أبى حامد تستغرق محصلات الفقهاء والمتكلمين والأصوليين وغيرهم بشكل قَلَمًا يسمح التاريخ بنظيره. ثم فى الجانب الصوفى: نقف فلا نجد عبارات تحمل المضمون.

بل نقف عند ساحل هذا المحيط الريانى وملء أسماعنا هذا البيت الذى رده الإمام الغزالي رضى الله عنه:

فكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

أجل .. لا تسأل عن الخبر ، فلست تطيق له حملا. والإخبار عما فوق الطاقة فيه تكليف بالمعجز، وكثيرا ما يفضى بالخبر إلى الإنكار والتكذيب. ومن ثم فقد عانى الصوفية الكثير والكثير من عنت المكذبين وسفه المحجوبين لعجزهم عن إدراك ما هم فيه. والسبب يصوره الإمام البوصيرى رضى الله عنه فى قوله:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم

وعلى الرغم من كثرة الدراسات التى تناولت شخصية الإمام أبى حامد وفكره وفلسفته، وتراثه: فإن الجانب الصوفى عنده لا يزال - وسيظل - بكرا فى مرقم السامى. وهيهات أن تتناول إليه الأفهام. ولئن كنا قد ظفرنا بشيء من المعرفة النسبية فيما يتصل بهذا الجانب الصوفى فإنما هو شعاع ضئيل تسرب من خلف الحجب لنستدل به على وجود الشمس وإن لم نكن نراها؛ لأن الحقيقة وقف على أهلها.

ومن ثم فسنحاول أن نفتح نوافذ القلوب لهذا الشعاع تعشقا للنور وتعطشا للمعرفة عسى أن يقودنا الأثر إلى المؤثر.

وإذا .. فالحديث هنا إنما يستهدف استجلاء الجوانب الصوفى عند الإمام أبى حامد محامى الصوفية الأكبر، ناصر قضية التصوف ومؤسس مدرسة صوفية عريقة شيد صرحها من روح هدى الكتاب والسنة فسرى نورها عبر الأزمان يمحى دجى النفوس الأبقة من سيدها، ويهدى خطى السائرين إلى الله تعالى لتستقيم على الدرب وتحظى بالوصول إليه. فلنتعاش مع الجوانب التاريخية من شخصية الإمام أبى حامد توصلا للتعرف على النبع الذى يمدنا بالعطاء ولكى يكتمل أمامنا النسق الموضوعى فنستجلى حقيقة المضمون الصوفى.

ولد الإمام أبو حامد محمد الغزالى رضى الله عنه فى (طوس) ^(١) إحدى مدن خراسان سنة ٤٥٠ هـ وكان والده رضى الله عنه من أتقياء الفقهاء؛ وكان له دكان يفزل فيه الصوف وبيعه بخراسان. وكثيرا ما كان يتردد إلى مجالس الوعاظ والفقهاء ويتأثر بما يسمعه هنا وهناك. حتى أنه كان إذا غشى مجلس الفقهاء سأل الله تعالى أن يرزقه ولداً ويكون فقيهاً، وإذا حضر مجلس وعظ وتذكير سأل الله تعالى أن يرزقه ولداً ويكون واعظاً. وتقبل الله منه دعائيه فبرزقه بابنه أحمد الذى كانت الصم الصلاب تلين عند سماع وعظه وتذكيره، ومنحه محمداً الذى صار حجة الإسلام وأفقه أهل زمانه، لكن المنية عاجلت الوالد الصالح قبل أن يرى ثمرة أمنيته. وقبيل أن يسلم الروح إلى بارئها أوصى بابنيه إلى أخ صوفى صالح له فى الله وقال له: (إن لى لتأسفا عظيما على تعلم الخط وأشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدى هذين، فعلمهما ولا عليك أن تنفد فى ذلك جميع ما أخلفه لهما) ^(٢) وتعهد الأخ الصوفى أبا حامد وأخاه منفذا وصية أبيهما حتى نفذ ما خلفه لهما من مال فتعذر عليه أن يباشر بنفسه إتمام تحقيق رغبة أبيهما فقال لهما: (اعلما أنى قد أنفقت عليكما ما كان لكما. وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لى فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجأ إلى مدرسة فإنكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما) ^(٣).

(١) ذكر ابن خلكان فى (وفيات الأعيان : ٢١٨/٤ - ٢١٩ هـ بتحقيق د. إحسان عباس) أن ولادة الإمام أبى حامد الغزالى رضى الله عنه سنة خمسين وأربعمائة كانت بالطابران وكذلك كانت وفاته سنة خمس وخمسمائة بظاهر الطابران وهي قصبه (طوس) وإحدى بلدتيها .

(٢) (٣) انظر : طبقات الشافعية الكبرى للإمام تاج الدين السبكي بتحقيق د. عبد الفتاح العلو و د. محمود الطناحى : ١٩٣/٦ ، ١٩٤ .

وبدأت رحلة النور من منطلقها في طوس. إذ شرع سيدي محمد في طلب العلم، فبعد أن حفظ القرآن الكريم ودرس أوليات العلم تفقه على يد الشيخ أحمد الراذكاني، ثم سافر إلى جرجان حيث التقى بالإمام أبي نصر الإسماعيلي وعلق عنه التعليقة ثم عاد إلى طوس^(١).

وفي طريق العودة كانت نقطة التحول العلمي في حياة الإمام. فقد روى الإمام أسعد المهني عنه أنه قال: (قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا فتبعتهم فالتفت إليّ مقدمهم وقال: ارجع ويحك وإلا هلك. فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتي فقط فما هي بشيء تتفهمون به. فقال لي: وما هي تعليقتك؟ فقلت: كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها. فضحك وقال: كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم إليّ المخلاة - قال الغزالي: هذا مستطوق أنطقه الله ليرشدني به في أمري. فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقتة وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمي)^(٢) أ هـ.

لقد صار صدره بعد ذلك هو تعليقه التي لا يقدر العيارون على انتزاعها منه، وصارت حافظته هي كتبه وخزانة علمه. وانفتحت نوافذ العلم أمام الإمام الغزالي لكي تغمره بإشراقاتها وتضيء له الدرب إلى الحقيقة.

ولقد كان شروع أبي حامد وأخيه في طلب العلم ابتداء - حسب إشارة وصيهما - وإن كان تنفيذا لرغبة والدهما في قصد العلم لذاته إلا أن الظروف فرضت عليهما في البدء طلب العلم لتحصيل القوت. ولكن أنوار الحقيقة سرعان ما جذبتهم إلى إخلاص العلم لله وصدق التوجه إلى الله ومن ثم قال الإمام أبو حامد قولته المأثورة: (طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله).

(١) المصدر السابق: ١٩٥/٤.

(٢) المصدر السابق: ١٩٥/٤.

ثم بعد أن حفظ الإمام الغزالي تعليقاته عن أبي نصر الإسماعيلي في مدى ثلاث سنوات قضائها بطوس قدم إلى نيسابور حيث تتلمذ على أستاذ عصره (إمام الحرمين) حيث كان رئيس المدرسة النظامية بنيسابور فتضلع على يديه من شتى بحور العلم حتى بلغ القمة في علوم الفقه والأصول والكلام وغيرها. وشهدت هذه الفترة من حياة الإمام الغزالي اندلاع ثورة فكرية عارمة هزت أرجاء نفسه ودفعته إلى اقتحام غمار البحث والجدل والاستباطات بنفس طلبة دءوب، متعطشة للمعرفة.

ولقد سجل تاريخه الفكري لهذه المرحلة الحاسمة من حياته في كتابه المنقذ من الضلال، فقال: ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين: أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة؛ لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطلانته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلميا إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقا معطلا إلا وأتحسس وراءه للتبني لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته. وقد كان التعمش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلي حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة^(١).

لقد خلع الإمام الغزالي ريقه التقليد ليقف على الحقيقة بنفسه. فصارع أمواج الفكر المتلاطمة، وخاض عباب البحث والمناظرة، واستوعب محصلات

(١) انظر : المنقذ من الضلال للإمام الغزالي مع أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي : للدكتور عبد الحليم محمود : ص ٧٠ - ٧١ (الطبعة الخامسة)

العلماء والمفكرين وأعمل ذكاهم الخارق في كل ما قرأ . فتسج شخصيته العلمية والفكرية على منواله هو ، وصار أنظر أهل زمانه ووحيد أقرانه . وشرع في التصنيف في حياة أستاذه الجويني فأذهل العلماء بمؤلفاته . حتى إن شيخه إمام الحرمين حينما اطلع على كتابه المنحول الذي صنفه في علم الأصول قال له : (يا بني ، لقد دهنتني وأنا حي . . هلا صبرت حتى أموت) ؟؟

لقد كان انبهار شيخه به يفوق كل حد . حتى إنه كان يقول فيه : (الفزالي بحر مغرق)^(١) .

ولكن عيبنا فهم البعض ممن كتبوا عن الإمام الفزالي نظرة شيخه إمام الحرمين له حين تألق نجمه في أفق العلم فتسبوا إليه الفيرة منه . ولبس ما ظنوا . فليت شعري كيف تتصور الفيرة في العلم من عالم تقى صوفى كإمام الحرمين ؟؟ ولا أدري كيف غاب عن أذهان هؤلاء أن نبوغ الابن مفخرة للأب ؟ على حين أن بنوة العلم حينما تنشأ في جو الدين والورع تتضاءل دونها بنوة النسب ! ولطالما افتخر إمام الحرمين بابنه الفزالي إمام مدرسته من بعده .

ثم لما انتقل إمام الحرمين إلى جوار ربه سنة ٤٧٨ هـ خرج الإمام الفزالي إلى (المعسكر) وهي محلة بالقرب من نيسابور قاصدا نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ومؤسس مدارس النظامية التي تعد أكبر جامعة علمية لا نظير لها في الدنيا آنذاك ، وكان نظام الملك على علم بمكانة الإمام الفزالي فاستقبله باحتفاء بالغ . وبالإضافة إلى أن نظام الملك كان من أكبر أنصار العلم فقد كان كذلك من أكبر أنصار الصوفية ومحبا للأولياء والزهاد ، وكان يقدح عليهم ويقدمهم على الجيش في النفقات . وقد حدث أن عاتبه الخليفة يوما على ذلك فرد عليه بقوله :

(لقد أقمت لك عبادا بالليل لو صاحوا لزلزلت الدنيا بخصومك ومادت بهم

الأرض)^(٢))

(١) انظر : طبقات الشافعية للإمام السبكي (١٩٦/١) واللفظ فيه . (بحر مفقود) .

(٢) انظر : سراج الملوك / ٢٩٧ و الأخلاق عند الفزالي للدكتور زكي مبارك ص ١٦ و : (القشيري) للدكتور إبراهيم بسبوني ، و (الواحد ومنهجه في التفسير) : رسالة دكتوراة للدكتور جوده محمد المهدي : ص ٢٤ ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة .

ولقد تألق نجم الإمام الغزالي في المحافل العلمية التي كانت تعقد في حضرة نظام الملك بالمعسكر فأبدى في مجالسه العلمية ومناظراته ومساجلاته العلماء من سعة العلم وعمق النظر والفكر ما أحله المحل الأرفع في قلب الخاصة والعامه لاسيما الوزير. فعهد إليه التدريس في بغداد بالمدرسة الميمونية النظامية وذلك سنة ٤٨٤ هـ فأعجب به أهل العراق أيما إعجاب وذاع صيته في الآفاق حتى لقد كان يحضر مجلسه ثلاثمائة مدرس ومائة من أمراء بغداد، وصار الإمام الغزالي حديث الدنيا بأسرها، وكعبة العلم التي تشد إليها الرحال وصارت تصانيفه ملء السمع والبصر في مختلف فروع العلم.

ولكن ماذا بعد؟ ماذا بعد أن تربع الإمام الغزالي على القمة وحاز إمامة العراق بعد إمامة خراسان. وأصبح المثل الأعلى للعلماء في ذلك العصر علما وعقلا وموسوعية واجتهادا؟ جاء الامتحان الإلهي .. وأقبلت محنة الشك الأليمة التي عانى منها الإمام أيما معاناة. لقد شك في كل المدركات الحسية والعقلية وأضحى كل ما ينتجه الحس والعقل ضربا من الوهم الذي لا ينتمي إلى الحقيقة بسبب، وعصفت به أعاصير السفسطة ولم ينقذه منها إلا محض العناية الإلهية. يقول الإمام الغزالي: (فأعضل هذا الداء ودام قريبا من شهرين أنا وفيهما على السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال حتى شفى الله صدرى من المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضرورات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمر ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر. وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف. فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله الواسعة. ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشرح ومعناه في قوله تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) ^(١) قال: هو نور يقذفه الله تعالى في القلب. فقيل: وما علامته؟ قال: التجافى عن دار الفرور والإنابة إلى دار الخلود) وهو الذي قال عليه الصلاة والسلام

(١) سورة الأنعام: ١٢٥.

فيه: (إن الله تعالى خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره) ^(١) فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهى فى بعض الأحيان، ويجب التردد له، كما قال عليه الصلاة والسلام: (إن لريكم فى أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها) ^(٢) ، ^(٣).

وخرج الإمام الغزالي من ظلام الشك إلى نور اليقين. وفى ضوء هذا اليقين الإلهى الوهبي قوّم الإمام معارفه وثقافته من جديد. فحصر أصناف الطالبين للحقيقة فى أربع فرق هم المتكلمون والباطنية والفلاسفة والصوفية. ومع هذه الطائفة الأخيرة (طائفة الصوفية) وجد الحقيقة كل الحقيقة. ووجد نفسه بعد أن أنزل الفلسفة من عليائها وهدم بيوت العنكبوت التى اتخذها الفلاسفة حصونا لأنفسهم، وسبر غور علم الكلام فلم يجده وافيا بمقصوده وفضح الباطنية بعد أن كشف سوء بضاعتهم، كل ذلك قد اجتازه الإمام فى رحلة البحث عن الحقيقة، وما أن انتهى إلى التصوف حتى وجد فيه ضالته المنشودة فعكف على علوم الصوفية يفقهها بقلبه ويحس إشراقها فى وجدانه فطالع الماثور من إشارات الإمام الجنيد وسيدى أبى يزيد البسطامي ومصنفات الإمام المحاسبى وأبى طالب المكي رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين، وتهيأ الإمام الغزالي للانخراط الكامل فى سلك القوم ودخل حياة قوامها العبودية الصادقة لله تعالى، وانغمس فى محيط النور إلى الأبد.

وهناك حدثت نقطة التحول الروحية إذ انجذب الإمام أبو حامد إلى نداء الروح وتحرر من دواعى الدنيا من شهرة وجاه ومال إلى دواعى الآخرة. أو بالأحرى إلى داعى الحضرة الإلهية. فتجرد من تلك الملائق الدنيوية وعقد العزم على السير إلى الله تعالى على جناح الاضطراب. لقد جذبته الحضرة من نفسه فوجد نفسه معتقلا عن التدريس معقود اللسان محزون القلب مسلوب القوى والإرادة فلم يملك إلا الفرار من نفسه إلى الله وسلك طريق الزهد والتأله. وارتحل إلى بلاد الشام

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى - وحسنه - انظر : الجامع الكبير للحافظ السيوطى : ١٦٧/١ .

(٢) رواه الطبرانى عن محمد بن مسلمة ، انظر التخرىج في الفتح الكبير للإمام النبهانى ٤٠٣/١ .

(٣) انظر : المنقذ من الضلال للإمام الغزالي : نشرة الدكتور عبد الحليم محمود (الخامسة) ٧٥ - ٧٦ .

فأقام فيها قريبا من سنتين - كما قال في المتن - لا شغل له إلا العزلة والخلة والريضة والمجاهدة وتصفية القلب بذكر الله تعالى^(١).

فكان يصعد منارة مسجد دمشق ويفلق بابها على نفسه كي يخلو إلى ربه ويفلق باب قلبه على ذكره ويسبح بروحه في ملكوت الله مع الله وبالله. ثم هكذا كان الشأن حين ارتحل إلى بيت المقدس، يدخل كل يوم قبة الصخرة ويفلق بابها على نفسه ليتحنث لربه مناجيا ومتأملا ومشاهدا ومستغرقا. وفي هذا الجو الروحاني النوراني شرع يراعه في تدبج سفره الخالد (إحياء علوم الدين) الذي قال فيه الإمام النووي رضي الله عنه: (كاد الإحياء أن يكون قرآنا)^(٢).

وكان الإمام أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يوصي مريديه بقراءته ويقول: (كتاب الإحياء يورثك العلم)^(٣).

وواضح من تسمية الكتاب أنه يرمى من وراء تأليفه إلى إحياء الدين بإحياء علومه والدعوة الصادقة المخلصة إلى الله تعالى. ومن ثم انعقد لإجماع الأئمة والعلماء على أن الإمام الغزالي هو مجدد القرن الخامس^(٤).

فهو الركن الثالث في المذهب الأشعري وهو مجدد مذهب الإمام الشافعي - رضي الله عنه - في الفقه ثم هو حجة الإسلام الزائد عن حماء غارات الإلحاد والفلسفة المضللة.

ثم لقد كان طابع هذه الفترة التي أعقبت ذهابه إلى الشام هو العزلة والتجرد والتحنث والتعبد ثم السياحة في بلاد الله حيث كان يطوف على المشاهد

(١) المصدر الأخير: ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) انظر: تعريف الأحياء بفضائل الإحياء - بهامش كتاب إحياء علوم الدين - للشيخ عبد القادر الميذروس . (١٥٠/١ ط / الثمانية (الأولى) .)

(٣) (٤) انظر المصدر الأخير (٣٤/١) ففيه نص الحافظ ابن عساكر على أن الإمام أبا حامد الغزالي رضي الله عنه هو المبعوث على رأس المائة الخامسة لتجديد الدين . كما ذكره الحافظ السيوطي رضي الله عنه في مجدي القرون في أرجوته حيث قال : - والخامس العبر هو الغزالي - وعده ما فيه من جدال . وانظر : (أتعاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين) للعلامة العبيد محمد مرتضى الزبيدي . ٢٦/١ .

والمزارات. يذهب إلى قبور الصالحين يزورهم ويتبرك بهم ويأوى إلى المساجد والقفار، فطاف ببقاع عديدة ومن بينها مدينة الخليل حيث زار مقام سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والتسليم. ثم تحركت فيه دواعي الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة والتشرف بزيارة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك حوالى سنة ٤٨٩ هـ حيث عاد بعدها إلى بلاده وقد خلعت عليه خلع الوصول، وحاز غاية المأمول.

ولنتوقف الآن عند هذه النقطة لنسبر غور الجانب الصوفى وندرس أبعاد الخلفية الصوفية التى تكمن وراء الإمام أبى حامد حجة الإسلام وقاهر الفلاسفة . ومجدد المذهب الشافعى فى الفقه وإمام المتكلمين وأستاذ الأصوليين إلى غير ذلك مما قطع أنفاس الباحثين عن جوانب العبقرية الفذة الفكرية والعلمية عند هذا الإمام.

إن هذه الخلفية التى أعنيها هى بعينها المنطلق الذى نستطيع أن نرتب عليه دعوى (حقية التصوف) ونبرهن عليها بالإمام نفسه. ومن ثم فنحن نعتبر الإمام الغزالى هو حجة التصوف من خلال كونه حجة الإسلام.

فما التصوف إلا سنام الإسلام وذروته. إنه الإحساس الذى يرتفع فوق صرحى الإيمان والإسلام. ولقد حظى التصوف بالإمام الغزالى كما حظى هو به. إذ وجد فيه المحامى الأكبر والنصير الأكفأ. فما بنى الإمام تصوفه إلا بعد إمامته وتقوده فى شتى ميادين العلم والبحث.

أجل .. ما بناه إلا على أنقاض الفلسفة فى أعنى عنفوانها، وما بناه إلا على إمامته فى الفقه والأصول وأستاذيته المجمع عليها فى المعقول والمنقول.

ولنتساءل عن بداية الخلفية الصوفية عند الإمام الغزالى رضى الله عنه. وهذا التساؤل يفرض علينا التعرف على شيوخه فى الطريق، ولاشك أنه التقى بصوفية عديدين كما يتضح من مؤلفاته. ولكننا نراه يصرح بأنه تربى على يد

شيخين جليلين من أقطاب التصوف هما: سيدى أبو على الفارمدى - أحد شيوخ النقشبندية العظام الراسخين فى التحقيق - وسيدى يوسف النساج.

وفىما يتعلق بشيخه النساج يطيب لنا أن نروى تلك الواقعة التى ذكرها الشيخ الزيدى فى شرح الإحياء. إذ روى عن قطب الدين محمد بن الإريلى قال: قال حجة الإسلام: كنت فى بداية أمرى منكرا لأحوال الصالحين ومقامات العارفين حتى صحبت شيخى يوسف النساج بطوس فلم يزل يصقلنى بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات. فرأيت الله فى المنام فقال لى يا أبا حامد. قلت: إن الشيطان يكلمنى. قال: لا. بل أنا الله المحيط بجهاتك الست. ثم قال: يا أبا حامد: ذر مساطرك واصحب أقواما جعلتهم فى أرضى محل نظرى، وهم الذين باعوا الدارين بحبى. فقلت: بعزتك إلا أذقتنى برد حسن الظن بهم. فقال: قد فعلت. والقاطع بينك وبينهم تشاغل بك بحب الدنيا، فاخرج منها مختارا قبل أن تخرج منها صاعرا، فقد أفضت عليك أنوارا من جوار قدسى، ففز ونل. فاستيقظت فرحا مسرورا وجئت إلى شيخى يوسف النساج، فقصصت عليه المنام فتبسم، قال: يا أبا حامد هذه ألواحنا فى البداية محوناها بأرجلنا. بل إن صحبتى سيكحل بصر بصيرتك بإئد التأييد حتى ترى العرش ومن حوله ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد مالا تدركه الأبصار فتصفو من كدر طبيعتك، وترقى على طور عقلك، وتسمع الخطاب من الله تعالى كموسى (إنى أنا الله رب العالمين) ^(١) . هـ .

ثم فىما يتعلق بشيخه أبى على الفارمدى يروى لنا معاصره عبد الغافر الفارسى خطيب نيسابور الأحداث التى أعقبت رحلة الشك .. وانتهت باليقين وسلوك طريق التأله فيقول: (فابتدأ بصحبة الفارمدى وأخذ منه استفتاح الطريقة وامتل ما كان يشير عليه من القيام بوظائف العبادات والإدمان فى النوافل واستدامة الأذكار والجد والاجتهاد طلبا للنجاة إلى أن جاز تلك العقبات، وتكلف تلك المشاق وتحصل على ما كان يطلبه من مقصوده) ^(٢).

(١) انظر: انعاف السادة المتقين للسيد المرتضى الريدى ٩/١.

(٢) المصدر السابق عينه .

وإذا فقد استقى الإمام الغزالي من نبعي شيخيه النساج والفارمدى زاد النور ومضى على قدم التحقيق حتى وصل إلى نهاية الطريق. وهل ثم إلا الله ؟؟ ثم بعد رحلة الوصول يصف لنا حجة الإسلام والصوفية طريق التصوف بلسان الذائق المتحقق فيقول في كتابه المنقذ من الضلال:

(والقدر الذي أذكره لينتفع به: أنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً؛ فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبس من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

وبالجملة: فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها - وهى أول شروطها- تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية في الله (١).

ثم يقول: ومن أول الطريق تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد. ثم يرتفع الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه .. إلى أن يقول: بل الذى لا يسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

(١) انظر : المنقذ من الضلال للإمام الغزالي : نشرة الدكتور عبد الحليم محمود ص ١٢٨ - ١٢٩ .

وبالجملة فمن لم يرزق منه شيء بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم، وكرامات الأولياء - على التحقيق - هي بدايات الأنبياء. وكان ذلك أول حال رسول الله - عليه السلام - حيث تبتل حين أقبل إلى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب: «إن محمدا عشق ربه». وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها (١) . هـ.

وأما عن مقام الإمام العارف سيدي أبي حامد في طريق القوم ومنزلته الصوفية: فلقد درجنا في مقالاتنا الصوفية على أن نقر بالعجز عن معرفة منازل هؤلاء الأقطاب العظام من أمثال الإمام الغزالي ودرجاتهم في التحقيق نظرا لبعده الشقة بيننا وبينهم.

ولكننا في الوقت نفسه قد التزمنا أن نذكر ما نجده من عبارات تقرينا من معرفتهم وهي العبارات التي يتحدث بها الصوفية من الأولياء عن ذويهم من الأقطاب الأصفياء وأن ما بأيدينا الآن من تلك الإشارات والعبارات التي قيلت عن الإمام الغزالي لتضعه في صدارة أئمة الصوفية وأقطابهم الشوامخ العظام.

وحسبنا علما بحقيقة مقامه أن الإمام العارف سيدي أبا العباس المرسى رضى الله عنه قد قال في حقه: (إنا لنشهد له بالصدقية العظمى) (٢).

بل لقد روى عن سيدي أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه أنه قال لأصحابه يوما: (إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد الغزالي رضى الله عنه) (٣).

وناهيك بشهادة الشيخ الأكبر سلطان العارفين سيدي محيي الدين بن عربي رضى الله عنه إذ قال: (حجة الإسلام الغزالي من رؤساء أهل الطريق) (٤).

ولقد ذكر الإمام محيي الدين بن عربي عن نفسه أنه كان يقرأ كتاب الإحياء في المسجد الحرام تجاه الكعبة الشريفة

(١) المصدر الأخير: ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) ، (٣) ، (٤) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوي : ٧٠٤/١ نشر المكتبة الأزهرية للتراث .

(٥) المصدر الأخير نفسه : ٧٠٦/١ .

وذكر العارف المناوى فى طبقاته أن الإمام الشاذلى رضوان الله عليه قال:
(رأيت المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فى المنام باهى موسى وعيسى عليهما
السلام بالفزالى رضى الله عنه وقال: هل فى أمتكما مثله؟ قالوا: لا .

وقد شهد الإمام المناوى للإمام الفزالى بالقبطية حيث قال: (وراض نفسه
وجاهد بها جهاد الأبرار حتى صار قطب الوجود) (١).

وللإمام الفزالى - رضى الله تعالى عنه - عنا به - أقوال مضيئة مأثورة:
نقتطف منها ما يلى:

★ يقول عليه الرضوان: (من ارتفع الحجاب بينه وبين قلبه تجلى له الملك
والملكوت فى قلبه فيرى جنة عرض بعضها: السموات والأرض) (٢).

★ وقال: (جلاء القلب وإبصاره يحصل بالذكر، والذكر باب الكشف، والكشف
باب الفوز الأكبر) (٣).

★ وقال: (إن لله سبعين حجاباً من نور، ولا يصل السالك إلى حجاب منها فى
الطريق إلا ظن أنه وصل، وأول حجاب بين الله وبين العبد: نفسه، فإنه أمر ربانى،
وهو نور من أنوار الله) (٤).

ولسوف نختتم حديثنا عن القطب الفزالى حجة الإسلام والصوفية بهذه
الكرامة التى رواها العارف النبهانى فى جامع الكرامات وذكرها الإمام المناوى فى
طبقاته إذ قال: (ومن كراماته ما خرج به اليافعى عن ابن الميلىق عن العرشى عن
المرسى عن الشاذلى عن الشيخ ابن حرازم أنه خرج على أصحابه ومعه كتاب،
فقال: أتعرفونه؟ قالوا: هذا الإحياء. وكان الشيخ المذكور يطمع فى الفزالى وينهى
عن قراءة الإحياء، فكشف لهم عن جسمه فإذا هو مضروب بالسياط، وقال: أتانى
الفزالى فى النوم ودعانى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما وقفنا بين

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى بتحقيق د. عبد الحميد حمدان ك ٧٠٥/١.

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر نفسه : ٧٠٨/١.

يديه قال: يا رسول الله: هذا يزعم أنى أقول عليك ما لم تقل. فأمر بضري
فضريت^(١) ١. هـ.

إنه الإمام الغزالي الصديق الذى لا يبرح حضرة المصطفى - صلى الله عليه
وسلم - والذى باهى النبى به الأنبياء. فمهما قلنا فيه فالمدح منا له قدح لأننا لم
نقف على كنه منزلته وحسبنا من الإدراك المعجز عن الإدراك.

أما بعد: فمعذرة منى إليك يا حجة الإسلام إذ جاوزت قدرى بالحديث عنك.
فما دفعنى للاقتراب من ساحلك إلا تعطشى للاغتراف من مددك، وما سافتنى
للتحدث عنك إلا فرط حبى لك، فلقد كنت وما زلت وستظل نصرا للإسلام
والمصوفية. أسأل الله العلى القدير أن يفيض علينا من بركاتكم فى الدنيا والآخرة
وأن يمدنا بمددكم ويحشرنا فى معيتكم فى زمرة عباده المقربين.

* * *

(١) انظر مع المصدر السابق (٧٠ ٦/١) : جامع كرامات الأولياء للإمام البهائى ١/ ١٨٠ ط/ الحلبي (الثانية).

من أولياء القرن السادس

- ١ - سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله تعالى عنه سنة ٥٦١ هـ .
- ٢ - سيدى أحمد الرفاعى رضى الله تعالى عنه سنة ١٥٧٨ هـ .
- ٣ - سيدى أبو مدين المغربى رضى الله تعالى عنه سنة ٥٨٠ هـ .
- ٤ - سيدى عبد الرحيم القنائى رضى الله تعالى عنه سنة ٥٩٢ هـ .

القطب الريانى

«سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه»

من دنان المحبة الإلهية ارتوى صفوة الأولياء العارفين الذين تجردت نفوسهم لله، وتحررت أرواحهم من رق ما سوى الله، فأديرت عليهم كاسات رحيق المشاهدة، ووصلوا إلى حق اليقين، واستفرقوا فى عين الجمع متحققين بأسمى مراتب الاصطفاء والخصوصية. إنهم شمس الحق الباهرة التى تغذى هذا العالم بالضياء وتجذب الخلق إلى محيط النور والصفاء. رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين.

ومن أئمة أولئك الأقطاب العارفين والأولياء المقربين: الفوئ الأعظم تاج المحققين، وكعبة الواصلين، إمام الأولياء، وقدوة العارفين الأصفياء. القطب الريانى سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه وأمدنا منه بالمدد الأعلى فى الدارين.

إمام تناهت إليه رئاسة التصوف فى عصره، وشرب العارفون من رحيق سره. وقطب حاز مقام الاستطالة على أولياء زمانه طرا ، فأذعن له أقطاب الولاية جمعا وقدموه ليحمل لواء الحقيقة ويقود ركب السائرين إلى جناب رب العالمين. والإمام عبد القادر رضى الله عنه متفرع فى النسب من الدوحة النبوية الشريفة، إذ إنه حسنى الأب حسينى الأم.

فهو الإمام محيى الدين أبو صالح سيدى عبد القادر بن موسى بن أبى عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى ابن مولانا الإمام الحسن سبط الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأما والدته: فهي السيدة فاطمة بنت السيد عبد الله الصومعي الحسيني الزاهد الذي ينتهي نسبه إلى مولانا الإمام الحسين رضي الله تعالى عنه وعنا به في الدارين (١).

ولقد ولد سيدي عبد القادر سنة سبعين وأربعمائة (٢) هـ ، بجيل - التي إليها نسبته - وهي بلاد متفرقة من وراء طبرستان. ويقال لها أيضا جيلان وكيلان كما ذكر صاحب شذرات الذهب (٣) .

وروى صاحب الأصول مثل ذلك عن أبي الفضل أحمد بن صالح الحنبلي، وأضاف إليه أن سيدي عبد القادر دخل بغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وله ثمان عشرة سنة. وقد عاش القطب الجيلاني إحدى وتسعين سنة حيث توفي ودفن ببغداد سنة إحدى وستين وخمسائة هـ .

ولقد بدأت حياة القطب الجيلاني تشع بالنور منذ فجر ميلاده وتعلن للدنيا قدوم ولي وإمام ستذعن له رقاب الأولياء، وسيغمر نوره الأرجاء. فيروى الإمام الشعراني رضي الله عنه في طبقاته فاتحة الكرامات قائلا: (وحكى عن أمه رضي الله عنها - وكان لها قدم في الطريق - أنها قالت لما وضعت : ولدي عبد القادر كان لا يرضع ثديه في نهار رمضان. ولقد غم على الناس هلال رمضان فأتوني وسألوني عنه فقلت لهم: إنه لم يلتقم اليوم له ثديا. ثم اتضح أن ذلك اليوم كان من رمضان، واشتهر ببلدنا في ذلك الوقت أنه ولد للأشراف ولد لا يرضع في نهار رمضان) (٤).

(١) انظر النسب الشريف لسيدي عبد القادر - أبا وأما - في: (قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر) للعلامة محمد بن يحيى التاذلي الحلي، ص/٢ وقد ذكر فيه أن والدته حملت به وهي بنت ستين سنة (١) وقد قيل: لا تعمل لستين سنة إلا قرشية، ولا يعمل لخمسين إلا مربية.

(٢) ذكر الحافظ الذهبي في ترجمة سيدي عبد القادر من (سير أعلام النبلاء: ٢٠ / ٤٣٩) أن مولده بجيلان في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، والتاريخ المذكور أعلاه في (قلائد الجواهر ص/٣) حيث ذكر أنه قدم بغداد سنة ٤٨٨ هـ وعمره ثمان عشرة سنة.

(٣) انظر: شذرات الذهب لابن العماد: ٤ / ١٩٨.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضي الله تعالى عنه ١ / ١٠٨.

لقد احتضنت العناية سيدى عبد القادر فنزل من بطن أمه صائما عن الدنيا .
وبدا موكب النور وهلت البشائر بمقدم قطب الزمان . ومنذ الوهلة الأولى
أخذت حياة سيدى عبد القادر مسارها النورانى الاصطفائى، فقد كانت العناية تعده
لأداء أسمى رسالة ، وهى حمل لواء الولاية ومشعل الهداية ليقود ركب السالكين
وليؤم صفوف الواصلين، وكانت البداية بالتفقه فى الدين والنهل من محيط
المعرفة . فأقبل سيدى عبد القادر على شتى العلوم والمعارف يقتات منها ويسبر
أغوارها بذكائه الخارق ودأبه المتواصل . وسرعان ما اكتملت له موسوعية المعرفة
والتبحر فى علوم الشريعة خاصة بصورة أذهلت عقول أقرانه، فطارت شهرته فى
مختلف الأرجاء، وشدت إليه الرحال فى بغداد تستقى من فيوضاته العلمية النادرة .

وعن تلك الصورة العلمية عند الإمام عبد القادر يحدثنا الإمام الشعرانى فى
طبقاته فيقول: (وكان رضى الله عنه يتكلم فى ثلاثة عشر علما، وكانوا يقرعون عليه
فى مدرسته درسا من التفسير ودرسا من الحديث، ودرسا من المذهب، ودرسا من
الخلاف، وكانوا يقرعون عليه طرفى النهار التفسير وعلوم الحديث والمذهب
والخلاف، والأصول والنحو، وكان رضى الله عنه يقرأ القرآن بالقرئات بعد الظهر .
وكان يفتى على مذهبه الإمام الشافعى والإمام أحمد رضى الله عنهما، وكانت فتواه
تعرض على العلماء بالعراق فتعجبهم أشد الإعجاب فيقولون سبحان من أنعم
عليه.. (١).

وهكذا أخذ الإمام عبد القادر طريقه فى العلوم نحو القمة حتى تربع وصار
نسيج وحده .

ولقد روى صاحب نور الأبصار عن ابن الحاج أنه قال فى شرح رسالة ابن
باديس: إن الشيخ أبا الفرج بن الجوزى حضر يوما مجلس سيدى عبد القادر، ففسر
الشيخ عبد القادر آية وذكر فيها وجوها، وإلى جانب الشيخ أبى الفرج من يسأله:
أتعرف هذا القول؟ فيقول : نعم. إلى أن بلغ أحد عشر يعرفها أبو الفرج. ثم زاد

(١) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ١٠٨ - ١٠٩ .

الشيخ حتى انتهى إلى أريعين وجها وعزا كل وجه إلى قائله. فاشتد تعجب أبي
الفرج من كثرة علم الشيخ، ثم قال: نترك المقال ونرجع للأحوال. لا إله إلا الله
محمد رسول الله. فاضطرب الناس اضطرابا شديدا ، ومزق أبو الفرج ثوبه. اهـ.
إنه علم أهل الله، ومفتاحه (واتقوا الله ويعلمكم الله) ^(١) .

ومن هنا تتحدد معالم الجانب السلوكي عند سيدي عبد القادر. الذي حرص
بكل وجدانه على اقتحام عقبات الطريق والمضي نحو غاية وهب لها حياته. إنها
الوصول إلى الله. فكان الجانب السلوكي عند العارف الجيلاني في بدايته حافلا
بالمجاهدات. وأى مجاهدات !!

يروى الإمام الشعراني رضى الله عنه أن سيدي عبد القادر كان يقول:
(قاسيت الأحوال في بدايتي فما تركت هولا إلا ركبته، وكان لباسي جبة صوف،
وعلى رأسي خريقة ، وكنت أمشي حافيا في الشوك وغيره، وكنت أقتات بخرنوب
الشوك وقمامة البقل وورق الخس من شاطئ النهر. ولم أزل آخذ نفسي
بالمجاهدات حتى طرقتني من الله تعالى الحال. فإذا طرقتني صرخت وهمت على
وجهي سواء كنت في صحراء أو بين الناس، وكنت أظهار بالتخارس والجنون،
وحملت إلى البيمارستان، وطرقتني مرة الأحوال حتى مت وجاءوا بالكفن والغاسل،
وجعلوني على المفتسل ليفسلوني ثم سرى عني وقمت) ^(٢) !!

إنها فترة الجهاد النفسى للتحرر من ريقه الإنية والتخلص من أسر الترابية
التي تحجب القلب عن إشرافات عالم القدس.

إنها فترة حافلة بالانصهار في بوتقة الجهاد لتصفية الجوهر من التراب
والأوشاب.

لقد سلك سيدي عبد القادر طريقا شاقا مليئا بالعقبات، وتحمل فيه مالا
يحتمل؛ لأنه أقرب الطرق إلى الوصول. يقول رضى الله عنه:

(١) سورة البقرة . ٢٨٢ .

(٢) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعراني ١ / ١٠٨ .

(أقامت في صحراء العراق وخرائبه خمسا وعشرين سنة مجردا سائحا لا أعرف الخلق ولا يعرفونني، يأتيني طوائف من رجال الغيب والجان أعلمهم الطريق إلى الله عز وجل، ورافقني الخضر عليه السلام في أول دخولي العراق وما كنت عرفتبه، وشرط لي ألا أخالفه، وقال لي : اقعد هنا . فجلست في الموضع الذي أقعدني فيه ثلاث سنين يأتيني كل سنة مرة ويقول لي: مكانك حتى آتيك..)^(١).

وواصل الإمام عبد القادر طريقه إلى الله بقلب ملاء الحب والشوق والخشية، والإجلال، ومع كل خطوة تزداد الإشراقات سطوعا واتساعا، ويزداد القلب عكوها بباب المولى عز وجل في محراب العبودية الخالصة، وتمتزج نبضات القلب بتسبيحات صاعدة إلى السماء، والروح سابحة في خضم من الأنوار تحت الخطى سيرا إلى مولاهما . إنها حياة الساجدين لربهم على بساط القرب يعبدونه عبادة الأحرار لا طمعا في جنة ولا خوفا من نار.

ولقد كانت عبادات العارف الجيلاني لها نهجها السامي وطابعها المتفرد الذي لا ترقى إليه الهمم ولا تتناول إليه العزائم. يقول الشيخ أبو الفتح الهروي: (خدمت الشيخ عبد القادر - رضى الله عنه - أربعين سنة. فكان في مدتها يصلي الصبح بوضوء العشاء ، وكان كلما أحدث جدد في وقته وضوءه ثم يصلي ركعتين، وكان يصلي العشاء ويدخل خلوته ولا يمكن أحدا أن يدخلها معه فلا يخرج منها إلا عند طلوع الفجر. - قال الهروي - : وبث عنده ليلة فرايته يصلي أول الليل يسيرا ثم يذكر الله تعالى إلى أن يمضي الثلث الأول، يقول: المحيط الرب الشهيد الحسيب الفعال الخالق البارئ المصور. فتتضاءل جثته مرة وتعظم أخرى، ويرتفع في الهواء إلى أن يغيب عن بصرى مرة ثم يصلي قائما على قدميه يتلو القرآن إلى أن يذهب الثلث الثاني، وكان يطيل سجوده جدا ثم يجلس متوجها مشاهدا مراقبا إلى قريب طلوع الفجر. ثم يأخذ في الدعاء والابتهاال والتذلل

(١) انظر قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر للشيخ محمد بن يحيى التادفي ص/ ١٠ . وانظر أيضا: الطبقات الكبرى للإمام الشعرائي: ١/ ١١٠.

ويغشاها نور يكاد يخطف بالأبصار إلى أن يغيب فيه عن النظر. - قال - وكنت أسمع عنده: سلام عليكم سلام عليكم وهو يرد السلام إلى أن يخرج لصلاة الفجر^(١).

هذا هو ليل العارفين، وتلك هي حياة الأوّابين القانتين، وهذا هو فتح الأبرار المتقين. لقد كان سيدي عبد القادر يهب نفسه وروحه لله في كل نفس ويتضرع فيقول: (يارب: كيف أهدى إليك روحى وقد صح بالبرهان أن الكل لك) (٢) ١١

ولقد كانت فلسفة الإمام الجيلاني في عباداته ومجاهداته متمثلة في هذه الحكمة المضيئة التي أرسلها من ذات نفسه ومن وحي تجربته ليعمل بها أتباعه ومريدوه: (كلما جاهدت النفس في الطاعة حييت، وكلما أكرمتها ولم تهنها في رضا ماتت.) وهذا معنى خبر (رجعتن من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)^(٣).

ولقد وصل العارف سيدي عبد القادر إلى قمة المنازل التي يرنو إليها العارفون المتحققون، والأقطاب الواصلون. فحاز الإمامة الكبرى على الأولياء، وانفرد بمقام لا يكون في العصر إلا لواحد هو جوهرة ذلك العصر ودرته الفريدة. فقد أجمعت الأمة على قطبيته وغوثيته وعلى إحلاله المحل الأرفع في الولاية. كما أنه متفرد عن جميع أولياء عصره بمقام يسمى (مقام الاستطالة) أو: مقام الاستطاعة. ولقد وصف القطب العارف سيدي أحمد ضياء الدين الكمشغانوي في كتابه (جامع الأصول) هذا المقام وهو بصدد ذكر أنواع الأولياء والمتصوفين فقال: (ومنها واحد يسمى رجل الاستطاعة، ويعطيه الله قدرة كاملة على كل شيء. فهو ذكي الفؤاد وشجاع ومقدام، وكبير الدعوى بالحق لا بالنفس، ولذا يحكم بالعدل، وله كرامات، وليس خاصا بالرجال وعلى هذا المقام عبد القادر الجيلاني)^(٤).

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضي الله تعالى عنه ١١٠/١.

(٢) المصدر نفسه: ١٠٨/١.

(٣) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوي ١/ ٦٨١ وحديث (رجعتن من الجهاد الأصغر إلخ) رواه البيهقي والخطيب بسند ضعيف من سيدنا جابر رضي الله عنه (انظر كشف الغطاء ج١ ص/ ٥١١).

(٤) انظر جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم لسيدي أحمد ضياء الدين الكمشغانوي - شيخ جدي وشيخي الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سرهما: ص ٧٦ ط / الحلبي.

ولقد روت كتب الصوفية - من طرق كثيرة - عن كبار أئمة التصوف أن سيدي عبد القادر رضى الله عنه قال فى مجلسه ببغداد وهو على الكرسي يتكلم على الناس (قدمى هذه على رقبة كل ولى لله) . وكان فى مجلسه آنذاك عامة مشايخ العراق وروى أنهم كانوا نيفا وخمسين شيخا منهم الشيخ أبو النجيب السهروردى والشيخ قضيبي البان الموصلى، والشيخ أبو السعود المطار وغيرهم. فأجمع أقطاب الصوفية على أنه لم يبق أحد من الأولياء فى ذلك الوقت من الحاضرين والغائبين فى جميع آفاق الأرض إلا حنا له رقبة. إلا رجل بأصبهان فإنه لم يفعل فسلب حاله. ولقد روى ذلك الإمام اليافعى فى (نشر المحاسن الغالية) ثم أضاف إليه قائلا: (وكان من جملة من حنا له رقبة من الغائبين الكبار المشهورين: الشيخ أبو مدين، والشيخ عبد الرحيم القناوى، والشيخ أحمد بن أبى الحسين الرفاعى رضى الله عنهم أجمعين. فأما سيدي أحمد: فرووا عنه أنه كان جالسا يوما برواقه بأمر عبيد فمد عنقه وقال: على رقبتي. وفى رواية أنه قال: وحميد منهم. فستل عن ذلك فقال: قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمى هذه على رقبة كل ولى لله. وأما الشيخ أبو مدين: فرووا أنه حنا رأسه يوما وهو بين أصحابه وقال وأنا منهم، اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك أنى سمعت وأطعت. فسأله أصحابه عن ذلك فقال: قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمى هذه على رقبة كل ولى لله. فأرخوا ذلك وهم بالمغرب ثم جاء المسافرون من العراق فأخبروا أن الشيخ عبد القادر قال ذلك فى ذلك الوقت الذى أرخوه. وأما الشيخ عبد الرحيم فرووا أنه مد عنقه يوما بقناء وقال: صدق الصادق الصدوق. فقبل له ومن هو: فقال الشيخ عبد القادر قد قال: قدمى هذه على رقبة كل ولى لله. وتواضع له رجال المشرق والمغرب فأرخوا ذلك الوقت ثم جاء الخبر بذلك فى ذلك الوقت) أهـ (١).

ولقد روى الإمام اليافعى أيضا أن أحد العارفين المعاصرين لسيدي عبد

(١) انظر: فلاذ الجوامر فى مناقب عبد القادر للعارف التادفى: ص ٢٢ - ٢٦.

القادر وهو الشيخ (مكارم) رضى الله عنه قال: (أشهدنى الله عز وجل أنه لم يبق أحد ممن عقد له لواء الولاية فى أقطار الأرض أدناها وأقصاها إلا شاهد علم القطبية محمولاً بين يدى الشيخ عبد القادر، وتاج الغوثية على رأسه، ورأى عليه خلعة التصريف العام النافذ فى الوجود وأهله ولاية وعزلاً معلمة بطرازى الشريعة والحقيقة وسمعه يقول: قدمى هذه على رقبة كل ولى لله. ووضع رأسه وكذلك قلبه فى وقت واحد) ثم لقد سجل صاحب (نشر المحاسن الغالية) هذه الرؤيا العظيمة لأحد العارفين المعاصرين لسيدى عبد القادر وهو الشيخ خليفة حيث قال: (رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فقلت: له: يا رسول الله قد قال الشيخ عبد القادر: قدمى هذه على رقبة كل ولى لله. فقال: صدق الشيخ عبد القادر. وكيف لا وهو القطب وأنا أرمعه)^(١).

وليت شعرى ماذا يسجل القلم فى مضمون قول مولانا المصطفى - صلى الله عليه وسلم - عن سيدى عبد القادر (وأنا أرمعه)؟ إنها التربية المحمدية والوراثة النبوية التى لا يحظى بها إلا صفوة هذه الأمة. ويؤكد ذلك ما روى فى (الفیوضات الربانية) من أن العارف شهاب الدين السهروردى قال: سمعت الشيخ محيى الدين عبد القادر يقول على الكرسي بمدرسته: (كل ولى على قدم نبى، وأنا على قدم جدى - محمد صلى الله عليه وسلم - وما رفع المصطفى - صلى الله عليه وسلم - قدما إلا وضعت قدمى فى الموضع الذى رفع قدمه منه ، إلا أن يكون قدما من أقدام النبوة فإنه لا سبيل أن يناله غير نبى)^(٢).

والى جانب أخذ سيدى عبد القادر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مباشرة فقد تلقى الخرقه أيضا عن شيخه العارف: أبى سعيد المخزومى وهو عن شيخه أبى الحسن الهكارى عن أبى الفرج الطرسوسى عن أبى الفضل التميمى عن سيدى أبى بكر الشبللى عن سيد الطائفة الإمام الجنيد عن شيخه السرى عن سيدى معروف الكرخى عن سيدى داود الطائى عن سيدى حبيب العجمى عن الإمام

(١) انظر: فلائد الجواهر ص ٢٥.

(٢) الفیوضات الربانية فى المآثر والأوراد القادرية للشيخ إسماعيل القادرى ص ٨٥، ط: الحلبي.

الحسن البصرى عن باب مدينة العلم سيدنا ومولانا الإمام على كرم الله وجهه عن سيد الخلق ورحمة العالمين صلوات الله وسلامه عليه^(١).

ولقد أسس الإمام طريقته القادرية العلية على منهاج الكتاب والسنة وترى فيها أئمة وأقطاب قادوا الخلق إلى الله تعالى وسرت أنوارهم تضيء ساحات القلوب وتهدى قوافل السائرين.

ولطريقة سيدى عبد القادر معراجها فى التحقق ومشرىها فى العرفان والتذوق. ولقد أوضح ذلك معاصروه من كبار العارفين. فيقول الشيخ على بن الهيتى (كان قدمه - أى سيدى عبد القادر - على التفويض والموافقة من التبرى من الحول والقوة، وكانت طريقته تجريد التوحيد وتوحيد التفريد مع الحضور فى موقف العبودية لا بشئ ولا لشيء)^(٢).

أما الشيخ عدى بن مسافر فيقول: (كان الشيخ عبد القادر رضى الله عنه طريقته الذبول تحت مجارى الأقدار بموافقة القلب والروح واتحاد الباطن والظاهر وانسلاخه من صفات النفس مع الغيبة عن رؤية النفع والضرر والقرب والبعد)^(٣) وهذا هو الشيخ (بقاء بن بطو) أحد أكابر الصديقين المعاصرين للقطب الجيلى يقول: (كان طريق الشيخ عبد القادر رضى الله عنه: اتحاد القول والفعل والنفس والوقت، ومعانقة الإخلاص والتسليم، وموافقة الكتاب والسنة فى كل نفس وخطرة ووارد، وحال الثبوت مع الله عز وجل)^(٤).

ثم يقول فى رواية أخرى: (كانت قوة الشيخ عبد القادر رضى الله عنه فى طريقه إلى ربه: كقوى جميع أهل الطريق شدة ولزوما، وكانت طريقته التوحيد وصفا وحكما وحالا، وتحقيق الشرع ظاهرا وباطنا. ووصفه: قلب فارغ، وكون غائب، ومشاهدة رب حاضر بسريرة لا تتجاذبها الشكوك، وسز لا تنازعه الأغيار، وقلب لا تفارقه البقايا رضى الله عنه)^(٥).

(١) انظر: قلائد الجواهر؛ ص/ ٤.

(٢) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشمرانى رضى الله تعالى عنه؛ ١/ ١٠٩.

(٣) المصدر السابق؛ ١/ ١٠٩ - ١١٠.

إنها جوانب الطريق القادرى يصفها صفوة ذائقون، وأئمة محققون تكشف
لهم معالم الطرق الموصلة إلى الله تعالى.

ولقد كان هدى الكتاب والسنة، ونور الشريعة الغراء دليلاً واضحاً أمام
القطب الجيلانى لا يغيى من ناظره طرفة عين فكان فى تمسكه بالشريعة مثلاً
أعلى يدحض افتراءات أعداء التصوف الحائقين على أهله بدعواهم المتهافتة .
يقول سيدى عبد القادر: (ترأى لى نور عظيم ملاً الأفق، ثم تدلى فيه صورة
تتادىنى: يا عبد القادر: أنا ريك ، وقد حلت لك المحرمات. فقلت اخساً ياليمين .
فإذا ذلك النور ظلام، وتلك الصورة دخان. ثم خاطبنى : يا عبد القادر، نجوت منى
بعلمك بأمر ريك وفقهك فى أحوال منازللك، ولقد أضللت بمثل هذه الواقعة
سبعين من أهل الطريق. فقلت: لله الفضل - فقيل لسيدى عبد القادر: كيف علمت
أنه شيطان؟ قال بقوله : قد حلت لك المحرمات) (١).

إن سيدى عبد القادر ممن قال تعالى - لإبليس - فى حقهم (إن عبادى ليس
لك عليهم سلطان) (٢).

ولقد كان سيدى عبد القادر يوصى أبناءه ومريديه قائلاً: (أتبعوا ولا تبتدعوا،
وأطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا ولا تتمزقوا، وانتظروا ولا
تياسوا، واجتمعوا على الذكر ولا تفرقوا، وتطهروا عن الذنوب ولا تتلذخوا، وعن
باب مولاكم لا تبرحوا) (٣).

ولقد كان رضوان الله عليه يقول: (إنما كلامى على رجال من وراء جبل قاف .
أقدامهم فى الهواء وقلوبهم فى حضرة القدس تكاد قلوبهم تحترق من شدة شوقهم
إلى ربهم) (٤).

(١) انظر المصدر نفسه، وانظر: الكواكب الدرية للعارف المتأوى: ١/ ٦٧٨ .

(٢) سورة الحجر/ ٤٢ .

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشمرانى رضى الله تعالى عنه: ١/ ١١٠ - ١١١ .

(٤) الكواكب الدرية للعارف المتأوى: ١/ ٦٨١ .

ولقد سار على درب سيدى عبد القادر الجيلانى فى كل عصر نخبة من أهل العناية وارثون لمدده، متحققون بمناقبه. ومن أولئك الأقطاب العارفين الذين شرف بهم هذا العصر: جدى وشيخى مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره. فلقد قال له أحد العارفين - وهو الشيخ الترمذى - (إن أحد الأكابر رآك وسيدى عبد القادر فى مقام واحد لا فرق فى ذلك بينكما وهذه أمانة أسلمها إليك) ^(١) ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وأما عن كرامات القطب الجيلانى فإنها لا تسعها مجلدات. فلنتبرك بذكر طرف يسير منها: يقول الإمام المناوى فى طبقاته عن سيدى عبد القادر: (واجتمع له ببغداد مائة من أكابر الفقهاء وأتوه لامتحانه. فظهرت منه بارقة من نور مرت على صدورهم، فصاحوا صيحة واحدة ومزقوا ثيابهم وكشفوا رؤوسهم فصعد الكرسي وأجاب عن جميع ما عندهم) ^(٢) !!

وذكر أيضا أن الذباب كان لا يصيبه وراثه من جده المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ^(٣).

وذكر الإمام الشعرانى من كراماته أنه توضأ يوما فبال عليه عصفور فرفع رأسه إليه وهو طائر فوق ميثا ففعل الثوب ثم باعه وتصدق بثمنه وقال: هذا بهذا ^(٤).

ومنها أنه أتاه بعض الرافضة بقفتين مخيطتين وقالوا: قل لنا ما فيها. فوضع يده على إحدهما وقال: فى هذه صبي مقعد. ففتحت فإذا فيها ذلك. فأمسك يده وقال قم فقام يعدو، ثم وضع يده على الأخرى وقال فيها صبي لا عاهة به ففتحت فإذا فيها ذلك فأمسك بناصيته وقال له اقعد فأقعد. فتأبوا عن الرفض، ومات فى مجلسه يومئذ من الحاضرين ثلاثة ^(٥).

(١) انظر: الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية للشيخ عبد المجيد الخانى والشيخ يس إبراهيم السنهوتى: ص ٣٦٦ ط/ السعادة.

(٢) . انظر: الكواكب الدرية للعارف المناوى: ١ / ٦٧٨ - ٦٧٩.

(٤) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١ / ١٠٨.

(٥) انظر: جامع كرامات الأولياء للإمام التبهانى: ٢ / ٢٠٣.

إنه إمام الأولياء، نديم الحضرة القدسية الذى شرب من دنان المحبة حتى
ارتوى فهتف بلسان الاستطالة قائلاً :

على الأوليا ألقيت سرى وبرهانى
فهاموا به فى سر سرى وإعلانى
فأسكرهم كأسى فهاموا بخمرتى
سكارى حيارى من وجودى وعرفانى
أما كنت قبل القبل قطبا مبعجلا
تطوف بى الأكوان والرب أسمانى
خرقت جميع الحجب حتى وصلته
مقاما به قد كان جدى له دانى
وقد كشف الأستار عن نور وجهه
ومن خمرة التوحيد بالكأس أسقانى^(١)

وبعد: فقد اغترفنا من البحر قطرات تدفقت فى وجداننا لتتبت أزهار
الحكمة وتحى فينا روعة التأسى بمظماء هذه الأمة الذين حملوا لواء الولاية
وأناروا لنا السبيل. فبحق من منحكم هذا العطاء يا مولانا الإمام عبد القادر أن
تلحقونا بركابكم لنسير فى رحابكم على الدرب المضىء. رضى الله عنكم وأمدنا
بمددكم وغمرنا بفضلكم وجزاكم عن أمة سيدنا - محمد صلى الله عليه وسلم -
خير الجزاء إنه نعم المجيب.

★ ★ ★

(١) انظر: القصيدة بكاملها فى: الفيوضات الربانية فى المآثر والأوراد القادرية للشيخ إسماعيل القادري: ص ٥٢ ط /
الحلبى.

القطب الكبير.. أبو العلمين

«سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه»

فى مقام الحضور والمشاهدة تتوالى أنوار التجلى الإلهى على قلب العارف
وتتكشف غيوم الأستار عن سماء الحقيقة. فيفنى المشاهد بسره فى معاينة الجمال
القدسى، وتعب الروح من كأس الوصال حتى الثمالة. وعندئذ تسطع شمس
المعارف والإلهامات فى ساحة القلب، وينهل السر من أسرار الغيب. ومع دوام
التجلى يتواصل الإمداد والإشراق، ويهتف العارف بلسان الحقيقة قائلاً:

ليلى بوجهك مشرق

وظلامه فى الناس سارى

فالناس فى سدف الظلا

م ونحن فى ضوء النهار

إنه مقام أهل الصدق والإخلاص من خواص الحق تعالى المقربين وأوليائه
العارفين رضى الله عنهم ورضوا عنه. أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم
المفلحون.

ومن شوامخ أعلام أولئك الأئمة الواصلين، وصدور أعيان الأولياء المحققين:
قطب أقطاب العارفين ومركز دائرة الصديقيين غوث الثقلين أبو العلمين سيدى
أحمد الرفاعى رضى الله تعالى عنه وعنا به فى الدارين.

إمام ترقى فى معارج الحقائق حتى انتهت دونه مقامات الأولياء، وعارف
حلقت روحه فى سماوات الوصال حتى غابت عن ذاتيتها فى محيط الفناء.

وقطب جمع بين الشريعة والحقيقة علما وحالا وذوقا ومقالا، فتصدر للقيادة الروحية والتربية الصوفية على منبر الخصوصية والتمكين، وأروى قلوبا عطاشا طالما برح بها شوق إلى النور. وحنين إلى الطهر والصفاء فشعت قبسات هديه المحمدى لتتير الدرب وتثبت الأقدام وتشعل جذوة الشوق إلى الله فى قلوب عباد خلقوا للتفرد فى محاريب العبودية والاختصاص، فرفع الإمام الرفاعى علم الصوفية على صرح مدرسة جديدة تحمل اسمه وطريقته، وتنشئ رجالا يخلفون السلف الصالح فى إقبالهم على الله وتجردهم لخدمته وإحيائهم معالم الطريق المحمدى برائع سمته وجليل عظمتة وشامخ مجده.

وشهد القرن السادس الهجرى تألق هذا المجد وبزوغه رأى العين وملء السمع والبصر، على نحو سنشير إليه - بجهد المقل - حسب طاقتنا وطاقة المقال، محاولين أن نضع مجرد نقط تومئ إلى سرج فى السماء وكواكب تسبح فى العلياء. فليكن التوفيق حليفنا، ولتطل علينا روحانية القطب الرفاعى لتسكب فى أعماقنا بارقة من نور تقودنا إلى معرفتها والتعريف بها إذ لا سبيل لنا إلى التحدث عنها إلا بها. فهى نعمة من نور سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ولعل أول ما يؤكد سريان المدد المحمدى إلى مولانا القطب الرفاعى رضى الله عنه أنه ينتمى نسبه إلى العترة المحمدية الطاهرة، فقد أجمع الرواة والمؤرخون على أنه ينتهى نسبه من جهة أبيه إلى مولانا الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه وعنا به فى الدارين، فهو الإمام السيد أحمد بن السيد على بن السيد يحيى بن السيد الثابت بن السيد الحازم بن السيد أحمد بن السيد على بن السيد الحسن - الملقب برفاعة - ابن السيد المهدي بن السيد أبى القاسم محمد بن السيد الحسن بن السيد الحسين بن السيد موسى الثانى بن السيد إبراهيم المرتضى ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين على ابن سيدنا الإمام أبى عبد الله الحسين بن

سيدنا على وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. فأنعم به من نسب زكى^(١). وفى ذلك يقول الخطيب الإدهوى:

لنسبة أحمد المولى الرفاعى

لطفه وصلة عظمت مقاماً

سرى برهانها شرقاً وغرباً

وسار معطراً يمناً وشاماً

ولقد بشر مولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمولد القطب الرفاعى قبل ولادته، فقد روى أن العارف الريانى سيدى منصور البطائحي رضى الله عنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وهو يقول له: (يا منصور: أبشرك أن الله يعطى إلى أختك بعد أربعين يوماً ولداً ويكون اسمه أحمد الرفاعى. ومثل ما أنا رأس الأنبياء كذلك هو رأس الأولياء. وحين يكبر فخذوه واذهب به إلى الشيخ على القارى الواسطى وأعطه له كى يريه؛ لأن ذلك الرجل عزيز عند الله ولا تغفل عنه) قال سيدى منصور: فقلت: الأمر أمركم يا رسول الله. عليك الصلاة والسلام. أهـ^(٢)

وقد ولد الإمام الرفاعى رضى الله عنه - كما بشر الرسول صلى الله عليه وسلم - فى بيت خاله القطب البطائحي بقرية (أم عبيدة) من أعمال واسط بالعراق يوم الخميس فى النصف الأول من شهر رجب سنة اثنتى عشرة وخمسمائة هجرية^(٣). وتقعر النور المحمدى الذى أهدته السماء إلى الأرض؛ لينشر فى ربوعها شمع الإيمان واليقين، وليبث دعوة الإصلاح الروحى، ويحيى معالم الهدى المحمدى الوضاء. ولاحت سمات التفرد الاصطفائى منذ شروق حياة الإمام الرفاعى،

(١) انظر: قلادة الجواهر فى ذكر القوث الرفاعى وأتباعه الأكابر للسيد محمد أبى الهدى الصيادى/ ص ١٦.

(٢) انظر: قلادة الجواهر للسيد محمد أبى الهدى الصيادى ص ٢٨ - ٢٩.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢ وقد ذكر فيه أن ولادة القطب الرفاعى كانت بقرية (حَسَنَ) من أعمال البصرة عام وفاة خليفة بغداد أحمد المستظهر بالله المباسى. بينما ذكر الإمام المناوى فى (الكواكب الدرية: ١/ ٦٥٠ - ٦٥١) أن ولادة الإمام الرفاعى كانت بأم عبيدة بأرض البطائح سنة خمسمائة هـ.

فالأوساط الصوفية كلها كانت على موعد مع فجر ميلاده، سواء عن طريق الكشف أو التبشير كما حدث لخاله الشيخ منصور.

ولقد كانت نظرة واحدة إلى وجه الإمام الرفاعي وهو لا يزال رضيعاً في مهد طفولته تعطى للمتوسم كل دلالات التفرد والولاية، بل إن الأحداث نفسها كانت كثيراً ما تأخذ طابع الكرامات والخوارق. فقد روى صاحب (النجم الساعى فى مناقب القطب الكبير الرفاعى)، أنه كان لسيدى أحمد مرضعة صالحة عفيفة النفس. فأعطته يوماً ثديها فما قبله وأعرض عنها ، فنظروا فى الأمر وفحصوا فوجدوا هذه المرضعة بلا وضوء ، فلما توضأت شرب من لبنها رضى الله عنه !! كما روى فى نفس المرجع أن سيدى أحمد كان يشرب اللبن كل يوم من حين ولدته أمه إلى رمضان فتقيد بعدم شربه اللبن فيه إلى حين جاء العيد فشربه فى أول يوم وأفطر مع الناس فيه (١) !!

لقد أغدقت عليه العناية من إمدادها الريانى وتوالت النفعات مع الأيام والدقائق والأنفاس. وتكفل سيدى منصور البطائحي برعاية سيدى أحمد وتربيته حيث قد لحق أبوه بريه قبل ولادته، وعمل سيدى منصور بوصية المصطفى - صلى الله عليه وسلم - فأخذ سيدى أحمد إلى الشيخ على الواسطى - بعد أن حفظ القرآن الكريم - وجمعه عليه ليربيه فى الطريق وليأخذ عليه العهد الوثيق. وبذا اجتمعت لسيدى أحمد رواقد العرفان والتحقيق ممثلة فى خاله القطب الريانى الشيخ منصور، وشيخه على القارى. كما يروى صاحب النجم الساعى أنه أخذ أيضاً عن خاله سلطان العلماء الشيخ أبى بكر الواسطى الأنصارى، علوم الشريعة وتفنن بها وألف الكتب الكثيرة (٢).

(١) انظر قلادة الجواهر للمعارف المصياى ص: ٢٥، ٣٢.

(٢) ذكر المعارف المصياى فى (قلادة الجواهر ص ٤١) أن الشيخ عليا القارى الواسطى قد تولى أمر تربية سيدى أحمد الرفاعى وسلكه الطريق وأخذ عليه العهد الوثيق وتلقى عنده علوم الشرع، وانكشفت له - بإذن الله - أيام صحبته الحقائق والدقائق والظاهر والباطن، وكان سيدى على الواسطى شيخ العلماء وأهل الخبرة فى (البطيحة) وفى (واسط).

وبذا اجتمعت لسيدى أحمد تربية الظاهر والباطن، فقد تفقه فى الدين على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه، ودرس (التبیه) وألف شرحا عليه فيما بعد، كما صنف فى التفسير والحديث وعلوم القوم أسفارا ثمينة.

ولقد أقبل سيدى أحمد منذ صباه المبكر على شتى المناهل العذبة التى تؤهله لسلوك الطريق والمضى على قدم التحقيق. فنال منها راح المعرفة وإكسير الحكمة الربانية.

يروى الإمام الشعرانى رضى الله عنه أن سيدى أحمد كان يقول: (لما مررت وأنا صغير على الشيخ العارف بالله تعالى عبد الملك الخرتونى وصانى وقال لى: يا أحمد، احفظ ما أقول لك. فقلت: نعم. فقال رضى الله عنه: ملتفت لا يصل، ومتسلل لا يفلح، ومن لا يعرف من نفسه النقصان فكل أوقاته نقصان. فخرجت من عنده وجعلت أكررها سنة ثم رجعت إليه فقلت: أوصنى. فقال: ما أقبح الجهل بالألباء والعلة بالأطباء، والجفاء بالأحباء. ثم خرجت وجعلت أرددها سنة فانتفعت بموعظته)^(١).

وهكذا كان سيدى أحمد يصعد سلم الارتقاء وعيون العارفين ترقبه بعنايتها وتتطلع إليه بفراستها فتكتشف فيه أمل المستقبل فى عالم الولاية.

روى الإمام النبهانى فى (جامع الكرامات) أنه مر بالإمام الرفاعى جماعة من الفقراء - أى فقراء الصوفية - فى صغره. فوقفوا ينظرونه، فقال أحدهم: لا إله إلا الله محمد رسول الله.. ظهرت هذه الشجرة المباركة. فقال الثانى: تتفرع لها فروع. فقال الثالث: عن قليل يشتمل ظلها. فقال الرابع: عن قليل يكثر ثمرها ويشرق قمرها. فقال الخامس: عن قليل ترى الناس منها المعجب ويكثر نحوها الطلب. فقال السادس: عن قليل يعلو شأنها ويظهر برهانها. فقال السابع: كم يلقى لها باب، وكم يظهر لها أصحاب. أه^(٢).

(١) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه: ١/ ١٢٠ ط/ الشرفية.

(٢) انظر: جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى رضى الله تعالى عنه: ١/ ٤٩٠ ط/ الحلبي (الثانية).

وعندما دنت وفاة سيدى منصور البطائحي شيخ أقطاب عصره، أراد بعض أهله وأصحابه ومريديه أن يجعل الخلافة فى الطريق لابنه من بعده. بيد أن سيدى منصوراً كان يرى أن لا أحقية لأحد فى المشيخة من بعده إلا لسيدى أحمد الرفاعى. فقالت له زوجته: أوص لولدك. فقال: بل لابن أختى، فكررت عليه القول. فأراد أن يحسم الموقف بالدليل، فقال لابنه ولابن أخته: اثنيانى بنجيل من أرض كذا. فأتاه ابنه بنجيل كثير ولم يأته ابن أخته بشئ فقال له: يا أحمد لم لم تأت بنجيل؟ فقال: وجدته كله يسبح الله عز وجل فلم أستطع أن أقلع منه شيئاً^(١).

وهكذا برهن سيدى منصور على أحقية سيدى أحمد بالخلافة، ولمست زوجته وأهله وأصحابه شواهد الاستحقاق والتحقيق من عارف يشهر فى الموجودات بأسرها سر قوله تعالى: (وإن من شئ إلا يسبح بحمده).

وتسلم سيدى أحمد لواء الولاية خلفاً لسيدى منصور رضى الله عنه، ومن ثم نتعرف على سند القطب الرفاعى فى الطريق، فقد تلقى خرقة التصوف من خاله سيدى منصور البطائحي، وهو عن شيخه سيدى محمد الشنكى إمام التصوف بالطائحات فى عصره. وهو قد أخذ عن سيدى أبى بكر بن هوار البطائحي، الذى تلقى الخرقة عن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه. فقد ذكر الإمام الشعرانى فى ترجمة سيدى أبى بكر بن هوار فى الطبقات ما نصه: (وهو أول من ألبسه أبو بكر الصديق رضى الله عنه الخرقة ثوباً وطافية فى النوم فاستيقظ فوجدهما عليه)^(٢) رضى الله عنهم أجمعين^(٣).

والى جانب هذا السند الظاهرى الذى سلك به القطب الرفاعى الطريق، فإن

(١) انظر: فلاة الجواهر للمارف الصيادى ص ٤١ وانظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ١١٥.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه: ١/ ١١٣.

(٣) إلى جانب هذا السند الصديقى للإمام الرفاعى رضوان الله عليه: أورد الملامة ابن الملقن فى (طبقات الأولياء ص ٩٤) السند الطريقى الحسينى للإمام الرفاعى فقال: (وطريقه فى الصعبة: صعب خاله الشيخ منصور، وهو صعب بها الشيخ عليا القارى الواسطى، وهو صعب بها الشيخ أبا الفضل بن كامخ، وهو صعب بها الشيخ عدا الروزبارى وهو صعب بها الشيخ عليا المعجمى، وهو صعب بها الشيخ أبا بكر الشبلى، وهو صعب بها الشيخ أبا القاسم الجنيد: وهو صعب بها السرى... ويقية السند معروف).

سیدی أحمد كان يستمد سنده الباطنی من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم مباشرة. ولقد ربه روحانية سيد العالمين - صلوات الله وسلامه عليه - ورقته إلى ذروة الولاية والتحقيق. بل إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الذي سماه بالرفاعي، فقد روى الشيخ أبو بكر العيدروس أن الشيخ عمادا الزنجي سأل السيد الكبير - سیدی أحمد - فقال، أي سیدی: ما سبب اشتهاركم بالرفاعية؟ فقال السيد الكبير: (يا زنجي هو أني كنت يوما جالسا في عرفات، فإذا جماعة من الأولياء وأهل الطريق الأبدال في ذلك المجلس، فالتفت في جانبي فرأيت سيد المرسلين، فقال: يا رفاعي: قد ارتفعت درجتك في الدنيا والآخرة، بشاره لك. فصار اسمي من ذلك اليوم مشهورا بالرفاعي بين أهل الحضرة؛ لأنهم سمعوه من نفس النبي صلى الله عليه وسلم). ذلك أمر التسمية الباطنية. وأما تسميته الظاهرية بالرفاعي فنسبة إلى جده رفاعه الحسن أبي المكارم المكي. وأما كنيته بأبي العلمين: فلاتصال نسبه من جهة أبيه بسيدنا ومولانا الإمام الحسين، ومن جهة أمه بسيدنا ومولانا الإمام الحسن رضي الله عنهما وعنا بهما في الدارين.

وذكر بعض العارفين أن كنيته بأبي العلمين للإشارة إلى علمي الشريعة والحقيقة. فهو حامل لواء الظاهر والباطن، وإمام العلم الشرعي والحقيقي.

والمتصفح للجانب السلوكي عند مولانا القطب الرفاعي يرى أقباسا من الضياء تتوهج، وصفحات من النور تزخر بطاعة هذا العارف لربه وشغله به وتفانيه في عبادته. يروي صاحب النجم الساعي عن الشيخ منصور العدوي قال: سمعت من الشيخ الزنكي قال: (إن السيد أحمد كان في ليله ونهاره يختم القرآن الكريم، وكان ورده وذكره قراءة القرآن، فإنه أفضل الذكر). ويحدثنا الإمام المناوي في طبقاته عن جانب الزهد والعبادة عند سیدی أحمد فيقول: (وكان لا يجمع بين قميصين شتاء وصيفا، ولا يأكل إلا بعد يومين أو ثلاثة أكلة واحدة، ويصلي كل يوم أربعمئة ركعة بألف «قل هو الله أحد»، ويستغفر كل يوم ألفين، يقول: لا إله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين) (١).

(١) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوي: ١/ ٦٥٧ وقلادة الحواهر للعارف السيد محمد أبي الهدى الصيادي. ص ٦٦.

ويروى الشيخ العيدروس أنه كان رضى الله عنه إذا شرع فى الصلاة يصفر بونه الشريف، وإذا فرغ من صلاة الصبح يستمر فى مكانه جالسا بالذلة والمسكنة يقرأ الأوراد إلى ضحوة النهار العالية، وإذا فرغ من ذلك صلى صلاة الإشراف وصلاة الضحى ثم يتوجه إلى أم عبيدة، ويجاهد نفسه الفيورة الكريمة على العبادة، وكان يقول: إذا كنت فى الخلوة يحصل عندى التأسف والتحسر كثيرا، وكان دائما يرى فى الخلوة واقفا على قدميه ويجاهد نفسه وينشد هذا البيت ويقول:

والله لو علمت روحى بمن عقلت

قامت على رأسها فضلا عن القدم^(١)

لقد سكن العارف الرفاعى إلى ربه وأنس به، فسجد قلبه على بساط خدمته، واستجمعت همته كل الأحوال والمقامات، فلم يشغل بها عن مولاه. لقد تخطى كل الحواجز والعوائق وصار عبدا ربانيا محضا لا شائبة لرق فيه لغير سيده. وصارت الطاعة للمولى عز وجل هى الروح والريحان. لقد سقطت الأنية فى الطريق فلم يبق إلا روح نورانية مجردة، تغيب بفنائها فى معشوقها الأزلى، ثم تعود من رحلة الفناء إلى مقام البقاء، وعليها من حلل الجلال والجمال ما يضيق عنه نطاق المقال.

وإذا ما تساءلنا عن حقيقة مقام القطب الرفاعى ومكانته فى الطريق، فسوف يكون الجواب بغير حدود؛ لأن مولانا الإمام الرفاعى قد تخطى كل المقامات.

وليس هذا الحكم عفويا أو من عنديتنا أو من قبيل الحدس المبالغ فيه، فقد سجل الإمام الشعرانى رضى الله عنه هذا الحكم فى طبقاته، إذ حكى عن سيدى أحمد أنه قال له شخص من تلامذته: يا سيدى أنت القطب. فقال له سيدى أحمد: نزه شيخك عن القطبية. فقال له: وأنت الفوٹ. فقال: نزه شيخك عن الفوٹية^(١) ((ويملق الإمام الشعرانى على ذلك قائلًا: (قلت وفى هذا دليل على أنه تعدى المقامات والأطوار؛ لأن القطبية والفوٹية مقام معلوم، ومن كان مع الله وبالله فلا يعلم له مقام. وإن كان له فى كل مقام مقام والله أعلم)^(٢).

(١) انظر: طبقات الأولياء لابن الملقن؛ ص ٩٦.

(٢)، (٢) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ١٢٣ وقلادة الجواهر للعارف أبى الهدى الميادى ص/ ٨٨،

حقيقة أن سيدى أحمد لا يدرك شأوه فى الولاية، فهو أحد الأربعة الأقطاب الذين هم أركان الولاية العظمى، الوارثون للمدد المحمدى، المتآخية أرواحهم فى حضرة القدس. ولقد نقل عن كنز العارفين سيدى أحمد الزاهد رضى الله عنه أنه كان يقول: (المشايع رضى الله عنهم عددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف شيخ، وأعظمهم وأبرعهم فى باب المشيخة والولاية ثلثمائة شيخ. وأفضل الثلثمائة سبعون شيخا، وأفضل السبعين سبعة شيوخ، وأفضل السبعة أربعة شيوخ، وأفضل الأربعة شيوخ ثلاثة شيوخ، وأفضل الثلاثة واحد. واصطلاح القوم والأصحاب: هذا الواحد هو قطب الأقطاب سيدى أحمد الرفاعى الكبير).

وروى صاحب النجم الساعى أن الشيخ حجي خالد ومجرد الأكبر وعماد الدين الزنجى وعلى بن نعيم البغدادي ويعقوب الكراز والشيخ على بن عبد الوهاب وسيدى عبد السلام وسيدى عبد القادر الجيلانى، جميعهم شهدوا أن جميع الأولياء تشهد أن السيد الكبير سيدى أحمد الرفاعى غالب أوقاته دائر فى العالم العلوى، ووجوده فى العالم السفلى كناية عن النوع لأنه كان دائم السكر والفرق فى بحر المحبة للحق، وكان دائم التوجه للعالم المجرد والثناء المطلق. أ هـ.

ولقد كان الإمام الرفاعى دائم الحضور مع الله تعالى، وفى الحضرة المحمدية يقظة ومناما. فقد نقل الشيخ الميذروس عن الشيخ نجم الدين أنه قال: قال لى سيدى أحمد الرفاعى: (قد رأيت الله سبحانه وتعالى فى المنام مائة مرة وأربع عشرة مرة، ورأيت سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام مائة وسبعا وأربعين مرة .. وقال: هذا فى النوم. وما غاب عنى يقظة أبدا).

ولقد كان الإمام الرفاعى رضى الله عنه غارقا فى بحار المشاهدات والتجليات التى لا يسع العقل تصورها. يقول الإمام الشعرانى فى محلقاته مصورا أحد مشاهد التجلى الإلهى التى كانت تحدث لسيدى أحمد: وكان إذا تجلى الحق تعالى عليه بالتعظيم يذوب حتى يكون بقعة ماء ثم يتداركه اللطف فيصير يجمد

شيئا فشيئا حتى يرد إلى جسمه المعتاد ويقول: لولا لطف الله تعالى بي ما رجعت إليكم^(١).

وها هو يصف أحوال المتمكنين فيقول: (إن العبد إذا تمكن من الأحوال بلغ محل القرب من الله تعالى، وصارت همته خارقة للسبع السموات، وصارت الأرضون كالخلخال برجله، وصار صفة من صفات الحق جل وعلا، لا يعجزه شيء، وصار الحق تعالى يرضى لرضاه ويسخط لسخطه. قال: ويدل لما قلناه: ما ورد في بعض الكتب الإلهية: يقول الله عز وجل: يا بني آدم أطيعوني أطعكم، واختاروني اختركم، وارضوا عني أرض عنكم، وأحبوني أحبكم، وراقبوني أرقبكم وأجعلكم تقولون للشيء كن فيكون .. يا بني آدم: من حصلت له حصل له كل شيء، ومن فته فاته كل شيء).

ويعلق الإمام الشعراني على ما يلتبس فهمه من تلك العبارة فيقول: (وقوله صار صفة من صفات الحق تعالى، لعله يريد التخلق والاتصاف بصفته تعالى من الحلم والصفح والكرم؛ لأنه لا يصح لأحد أن يكون عين صفات الحق. فهو كقوله فبى يرى وبى يسمع وبى ينطق وما أشبه ذلك)^(٢).

ثم لنقف الآن عند جانبين من أبرز الجوانب التي حفلت بها شخصية الإمام الرفاعي رضى الله عنه وفاق فيهما الذروة، وهما (الفتوة والتواضع). وفي تعريف الفتوة يقول الإمام القشيري: (أن يكون العبد ساعيا أبدا في أمر غيره)^(٣).

وفيها يقول العارف أبو علي الدقاق: (هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن كل أحد في القيامة يقول: نفسى.. نفسى.. وهو - صلى الله عليه وسلم يقول: أمتى.. أمتى..)^(٤).

ولقد كان القطب الرفاعي شفوفا بالمسلمين إلى حد الافتداء والإيثار، فقد

(١) انظر الطبقات الكبرى لسيدى الإمام عبد الوهاب الشعراني رضى الله تعالى عنه: ١ / ١٢٢.

(٢) المصدر الأخير: ١ / ١٢١.

(٣) (٤) انظر الرسالة القشيرية للإمام القشيري بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود: ٢ / ٤٧٢.

ذكر الإمام الشعراني أن سيدي أحمد كان رضى الله عنه يمرغ وجهه وشيئته فى التراب ويبكى ويقول: (العفو .. العفو .. اللهم اجعلنى سقف البلاء على هؤلاء الخلق) ^(١).

وكان رضى الله عنه حمالا للأذى فى تسامح كريم، ولم يتغير خاطره من مخلوق قط مهما تطاول عليه بالأذى أو لج فى العناد والإنكار. ولقد روى الإمام الشعراني أن الشيخ إبراهيم البستى أرسل إلى سيدي أحمد كتابا يحط عليه فيه. فقال سيدي أحمد للرسول: اقرأه. فقرأه فإذا فيه: أى أعور أى دجال أى مبتدع يا من جمع بين الرجال والنساء حتى ذكر الكلب بن الكلب، وذكر أشياء تفيظ، فلما فرغ الرسول من قراءة الكتاب، أخذه سيدي أحمد رضى الله عنه وقرأه وقال: صدق فيما قال جزاه الله عنى خيرا ثم أنشد:

ولست أبالى من زمانى بريبة

إذا كنت عند الله غير مريب

ثم قال للرسول أكتب إليه الجواب، (من هذا اللاش حميد إلى سيدي الشيخ إبراهيم البستى رضى الله عنه أما قولك الذى ذكرته فإن الله تعالى خلقنى كما يشاء وأسكن فى ما يشاء وإنى أريد من صدقاتك أن تدعولى ولا تخلينى من حلك وحلمك) فلما وصل الكتاب إلى البستى عام على وجهه، فما عرفوا إلى أين ذهب ^(٢) وكانت لسيدي أحمد شفقة بالغة بالحيوان حتى إن القطب الشعراني قال: (وكان قد كلفه الله بالنظر فى أمر الدواب والحيوانات) ^(٣)، وذكر أنه كان إذا جلس على ثوبه جرارة وهو مار فى الشمس وجلست على محل الظل، يمكث لها حتى تطير، ويقول: إنها استظلت بنا !! وكان إذا نام على كفه هرة وجاء وقت الصلاة يقطع كفه من تحتها ولا يوقظها. فردا جاء من الصلاة أخذ كفه وخاطه ببعضه !! ووجد رضى الله عنه مرة كلبا أجرب أخرجه أهل أم عبيدة إلى محل بعيد، فخرج معه إلى البرية

(١) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعراني. ١/ ١٢٣.

(٢) المصدر نفسه: ١/ ١٢٢ - ١٢٣.

وضرب عليه مظلة وصار يطليه بالدهن ويطعمه ويسقيه ويحت الجرب منه بخرقه
فلما برئ حمل له ماء ساخنا، وغسله (١) !

إنها الرحمة الرحيمة والشفقة المثالية بخلق الله .. ومن ثم فقد سخر الله له
المخلوقات حتى إن أشد الحيوانات والهوام إيذاء قد ذلت للإمام الرفاعي. مثل
الحيات والمقارب والثعابين وغيرها. ولا تزال طائفة الرفاعية تشتهر بترويض هذه
الحيوانات المؤذية واقتنائها إلى يومنا هذا. ولا عجب، فمن أطاع الله أطاعه كل
شيء.

ولقد ضرب سيدي أحمد الرفاعي أروع الأمثلة في التواضع الجرم والأدب
المحمدي والذلة والانكسار وأدب مريديه بأدابه. فقد روى عن خادمه الشيخ يعقوب
أنه قال: نظر سيدي أحمد رضى الله عنه إلى النخلة فقال : يا يعقوب، انظر إلى
النخلة لما رفعت رأسها جعل الله تعالى ثقل حملها عليها ولو حملت مهما حملت.
وانظر إلى شجرة اليقطلين لما وضعت نفسها ألقت خدها على الأرض، جعل ثقل
حملها على غيرها ولو حملت مهما حملت لا تحس به (٢).

ولقد كان رضى الله عنه يقول لأولاده: (من تمشيخ عليكم فتتلمذوا له. فإن
مد يده لكم لتقبلوها فقبلوا رجله، ومن تقدم عليكم فقدموه، وكونوا آخر شعرة في
الذنب فإن الضربة أول ما تقع في الرأس) (٣).

وقال رضى الله عنه لأصحابه يوما (من رأى منكم فى حميد - ويعنى نفسه -
عيبا فليعلمه به. فقام شخص فقال: يا سيدي فيك عيب عظيم. فقال: وما هو يا
أخي؟ فقال: كون مثلنا من أصحابك. فبكى الفقراء وعلا نحيبهم وبكى سيدي أحمد
معهم وقال: أنا خادمكم أنا دونكم) (٤). هذه هي أخلاق النبوة التي ورثها الوارث
المحمدي سيدي أحمد الرفاعي.

(١) نفس المصدر: ١ / ١٢٢.

(٢) نفس المصدر: ١ / ١٢٠.

(٣) نفس المصدر: ١ / ١٢١ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي (٢١ / ٧٨) وفيه بدل قوله «أنا خادمكم أنا دونكم».

وقال - أي الشيخ - : أي عمر: (إن سلم المركب حمل من فيه) وكان المخاطب عمر القاروثي.

(٤) المصدر نفسه: ١ / ١٢٣.

ولقد كان آخر مثل ضربه فى الفتوة - رضى الله عنه هو ما رواه الإمام الشعرانى أن سيدى يعقوب خادمه رضى الله عنه قال: لما مرض سيدى أحمد رضى الله عنه مرض الموت قلت له: تجلى العروس فى هذه المرة؟ قال: نعم. فقلت له: لماذا؟ فقال: جرت أمور اشتريناها بالأرواح، وذلك أنه أقبل على الخلق بلاء عظيم فتحملته عنهم وشريته بما بقى من عمرى فباعنى^(١)))

لله أنت يا إمام العارفين.. يا معدن الرحمة من سيد الأولين والآخرين. لقد أسس الإمام الرفاعى طريقته السنية على نهج الكتاب والسنة، فاهتدى بها السالكون ووصل بها السائرون.

«منهج الطريقة الرفاعية قد رسمه شيخها بقوله رضى الله عنه: (طريقى دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة) وروح المشرب الرفاعى الذى بنى عليه طريقه يتمثل فى قوله رضى الله عنه: (سلكت كل طريق فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار، والانكسار لتعظيم أمر الله، والشفقة على خلق الله والافتداء بسنة سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(٢) وقال: (رأيت جميع الطرق إلى الله تعالى فما رأيت أحسن ذخيرة وأقرب إلى الله تعالى من طريق الذل والانكسار والمسكنة).

وغنى عن الذكر أن ما يعنيه سيدى أحمد بالذل والانكسار والمسكنة ليس المراد به الضعف فى الدين ولا امتهان حرمة المسلم، فذلك بمنأى عن قصده، بل هو على النقيض منه. ولكن المراد هو إذلال النفس بالعبودية لخالقها والانتقياد له حتى ينتقل سلطانها إلى القلب كما قال عليه رضوان الله: (ما حياة القلب إلا فى إماتة النفس)^(٣).

(١) المصدر نفسه: ١ / ١٢٣.

(٢) انظر: طبقات الشافعية الكبرى للإمام تاج الدين السبكي ١ / ٢٥ ط/ العلبى (المحققة). وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢١ / ٧٩ وفيه بلفظ: (أقرب الطريق الانكسار والذل والافتقار، تعظم أمر الله، وتشفق على خلق الله وتقتدى بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم).

(٣) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى: ١ / ٦٥٧، ٦٥٩.

وكان رضى الله عنه يقول: (طريقتنا مبنية على ثلاثة أشياء: لا نسأل، ولا نرد، ولا ندخر)^(١). ولقد روى الإمام الرضا عن أبيه ومريديه بنور معرفته، وغسل قلوبهم بماء حكمته، لقد كان رضى الله عنه يقول: (إذا صلح القلب صار مهبط الوحي والأسرار والأنوار والملائكة، وإذا فسد صار مهبط الظلم والشیطان، وإذا صلح القلب أخبرك بما وراءك وأمامك ونبهك على أمور لم تكن تعلمها بشيء دونه، وإذا فسد حدثك بباطلات يغيب معها الرشد وينتفى معها السعد)^(٢). وكان يقول عليه الرضوان: (من شرط الفقير أن يرى كل نفس من أنفاسه أعز من الكبريت الأحمر فيودع كل نفس أعز ما يصلح له فلا يضيع له نفس)^(٣).

ولقد سلك على يديه رجال ورجال نهلوا من نبعه كأس المحبة والوصال. يقول الإمام المناوى رضى الله عنه: (وكانت حلقة مريديه ستة عشر ألفاً)^(٤).

ويروى أنه ترك يوم وفاته أتباعا عدوا يومها بمائة ألف أو يزيدون. لقد تجمعت هذه القلوب لتستقى من معين الحكمة والمعرفة، وترتوى من هيض إلهام القطب اللدنى الذى لا ساحل لمحيط معرفته.

لقد تحدث يوما عن الكشف فقال: (الكشف قوة جاذبة بخاصيتها نور عين البصيرة إلى فيض الغيب، فيتصل نورها به اتصال الشعاع بالزجاجة الصافية حال مقابلتها المنبع إلى فيضه، ثم يتقاذف نوره منعكسا بضوئه على صفاء القلب ثم يترقى ساطعا إلى عالم العقل فيتصل به اتصالا معنويا له أثره فى استفاضة نور العقل على ساحة القلب، فيشرق نور العقل على إنسان عين السر، فيرى ما خفى عن الأبصار موضعه، وذق عن الأفهام تصوره، واستتر عن الأغيار مرآه)^(٥).

سبحان من أفاض على أوليائه بتلك المنح العرفانية. ونأتى أخيرا إلى جانب الكرامات ، وماذا عسى أن نقول؟ إن مقياس الكرامات لا يقوى على استيعاب ما

(١) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى. ١/ ٦٥٧، ٦٥٩.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٦٥٦.

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراوى رضى الله تعالى عنه ١/ ١٢١.

(٤) انظر. الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية للإمام المناوى ١/ ٦٥١.

(٥) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراوى ١/ ١٢٠.

حفلت به شخصية القطب الرفاعي. فكل جوانب حياته كرامات وفيها ما هو أكبر من الكرامات. فلنذكر تبركا ما يزيدنا عرفانا بالمقام الرفاعي:

روى جمهرة الصوفية أن سيدي أحمد الرفاعي رضى الله عنه لما حج وقف تجاه الحجرة المطرة النبوية وقال: السلام عليك يا جدى، فرد عليه الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام قائلا: وعليك السلام يا ولدى. فتواجد سيدي أحمد لهذه المنحة الجليلة وقال منشدا:

فى حالة البعد روى كنت أرسلها
تقبل الأرض عنى وهى نائبتى
وهذه دولة الأشباح قد حضرت
فامدد يمينك كى تحظى بها شفتى

فمد له الرسول - صلى الله عليه وسلم - يده الشريفة من قبره الكريم فقبلها فى مأل يقرب من تسعين ألف رجل والناس ينظرون يد الرسول صلى الله عليه وسلم ويسمعون كلامه. وكان من شهود هذا الموقف الجليل سيدي عبد القادر الجيلانى وسيدي عدى الشامى والشيخ ابن قيس الحرانى وغيرهم من كبار العارفين رضى الله عنهم أجمعين^(١).

ومن كراماته: أن رجلين تحابا فى الله اسم أحدهما معالى والآخر عبد المنعم، فخرجا إلى الصحراء، فتمنى أحدهما كتاب عتق من النار ينزل من السماء، فسقطت منها ورقة بيضاء فلم يريا فيها كتابة، فأثيا القطب الرفاعي ولم يخبراه بالقصة. فنظر إليها ثم خر ساجدا وقال، الحمد لله الذى أرانى عتق أصحابى من النار فى الدنيا قبل الآخرة. فقليل له : هذه بيضاء. فقال: أى أولادى.. يد القدرة لا تكتب بسواد. وهذه مكتوبة بالنور^(٢) ١١.

(١) انظر: قلادة الجواهر للعارف السيد محمد أبى الهدى الصيادى ص ١٠٨ - ١٠٩. وانظر: جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى: ١/ ٤٩٤ ط/ الحلبي (الثانية).

(٢) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى: ١/ ٦٥٢.

ومنها أيضا أن بعض أصحابه رآه في المنام في مقعد صدق مرارا ولم يخبره. وكان للشيخ امرأة بنية اللسان، تسفه عليه وتؤذيه. فدخل عليه الذي رآه في مقعد صدق يوما، فوجد بيد امرأته محراك التور وهي تضربه على أكتافه فاسود ثوبه وهو ساكت. فانزعج الرجل وخرج من عنده. فاجتمع بأصحاب الشيخ وقال: يا قوم: يجرى على الشيخ من هذه المرأة هذا وأنتم سكوت؟ فقال بعضهم: مهرها خمسمائة دينار وهو فقير. فمضى الرجل وجمع خمسمائة دينار وجاء بها إلى الشيخ في صينية فوضعها بين يديه. فقال له: ما هذا؟ فقال: مهر هذه الشقية التي فعلت بك كذا وكذا. فتبسم وقال: (لولا صبري على ضربها ولسانها ما رأيتي في مقعد صدق) (١).

إنه خلق الفتوة وإنها عظمة الشخصية وقوة التحمل تتمثل بأسمى معانيها وأروع صورها في الإمام الرفاعي قطب الأقطاب، الذي ربي أقطابا ورجالا يسيرة على دربه المحمدي في كل عصر. ولقد كان من صفوة وارثيه في هذا العصر مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضوان الله عليه الذي تجسدت فيه الأخلاق المحمدية وانطبع أثرها فيمن سلك على يديه.

وأخيرا: فهذا هو الإمام الرفاعي الذي ترجم له الحافظ الذهبي - أحد أئمة السلفية - قائلا: (الإمام القدوة العابد الزاهد شيخ المارفين أبو العباس أحمد بن أبي الحسن.. الرفاعي المغربي ثم البطائحي) (٢).

(وبعد)

فقد عشنا في رحابك يا سيدي يا أبا العلمين، نرتوي من مددك، وننعم بذكرك، فبحق جدكم المصطفى - صلى الله عليه وسلم - أن تمدونا بمددكم وتجذبونا بأنواركم إلى رحاب عطفكم. رضى الله عنكم وجعلنا من ورثة أمدادكم في الدنيا ويوم الدين.

(١) انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي: ٤ / ٢٦٠ - ٢٦١.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي بتحقيق د. بشار عواد، د. محيي هلال: ٧٧/٢١ - ٧٨.

إمام الصديقين فى وقته شيخ الشيوخ «سيدى أبو مدين المغربى» (٥١٠ - ٥٨٠) هـ رضى الله عنه

من نفحات الجود الإلهى فاضت أنوار الحضرة القدسية على عبيد الاختصاص من الأولياء الخواص أهل الاتصال والكمال. فسبحوا فى أفلاك الولاية الحقانية، وتهيأت قلوبهم لتلقى الأسرار الإلهية ، والتقت أنوار الحضرة الريانية بأنوار عبودية القلب وهو ساجد لمولاه سجود الأبد على بساط الخصوصية. فاندرج نور العبودية فى نور الربوبية وصار العبد صوفيا ربانيا دائم الاستغراق فى المعية القدسية، لا يرى فى الوجود إلا الله، ولا يسمع إلا بالله، ولا ينطق إلا بالله، تلك نعمت ندمان حضرة الرحمن الذين استقارت بهم الأكوان ، وسرت بركاتهم عبر تتابع الأزمان، رضى الله عنهم وعنا بهم ، وأفاض علينا من بركاتهم ما يلحقنا بركبهم الأسعد فى الدنيا والآخرة.

من عيون أولئك السادة الذين سبقت لهم الحسنى وزيادة، إمام من صفوة الأئمة المقربين ورأس من رموس الصديقين وعلم من أعلام الولاية الراسخين وقطب من أكابر المحققين وعارف: رفعت له فى ذرى العرفان أعلام شامخة، وسارت بذكره كتائب الأيام لمناقبه مؤرخة. فهو كنز فى الحقائق تسترت جواهره خلف حجب الإبهام، وهو بحر فى المعارف لم تسبح فى خضمه زوارق الأفهام. فياله من عارف وياله من إمام. إنه قطب الأقطاب وشيخ الشيوخ العارف الشهير، والفوئ الكبير سيدى شعيب بن الحسين الأنصارى الأندلسى الشهير بأبى مدين المغربى قدس الله سره ورضى عنه وعنا به فى ظل جنابه الشريف.

أصله من (أشبيلية) وقد ولد على مقربة من شمالها بحصن (قنطنيانة) فى العقد الثانى من القرن السادس الهجرى. وقد اختلفت الروايات فى تحديد تاريخ ميلاده ووفاته ، فابن العماد فى شذرات الذهب يؤرخ لوفاته بسنة ٥٩٠ هـ ويقول أنه قد قارب الثمانين عمرا وعلى ذلك يكون ميلاده حوالى سنة ٥١٠ هـ (١).

ويذكر الإمام المناوى رضى الله عنه أنه مات سنة نيف وثمانين وخمسائة على نحو ثمانين سنة بتلمسان (٢) . وهذا القول أصوب من سابقه.

بينما تقول بعض الروايات الأخرى إن وفاته كانت سنة ٥٩٤ هـ وممن قال بهذا رأى دائرة المعارف الإسلامية والزركلى فى الأعلام والأستاذ محمد البهلى النبال فى كتابه (الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامى) نشر مكتبة النجاح بتونس. وما ذكره المناوى هو الأقرب إلى الصواب.

ومحصل مجموع الآراء أن الإمام أبا مدين عاش فيما بين أوائل العقد الثانى وأوائل العاشر من القرن السادس الهجرى.

وقد نشأ سيدى أبو مدين فى أشبيلية متدرجا فى مدارج الولاية والفتوح الريانى، وقد أحاطت به منذ البداية عناصر الصقل الروحى الذى ولى وجهه شطر السماء مستجديا عناية الله ورعايته فقد شب يتيما ومن أسرة فقيرة كل ما تملكه من تراث هو العلم والتدين، وكانت هذه هى المكونات الأولى لشخصية سيدى أبى مدين ومن ورائها كانت تكمن فطرة زكية حبتها العناية باستعداد قوى للمضى فى درب الولاية.

ورأى سيدى شعيب منذ البداية أن عليه أن يتكسب من عمل يديه ليتسنى له أن يمضى فى طريق لم يخلق إلا له. إنه طريق العلم والولاية. فعمل بالرمى وتعلم صناعة النسيج وشرع فى حفظ كتاب الله تعالى والتردد على الشيوخ فى أشبيلية ثم رأى أن يرحل إلى المغرب فعبر البحر إلى طنجة ثم سبتة فمراكش

(١) انظر: شذرات الذهب لابن العماد: ٣٠٣/٤.

(٢) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى ١/ ٦٧٠.

واستقر به المقام فى فاس موئل العلم والولاية التى خرجت أقطابا عديدين مثل سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه وعنا به. وهناك وجد ضالته المنشودة حيث كانت مجالس العلماء والفقهاء والزهاد والذاكرين. فأخذ يختلف إليهم بحثا عن يجد قلبه عنده. وتأتى نقطة التحول الأولى فيقول سيدى أبو مدين: (فلم أثبت على شىء إلى أن جلست إلى شيخ ثبت كلامه فى قلبى. فسألت عنه. فقبل: هو أبو الحسن بن حرزهم). وهذا هو أول شيوخه فى الطريق فلازمه وتلمذ على يديه فى علوم الظاهر والباطن فدرس عليه (السنن) لأبى عيسى الترمذى (الرعاية) للإمام الحارث المحاسبى وغير ذلك^(١).

وأما شيخه الثانى الذى أخذ عنه الطريق فهو سيدى أبو يعزى المغربي رضى الله عنه. يقول عنه الإمام الشعرائى رضى الله عنه فى طبقاته: (انتهت إليه تربية الصادقين بالمغرب وتخرج بصحبته جماعة من أكابر مشايخها وأعلام زهادها، وكان أهل المغرب يستسقون به فيسقون)^(٢).

ويقص سيدى أبو مدين قصة التقائه بشيخه أبى يعزى للمرة الأولى. فيروى الأستاذ الثبال فى كتابه أنه قال: (سمعت الناس يتكلمون عن كرامات أبى يعزى فذهبت إليه فى جماعة لزيارته، فلما وصلنا إلى جبال مرجان دخلنا على أبى يعزى أقبل الشيخ على القوم دونى. فلما حضر الطعام منعنى من الأكل، وهكذا كان يمنعنى من الأكل ثلاثة أيام وقد أجهدنى الجوع وفقدت بصرى، ومن الفقد استدعانى وقال لى: اقرب يا أندلسى. فدنوت منه فمسح بيده على عيني فأبصرت، ومسح على صدرى وقال: هذا سيكون له شأن عظيم).

(١) انظر الجانب العلمى عند سيدى إيسى مدين فى ترجمته فى (شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية) للشيخ محمد بن محمد مخلوف (ص ١٦٤ ط/ دار الفكر) قال فيه (.. جمع الله له علم الشريعة والحقيقة، كان من الفضلاء وأعلام العلماء ومن حفاظ الحديث - خصوصا الترمذى - وكان يقوم عليه، وكانت ترد إليه الفتاوى فى مذهب مالك فيجيب عنها فى الوقت..) إلى أن قال: (وتخرج على يديه ألف شيخ منهم محبى الدين محمد بن عربى..) وكذلك ترجم له الزركلى فى الأعلام (٣/ ١٦٦) وأورد له من مؤلفاته (مفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب) كما أورد له صاحب (إيضاح المكنون) - ١/ ١٣٣ - كتاب (أنس الوحيد ونزهة المريد فى علم التوحيد) وهذا يدفع ما ذكره العلامة المناوى فى (الكواكب ١/ ٦٦٥) أنه كان أميا).

(٢) انظر الطبقات الكبرى لمسيدى عبد الوهاب الشعرائى رضى الله عنه ١/ ١١٦.

وبدأ التحول الحاسم وأخذ الإمام أبو يعزى بناصية سيدي أبي مدين وقد عرف قيمة جوهره ورأى نورانية فطرته مشعة وضاءة، وشفافية قلبه مشرقة متألقة فأخذ بيده إلى الفتح الأكبر وأعطاه مفتاح الوصول، ودله على طريق السعادة الأبدية ، فأمره بالجهاد الروحي الدائب الذى يقشع عنه الحجب ويوصله إلى الحقيقة؛ صيام دائم وقيام لازم، وصمت وعزلة، وجوع وسهر، وذكر وفكر، وسار سيدي أبو مدين على الدرب.. درب النور والعناية، والفتح والولاية، وأخذت تتفتح له مغاليق الأسرار وصار ينهل من محيط الأنوار، وعثر على حقيقة ذاته حين ذابت نفسه فى مصهر الجهاد. وحين عرف نفسه عرف ربه. ولا يقولن أحد أن هذا الضرب من الجهاد الشاق بعيد عن روح الإسلام. فكلنا يعلم أن الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه كان يقوم الليل حتى تتورم قدماء الشريفتان، وكان يربط الحجر على بطنه الشريف من شدة الجوع بينما عرضت عليه الجبال أن تكون ذهباً فأبى. إنها قمة العبودية لله تعالى. وإنها للأسوة الحسنة فى النبى العظيم عليه أفضل صلوات الله وسلامه لكى تحظى أمته بشرف المتابعة حسبما تتبع طاقات أفرادها على ما بينهم من تفاوت. وكل يعمل على شاكلته .. (ولكل درجات مما عملوا) (٢).

أما الذين يحتجون على هذا السلوك المثالى المحمدى ممن ثقلت ترابيتهم فاتهموا التصوف بالانحراف عن هدى الدين القويم: فهم شواذ الفطرة غلف القلوب، لم يفهموا روح الإسلام الذى يرقى بالمعبد فى درجات العبودية حتى المشاهدة.

وماذا كانت ثمرة الجهاد عند سيدي أبي مدين؟ إنها المعرفة .. إنها الولاية .. إنها الريانية. وانضم سيدي شعيب إلى صفوف الصفوة وذاق طعم شرابهم. وكما يقول العارف:

(١) سورة الأنعام / ١٣٢.

من ذاق طعم شراب القوم يديره

ولو دراه غدا بالروح يشريه

ويعد أن حدث التحول الروحي العظيم لمسيدي أبي مدين على يد شيوخه بفاس أزمع الارتحال - بإذن شيخه - إلى بلاد المشرق فقصده بيت الله الحرام وروضة المصطفى عليه أتم الصلاة والسلام. وفي مكة كان اللقاء المرتقب مع ثالث شيوخه القطب الفوت سيدي عبد القادر الجيلاني قدس الله سره ورضى عنه وعنا به، ولبس منه الخرقة الصوفية، وتقلد النسبة القادرية. وتضيف بعض الروايات إلى شيوخه قطبين آخرين هما، أبو عبد الله الدقاق وأبو الحسن السلاوي.

بيد أن أكثر المصادر إن لم يكن كلها يولى الشيخ أبا يعزى أهمية خاصة في تأثيره الروحي فيه وتربيته الصوفية. وكذلك كان سيدي أبو مدين يشيد به دائما حتى أنه كان يقول: (رأيت أخبار الصالحين من أويس القرني إلى زماننا هذا فما رأيت أعجب من أخبار أبي يعزى). وأيضا فقد تأثر بكتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي حتى لقد كان يقول (نظرت في كتب التصوف فما رأيت مثل الإحياء للغزالي)، وهكذا تكاملت جوانب عدة جعلت من سيدي أبي مدين شخصا فذا في عصره فريدا في نوعه. فهو من الناحية العلمية قد خاض غمار العلوم بنفس طلبة وهمة نواقة حتى تبحر في مختلف الفنون وصار حجة في الإفتاء وإماما في الفقه المالكي ومحدثا ثبتا وأديبا فريدا بل وشاعرا مبدعا. ومما يؤثر من روائع شعره ما رواه صاحب نفح الطيب من قوله قدس سره:

بكت السحاب فأنضحت لبكائها

زهر الرياض وفاضت الأنهار

وقد أقبلت شمس النهار بحلة

خضراء في أسرارها أسرار

وأتى الربيع بخيله وجنوده
فتمعننت فى حسنه الأبصار
والورد نادى بالورود إلى الجنى
فتسابق الأطيار والأشجار
والناس ترقص والعقار تشمشت
والجو يضحك والحبیب یزار
والعود للفيء الحسان مجاوب
والطار أخفى صوته المزمار
لا تحسبوا الزمر الحرام مرادنا
مزمارنا التسبیح والأذکار
وهكذا تلتقى رقة الطبع مع شفافیة الروح وتتجاوب الشاعریة مع الصوفیة
فى إیقاع عذب یملك اللب ویعطر القلب بسیل متدفق من النور المذاب.
والله ما أحلى صوت الروح وهو یرفل فى ثیاب القریض لیوقظ القلب من
غفوته ویصله بخالقه.
وكما شدا سیدی أبو مدین بجمال صنعة البدیع جل جلاله فقد أرسل نجواه
إلى خالقه تعالى شأنه لاثذا وقاصدا لبابه. وفى هذا المعنى یروى صاحب شذرات
الذهب هذه الأبیات من شعره رضى الله عنه:
یامن عملا فرأى ما فى الغیوب وما
تحت الثرى وظلام اللیل منسدل
أنت الغیاث لمن ضاقت مذاهبه
أنت الدلیل لمن جارت به الحیل

إننا قصدناك والآمال واثقة
والكل يدعوك ملهوف ومبتهل
هإن عفوت فذو فضل وذو كرم
وإن سطوت هأننت الحاكم العدل^(١)

وأخذ سيدى أبو مدين يحلق فى آفاق النور ويرتقى فى مدارج الكمال،
ويسمو فى معارج التحقيق ويرتقى فى الأحوال والمقامات حتى وصل إلى علياء
منازل المقربين.

ولو حاولنا التعرف على تلك القمة التى وصلها سيدى أبو مدين فى الولاية
لوجدناه مترعاً على أعلى المقامات؛ يشهد بذلك لسانه فى الحقائق وآراء أهل
التحقيق فيه. كما يشهد له منهجه الصوفى الذى تربي عليه وربى عليه صفوة من
أكابر العارفين. ثم خوارقه التى تواترت عنه وبلغت مبلغاً عظيماً من الشهرة.

ولعل فى مقدمة من نتعرف منهم على مقام سيدى أبى مدين أعظم أبنائه
فى الطريق وحبيب روحه فى الله سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه
وعنا به. فقد كان يقول عن سيدى أبى مدين. (شيخنا أبو مدين رضى الله عنه:
الفائب على قلبه ويصره مشاهدة الحق فى كل شيء...) ومرة أخرى يقول:
(شيخنا أبو مدين من الثمانى عشرة نفساً الظاهرين بأمر الله عن أمر الله لا يرون
سوى الله فى الأكوان، وهم أهل علانية وجهر، مثبتون للأسباب، وخرق العوائد
عندهم عادة - قل الله ثم ذرهم^(٢) -)^(٣).

وكان سيدى أبو مدين كثيراً ما يردد هذا البيت الذى يجسد مشربه الروحى:

الله قل وذر الوجود وما حوى

إن كنت مرتاداً بصدق مراد

(١) انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى: ٣٠٣/٤.

(٢) سورة الأنعام/ ٩١.

(٣) انظر: الكواكب الدرية للإمام المناوى: ٦٦٧/١.

وكان سيدى أبو مدين لتفرد في علوم الحقائق غريبا في عصره شأن كل عارف ، وكان محل إنكار من المتعنتين المحجوبين، ولكنه كان نخبة الله في زمانه، وكانت معيته للحق تتسيه كل شيء ومن ثم كان شعاره (الله قل وذو الوجود وما حوى). وكان دائم الحضور مع ربه حتى أنه لصدق تحققه بهذا المقام كان يقول: (نسيان العبد للحق طرفة عين خيانة يستحق بها العقوبة)^(١))

ويروى مولانا الإمام الشعرانى رضى الله عنه أن سيدى أبا مدين كان يقول: (الحضور مع الحق جنة والغيبة عنه نار والقرب منه لذة والبعد عنه حسرة، والأنس به حياة والاستيحاش منه موت).

ومما يدلنا على مقام الإمام أبى مدين ما رواه سلطان العارفين سيدى محيى الدين بن عربى قدس سره في (الفتوحات) قائلا: (ذهبت أنا وبعض الأبدال إلى جبل قاف فمررنا بالحية المحدثه به. فقال لى البدل: سلم عليها فإنها سترد عليك السلام فسلمنا عليها فردت ثم قالت: من أى البلاد؟ فقلنا من بجاية فقالت: ما حال أبى مدين مع أهلها؟ فقلنا لها: يرمونه بالزندقة. فقالت: عجباً والله لبنى آدم! والله ما كنت أظن أن الله عز وجل يوالى عبدا من عبيده فيكرهه أحد. فقلنا لها: ومن أعلمك به؟ فقالت: يا سبحان الله! وهل على الأرض دابة تجهله؟ إنه والله ممن اتخذه الله تعالى وليا وأنزل محبته في قلوب العباد فلا يكرهه إلا كافر أو منافق)^(٢) .

وقد علق الإمام الشعرانى على هذا في طبقاته قائلا: (وأجمع المشايخ على تعظيمه وإجلاله وتأدبوا بين يديه، وكان ظريفا جميلا متواضعا زاهدا ورعا محققا مشتملا على كرم الأخلاق رضى الله عنه). وأما موضوع محادثة الحية التى بجبل قاف فإنه من قبيل الكرامات التى اختص بها أولياءه. والكرامة بنت المعجزة وتشترك معها في خرق العادة. وقد ثبت أن الرسول - صلى الله عليه

(١) المصدر الأخير: ١/ ٦٦٩.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه: ١/ ١٣١.

وسلم - قد كلمه الضب فى مجلسه مع أصحابه الأعلام وكلمه الجمل فى واقعة أخرى. وإذن فلا يكون خرق العادة مثارا للطعن فى الولاية ممن ملكتهم العادة.

ويروى الإمام محيى الدين بن عربى قدس سره فى كتابه (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار) أن بعض الصالحين رأى سيدى أبا مدين فى رؤيا منامية ومعه جمهرة من أعلام أهل الحقيقة. ذكر منهم سيدى أبا حامد الغزالى وسيدى أبا طالب المكى وسيدى أبا يزيد البسطامى قدس الله أسرارهم. وهؤلاء الأقطاب يسألون العارف أبا مدين ويستزيدونه فى أمهات مسائل التصوف. فسيدى أبو حامد الغزالى رضى الله عنه يسأل سيدى أبا مدين عن سر معرفته ومحبه فيقول له سيدى أبو مدين:

(المحبة مركبى، والمعرفة مذهبى والتوحيد وصولى. للمحبة سر لا يكشف، وإدراكات لا يعبر عنها، ولا يوصف سرها ومنبعها، وفى وصلها الجود العلى. فهى للخواص سنة مسنونة دل على ذلك قوله تعالى (يحبهم ويحبونه) فالمعرفة يا أخى فخرى، وهى قاعدة سرى وأمرى. ثمرتها التوحيد، ومنها وفيها يكون المزيد. فالتوحيد أصل وما سواه فرع. وهو غاية المقامات ونهاية الأحوال، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟).

ويروى الإمام الشعرانى رضى الله عنه وعنا به فى طبقاته واقعة تتفق مع ما ذكره الشيخ الأكبر فى محاضرة الأبرار اتفاقا لفظيا فى معظم فقراتها وهى إحدى الوقائع المنامية التى مرت إحداها بيد أن مولانا الشعرانى لم ينسبها للطرف السائل واكتفى بنسبتها لسيدى أبى مدين. أما السائل فيذكر الشيخ الأكبر أنه الإمام الغزالى أيضا وقد آثرنا رواية الإمام الشعرانى لأن فيها فقرات غير ما فى محاضرة الأبرار. يقول سيدنا الشعرانى (وقيل له مرة فى المنام: حقيقة سرك فى توحيدك؟ فقال: سرى مسرور بأسرار تستمد من البحار الإلهية التى لا ينبغى بثها لغير أهلها، إذ الإشارة تعجز عن وصفها، وأبت الغيرة الإلهية إلا أن تسترها وهى أسرار محيطة بالوجود لا يدركها إلا من كان وطنه مفقودا وكان فى عالم الحقيقة بسره

موجودا يتقلب في الحياة الأبدية وهو بسر طائر في فضاء الملكوت ويسرح في سرادقات الجبروت وقد تغلق بالأسماء والصفات وفنى عنها بمشاهدة الذات . هناك قرارى ووطنى وقرة عيني ومسكني، والحق تعالى في غنى عن الكل . قد أظهر في وجودى بدائع قدرته وأقبل على بالحفظ والتوفيق، وكشف لى عن مكنون التحقيق . فحياتى قائمة بالوجدانية وإشاراتي إلى الفردانية . فروحى راسخ فى علم الغيب يقول لى مالى: يا شعيب، كل يوم جديد على العبيد ولدنا مزيد . رضى الله عنه ^(١) .

ومما يزيدنا تعرفا على مقام سيدى أبى مدين رضى الله عنه وعنا به، ما رواه سيدى عبد الوهاب الشعرانى قدس سره فى طبقاته قائلا: (قال الشيخ أبو الحجاج الأقمصرى: سمعت شيخنا عبد الرازق رضى الله عنه يقول: لقيت الخضر عليه السلام سنة ثمانين وخمسائة فسألته عن شيخنا أبى مدين فقال: هو إمام الصديقين فى هذا الوقت، وسره من الإرادة ذلك آتاه الله تعالى مفتاحا من السر المصون بحجاب القدس، ما فى هذه الساعة أجمع لأسرار المرسلين منه . ثم قال: ومات أبو مدين رضى الله عنه بعد ذلك بيسير) ^(٢) هؤلاء والله هم الرجال، مصاييح الأمة ومنارات الخلق، طريقهم هو الموصل إلى السعادة العظمى وأى سعادة ؟ إنها الوصول إلى الله والمثل فى حضرته والأنس به والفناء فيه والبقاء به والارتواء من بحار محبته حتى لا يزداد العبد مع كثرة الارتواء إلا ظلما .

لقد حظى سيدى أبو مدين رضى الله عنه بكل هذه العطاءات وبلغ ذروة المقامات ونال القطبية العظمى وغوثية الزمان فى آخر عمره الحافل بالقرب وبالعروج . ولقد تحدث الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين عن منزل القطب فى رسالة له تحمل هذا العنوان، وذكر أن ثمة إمامين يليان القطب فى المقام وأعلاهما الإمام الذى عن يمينه ، ثم قال وهو بصدد بيان منزلة إمام اليمين (... وهى هذا

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١ / ١٣٧ .

(٢) المصدر الأخير : ١ / ١٣١ .

المقام عاش الشيخ أبو مدين ببجاية إلى قرب موته بساعة أو ساعتين خلعت عليه خلعة القطبية ونزعت عنه خلعة هذه الإمامة وصار اسمه عبد الإله وانتقلت خلعته باسم عبد الرب إلى رجل ببغداد اسمه عبد الوهاب، وكان الشيخ أبو مدين قد تناول له بها رجل من بلاد خراسان. مات الشيخ قطبا كبيرا).

ومرة أخرى يصرح سيدي محيي الدين بقطبانية شيخه قبل موته في كتابه (مواقع النجوم) فيقول: (وبلغ لي بعض الروحانية عند اجتماعي به أن شيخنا أبا النجا أعنى أبا مدين رضى الله عنه ما مات حتى كان قطبا قبل موته بساعة أو ساعتين، ولقد أتاني بذلك أبو يزيد البسطامي - رضى الله عنه - في رؤيا رأيته وإنى لأعلم وارثه الآن في ذلك المقام الإمامي وأعرفه غاية المعرفة ولله الحمد على ذلك) لم يلحق الإمام أبو مدين بربه إلا هو مترع على أعلى مقامات الولاية، ودرجته في الدنيا هي درجته في الآخرة التي يحشر عليها. كذا قال أهل التحقيق. أجل: ولم يلحق سيدي أبو مدين بربه إلا وقد رى سلطان العارفين مفخرة الصوفية وترجمانها الأكبر سيدي محيي الدين رضى الله عنه وعنا به وعنه تسلسل الأئمة والأقطاب. وأيضا فسيدي أبو مدين هو شيخ سيدي عبد الرزاق المدهون بالإسكندرية والذي هو شيخ لسيدي أبي الحجاج الأقصري رضى الله عنه وقد كان قطب عصره. كذلك فإن سيدي أبا مدين هو شيخ لأربعة من شيوخ سيدي أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه مباشرة وهم سيدي أبو عبد الله بن حرازم وسيدي أبو سعيد الباجي وسيدي أبو محمد المهدوي والرابع هو سيدي محيي الدين بن عري على ما يذكره بعض الرواة. وأيضا فإن سيدي عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه شيخ الإمام الشاذلي قد أخذ عن الشيخ عبد الرحمن المدني وهو عن العارف الدكالي أحد أبناء سيدي أبي مدين في الطريق.

ومن ثم نقف على مركز سيدي أبي مدين في الولاية حين نعلم أنه مؤسس لكل هذه المدارس الصوفية وشيخ لشيوخ الطرق. ومن ثم لقبه سيدي محيي الدين رضى الله عنه بلقب (شيخ الشيوخ) كما أنه لقب سيدي محيي الدين بلقب (الشيخ الأكبر) ولقبه أيضا بـ: (سلطان العارفين).

وكان لسيدى أبى مدين رضى الله عنه منهاج خاص فى تربية المريديه وترقيتهم فى مقامات الولاية. فيروى الإمام المناوى نقلا عن الإمام الشعرانى رضى الله عنهما أن سيدى عليا الخواص رضى الله عنه وعنا به كان يقول: (كان مذهب الشيخ - يعنى أبى مدين - رضى الله عنه تقريب الطريق على المريدين ونقلهم إلى محل الفتح من غير أن يمر بهم على الملكوت خوفا عليهم من تعشق أنفسهم بعجائب الملكوت) كما يروى العارف المناوى عن سيدى محيى الدين أن سيدى أبى مدين كان يقول لأصحابه: (أظهروا للناس ما عندكم من الموافقة كما يظهر الناس بالمخالفة، وأظهروا بما أعطاكم الله من نعمه الظاهرة - يعنى خرق العوائد - والباطنة - يعنى المعارف، فإنه تعالى يقول: (وأما بنعمة ربك فحدث) ^(١) ثم يقول سيدى محيى الدين: (وهذه الطبقة اختصت باسم الظهور لكونهم ظهرُوا فى عالم الشهادة). وكان سيدى أبو مدين يقول لأصحابه (أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هى العليا كما يعلن هؤلاء بالمعاصى ولا يستحيون من الله) وكان يقول فى قوله تعالى (فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب) ^(٢) فإذا فرغت من الأكواف فانصب قلبك لمشاهدة الرحمن وإلى ربك فارغب فى الدوام، وإذا دخلت فى عبادة فلا تحدث نفسك بالخروج منها وقل يا ليتها كانت القاضية). وكان القطب أبو مدين فقيها عن الله بأسرار العبادات فهو يعمل لأفضلية صلاة الجماعة على صلاة الفرد قائلا: (إنما فضلت صلاة الجماعة على صلاة الفرد لأنه يكتب لكل عبد من صلاته ما قام به منها. فيكتب من صلاة عشرها ومن صلاة ثلثها ونصفها وغير ذلك - أى كما فى الحديث - فيرتفع للجميع صلاة مكملة الأجزاء بعضها ببعض فيعبد الله بركة الكمال والإتمام على الجماعة فيكتب لكل واحد منهم صلاة كاملة ببركة الاجتماع). ومن فوائده فى تربية المريدين ما ذكره سيدى محيى الدين قائلا: (كان شيوخنا أبو مدين رضى الله عنه يقول: من علامة صدق المريء فى إرادته فراره عن الخلق، ومن علامة فراره عنهم وجوده للحق، ومن علامة صدق وجوده

(١) سورة الضحى / ١١.

(٢) سورة الشرح / ٧ / ٨.

للحق رجوعه إلى الخلق فهذا هو حال الوارث للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه كان يخلو بغار حراء وينقطع إلى الله فيه، ويترك بيته وأهله ويفر إلى ربه حتى فجأه الحق فبعبثه الله رسولا مرشدا لعباده. فهذه حالات ثلاث ورثه فيها من اعتنى الله به من أمته ومثله يسمى وارثا. فالوارث الكامل من ورثه علما وعملا وحالا^(١) وتتاول الإمام أبو مدين مفهوم الفقر عند الصوفية بالإيضاح قائلا: (الفقر أمانة على التوحيد ودلالة على التفريد، وحقيقة الفقر ألا تشاهد سواه)^(٢) وكان يقول قدس سره (من كان الأخذ أحب إليه من الإعطاء فما يشم للفقر رائحة)^(٣) .

وفى حقيقة الإخلاص يقول (الإخلاص أن يغيب عنك الخلق فى مشاهدة الحق)^(٤) وكان يقول: كل بدل فى قبضته عارف لأن ملك البدل فى السماء إلى الأرض وملك العارف من العرش إلى الثرى^(٥) أما كرامات سيدى أبى مدين فهى جمة ومشهورة سار بها الركبان وتناقلها الرواة والمصنفون فى مناقب القوم. يقول مولانا الإمام الشعرانى رضى الله عنه عن سيدى أبى مدين (وكان الله تعالى قد أذل له الوحوش. ومر يوما على حمار والسبع قد أكل نصفه وصاحبه ينظر إليه من بعد لا يستطيع أن يقرب منه فقال لصاحب الحمار تعال فذهب به إلى الأسد وقال له أمسك بأذن الأسد واستعمله مكان حمارك فأخذ بأذنه وركبه وصار يستعمله سنين موضع حماره حتى مات)^(٦) وروى أنه جاء إلى مجلسه معترض فالتفت إليه سيدى أبو مدين وقال له : لم جئت؟ فقال: لأقتبس من نورك. فقال له ما الذى فى كمك؟ فقال له مصحف. فقال له افتحه واقرأ فى أول سطر يخرج لك ففتحه وقرأ أول سطر فإذا هو (الذين كذبوا شيعيا كانوا هم الخاسرين)^(٧) فقال له أما يكفيك؟ فتأب الرجل فى مجلسه^(٨) . وذكر الميناوى أنه وقع له فى سياحته أنه

(١) انظر: الكواكب الدرية للإمام الميناوى ١/ ٦٦٩ .

(٢) (٣) ، (٤) ، (٥) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/ ١٣٣

(٦) المصدر نفسه.

(٧) سورة الأعراف/

(٨) انظر: الكواكب الدرية للإمام الميناوى ١/ ١١٩ .

دخل على عجوز فى مغارة فأقام عندها فجاء ابنها آخر النهار فسلم عليه فقدمت
العجوز سفرة فيها صحن وخبز فقعد الشيخ والابن يأكلان فقال الابن تمنيت لو
كان هذا كذا فقال الشيخ سَمَّ الله وكل ما تمنيت. فلم يزل يعدد التمنى وهو يقول
مقاتته الأولى واللون واحد ينقلب ألوانا كثيرة ويجد طعم ما يتمنى ^(١). رضى الله
عنك يا قطب الأقطاب يا سيدى أبا مدين يا من قلت: ما لذة العيش إلا صحبة
الفقراء ، هم السلاطين والسادات والأمراء، وجعلنا من خواص أحبابك. آمين.

* * *

(١) المصدر نفسه: ١/ ٦٦٦.

الإمام شيخ الإسلام

«سيدى عبد الرحيم القنائى رضى الله عنه»

من إشراقات شمس النبوة تلالأت أعمار الولاية فى سماء القرب والشهود،
وانجذبت قلوب الماشقين الإلهيين إلى الأفق الأعلى لتسقى أرواحهم من أنوار
الذات المحمدية فيصبروا ورثة محمديين، وتصبح قلوبهم مرآيا ينعكس فيها النور
المحمدى فيجذب إلى رحابه كل نفس توافقه إلى النور نزاعة إلى الطهر والصفاء.

ومن ثم كان أولئك الصفوة الصوفية بحق مدرسة الرسول الأعظم - صلى
الله عليه وسلم - القائمين من بعده على هداية أمته، وقيادتها إلى الحضرة الإلهية،
وما منهم من ولى إلا وهو مغترف من بحر النور المحمدى.

كما قال قائلهم:

وكلهم من رسول الله ملتمس

غرضاً من البحر أو رشفاً من الديم^(١)

إنهم أولياء الحق تعالى الذين لهم قدم صدق عند ربهم رضى الله تعالى عنهم
وعنا بهم ونفعنا بهم وببركاتهم فى الدنيا ويوم الدين.

من قمم أولئك الأقطاب المحمديين عارف غمره نور سيد الوجود - صلى
الله عليه وسلم - فأشرق على الدنيا حكمة وضياء وهديا وعرفانا، وقطب وسع
قلبه معرفة الحق تعالى فاقترب واتصل، وفنى وبقي، وهام فى محبة سيده وعشق

(١) من شمر الإمام البوصيرى رضى الله تعالى عنه فى بردته الصماء.

معبوده فلم يعر الأكوان التفاتة لانشغاله بمولاه حتى صار هو قطب الأكوان، ولا عجب، فإنها الوراثة المحمدية الصادقة، والوصول إلى الحقيقة المطلقة.

إن صاحب هذا العطاء الإلهي والمجد المحمدي هو الإمام العارف والولي الكامل القطب الشريف سيدي عبدالرحيم المغيري القنائي قدس الله سره ورضى عنه وعنا به في عليين، وأمدنا بعظيم نفعاته وبركاته في الدنيا ويوم الدين.

وفي مستهل تعرفنا على هذه الشخصية المحمدية نجد أن نسبة سيدي عبدالرحيم إلى مولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - محقة نسباً كما هي محقة روحاً وتربية.

فهو سيدي أبو محمد عبدالرحيم بن أحمد بن حجّون بن أحمد بن محمد بن حمزة بن جعفر بن إسماعيل بن جعفر الزكي بن محمد بن المأمون بن علي بن حسين بن علي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن سيدي علي زين العابدين بن مولانا الإمام الحسين سبط سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورضى عنهم وعنا بهم أجمعين^(١).

وأما والدته: فهي الشريفة الحسينية السيدة سكينة بنت أحمد بن حمزة الحراني. وهي من بنى حمزة الذين كانوا نقباء الشام. رضى الله عنها..

وقد أشرقت شمس ميلاد هذا القطب المحمدي ببلاد المغرب في بلدة (ترغما) من أعمال (سبته)،^(٢) وكان ميلاده الأغبر في مستهل شعبان سنة ٥٢١ هـ. ونشأ سيدي عبدالرحيم في موطنه المغيري نشأة أهل العناية مبتدئاً بحفظ القرآن الكريم. وأخذ يتردد على حلقات الشيوخ والفقهاء، فدرس الحديث الشريف وتفقه

(١) انظر النسب الشريف كاملاً كما ذكرناه في طبقات الأولياء لابن الملقن ص ٤٤٣ وفي الطالع السعيد للأدبوي (ص ٢٩٧ - ٢٩٨) أسقط جدة (أحمد) والد حجّون كما أسقط (المأمون) و(علي) بن الحسين، وزاد (علياً) قبل محمد بن جعفر الصادق.

(٢) قال صاحب الطالع السعيد (وقيل إنه غماري) أي من غماره - التي منها قبيلة سيدي أبي الحسن الشاذلي رضى الله تعالى عنه، وهي - أي غماره - من أعمال (سبته) بالمغرب وهي بلدة مشهورة تقابل جزيرة الأندلس كما جاء بمعجم البلدان (١٨٢/٣).

على مذهب الإمام مالك رضى الله عنه، وتعشقت نفسه الزكية تحصيل العلوم الدينية والتعمق فى معقولها ومنقولها ، وقد اجتمعت له حافظة قوية وقريحة وقادة وذهن ثاقب وفطرة نقية مستتيرة. فشرع فى جدية جادة فى تحصيل مأربه وعيون شيوخه وأسرتة ترقبه وقلوبهم تحيط به.

بيد أن يد المنون تسلفت إلى أقرب الناس إليه وهو والده الصالح الشيخ أحمد، ولم يكن سيدى عبدالرحيم قد تجاوز الثانية عشرة من عمره بعد. وكان الخطب فادحا اهتز له كيان عارفنا القنائى بدنيا ونفسيا، فقال منه المرض كما عصف الحزن بنفسه. فأشارت عليه والدته وأقرباؤه بالسفر إلى أخواله فى دمشق، وكانت رحلة مباركة إذ أتيح للإمام القنائى أن ينهل من محصلات علماء المشرق مزاجا بينها وبين ما تلقاه بالمغرب. وانطلقت ملكات الإمام عبدالرحيم ومواهبه مسجلة فى سجل التاريخ مَبَعَثَ عالم ومَقْدِمَ إمام، وتألّق نجمه هناك على مرأى من أخواله الذين كانوا يحتلون مراكز علمية مرموقة فى الشام مثل السيد محمود مفتى دمشق، والسيد زين العابدين الذى كان إماما للشافعية هناك على ما ذكر فى دائرة معارف البستانى. وعلى الرغم من دعوة علماء الشام لسيدى عبدالرحيم وإلحاحهم عليه فى أن يجلس للتدريس والفتوى فإنه لم يتصد للتعليم والإفتاء إلا بعد عودته إلى موطنه بالمغرب. وفى ترغاي وسبتة أخذ الإشعاع العلمى والدعوة الإسلامية ينبث ضوءهما فى الأفاق، وتواكبت الجموع المحتشدة على مجلس العالم الشاب سيدى عبدالرحيم تنهل من فيض علمه الغزير غذاء القلب وقوت العقل.

ولقد كان الجانب العلمى عند سيدى عبدالرحيم قاعدة صلبة أسسها لى يقيم عليها بنيانه الشامخ الذى يوصله إلى الله تعالى. إنه صرح العمل والجهاد الروحى والسلوك الصوفى الذى ينظف ساحات القلب للأنوار الإلهية.

ولقد عرف الإمام القنائى الكثير من أعلام الصوفية بالمغرب ووقف على مناهجهم فى التحقيق ومشاربهم فى الولاية.

وكان من أخص من استقطب همته وجذب روحه: عارف المغرب الكبير

سيدي أبو يعزى المغربي^(١) أحد الأوتاد الراسخين والأئمة المحققين، وهو شيخ الإمام العارف سيدي أبو مدين الغوث التلمساني المتوفى سنة ٥٩٤هـ. وسنأتى إلى أخبار صلاته بمعاصريه ريثما نتابع المسار التاريخي العام لحياته رضى الله عنه.

فبعد أن قضى سيدي عبدالرحيم فترة بالمغرب على أثر رجوعه من الشام لمع فيها نجمه، وعلت شهرته العلمية، اعتزم الرحيل مرة أخرى إلى بلاد المشرق وخرج حاجا إلى بيت الله الحرام حوالى سنة ٥٤٢هـ ومرفى طريقه بالإسكندرية والقاهرة. وبعد وصوله إلى البلد الأمين أدى فريضة الحج ثم أوى إلى جوار سيدنا ومولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يستمد منه الفتح الأعظم والتربية المحمدية السامية، وأفيض عليه العطاء حتى صار محمدياً بكل دلالات الكلمة. واتصل بالمدد المحمدي حتى صار لا يفارقه طرفة عين. وأمضى الإمام القنائي حوالى ثمان سنوات فيها ما فيها من الأنوار والفيوضات. والتقى هناك فى الجوار المحمدي الشريف بأحد الصوفية الأجلاء وهو عالم قوص الكبير: الشيخ مجد الدين القشيري رضى الله عنه، وكانت صحبته مباركة. وفى حضرة سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - كانت نقطة التوجه والانطلاق إلى آفاق المعروج والتحقيق، وسطرت بحروف النور رسالة هذا الولي المحمدي وهى الدعوة إلى الله على بصيرة، ونشر الهدى الصوفى المحمدي فى آفاق الوجود، وقيادة الأرواح الطاهرة إلى سماء النور والوصول. ومن الرحاب المحمدي علم الإمام القنائي أبعاد مهمته ومركز دعوته فى ربوع كثانة الله فى أرضه، وعلى وجه التحديد فى مدينة (هنا) التى لا يكاد يذكر اسمها حتى تتسابق أنوار ذكرى مولانا السيد عبدالرحيم لتسكن أعماق النفوس الزكية.

ويصحبه سيدي مجد الدين القشيري رضى الله عنه قدم سيدي عبدالرحيم عليه الرضوان إلى صعيد مصر الذى كان أشوق إليه من الزرع للماء والعليل للدواء،

(١) هو الشيخ أبو يعزى بن عبدالرحمن بن ميمون المغربي، انتهت إليه تربية الصادقين بالمغرب، وكان أهل المغرب يستسقون به، كما كانت الأسود والطيور تأوى إليه (انظر الطبقات الكبرى للإمام الشمراني رضى الله تعالى عنه ١١٦/١ - ١١٧).

والذى كان يفتقر إلى عالم مرشد وإمام محقق يبدد ظلمة الباطل بإشراق نور الحق.

ووصل الشيخان الجليان إلى مدينة (قوص) مقام الشيخ القشيري ومركز دعوته إلى الله. وبعد ليال ثلاث قضاها سيدي عبدالرحيم بقوص وألح عليه النداء الباطني مناما خلالها بمواصلة الرحلة إلى مركز الدعوة (قنا) امثثل الإمام وحل بموطنه الصوفى وحلت معه البركات والإمدادات. وحتى يتلاقى الظاهر بالباطن، فقد صدر مرسوم بتعيين سيدي عبدالرحيم شيخا لقنا. واستقر به المقام الأمين، وتزوج من ابنة صاحبه الجليل الشيخ القشيري، كما اقترن بعد وفاتها بثلاث أخريات ورزق بمقب طاهر مبارك، فيروى أنه أنجب تسعة عشر ولدا وبنتا؛ منهم سيدي محمد كمال الدين وسيدي الكامل علم الدين محمود، وسيدي شمس الدين، وأبو محمد الحسن^(١) والسيدة مباركة، والسيدة رحيمة والسيدة عزيزة رضى الله تعالى عنهم ونفعنا ببركاتهم آمين.

ومكث العارف القنائي في عاصمة دعوته (قنا) حتى لقي ربه بها سنة ٥٩٢هـ. بعد حياة حافلة لا تقاس بالسنين - هذالك بخس لحقها - وإنما تقاس بمدى ما وصله الإمام من فتح وعرفان. تقاس بوصوله وتوصيله الخلق إلى جناب الحق تعالى.

أما تربية شيخنا القنائي الصوفية: فهي تربية خواص الخواص من ضنائن الحق المقربين.

ولقد أومأنا آنفا إلى أنه تربى على يد العارف المغربي الكبير سيدي أبو يعزى المغربي قدس الله سره ، وهو شيخ الفوئ الشهير سيدي أبي مدين المغربي المتوفى سنة ٥٩٤هـ. وسيدي أبو مدين هو شيخ سلطان العارفين سيدي محيى الدين بن عربى قدس الله سره ورضى عنهم وعنا بهم أجمعين آمين. ومن ثم يكون سيدي

(١) ترجم له كمال الدين الأدهوى في الطالع السعيد ص ٢٠٣ وذكر أنه كان من الصوفية الفقهاء الفضلاء العلماء، مالكي المذهب، ومن أرباب الأحوال والكرامات وقد توفى رضى الله عنه سنة خمس وخمسين وستمائة هـ.

عبد الرحيم أخا في التربية لسيدى أبى مدين. وقد ذكر بعض الرواة ما يفيد أنه تتلمذ على سيدى أبى مدين أيضا، اذ يقول صاحب (قلائد الجواهر) في مناقب سيدى عبدالقادر الجيلانى رضى الله تعالى عنه وعنا به: (قال الشيخ عبدالرحيم القناوى رضى الله عنه: سمعت شيخنا أبا مدين رضى الله عنه يقول: أوقفنى ربي عز وجل بين يديه وقال لى: يا شعيب، ماذا عن يمينك؟ قلت يارب عطاؤك. قال: وماذا عن شمالك؟ قلت: يارب قضاؤك. قال يا شعيب: قد ضاعفت لك هذا وغفرت لك هذا. طوبى لمن رآك أو رأى من رآك) (١)}}

وممن ترى مع سيدى عبدالرحيم على سيدى أبى مدين المغربى سيدى عبدالرزاق الجزولى المدفون بالإسكندرية وهو شيخ للقطب العارف سيدى أبى الحجاج الأقصرى المتوفى سنة ٦٤٢هـ. ومن ثم تستوضح تفرع هؤلاء الأقطاب جميعا عن الشيخ الأول للعارف القنائى: سيدى أبى يعزى المغربى رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم أجمعين.

والى جانب ذلك فهناك نوع خاص من التربية يعد حدثا عجبا فى عالم التأثير الصوفى الروحى قد حظى به عارفنا القنائى. إنه التعهد والرعاية من الشيخ للمريد وهو لا يزال فى عالم الغيب قبل أن يوجد فى عالم الشهادة فلقد كان أحد العارفين يرمى الشيخ القنائى وهو لا يزال فى صلب أبيه . ومصدر خبر هذا الأمر هو قطب العارفين سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه وعنا به إذ يقول فى كتابه النفيس المسمى بـ (الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية) - الملحق بالطبقات الكبرى - فى معرض بيان التربية الصوفية وذكر أحوال كمل الرجال المريين: (... وكانوا يراعون تلميذهم وهو فى الأصلاّب كما وقع لشيخنا رضى الله عنه مع شيخه، وكما وقع لسيدى الشيخ محمد بن هارون مع سيدى إبراهيم الدسوقي، وكما وقع لسيدى أبى السعود بن أبى العشائر مع سيدى حاتم،

(١) انظر: قلائد الجواهر فى مناقب عبدالقادر للشيخ العلامة محمد بن يحيى التاذفى الحلبي ص: ١٠٨ ط/ الحلبي الثالثة.

وكما وقع لسيدى الشيخ محمد المغربى مع سيدى الشيخ عبدالرحيم القناوى رضى الله عنهم أجمعين^(١) هـ.

وترقى سيدى عبدالرحيم فى معاريج التربية الصوفية الرفيعة على أيدى أئمة التصوف وأقطابه إلى أن وصل إلى محيط النور، واكتملت صوفيته، ودخل الحضرة المحمدية الشريفة. وهناك ما فوق التصور!! لقد تربى على عين المصطفى الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وأصبح شيخه الأوحد وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. وصار أحد أقطاب الحضرة المحمدية. ولهذه الحقيقة الكبرى سندها المتين الذى يباهى الشمس فى وضوحه وظهوره:

يروى القطب العارف سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله عنه وعنا به فى كتابه (لطائف المنن) عن القطب المحمدى سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله تعالى عنه وعنا به - وهو شيخ سيدى على الخواص شيخ الإمام الشعرانى رضى الله عنهم - أنه قال: (نحن فى الدنيا خمسة لا شيخ لنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: الجعيدى - يعنى نفسه - والشيخ أبو مدين، والشيخ عبدالرحيم القناوى والشيخ أبو السعد بن أبى العشائر، والشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنهم أجمعين)^(٢).

هذه وثيقة التربية المحمدية من قطب محمدى يشهد لهؤلاء الأقطاب الخمسة بأنهم من أهل الحضرة المحمدية، وأن معراجهم فى الحقائق قد وصل إلى قمة لا شيخ لهم إذ ذاك إلا معلم الإنسانية الأول إنسان عين الوجود مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم. واكتمل الإمام القنائى وصار عليه أن يكمل غيره من صفوف السالكين وطلاب الحقيقة. فشيد طريقته المحمدية التى صارت مركز إشعاع محمدى يستضىء به أهل العناية.

(١) انظر: الأنوار القدسية فى بيان آداب الميودية لسيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه ص ٢٨ ط/ الشرقية.

(٢) انظر بهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشيخ نور الدين الشطنوفى ص/ ٢٢٢ ط/ العلبى.

وبالنور الذى استمدته من سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - غذى قلوبا وأرواحا ورعى عارفين وأقطابا. وهم لكثرتهم لا نتمكن هنا من استقصائهم. بيد أننا نشير إلى أبرز أعلامهم العارفين.

فالابن الرواحى الأول لسيدى عبدالرحيم هو الإمام العارف سيدى أبوالحسن على بن حميد الصباغ المتوفى سنة ٦١٢هـ وهو المدفون بجوار شيخه فى ضريحه الأنور بقنا، فقد تخرج على يديه ونهل من راحتيه فغمره النور والفتح حتى صار آية من آيات الله وبابا من أبواب الحق تبارك وتعالى، فيروى العارف نور الدين الشطنوفى رضى الله عنه فى كتابه (بهجة الأسرار) عن أبى العباس أحمد بن محمد المعروف بالرأس رضى الله عنه أنه قال: (الشيخ أبو الحسن بن الصباغ رضى الله عنه شيخ مكمل عند الله عز وجل. انتهت إليه رئاسة هذا الشأن - أى التصوف - فى وقته فى الديار المصرية وبه غدقت تربية المريدين بها، وتخرج به غير واحد من أهلها مثل الشيخ أبى بكر بن شافع القوصى والشيخ علم الدين المنفلوطى والشيخ الإمام مجد الدين أبى الحسن على بن وهب بن مطيع القشيرى المعروف بابن دقيق العيد وغيرهم رضى الله عنهم) وقد أفاض صاحب بهجة الأسرار فى ذكر مناقب العارف ابن الصباغ رضى الله عنه بما يوقف على سمو منزلته. كذلك تربى على يد مولانا القطب القنائى نخبة من الأقطاب والعارفين كسيدى أبى الحجاج الأقصرى وسيدى عبدالله القرشى، وابن شافع القنائى وغيرهم^(١).

ولقد كانت تربية الإمام القنائى لأبنائه فى الطريق قوامها التمسك بآداب الشريعة الفراء وتخليص القلب من كدورات البشرية، وتطهير النفوس من قذى الأذى لتعود كما كان فى أصلها تقية نقية، والمزاوجة بين العلم والعمل لتحقيق كمال العبودية، وغير ذلك مما سنطلع عليه من كلامه هو قدس الله سره.

(١) انظر بهجة الأسرار ومعد الأنوار للشيخ نور الدين الشطنوفى ص/ ٢٢٢ ط/ الحلبي.

ولقد أفاض كبار العارفين وأصحاب الطبقات فى تبيان بعض مناقب قطبنا القنائى التى تشير إلى تحققه بالمقام الأسمى فى المعرفة والولاية.

فهذا هو القطب الشعرانى رضى الله عنه يقول عن سيدى عبدالرحيم فى مفتتح ترجمته من طبقاته:

(هو من أجلاء مشايخ مصر المشهورين وعظماء العارفين، صاحب الكرامات الخارقة، والأنفاس الصادقة، له المحل الأرفع من مراتب القرب، والمنهل العذب من مناهل الوصل، وهو أحد من جمع الله له بين علمى الشريعة والحقيقة وآتاه مفتاحا من علم السر المصون وكنزا من معرفة الكتاب والحكمة)^(١).

وكان الشيخ أبو عبدالله القرشى رضى الله عنه يقول: (نور الشيخ عبدالرحيم غلب على أنوار جميع أصحاب الأحوال من أهل الديار المصرية فى وقته رضى الله عنه).

لقد أصبح سيدى عبدالرحيم من أهل الحضرة الإلهية وأضحى من أهل الكشف والمشاهدة فكان يتحدث بنعم الله تعالى عليه فيخبر ببعض ما حباه به مولاه من العطايا مما تسمعه عقول أولى الألباب. يروى الإمام الشعرانى عليه رضوان الله عنه أنه كان إذا سمع المؤذن يقول (أشهد أن لا اله إلا الله يقول هو: - (شهدنا بما شاهدنا، وويل لمن كذب على الله تعالى)^(٢))).

كما يروى عنه أنه كان يقول رضى الله عنه: (أدركت فهم جميع صفات الله تعالى إلا صفة السمع)^(٣) وليس المراد بالإدراك هنا الإدراك الحسى ولا الفهم العقلى وإنما هو فهم الخواص عن الله تعالى بالذوق الكشفى والشهود العرفانى. وإلا فالفهم العقلى متواخر نسبيا لدى علماء الرسوم. وفرق شاسع بين الفريقين.

على أن الإمام القنائى كان وهو يطلق عبارته هذه لا يزال فى ترقى مستمر، ولعله أدرك فيما بعد صفة السمع أيضا، وليت شعرى لو وقف الخلائق على كنه

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه: ١/١٣٣.

(٢) (٣) انظر - الطبقات الكبرى لسيدى عبد الوهاب الشعرانى ١/١٣٣.

هذا الإدراك الذى حظى به العارف القنائى وذاقوا من بحاره بعض قطرة لفروا إلى الله من أنفسهم ولاغتسلوا من أدرانهم ولباعوا الدنيا وما فيها - لو كانوا يملكونها - لقاء نعيم لحظة من لحظات الفهم عن الله والجلوس على بساط أنسه ومشاهدته.

أما عن منزلة الشيخ فى علوم الحقائق ولسانه فى العلم اللدنى ومعرفته بالأحوال والمقامات: فدونك المحيط الذى لا تعرف له ساحلا ولا قرارا. ولقد ذكر صاحب (بهجة الأسرار) طائفة من أقوال الشيخ رضى الله عنه حاولت أن أقتطف منها - حسب حدود المقال - بعض ما يعرفنا برسوخ مولانا القنائى فى علم الحقيقة وتبوءه للمقام الأرفع فى الولاية. ولكنى تحيرت ماذا آخذ وماذا أدع؟ وكلها جواهر ودرر تسكب فى القلب إشراق المعرفة وتضع بين أيدينا مناهج السلوك الصوفى ومعالم التربية الروحية، ومن خلال كل ذلك تعرفنا بمكانة القطب القنائى وبأحواله ومقاماته: يقول سيدى عبدالرحيم قدس الله سره: (قطع العلائق: محو القدر. وظهور العقد بعدم الالتفات إلى السوى، وثقة القلب بترتيب القدر السابق. والتجريد: نسيان الزمانين حكما، والذهول عن الكونين حالا، وغض البصر عن الأين وقتا حتى تنقلب الأكوان باطنا لظاهر ومتحركا لساكن، هيسكن القلب بتمكين القدر على قطع الحكم، والابتهاج بمنفسحات الموارد وانشراف الصدور بصور الأكوان مع ثبوت المقام بعد التكوين ورسوخ التمكين. فتكون السماء له رداء والأرض بساطا والهيبة فى القلب لمظمة الله تعالى: طمس أبصار البصائر لمشاهدته، ومشاهدته لمن سواء حسنا، فلا يرى إلا بأنوار الجلال ولا يرى إلا بسواطع الجمال.

والرضا: سكون القلب تحت مجارى الأقدار بنفى التفرقة حالا وعلم التوحيد جمعا. فيشهد القدرة بالقادر والأمر بالأمر، وذلك يلزمه فى كل حال من الأحوال. والتمكين: شهود العلم كشافا ورجوع الأحوال إليه قهرا والتصرف بالقادر حكما وكمال الأمر شرعا.

والجوع: صفاء الأسرار فى استغراق الأذكار. والشوق: الاستغراق فى مجال الذكر طربا ثم الغيبة فى توسط الذكر سكرًا ثم الحضور فى أواخر الذكر صبحًا، فهو بين استغراق يهيج، وغيبة تزعجه، وحضور ينعشه، وثلاث وقت المشتاق استغراق وثلاث غيبة وثلاث حضور.

والحياة: أن يحيى القلب بنور الكشف فيدرك سر الحق الذى برزت به الأكوان فى اختلاف أطوارها فكيف هى حية بالله تعالى، ويخاطبه بأسرار معانيها والطاف مبانيها.

والتبرى من الحول والقوة: ذهاب الخواطر من المحل عليه، وفناء الأكوان فى امتزاج الأنفاس غيبة. ويفيد صاحبه أن يحفظ الله عليه حاله ويرقى فى كل لحظة مقامه فلا يبرز فى الملك والملكوت حركة ولا سكون ولا اختلاف طور بحكم إلا وله فيه زيادة نورية وحقيقة إيمانية ونمو مقام، فلا يتكرر عليه حاله ولا يختلف عليه وجده. فإن ظهرت عليه القدرة أخفته، وإن بطنت فيه أظهرته. فرؤيته غيبة وحضوره بطونة.

والمصافاة بالأسرار: ألا يسمع آية إلا من مخاطب فى سره بسر المراد فى العمل، وتتوغل له الأفهام باختلاف المقامات فى العمل؛ فهو يرتفع فى رياض الأسرار، ويصافى بخالص الأنوار، ويتجلى له الحكم فى أنوار الجمال، يهدى إليه ذواتها ويمنحه هباتها.

والواصل: ألقى السمع للإصغاء وفتح البصيرة للنظر. فتتقلب حروف الأكوان فى سر استماعه نذيرا وحكما ومواعظ فهو فى رياض التدبير بين حدائق المواعظ الناطقة والصامتة، وأزهار الحكم الباطنة والظاهرة.

والتقوى: ألا يظهر على محله حركة إلا وهى منوطة بحبل العلم مع غيبة عن حركته. فإن تكن باطنة ففى باطن العلم حكمها، وإن تكن ظاهرة ففى ظاهر العلم وجودها مع طهارة القلب وتسليم النفس ومبادرة الوقت. وإذا فتح هذا الوصف

للعبد آتاه الله عز وجل العلم وفتح له باب الإلهام الوحي فيحدث روحه بأسرار الملكوت.

والتحقيق: الاستغراق في الأنوار الغيبية؛ فيرى قلبه مشكاة دائمة الأنوار فيدرك به حقيقة النفس وكيف رتب الله تعالى وضعها، والناس في ذلك على قسمين: متمكن أمكن ومتمكن غير أمكن؛ فالأول: هو الذي يجد العبارة العلمية منوطة بلطيف الحال مفصحة للتبليغ بشرط التلقى.

والثاني: هو الذي يدرك ذلك كشفا ويمتنع منه عبارة فهو غير مبلغ له حقيقة ما أدركه من لطيف الأنوار وخفى الأسرار.

والكشف: بروز الأفعال والأحوال على القسطاس الصديقي والصراط الحنيفي، وكذلك الأكوام تبرز له حقائقها على الوضع الأول من غير إشارة لتمثيل ولا تلويح بل بروز التشكيل. وهي تظهر له على اثني عشر قسما: صنوان وغير صنوان لشموس المعارف ولطائف العوارف، ويشهد في ذلك ماله قبل الاتصال والانفصال.

والذكر: اضمحلال الذاكر برؤية المذكور حتى يبقى محقا في عين المحو. وسكرا في سر الصحو. قال تعالى: (واذكر ربك إذا نسيت) ^(١) معناه أنك ذاكر. فنسيانك ذكر، وغيبتك عن النسيان شهود المذكور وهو المعبر عنه بذكر الذاكر. وأما من قال إذا نسيت من سواه فاذكره: فهذا لا يصلح إلا للفاقلين لا للمحققين، وهذه المقامات كلها نتائج اتباع الكتاب والسنة بحسن الأدب. ومن لا اتباع له للشرع فلا شيء له من هذه المقامات ولا الأحوال) اهـ ^(٢).

هذه أقباس من مشكاة معرفة الإمام القنائي تنبئ بتفرده في علوم الحقائق والتحقيق بها كشفا وذوقا، وهي كما نرى لا توجد إلا في خزائن العلم اللدني الذي نال منه قطبنا القنائي ما لم ينله أحد في عصره، وليس هذا بمعجيب ولا مستكر

(١) سورة الكهف/ ٢٤.

(٢) انظر. بهجة الأسرار للشطنوفى: ١٩١ - ١٩٢.

على من تربى فى حضرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، وإنما العجيب أن ترى أناسا ممن طمست بصائرهم ينكرون على الأولياء رغم هذه الآيات الباهرة والمعارف الزاخرة والكرامات الساطعة والفتوحات الريانية العظمى التى لم ينلها أحد غيرهم. بل ومن عجب أن نفس الخوارق والكرامات التى جاءت لتفتح عيونهم على الحق الواضح وتعرفهم بفضل الله على أوليائه كانت هى الأخرى محل تكذيب وإنكار من أنصار الباطل، وزينت لهم ضلالتهم فحسبوها حقا واتباعا للسنة بينما هم فى غيهم يعمهون (أقمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء...) (١)!

فلنمض إلى كنز الحقيقة الزاخر بالفتوحات والعطاءات الريانية والمنح الاصطفائية. ولكن ما ظفر به هؤلاء الخواص مما هو آية على تحققهم واجتباء الله لهم كلما علا شأنه وعز وصفه كلما استتبع ذكره معينا غزيرا من اليقين بصدق أحوال الأولياء حتى لا يقع المطلع على مناقبهم فريسة للشك والإنكار.

وميزاننا الذى لن نبرحه قيد شعرة هو الكتاب والسنة كما أشار القطب القنائى. أقول هذا لأن ثمة مناقب لسيدى عبدالرحيم ترتفع بالإنسان حينما يقف على معرفتها إلى مستوى يتضامل فيه وزن العقل ويغلب وزن الروح والقلب.

يقول مولانا الشعرانى رضى الله عنه فى مناقب سيدى عبدالرحيم: (وحكى أنه نزل يوما فى حلقة الشيخ شبح من الجو لا يدرى الحاضرون ما هو. فأتى الشيخ ساعة ثم ارتفع الشبح إلى السماء فسألوه عنه فقال: هذا ملك وقعت منه هفوة فسقط علينا يستشفع بنا فقبل الله شفاعتنا فيه) (٢)!

إنه إكرام الله تعالى لأولياء الأمة المحمدية أن يشفعوا حتى فى الملائكة بما أوتوه من مدد الشفيع الأعظم سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

(١) سورة فاطر ٨

(٢) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/١٣٣.

وهذه الهفوة لا تقدر في عصمة الملك كما لم يقدر الأكل من الشجرة مثلاً
في عصمة أبي البشر عليه السلام.

ومن كرامات سيدي عبدالرحيم أيضاً ما رواه سيدنا الشعراني رضي الله
عنه قائلًا: (وكان إذا قال لعمري يا فلان تكلم على العلماء فيتكلم عليهم في معاني
الآيات والأحاديث حتى لو كانت هناك عشرة آلاف محبرة لقلت عنه. ثم يقول له
اسكت فلا يجد ذلك العمي معه كلمة واحدة من تلك العلوم رضي الله عنه) ^(١).

ومن كراماته رضي الله تعالى عنه ما ذكره سيدي الإمام النبهاني رضي الله
عنه في (جامع الكرامات) قائلًا: (وقال الكمال بن عبدالظاهر: زرت قبره وجلست
عنده فخرجت يده من قبره وصافحني وقال: يا بني: لا تعص الله طرفة عين فيني
في عيدين) ^(٢)!! وكان سيدي عبدالرحيم متصلاً بالملأ الأعلى وعلى صلة وثيقة
بالملائكة على غرار ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم غير أنه لم تظهر لنا
إلا وقائع فردية مثل حالة سيدنا عمران بن حصين رضي الله عنه الذي كانت
الملائكة تجالسه يقظة وتؤانسه في مرضه كذلك. يقول سيدنا الشعراني عن قطبنا
القنائي: (وكان الشيخ إذا شاوره إنسان في شيء يقول له أمهلني حتى استأذن لك
فيه جبريل عليه السلام فيمهل ساعة ثم يقول له افعل أو لا تفعل على حسب ما
يقول جبريل. ثم يعلق الإمام الشعراني قائلًا: ومراده بجبريل صاحب فعلته هو من
الملائكة لا جبريل الأنبياء عليهم السلام...) ^(٣).

ومن كراماته رضي الله عنه: فائدة الأربعماء وتروى عن أبي عبدالله القرشي:
وهي أن من له حاجة عند الله تعالى يزور سيدي عبدالرحيم يوم الأربعاء بكيفية
مخصوصة بأن يمشي إلى قبره حافياً مكشوف الرأس وقت الظهيرة فيدخل
ويصلي ركعتين ويقرأ شيئاً من القرآن الكريم ويقول اللهم أني أتوسل إليك بجاه
نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبأبينا آدم وأمنا حواء وما بينهما من

(١) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعراني ١/١٣٣.

(٢) انظر: جامع كرامات الأولياء للإمام النبهاني رضي الله تعالى عنه: ١٦٥/٢.

(٣) انظر: الطبقات الكبرى للإمام الشعراني ١/١٣٣ والكواكب الدرية للإمام المناوي ١/٦٨٣-٦٨٤.

النبیین والمرسلین وبعبءك عبدالرحیم اقض حاجتی ویذكر حاجته) یروی بتواتر أنه لم یجرها أحد إلا وقضیت حاجته^(١)، ولقد توفی سیدی عبدالرحیم القنائی قدس الله سره سنة اثنتین وتسعین وخمسائة هـ.^(٢)

رضی الله عنك یا سیدی عبدالرحیم وعنا بك ومنحنا بك عز الدارین مع خواص أحبابك إنه نعم المجیب.

* * *

(١)، (٢) المصدر الأخير ٦٨٤/١.

من أولياء القرن السابع

- ١ - سيدنا محيي الدين بن عربي رضي الله عنه سنة ٦٣٨ هـ.
- ٢ - سيدنا أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه سنة ٦٥٦ هـ.
- ٣ - سيدنا داود العزبي رضي الله عنه سنة ٦٦٨ هـ.
- ٤ - سيدنا أحمد البدوي رضي الله عنه سنة ٦٧٥ هـ.
- ٥ - سيدنا إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه سنة ٦٧٦ هـ.
- ٦ - سيدنا أبو العباس المرسى رضي الله عنه سنة ٦٨٦ هـ.

﴿ الشيخ الأكبر سلطان العارفين سيدى محيى الدين بن عريى رضى الله عنه ﴾

فى قمة معارج الحب الإلهى تتكشف سبحات الجلال عن جمال الذات العلية لتغذى أرواح أهل الاختصاص الذين سقيت ذواتهم من معين أسرار قول الحق تعالى ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾ فهم أولياء الحق تعالى وخواصه، الذين زجوا بأرواحهم فى محيط النور الأزلى تمسكاً للجمال المطلق فارتوت قلوبهم من معين السر المحمدى. وأثمرت أغصان المحبة فى قلوبهم قطوفاً دانية من كرم الوصال تشعشت به أرواحهم فهاموا فى حبه سكارى وراح الروح تجذبهم إلى رحاب القدس حيث هتكت لهم الأستار وكشفت لهم الأسرار. هنالك قمة الوصول لأهل الفتح والقبول من عباد الحق المقربين وخواصه العارفين.

وفى الذروة العليا من سنام الولاية العظمى والفتوح الريانى يتربع إمام من صدور الأئمة الريانيين والأقطاب المحققين . بل هو آية الله فى أوليائه، ومنحته العلوية لخلص أصفياه، إنه الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر سلطان العارفين وختم الأولياء المحمديين، سيدى ومولاي الإمام محيى الدين بن العريى، قدس الله سره وأعلى فى الوجود ذكره، ورضى عنه وعنا به وأمدنا منه بالمدد الأعلى فى الدارين آمين.

هو شمس الولاية التى تكتحل بضياؤها بصيرة كل عارف وتستمد من أقباسها . روح كل صوفى تعشقت روحه سر الصفاء الريانى. ومن عجب أن الشمس بكل

جلالها وظهورها وإشراقها لا تتناول إليها قوى الإدراك لتلمس حقيقتها وجوهرها .
ولعل مناط العجب أن سر تقاصر الإبصار عن إدراك جوهرها يكمن في شدة
ظهورها . كذلك الأمر فيما يتعلق بشمس الولاية سيدي محيي الدين رضي الله عنه .
فأينما تحسست سر الصفاء الرياني في ولي لله رأيت فيه قبساً من نور هذا الإمام .
ومع ذلك فمما يثير العجب - كل العجب - أن نجد البعض من أدعياء الفكر والمعرفة
ينكرون ولاية هذا الإمام العارف جاهلين أو متجاهلين ما له من منزلة دونها مرتقى
الأفهام ومطلح البصائر . بيد أن شواهدا ملء السمع والبصر ، ولا تقل دلالة في
محيط الإدراك العقلي والوجداني عن دلالة الشمس على وجود النهار . فليس أمامنا
من رد لهؤلاء المحجوبين سوى قول الشاعر :

وليس يصح في الأذهان شيء

إذا احتاج النهار إلى دليل

وإذا ما استرسلنا في مقارنة شمس الولاية بشمس الكون لأدركنا أن سر خفاء
الحقيقة مشترك بينهما . فما المانع من إدراك حقيقة الشمس الكونية إلا عجز
الأبصار عن الرؤية نتيجة لشدة ضياء الشمس من جهة ولبعد مرتقاها من جهة
أخرى . كذلك ليس المانع من تعرف حقيقة شمس الولاية إلا عجز العقول عن إدراك
الحقيقة نتيجة لقوة ضيائها من جهة ولبعداها عن مطمح الإدراكات من جهة أخرى .
وثمة أمر مشترك آخر يتمثل في أن مناط الانتفاع بالشمس إنما هو الاهتداء بها لا
إليها . وعلى هدى ضوئها يتسنى الوصول إلى الحقيقة . فمن هنا نهتدى إلى الطريق ،
وعلى الدرب نسير .

ولسوف نخوض في هذا المقال - مع يقيننا بعدم الأهلية لذلك - عباب بحر
متلاطم الأمواج ، خفى الأبعاد ، بعيد الأعماق . وكل ما نعرفه عنه أنه بحر لكن مياهه
ضياء ، وأعماقه كنوز وشواطئه موصلة إلى الحقيقة . يصفه فريق من المحجوبين
بأنه بحر الظلمات ، ويراه أهل الكشف بحر الأنوار الريانية . فيه تحيا الروح ويشمل
العقل براح المحبة ، وتستشعر النفس برد الرضا والطمأنينة . وإذا لم تكن أهلية

الخوض متوافرة فلنستمد من بحر النور قطرة فيها سر الضياء ولیمدنا بها سلطان العارفين شیخ الصوفیة محیی الدین.

فمن أى الجوانب ترى یكون البدء؟ لعله الجانب التاریخی. فلنتعرف على ملامحه فى عجالة عاجلة. إن شیخنا الأكبر هو سیدی أبو بكر محیی الدین محمد بن علی بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمی. من نسل عبد الله بن حاتم أخى عدی بن حاتم الطائى. ویمعرف بابن العربی فى بلاد المغرب وبابن عربی فى بلاد المشرق؛ تفرقة بینه وبين القاضی أبی بكر بن العربی.

وقد آثرنا هنا ترجمته بابن العربی تأسيساً به رضى الله عنه حیث كان یسمى نفسه فى كتبه بالتعریف. ولقد قال التاریخ كلمته عن هذا الإمام ومنذ فجر میلاده. فجاء به فى يوم من أخلد أيامه وهو يوم (بدر) حیث سجل أول نصر للإسلام.

ولد سیدی محیی الدین فى يوم الاثنين السابع عشر من رمضان المعظم سنة ٥٦٠هـ فى مدينة (مرسية)^(١) ببلاد الأندلس. وأسرة سیدی محیی الدین من أعرق الأسر ببلاد المغرب، ولها فى الفضل والجود والعلم والتصوف منزلة سامقة شادت بها الألسنة والأقلام.

فوالده الشیخ محمد بن علی من أئمة رجال الفقه والحديث. وكان على قدم فى طریق القوم. وقد ذكر سیدی محیی الدین فى فتوحاته بعض الكرامات التى وقعت لوالده يوم وفاته. فقال : (وكان قبل أن یموت بخمسة عشر يوماً أخبرنى بموته وأنه یموت يوم الأربعاء. وكذلك كان. فلما كان يوم موته وكان مريضاً شدید المرض استوى قاعداً غیر مستند وقال لى یا ولدى : الیوم یكون الرحیل واللقاء. فقلت : كتب الله سلامتك فى سفرك هذا وبارک لك فى لقاءك. ففرح بذلك وقال لى : یا ولدى، جزاك الله عنى خيراً، فكل ما كنت أسمعك تقوله ولا أعرفه وربما كنت أنكر یعضه هو ذا أنا أشهده. ثم ظهرت على جبینہ لمعة بیضاء تخالف لون جسده من غیر سوء لها نور يتلألأ. فشعر بها الوالد. ثم

(١) انظر : « محیی الدین بن عربی » للشیخ طه عبد الهادی سرور ص ١٢ - ١٤ . مل/ الخانجی.

إن تلك اللعة انتشرت على وجهه إلى أن عمت بدنه. فقبلت يده وودعته وخرجت من عنده، وقالت له : أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى أن يأتيني نعيك فقال لي: رح ولا تترك أحداً يدخل على. وجمع أهله وبناته. فلما جاء الظهر جاءني نعيه فجئت إليه فوجدته على حالة يشك الناظر فيه بين الحياة والموت. وعلى تلك الحالة دفناه وكان له مشهد عظيم^(١).

هذا هو والده ولي من أولياء الله الواصلين.

وأما والدته فهي السيدة (نور) وهل ينجب النور إلا النور؟ لقد كانت من القانتات العابدات الصالحات. ومع عبير أنفاسها الطاهرة تصاعدت دعوات إلى الله تعالى أن يصطفى ابنها لحضرته، وقد كان.

وفى محيط الأسرة الصالحة أيضاً نجد أن جد سيدى محيى الدين كان من قضاة الأندلس العلماء الورعين . أما عن الشيخ عبد الله بن محمد، فقد كان من أهل الكشف والمعرفة. وأما عن أخواله: فقد سجل أصحاب الطبقات الصوفية لهم مناقب جليلة. فمن أخوال الشيخ الأكبر سيدى أبو مسلم الخولانى الصوفى الزاهد المجاهد الذى كان يقضى الليل قائماً لربه فإذا ما أدركه الإعياء ضرب رجليه قائلاً: (أنتمأ أحق بالضرب من دابتي !! أظن أصحاب محمد صلوات الله عليه أن يفوزوا به دوننا؟) والله لازاحمهم عليه حتى يعلموا أنهم خلفوا من بعدهم رجالاً^(٢).

كذلك من أخوال سيدى محيى الدين سيدى (يحيى بن يفان) الذى كان ملكاً على تلمسان فجذبتة العناية الإلهية ففر من ملكه ومن نفسه إلى الله، وآثر أن يعتلى القمة. فتصوف وتزهد حتى أن سيدى محيى الدين كان يقول لبعض من يطلبون منه الدعاء : (التمسوا الدعاء من يحيى بن يفان فإنه ملك وزهد، ولو ابتليت بما ابتلى به

(١) انظر : « محيى الدين بن عربى » للشيخ طه عبد الباقي سرور ص ١٢ - ١٤ . ط/ الخانجي.

(٢) انظر : (محيى الدين بن عربى) للشيخ طه عبد الباقي سرور ص ١٤ وفيه المزمع إلى الجزء الأول من الفتوحات المكية .

من الملك ربما لم أزهد^(١). هذه لمحات عن البيئة الأسرية لسيدى محيى الدين والتي كانت تتسم بالصفاء والنقاء وتؤثر حق الروح عن فضول المادة. فارتقت في سلم الفلاح إلى مدارج الوصول.

وفى (مرسية) درج الشيخ الأكبر فى أجواء النور فحفظ كتاب الله تعالى واستقى قلبه من هداه العظيم. تم انتقال سنة ٥٦٨هـ مع والده إلى (أشبيلية) وعمره ثمانية أعوام حيث التقى بصفوة من علماء عصره، وارتوى على يديهم من مناهل العلم أيما ارتواء. فقرأ كتاب (الكافى) فى القراءات السبع على الشيخ أبى بكر بن خلف وأبى القاسم الشراط. وقرأ (كتاب التيسير) لأبى عمرو الدانى على أبى بكر محمد بن جمرة. ودرس علوم الحديث والفقه واللغة على أساطين العلم وفحوله فى عصره مثل أبى عبد الله بن زرقون والحافظ بن الجدد فقيه الأندلس وأبى الوليد الحضرمى وأبى الحسن بن نصر وأبى محمد عبد الحق الإشبلى وأبى القاسم بن بشكوال وغيرهم^(٢).

وقد استوعب الشيخ الأكبر كل ما وقع بيده من مصنفات وما سمعه عن شيوخه من أقوال . فتألفت عبقريته العلمية وعلا نجمه على أقرانه، وارتفع إلى مرتبة الشيوخ وصار إماماً فى المعقول والمنقول، وأجازه جهابذة العلم بمروياتهم ومصنفاتهم كابن عساكر وابن الجوزى والحافظ السلمى، وعبد الحق الإشبلى وغيرهم. وعرف كل أولئك ومن جاء بعدهم للشيخ الأكبر منزلته التى لا تسامى.

ولقد ذكر الشيخ المفسر المحدث إسماعيل العجلونى فى : (كشف الخفا ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس)، عن الشيخ حجازى الواعظ شارح الجامع الصغير للإمام السيوطى: أن الشيخ محيى الدين بن عربى معدود من الحفاظ^(٣).

(١) انظر : ابن عربى : حياته ومذهبه لاسين بلاثيوس ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ص ٦ .
وانظر : الشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى : عبد الحفيظ فرغلى على القرنى ص ٢٠ سلسلة أعلام العرب.
(٢) انظر : البرهان الأزهر فى مناقب الشيخ الأكبر للشيخ محمد رجب حلمى ص ٢٣-٢٥ والمراجع السابق ص : ١٤-١٥.

(٣) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ٥٠/٢٠٠.

والحافظ فى مصطلح المحدثين يطلق على من يحفظ مائة ألف حديث. ثم لقد وصل الشيخ الأكبر أيضاً فى حياته إلى مرتبة الاجتهاد المطلق. حيث صرح بذلك فى فتوحاته فى الباب السابع والستين وثلاثمائة. فقال ، (وليس عندنا بحمد الله تعالى تقليد إلا للشارع صلى الله عليه وسلم) كما قال رضى الله عنه أيضاً:

لست ممن يقول قال ابن حزم

لا ولا أحمد ولا النعمان

وعلى هذا البيت يعلق ابن العماد فى شذرات الذهب قائلاً: (وهذا صريح فى الاجتهاد المطلق. كيف لا؟ وقد قال، عرضت أحاديثه صلى الله عليه وسلم جميعها عليه فكان يقول عن أحاديث صححت من جهة الصناعة ما قلتها. وعن أحاديث ضعفت من جهتها: قلتها، وإذا لم يكن مجتهداً فليس لله مجتهد . أن لا تراه فهذه آثاره) (١) أ. هـ.

هذه لمحة عن الجانب العلمى عند الشيخ الأكبر ولا بد منها قبل إبراز الجانب الصوفى العلمى. ليعلم الجميع أن الشيخ الأكبر حينما تصوف فقد تصوف على أساس متين من العلم والتبحر فى الشريعة إلى درجة الاجتهاد المطلق كما أسلفنا. ثم لقد ذكر بعض أصحاب الطبقات أن سيدى محبى الدين قد تقلد بعض وظائف الدولة قبل أن يتجرد للتصوف. فالإمام الشعرانى رضى الله عنه يقول فى طبقاته: (وكان - أى الشيخ الأكبر- رضى الله عنه أولاً يكتب الإنشاء لبعض ملوك العرب. ثم تزهد وتعمد وساح، ودخل مصر والشام والحجاز والروم، وله فى كل بلد دخلها مؤلفات) (٢)

ولقد كانت العزلة هى نقطة التحول والمنطلق الروحى عند الشيخ الأكبر، إذ أنه بينما كان يعمل بالكتابة لبعض ملوك المغرب تجاذبته دواعى الحضرة الإلهية ليرتكى الكل وينقطع لربه. وأياً ما كان شكل هذا الانقطاع فإن البحث عن الغاية قد

(١) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى : ٥ / ٢٠٠.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى : ١٥٩/١ - ١٦٠.

ملك عليه كيانه فلم تعد لديه القدرة على المضى فى طريقين: (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه)^(١).

ولقد شاءت الأقدار أن يدخل فى محيط الريانيين، وأن يغمس فى النور الإلهى، وأن يأخذ علمه عن الله تعالى بلا واسطة. وفيما يتعلق بفترة التمدد والخلوة والتحنن يقول الإمام الشعرانى فى اليواقيت والجواهر: (ثم إنه طرقة طارق من الله عز وجل فخرج فى البرارى هائماً على وجهه إلى أن نزل بقبر فمكث فيه مدة ثم خرج من القبر يتكلم بهذه العلوم التى نقلت عنه، ولم يزل سائحاً فى الأرض يقيم فى كل بلد بحسب الإذن ثم يرحل عنها يخلف ما ألفه من الكتب فيها)^(٢). لقد خرج سيدى محيى الدين من خلوته وقد فتحت له خزائن العلم اللدنى وغمره الفيض الإلهى. ولم يكن سلوكه الطريق منذ البدء تلقائياً بلا واسطة. فقد صحب شيوخاً عديدين ترجم لهم فى كتاب أسماه (الدرة الفاخرة فى ذكر ما انتفعت به فى طريق الآخرة) ويصل عدد شيوخ سيدى محيى الدين كما ذكرهم إلى خمسة وخمسين شيخاً.

ومن أبرز هؤلاء الشيوخ الذين أخذ عنهم شيخنا سلطان العارفين: القطب العارف سيدى أبو مدين المقرئ رضى الله عنه إمام التصوف فى وقته . وقد كان سيدى محيى الدين يلقبه بشيخ الشيوخ. يقول الشيخ محمد رجب حلمى فى كتابه (البرهان الأزهر فى مناقب الشيخ الأكبر) معرفاً ببعض شيوخه: (وأخذ العلوم الباطنية عن حضرة .. العارف الشيخ أبى مدين المقرئ وجمال الدين يونس ابن يحيى القصار وأبى عبد الله التميمى وأبى الحسن بن جامع بالذات، وأخذها بالواسطة عن حضرة الفوت سيدنا عبد القادر الجيلانى وحصل له الفيوضات الغزيرة والفتوحات الكثيرة)^(٣). وأيضاً من شيوخه الإمام العارف : أبو العباس

(١) سورة الأحزاب / ٤ .

(٢) انظر : اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/ ٧ ط الحلبى ١٣٧٨هـ .

(٣) انظر : البرهان الأزهر فى مناقب الشيخ الأكبر للشيخ محمد رجب حلمى القادري أحد أحفاد الشيخ محيى الدين رضى الله عنه ص ٢٨ ط/ السعادة .

العرينى^(١)، والشيخ أبو محمد بن عبد الله. وعنه يحدثنا سيدى محيى الدين قائلًا: (دخلت على شيخنا أبى محمد بن عبد الله بفرنطة سنة خمس وتسعين وخمسمائة. وهو من أكبر من لقيته فى هذا الطريق، ولم أر فى طريقته مثله فى الاجتهاد. وكان ممن أوتوا فهمًا فى القرآن إرثًا محمديا. فقال لى : الرجال أربعة: رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه وهم رجال الظاهر. ورجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وهم رجال الباطن جلساء الحق تعالى ولهم المشورة. ورجال الأعراف وهم رجال الحد . قال الله تعالى (وعلى الأعراف رجال): وهم أهل الشم والتمييز، والسراح عن الأوصاف فلا صفة لهم. كان منهم أبو اليزيد البسطامى. ورجال إذا دعاهم الحق يأتون رجالاً لسرعة الإجابة لا يركبون . قال تعالى (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً): وهم رجال المطلع...) اهـ^(٢) .

وأيضاً من شيوخه: الإمام العارف سيدى يوسف الكومى. ولسيدى محيى الدين معه هذا الموقف العرفانى الذى يرويه قائلًا : (سألنى شيخى يوسف الكومى سنة ست وثمانين وخمسمائة عن مسألة من مشكلات التصوف فقال : إذا اجتمع عارفان فى حضرة شهودية عند الله تعالى ما حكمها؟ قلت: يا سيدى، هذه مسألة تفرض ولا تقع؛ لأن الحضرة لا تسع اثنين ولا تشهدا عين زائدة. فإن افترضناها مثلاً: فإذا اجتمعا فلا يخلو كل واحد منهما أن يجمعهما مقام واحد أو لا يجمعهما . ثم حكم التجلى من حيث الظهور واحد ومن حيث المتجلى له مختلف. فالذوق متباين لاختلافهما فى أعيانها. ولا يجتمع شهود وخطاب وتجلى ورؤية غير)^(٣)

أرأيت هذا المنطق العرفانى النضاح بالنور الذى فاض به لسان الشيخ الأكبر مع شيخه؟ إنه حديث العارف الذائق وما أجله وأجمله من حديث ذى شجون بين الشيخ وشيخه. فسبحان من أعطى وأنعم !!

ثم لا ننسى ونحن بصدد الحديث عن شيوخ الشيخ الأكبر أنه التقى فى مطلع

(١) . (٢) انظر : معيى الدين بن عريى للشيخ طه عبد الباقي سرور ص ٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣٦ - ٢٧ .

شبابه بأم روحية له في الطريق. وهي السيدة فاطمة بنت القرطب فكان يخدمها وكان لها من العمر آنذاك خمس وتسعون سنة على حين أن الذي يراها يحسبها بنت أربع عشرة سنة وكانت من القانتات العارفات بالله. يقول سيدي محيي الدين: (وكانت تقول لي : أنا أمك الإلهية ونور أمك الترايبية. وإذا جاءت والدتي لزيارتي تقول لها: يا نور هذا ولدي فبريه ولا تعقيه)^(١) !! ثم يذكر لنا الشيخ الأكبر أن له سنداً في الطريق عن سيدنا الخضر عليه السلام عن طريق شيخه عبد الله بن جامع، فيقول في الجزء الأول من الفتوحات (واجتمع به- أي بالخضر- رجل من شيوخنا وهو عبد الله بن جامع من أصحاب علي بن المتوكل وأبي عبد الله قضييب البان كان يسكن بالمقلى خارج الموصل في بستان له. وكان الخضر قد ألبسه الخرقة بحضور قضييب لبان، وألبسنيها الشيخ بالموضع الذي ألبسه فيه الخضر في بستانه وبصورة الحال التي جرت له معه في إلباسه إياها) أ. هـ . بل لقد كان هناك اتصال مباشر للشيخ الأكبر بالخضر عليه السلام وتلقى عنه، إذ روى الإمام الشعراني في (الكبريت الأحمر) أن سيدي محيي الدين قال في الباب الخامس والعشرين من الفتوحات : (كنت لا أقول بلباس الخرقة التي يقول بها الصوفية حتى لبستها من يد الخضر عليه السلام تجاه باب الكعبة)^(٢).

وحتى لا يرتاب أحد في مشروعية لبس الخرقة: فقد قال الإمام الشعراني عقب هذا الكلام مباشرة: قلت، ذكر الحافظ ابن حجر أن حديث لبس الخرقة متصل ورواته ثقات. كما أوضحت ذلك في مختصر الفتوحات. والله أعلم)^(٣).

ويخلص لنا من كل ما سلف أن الشيخ الأكبر قد تربى في رياض الصوفية تربية الأكابر على يد الأكابر. ثم ارتقى سيدي محيي الدين بعد ذلك إلى مرتبة التفرد المطلق والاتصال المباشر. فجاءته البشارة المؤذنة بالاتصال الكامل

(١) انظر : الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي للشيخ عبد الحفيظ، فرغلي ص ٤١.

(٢) ، (٣) انظر الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر للإمام الشعراني : بهامش كتاب اليواقيت، والجواهر . ١٤/١ ط / الحلبي سنة ١٣٧٨ هـ.

والمباشر. يقول رضى الله عنه : (ولقد أنعم الله علىّ ببشارة عظمى بشرنى بها وكنت لا أعرفها من حالى فأوقفنى عليها الإمام خليفة القطب. فقد نهانى عند التقائى به عن الانتماء إلى من لقيت من الشيوخ وقال لى : لا تنتم إلا إلى الله. فليس لأحد ممن لقيته عليك يد مما أنت فيه. بل الله تولاك برعايته وعنايته. فاذا كر فضل من لاقيت إن شئت ولا تتعصب إلا إلى الله) (١). لقد صار عبداً إلهياً لا نسبة له إلا إلى مولاه .

وتوالت عليه الإمدادات والفتوحات وذاق الأحوال والمقامات. وأصبح لا تمر عليه ساعة إلا وهو فى مزيد من الترقى والمروج. ولقد تحقق بجميع أحوال الصوفية ومقاماتهم والتي أحصاها بنفسه فى الفتوحات فبلغت ستين ألفاً. استمع إليه وهو يقول رضى الله عنه : (قد دخلنا فى كل ما ذكرناه فى هذه الإمدادات الإلهية ذوقاً مع عامة أهل الله وزدنا عليهم باسم إلهى هو (الآخر)، أخذنا منه الرياضة وروح الله الذى يناله المقربون من قوله تعالى : (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) (٢) ونلت هذا المقام فى دخولى هذه الطريقة سنة ثمانين وخمسائة) أى وعمره عشرون عاماً (٣) .

ثم لقد تحقق سيدى محبى الدين رضى الله عنه بمقام (الصديقية العظمى) وهو المقام الذى يراه جل الصوفية خاتمة مقامات الولاية وأعلاها. بيد أنه بعد أن حظى به وجد أن ثمة مقاماً فوقه أعلا منه، فهو فوق الصديقية ودون النبوة مباشرة ويسمى (مقام القرية) وهو مقام سيدنا الخضر عليه السلام.

وعنه يحدثنا الشيخ الأكبر قائلاً : (هذا المقام دخلته فى شهر المحرم سنة سبع وتسعين وخمسائة وأنا مسافر بمنزل إنجيل ببلاد المغرب. فتهدت فى هذا المنزل فرحاً ولم أجد فيه أحداً فاستوحشت من الوحدة وتذكرت دخول أبى يزيد

(١) انظر : محبى الدين بن عربى للشيخ طه عبد الباقي سرور ص ٢٧.

(٢) سورة الواقعة / ٨٨ - ٨٩.

(٣) انظر : محبى الدين بن عربى للشيخ طه عبد الباقي سرور ص ٢٩.

بالذلة والافتقار ، رضى الله عنه ، وعن سيدى أبى يزيد المقريين فى مقام القرية
وقرينا بهما إليهما ومعهما انتماء لجناحيهما الشريف.

تلك هى أبرز مقامات الشيخ الأكبر وذلك هو مركزه الشامخ فى الولاية،
لنتطلع إليه من بعيد وهو يحتل قمة التصوف والتحقيق، وأنى لنا الرؤية؟ هل نسينا
أن البصر أعجز من أن يحدق فى الشمس الصغرى- شمس الدنيا- ؟ وأن البصيرة
أعجز من أن تحدق فى الشمس الكبرى - شمس الولاية-؟ وهل لدينا من القدرة ما
نخترق به تلك الحجب وهذا البون الشاسع ما بين السماء والأرض؟ عذراً يا شمس
الولاية فإنما نحن عاشقون لضياك فلتسمح لنا فى أن نتعرف إليك فى أعلى
عليائك. ونعود إلى رحلتنا مع الشيخ الأكبر عبر مسافات التاريخ فنذكر أنه أقام فى
(أشبيلية) فيما بين عامى ٥٦٨ ، ٥٨٩هـ وخلال هذه الثلاثين عاماً صعد الشيخ إلى
القمة وترجع عليها. كما أنه خلال هذه الفترة قام بعدة سياحات داخل بلاد المغرب
زار خلالها عديداً من المدن والبلدان مثل : مورور، والزهراء، وقرطبة، وتونس،
وفاس، وسبتة وغرناطة. وكلها سياحات صوفية التقى فيها بشيوخه، وحظى بأحواله
ومقاماته. ثم فى سنة ٥٩٨ هـ ارتحل إلى بلاد المشرق حاجاً إلى بيت الله الحرام.

وفى مكة التقى بالشيخ أبى شجاع أمام مقام سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه
السلام والذي بنى الشيخ الأكبر بابنته الصوفية الصالحة.

وفى مكة أيضاً ألف سيدى محيى الدين ديوانه الشعرى (ترجمان الأشواق)
الذى يعد آية فى الشعر الرمزي والذوق الصوفى الرفيع.

ثم فى مكة أيضاً ألف الشيخ الأكبر أعظم موسوعة صوفية فى الإسلام وهى
(الفتوحات المكية) وتقع فى أربعة مجلدات عظيمة ؛ تشتمل على خمسمائة وستين
باباً وهى مقسمة إلى ستة أقسام: أولها فى المعارف، وثانيها فى المعاملات، وثالثها
فى الأحوال، ورابعها فى المنازل، وخامسها فى المنازلات، وسادسها فى المقامات.

ومن أراد أن يقف على مكانة الشيخ الأكبر فى علوم القوم وأذواقهم ويطلع
على قمة الذوق الروحى والعلم اللدنى ويعرف منزلة هذا الإمام فى الاطلاع على

الأسرار الإلهية فليطالع كتاب (الفتوحات المكية) الذى يؤكد لنا أن سيدى محيى الدين بحق هو ترجمان الصوفية الأكبر ، وحسبنا شهادة سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه لهذا الكتاب إذ يقول : (طالعت من كتب القوم مالا أحصيه، وما وجدت كتاباً أجمع لكلام أهل الطريق من كتاب الفتوحات المكية ..)^(١).

ثم يقول الإمام الشعرانى بعد أن أشار لما تضمنه كتاب الفتوحات من معارف : (وقد أشرنا لنحو ثلاثة آلاف علم منها فى كتابنا المسمى تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء، فإن علوم الشيخ كلها مبنية على الكشف والتعريف ومطهرة من الشك والتحريف) أه^(٢).

هذا عن كتاب الفتوحات وهو أحد مصنفات الشيخ التى بلغت خمسمائة كتاب إذ يقول صاحب (البرهان الأزهر) : « وقد بلغت مصنفات الشيخ قدس سره زهاء خمسمائة، وإنه ليتمثل بها بين العامة »^(٣).

ولقد نشر الأستاذ كوركيس عواد إحصاء المؤلفات الخمسمائة للشيخ الأكبر فى مقالات نشرها بمجلة المجمع العلمى بدمشق. ولقد ذكر الإمام الشعرانى فى اليواقيت أن الشيخ مجد الدين الفيروزأبادى قال : (وقد رأيت إجازة بخط الشيخ - محيى الدين - كتبها للملك الظاهر بيبرس صاحب حلب ورأيت فى آخرها : وأجزت له أيضاً أن يروى على جميع مؤلفاتى ومن جملتها كذا وكذا حتى عد نيفاً وأربعمائة مؤلف منها تفسيره الكبير فى خمسة وتسعين مجلداً وصل فيه إلى قوله تعالى : ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾، فاصطفاه الله لحضرته ..)^(٤).

(١) انظر . الكبريت الأحمر فى بيان علوم الشيخ الأكبر للإمام الشعرانى رضى الله عنه : على هامش كتاب (اليواقيت والجواهر) ٢/١-٣.

(٢) المصدر الأخير ٣/١.

(٣) انظر البرهان الأزهر فى مناقب الشيخ الأكبر للشيخ محمد رجب حلمى ص ٣٩.

(٤) انظر . اليواقيت والجواهر للإمام الشعرانى : ٨/١ ط العلبي .

بيد أن التراث العظيم الذي صنعه الشيخ الأكبر لم يجد من يصونه من بعده فابتلى بالدس فيه وبالتقول على سيدى محيى الدين ونسبة بعض العقائد الزائفة إليه كالتقول بالحلول والاتحاد. وقد قيض الله للشيخ الأكبر من ذب عنه وناضل عن تراثه كالشيخ مجد الدين الفيروزآبادى والإمام الشعرانى وغيرهما. فقد اختصر سيدى عبد الوهاب الشعرانى كتاب الفتوحات المكية فى كتابه لوافح الأنوار - القدسية وقال فيه : (وقد توقفت حال الاختصار فى مواضع كثيرة منه لم يظهر لى موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة فحذفتها من هذا المختصر وربما سهوت فتبعت ما فى الكتاب كما وقع للبيضاضى مع الزمخشري ثم لم أزل كذلك أظن أن المواضع التى حذفت ثابتة عن الشيخ محيى الدين حتى قدم علينا الأخ العالم المدنى المتوفى سنة ٩٥٥هـ فذاكرته فى ذلك فأخرج إلى نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط الشيخ محيى الدين نفسه بقونية فلم أر فيها شيئاً مما توقفت فيه وحذفته فعلمت أن النسخ التى فى مصر الآن كلها كتبت من النسخة التى دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة كما وقع له ذلك فى كتاب الفصوص وغيره ..)^(١) .

وأنى يتصور القول بالحلول أو الاتحاد من الشيخ الأكبر وهو القائل : (ما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد وما قال بالحلول إلا أهل الجهل والفضول) وهو القائل فى الباب التاسع والتسعين والمائة من الفتوحات (القديم لا يكون قط محلاً للحوادث ولا يكون حالاً فى المحدث ، وإنما الوجود الحادث والقديم مريوط ببعضه ببعض ربط إضافية وحكم لا ربط وجود عين بعين فإن الرب لا يجتمع مع عبده فى مرتبة واحدة أبداً)^(٢) أهبعد ذلك ينسب إلى الشيخ القول بالحلول والاتحاد ٩٩ .

وأما عن فكرة وحدة الوجود : فإنها عند الصوفية غيرها عند المستشرقين

(١) المصدر الأخير ط ٧ وانظر أيضاً : محيى الدين بن عربى للشيخ طه عبد الباقي سرور ص / ١٧٥ .

(٢) المصدر الأخير : ص / ١٦٩ .

(٣) المصدر الأخير : ص / ١٦٧ .

والفلاسفة ومن لف لفهم. وقد وقع اللبس في الفكرة حين وقع الخلط بين الوجود والموجود فالموجودات لا شك متعددة ولا يمكن أن تتأتى فيها الوحدة. ولم يقل الصوفية إطلاقاً بوحدة الموجود. أما الوجود فما ثم إلا وجود واحد هو وجود الله تعالى . فهو سبحانه واجب الوجود الذي يمد كل الممكنات بالوجود وما دام وجود الممكنات ليس ذاتياً بل بإيجاده تعالى فوحدة الوجود قائمة على هذا النحو وذلك ما عناه الصوفية وعلى رأسهم الشيخ الأكبر.

ولكن أعداء الصوفية رفعوا ألوية التشهير بسيدى محيى الدين نتيجة للدرس عليه من جهة ولعلو أذواقه وإغلاق عباراته وتأبئها على مدارك غير الخاصة من جهة أخرى. ولما وقع الإنكار على الشيخ قيض الله له من يرد عنه. فقد صنف الإمام جلال الدين السيوطى كتاباً يرد فيه على المنكرين على الشيخ الأكبر وأسماء (تتبيه الغبى في تبرئة ابن العري) وشهد له أئمة العلم والولاية بفضله وسمو منزلته في معاريج التحقيق. وحسبنا أن نعلم أن الذى سماه بالشيخ الأكبر ولقبه بسلطان العارفين إنما هو القطب أبو مدين المغربي كما ذكره الإمام الشعرانى في طبقاته ^(١) وسيدى مصطفى البكرى في (السيوف الحداد). وناهيك بشهادة الإمام فخر الدين الرازى الذى كان يقول : (كان الشيخ محيى الدين ولياً عظيماً) وبالإمام السهروردى الذى كان يقول عن سيدى محيى الدين : (إنه بحر الحقائق) ^(٢) لا وهذا هو سلطان العلماء سيدى عز الدين بن عبد السلام يشهد للشيخ الأكبر كما روى الإمام الشعرانى في طبقاته قائلاً : (وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام بمصر المحروسة يحط عليه - أى على سيدى محيى الدين - كثيراً فلما صحب الشيخ أبا الحسن الشاذلى رضى الله عنه وعرف أحوال القوم صار يترجمه بالولاية والمرفان والقطبانية) ^(٣).

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١٥٩/١.

(٢) انظر : البرهان الأزهر للشيخ محمد رجب حلمى ص ٢٩.

(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٦٠/١.

وفى اليواقيت والجواهر يقول الإمام الشعراني (وممن أثنى عليه - أى الشيخ الأكبر - من مشايخنا : محمد المفري الشاذلى شيخ الجلال السيوطى، وترجمه بأنه مربي العارفين كما أن الجنيد مربي المريدين وقال : إن الشيخ محيي الدين روح التزلات والإمداد وألف الوجود وعين الشهود وهاء المشهود الناهج منهاج النبي المربي قدس الله سره وأعلى فى الوجود ذكره) ١هـ. وأما عن كرامات الشيخ الأكبر: فهذه كرامة نسوقها للمنكرين على سيدى محيى الدين خاصة ولأعداء التصوف عامة. يقول سيدى عبد الوهاب الشعراني فى الطبقات : (وأخبرنى أخى الشيخ الصالح الحاج أحمد الحلبي: أنه كان له بيت يشرف على ضريح الشيخ محيى الدين. فجاء شخص من المنكرين بعد صلاة العشاء بنار يريد أن يحرق تابوت الشيخ فحسب به دون القبر بتسعة أذرع فغاب فى الأرض وأنا أنظر. ففقداه أهله من تلك الليلة فأخبرتهم بالقصة فجاءوا وحفروا فوجدوا رأسه. فكلما حضروا نزل وغار فى الأرض إلى أن عجزوا وردموا عليه التراب) (١) وقد ذكر شيخ شيخنا سيدى أحمد ضياء الدين النقشبندى فى جامع الأصول أن الشيخ - محيى الدين - قدس الله سره - صاحب طريقة بالاستقلال لدى أهل الحقائق كبقية الطرق - وقد انتهت إلى سيدى أحمد ضياء الدين بجانب النقشبندية طريقة الشيخ الأكبر عن طريق شيخه سيدى أحمد بن سليمان الطرابلسى ولقنها هو لمولانا الإمام العارف سيدى الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنه لتفمر أنوارها الوجود فى هذا العصر كما غمرته دائماً من قبل (٢) .

وبعد: فما ذكرت عن مولاي الشيخ الأكبر إلا بعض قطرة من سناء فبحق النور المحمدى أسألك يا سيدى محيى الدين يا سلطان العارفين أن تفيض علينا من أنوارك وأن تلحقنا بركابك رضى الله عنك فى زمرة المحمديين.

★ ★ ★

(١) انظر: المصدر السابق : ١٥٩/١ .

(٢) انظر . الكتاب التذكارى محيى الدين بن عربى فى الذكرى المثوية الثامنة لميلاده : الفصل الثانى عشر : بحث الطريقة الأكبرية للدكتور أبو الوفا الفينى التتازانى ص ٣٥٠ .

إمام الطريقة الشاذلية سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه

فى خضم الأنوار الإلهية تسبح أرواح العارفين الربانيين المتخلفين بأخلاق الحق تعالى، الهائمين فى بحار المحبة، الساجدين بأبدانهم على بساط النجوى الطوافين بقلوبهم حول العرش، المتممين بخصوصية المعية الاصطفائية. فهم دائماً وأبداً مع الحق بالحق للحق. يحظون بالتجلى الشهودى ويعاينون الجمال المطلق حيث يناجون معشوقهم كما قال العارف :-

جمالك فى كل الحقائق سافر
وليس له إلا جلالك سائر
تجلت للأكوان خلف ستورها
فَنَمَّتْ بما تخفى عليه السرائر

إنهم الخاصة العليا من أولياء الله العارفين، وصفوته الواصلين. الذين أبرزهم فى مملكة رحمة لخلقه ودلائل إلى حضرته. رضى الله عنهم وعنا بهم دائماً وأبداً فى الدنيا ويوم الدين.

ومن سواطع هذه الشمس المشرقة، وشوامخ هذه القمم الشاهقة: إمام تفتخر به الأمة المحمدية. ويعق لها بل عليها أن تفتخر. وقطب تتحير الأوهام فى استشراف عليائه والمروج إلى أفق سمائه. وولى تزدهى به الولاية، فهو شمس سمائها ومبعث ضيائها. إنه القطب الفرد الجامع المترع على عرش الولاية العظيمى صاحب المعارج القدسية والمنازلات العرشية حامل لواء العارفين وعلم الأفراد الواصلين. الإمام العارف سيدى أبو الحسن الشاذلى قدس الله سره ورضى عنه وعنا به وأمدنا بمدده الأعلى فى الدنيا ويوم الدين.

ولنستسمح مولانا أبا الحسن في أن نشرف بالحديث عنه، وليمدنا بقطرة من بحار أنواره نرى من خلالها- وفي حدود طاقاتنا- بعض ما وسعته شخصية هذا القطب المحمدي من عطاءات ربانية لا يعلم مداها إلا المعطى سبحانه ومن ارتضى من خواص أوليائه. وأنى لمن هم أصفاد في الأرض من أمثالنا أن يمتد بصره أو بصيرته لمن هم فوق عنان السماء من أمثال سيدي أبي الحسن؟

ألا فلنقبس من الشمس بعض الضياء على رغم البعد بين الأرض والسماء. وحين نتحدث عن صفوة الأحياء من خاصة الأولياء فلنتجاهل لوم الأعداء وعتب الجاهلاء ممن حجب قلوبهم عن إشراقات محبة الأولياء. فالأمر جد عظيم؛ لأن عظمة الإسلام نفسه لا تتجلى في أروع صورها كأجلى وأبهى ما تكون مثلما تتجلى من خلال هؤلاء الرجال الذين صنعهم الإسلام لكي يصوغوا مجده ويرفعوا لواءه، ويُعلِّقوا الصرح المحمدي شامخاً فوق عنان السماء، ويرزوا عظمة هذا الدين بمثله العليا ومبادئه السامية، وأخلاقياته وعطاءاته ممثلاً في سلوكهم المثالي وفيضهم اللدني، ومعرّاجهم الروحي إلى سماء الحقيقة. فلتطلق مسيرتنا من البدء. من أصل الشجرة المباركة إنها الشجرة النبوية التي يتدفق فيها النور المحمدي ويتسلسل في أغصانها المزهرة النسب الشريف حتى ينتهي إلى القطب المحمدي سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه.

فهو سيدي أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرم بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى ابن محمد بن مولانا الإمام الحسن بن سيدنا علي كرم الله وجهه ، وابن مولانا السيدة فاطمة الزهراء بنت سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - وقد روى النسب الشريف على هذا الوجه في (لطائف المنن) لسيدي أحمد بن عطاء الله السكندري رضي الله عنه ^(١). والروايات التاريخية كلها مجمعة على نسبة سيدي

(١) انظر لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسى وشيحه الشاذلي أبي الحسن . المعارف بالله تعالى سيدي أحمد بن عطاء الله السكندري رضي الله تعالى عنه ص / ٥٢ نشر المكتبة السعيدية بالقاهرة .

أبى الحسن إلى مولانا الإمام الحسن رضى الله عنهما . وقد ولد الإمام الشاذلى بقرية (غمارة) القريبة من مدينة (سبتة) ببلاد المغرب سنة ثلاث وتسعين وخمسائة هجرية ^(١) . ونشأ بها نشأة أولى الاضطفاء، فحفظ القرآن الكريم وشرع فى تلقى العلوم الشرعية، ثم لم يلبث أن ارتحل - وهو لا يزال فى ريعان الصبا- إلى مدينة (تونس) حيث التقى هناك بجهابذة العلم لكى يشبع نهمه ويستقى من روافد المعرفة ما شاء الله له . وهناك تفقه على مذهب الإمام مالك، وحصل من مختلف العلوم النقلية والعقلية ما تفوق به على أفذاذ علماء عصره. لذلك يقول الإمام ابن عطاء الله : (إنه لم يدخل طريق القوم حتى كان يعد للمناظرة فى العلوم الظاهرة) ^(٢) .

وانتشر صيته فى الأرجاء، فكان الشيوخ يقبلون عليه متتلمذين. وربما يتوق البعض لمناظرته تأكيداً من مكانته العلمية. فيجلس إليه، وفجأة يحس المتناظر أنه أمام بحر مفرق لا يتأتى الاقتراب منه إلا للاغتراف من فيض علومه. إنه التضلع من علوم الشريعة استعداداً لسلوك الطريقة ولاستشراق أنوار الحقيقة. أما الخلفية التى تتطوى وراء هذا الجانب الظاهرى الممثل فى الإمام أبى الحسن العالم: فهى منذ البداية تتمثل فى البحث عن أول الطريق. عن الرجل الذى يتسلم زمام هذا القلب لكى يصله بالله اتصالاً لا انقطاع بعده. فلقد روى صاحب (المفاخر العلية) أن سيدنا أبا الحسن قال :

(لما دخلت تونس فى ابتداء أمرى قصدت بها جملة من المشايخ، وكان عندى شيء أحب أن أطلع عليه من يبين لى فيه خيراً . فما فيهم من شرح لى حالاً حتى دخلت على الشيخ أبى سعيد الباجى رحمه الله تعالى فأخبرنى بحالى قبل أن أبدية وتكلم على سرى فعلت أنه ولى الله تعالى فلازمته وانتفعت به كثيراً) ^(٣)

(١) انظر المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية للعلامة أحمد بن محمد بن عياد ص ١٢ .

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٤/٢ .

(٣) انظر المفاخر العلية للعلامة ابن عياد ص ١٦ ط/ العلبى.

وذاق سيدى أبو الحسن أولى نفحات الطريق فعقد العزم على السفر الطويل والهجرة إلى الله تعالى، وألقى عصا التسيار في عدة بلاد وأقطار. فزار أكثر بلاد المغرب ثم شرق وارتحل حاجاً إلى بيت الله الحرام مرات عديدة وساح سياحات كثيرة وسلك مسلك الرياضة والمجاهدة. ولقد كان في كل خطوة يخطوها يمرور بداخله سؤال ملح (أين الشيخ ؟) . إن المرید فی طریق الوصول يشبه سفينة تمخر عباب المحيط. وهل تعرف السفينة طريقها بدون مرشد يحدد لها معالم الطريق؟ وهل ذلك المرشد للمرید إلا الشيخ الذى يقود خطاه إلى الله « فمن هو؟ ». حقيقة لقد عثر سيدى أبو الحسن من خلال سياحاته وهجراته المتتابعة على شيوخ عديدين وكلهم على قدم في الطريق. وقد مرت بنا واقعة الشيخ أبى سعيد الباجى معه في تونس. ولكن همة سيدى أبى الحسن كانت تطمح إلى مشرق شمس الولاية. أعنى إلى القطب ذاته. فكان يسأل عنه كل من يلقاه من الرجال. بل كان يسأل عن مظان وجوده في الأمكنة والبقاع.

ولقد كان من المعروف في الوسط الصوفى أن العراق برزخ الصالحين وموئل الرجال المتمكنين. فسافر إليها سيدى أبو الحسن. ولنتابع أحداث هذه الرحلة ومرتباتها البالغة الأهمية مع سيدى أبى الحسن نفسه. فلقد روى صاحب المفاخر العلية أن سيدى أبى الحسن كان يقول:

(لما دخلت العراق : اجتمعت بالشيخ الصالح أبى الفتح الواسطى فما رأيت في العراق مثله. وكان بالعراق شيوخ كثيرة، وكنت أطلب على القطب. فقال لى الشيخ أبو الفتح: تطلب على القطب بالعراق وهو في بلادك؟ أرجع إلى بلادك تجده، فرجعت إلى بلاد المغرب إلى أن اجتمعت بأستاذى الشيخ الولى العارف الصديق القطب الفوث أبى محمد عبد السلام بن مشيش الشريف الحسنى- قال رضى الله عنه : لما قدمت عليه وهو ساكن منارة برياطله في رأس الجبل.. اغتسلت في عين أسفل الجبل، وخرجت عن علمى وغسلت عليه فقيراً وإذا به هابط على. فلما رآنى قال : مرحباً بعلی بن عبد الله بن عبد الجبار.. وذكر نسبى إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم. ثم قال لى يا على : طلعت إلينا فقيراً عن علمك وعملك
أخذت منا غنى الدنيا والآخرة. فأخذنى منه الدهش فأقمت عنده أياماً إلى أن فتح
الله على بصيرتى، ورأيت له خرق عادات من كرامات وغيرها (١) هـ .

وهكذا كانت البداية الاصطفائية لسيدى أبى الحسن مع شيخه العارف سيدى
عبد السلام بن مشيش قطب عصره. وهى البداية التى كان يسعى إليها سيدى أبى
الحسن بمزينة الرجال وقد كانت هى أيضاً تسعى إليه. فإن القطب فى عصره ما
ليعتبر ضالته المنشودة هى الرجل الذى سيجمل سره ويتقلد إرثه من بعده. وهو
لذلك يبحث عنه كجوهرة ثمينة فريدة فى العالم. والتقى الوارث والمورث أو : تلاقى
المريد مع شيخه. فليهنأ العالم بهذا اللقاء وباله من لقاء. وبدأت الفتوحات الريانية
الكبرى تتوالى على الشيخ أبى الحسن وهو بصحبة أستاذ الولاية الأكبر فى عصره .
إنه الشيخ ابن مشيش الذى يقول عنه ابن عياد فى المفاهر : (ومقامه بالمغرب
كالشافعى بمصر) (٢).

ولقد رأى سيدى أبى الحسن من فتوحات شيخه ومعاريجه الروحية وعلومه
الدنية ما يذهل الأبواب. فاغترف من فيوضاته ونهل من نفحاته. ولقد كانت وصايا
الشيخ له نضاجة بالنور يروى الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته أن سيدى
أبا الحسن كان يقول :

(أوصانى أستاذى رحمه الله تعالى فقال : حدد بصر الإيمان تجد الله فى كل
شئ وعند كل شئ، ومع كل شئ، وفوق كل شئ، وقريباً من كل شئ، ومحيطاً
بكل شئ. بقرب هو وصفه، وبإحاطة هى نعتة، وعد عن الظرفيه والحدود، وعن
الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب بالمسافات وعن الدور بالمخلوقات وأحقق
الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن. كان الله ولا شئ معه) (٣).

(١) انظر : المفاهر العلية للشيخ ابن عياد الشافعى ص ١٤ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٣ .

(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١٠/٢ .

ويروى صاحب المفاهر بسنده عن الإمام أبي الحسن تلك الواقعة الفريدة التي كانت نقطة تحول وانطلاق لشخصية سيدي أبي الحسن على يد شيخه. ويقول مولانا الشاذلي :

(وكنت يوماً جالساً بين يديه وفي حجره ولد صغير فخطر ببالي أن أسأله عن اسم الله الأعظم. فقام الولد إلى. ورمى يده إلى أطواقي وقال : يا أبا الحسن أردت أن تسأل الشيخ عن الاسم الأعظم إنما الشأن أن تكون أنت هو الاسم. - يعني سر الله مودع في قلبك - قال فتبسم الشيخ وقال : أجابك فلان عنا. وكان إذ ذاك قطب الزمان، ثم قال لي يا علي: ارتحل إلى أفريقية واسكن بها بلداً تسمى (شاذلة) فإن الله يسميك الشاذلي - ولم يكن سيدي أبو الحسن قد عرف بالشاذلي بعد - وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس، ويؤتي عليك بها من قبل السلطنة وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد المشرق وترث فيها القطبانية. فقلت له يا سيدي، أوصني.. فقال :

الله الله والناس. تنزه لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التماثيل من قبلهم، وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض وقد تمت ولاية الله عليك، ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك، وقد تم ورعك. وقل : اللهم أرحنى من ذكرهم ومن العوارض من قبلهم، ونجنى من شرهم وأغننى بخيرك عن خيرهم وتولنى بالخصوصية من بينهم إنك على كل شيء قدير (١) .

وارتحل سيدي أبو الحسن حسب تعليمات شيخه للتحقق الأحداث التي أخبره بها شيخه مسبقاً حرفياً. وقد كانت رحلة النور وقد تخللها - كما أخبر شيخه - شيء من ضباب المحن التي يبتلى بها الأصفياء ثم لا تلبث أنوارهم أن تسطع من جديد وهي أشد صفاء وإشراقاً .

ذهب الشيخ إلى (شاذلة) وهي بلدة على القرب من تونس. وأقام هناك فترة تعبد وتحنت في مفارة بجبل (زعفران) . وكان برفقته بعض أصحابه وتلاميذه

(١) انظر : المفاهر العلية للعلامة ابن عياد ص / ١٥ .

كالشيخ أبى محمد عبد الله الحبيبي وهو من أهل (شاذلة) ولقد شهد من أستاذه الشاذلى أحوالاً ومقامات - مدة إقامته هناك - يضيق عنها حد المقال. ثم كان فى نهاية إقامة الإمام الشاذلى بشاذلة ما رواه صاحب المفاخر العلية من أن سيدى أبا الحسن قال :

(قيل لى يا على : اهبط إلى الناس ينتفعوا بك. فقلت يارب أقلنى من الناس فلا طاقة لى بمخالطتهم. فقيل لى : انزل فقد أصحابك السلامة ودفعنا عنك الملامة. فقلت يارب .. تكلنى إلى الناس أكل من دريهماتى؟ فقيل لى : انفق يا علم وأنا الملى. إن شئت من الجيب وإن شئت من الغيب) ولقد كان من تلك المناجيات والمخاطبات الإلهية ما يتعلق بتسمية الشيخ حيث قال رضى الله عنه : (قلت يارب . لم سميتى بالشاذلى ولست بشاذلى ؟ - أى من شاذلة - فقيل لى يا على : ما سميتك بالشاذلى إنما أنت الشاذلى- بتشديد الذال المضمومة- يعنى المفرد لخدمتى ومحبتى) اهـ (١).

وتوجه الشيخ أبو الحسن من شاذلة إلى تونس وسكن فيها بمسجد البلاط داراً تفتح للقبلة. والتفت حوله نخبة من الفضلاء وثلة من الباحثين عن النور وكان من بينهم صاحبه وخادمه الجليل سيدى أبو العزائم ماضى والشيخ أبو الحسن الصقلى وأبو عبد الله الصابونى وغيرهم. واتسمت شهرة الشيخ وذاع صيته. وفى الوقت نفسه كان ضباب المحن قد تاهب لاكتشاف ضوء الشمس . فقد سمع به قاضى الجماعة أبو القاسم بن البراء. وعرف ما للشيخ من سامق المنزلة فى قلوب الخاصة والعامة. فأحس بمراحل الغيرة والحقد تغلى فى داخله، وخيل إليه أن الشيخ جاء ينتزع الكرسي الذى يجلس عليه ويسلبه مجده وشهرته. فأوقع به عند السلطان أبى زكريا مدعياً أن هذا الشيخ فاطمى، وقد جاء ليشوش عليه بلاده. فعمد السلطان اجتماعاً للمواجهة بين الشيخ والقاضى ويحضره الفقهاء وقد حضره السلطان متخفياً من وراء حجاب. وسئل الشيخ أبو الحسن عن نسبه مراراً فأجاب.

(١) المصدر الأخير : من ٢٦ - ٢٧ ط / العلبى .

ثم انفتحت خزائن علوم الشيخ ليحيى عن أى سؤال ولا يجاب هو عن أى سؤال.
فبهت القاضى على مسمع من السلطان، ولم يسع السلطان حينئذ إلا أن يقول
لابن البراء، هذا رجل من أكابر الأولياء وما لكم به طاقة.

وتزداد مرارة الحقد عند القاضى فيقول للسلطان: والله لئن خرج فى هذه
الساعة ليدخلن عليك أهل تونس ويخرجوك من بين أظهرهم فإنهم مجتمعون على
أهلك.

وهنا تتغلب شهوة السلطة والمصلحة الشخصية فى نفس السلطان على رؤيته
لحق. فيامر بإخراج الفقهاء واستبقاء الشيخ أبى الحسن معتقلاً بالقصر. ويدخل
بعض أصحاب سيدى أبى الحسن فيقول له أحدهم: يا سيدى .. الناس يتحدثون فى
أمرك ويقولون يفعل به كذا وكذا من أنواع الأدب. وانفجر بالبكاء بين يديه وإذا
بالشيخ يبتسم فى ثقة المعارف واطمئنان الولى ويقول (والله لولا أنى أتأدب مع
الشرع لخرجت من ههنا ومن ههنا وأشار بيده. وكلما أشار إلى جهة انشق الحائط!!
ثم قال له : اثنتى بإبريق وسجادتى وسلم على أصحابى وقل لهم ما نفيىب عنكم إلا
اليوم خاصة، وما نصلى المغرب إلا معكم إن شاء الله تعالى).

وتتجلى كرامات الشيخ أبى الحسن مدللة على رفعه منزلته عند ربه. فيتوضأ
ويصلى لله ثم تصعد المناجاة إلى الله فلا يحجبها حجاب ، بل تفتح لها أبواب
السموات وتحفها أجنحة الملائكة. ويفاجأ السلطان فى اليوم والساعة بالآتى : أولاً:
كانت عنده جارية ملكة عليه فؤاده وكان يعتبرها أعز ما لديه فأصابها فى ذلك
اليوم مرض فماتت من ساعتها.

وثانياً : أثناء انشغال الجميع بغسل الجارية وإخراجها للصلاة أغفلوا مجمرأ
فى البيت فالتهمت النار فأحرقت كل ما فى البيت من الفرش والملابس والذخائر
والأموال مما لا يعد ولا يحصى^(١).

(١) انظر المفاهر العلية للعلامة ابن عياد ص ٢٧ - ٢٨.

عندئذ أدرك السلطان أنه أصيب من أجل هذا الولي سيدي أبي الحسن،
وأدرك أنه عادى لله ولياً فأذنه الله بالحرب وتلك كانت مقدمته .

ومن عجب أن أخا السلطان كان من خلص أتباع الشيخ . وكان يومئذ يشيع جنازة خارج المدينة . وما أن عاد وعلم بما حدث حتى صب جام لومه وغضبه على أخيه وأخذه إلى الشيخ مسترضياً ومعتذراً .

ولقد منى ابن البراء في آخر حياته بعاقبة تستدر دمع العدو قبل الصديق إذ فتن بماله وولده وساء أمر دينه واستخدمه الظلمة ولم يختم له بخير أعادنا الله من غضب أوليائه .

وارتحل سيدي أبو الحسن من تونس متوجهاً إلى بلاد المشرق على نية العودة إلى تونس بعد أداء مناسك الحج . ودخل الإمام الشاذلي الإسكندرية . وكان في انتظاره الشطر الثاني من المحنة التي اجتاز شطرها في تونس . إذ قد سبقه إلى سلطان مصر عقد بالشهادة من ابن البراء ضد الشيخ للإيقاع به عند السلطان كما فعل بتونس وبنفس التهمة (التشويش على البلاد) وتكررت حادثة التحفظ على الشيخ وصحبه بالإسكندرية وفي نفس الوقت جاء جماعة إلى الشيخ متظلمين من السلطان وهنا رأى الشيخ ضرورة مقابلة السلطان بالقاهرة لرد المظالم ووضع الحق في نصابه فخرج الشيخ وصحبه من مكان اعتقالهم مارين بالجنود والحراس دون أن يكلمهم أحد . لقد غشى عليهم ظلم يبصروا ركب الشيخ . ووصل الركب إلى القاهرة ليشفع في القبائل عند السلطان وإذا بالسلطان يقول للشيخ (اشفع في نفسك) ويبرز له عقد ابن البراء فيرد عليه الشيخ (أنا وأنت والقبائل في قبضة الله) وقام الشيخ منصرفاً . فلما مشى قدر المشرين خطوة كلم القضاة السلطان فلم يتكلم ، وحركوه فلم يتحرك لا فيأدروا إلى الشيخ رضى الله عنه وأخذوا يقبلون يديه ويسترضونه . فعاد إلى السلطان وحركه بيده المباركة فتحرك ثم نزل عن

كرسيه وجعل يستسمحه ويقبل يديه ، ويسأله الدعاء ونفذت جميع مطالب سيدي أبي الحسن وردت مظالم القبائل (١).

ثم طلع الإمام أبو الحسن لأداء الحج وبعدها عاد إلى تونس وكانت عودته إلى تونس لأمر جليل. إنه اللقاء المنتظر بين وارث المدد سيدي الإمام أبي العباس المرسى وبين الشيخ المريي الإمام الشاذلي. لقد قال الشيخ أبو الحسن حين التقى بسيدي أبي العباس (ما ردني لتونس إلا هذا الشاب) وقد كان لقاء لا افتراق بعده، فقد سرت جاذبية النور المحمدي بين العارف الشاذلي وخليفته المنتظر الذي قال له يوماً : (يا أبا العباس ما عرفتك إلا لتكون أنت أنا، وأنا أنت) (٢).

إنه المثل الأعلى في ارتباط المرید بشيخه والشيخ بمريده إلى درجة الوحدة الروحية.

ثم ذات ليلة يرى الإمام أبو الحسن النبي - صلى الله عليه وسلم - في المنام وكانت رؤيا تحمل البشائر وتشير إلى مركز الإمام الشاذلي في التربية وتشير إلى استمداده المحمدي المباشر.

يقول رضى الله عنه (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي يا علي : قلت لبيك يا رسول الله. قال لي انتقل إلى الديار المصرية ترى بها أربعين صديقاً.. وكان ذلك في زمن الصيف وشدة الحر- فقلت يا سيدي يا رسول الله الحر شديد.. فقال لي : الغمام يظلكم. فقلت يا حبيبي: أخاف العطش. فقال لي: إن السماء تمطركم في كل يوم أمامكم. قال ووعدني في طريقى بسبعين كرامة (٣).

وانتقل سيدي أبو الحسن إلى مصر ليحقق ما أنبأه به شيخه العارف ابن بشيش، ويرث القطبانية الكبرى. فلقد روى صاحب المفاز العلية أن الشيخ العارف

(١) انظر أيضاً المفاز العلية للشيخ ابن عياد ص / ٢٠.

(٢) انظر لطائف المنن للإمام أحمد بن عطاء الله السكندري ص ٧٠ نشر المكتبة السعيدية - درب الجماهير - القاهرة.

(٣) انظر المفاز العلية للشيخ ابن عياد ص / ٢١.

أبا على يونس بن السماط دخل على الشيخ أبى الحسن وهو بمقبرة من الإسكندرية، وجلس بين يديه وتأدب معه بكلام لم يفهم الحاضرون منه شيئاً ثم قبل يديه وانصرف وهو يبكى. فتعجب منه أصحابه وسألوه أثناء الطريق عن ذلك فقال لهم :-

(رأيت البارحة النبى صلى الله عليه وسلم وقال لى : يا يونس.. كان أبو الحجاج الأقصرى بالديار المصرية وكان قطب الزمان فمات البارحة وأخلفه الله تعالى بأبى الحسن الشاذلى فأتيت إليه حتى بايعته بيعة القطبانية- أ هـ^(١)).

وصار سيدى أبو الحسن موضع نظر الله من خلقه وأضحى قطب الوجود وغوث الزمان.

وأقام سيدى أبو الحسن بالإسكندرية فى مسكن وقفه عليه السلطان ببرج من أبراج السور، وتزوج وأنجب ذرية طيبة بعضها من بعض.

ولقد هتف به بعد قدومه إلى مصر هذه المرة يا على : ذهبت أيام المحن وأقبلت أيام المنن عشراً بعشر اقتداءً بجدك - صلى الله عليه وسلم -^(٢) وأخذ القطب الشاذلى يدعو إلى الله على بصيرة، وتتلذذ على يديه أساطين العلماء بمصر آنذاك وفى مقدمتهم سلطان العلماء سيدى عز الدين بن عبد السلام والشيخ تقى الدين بن دقيق العيد - والشيخ عبد العظيم المنذرى وابن الصلاح، وابن الحاجب وأبو العلم ياسين تلميذ سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله تعالى عنهم وعنا بهم أجمعين^(٣).

ونستوقف الآن خطى العرض التاريخى بعد أن أسهبنا الحديث فيه- بوازع من موضوعية البحث - لننظر من بعيد - بمقدار ما بيننا وبين الإمام أبى الحسن - إلى مقام القطب أبى الحسن. ولنتعرف على المدرسة الشاذلية بطابعها الفريد ومنهجها

(١) المصدر السابق : ص ٢١.

(٢) المصدر السابق . ص ٢٢.

(٣) انظر : المفآخر العلية ص / ٢٣، ٤٢، ٤٤ .

فى التربية. وماذا يمكن أن يقال عن الإمام الشاذلى للتعبير عن مقامه ؟؟ ماذا يمكن أن يقال عن إمام ذكر صاحب المفاهر العلية أنه كان يقول:

(أخذت ميراثى من رسول الله فمكنت من خزائن الأسماء، فلو أن الجن والإنس يكتبون عنى إلى يوم القيامة لكُلُوا وملُوا) ^(١) ؟؟ أجل يا سيدى يا أبا الحسن لا يمكن أن تعبر عن مقامك الكلمات ولو كتبنا فيك حتى الممات !! فلنعترف بالمعجز (والمعجز عن الإدراك إدراك)، ولنقف عند ساحل البحر.

فقد روى سيدى الإمام ابن عطاء الله السكندرى أنه قيل للشيخ أبى الحسن من هو شيخك ؟؟ فقال : كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش وأنا الآن لا أنتسب إلى أحد بل أعوم فى عشرة أبحر. خمسة من الأدميين :

(النبى - صلى الله عليه وسلم - وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وخمسة من الروحانيين : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح) ^(٢).

ولنعش هذا اللقاء المحمدى مع القطب الشاذلى كما رواه وارث سره الإمام أبوالعباس المرسى رضى الله عنه إذ يقول : (كنت مع الشيخ أبى الحسن بالقيروان، وكان شهر رمضان، وكانت ليلة جمعة وكانت ليلة سبع وعشرين. فذهب الشيخ إلى الجامع وذهبت معه. فلما دخل الجامع وأحرم رأيت الأولياء يتساقطون عليه كما يتساقط الذباب على العسل. فلما أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ : ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة وكانت ليلة القدر، ورأيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول يا على : طهر ثيابك من الدنس تحفظ بمدد الله فى كل نفس. قلت: يا رسول الله وما ثيابى؟ قال: اعلم أن الله قد خلق عليك خمس خلق: خلعة المحبة، وخلعة المعرفة، وخلعة التوحيد، وخلعة الإيمان، وخلعة الإسلام.. فمن أحب الله هان عليه كل شيء، ومن عرف الله صغر لديه كل شيء، ومن وحد الله لا يشرك به شيئاً. ومن آمن بالله آمن من كل شيء، ومن أسلم لله قلما يعصيه وإن عصاه

(١) 'نظر' المصدر نفسه : ص ١٢ .

(٢) 'انظر' المصدر نفسه . ص ٢١ - ٢٢ .

اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره. ففهمت حينئذ معنى قوله عز وجل : « وثيابك فطهر » أهـ (١).

لقد كان سيدي أبو الحسن دائماً في الحضرة المحمدية يأخذ عن الرسول صلى الله عليه وسلم ويستمد منه ولا يغيب عنه أبداً ولقد روى صاحب المفاهر أنه كان رضى الله عنه يقول :

(والله لو حجب عنى رسول الله طرفة عين ما عدت نفسى من المسلمين) (٢).

وكذلك قال هذه العبارة وريثه سيدي أبو العباس فيما بعد حين خلف شيخه . ولقد كان سيدي أبو العباس أدرى الناس بحقيقة شيخه، وها هو ذا ينبئنا ببعض ما عرفه. فيقول رضى الله عنه : (جلت في ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقاً بساق العرش: وهو رجل أشقر أزرق العينين. فقلت له : ما علومك؟ وما هو مقامك؟ فقال: أما علومى فأحد وسبعون علماً. وأما مقامى فرباع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال فقلت : ما تقول فى شيخى أبى الحسن الشاذلى؟ فقال : زاد على بأربعين علماً. هو البحر الذى لا يحاط به) (٣).

ولقد روى الإمام الشعرانى أن الشيخ ابن دقيق العيد كان يقول : (ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه) (٤).

إنه الإمام الشاذلى الذى بهر العلماء بعلومه ووارداته فلم تتناول إليه طاقات العقول فكان أوجد الدنيا فى علوم الحقائق. يروى الإمام ابن عطاء الله أن سيدي أبا الحسن قال : (قيل لى: يا على .. ما على وجه الأرض مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وما على وجه الأرض مجلس فى علم

(١) انظر لطائف المنن للإمام ابن عطاء الله السكندرى ص ٥٦ نشر السعيدية .

(٢) انظر المفاهر العلمية ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٢٢/ .

(٤) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٤/٢ .

الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم، وما على وجه الأرض مجلس فى علم الحقائق أبهى من مجلسك^(١).

وماذا عسى أن يتناوله الشيخ فى مجلسه؟ يقول ابن عياد : (وكان كلامه فى العقل الأكبر والروح الأنور والقلم الأعلى والقدس الأبهى والاسم الأعظم، والكبريت الأحمر والياقوت الأزهر والأسماء والحروف والدوائر ..)^(٢).

إنه العلم اللدنى الذى لا يوجد فى ذلك العصر إلا عند الإمام أبى الحسن. ولمزة هذا العلم وندرته وخصوصيته لخاصة الأولياء لم يسطره الإمام أبو الحسن فى كتاب بل بثه لأصحابه الذين توافرت فيهم أهلية الاستمداد، ولذلك حين سئل رضى الله عنه: لم لا تضع الكتب فى الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم؟ قال رضى الله عنه: (كتبى أصحابى)^(٣).

ومن هنا نعبّر إلى منطلق طريقته ومدرسته التى ملأت أسماع التاريخ وغمرت الدنيا نوراً وهدياً فى كل عصر وزمان. ما هى معالم هذه الطريقة؟ يقول شيخ شيخنا سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى النقشبندى رضى الله عنه فى وصف طريق الإمام الشاذلى :

(وأما طريقته: فجاء فى طريق الله بالأسلوب العجيب والمنهج الغريب والمسلوك العزيز القريب، وجمع فى ذلك بين العلم والعمل والحال والمقام الهمة والمقال، واشتملت طريقته على الجذب والمجاهدة والعناية، واحتوت على القرب والتسليم والرعاية، وشيدت بالعلمين الظاهر والباطن وسائر الهداية والأسرار والكرامة والقرب، وكان مبنى طريقته على طلب العلم وكثرة الذكر والحضور فكانت بهذا الاستحضار الذى هو الجمع أسهل الطرق وأقربها بعد النقشبندية، وليس فيها كثرة المجاهدة؛ لأن ما فى النفس من النور الأصلى يتعاوض ويقوى بنور العلم أو بنور الذكر ..)^(٤).

(١) انظر المفآخر العلية ص ٢٣ .

(٢) انظر : المفآخر العلية ص / ٢٢ .

(٣) انظر : أبو الحسن الشاذلى للشيخ علي سالم عمار ج ١ ص ١١٩ .

(٤) انظر جامع الأصول للعلامة سيدى أحمد الكمشخانوى ص ٨٢ .

ويروى صاحب المفاهر عن سيدى ابن عطاء الله أنه قال عن طريق الإمام
أبى الحسن:

(وطريقه رضى الله عنه طريق الفناء الأكبر والتوصيل الأعظم حتى كان
يقول : ليس الشيخ من يدلك على تعبك إنما الشيخ من دلك على راحتك)^(١).

ولقد كان الشيخ مكين الدين بن الأسمر رضى الله عنه يقول: (الناس يدعون
إلى باب الله تعالى وأبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يدخلهم على الله)^(٢).

وقد استمد القطب الشاذلى أسس طريقته من روح الكتاب والسنة. يقول
رضى الله عنه.

(ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، وإنما هو بالصبر
على الأوامر واليقين فى الهداية. قال تعالى : وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما
صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)^(٣) ولقد كان رضى الله عنه يقول :

(من أراد عز الدارين فليدخل فى مذهبنا يومين. فقال له القائل كيف لى
بذلك؟ قال : فرق الأصنام عن قلبك وأرح من الدنيا بدنك ثم كن كيف شئت. فإن الله
تعالى لا يعذب العبد على مد رجله مع استصحاب التواضع للاستراحة وإنما يعذبه
على تعب يصحبه تكبر)^(٤).

وروى صاحب جامع الأصول أنه قال رضى الله عنه : (لقد جئت فى هذه
الطريق بما لم يأت به أحد لأنه عين طريق النقشبندية وهى سلطان الطرق)^(٥).

كما روى أن سيدى محمدا المغربى رضى الله عنه قال (أعطى الشاذلية
ثلاثاً لم تحصل لمن قبلهم ولا لمن بعدهم؛ الأول : أنهم مختارون فى اللوح

(١) انظر المفاهر العلية ص / ٢٢.

(٢) انظر المصدر الأخير ص ٤٣ - ٤٤.

(٣) سورة السجدة / ٢٤.

(٤) انظر . الكواكب الدرية للإمام المناوى ١٢٨/٢٠.

(٥) انظر ٠ أبو الحسن الشاذلى للشيخ على سالم عمار ص / ١٢٤.

(٦) انظر جامع الأصول لسيدى أحمد ضياء الدين الكمشغانوى ص ٨٣.

المحفوظ. الثانى أن المجذوب منهم يرجع إلى الصحو. الثالث أن القطب منهم إلى يوم القيامة^(١) إنها خصوصيات الطريق الشاذلى يعرفها أهل التحقيق .

وفيما يتعلق بهذا الأمر الثالث خاصة فإن الأمر الواقع يصدقه كما يصدق أخويه .

إذ إن شيخنا العارف بالله تعالى الشيخ جودة إبراهيم شيخ الطريقة النقشبندية رضى الله عنه حينما حان وقت توليه القطبانية الفوتية : (تشذّل) فتلقى الطريقة الشاذلية عن العارف بالله سيدى عبد القادر الفاسى رضى الله عنه^(٢). ولقد ريت الطريقة الشاذلية أقطاباً سرت أنوارهم فى كل عصر وزمان وعرفهم الإمام الشاذلى ورياهم بروحانيته القدسية فقد روى عنه أنه قال : (أعطيت سجلاً مد البصر فيه أصعابى وأصحاب أصعابى إلى يوم القيامة عتقاء من النار). ومصدراً لذلك فقد بشر فى حياته بخليفته الخامس مولانا السلطان الحنفى رضى الله عنه إذ قال (يظهر بمصر رجل يعرف بمحمد يكون فاتحاً لهذا البيت ويشتهر فى زمانه ويكون له شأن)^(٣) وقال مرة أخرى : (الحنفى خامس خليفة من بعدى) إنها مدرسة الإمام أبى الحسن نديم الحضرة الإلهية الذى كان يناجى ربه كما يقول فى حزيه : (أسألك أن تغيبنى بقريك منى حتى لا أرى ولا أحس بقرب شيء ولا يبعده عنى إنك على كل شيء قدير).

ويعد :

فإنى لم أحاول أن أعرف بسيدى أبى الحسن فسيدى أبو الحسن هو شمس المعرفة، وإنى لأعتذر إلى مقامه الرفيع إذ قصرت فى الحديث عنه. إنما هى ومضات تجذب قلوبنا إليه فى عليائه، فإليك يا سيد العارفين يا سيدى أبا الحسن أتوجه بالرجاء وأنت فى حضرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأن تهبنا نظرة العطف والإمداد لتكون فى معيتكم المباركة مشمولين بعطفكم فى الدنيا ويوم الدين. رضى الله عنكم وعنا بكم آمين.

(١) انظر جامع الأصول لسيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى ص ٨٣.

(٢) انظر : الأنوار القدسية للشيخ عبد المجيد الخانى والشيخ يعقوب السنهوتى ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٣) انظر المفاهر العلية للشيخ ابن عباد : ص / ٢١ .

قطب الأرض في وقته :-

سيدى داود الأعزب رضى الله عنه

على القدم المحمدى سار خواص هذه الأمة الذين سجدت قلوبهم فى محاريب الولاء والاصطفاء وارتقت أرواحهم فى معاريج القدس والصفاء، حيث اتصلت بالمحبيب الأعلى وحظيت بالأنس والإشراق، فاكتملت عبوديتها لمولاهما بفنائها فى حضرته، ثم عادت إلى الأكوان ربانية ملكوتية؛ لتشع أنوارها فى الوجود، وتجذب المنقطعين إلى رحاب القدس، وتحرر الأرقاء من عبوية النفس، وتشرق ثم تشرق، وتمد ثم توصل، إنها رسالة الورثة المحمديين أقطاب خير أمة أخرجت للناس. رضى الله عنهم وأمدنا بمددهم لتسير فى ركبهم وتحت لوائهم فى الدنيا ويوم الدين.

من أعلام أولئك الأئمة الأقطاب إمام جذبه الحق تعالى إلى حضرته واستخلصه لنفسه فوصل إلى الله وانقطع إليه واستمد من فيوضاته القدسية ونال عطاءه من الوراثة المحمدية فكان نعم المثل الصالح للسائرين على طريق العناية الربانية. إنه القطب العارف باب الفتوحات سيدى داود بن مرهف الأعزب رضى الله عنه وعنا به فى معية أحبابه المقربين.

هو أحد الأقطاب الواصلين الذين ازدهر بهم القرن السابع الهجرى، فكان حلقة متممة لسلسلة الولاية المحمدية، ومبعث إشعاع روحى غزا قلوب السالكين ويصائر المريدين، وقد تألق سنه فى فترة حفلت بثراء روحى فى شتى بقاع العالم الإسلامى. فحمل اللواء من سلفه الأخيار إلى خلفه الأطهار. وفيما بين تسلمه وتسليمه ضرب أروع أمثلة السلوك والتحقق ووصل إلى قمة الولاية والتمكين.

وسيدى داود ينتمى نسبه إلى البيت العلوى الشريف، فأبوه سيدى مرهف بن أحمد بن سليمان بن وهب الذى تمتد سلسلة نسبه إلى سيدى محمد بن الحنفية ابن مولانا الإمام على كرم الله وجهه (١).

وقد ولد سيدى داود رضى الله عنه سنة ست وستمئة هجرية، وكانت وفاته ليلة السابع والعشرين من جمادى الآخر سنة ثمان وستين وستمئة هـ .

أما أسرته فقد كانت تقيم بالحجاز حيث ولد سيدى داود فى (الصغرا) وترى هناك فى أحضان عشيرته التى كانت تضم نخبة زكية من أهل التقى والصلاح مثل والده الشيخ مرهف ووالدته السيدة سلمى، وكانت من القانتات العابدات. وخاله العارف سيدى محمد القصرى المدفون الآن بقويسنا وزوجة خاله المذكور السيدة حامدة المدفونة بأسنيت، والسيدة صالحة شقيقته ووالدة خليفته من بعده سيدى عمران - رضى الله عنه - الذى هو مدفون إلى جواره فى ضريحه الأبور بتفهن العزب غربية.

وحين قدم سيدى داود إلى مصر وقد استوى عوده وتأهل للتربية الصوفية: التقى بشيخه القطب العارف سيدى أبى السعود بن أبى العشائر رضى الله عنه، الذى يعد قمة شامخة من قمم الولاية فى القرن السابع، إذ يقول عنه الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته : (هو من أجلاء مشايخ مصر المحروسة وكان السلطان ينزل إلى زيارته، وتخرج بصحبته سيدى داود المغربى وسيدى شرف الدين وسيدى خضر الكردى ومشايخ لا يحصون، وكان يسمع عند خلع نعليه أنين كآنين المرض فسئل رضى الله عنه عن ذلك فقال : هى النفس نخلعها عند النعال إذا اجتمعنا بالناس خشية التكبر) وصام فى المهدي رضى الله عنه .. (٢) اهـ.

هذا هو شيخ سيدى داود الذى تربى على يديه ونال فتحه الإلهى. ونستطيع -

(١) انظر : طبقات الأولياء لابن الملقن بتحقيق وتعليق نور الدين شريعة : ص ٤٧٥ وانظر : الخطط التوفيقية لملى مبارك ٣٩/١٠.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه ١٣٧/١.

فى ضوء ما ذكره الإمام الشعرانى عن سيدى أبى السعود - أن نستجلى بوضوح صورة المرشد والمربي الذى تخرج من مدرسته الروحية أئمة وأقطاب ومشايخ لا يحصلون كما نستجلى أيضاً نوعية هذا المنهج السلوكى الذى تربى به سيدى داود فى مدرسة شيخه القطب بن أبى العشائر.

فهذا المنهج يعتبر فى جوهره امتداداً لمنهج القطب العارف سيدى أحمد الرفاعى رضى الله تعالى عنه الذى من أبرز سماته :- التواضع والفتوة وفناء النفس فى طاعة الله، والأخذ بالعزائم والتخلق بمكارم الأخلاق وخرق العادة وبذل الطاقة فى خدمة المسلمين.

ومن ثم نستطيع أن ندرك سر التجرد الذى يمثل أبرز سمات القطب الأعزب، والذى من أجله آثر العزبة على التأهل حتى لقب بالأعزب أو العزب.

فلم يكن فى حياته متسع لزوجة ولا لولد، إذ كان مولاه هو شغله الشاغل الذى ملك كليته .

وظاهرة العزبة نجدها خصوصية عند بعض أكابر الطريق كسيدى أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقي وسيدى أبى يزيد البسطامى وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين، وإن دلت هذه الظاهرة على شىء فإنما هو التجرد الكامل من عارف لا يرى فى نفسه بقية يهبها لغير الله، وليس لديه من الاستعداد ما يمكنه من القيام بأعباء التأهل ومتربياته، فصرف حياته لمولاه الذى استأثر به لنفسه فلم يشأ أن يجعل لغيره منه حظاً.

ومن منطلق التفرغ والتجرد نعبر إلى ساحة مليئة بالنور نضاحة بالإشراق حافلة بالإمدادات، ونقف على مشارف فتح إلهى مطلق لم يحظ به فى كل عصر إلا فرد واحد هو صفوة ذلك العصر.

فيخبرنا الإمام المناوى رضى الله عنه عن مقام مولانا العارف داود قائلاً :-
(داود الأعزب: صوفى بحره طامى، ونور حاله لا يدركه مقدم ولا تالى) (١).

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٨٠/٢.

ثم يضع بين أيدينا وثيقة التفرد الأسمى لسيدى داود، حيث يقول رضى الله عنه : - (بشر به قبل وجوده أبو الحجاج الأقصرى فقال : ليظهرن داود الأعزب يكون قطب الأرض والقائم بالوقت) (١) !!

لله درك يا سيدى داود. فأنت واحد الدنيا فى عصرك ونخبة الله من خليقته فى زمانك !.

إن مرتبة القطب هى ذروة مراتب الولاية. وفى تعريف القطب يقول سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى شيخ أستاذنا الشيخ جودة إبراهيم قدس الله سرهما: القطب هو الواحد الذى هو موضع نظر الله من العالم فى كل زمان، وهو على قلب إسرافيل عليه السلام.

وهكذا سبقت البشرى بالقطبية من سيدى أبى الحجاج رضى الله عنه الذى كان قطب زمانه قبل سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه مباشرة ، وانتقلت القطبية منه إليه كما أوضحت فيما سبق عن القطب الشاذلى رضوان الله عليه.

ولم تكن هذه البشرى من سيدى أبى الحجاج وحدها هى شاهد التفرد وسمو منزلة القطب الأعزب. وإنما عانقتها شواهد وشواهد لا تخضع للحصر.

لقد كان سيدى داود من أقطاب القرن السابع الذى شهد عيون الولاية وشوامخ أعلام الصوفية، وكان طبيعياً أن نجد صدى منزلته وولايته لدى أئمة التصوف فى هذا القرن. ولولا ظاهرة الخفاء التى ناطت بتاريخ التصوف فى كثير من أحقابها لوجدنا من مناقب سيدى داود الكثير والكثير.

ومن بين ما تسرب إلينا من مناقب القطب الأعزب ما ذكره بعض الصوفية من أنه قد توافر لسيدى داود أن يلتقى بقمة الولاية الشامخة فى هذا القرن .

أعنى مولانا سلطان الأولياء سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه وعنا به . فيروى أن سيدى أحمد البدوى حين قدم من العراق إلى مصر أقبلت إليه وفود

(١) المصدر الأخير نفسه .

الأولياء مهنته، ومبايعة له بإمامته للأولياء في عصره. وكان من بين من قدم لتهنئته: سيدي داود الأعزب رضى الله عنه. بيد أنه لم يأت إليه إلا عقب الوفود جميعاً. فسأله مولانا البدوي عن مجيئه آخر الوفود. فقال سيدي داود: جرت العادة يا سيدي أن يأتى الملوك أولاً ثم الخدم والعبيد ثانياً لا فرد عليه سيدي أحمد البدوي قائلاً: لا يا داود، بل الخدم والعبيد أولاً ثم الملوك ثانياً (١).

لله ما أرفع أدب الأولياء وما أجل تواضع العظماء لا من هذه الواقعة ينعكس لنا طابع التواضع الفريد عند سيدي داود الذي دفع به إلى الصدارة وجعله في مصاف الملوك. ملوك الولاية وسلاطين المعرفة.

ومن ثم يتضح جلياً مقام سيدي داود. وعند من ؟؟ عند سلطان الأولياء الذي جاوز مقامات الولاية جميعاً وكان معدوداً من أفراد العالم.

وأقصد بتلك الإشارة الرد على تساؤل يمكن أن يطرح . وهو : إذا كان سيدي داود آنذاك هو قطب الوقت فما مقام بقية الأقطاب؟ نقول إنه من المقرر عند الصوفية أنه ما من مقام إلا وفوقه مقام حتى تنتهي الحدود المرسومة ويبقى من الكمالات ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وهناك يحلق الأفراد والملازمة وغيرهم، ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ (١).

كذلك نجد ونحن بصدد التعرف على منزلة سيدي داود في الولاية كثيراً من شواهد العروج إلى القمة.

فيروى أصحاب الطبقات أن سيدي إبراهيم الجعبري رضى الله عنه - وهو من أجلاء الصوفية المتمكنين - قد اجتمع بسيدي داود رضى الله عنه حين قدم مصر. فسئل سيدي إبراهيم عن سيدي داود بعد اجتماعه به فقال : (ما أقول في سبع من لم يلتزم معه الأدب يفترسه) . ثم أضاف قائلاً : (دخلت عليه يوماً فنسيت ما معى من العلوم) (٢) لا .

(١) سورة المدثر / ٣١.

(٢) انظر . الكواكب الدرية للعلامة المناوي : ٢ / ٨٠ نشر المكتبة الأزهرية للتراث.

لا شك أن هذه الواقعة تصور لنا مدى رسوخ سيدي داود وتقديره في العلوم الدنيوية إلى حد ينسى معه عارف كالمشيخ الجعبري ما لديه من العلوم بمجرد الدخول عليه.

ولقد كان من الشواهد البارزة على سمو مكانة سيدي داود أيضاً ما سمعته من بعض الصوفية المعاصرين الثقات من أن شيخى وقدوتى إلى الله القطب العارف مولانا الشيخ جودة إبراهيم شيخ الطريقة النقشبندية قدس الله سره: كان يزور ضريح سيدي داود رضى الله عنه ببلدة تفهنا العزب على مدى أربعين عاماً ويشهد بولايته العظمى.

وعن تحقق سيدي داود بمقامات الولاية العظمى يروى لنا العارف المناوى رضى الله عنه أن سيدي داود رضوان الله عليه قال : (مددت رجلى يوماً فتوديت من يجالس الملوك لا يسىء الأدب)^(١) ۱۱

إنه نداء الحضرة الريانية الذى سبق أن نودى به سيدي أبو يزيد البسطامي رضى الله عنه وغيره من أئمة هذا الطريق ، وهو نداء لا يصدر إلا للكمل من الرجال إيذاناً بأن الولي صار من أهل الحضرة وصار جليس مولاه فلا يجالسه إلا على أكمل حال حيث قمة المراقبة والحضور.

ولقد كان لسيدي داود رضى الله عنه لسان عال في الطريق وإشارات لدنية تخترق حجب النفس والقلب والروح لتتفد إلى أعماق السر وترويه بماء الحكمة المرفانية وترفع عنه الحجب والمساتير كي يمضى على طريق العناية إلى أسمى غاية. فكان رضى الله عنه يقول : (إذا قام الولي من قبره أتته خلع الرضا ونشر قدومه لواء ما بين المشرقين ونادى جاويشه بين يديه للمحشر)^(٢).

وكان يقول قدس سره : (إذا رأيتم جاه الرجل قائماً بعد وفاته فاستدلوا به على نفعه في الآخرة)^(٣).

(١) المصدر السابق : ٨١/٢ .

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٨٠/٢ .

(٣) المصدر الأخير .

وفى بيان الشكر على نعم الله وربطه بدوامها أثر عن سيدى داود أبيات رواها
سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى كتاب البحر المورود قائلًا : (وكان
سيدى داود العزب ينشد : -

إذا رزق الله الفتى ما يصونه وسلمه من فتنة وضلال
وعافاه مع أمن وأصبح شاكيًا لدقة حال أو لقلّة مال
فقل نعم إن أنت أحكمت قيدها بشكر ولا آذنت بزوال^(١)

وتحدث سيدى داود عن المريد الصادق ولكنه حديث الخواص الذى لا يتأهل
له إلا من شرب من شراب القوم وخاض فى بحارهم وارتفعت روحه بالعبادات عن
نطاق العادات يقول عليه الرضوان : (علامة العارف الطيران فى الهواء والمشى
على الماء والإنفاق من الغيب وكون الدنيا بين يديه كالقصعة يتصرف فيها كيف
يشاء ويرى ظاهرها من باطنها كالقنديل)^(٢) .

ولا جدال فى أن منطق المحجوبين عن الله يستبعد كل هذه المفاهيم فى
تعجب واستكار. ولكن من قال أن عين الضير حجة على عين البصير ؟؟ إن هؤلاء
الصفوة الأولياء هم أمناء الله فى عباده ونخبته من خليقته أودعهم سره وأغدق
عليهم من عطايه وبره.

فأى عجب فى أن يذلل لهم طبائع الأشياء وقد ذللوا طبائعهم فباتوا فى حبه
هائمين ومن خشيته مشفقين وبحقوقه قائمين^(٣).

ولست مع البعض الذى يتراجع عن موالة الأولياء ونصرتهم والقيام بحقوقهم
بذكر وكشف النقاب عن مآثرهم وخوارقهم مهما كانت بعيدة التصور فى نظر
المحجوبين مادامت على منهاج الشريعة الفراء.

(١) انظر : البحر المورود فى المواثيق والمهود للإمام الشعرانى - بهامش كتاب (لواقح الأنوار القدسية فى بيان
العهود المحمدية) له أيضاً ص ١١٢ ط/ الميمنية.

(٢) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى ٦٤/٢.

ولست أيضاً مع من يقدح في إظهار مراسيم الحب للأولياء والتبرك بآثارهم
مادام الحب في الله ولله هو المقصد والغاية.

فالتبرك استمداد من عطاء الله الذي منحه لأحبابه، وذكر الكرامات
والخوارق تدليل على محبة الله لأوليائه ومناصرتهم لهم.
وانطلاقاً من هذا المنطلق الواضح والمحدد نتبرك بذكر بعض كرامات مولانا
القطب الأعزب :-

. ذكر العارف المناوي في مناقب سيدي داود من طبقاته: إن من كراماته رضى
الله عنه أنه استضافه إنسان وذبح له رأس غنم وجاء له به فقال ارفعه. فتبين أن
غنمه اختلطت بغيرها فكان المذبوح من ذلك الغير (١) .

وهذا يذكرنا بالإمام المحاسبي رضى الله عنه الذى قال عنه الإمام أبو على
الدقاق : (كان الحارث إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه عرق فكان يمتنع
عنه) (٢) .

إنها قمة الورع التى وصلها أقطاب الصوفية وحدهم بما نالوه من إرث النبوة.
ومن كرامات سيدي داود أيضاً : أنه صنع له إنسان طعاماً فذبح له شاة فعلم
والده فحنق من ذلك، فلما جرى له به قال لأصحابه : (كلوا اللحم واجمعوا العظم
ولا تكسروا منه شيئاً) فلم يشعر به إلا وهو يرمى مع الغنم (٣) .

ومن كراماته رضى الله عنه أيضاً : أن امرأة جاءت به بولد قد تعوجت يداه
ورجلاه وقالت إن والده ينكره لما ناله فما ترى ؟ فأحضروا والده فقال له سيدي
داود : إن برئ من ذلك تستلحقه؟ قال نعم : فوضع يده على الولد فقام صحيحاً
سليماً (٣) .

(١) انظر : الكواكب الدرية للإمام التبهاني : ٨٠/٢ .

(٢) المصدر السابق ٨١/٢ .

(٣) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام التبهاني ٦٤/٢ .

وذكر الإمام المناوى أيضاً أن من كرامات سيدى داود : أن ابن الحبشية واقع جارية له سوداء فأتت ببنت. فقال لها : إن قلت إنها منى قتلتك. ثم دخل على الشيخ فقال له الشيخ : أرى جارية بالباب تشكو منك. اختر إما الصلب أو الضرب. فخرج من عنده فلقية أمير البلد فضربه كما قال الشيخ رضوان الله عليه ^(١). إنها مكاشفات الأولياء وخوارقهم وتصريفهم النافذ الذى منحهم الله إياه قد بدت أجلى من الشمس فى وضوح النهار على يد سيدى داود الأعزب الذى بلغ علياء التفرد والتمكين فلقب بعدة ألقاب تشير إلى سمو منزلته مثل : (باب الفتوحات) و (خامس الأقطاب) أى الأقطاب الأربعة : سيدى أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقي وسيدى عبد القادر الجيلانى وسيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين.

كذلك لقب بـ (سياف الأربعة) أى منفذ أحكامهم الباطنية التى يصدرونها عن إلهام من الله. وله غير ذلك من الألقاب والمآثر مما هو مذكور فى مناقبه رضى الله عنه.

ويعد :

فهذا قليل من كثير عن سيد من سادات الصوفية الأمجاد وأعلامهم الأفراد الذين اصطفاهم ربهم لحضرته، ومنّ عليهم بمعرفته .

وقد وقف بنا العجز عند ساحل البحر لتطلع إليه فى شوق وأنبهار على قطرات من فيضه الزاخر تصيب جذب قلوبنا فتحييها بالنور والمعرفة.

رضى الله عنكم يا سيدى داود وأمدنا من بحار أنواركم وأظلمنا بلوائكم المحمدى فى معيتكم الشريفة وغمرنا بعطفكم دنيا وآخرة ببركة سيدنا ومولانا محمد رحمة العالمين - صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وورثته الطيبين الطاهرين.

★ ★ ★

(١) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى : ٨١/٢.

القطب النبوى سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه

فى أعلى قمة الولاية لله عز وجل تربع الأقطاب المحمديون الذين سبحت أرواحهم فى محيط النور المحمدى وجالت قلوبهم فى حضرة الجمال القدسى فاستمدت ذواتهم من نور الأنوار وشربت من رحيق الأسرار، وتحققت بكلمات الإرث المحمدى الذى نالت بفضلته شرف الإمامة وتريعت على عرش الكرامة. أولئك هم خواص الحق تعالى الذين استخلصهم لنفسه ونادهم على بساط قدسه. وجعلهم شهود حضرته وجنود مملكته. لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير.

وفى الذروة العليا ممن تربعوا على عرش الولاية الربانية والوراثة المحمدية: الإمام العارف والفوت الفرد الجامع، قطب أقطاب الأولياء، وسلطان العارفين الأصفياء، باب الحضرة المحمدية، ومخصوص العناية الإلهية: السيد الحسيب النسيب سيدى ومولاي السيد أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه.

وهو طلسم الولاية العظمى وكنز العرفان الأسمرى، النور المحمدى السارى فى آفاق الوجود، السر المكتم صاحب الكشف والشهود. رضى الله عنه، وأمدنا بمدده وعمنا بفضلته وجعلنا تحت لوائه فى الدنيا ويوم الدين.

إن الحديث عن قطب الأولياء مولانا السيد البدوى رضى الله عنه مهمة بالغة الخطورة. ولا طاقة لإنسان أن يؤديها حق الأداء. ذلك لأنه لم يتأت بعد لعامة الأولياء - فضلاً عن غيرهم- أن يحيط علماً بمقام القطب البدوى. فكيف يتحدث عنه ؟ وكيف تقف العقول على حقيقة مقام من خصه الله بالولاية العظمى واستمدت ذاته الشريفة من ذات الرسول صلى الله عليه وسلم عطاءها الربانى فتخطى كل مقامات الولاية وحاز الإمامة الكبرى على الأقطاب طرا.

إن سلطان الأولياء سيدى أحمد البدوى هو الإمام الذى تمثلت فى شخصيته العظمى كل مقومات الولاية، وتضافرت له كل عناصر الخصوصية الاصطفائية. فهو أكبر من يمثل الجانب الباطنى للحضرة المحمدية فى محيط الولاية. من أجل ذلك: وانطلاقاً من مضمون تلك الحقائق، فالحديث عن سيدى أحمد البدوى - من حيث حقيقة مقامه- لا تسعه العقول؛ لأن مقامه فوق مستوى إدراكات العقول. وإن كل من تحدثوا عن مولانا السيد البدوى من أقطاب الولاية لم يكشفوا اللثام عن حقيقة ما عرفوه فضلاً عما استأثر الله تعالى بعلمه. وإنما تناولت الأقلام شيئاً مما حفظه التاريخ عن سيرة هذا الإمام، وشيئاً مما لاح لأهل القرب من بعض أحواله ومعارجه وكراماته. لذلك نجد أن ترجمان التصوف سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه قد استهل الحديث عن مولانا السيد فى طبقاته بقوله : (وشهرته فى جميع أقطار الأرض تقنى عن تعريفه، ولكن نذكر جملة من أحواله تبركاً به ..)^(١).

إن اجماع الأمة منعقد على إمامة القطب البدوى للأولياء وعلى بلوغه الذروة العليا فى الولاية والمعرفة. بيد أن حقيقة السيد لم يقف عليها عارف. وحسب الناس أن يستضيئوا بنور الشمس ولا عليهم أن يحيطوا بجوهرها أو يصلوا إلى كنهها، إذ لا طاقة لهم على التحديق فيها بأبصارهم عن بعد فكيف لو اقتربوا ٩٩٩.

أما فيما يتعلق بالجانب التاريخى من حياة مولانا السيد : فأول ما نقف عليه هو أن سيدى أحمد البدوى سليل آل بيت النبوة. فهو السيد الشريف أبو العباس سيدى أحمد بن سيدى على البدرى بن السيد إبراهيم بن السيد محمد الذى ينتهى نسبه إلى سيدى على الرضا بن سيدى موسى الكاظم بن سيدى جعفر الصادق بن سيدى محمد الباقر بن سيدى على زين العابدين ابن مولانا الإمام الحسين سبط الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم أجمعين^(٢).

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ١/ ١٥٥.

(٢) انظر سياق التمسب الأحمدي محققاً - مفصلاً فى كتاب (المعارج القدسية فى المناقب الأحمديّة : حقيقة القطب النبوى السيد أحمد البدوى رضى الله عنه) للفقير إلى الله تعالى مؤلف هذا الكتاب : الجزء الأول : ص ١١٢-١١٣ ط/ الأولى .

وهذه النسبة الشريفة مجمع عليها من أئمة المؤرخين وجهابذة المحققين،
وسادة الصوفية العارفين. حيث ذكرها ابن خلكان والمقريزي وابن أزيك الصوفي
والإمام السيوطي والإمام الشعراني وغيرهم.

وقد ولد سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه بمدينة (فاس) بالمغرب سنة
ست وتسعين وخمس مائة هجرية (١١٩٩ م). وقد هاجر أجداده رضي الله عنهم من
الحجاز إلى بلاد المغرب على أثر اضطهاد العباسيين للأشراف العلويين. فاستقرت
الأسرة ببلاد المغرب واستوطنت (فاس) سنة خمس وثلاثين وخمس مائة هـ.
وشهدت مدينة فاس مولد قطب الأقطاب أبي الفتيان نادرة العصر وغوث الزمان.
ولد وعلى مفرقه تاج الولاية، وفي أنفاسه عبير شجرة النبوة. فأشرق بنوره
الأرجاء، وباهت الأرض بمولده السماء. إنه القطب البدوي نفحة النور من سيد
الأنبياء .

ولقد نشأ أبو الفتيان في أحضان الرعاية ببلاد المغرب وشرع في حفظ
كتاب الله تعالى والتفقه في الدين واقتفاء أثر أسلافه الطاهرين. وما أن بلغ سيدي
أحمد السابعة من عمره حتى حان انتقاله مع أسرته إلى رحاب بيت الله الحرام
حيث سمع أبوه قائلاً يقول له في منامه : (يا علي انتقل من هذه البلاد إلى مكة
المشرقة فإن لنا في ذلك شأنًا) (١).

وانتقلت الأسرة المباركة. وكانت مكونة من عشرة أشخاص : سيدي علي
البدري، وزوجته السيدة فاطمة الشريفة، وأبناء ثمانية: أكبرهم سنًا سيدي الشريف
حسن، وآخرهم مولدًا وأكبرهم مقامًا سيدي أحمد البدوي، وأخوهما السيد محمد.
ثم أخوات خمس هن : السيدة فاطمة والسيدة زينب والسيدة رقية والسيدة فضة
والسيدة أم كلثوم.

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضي الله تعالى عنه ١/ ١٥٥.
و النصيحة العلوية في بيان حسن طريقة السادة الأحمدية للإمام نور الدين العلي بتحقيق الشيخ أحمد عز
الدين خلف الله ص ٣٣ ط/ الأولى .

ويروى الإمام الشعراني عن سيدي الشريف حسن قصة العودة وما تلاها من أحداث، وأحوال لسيدى أحمد فى مكة فيقول : (قال الشريف حسن أخو سيدى أحمد رضى الله عنه فما زلنا ننزل على عرب ونرحل عن عرب فيتلقونا بالترحيب والإكرام حتى وصلنا إلى مكة المشرفة فى أربع سنين.. فتلقانا شرفاء مكة كلهم فأكرمونا ومكثنا عندهم فى أرغد عيش حتى توفى والدنا سنة سبع وعشرين وستمائة ودفن بباب المعلاة وقبره هناك ظاهر يزار فى زاوية- قال الشريف حسن- فأقمت أنا وإخوتى وكان أحمد أصغرنا سنأً وأشجعنا قلباً، وكان من كثرة ما يتلثم لقبناه بالبدوى. فأقراته القرآن فى المكتب مع ولدى الحسين ولم يكن فى فرسان مكة أشجع منه وكانوا يسمونه فى مكة العطاب. فلما حدث عليه حادث الوله تغيرت أحواله واعتزل الناس ولازم الصمت فكان لا يكلم الناس إلا بالإشارة)^(١) اهـ.

ولنقف قليلاً عند هذه الأحداث التى عاشها سيدى أحمد فى مكة والتى ورد بعضها فيما رواه سيدى حسن الأكبر: لقد كان الأمر بالانتقال إلى مكة ذا دلالة عميقة المفزى بالنسبة لسيدى أحمد على الخصوص. إذ شاء القدر أن تكون نقطة البدء الروحى لسيدى أحمد فى مكة بجوار بيت الله الحرام حيث مهبط الوحي وحيث كان بدء النبوة. وبما أن سيدى أحمد على القدم المحمدى فلا بد أن يكون فتحه محمدياً بمعنى الكلمة. فيكون المنطلق المكانى لولايته هو نفس المنطلق المكانى لنبوة جده - صلى الله عليه وسلم. ففى مكة المناخ الروحى الذى يلائم ميلاد الفتح الأكبر عند سيدى أحمد.

وفى جوار بيت الله الحرام أتم مولانا شيخ العرب حفظ القرآن الكريم وأتقن علم القراءات، وتفق على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه، وتعلم الفروسية حتى كان هو فارس مكة وشجاعها الذى لا يبارى. ومن ثم أطلق عليه لقب (العطاب) و : (محرش الحرب) . ولقد ذكر أمامه يوماً أن جده سيدنا علياً كرم الله وجهه كان يضرب فى القتال بسيفين معاً، فاتفق وقوع حرب بمكة فخرج سيدى أحمد وضرب بسيفين حتى تعجب الناس من شجاعته^(٢).

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضى الله عنه ١/ ١٥٥.

(٢) انظر النصيحة العلوية للإمام الحلبي ص / ٣٥.

ولقد ضرب أبو الفتيان سيدى أحمد أروع الأمثلة فى ميدان الجهاد الروحى، والسلوك الصوفى وهو لم يزل بعد فى ريعان الصبا ومطلع الفتوة. فلقد كان يلعب بالزاهد وهو لم يتجاوز بعد السابعة من عمره قبل أن يقادر (فاس) . وفى ربوع مكة أطلق لروحه العنان فأقبل على المجاهدات والطاعات بعزيمة الرجال، وأخذت روحه تستمد الفيض الإلهى وتقتبس من نور الأنوار حتى صارت نوراً محضاً. ومن شدة نوره كان يتلثم بلثامين بحيث لا يرى الناس منه إلا عينيه. ومن ثم لقب بالبدوى لتواحق مظهره مع مظهر البدو. بيد أنه يخفى شواهد الحقيقة البادية فى محياه النورانى، ويتستر عن الخلق إذ لا معاملة له إلا مع الخالق (١).

لقد تحول سيدى أحمد بكليته إلى الله وانقطع إليه، ولازم الصيام ظاهراً وباطناً. والصيام الباطن عند أهل الحقيقة هو الإمساك عما سوى الله. ولقد بلغت مجاهداته إلى حد أنه كان يطوى أربعين يوماً لا يتناول طعاماً ولا شرباً ولا يذوق نوماً (١). لقد سرت إليه نفحات : (أبييت عند ربى يطعمنى ويسقبنى). إنه مع الله يتعبد له ويتقرب إليه ويأنس به.

وكثيراً ما كانت خلوته الصوفية فى مغارة بجبل أبى قبيس بالقرب من مكة. حتى لقد ذكر أبو السعود الواسطى فى تاريخه أن سيدى أحمد قد فتح عليه بجبل أبى قبيس (٢).

إنه الفتح الأكبر الذى استغرق بعده مولانا السيد فى مشاهدة أنوار الذات العلية، والمكوف فى الحضرة القدسية. عند ذاك ظهر عليه الوله ولازم الصمت وصار لا يكلم الناس إلا بالإشارة. ولقد روى القطب الشعرانى فى طبقاته أن بعض العارفين كان يقول عن سيدى أحمد البدوى : (أنه رضى الله عنه حصلت له جمعية على الحق تعالى فاستغرقته إلى الأبد . ولم يزل حاله يتزايد إلى عصرنا هذا) (٣).

(١) انظر : النصيحة العلوية للإمام نور الدين الحلبى : ص/٤٢.

(٢) انظر . الجواهر السنية للشيخ زين الدين عبد الصمد الأحمدي ص ٧.

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ١/١٥٥.

لقد وصل القطب البدوي إلى قمة الولاية وسجد قلبه لله إلى الأبد وصار
وحداني الذات متفرداً بأعلى المقامات، وصارت حياته كلها وقفاً على الطاعة
والمشاهدة فلم تتسع حياته لأى شاغل آخر مهما كان. ولقد عرض عليه أخوه سيدى
الشريف حسن الزواج فأبى وقال : (أنا موعود بالألا أتزوج إلا من الحور العين). إن
سيدى أحمد قد نذر نفسه لله بالكلية، وأثر حق مولاه على حق نفسه، وأثر أن يبيت
لربه ساجداً وقائماً ذاكراً وقائماً. إنه النموذج الفذ والصورة المثلى لولى الله. لقد
صار منصرفاً بكليته إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق فى سره، ومن
ثم لقب بالقدسى.

ثم ذات يوم وفى شهر شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة رأى سيدى أحمد فى
منامه - ثلاث مرات - قائلاً يقول له : (قم واطلب مطلع الشمس - أى العراق - فإذا
وصلت إلى مطلع الشمس فاطلب مغرب الشمس وسر إلى طندتا فإن بها مقامك
أيها الفتى)

ويقص سيدى أحمد رؤياه على أخيه سيدى حسن الأكبر فيشفق عليه من
زيارة العراق؛ لأنها برزخ الأولياء وبلاد الصالحين، وكثيراً ما يقع من أرباب الأحوال
مبارزات باطنية ومعارضات روحية لا يسلم منها إلا فحول الرجال. ولكن الهاتف
يعاود سيدى أحمد فى الليلة التالية ويقول له فى منامه (يا أحمد يا بطل - أى يا
بطل - لا يخاف من الرجال إلا من لا وراءه رجال وأنت وراءك رجال وأى رجال)
وهللت البشائر باستقبال أقطاب العراق للقطب البدوي. فجاء سيدى عبد القادر
الجيلانى وسيدى أحمد الرفاعى فى منامه وقالاه : (يا أحمد : قد جئناك
بمفاتيح العراق واليمن والهند والسند والروم والمشرق والمغرب بأيدينا فإن كنت
تريد أى مفتاح شئت أعطيناك لك) فقال لهما سيدى أحمد رضى الله عنه (أنا
منكما .. ولكن أنا ما آخذ المفتاح إلا من يد الفتاح)^(١) لا إنها مفاتيح التصريف

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشمرانى ١٥٥/١ والجواهر السنية للشيخ عبد الصمد الأحمدي : ص ٤٩ ط/صبيح.

الباطنى والزعامة الروحية، يأبى سيدى أحمد أن يقالا إلا من يد مولاه؛ لأنه لا معاملة له إلا مع الله. وانطلق الركب إلى العراق. وصاحب سيدى أحمد أخوه سيدى الشريف حسن فوصلا العراق فى ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وستمئة هـ.

وأقبل مولانا السيد وأخوه على زيارة آل البيت وأقطاب الولاية بالعراق . فزارا جدهما السيد موسى الكاظم وسيدى عبد القادر الجيلانى وسيدى الحسين ابن منصور الحلاج وسيدى عدى بن مسافر وتاج العارفين أبا الوفاء والشيخ موسى الزوالى وسائر الأولياء والصالحين. ثم واصلا السير إلى قرية (أم عبيدة) لزيارة سيدى أحمد الرفاعى رضى الله تعالى عنه.

وهناك توجه النداء الباطنى لسيدى أحمد من القطب الرفاعى يشير عليه بالتوجه إلى فاطمة بنت برى بالعشائر فى شمال العراق لتقويم سلوكها المعوج وتأديبها بالحوال. وفاطمة بنت برى كانت سيدة من أرباب الأحوال وكانت تتمتع بقسط وافر من الجمال والثراء. إلا أنها اشتهرت بأسلوب غريب فى الإيقاع بغير المتمكنين من الرجال. حيث كانت تتعرض بجمالها وفتنتها لمن تلقاه من أهل التقى والصلاح فإذا ما وقع فى شركها سلبت منه حاله وضيعت عليه رأس ماله فى الطريق. وقد تجمع حولها قومها وأنصارها يؤازرونها فى مسلكها الخاطئ. بيد أن حق الشرع لا يذهب هباء. فلم يرتض أقطاب الولاية ذلك المسلك المنحرف فأشار قطبا التصريف (الرفاعى والجيلانى) على أبى الفتیان بدرء هذه الفتنة. فذهب إليها وودع أخاه الشريف حسن حيث هو عائد إلى مكة. وما أن وصل سيدى أحمد إلى بنت برى ووقع نظرها عليه حتى أحست بنهاية أمرها. حيث وجدت أن ما لديها من حال أمام أحوال بطل الرجال لا يمدو ذرة بجوار شامخ الجبال. فلقنها بحاله وكراماته الدرس القاسى وثأر لمن سلبتهم من الرجال بأن سلبها ما معها من حال فلم تملك إلا أن تابت على يديه وأنابت وكان يوماً مشهوداً بين الأولياء حيث عرفوا منزلة السيد قطب الأقطاب^(١).

(١) انظر تفصيل قصة أبى الفتیان مع فاطمة بنت برى فى كتاب (المعارج القدسية فى المساقب الأحمدية) للفقير إلى الله تعالى مؤلف هذا الكتاب الجزء الأول ص / ١٩٠.

وعاد سيدي أحمد بعد رحلة العراق إلى مكة وقد تزايد حاله واستغراقه واتسع مدده وزاد نطاقه. حتى لقد أيقظت أخته السيدة فاطمة أخاها الشريف حسن ذات ليلة من نومه وقالت له (يا ابن والدي : إن أخى أحمد قائم طول الليل وهو شاخص ببصره إلى السماء ونهاره صائم، وانقلب سواد عينيه بحمرة تتوقد كالجمر، وله مدة أريعين يوماً ما أكل طعاماً ولا شرباً) لقد برح الوجد والوله بسيدي أحمد وطال صمته واستغراقه وصار لا يتحدث إلا بالإشارة. إن روح القطب البدوي في عروج مستمر، ومقامه في ارتقاء دائم. إنه يعيش في عالم آخر ويسبح في ملكوت الله بروح العارف المتأمل .

وذاث ليلة من رمضان سنة أربع وثلاثين وستمائة هـ: رأى سيدي أحمد رضى الله عنه الهاتف في منامه يقول له (يا أحمد سر إلى طندتا فإنك تقيم بها وترى رجالاً وأبطالاً: عبد العال وعبد الوهاب وعبد المجيد وعبد المحسن وعبد الرحمن. رضى الله عنهم أجمعين)^(١).

ودخل شيخ العرب طنطا سنة ٦٣٥ هـ لتغمر أنواره هذه البقعة المباركة التي اختارها الله مثوى لهذا القطب العظيم . ونزل سيدي أحمد بدار الشيخ ركن الدين ابن شحيط المعروف بالشيخ ركين. واتخذ مولانا السيد من سطح دار ابن شحيط مقراً لإقامته ومنطلقاً لدعوته ومركزاً لتربية أبنائه ومريديه. ومن ثم فقد عرف أتباعه السادة الأحمدية بالسطوحية . وحين دخل السيد طندتا كان بها أولياء وعارفون. وقد سلم أكثرهم لسيدي أحمد بولايته، وتصريفه كسيدي سالم المغربي وسيدي حسن الصائغ فأقرهم على ولايتهم. أما من اعترض منهم على سيدي أحمد كصاحب الإيوان المعروف بوجه القمر فقد سلبهم السيد حالهم عقاباً لهم.

وأقام سيدي أحمد البدوي رضى الله عنه على السطح مدة اثنتى عشرة سنة يدعو الخلق إلى الله تعالى ويربى أئمة وأقطاباً ملأوا الدنيا علماً ونوراً وولاية وتحققاً. كان السطح أشبه ما يكون بمسجد الصفة التي كان يتعبد فيه صحابة

(١) انظر : الجواهر السنية للشيخ عبد الصمد الأحمدى : ص / ٦٠.

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وينقطعون لريهم ويعمرون جوف الأسحار
بالذكر والإنابة والاستغفار.

وكان سيدى أحمد البدوى هو الإمام المرى، والقائد المرشد والواله الأواب
والعاشق المستغرق. كان يبيت الليل شاخصاً ببصره إلى السماء وعينه متوقدتان
كالجمر، وروحه سابعة فى خضم الأنوار الإلهية، وقلبه جوال فى حضرة القدس،
وأنفاسه تهليلات وتسبيحات. وكان يرد عليه الحال فيصبح الصيحة تنخلع لها
القلوب وتزلزل الأعماق. إنها صيحة الوجد والوله.. صيحة العشق والمحبة.. ومن
فى العاشقين مثل سيدى أحمد.. مصطفى الحضرة الإلهية ومجتبى الوراثة
المحمدية ٩٩.

ومن فوق السطح سرت جاذبية النور من ذات السيد لتجذب قلوب الموعودين
بافتح الربانى. ولقد رى السيد من فوق السطح رجالاً وأبطالاً كانوا مع العناية
الإلهية على ميعاد.

وفى مقدمة من سرى إليهم المدد الأحمدي ونهلوا من محيط أنوار سيدى
أحمد البدوى: الإمام العارف قدوة المحققين وعمدة السالكين سيدى عبد العال
الأنصارى رضى الله عنه.. وأخوه القطب الواصل سيدى عبد المجيد رضوان الله
عليه. لقد كان سيدى عبد العال هو الابن القلبي الأول لسيدى أحمد وهو خليفته
الأعظم ووارث سره من بعده. فشيد أركان البيت ورتب الأشاير وعمر الزوايا
وقصده الناس بالزيارة من سائر الأقطار .

وأما سيدى عبد المجيد فقد نشأ فى فيشا المنارة مع أخيه سيدى عبد العال
وما أن قدم سيدى أحمد إلى طندتا حتى انجذب إليه ولازمه على السطح فتأدب
بآدابه وعرف إشاراته، وكان لا ينام الليل تبعاً لسيدى أحمد، وذات يوم وجد نفسه
مشوقاً لرؤية وجه سيدى أحمد وقد كان دائماً مثثماً بلثامين. فقال له : يا سيدى
أرنى وجهك أنظر إليه، فقال له : يا عبد المجيد كل نظرة برجل فقال يا سيدى

أرني ولو مت. فكشف له اللثام فوقاني فصق سيدي عبد المجيد ومات في الحال. مات شهيد نظرة من قطب الرجال (١).

مات شهيد المحبة والنور. إنها أول مرة يكشف فيها السيد اللثام فصعقت الأنوار واحداً من أعز أبنائه.

ومن أجل أبناء السيد في الطريق وخلفائه من بعده سيدي عبد الوهاب الجوهري ومقامه بالجوهري قرب محلة مرحوم. ومنهم أيضاً سيدي محمد قمر الدولة الذي قال له مولانا السيد : (أنت قمر دولة أصحابي) ومقامه ببلدة نضيا. ولقد تخرج على يد السيد من فوق السطح أولياء وعارفون لا يحصون عدداً وكلهم حمل أمانة الدعوة إلى الله على بصيرة فبثهم سيدي أحمد في البلاد منارات للهداية والعرفان وأقطاباً تلتمس منهم البركات في كل عصر وآن .

وأما عن شيوخ سيدي أحمد في الطريق واستمداده الروحي فلعله من نافذة القول - بناء على ما اشتهر وعرف لسيدي أحمد- أن نقول إن مولانا السيد : محمدي التربية فهو في مقدمة الأولياء الذين ربتهم روحانية الذات المحمدية وهو لذلك يأخذ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم بلا واسطة. بل إنه باب الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لا يمكن دخول الحضرة المحمدية إلا بواسطته . وإن كان هذا كله لم يمنع من أن السيد قد أخذ الطريق ظاهراً عن عدة مشايخ. فقد جمع سيدي الشريف حسن الأكبر بينه وبين الشيخ عبد الجليل النيسابوري بالمغرب فألبسه الخرقة (٢).

كذلك روى الإمام الحلبي أن سيدي أحمد قد تسلك على يد الشيخ برى أحد تلامذة الشيخ أبي نعيم البغدادي وأحد أصحاب سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه (٣).

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرائي رضي الله تعالى عنه ١٥٦/١.

وانظر : الكواكب الدرية للإمام المناوي ٦٤/٢ نشر الأزهرية للتراث.

(٢) انظر التصيحة العلوية للإمام الحلبي ص ٣٦.

(٣) المصدر نفسه : ص ٤٠/.

ولكن الأصل في تلقى مولانا السيد إنما هو عن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ولذلك كان سيدى أحمد رضى الله عنه يقول :

ليس لى شـيخ ولا لى قـدوة

غير خير الرسل طه الأول (١)

وثمة شواهد لا تقبل الحصر على عروج سيدى أحمد إلى الذروة في التمكين واستمداده من المحيط المحمدى مباشرة. ومن ذلك ما عبر عنه بقوله رضى الله عنه: (وعزة ربي إن سواقي تدور على البحر المحيط، لو نفذ ماء سواقي الدنيا ما نفذ ماء سواقي) (٢) ١١

ألا فلتنهأ أمة فيها سيدى أحمد البدوى. وناهيك بشهادة القطب المحمدى سيدى إبراهيم المتبولى رضى الله عنه على عظم منزلة مولانا السيد في مقام الفتوة إذ يقول : (وعزة ربي ما رأيت في الأولياء أكبر فتوة من سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه . ولذلك آخى بينى وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كان هناك من هو أكبر فتوة منه لآخى بينى وبينه)^(٣). إن مولانا السيد لم يتحدث عن نفسه ولا عن مقامه؛ لأن مشربه هو التواضع المحمدى. ولقد وقفت على سر إحجام السيد عن التحدث عن نفسه في كتاب ألفه القطب العارف سيدى أحمد الشرنوبى في مناقب الأقطاب الأربعة فذكر فيه حواراً جرى بين القطبين شقيقى الروح والمشرّب سيدى أحمد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقي رضى الله عنهما . فكان مما قاله سيدى أحمد لسيدى إبراهيم- بعد ذكر مناقب لا تسعها المقول - «أما تعلم أنك اخترت التكلم في الدنيا وأنا اخترت التكلم في الآخرة ؟؟ حقيقة إن مقام السيد لا يعرفه أحد في الدنيا . ورغم ذلك فقد تكفل سيدى إبراهيم الدسوقي رضى الله عنه بالإشارة لمنزلة سيدى أحمد حيث أثر عنه أنه كان يقول :

(١) انظر :كرامات وأوراد القطب النبوى السيد الشريف العلوى السيد أحمد البدوى . للشيخ أحمد عز الدين خلف الله ص / ١٦ ط / الأولى .

(٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشمرانى رضى الله عنه : ١٥٧/١ .

(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشمرانى : ٧٦/٢ .

فضل الله علينا عم

كل الجماعة تبع والسيد عم^(١)

وأما عن كرامات باب الرسول - صلى الله عليه وسلم : فهي لا تقع تحت حصر وكتب الطبقات حافلة بها فمنها مجيئه بالأسرى من بلاد الإفرنج. يقول الإمام الشمراني في طبقاته :

(وقد شاهدت أنا بعيني سنة خمس وأربعين وتسعمائة أسيراً على منارة سيدي عبد المال رضى الله عنه مقيداً مقلولاً وهو مخبط العقل فسألته عن ذلك فقال بينما أنا في بلاد الإفرنج آخر الليل توجهت لسيدي أحمد فإذا أنا به فأخذني وطار بي في الهواء فوضعتني هنا . فمكث يومين ورأسه دائر عليه من شدة الخلفة . رضى الله عنه)^(٢) .

ومنها أن ابن اللبان وقع في حق سيدي أحمد رضى الله عنه فسلب العلم والقرآن والإيمان فلم يزل يستغيث بالأولياء فلم يقدر أحد أن يدخل في أمره فدلوه على سيدي ياقوت العرشي فمضى إلى سيدي أحمد وكلمه في القبر وأجابه وقال له أنت أبو الفتيان رد على هذا المسكين رسماً له ، فقال بشرط التوبة . فتأبى ورد عليه رسماً له أى الإيمان والعلم والقرآن^(٣) .

ومنها ما ذكره القطب الشمراني بقوله : (وسبب حضوري مولده كل سنة أن شيخى العارف بالله تعالى محمد الشناوى رضى الله عنه أحد أعيان بيته رحمه الله قد أخذ على المهد في القبة تجاه وجه سيدي أحمد رضى الله عنه وسلمنى إليه بيده فخرجت اليد الشريفة من الضريح وقبضت على يدي وقال : سيدي يكون خاطرك عليه واجعله تحت نظرك . فسمعت سيدي أحمد رضى الله عنه من القبر يقول نعم)^(٤) .

(١) انظر : السيد إبراهيم الدسوقي للبحاثة أحمد عز الدين خلف الله من ٤٧ .

(٢) انظر - الطبقات الكبرى للإمام الشمراني ١٥٩/١ .

(٣) المصدر الأخير : ١٥٩/١ .

(٤) المصدر الأخير : ١٥٧/١٠ .

ومنها أن الشيخ ابن دقيق العيد أراد أن يذهب ليرى الشيخ على السطح فلما ذهب إليه ونظر إلى الشيخ وهو يلقي درسه وعليه لوائح الوجد والوله فقال ابن دقيق العيد في نفسه: (ما هو إلا مجنون) فكاشفه مولانا السيد ورد عليه ببيته الخالد :

مجانين إلا أن سرر جنونهم

عزيز على أعتابه يسجد العقل^(١)

وليت شعري إن من أكبر كرامات هذا القطب العارف هو إجماع الأمة الإسلامية على محبته في مشارق الأرض ومغاربها وإقبالهم من كل حذب وصوب على زيارته كما قال سيدي محمد عبد الرحيم النشابى في قصيدته الجليلة عن مولانا السيد :

من مثله تسمى الوفود لحيه

كالحج أو كالبيت في الطوفان

إن لسيدى أحمد البدوى رضى الله عنه أتباعاً ومحبين يسيرون على دربه في كل عصر. ولقد كان من صفوة أحبابه وسالكي طريقته في هذا العصر مولانا الشيخ جودة إبراهيم رضى الله عنه الذى اغترف من كل بحر في الولاية. ولقد أثر عن مولانا السيد بعض الوصايا والنصائح والفوائد والفرائد وقد تضمن كتاب العارف بالله تعالى الشيخ أحمد حجاب قسطاً وافراً منها في كتابه القيم عن مولانا السيد رضى الله عنه. يقول القطب النبوى : (يا عبد العال إياك وحب الدنيا فإنه يفسد العمل الصالح كما يفسد الخل العسل. واعلم يا عبد العال أن الله تعالى قال في كتابه المكنون : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ يا عبد العال اشفق على اليتيم واكس العريان وأطعم الجيعان وأكرم الغريب والضييفان عسى أن تكون عند الله من المقبولين.. يا عبد العال عليك بكثرة الذكر وإياك أن تكون من الغافلين عن الله تعالى.. ولا تكن منكراً على فقراء المسلمين جميعهم.. يا عبد العال..

(١) انظر : النصيحة العلوية للإمام الحلبي ص / ٤٩ .

أحسنكم خلقاً أكثركم إيماناً بالله تعالى، والخلق السيئ يفسد العمل الصالح كما يفسد الخل العسل، يا عبد العال : هذه طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة والصدق والصفاء وحسن الوفاء وحمل الأذى وحفظ العهود (١).

إنها وصايا القطب النبوي الذي أسس طريقة منهاجها كتاب الله تعالى وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم وروحها محبة النبي - صلى الله عليه وسلم - وآل بيته وأصحابه والسير على دريهم في طريق الحق المبين.
ويعد :

فمع النور عشنا .. وفي محيط أنوار أبي الفتيان سبحنا نقتات من سيرته العاطرة غذاء قلوبنا وقوت أرواحنا ونستشيق من أريجها الفواح شذى الروضة النبوية فليسمح لى سلطان الأولياء وباب النبي - صلى الله عليه وسلم أن أرفع له رجاء بأن أحظى منه بنظرة عطف أحمدية أبدية أصير بها محسوباً على جنابه الأعلى في الدارين .

رضى الله عنكم يا مولانا السيد وجزاكم الله عن أمة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - خير ما يجزى به الورثة المحمديون، وحشرنا في زمركم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

✱ ✱ ✱

(١) انظر : الجواهر السنية للشيخ زين الدين عبد الصمد الأحمدي : ص / ٨٦.

القطب القرشي شيخ الإسلام .. أبو العينين سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه

في حضرة القدس تشرق أنوار الحقيقة المطلقة في قلوب من اختارهم
العناية ليتبوءوا ذروة الولاية. فهم ضنائن الحق تعالى وكنوزه التي أودعها في خلقه.
لقد حباهم بذخائر معرفته، وسقى أرواحهم من كأس محبته، وأدخلهم دار فردانيته
فأجلسهم على بساط قربه يستغرقون في مشاهد الجلال والجمال. يفتنون فيه
ويتقنون به. حتى إذا نهلت أرواحهم من محيط الأنوار وحملت ودائع الأسرار وقفت
على منابر الخصوصية والهداية تدعو الخلق إلى الله تعالى، وتجذب قلوبهم إلى
طريق الوصول.

ومن خواص أئمة أولئك الأقطاب العارفين، وصدور أعيان الأولياء المقربين:
الإمام العارف والشيخ الكامل الراسخ بحر الشريعة، ومنار الطريقة، وكعبة الحقيقة،
سلطان الأولياء، وسكرذان الأصفياء، برهان الملة والدين، وجوهر عقد الصالحين
شيخ الإسلام أبو العينين سيدي إبراهيم الدسوقي القرشي رضي الله تعالى عنه
وعنا به في الدارين.

هو أحد الأقطاب الأربعة أركان الولاية العظمى وكنوز الفتح الأسمى، وهو
شيخ الطريقة البرهامية ذات النفحات القدسية. وهو أحد أفراد العالم أصحاب
الدوائر الكبرى - في الولاية - ثم هو من أخص الورثة المحمديين الذين ربّتهم
روحانية سيد العالمين - صلوات الله وسلامه عليه.

ولقد ترجم جهابذة الفتح والعرفان لسيدي إبراهيم الدسوقي بما يضيق عنه
الجنان من الفتوحات الربانية والعطاءات القدسية . (وإنما يعرف الفضل من الناس

ذووه) يقول ترجمان الصوفية سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى ترجمته للقطب الدسوقي : (... له المعراج الأعلى فى المعارف، والمنهاج الأسنى فى الحقائق، والطور الأرفع فى المعالى، والقدم الراسخ فى أحوال النهايات، واليد البيضاء فى علوم الموارد، والباع الطويل فى التصريف النافذ، والكشف الخارق عن حقائق الآيات، والفتح المضاعف فى معنى المشاهدات، وهو أحد من أظهره الله عز وجل إلى الوجود، وأبرزه رحمة للخلق، وأوقع له القبول التام عند الخاص والعام، وصرفه فى العالم، ومكنه فى أحكام الولاية، وقلب له الأعيان، وخرق له العادات وأنطقه بالمغيبات، وأظهر على يديه المعجائب وصوّمه فى المهد. رضى الله عنه) (١) أ هـ.

ولعل نقطة البداية فى الحديث عن قطب الأولياء أبى العينين رضوان الله عليه: هى نسبه الشريف. فهو قرشى ينتمى للدوحة النبوية بإجماع الرواة والمؤرخين. فهو سيدى، إبراهيم بن سيدى عبد العزيز (أبى المجد) ابن السيد على قريش بن السيد محمد الرضا بن السيد محمد أبى النجا الذى ينتهى نسبه للإمام جعفر الصادق بن سيدى محمد الباقر بن سيدى زين العابدين بن مولانا الإمام الحسين سبط الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم وعنا بهم أجمعين (٢).

أما والدته رضى الله عنها : فيروى الجلال الكركى عن بعض الثقات أنها هى السيدة فاطمة ابنة ولى الله تعالى أبى الفتح الواسطى قدس الله سره. وكان سيدى أبو الفتح من أجل أصحاب سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه. كما أنه من شيوخ سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه (٣).

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٤٠/١ - ١٤١.

(٢) انظر نسب الإمام الدسوقي محققاً مفصلاً فى الأبحاث الملحقة بكتاب لسان التعريف بحال الولي الشريف سيدى إبراهيم الدسوقي رضى الله عنه تأليف الشيخ أحمد جلال الدين الكركى وتحقيق وتعليق ودراسة الشيخ أحمد عز الدين خلف الله ص ١٥٣ - ١٥٦ ط/ السعادة.

(٣) انظر لسان التعريف للشيخ الكركى : ص ٣٤ - ٣٥.

ومن ثم يتضح لنا تمهيد العناية الإلهية للجو الروحي الأسرى الذى يستقبل ميلاد القطب الدسوقي.

ولقد ولد سيدى إبراهيم رضى الله عنه سنة ٦٣٢هـ على أشهر الروايات، حيث ذكر ذلك الإمام الشعرانى، والإمام المناوى والعارف النبھانى^(١). وإن كان آخرون - كالعلامة جلال الدين الكركى وغيره - يرون أن تاريخ ميلاده هو سنة ٦٥٣هـ. بيد أن رواية الإمام الشعرانى أشهر وأحرى بالقبول.

وعلى كل فالجميع متفقون على أن الإمام الدسوقي قد عاش من العمر ثلاثاً وأربعين سنة.

ولقد كان أقطاب الولاية ينتظرون مولد الإمام الدسوقي ويبشرون به قبل ميلاده . ومن ذلك ما روى من أن العارف بالله تعالى سيدى محمد بن هارون كان يقوم لسيدى عبد العزيز أبى المجد والد القطب الدسوقي إذا مر عليه ويقول : (فى ظهره ولى يبلغ صيته المشرق والمغرب)^(٢)))

وولد القطب الدسوقي، واستقبلت الدنيا من يملأ آفاقها نوراً وعلماً وولاية وتحققاً. وبدأت رحلة النور مع أول إشراقة لفجر ميلاد الإمام الدسوقي. وكان القدر يعد مفارقات عجيبة تمهد لهذا النور انطلاقه فى دروب الحياة. حيث اتفق وقوع الشك فى هلال رمضان فى نفس العام الذى ولد فيه سيدى إبراهيم فقال العارف ابن هارون : انظروا هذا الصغير هل رضع فى هذا اليوم ؟ فأخبرت والدته أنه من الأذان قد فارق ثديها ولم يرضع. فأرسل الشيخ ابن هارون يقول لها لا تحزنى فإنه إذا غربت الشمس شرب. وأمر عند ذلك الناس بإتمام صوم ذلك اليوم. وتأكد للناس بعد ذلك أن هذا اليوم من رمضان. وعرفت أول كرامة لسيدى إبراهيم وهى صومه فى المهد، رضى الله عنه^(٣).

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٥٤/١ والكواكب الدرية للإمام المناوى ١٥/٢ وجامع كرامات الأولياء للإمام النبھانى ٣٩٨/١.

(٢) انظر : لسان التعريف ص ٣٣ - ٣٤ والسيد إبراهيم الدسوقي للشيخ أحمد عز الدين خلف الله ص ١٦-١٧ واللفظ منه .

(٣) المصدران الأخيران .

ولا شك في أن لذلك دلالة- وأى دلالة- على أن سيدى إبراهيم مختار للعناية من الأزل ومجذوب للحضرة منذ أول عهده بالحياة. وحياة العارفين لا تخضع للمقاييس التى نالها أو نتعلها، فلها حساب خاص بين الحبيب والمحبوب، بين الطالب والمطلوب. وإذا: فلا بينية لأحد بين العبد المقرب وسيده، ولا مدخلة لعقل أو مقياس بين الولي ومولاه. فكل نفس للولي إنما هو بحساب ومقدار، ولقد ينال الولي الخاص من العطاء فى لمحة ما لا يناله غيره الدهر كله.

وهكذا كانت حياة العارف الدسوقي من بدايتها إلى منتهائها .. عروج وارتقاء، وفتوحات ومنازلات، ومكالمات ومشاهدات. ولا تثريب على العقل فى أن يتوقف عن التعقل فهذا ليس ميدانه. وإنما هو ميدان ، القلب والروح. أما إذا تجاوز العقل حده وولج الفكر غير مجاله فلن يبيء إلا بالنكران ومن ورائه الخسران، وموقف أعداء التصوف على ذلك خير دليل. أقرر هذا بادئ ذى بدء توطئة لما سأسوقه عن القطب الدسوقي من مناقب لا تخضع للمقاييس العادية بحال من الأحوال لأنها منذ البداية خصوصيات اصطفاية تفرد بها أفذاذ تربعوا على قمة الولاية. كما نقرر ثانياً أن هذه المناقب معزوة إلى أسانيد ومصادرها الوثيقة. وليس لنا منها إلا أمانة النقل ثم التحليل الموضوعى قدر ما أمكن، وإلقاء الضوء عليها حسبما تسمح الطاقة ويتسع المقام. لقد تحدث مولانا القطب الدسوقي رضى الله عنه فى كتابه (الجوهر) عن بعض مناقبه التى من الله تعالى بها عليه. وذلك من باب التحدث بنعمة الله عز وجل وإظهار فضله سبحانه على من تولاه واصطفاه.

ولقد نقل الصوفى العارف جلال الدين الكركى عن كتاب الجوهره طرفاً من تلك المناقب الدسوقية وضمنها كتابه القيم : (لسان التعريف بحال الولي الشريف سيدى إبراهيم الدسوقي) يقول الشيخ جلال الدين:

(ثم إن الأستاذ قدس الله روحه حكى بجوهرته أنه لما بلغ من العمر سنة: أمسك من يحملهم الريح- وهم أولياء الله الطيارة- وأقعدهم على الأرض، ولما بلغ سنتين أقرأ مؤمنى الجن القرآن، ولما بلغ ثلاث سنين دفعه والده إلى المؤدب لما

تؤسم فيه من الخير وخشى أن يفوته تدبير السلوك بعدم القراءة. فلما لقنه المؤدب كعادته مع الأولاد أجاب مؤدبه بما أضممه. ثم سأل مؤدبه عن مسائل فلم يجب عنها فأجاب هو عنها فتمعجب المؤدب من ذلك . فحدث المؤدب بأنه صام في القمطاط. فقال له: يا سيدى هل شعرت بصومك في المهد كما علم به الأهل؟ فقال يا مؤدب: وهل يتقبل ممن يعبد الله على جهل؟.. لقد أخذنى حبيبي من إياى، وسلبنى عن معنای، وأفنانى عن فنای، فتلقيته لا من تلقاى، واستجليته لا بمرآى، وخاطبته لا بإيحای، وناجيته لا بإصغای، وأجلسنى على سرير الصفا، وسقانى بكأس الوفا، وعقد لى لواء الولا، فاستعذبت فيه أليم العذاب والبلا، ورضيت منه بتقديم القضاء، فلو جرعنى كثوس المنية لشريتها، ولو عذبنى بفنون الرزية لاستعذبتها، ولو أوردنى موارد الهلكة لوردتها. فأننا معه كما يريد لا كما أريد.. فهو المراد وأنا المريد»^(١)

فعند ذلك بنيت له خلوة ببلدة دسوق فدخلها فأقام بها عشرين سنة. ولما بلغ أربع سنين صح له من العناية قدر (خرم إبرة) فرأى من المشرق إلى المغرب. فبينما هو على وضوء ختام الأربع وإذا بتفاحة نزلت بحجره فرماها خوفاً أن تكون لقطة. فنودى فى سره: كلها يا إبراهيم فإنها هدية من الله إليك. فلما أكل نحو نصفها نودى فى سره: ارمها يا إبراهيم فإنها حرمت عليك. فرماها. ثم نودى: انظر يا إبراهيم: فجالت روحه فى الملكوت فإذا هو واقف بين يدى الله فتقطب وهو ابن خمس، وشاهد ما فى العلا وهو ابن ست، وجاوز مراتب الأولياء إلا الشيخ عبد القادر الكيلانى فإنهما صارا فى الفضل سواء وهو ابن سبع...^(٢) .

والى هنا نكتفى بهذا القدر من المناقب التى يواصل العارف الكركى حكايتها عن القطب الدسوقى والتى تتوالى مع الأيام والسنين.

ولعل وقوفنا عند هذا القدر قد تعمدناه إشفافاً على العقل مما ذكر بعد ذلك من خوارق المنح والعطايا التى لا يقوى على تحملها جنان. على الرغم من أن فى

(١) انظر لسان التتريف للعلامة الجلال الكركى ص / ٤٠ .

(٢) المصدر الأخير ص / ٤١ .

القدر الذى ذكرناه فعلاً ما لا يسهل تصوره. بيد أننا لا نجاوز الحقيقة بل نحتضن جوهرها حين نقول : إن كل ما ذكر وما لم يذكر من مناقب سيدى إبراهيم إنما هو فى حدود منطق القرآن الكريم ولا يتعدى هذه الحدود بحال من الأحوال، فإن هذه المنح التى لا تخطر ببال إنما هى فى صميم مدلول قوله تعالى : ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ﴾^(١) ولا حرج على فضل الله تعالى. وليت شعري إذا لم يتفرد هؤلاء الخواص بتلك المنح الجليلة فأين محور الخصوصية إذاً؟

فلنواصل السير مع قطب الأولياء سيدى إبراهيم. لقد أقام رضى الله عنه بخلوته التى بنيت له بدسوق عشرين سنة فى انفراد مع ربه قائماً متبتلاً يسبح فى بحار القرب بروح عشقت أنوار الذات، فغمرتها نفحات التجليات. كان اعتكافه مع ربه حافلاً بالمناجاة والأنس والاتصال الدائم بالله تعالى فى حضرة القدس حيث يفنى فى المشاهدة عن كل شيء حتى عن فنائه، ويفرق فى بحار الذات وتيار الصفات، ثم يبقى بالحق بعد أن فنى فيه. فيسمع لذيد الخطاب، ويسقى من لطيف الشراب. وعندئذ يهتف بلسان الحقيقة قائلاً :

شريت دنان الصرف فى حضرة الرضا

وكان دليلى فى الهدى سيد العرب^(٢)

ولنقف قليلاً عند الشطر الأخير فى هذا البيت، إنه إشارة إلى الاقتداء المباشر بهيد الخلق - صلوات الله وسلامه عليه - . ومن ثم يتقرر أن مولانا القطب الدسوقي محمدى التربية. ولقد صرح سيدى إبراهيم فى كتاب (الحقائق) بأن شيخه الذى أخذ عليه العهد إنما هو الرسول صلى الله عليه وسلم إذ يقول : (أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أخذ على العهد بيمينه وصار يكشف لى عن الأمور ويفتح لى أقفال الحجب) ويروى الجلال الكركى أن سيدى إبراهيم رضوان الله عليه كان إذا ألبس أصحابه خرقة الفقر - أى التصوف - يقول : (تلقيتها عن سيد

(١) سورة الشورى / ٢٢.

(٢) انظر لسان التمرى للجلال الكركى ص / ٥٩.

الأولين والآخرين: اعلّموا - ألبسنا الله وإياكم لباس حبه وألحقنا وأنتم بموجبات قربه- أن العارف قد يجذبه الله إليه فلا يجعل عليه منة لأستاذ وقد يجمع شمله بالنبى - صلى الله عليه وسلم فيكون آخذاً عنه وكفى بهذا منة^(١).

ولقد كان للإمام الدسوقي رضى الله عنه صلوات وثيقة العرى بأقطاب الصوفية المعاصرين له، والذين ازدهى بهم القرن السابع الهجرى وحفل بأنوارهم. وقد تلقى سيدى إبراهيم الخرقه عن كثير منهم على سبيل التبرك.

أما تلقى الهداية والاستمداد الروحى فإنما هو عن سيد الخلق ورحمة العالمين - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وممن تلقى عنهم سيدى إبراهيم تبركاً: القطب الكبير سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه . حيث روى العلامة كمال الدين الحريرى أنه رأى فى بعض الأجازات أن سيدى إبراهيم الدسوقي قدس سره قال فى كتاب الحقائق : (أخذت الطريقة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعهد البيعة عن القطب أبى الحسن الشاذلى)^(٢).

وأيضاً فلقد كان هناك اتصال للقطب الدسوقي بطريقة سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه، إذ إن والد سيدى إبراهيم قد أخذ عن سيدى أبى الفتح الواسطى الذى تلقى الطريقة عن القطب الرفاعى^(٣).

ثم هناك قمة الاتصال الكامل والأخوة الروحية الفريدة التى سجلها التاريخ بحروف من نور بين أعظم قطبين للولاية فى ذلك العصر وهما شقيقا الروح قطب الأقطاب سيدى إبراهيم الدسوقي وسلطان الأولياء باب الرسول صلى الله عليه وسلم سيدى أحمد البدوى رضى الله عنهما وعنا بهما وأمدنا بمددهما وجعلنا تحت لوائهما فى الدارين آمين.

(١) انظر لسان التعريف بحال الولي الشريف سيدى إبراهيم الدسوقي رضى الله عنه للشيخ أحمد جلال الدين الكركى ص ١٤٤ .

(٢) انظر : السيد إبراهيم الدسوقي للشيخ أحمد عز الدين خلف الله ص ٤٣ .

(٣) انظر : المصدر الأخير : ص / ٣٩ .

إنها أخوة الوراثة المحمدية بين أرفع قمتين فى عالم الولاية. ولا أدل على سمو مكانتهما من أن الإمام الشعرانى قد ذكر فى (لطائف المنن) أنه أعطى محفة من نور تطير به فى سائر أقطار الأرض وتطوف به على قبور المشايخ من فوق أضرحتهم جميعاً إلا ضريح سيدى أحمد البدوى وضريح سيدى إبراهيم الدسوقي رضى الله تبارك وتعالى عنهما فإن المحفة نزلت به من تحت عتبة كل منهما ومرت من تحت قبره. وعلق على ذلك القطب الشعرانى قائلاً : (ولم أعرف إلى الآن الحكمة فى تخصيص هذين الشيخين بذلك نفعا الله تعالى بهما) (١).

ولقد أثر عن سيدى إبراهيم أنه كان يقول عن أخيه القطب البدوى : (إن ابن العم السيد أحمد البدوى هو الأسد الكاظم) (٢) وكذلك كان يقول : فضل الله علينا عم كل الجماعة تبع والسيد عم (٣) رضى الله عنهما ونفعنا بهما وخلقنا بأخلاقهما السامية.

إن الإمام الدسوقي قد ترقى فى معراج الولاية حتى تربع على الذروة العليا. وإشارات الصوفية خير شاهد على ذلك. فلقد أعطى مفاتيح العلم اللدنى فتحدث عن منازل أهل الفتح والعرفان حديث العارف المتحقق.

يقول رضى الله عنه : (من أدخل دار الفردانية وكشف له عن الجلال والمظمة بقى هو بلا هو . فحينئذ يبقى زماناً فانياً ثم يعود فى حفظ الله تعالى وكلاءه سواء حضر أو غاب، ولا يبقى له حظ فى كرامات ولا كلام ولا نظام نفسانى وخلص لجانب العبودية المحضة) (٤).

ولقد تناول سيدى إبراهيم موضوع الشريعة والحقيقة والعلاقة بينهما فقال (الشريعة أصل والحقيقة فرع. فالشريعة جامعة لكل علم مشروع، والحقيقة جامعة لكل علم خفى، وجميع المقامات مندرجة فيهما) (٥).

(١) انظر : لطائف المنن والأخلاق لسيدى عبد الوهاب الشعرانى ١١١/١ ط/ الميمنية.

(٢) انظر : الجواهر السننية للشيخ زين الدين عبد الصمد الأحمدي ص ٨٢ وكرامات وأوراد القطب النبوى ٦٦.

(٣) انظر : السيد إبراهيم الدسوقي للشيخ أحمد عز الدين خلف الله ص ٤٧.

(٤) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/١٤٢.

(٥) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١/١٤١.

كما علل لتسمية الحقيقة قائلاً (وما سميت الحقيقة حقيقة إلا لكونها تحقق الأمور بالأعمال، وتنتج الحقائق من بحر الشريعة) (١) .

وجاءه رجل فقال له أريد أن أسلك طريق الحقيقة. فقال له : (يا ولدى : الزم أولاً طريق النسك على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم المرضية الزاهرة الباهرة التي نورها جلا الظلم، وأنار بطلح مكة والمدينة والشام ومصر والعراق واليمن والمشرق والمغرب، والأفق العلوي والسفلي، فإذا عملت بها انقذ لك منها علم الحقائق والأسرار، فاسلك يا أخى كما قلت لك على التدرج شيئاً بعد شيء والله يحفظك إن صدقت) (٢) .

وكان رضى الله عنه يقول : (إذا عمل الفقير على نسق الاتباع الشرعى تروحنت نفسه وصارت روحانية لطيفة نورانية تجول جولان السر والقلب والمعنى)

هذا هو مفهوم الشريعة والحقيقة عند القطب الدسوقي الذى كنى بـ (أبى العيين) لأنه كان ينظر بعينى الشريعة والحقيقة. فقد كان إماماً فيهما بأدق معانى كلمة (إمام) . كان بحراً فى العلوم الشرعية لا يدرك له قرار، ومن ثم لقب بشيخ الإسلام (٣) .

ولقد كان رضى الله عنه حين يتكلم فى الحقائق يفترق من بحار العلوم الدنيوية التى لا ساحل لها ويسكب فى أعماق القلب أكسير الحكمة الربانية بإشرافها وسموها .

وها هو ذا يصف طريق السالكين إلى الله فيقول (الطريق إلى الله تعالى تفنى الجلال، وتفتت الأكباد، وتضنى الأجساد، وتدفع السهاد. وتسقم القلب، وتذيب الفؤاد فإذا ارتفع الحجاب سمع الخطاب، وقرأ من اللوح المحفوظ الرموز، واطلع على معان دقت، وشرب بأوان رقت، فكان مع قلبه ثم يكون مع مقبله لامع قلبه لأن

(١) انظر المصدر نفسه : ١/ ١٤٢ .

(٢) انظر المصدر نفسه : ١/ ١٥٠ .

(٣) انظر تلقيب علماء عصر الإمام الدسوقي له بلقب (شيخ الإسلام) بعد تسليمهم بتفوقه العلمى إثر محاولات امتحانه : فى ملحق لسان التعريف ص / ١٦٩ .

الله يحول بين المرء وقلبه. فإذا خرج عن الكل طال لسانه بلا لسان. مع شدة اجتهاده وأعماله الظاهرة ثم الباطنة. ثم بعد ذلك لا حركة ولا كلام ولا تسمع إلا همسا. إنما هو سميت بلا حس. ثم يصفو من صفاء الصفاء، ووفاء الوفاء، ويخلص من إخلاص الإخلاص في الإخلاص للإخلاص ثم يتقرب بما يكون جليساً فإن المجالسة لها آداب، أخرى يعرفها العارفون (١).

وعن مقام العرفان وخصوصياته الاصطفائية يقول إمام العارفين سيدي إبراهيم : (إذا كمل العارف في مقام العرفان أورثه الله علماً بلا واسطة وأخذ العلوم المكتوبة في ألواح المعاني ففهم رموزها وعرف كنوزها وفك طلسماتها وعلم اسمها ورسمها، وأطلعه الله على العلوم المودعة في النقط ولولا خوف الإنكار لنطقوا بما يبهر العقول. وكذلك لهم من إشارات العبارات عبارات معجزة وألسن مختلفة وكذلك لهم في معاني الحروف والقطع والوصل والهمز والشكل والنصب والرفع ما لا يحصر ولا يطلع عليه إلا هم، وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب على أوراق الشجر والماء والهواء وما في البر والبحر وما هو مكتوب على صفحة قبة خيمة السماء وما في حياة الإنس والجنان مما يقع لهم في الدنيا والآخرة، وكذلك لهم الاطلاع على ما هو مكتوب بلا كتابة من جميع ما فوق الفوق وما تحت التحت ولا عجب من حكيم يتلقى علماً من حكيم عليم فإن مواهب السر اللدني قد ظهر بعضها في قصة موسى والخضر عليهما السلام (٢).

ماذا هنالك من تعليق على هذا الفيض الرياني والمدد الإلهامي؟ لا شيء سوى الانبهار والهيبة الأخاذة والتطامن الكامل أمام عظمة الله القادر الخلاق العليم الذي اصطفى من عباده من حباهم بهذا الفضل العظيم.

إنها كنوز الفتح الرياني ومواهب الفيض العرفاني التي منحها الله لأهل وده وولايته.

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرائي ١/١٤٤.

(٢) انظر المصدر الأخير.

ولقد أسس الإمام الدسوقي طريقته على منهاج الكتاب والسنة ورسم لأبنائه ومريديه معالمها الوضاعة كي يسيروا على الدرب ويصلوا إلى الغاية. يقول رضوان الله عليه : (واعلم يا ولدي أن طريقتنا هذه طريق تحقيق وتصديق وجهد وعمل وتنزه وغض بصر وطهارة يد وفرج ولسان فمن خالف شيئاً منها رفضته الطريق طوعاً أو كرهاً)^(١) .

وكان رضى الله عنه يقول : (من لم يكن متشرعاً متحققاً نظيفاً عفيفاً شريفاً فليس من أولادى ولو كان ابنى لصلبى. وكل من كان من المريدين ملازماً للشرعية والحقيقة والطريقة والديانة والصيانة والزهد والورع وقلة الطمع فهو ولدى وإن كان من أقصى البلاد)^(٢) .

وبهذا رفض الإمام الدسوقي من يدعى الانتماء إليه وهو مفرط فى حقوق الشريعة مؤثراً دنياه وهواه على دينه ورضا مولاه. وبالمنطق نفسه فإن من قام بحقوق الشرع وعمل بالكتاب والسنة فهو من أخص أبناء سيدى إبراهيم.

ومن ثم يتضح أن مقياس التبعية الحقيقية للقطب الدسوقي إنما هو اقتفاء أثره وإيثار مبادئه لا التمرغ فى عرض الدنيا وإيثار المال والولد على حق الله وفى هؤلاء الأدعياء يقول سيدى إبراهيم (الله خصم كل من شهر نفسه بطريقتنا ولم يقم بحقها واستهزأ بنا)^(٣) .

ولقد كان سيدى إبراهيم يوجه نصائحه وتعاليمه لأبنائه وأتباعه فى الطريق حاثاً لهم على الترقى فى مدارج الكمال والتفهم لأسرار الذكر الحكيم. يقول رضوان الله عليه : (ان أردت يا ولدى أن تفهم أسرار القرآن العظيم فاقتل نفس دعواك، واذبج شبح قولك واطرح نفس نفسيتك تحت قدم أقدامك، وعفر خديك على الثرى، وأشهد أن نفسك قبضة من تراب، واعترف بكثرة ذنوبك، وقل يا ترى مثلى يقبل له عمل؟ فإذا كنت على هذا الوصف فيرجى لك أن تشم رائحة من معانى كلام ربك

(١) المصدر نفسه : ١٤٦/١ .

(٢) المصدر نفسه : ١٤١/١ .

(٣) المصدر نفسه : ١٤٥/١ .

والأ فياب الفهم عنك مغلق. وعزة ربي أن كل حرف من القرآن العظيم يعجز عن تفسيره الثقلان ولو اجتمع الخلق كلهم على أن يعلموا معنى (ب) بقولهم لعجزوا وما لأحد من ذات نفسه شيء قل ولا جل وإن لم يكن الله تعالى يعلم العبد وإلا فهو عائم في البحر مزكوم محجوب لا شم ولا لم ولا علم ولا حس، ومن لم يذق مقام القوم ويرى ويشاهد لم يحسن أن يصف بحراً لا قرار له ، أو يترجم عن ساحل لا آخر له ، أو يعوم في قعر التخوم أو يصل إلى النون أو يدرك معاني السر المصون. وأما إذا أعطى عبده علم ذلك فلا مانع^(١).

لله درك أيها الإمام العارف الذائق، المتحقق. وطوبى لأمة أنت من رجالها !!
إن هذه الإشارات اللدنية التي نذكرها ونسجلها لمولانا الدسوقي - مع يقيننا بأنها في مستوى القمة ولا يمكن أن تجاريها الأفهام إلا أننا نرعى من وراء ذكرها إلى إبراز شواهد من فتوحات هؤلاء القمم ، ثم نهدف أيضاً إلى تحفيز الهمم والعزائم الطموحة إلى مراتب الولاية والتحقيق ليجدوا السير ويعثوا الخطى.

وغنى عن الذكر أننا لا نضع في حسابنا حينئذ من في صدورهم عدااء للتصوف، فالشمس هي الشمس ولو عميت عنها الأبصار ، فلنفتح عيون قلوبنا للضياء ولننهل من ينبوع الصفاء.

يقول الإمام الدسوقي في تعريفه بصفات الفقير- والفقير هو اصطلاح للصوفي إذ هو مفتقر دائماً إلى مولاه .. (لا يكون الفقير فقيراً حتى يكون حملاً للأذى من جميع الخلائق إكراماً لمن هم عبيده سبحانه وتعالى فلا يؤذى من يؤذيه ولا يتحدث فيما لا يعنيه ولا يشمت بمصيبة ولا يذكر أحداً بغيبة، ورعاً عن المحرمات، موقوفاً عن الشبهات، إذا بلى صبر، وإذا قدر غفر، غضيض الطرف يعمر الأرض بجسده والسماء بقلبه. طريقه الكظم والبذل والإيثار والعفو والصفح والاحتمال لكل من يتحدث فيه بما لا يرضيه)^(٢). وأما عن كرامات القطب

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشمراني : ١٥٢/١ .

(٢) المصدر الأخير : ١٤٩/١ .

الدسوقي فقل ما شئت . فمنها معرفته رضى الله عنه بسائر اللغات. يقول الإمام الشعراني في طبقاته : (وكان رضى الله عنه يتكلم بالعجمى والسريانى والعبرانى والزنجى وسائر لغات الطيور والوحوش)^(١) ومنها ما رواه المناوى قال: خطف تمساح صبياً فأتت أمه مذعورة فأرسل نقيبته فتأدى بشاطئ البحر بقوله يا معاشر التماسيح من ابتلع صبياً فليطلع به فطلع ومشى معه إلى الشيخ فأمره أن يلفظه فلفظه حياً وقال للتمساح مت بإذن الله فمات^(٢) ، وقد أخذت فقرة من ظهره وعلقت على بابه- وهى الآن فى الضريح لا تزال موجودة.

ومنها أن اشتكى إليه بعض الفقراء من قاض بثغر الأسكندرية كان ينكر على الصوفية ويناصبهم العداء ويتعسف مع مريدى سيدى إبراهيم على الخصوص فاستغاثه يوماً أحد مريديه من ذلك القاضى فكتب سيدى إبراهيم رقعة وأعطاهما لرجل من عنده ليسلمها للقاضى وفيها هذه الأبيات:

سهام الليل صائبة المرامى

إذا وترت بأوتار الخشوع

يصوبها إلى المرمى رجال

يطيلون السجود مع الركوع

بالسنة تهمهم فى دعاء

وأجفان تفيض من الدموع

إذا أوترن ثم رمين سهماً

فما يغنى التحصن بالدروع

وتسلم القاضى الرقعة وأخذ يقرأها فى استهزاء فلما وصل إلى قوله : (إذا

(١) المصدر الأخير : ١٤٢/١ .

(٢) انظر : الكواكب الدرية للإمام المناوى : ١٥/٢ .

أوترن ثم رمين سهماً خرج سهم من الورقة فدخل في صدره وخرج من ظهره فوق ميتاً. فالعياذ بالله من الإنكار على الأولياء^(١). وغير ذلك من كرامات القطب الدسوقي ما لا يقع تحت حصر ولولا ضيق المقام لذكرنا العديد منها، ولكن الجدير بالتسجيل فعلاً هو أن سيدى إبراهيم كان متحققاً بأرفع درجات الكرامة وهي الكرامة المعنوية التي يعرفها علماء الصوفية بالاستقامة ولذلك كان شيخنا القطب العارف مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنه يقول (الاستقامة خير من ألف كرامة) رضى الله عن الإمام الدسوقي وعن كل أولياء الله الصالحين حملة إرث النبوة وأئمة الهدى ورضى عنا بهم أجمعين.

وبعد : فقد اقتبسنا هذه الومضة النورانية من مناقب قطب الأولياء سيدى إبراهيم الدسوقي رضى الله عنه لكى يسرى شعاعها في أعماق قلوبنا فيضيء لنا الطريق ونقتفى أثر هذا الإمام الوارث لمدد سيد المرسلين - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين - فائذن لى يا سيدى إبراهيم أن أتطلع إلى مقامكم السامى فى فخر واعتزاز وأن أنال منكم محسوبية الدارين ومدد السالكين على دريكم الأمين رضى الله عنكم دائماً أبداً وعنا بكم آمين.



(١) انظر : لسان التعريف بحال الولي الشريف للعلامة الجلال الكركى ص ١١٠ - ١١.

الإمام أبو العباس المرسى رضى الله عنه

فى ذرى المحبة الشامخة، وفى آفاق النور والإشراق يُطَوَّفُ أقطاب الولاية فى رحاب الملكوت الأعلى وَيُفَشَّوْنَ حضرات القرب والوصول، ويفترهون من معين السر الإلهى نورانيتهم المتألقة فى عالم القدس والصفاء، ويتزودون من إمدادات الفيض الإلهى راح أرواحهم المَهَيَّمة فى جمال الذات العلية. فكلما ارتنوا عطشوا، وكلما ازدادوا قرياً هاموا اشتياقاً، وكلما سكروا أنساً غرَّدوا طرباً، وكلما ذابوا عشقاً فنوا اتصالاً. فيتحقق لهم بالوصلة نعيم الأبد مع الواحد الفرد الصمد، فيجلسهم على منابر الخصوصية ورثة للأنبياء ودعاة إلى شرف الاتصال وعز الولاء. رضى الله عنهم وعنا بهم وجعلنا فيهم ومنهم ومعهم بحق رحمة العالمين عليه أفضل الصلاة والتسليم.

فى تلك الذرى الشامخة نتعرف على قطب شامخ وإمام واصل خلعت عليه العناية خلع الرضوان الأكبر والعرفان المحقق. إنه الإمام العارف والفوت الفرد الجامع، نديم الحضرة القدسية ومهبط التنزلات العرشية وبحر العلوم اللدنية الوارث المسمى سيدى أبو العباس المرسى قدس الله سره وأغدق علينا مدده وبره فى الدنيا ويوم الدين.

ولست أدري بادئ ذى بدء بأى مقدرة يتناول الإنسان إلى أوج هذا الشموخ الفذ أو يحيط بهذا المحيط لكى يتحدث عنه بما هو أهله؟ وأى طاقة يسمعها أن تتعرف على ملامح شخصية فنية فى الله وأصبحت رنانية؟ لا شك - والأمر كذلك- بأننا سنفترف من المحيط بعض قطراته القريبة من الساحل محاولين أن نأخذ من الجزء سر الكل قدر ما يتحملة، ذلك الجزء أو ما نتحملة نحن منه.

ويعتبر أوضح. سنتعرف من خلال بعض ما كتب عن سيدى أبى العباس- فى حدود طاقتنا- على منزلة هذا القطب الشامخ فى الولاية ودرجته فى المعرفة. أو بالأحرى على (ربانيته) وصوفيته.

لئن كان هذا التعرف يتطلب مجالاً أرحب من حدود هذا الكتاب- وهو كذلك دون شك - فلن يسعنا إلا استكشاف بعض الملامح المميزة التى تكمن فيها الدلالة بوضوح. ومنها يتيسر العبور إلى التفصيلات التى تلقى مزيداً من الضوء. ويتفرع بنا البحث إلى جانب تاريخى وآخر موضوعى، والأول إطار للثانى كما أن الثانى مضمون للأول.

وموضوعية البحث هنا تقتضينا إبراز الإطار فى عجالة يتحدد من خلالها المضمون:

إن قطبنا الذى نتعرف عليه هو الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى. رضى الله عنه. ويذكر بعض المؤرخين أن نسبه يتصل بالصحابى الجليل سيدنا سعد بن عبادة سيد الخزرج رضى الله تعالى عنه وعنا به. ومن ثم كانت نسبته إلى الأنصار رضى الله عنهم^(١).

أما مولد سيدى أبى العباس رضى الله عنه فكان سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) بمدينة مرسية إحدى مدن الأندلس وإليها نسبة مولانا أبى العباس، وهيها كانت نشأته النورانية على درب العناية الإلهية. فقد أرسله والده سيدى عمر إلى مؤدب من أولياء الله تعالى ليحفظه القرآن الكريم ويفقهه فى الدين. وسرعان ما تلالأت أنوار الفطرة الذكية وانقذحت المواهب السنية فى وجدان سيدى أبى العباس لتواكب مسيرته على طريق الفتح والمعرفة، وكان من أوائل شواهد ما رواه رضى الله عنه بنفسه قائلاً : (كنت وأنا صبى عند المؤدب، وجاء رجل فوجدنى أكتب فى

(١) انظر : الإمام أبو العباس المرسى للأستاذ أحمد حسين الدسيوى ص ١٥٦ ط/ دار المعارف.

لوح، فقال : الصوفى لا يسود بياضاً. فقلت له : ليس الأمر كما زعمت. ولكن لا يسود بياض الصحناء بسواد الذنوب (١) 》

هذا منطق العارفين ينطق به وهو لا يزال غلاماً زكياً.

ويقول رضى الله عنه : (عمل إلى جانب دارنا خيال الستار وأنا إذ ذاك صبي فحضرته. فلما أصبحت أتيت إلى المؤدب - وكان من أولياء الله تعالى - فأنشد حين رآنى :

يا ناظرا صور الخيال تعجبا

وهو الخيال بعينه لو أبصرا (٢) 》

ويمضى سيدى أبو العباس فى طريق النور، ويصل إلى ريعان الشباب ومعينه من التقى والهداية يزداد يوماً بعد يوم وساعة إثر ساعة، ويرى والده فيه قرّة عينه وعقد أمله ويمن طالعه فيقره ويدنيه منه ويسند إليه بعض أعماله التجارية مع أخيه الأكبر سيدى أبى عبد الله جمال الدين محمد لكى يقرن سيدى أبو العباس - ومنذ البداية - بين العبادة والتكسب اقتداء بالسلف الصالح، ويختلف من مدينة مرسية إلى سائر المدن والأمصار فى عمل وعبادة وبين جوانحه قلب لهج بذكر ربه وروح قانتة أوّابة وبصيرة تتفتح كل يوم بإشراق جديد. وذات يوم من عام ٦٤٠هـ يزعم الوالد الصالح الحج إلى بيت الله الحرام ويرفقه أسرته، وأبحروا عن طريق الجزائر. وبينما هم على مقربة من شاطئ (برنة) إذا بعاصفة قوية تهب عليهم فتغرق المركب ويستشهد الوالدان الصالحان (٣) وينجو الأخوان سيدى أبو العباس وسيدى محمد. فاتجها نحو تونس ليخلف سيدى محمد أباه فى تجارته ويتجه سيدى أحمد إلى تجارة لن تبور. فيتخذ من زاوية كانت للفقيه محرز بن خلف مكتباً لتحفيظ القرآن الكريم . وكانت المقادير تعد لسيدى أبى العباس لقاءه مع الفتح

(١) ، (٢) المصدر السابق ص / ١٥٧ .

(٣) ذكرت المصادر أن سيدى عمر والد الإمام أبى العباس - رضى الله عنهما - كان متزوجاً من السيدة فاطمة ابنة الشيخ عبد الرحمن المالقي وهو من الرجال الصالحين (انظر المصدر السابق).

الأكبر، مع السعادة العظمى والمجد الأسمى، وبحين اللقاء مع الأمل المرتقب، مع القطب الذى سيصله بالله ويأخذ بيده إلى معارج الفتح والمشاهدة، مع قطب الزمان سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه وعنا به فى الدنيا والآخرة. وكان الملتقى الذى هيات له الأحداث فى تونس، ولنستمع إلى قصة أروع لقاء من سيدى أبى العباس نفسه. يقول رضى الله عنه : (لما نزلت بتونس - وكنت آتيت من مرسية - وأنا إذ ذاك شاب : سمعت بذكر الشيخ أبى الحسن الشاذلى. فقال لى رجل : تمضى بنا إليه؟ فقلت: حتى استخير الله. فتمت تلك الليلة فرأيت كأنى أصعد إلى رأس جبل فلما علوت فوقه رأيت هنالك رجلاً عليه برنس أخضر وهو جالس وعن يمينه رجل وعن يساره رجل. فنظرت إليه فقال : عثرت على خليفة الزمان! فانتبهت. فلما كان بعد صلاة الصبح جاءنى الرجل الذى دعانى إلى زيارة الشيخ فسررت معه. فلما دخلت عليه. رأيته بالصفة التى رأيته بها فوق الجبل فدهشت. فقال لى : عثرت على خليفة الزمان. ما اسمك؟ فذكرت له اسمى ونسبى. فقال لى: لقد رفعت إلى منذ عشر سنين)^(١) !!

وكان المنطلق الأسمى إلى أسمى غاية. لقد وجد سيدى أبو الحسن فى سيدى أبى العباس مرآة ذاته الشريفة وأهلية وراثته فى القطبية وخلافته فى الوراثة المحمدية، ورأى أن هذا هو الرجل الثانى فى الطريقة الشاذلية. بل نستطيع أن نعتبره الرجل الأول من حيث اتحاده الروحى مع شيخه على نحو ما سنراه من عبارات شيخه فيه.

وبدأت التربية الكاملة والترقى الدائم إلى عالم القدس. وما ظنك بمن يرييه القطب الفوئ على عينه. وفى زاوية (زغوان) بتونس حيث كان يقيم سيدى أبو العباس مع شيخه سيدى أبى الحسن: كان مقر الدعوة إلى الله، فكانت الحشود الهائلة من المريدين وطلاب الحقيقة على اختلاف مستوياتهم من علماء وتجار

(١) انظر لطائف المنن فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه الشاذلى أبى الحسن. للإمام أحمد بن عطاء الله السكندرى ص ٥٨ نشر المكتبة السعيدية.

وعامة يغشون مركز الإشعاع الشاذلى وينهلون من أقباسه زاد الحكمة والتوجه إلى الله.

ويرتفع شأو الإمام أبى الحسن وتعمم منزلته فى قلوب العامة والخاصة إلى حد أثار حقد قاضى القضاة ابن البراء وأقلقه على مركزه فى نفوس العامة إذ رأى أن منزلته بدأت تتهاوى أمام عظمة الإمام أبى الحسن فلجأ إلى الإيقاع به لدى السلطان أبى زكريا على نحو ما ذكرنا فى حديث سابق عن الإمام الشاذلى رضوان الله عليه. وكانت النتيجة هى ارتحال القطب الشاذلى إلى بلاد المشرق حيث توجه إلى الإسكندرية ثم إلى بيت الله الحرام ثم كانت العودة إلى تونس ثانية. ونتساءل عن سر هذه العودة برغم ما يكتنفها من مشاق. ويجب سيدى أبو الحسن على ذلك عند التقائه بسيدى أبى العباس قائلاً : (ما ردنى إلى تونس إلا هذا الشاب) ثم يعود الإمام الشاذلى إلى الإسكندرية بأمر محمدى تلقاه مناماً ليرى فيها أربعين صديقاً، ويصطحب معه فى العودة أخص أصحابه ومريديه وفى مقدمتهم وارث سره سيدى أبو العباس. وكانت صحبة سيدى أبى العباس لشيخه مصحوبة بالترقى الدائم والمدد المتصل. وهذا نموذج عملى يجسد منهاج التربية ويصور معراج الترقى لسيدى أبى العباس على يد شيخه الشاذلى : يقول مولانا أبو العباس رضوان الله عليه : (كنت مع الشيخ فى السفر ونحن قاصدون الإسكندرية حين مجيئنا من الغرب، فأخذنى ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله، فأتيت إلى الشيخ أبى الحسن، فلما أحس بى قال : أحمد، قلت : نعم يا سيدى . قال : آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته ثم نزل إلى الأرض. والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله. ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلق بقوله : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ ^(١) ما قال فى السماء ولا فى الجنة، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توافرت فيه العبوديتان استحق أن يكون

(١) سورة البقرة / ٢٠.

خليفته، وأنت أيضاً لك قسط من آدم. كانت بدايتك فى سماء الروح فى جنة التعريف، فأنزلت إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف، فإذا توافرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة (١) .

وهكذا أخذ سيدى أبو الحسن بيد سيدى أبى العباس ليوصله إلى الله وليفرغ فيه سره الإلهى ليكون خليفته من بعده. أو ليكون هو هو لا ولم يلحق الإمام الشاذلى بربه إلا وقد تحققت الوحدة الروحية بأسمى معانيها بين سيدى أبى العباس وشيخه، وأصبح سيدى أبو العباس شمساً متألئئة فى عالم الولاية، ومن ثم فقد كان سيدى أبو الحسن يقول له : (يا أبا العباس؛ والله ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت لا يا أبا العباس : فيك ما فى الأولياء وليس فى الأولياء ما فيك لا) (٢).

لقد أذابت هذه الوحدة الروحية الأثنينية بين الشيخ ووارثه حتى صبح لكل منهما أن يقول للآخر يا أنا لا ومن خلال هذه الرؤية العميقة لمفهوم الاتحاد الروحى بين الشيخ ومريده استوحينا أولية سيدى أبى العباس فى تأسيس الطريقة الشاذلية. ومن منطلق هذه الوحدة أيضاً كان الإمام أبو العباس قد أعطى لسان شيخه فى الحقائق ووقف على منهله فى العلوم الدنية، ويؤكد ذلك ما رواه سيدى أحمد بن عطاء الله رضى الله عنه قائلاً :

(من المشهور بين أصحاب الشيخ أبى الحسن وغيرهم أن الشيخ كان يوماً بالقاهرة فى دار الزكى السراج وكتاب المواقف للنفرى يقرأ عليه. فقال : أين أبو العباس ؟ فلما جاء قال : يا بنى تكلم.. يا بنى تكلم بارك الله فيك.. تكلم ولن تسكت بعدها أبداً. فقال الشيخ أبو العباس: فأعطيت فى ذلك الوقت لسان الشيخ) (٣).

وكثيراً ما صرح سيدى أبو الحسن لأصحابه بما بلغه سيدى أبو العباس من منزلة سامقة فى الولاية، ويتحققه بأعلى المقامات. فكان رضى الله عنه يقول :

(١) انظر : لطائف المنن للإمام ابن عطاء الله ص / ٦٢.

(٢) المصدر الأخير ص / ٧٠ والطبقات الكبرى للإمام الشمرانى : ١٢/٢.

(٣) المصدر الأخير ص / ٧٦.

(هذا أبو العباس منذ نقذ إلى الله لم يحجب عنه ولو طلب الحجاب لم يجده) (١) لا

ليت شعري أى معنى يمكن أن يعبر عن مقام سيدى أبى العباس أكثر مما حملته هذه العبارة ؟؟ إنها قمة الوصول، وقمة الولاية وقمة التحقق، وقمة القمم لا لقد وصل سيدى أبو العباس إلى الله لدرجة أنه لا يمكنه أن ينقطع عنه. حتى لو أراد الانقطاع لم يظفر لا لقد صار ربانياً صرفاً ليس له فى نفسه شيء.

إنه موقوف على ربه، والحجاب حرام على من طلبته الحضرة لنفسها. إنه مخطوب الملا، ومراد الجناب الأقدس، وتلك ذروة المنى وقمة الاصطفاء.

ولقد أهله شيخه للتربية حتى صار يربى المريدين على عينه ويوصلهم إلى الله بين عشية وضحاها. ولقد بلغ به شيخه إلى ذروة الاكتمال التى يمكن أن يحظى بها ولى الله.

ولنستمع إلى تصريحات صريحة بكل تلك المنح والعطايا من الإمام الشاذلى. لقد كان رضى الله عنه يقول لمريده سيدى زكى الدين الأسوانى: (يا زكى: عليك بأبى العباس فوالله إنه ليأتية البدوى يبول على ساقيه فلا يمسى عليه المساء إلا وقد وصله إلى الله لا يا زكى : عليك بأبى العباس، فوالله ما من ولى لله كان أو هو كائن إلا وقد أطلعه الله عليه لا يا زكى : أبو العباس هو الرجل الكامل) (٢).

ويروى عن الشيخ ماضى بن سلطان أنه قال : (وقع بينى وبين أبى العباس كلام فسمعتنى الشيخ - أى سيدى أبو الحسن- فقال لى : يا ماضى: الزم الأدب مع أبى العباس فوالله إنه لأعرف بأزقة السماء أكثر مما تعرف أنت أزقة الإسكندرية) (٣) لا لقد ارتفعت الحجب وانقشمت الأغلفة، وتبدت حقائق الأشياء لمن سيجد قلبه لرب الأشياء. ولم يلحق الإمام الشاذلى بالرفيق الأعلى إلا وقد صار سيدى أبو العباس نسخة منه أو صار هو. ولقد صرح سيدى أبو الحسن

(١) انظر : الإمام أبو العباس المرسى للدسيماوى ص ١٤٤ /

(٢) انظر لطائف المنن للإمام ابن عطاء الله : ص / ٧٠ والكواكب الدرية للإمام المناوى ٢٢/٢ .

(٣) انظر المعارف بالله أبو العباس المرسى للدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٥ سلسلة أعلام العرب .

بخلافة سيدى أبى العباس له، فقال لأصحابه : (إذا أنا مت فعليكم بأبى العباس المرسى، فإنه الخليفة من بعدى، وسيكون له بينكم مقام عظيم، وهو باب من أبواب الله سبحانه)^(١).

وانتقل سيدى أبو الحسن قدس الله سره إلى جوار ربه سنة ٦٥٦هـ، وترك سيدى أبا العباس خليفة له من بعده وشيخاً للطريقة الشاذلية العلية.

وصار سيدى أبو العباس أوجد الدنيا وقطب الزمان وكهفاً لأهل الحقيقة وداعياً للحضرة الإلهية، فتصدر للتربية وأخذ يوالى الأولياء والأقطاب بإمداده وينشر أقباسه فى الوجود وينفق على المستحقين من خزائن علمه وفيوضاته ما لا يوجد فى عصر واحد إلا لفرد واحد.

ولئن حاولنا أن نتصفح جوانب العظمة فى شخصية سيدى أبى العباس : لما وسعنا مجلدات ولا أسفار - وتلك حقيقة لا مبالغة فيها بحال - ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله. فلنقتبس شذرات مضيئة تشير إلى سموه فى الولاية والمعرفة.

أما عن الجانب العلمى عنده - وهو جدير بأن يستقل به بحث مستفيض - فنقول: سمعنا أن نصنفه إلى علم كسبى وعلم وهبى. ولا يعزب عنا أنه نشأ منذ البدء فى رحاب الفقه والدرس، وألم بحظ وافر من العلوم النقلية والعقلية من تفسير وحديث وفقه وأصول وأدب ولغة كائن ما يكون الدرس والتفقه. بيد أنه بعد أن اتصل بشيخه الإمام أبى الحسن: تفتحت أمامه كنوز المعرفة واستوعب فى حضرته - كتباً ووهباً - ما يعز استقصاؤه فى مختلف العلوم؛ لأن شيخه كان بجرأ فى العلوم حتى ليروى أنه كان إذا تحدث فى علم ما : ظن السامع أنه - لتبحره فيه - لا يجيد سواء. وتلك ملحوظة متواترة عن سيدى أبى الحسن. وكان سيدى أبو العباس يقيم فى القاهرة - بخط المقسم - أثناء إقامة شيخه بالإسكندرية. فكان لحرصه على حضور مجالس شيخه يذهب إليه كل ليلة من القاهرة إلى الإسكندرية ليحضر ميعاده ثم يرجع إلى القاهرة !!

(١) انظر : المصدر نفسه : ص ٤٢.

وكان من أبرز المصنفات التي تدرس في مجالس سيدى أبى الحسن- فى التصوف خاصة - : (ختم الأولياء) للحكيم الترمذى، (والإحياء) للإمام الغزالى . وكان سيدى أبو الحسن يشهد له بالصدىقية العظمى، وكذلك كتاب (الرسالة) للإمام القشيرى، و (قوت القلوب) للإمام أبى طالب المكى^(١).

وغير ذلك كثير وكثير فى علوم المعاملات والحقائق وغيرها. وأما عن العلوم الدنيوية عند سيدى أبى العباس؛ فإنها لا تقاس بحد ولا يتوقف لها على حصر؛ لأنها علوم سر، والسر لا يباح لغير أهله. ولقد أخذ سيدى أبو العباس ينهل من مناهل العلم الدنى فى حياة شيخه وبعد انتقاله وينفق منه على خواص أصحابه.

وقد نتساءل: لماذا لم يسطر الإمام المرسى علومه فى كتب ينتفع بها من بعده ؟ ولقد أجاب هو رضى الله عنه على هذا التساؤل قائلاً : (إن علوم هذه الطائفة علوم تحقيق، وعلوم التحقيق لاتحملها عقول عوام الخلق. فكتبى أصحابى)^(٢) ولطالما حظيت قلوب أصحابه بفيوضاته وأقباس معرفته.

يقول مولانا الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته عن القطب المرسى: (وكان رضى الله عنه أكثر ما يتكلم فى مجالسه فى العقل الأكبر والاسم الأعظم وشعبه الأربع والأسماء والحروف ودوائر الأولياء ومقامات الموقنين والإملاك المقربين عند العرش، وعلوم الأسرار وأمداد الأذكار، ويوم المقادير وشأن التدبير، وعلم البدء، وعلم المشيئة، وشأن القبضة، ورجال القبضة وعلم الأفراد، وما سيكون يوم القيامة من أفعال الله تعالى مع عباده من حلمه وإنعامه ووجوه انتقامه) ثم يقول : (وكان رضى الله عنه يقول : لولا ضعف العقول لأخبرت بما يكون من رحمة الله تعالى)^(٣).

ويقول الإمام ابن عطاء الله رضى الله عنه : (وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه لا ينزل إلى علوم المعاملة إلا فى قليل من الأيام لحاجة بعض الناس إلى

(١) انظر لطائف المنن لسيدى أحمد بن عطاء الله السكندرى : ص / ٧٧.

(٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله عنه : ١١/٢.

(٣) انظر : المصدر نفسه ١٣/٢ ولطائف المنن للإمام ابن عطاء الله ص ٨٨.

ذلك.. قال - ولذلك يقل اتباع من تكون علومه العلوم السابقة، فإن المشتريين للمرجان قد يكثرون وقل أن يجتمع على شراء الياقوت اثنان. ولم يزل اتباع أهل الحق قليلين كما قال تعالى في أهل الكهف : (ما يعلمهم إلا قليل) وأهل الله كهف لأموال الناس ولكن قليل من يعرفهم (١).

وكان سيدي أبو العباس رضى الله عنه يقول في شأن خصوصية العلم الوهبي الذي يفضى به لخواص مريديه : (والله ما كان اثنان من أصحاب هذا العلم في زمن واحد قط إلا واحداً بعد واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه) (٢).

وكان يقول أيضاً : (لا أعلم أحداً اليوم يتكلم في هذا العلم غيري) (٣). ولقد كان سيدي أبو العباس يريد أن يظل في خلوته معتزلاً للخلق منفرداً للحق ولكنه اضطر للجلوس على منصة الهداية اضطراراً، يقول رضى الله عنه : (والله ما جلست بالناس حتى هددت بالسلب، وقيل لى : لئن لم تجلس لسلبتك ما وهبناك) (٤) }

ويروى الإمام الشعراني رضى الله عنه أن رجلاً كان ينكر على سيدي أبي العباس ويقول: ليس إلا أهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظيمة ظاهرة الشرع يأبأها. فحضر يوماً مجلس الشيخ فأنبهر عقله ورجع عن إنكاره وقال: هذا الرجل إنما يفرف من فيض بحر إلهي ومدد رباني ! ثم صار من خواص أصحابه (٥).

وكان سيدي أبو العباس يقول : (شاركنا الفقهاء فيما هم فيه ولم يشاركونا فيما نحن فيه) (٦) }

(١) انظر لطائف المنن للإمام ابن عطاء الله ص ٨٨-٨٩ والطبقات الشعرانية الكبرى ١٣/٢.

(٢) « الطبقات الكبرى للإمام الشعراني ١٣/٢.

(٤) المصدر نفسه : ١٤/٢.

(٥) طر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني ١٣/٢.

(٦) المصدر نفسه .

إن علم الفقهاء قد حصله معهم ثم وقف هو على المنهل الأعذب، يرتشف منه دون مشارك ، وظل يرتوى حتى صار بجرأ متلاطم الأمواج بل محيطاً لا تلقى له ساحلاً من أى الفجاج.

وهاك مثلاً يصور درايته بعلوم اللغات: يروى الإمام ابن عطاء الله السكندري عن الشيخ نجم الدين الأصفهاني أنه قال : (قال لى الشيخ أبو العباس يوماً : ما اسم كذا وكذا بالعجمية؟ فخطر لى أن الشيخ يحب أن يقف على اللغة العجمية فأتيت إليه بكتاب الترجمان. فقال الشيخ رضى الله عنه : ما هذا الكتاب ؟ قلت كتاب الترجمان. قال: فضحك الشيخ وقال: سل ما شئت بالعجمية أجبك بالعربية أو سل ما شئت بالعربية أجبك بالعجمية. فسألته بالعجمية فأجابنى بالعربية، وسألته بالعربية فأجابنى بالعجمية، وقال : يا عبد الله: ما أردت بقولى ما اسم كذا إلا مباسطتك وإلا فلا يكون صاحب هذا الشأن - أى الولاية- ويخفى عليه شيء من الألسنة) (١).

وكان رضى الله عنه يقول : (إذا كمل الرجل نطق بجميع اللغات وعرف جميع الألسن إلهاماً من الله عز وجل) (٢).

وكان سيدى أبو العباس رضى الله عنه إماماً فى التفسير الصوفى وله دقائق وإلهامات فى استنباط أسرار القرآن الكريم لم تسمع إلا منه ولقد سمع رضى الله عنه يقول فى قوله تعالى : (اياك نعبد وإياك نستعين) : إياك نعبد : شريعة ، وإياك نستعين : حقيقة. إياك نعبد : إسلام ، وإياك نستعين إحسان، إياك نعبد : عبادة ، وإياك نستعين : عبودية : إياك نعبد فرق ، وإياك نستعين : جمع) (٣).

وكان يقول فى قوله تعالى : (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) (٤) : سمي خليلاً : لأنه خالل سره محبة الله تعالى . قال الشاعر:

(١) انظر لطائف المنن لسيدى أحمد بن عطاء الله : ص / ٨٠.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٣/٢.

(٣) انظر لطائف المنن للإمام ابن عطاء الله : ص / ١٠٨.

(٤) سورة النساء / ١٢٥.

قد تخللت مسلك الروح منى

ولذا سمي الخليل خليلاً

فإذا ما نطقت كنت كلامي

وإذا ما صمت كنت العليلاً^(١)

ويقول رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ سبحان الذى أسرى
بعبده ليلاً ﴾^(٢) : ولم يقل بنبيه ولا برسوله وهو نبيه ورسوله، وإنما كان كذلك لأنه
أراد أن يفتح باب السريان للأتباع فأعلمنا أن الإسراء من بساط العبودية، فالتبى -
صلى الله عليه وسلم - كان له كمال العبودية فكان له كمال الإسراء، أسرى بروحه
وجسمه وظاهره وباطنه. فالأولياء لهم قسط العبودية فلهم قسط من الإسراء.
يسرى بأرواحهم لا بأشباحهم^(٣).

(وأيضاً كان له رضى الله عنه تفسير للأحاديث النبوية الشريفة وإبداء
أسرار فيها على مذهب أهل الخصوصية. ولا مجال للبسط فى إيراد آرائه وإنما
نسوق مجرد مثل موجزه، فقد كان رضى الله عنه يقول فى قوله صلى الله عليه
وسلم : (إنما أنا رحمة مهداة) : إن الأنبياء إلى أمهم عطية، ونبينا صلى الله عليه
وسلم هدية، وفرق بين العطية والهدية، إن العطية للمحتاجين، أما الهدية:
فللمحبوبين (١)^(٤).

وقال فى قوله عليه الصلاة والسلام : (السلطان ظل الله فى الأرض) : هذا
إذا كان عادلاً. أما إذا كان جائراً : فهو ظل النفس والهوى^(٥) وفى قوله صلوات
الله عليه وسلامه عليه (من عرف نفسه عرف ربه) يقول قدس سره : معناه : من

(١) انظر : لطائف المنن : ص / ١٤٤.

(٢) سورة الإسراء / ١.

(٣) انظر : الإمام أبو العباس المرسى : للدسيوى ص ٩٤ ط/ دار المعارف.

(٤) انظر لطائف ص ١٣٣.

(٥) انظر الإمام أبو العباس المرسى : للدسيوى ص / ١٠٧.

عرف نفسه بذلها وعجزها عرف ربه بعزه وقدرته . وعلق على ذلك الإمام الشعراني
رضي الله عنه قائلاً : (وهذا أسلم الأجوبة والله أعلم)^(١) . كذلك كان لسيدى أبي
العباس رضي الله عنه تفسير لمشكلات القوم، وللعبارات المغلفة في كلام الأولياء
وأهل الحقائق.

من ذلك على سبيل المثال : قوله في قول سيدى أبي يزيد البسطامي رضي
الله تعالى عنه وعنا به « خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله » : (معناه أن أبا يزيد
رضي الله تعالى عنه يشكو ضعفه وعجزه عن اللحق بالأنبياء عليهم الصلاة
والسلام؛ وذلك لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خاضوا بحر التوحيد ووقفوا على
الجانب الآخر على ساحل الفرق يدعون الخلق إلى خوض . أي : فلو كنت كاملاً
لوقفت حيث وقفوا)^(٢) اهـ، ومن ثم ندرك أن لكلام الأولياء رضوان الله عليهم
المتعلق بالحقائق فهما خاصا لا يقف عليه إلا أهله.

نقول ذلك لأن المحجوبين والمعاندين يتلمسون الوهم من تلك الأقوال
ليقدحوا به في التصوف والعيب فيهم وليس في الصوفية.

وكم من عائب قولاً صحيحاً

وأفاته من الفهم السقيم

ولقد قبيض الله لأوليائه من يزود عنهم ويبين مرامي كلامهم الحافل بالدر
واليافوت والماس من أمثال القطب أبي العباس . أما أقوال الإمام أبي العباس نفسه
في علوم الحقائق فدونك بحر ليس له ساحل . فلنرتشف بعض قطراته لنروى
تعمش أرواحنا للحقيقة .

كان رضوان الله عليه يقول : (جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خلقوا
من الرحمة ونبينا صلى الله عليه وسلم هو عين الرحمة)^(٣) .

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضي الله عنه ١٢/٢ .

(٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعراني : ١٥/٢ .

(٣) انظر : المصدر نفسه ١١/٢-١٢ .

ومن روائع حكمه التربوية التي كان يؤدب بها مريديه قوله رضى الله عنه :
(إن الله تعالى جعل الأدنى ثلاثة أجزاء ، لسانه جزء ، وجوارحه جزء وقلبه جزء ،
وطلب من كل جزء وفاء . فوفاء القلب ألا يشتغل بهم رزق ولا مكر ولا خديعة ولا
حسد ووفاء اللسان ألا يغتاب ولا يكذب ولا يتكلم فيما لا يعنيه ووفاء الجوارح ألا
يسارع بها قط إلى معصية ، ولا يؤذى بها أحداً من المسلمين ، فمن وقع من قلبه فهو
منافق ، ومن وقع من لسانه فهو كافر : ومن وقع من جوارحه فهو عاص) (١).

وكان رضوان الله عليه يقول : (ما سمى إبراهيم الخليل فتى إلا لكونه كسر
الأصنام الحسية التي وجدها ، وأنت يا ولدى لك خمسة أصنام معنوية ، فإن كسرتها
فأنت فتى : النفس ، والهوى ، والشيطان ، والشهوة ، والدنيا . وأفهم هنا : لا سيف
إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على) (٢).

(وكان رضى الله عنه يقول : (للناس أسباب وسببنا نحن الإيمان والتقوى .
قال الله تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء
والأرض ﴾ (٣) ﴿ (٤).

ومن كلامه رضى الله عنه : (جميع أسماء الله للتخلق إلا اسمه « الله » فإنه
للتعلق . فليكن ذكرك « الله » فإن هذا الاسم سلطان الأسماء وله بساط وثمره .
فبساطه العلم وثمرته النور ، والنور ليس مقصوراً وإنما يقع به الكشف والعيان) (٥).

وتحدث رضى الله عنه عن الأولياء صفوة الله من خلقه وما لهم من المنازل
والعطاءات فقال : (إن لله عباداً محق أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذاتهم
بذاته وحملهم من أسرارهم ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه) (٦) إنه وصف خواص

(١) انظر لطائف المنن : ص / ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) انظر لطائف المنن : ص / ١٤٩ .

(٣) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشمراني رضى الله عنه ١٤/٢ .

(٤) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشمراني ١٤/٢ .

(٥) انظر . الطبقات الكبرى للإمام الشمراني : ١٧/٢ ولطائف المنن ص / ١٤٨ .

والإمام أبو المناس المرسى للسيماوى ص ٥٦ .

(٦) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشمراني ١٢/٢ .

الأولياء وقد تحدث به الإمام أبو العباس عن تحقق. ولقد حذر سيدي أبو العباس من معاداة الأولياء والوقوف فيهم قائلاً : (إذا ضاق الولي هلك من يؤذيه في الوقت : وإذا اتسعت معرفته احتمل أذى الثقلين ولم يحصل لأحد منهم ضرر بسببه) (١) ولكنه إذا لم ينتقم الولي لنفسه لسعة معرفته فإن متوليه ينتقم له؛ ولذا يقول الإمام المرسى : (لحوم الأولياء مسمومة ولو لم يؤاخذوك فإياك ثم إياك) (٢) وكان رضى الله عنه يعرف بأقدار الأولياء وأئمة الصوفية ويتحدث عن مقاماتهم. فمن ذلك قوله : (كان الجنيد رضى الله عنه قطباً في العلم . وكان سهل التستري رضى الله عنه قطباً في المقام، وكان أبو يزيد رضى الله عنه قطباً في الحال) (٣).

وأما عن اطلاع الأولياء على الأمور الغيبية وكشفهم لها فيقول قدس سره (قد يطلع الله الولي على غيبه إذا ارتضاه بحكم التبع للرسول عليهم الصلاة والسلام ومن هنا نطقوا بالمغيبات وأصابوا الحق فيها) (٤).

وقد أذن لسيدى أبى العباس رضى الله عنه أن يتحدث بما أنعم الله عليه من منح وهبات اصطفاوية إبرازاً لفضل الله على أوليائه. وقد صورت هذه الأقوال سمو الإمام المرسى وتفردته في ذروة الولاية والتحقق والتمكين. كان رضى الله عنه يقول : (والله ما سار الأولياء والأبدال من (ق) إلى (ق) إلا حتى يلتقوا مع واحد مثلنا) (٥) وكان رضوان الله عليه يقول : (والله لو علمت علماء العراق والشام ما تحت هذه الشعرات -وأمسك على لحيته- لأتوها ولو حبوا على وجوههم) (٦).

ويروى الإمام الشعراني أن سيدى أبا العباس رضى الله عنه كان يقول (لى أربعون سنة ما حجبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو حجبت طرفة عين ما عددت نفسى من جملة المسلمين) وكذلك كان يقول في حق الجنة وفي حق الوقوف بعرفة كل سنة (٧).

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني ١٤/٢.

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني ١٤/٢.

(٣) المصدر نفسه : ١٧/٢.

(٤) (٥) المصدر نفسه : ١٢/٢.

(٦) (٧) المصدر نفسه : ١٣/٢.

وذكر سيدي أحمد بن عطاء الله في سفره الثمين : (لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسى وشيخه الحسن) عديداً من المنازل والأحوال والمقامات عن الإمام المرسى ما يشهد بأنه قطب عصره الفرد . فيروى عن الإمام الشاذلي أنه قال : لن تهلك طائفة فيها إمام وولي وصديق وشيخ . ثم قال : فالإمام أبو العباس ^(١) .

أما كرامات سيدي أبي العباس فلن يتسع المقام للإفاضة فيها وحسبنا أن نذكر أنه كان يقول قدس سره (والله ما جلست حتى جعلت جميع الكرامات تحت سجادتي) ^(٢) .

فلنتبرك بذكر ثلاث منها :

فإحداها : أنه أخبر بخليفته سيدي ياقوت المرشى يوم ولد ببلاد الحبشة وصنع له عصيدة أيام الصيف بالإسكندرية ، فقيل له : إن العصيدة لا تكون إلا في أيام الشتاء ، فقال : هذه عصيدة أخيكم ياقوت ، ولد ببلاد الحبشة وسوف يأتيكم فكان الأمر كما قال .

و الثانية : أنه قدم إليه رجل طعاما فيه شبهة يمتحنه ، فردده وقال : إن كان المحاسبى كان إذا مد يده إلى شبهة ضرب عرق بإصبعه ، فأنا في يدي ستون عرقاً تضرب .

والثالثة : ما ذكره الإمام النبهاني أن أهل الإسكندرية خافوا هجوم العدو فتقلدوا السلاح ، فقال الشيخ : ما دمت بين أظهركم لا يدخلها ، فلم يدخلها إلا بعد موته ^(٣) .

رضى الله عنك يا سيدي أبا العباس وجعلنا من خواص أحبابك في الدنيا ويوم الدين .

(١) انظر : لطائف المنن : ص ٧٠ نشر السعيدية .

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشمراني ١٨/٢ .

(٣) انظر الكرامات الثلاث في جامع كرامات الأولياء للإمام النبهاني : ١/ ٥٢٠ - ٥٢٢ .

من أعلام أئمة الصوفية في :

القرن الثامن

[١ - سيدى محمد بهاء الدين النقشبندى .]

إمام الطريقة النقشبندية سيدى محمد بهاء الدين النقشبندى رضى الله عنه

فى محيط النور الإلهى لاحت إشراقات التجليات الإلهية لأهل الوفاء والصفاء ، واستروحت قلوبهم بروح القرب والمشاهدة ، وتعمت أرواحهم بالإلقاء فى عين بحر الوحدة حيث لا تسمع إلا بالله ولا تبصر إلا بالله ، إنها قلوب تعرفت فعرفت ، وشاهدت فتيقنت ، وتحققت بولاية الله ففاضت بالنعيم الأبدى . والفتوح السمردى . تلك مواهب الله تعالى لأحبائه وأصفياه الذين أنزلهم منازل قربه وأحلهم ساحات رضوانه فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وفى علياء منازل أولئك الصفوة المقربين والأئمة العارفين القطب الجامع والعلم الشامخ سيدى محمد بهاء الدين النقشبندى رضى الله عنه .
هو الشيخ الأعظم للطريقة النقشبندية ، وأحد أعلام الصوفية الأفاض المتربعين على قمة الوصول .

ولد رضى الله عنه بقصر العارفان وهى قرية من قرى بخارى تبعد نحو فرسخ منها . والألف والنون فيها علامة الجمع فى اللغة الفارسية . وكان مولده فى شهر المحرم سنة سبع عشرة وسبعمائة هجرية (١) .

فنشأ وترى فى أحضان الرعاية حتى استوى عوده . وفى كل يوم تلوح عليه سمات نورانية تبشر بفتوح ربانى عظيم . وقد تلقى سيدى محمد بهاء الدين أصول

(١) انظر : رشحات عين الحياة : للشيخ على بن حسين الواعظ الهروى ص ٥٠ نشر دار صادر .

الطريقة عن ثلاثة من أجلاء الصوفية الأعلام حيث أمده كل منهم بمدد وسقاء من نبعه ، وكانت تربيته على يد أحد هؤلاء الثلاثة تربية أويسية حيث أمدته روحانية القطب الكبير سيدى عبد الخالق الفجدوانى - رضى الله عنه - بالمدد الروحى الأعظم ، وسرت فيه نورانيته وأعدت قلبه لتلقى الفيوضات الريانية والنفحات القدسية .

ثم كان التلاقى بين التربية الأويسية فى الباطن والتربية الروحية فى الظاهر حينما هيات له العناية أن يلتقى باثنين من أركان الطريق الصوفى النقشبندى فى عصره وهما القطب الراشخ سيدى محمد بابا السماسى والصوفى العارف سيدى الأمير كلال رضى الله عنهما .

ويلاحظ فى أسماء هؤلاء الشيوخ الثلاثة كما يلاحظ فى أسماء الشيوخ النقشبندية بصفة عامة أنها أسماء فارسية وأعجمية . ذلك لأن انتشار الطريقة النقشبندية كان على أوسع نطاق فى بلاد الفرس والعجم كما كان فى بلاد الترك ، والعراق وغيرها من بلاد ما وراء النهر .

أما قصة اللقاء الأول مع الشيخ العارف سيدى محمد السماسى : فيقصها سيدى محمد بهاء الدين قدس الله سره إذ يقول : « أرسلنى جدى وكان سنى وقتئذ نحو ثمان عشرة سنة إلى سماس لخدمة العارف الكبير والمرشد الشهير الشيخ محمد بابا السماسى باستدعاء منه لى ، فلما نلت الحصول إليه لم يأت وقت الغروب إلا وقد وجدت ببركته بنفسى سكىنة وخشوعا وتضرعا ورجوعا . ثم إنى قمت وقت السحر فتوضأت وأتيت المسجد الذى فيه أصحابه ، فأحرمت بالصلاة . فلما سجدت دعوت الله تعالى وتضرعت إليه كثيرا فمر على لسانى أثناء دعائى :

إلهى : أعطنى قوة على تحمل البلاء ، ومنحة المحبة . ثم إنى صليت الفجر مع الشيخ قدس سره . فلما انصرف من الصلاة التفت إلى وذكر لى كل ما صدر منى على طريق الكشف ثم قال لى : يا ولدى : ينبغى أن تقول فى دعائك : إلهى أعط هذا العبد الضعيف ما فيه رضاك . فإنه تعالى لا يرضى أن يكون عبده فى

بلاء ، وإن ابتلى حبيبته على مقتضى حكمته يعطه قوة على تحمله ويطلعه على حكمته . فلا ينبغي للعبد أن يختار البلاء فإنه يناهى مقام الأدب ، اهـ^(١) .

لقد كان هذا هو اللقاء الأول والمرتبب لسيدى محمد مع شيخه الكبير . وكان لقاء يشع بالنور ويسمو بالروح إلى آفاق العبودية الخالصة والأدب الكامل مع الله تعالى .

وأمام هذه الكشوفات القلبية الباهرة والمعارف الربانية العالية وجد سيدى محمد بهاء الدين الصورة المثلى للشيخ المربى ، ورأى فى شيخه الأسوة الحسنة والمثل الأعلى فى العرفان والتحقيق . فلأزمه وتأسى بهديه وسلوكه . فكانت ذاته تشرب من ذاته النور والهدى . وهذه هى حقيقة المريد وعلاقة الشيخ بمريده فى الطريق . وظلت تلك الرابطة الروحية بين الشيخ والمريد إلى أن لحق الشيخ بربه وترك فى قلب مريده مفتاح الحب الإلهى الذى بدأ إشراقه يسطع أنا إثر آن .

ثم بعد وفاة العارف السماسى - وقد وضع سيدى محمد بهاء الدين قدمه فى الطريق - أخذه جده إلى سمرقند وصار يتردد به على الصالحين والأقطاب آملاً أن تناله بركاتهم . ثم أتى به إلى بخارى وزوجه بها ، وكانت إقامته فى قصر العارفان حيث الانقطاع إلى العبادة والتشريع والتحقيق .

كل ذلك ومدد شيخه السماسى يتواصل إليه ، وروحانية القطب سيدى عبد الخالق تكتنفه وتفدق عليه من أسرارها وإمدادها إلى أن جمعت المقادير بثنائى اثنين من شيوخ الظاهر ، وهو القطب العارف السيد أمير كلال قدس سره .

وكان اللقاء الحبيب لقاء القلب والروح ، لكى يسرى المدد المحمدى الذى روى أصل هذه الشجرة النقشبندية المباركة ليصل إلى فنن طالما ستطيب ثماره وتتفتح أزهاره ويتضوع أريجته فى الأفاق يبيت أنفاس الطهر والصفاء ويحيى أرواحاً تتعشق الضياء ذلك هو القطب البهاء وارث مدد الأنبياء .

(١) انظر : الحقائق الوردية فى حقائق أجلاء النقشبندية للشيخ عبد المجيد الخانى، ص ١٢٦ نشر الدروبي بسورية.

وكانت الصلة بالسيد أمير كلال امتداداً للصلة الوثقى بالقطب السماسى .
حتى لقد أخبر السيد الأمير كلال سيدى محمد بأن الشيخ السماسى قد أوصاه به
وقال له : لا تال جهداً بتربية ولدى محمد بهاء الدين ولا بالشفقة عليه ، ولست منى
فى حل إن قصرت فى ذلك . فقال له قدس سره : إن أنا قصرت فى هذه الوصية
فلست برجل (١) .

ووفى الأمير بوعده أيما وفاء ، والشئ من معدنه لا يستغرب فهم أهل الوفاء
والصفاء .

وعن نقطة التحول فى بداية سلوك سيدى محمد بهاء الدين يقول: مبتداً
يقظتى وتوبتى أنى كنت جالساً مع صاحب لى فى خلوة فيينما أنا ملتقت إليه أكلمه
إذ سمعت قائلاً يقول لى :

أما آن لك أن تعرض عن الكل وتتوجه إلى حضرتنا ؟ فحصل لى من سماع
هذا الكلام حال عظيم (٢) .

ودخل سيدى محمد بهاء الدين مرحلة جديدة فى التربية الروحية بالذكر
والعبادة والعلم والعمل . وكان شيخه يعده لأن يكون نسيج وحده . فذاً فى عصره .
إماماً فى زهده وورعه . والطريق إلى ذلك واضح ومستقيم ، ولكنه مكتنف بأشواك
المجاهدة . إذ لابد من محو الإنية لاختراق الحجب . ولابد من قمع النفس لانطلاق
الروح . إن الغاية سامية فلا بد من مشقة الصعود . ولكن إذا هلت بشائر التوفيق
تذلت الصعاب ، وهانت المشقات وصارت العبادات عادات والمجاهدات ترويحيات .

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وبالإضافة إلى صحبة العارف بهاء الدين لشيخه القطب السماسى والأمير
كلال . فإنه كذلك قد صحب عدداً من شيوخ بخارى ؛ إذ التقى بالعارف الشيخ

(١) انظر - الحقائق الوردية للشيخ عبد المجيد الخانى ص ١٣٦ .

(٢) انظر المصدر نفسه .

قثم أحد أكابر الأولياء ، كما التقى بالقطب (عارف الديك كرانى) أحد العارفين وصحبه سبع سنين . كما كان له من شيوخ الترك نصيب فى التربية الروحية . إذ التقى فى بخارى بالقطب الجليل الشيخ خليل الذى ولى سلطاناً على بلاد ما وراء النهر ، واستمرت صحبته له ست سنين أفاد فيها من صحبته ووقف على جملة من آداب السلوك الخاصة بالكمل من الرجال (١) .

وهكذا نجد القطب البهاء يتنقل فى رياض المعرفة والسلوك ويصحب أئمة الزهد والعرفان فى عصره حتى اكتمل بدره وبلغ أشده فى الطريق فخاص فى بحار المعرفة وشرب من ينابيع المحبة . واستغرق فى مشاهد الفتح الإلهى حتى صار أوحده وقته ونادرة زمانه . يقول قدس الله سره : (كنت يوماً من أيام الأحوال فى ذلك البستان - وأشار إلى البستان الذى هو الآن محل ضريحه الأنور - أنا وجماعة من المتعلقين بى . فغلبت على الجذبات الإلهية ولطف العنايةات الربانية واضطريت اضطراباً عظيماً لم أطق معه الثبات ولا الاشتغال وأنا مستريح . فقامت مسلوب القرار وجلست مستقبل القبلة فحصل وقتئذ غيبة اتصلت بالفناء الحقيقى وحقيقة الفناء فى الله عز وجل . ورأيت أنى فى صورة نجم فى بحر من نور بلا نهاية ، وأنى انمحيت فيه ولم يبق بى من الحياة الظاهرة أثر . ففزع الحاضرون ويكوا فى تلك الحالة على ، ثم بعد ست ساعات ردت إلى بشرى شياً فشيئاً (٢) .

إنه مشهد من مشاهد الفناء فى الله عز وجل ، ولقد كان سيدى محمد بهاء الدين مستغرقاً فى هذا المشهد الذى يفنى العبد فى حقيقة الحقائق فصار مختصاً بهذا المقام فى ديوان الولاية .

وعن خصوصيات الأولياء يقول سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى رضى الله عنه فى كتاب جامع أصول الأولياء : (اعلم أن لكل من الأولياء خصوصية ، وهمة فى الحياة وبعد الممات كتقش الحقيقة والإلقاء فى بحر الوحدة والفناء

(١) انظر الحقائق الوردية للشيخ الخانى : ص ١٢٩ .

(٢) المصدر نفسه : ص ١٣٠ .

والاستغراق لشاه نقشبندی محمد بهاء الدين ، وقوة التصرف والإمداد لعبد القادر الجيلاني ، وقوة العمل والواردات لجلى أبى الحسن الشاذلى ، وخرق المادة والفتوة لحضرة أحمد الرفاعي ، والترحم والتعطف للسيد أحمد البدوي ، والسخاء والكرامة لإبراهيم الدسوقي ... إلخ) (١) .

رضى الله عنهم أجمعين وأمدنا بمددهم فى الدارين . إنها خصوصيات ومراتب اختص بها رجال الله وراثه نبوية واستمداداً من الفيض المحمدى الذى سرى نوره فى العالمين .

ولقد عرف سيدى محمد بهاء الدين خصوصيات أولياء الله بفناص فى بحارهم وجاء بالعجب . ومما يشهد له برسوخ قدمه فى معرفة آثار روحانية السادة الصوفية الأمجاد قوله : « إن التوجه لروحانية أويس القرنى رضى الله عنه له أعظم تأثير فى الانقطاع التام والتجرد الكلى عن العلائق الباطنة والظاهرة ، والتوجه لروحانية الإمام محمد بن على الحكيم الترمذى يوجب محو الصفة » (٢) .

ولم يكن علمه بتلك الأمور من قبيل الإدراك النظرى فحسب وإنما الشيخ قد تحقق بكل تلك المقامات حتى صدرت عنه تلك الإشارات صدور الشعاع عن الشمس . ويؤيد ذلك ما ذكره العارف الشيخ صلاح جامع فى مناقبه بقوله : (كنت عند الشيخ سنة تسع وثمانين وسبعمائة فسمعتة يقول : إن لى اثنتين وعشرين سنة وأنا على قدم الحكيم الترمذى ، فإنه كان لا صفة له وأنا الآن لا صفة لى عرف ذلك من عرف) (٣) .

لقد فنيت صفاته فى صفات مولاه فناء محاً منه كل شوائب الأنية حتى صار ربانياً بمعنى الكلمة مصطنعاً للحق ومجتبى للمولى لا يرى فى الوجود إلا مولاه وذلك قطب رحى الولاية .

(١) انظر جامع الأصول فى الأولياء وأنواعهم . لسيدى أحمد ضياء الدين النقشبندى الكمشخانى : ص ٥ ط / العلوى .

(٢) انظر : العدايق الوردية للشيخ الغانى : ص ١٣١ .

(٣) انظر الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية للشيخ الغانى والشيخ يس السنهوتى ص ١٣١ .

ولقد كانت عزيمة الشيخ البهاء رضى الله عنه فى هذا الطريق تسبق ارتداد الطرف . فمنذ أزمع السير إلى الله لم تقف أمامه عقبة . ففارق قرنائه ووصل إلى القمة وحده . وها هو ذا يقول : (وضعنا القدم فى هذا الطريق نحو مائتى شخص فاجتهدت أن أسبق الجميع فأدركتنى عناية الله تعالى فسبقتهم ووصلت إلى المقصود) (١) .

ولقد وصل إلى مقصوده وهو الله سبحانه وتعالى بهدى من الله ، ولم ينل هذا الهدى إلا بالمفتاح القرآنى : « والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا » (٢) .
أجل إنه الجهاد الأكبر .

إنه صقل مرآة القلب والتجرد عن علائق النفس . ولقد عنى سيدى محمد بهاء الدين بذلك أيما عناية إذ يقول قدس الله سره : (أربعون سنة وأنا فى ملاحظة مرأتى والعمل بها فلم تغلط مرآة وجودى أصلاً) (٣) .

ولما صعد إلى القمة وتوالت عليه الفتوحات قال : (مرآة المشايخ لها جهتان ومرأتنا لها ست جهات) (٤) .

ومن مشاهد تلك الفتوحات الإلهية : ما ذكره رضى الله عنه إذ يقول (طفت ليلة حول (زيورتون) فوصلت إلى أكمة هناك فورد على حال عجيب فقيل لى : اطلب من حضرتنا ما أردت . فقلت مع التواضع والخضوع : إلهى ، هب لى قطرة من بحار رحمتك وعنايتك . فقيل لى : تطلب من كرم حضرتنا قطرة ؟ فأخذنى حال أعظم وهزتنى الأريحية وعلو الهمة فلطمت وجهى لطمة قوية وجدت ألمها أياماً وقلت : يا كريم هب لى بحار رحمتك وعنايتك مع القوة على تحملها . فظهر لى على الفور أثر الموهبة والعناية وببركة ذلك بلغت ما بلغت) (٥) .

(١) انظر : الحقائق الوردية : ص ١٢١ .

(٢) سورة العنكبوت / ٦٩ .

(٣) ، (٤) انظر الأنوار القدسية : ص / ١١٣ .

(٥) انظر : الحقائق الوردية : ص ٣٠ - ٣١ .

ولقد كان القطب بهاء الدين على صلة بسيدنا الخضر وكثيراً ما كان يلتقى به ويراه أصحابه ومريدوه .

وقد روى صاحب الحقائق الوردية : إن أحد أجلاء أصحاب الشيخ وهو الشيخ خسرو قال : (قصدت يوماً زيارة الشيخ رضى الله عنه . فوجدته واقفاً فى البستان على حافة الحوض يتكلم معه شيخ لم أعرفه ، فلما سلمت عليه انصرف ذلك الشيخ إلى ناحية من نواحي البستان . فقال لى رضى الله عنه : هذا الخضر -مرتين - فلم أتكلم بل سكت . وبعمون الله لم أجد فى نفسى ميلاً إليه - أى عن شيخى - لا ظاهراً ولا باطناً ثم بعد يومين أو ثلاثة رأيته أيضاً فى بستان الخانقاه يتحدث مع الشيخ رضى الله عنه . وبعد مضى شهرين لقيته أيضاً فى سوق بخارى فتبسم فسلمت عليه فعانقنى وباسطنى وسألنى عن أحوالى . فلما رجعت إلى قصر العارفان وتمثلت فى أعقاب الشيخ رضى الله عنه قال لى : « إنك اجتمعت بالخضر فى سوق بخارى » . ا هـ (١) .

وهكذا تتضح صلة الشيخ الوثيقة بسيدنا الخضر ، وهكذا نرى أدب صاحبه ومريده الذى حفظ لشيخه حقه ولم يركن بقلبه لسوى شيخه حتى ولو كان سيدنا الخضر . ثم هكذا ترى مكاشفات الشيخ لمريده مع بعد المسافة بينهما إذ رآه وهو يعادى الخضر بسوق بخارى .

وثمة واقعة عجيبة ذكرها صاحب الحقائق الوردية وهى تشهد لسيدى محمد بهاء الدين بسمو منزله فى إظهار الكرامات والخوارق . يقول خليفته ووارث سره من بعده سيدى علاء الدين العطار : (كنت عند حضرته - أى الشيخ - فى يوم غيم فقال لى : هل دخل وقت الظهر ؟ فقلت له : لا . فقال : انظر إلى السماء . فنظرت فلم أجد حجاباً أصلاً ورأيت جميع ملائكة السموات يشتغلون بصلاة الظهر . فقال : ما تقول ؟ هل صار وقت الظهر ؟ فخجلت مما صدر منى واستغفرت منه وبقيت مدة وأنا أجد لذلك فى نفسى ثقلاً عظيماً (٢) .

(١) انظر الحقائق الوردية للشيخ الغانى ص ١٣٩ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٣٨ .

إنه نور البصيرة الذى يقطع الحجب والمسافات وإنها لمكاشفات العارفين المحققين .

ولقد عرف أئمة الصوفية لسيدي محمد بهاء الدين قدره ومنزلته فى الطريق، فهو الإمام المجدد روح الطريقة النقشبندية ، ولقد ذكر صاحب الحقائق الوردية أن الحكيم الترمذى قد أخبر الشيخ عبد الله الخجندى بأن الشيخ بهاء الدين هو قطب الزمان (١) .

ولما سميت هذه الطريقة بالنقشبندية ؛ لأنها تصل بالعبد إلى مقام نقش اسم الجلالة على القلب بالنور الإلهى ، ومن ثم فقد قيل فى منظومة السلسلة النقشبندية العلية عن القطب بهاء الدين وطريقته :

بهاء الدين محمد روح طريقتنا لله نجى
صافى المولى حتى انتقشت أسماء الذات على المهج

إنها طريقة مؤسسة على اتباع السنة واجتناب البدعة والأخذ بالمعزائم والتخلى عن الرذائل والتحلّى بمحاسن الأخلاق والفضائل . ومبنى هذه الطريقة على التصرف وإلقاء الجذبة المقدمة على السلوك من المرشد الداخل تحت وراثته - صلى الله عليه وسلم - فى قوله (ما صب الله فى صدري شيئاً إلا وصبته فى صدر أبى بكر) (٢) .

ولما كان مبنى هذه الطريقة على تقديم الجذبة على السلوك ومبنى بقية الطرق على تقديم السلوك على الجذبة فقد قالوا : (إن بداية الطريقة النقشبندية نهاية سائر الطرق إلا من كان له قدم المحبوبة من الأولياء من حيث هو طريق لاغير وجميع أولياء الله شخص واحد كما قال سيدنا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً) .

(١) انظر المصدر نفسه : ص ١٢٨ .

(٢) رواء المحب الطهرى فى الرياض النضرة ونقله عنه الإمام مصطفى البكرى رضى الله عنه فى كتاب (الصلاة الهامة بمعية الخلفاء الأربعة) ص / ٤٠ ط / الحلوى - ولقطه فيه : (ما أوحى إلى شىء إلا صبته فى صدر أبى بكر) .

وقد اختار سيدى محمد بهاء الدين لطريقته الذكر الخفى وهو ذكر القلب والروح والسر .

وفى فضل هذا النوع من الذكر أخرج البيهقى فى شعب الإيمان أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : (الذكر الذى لا تسمعه الحفظة يزيد على الذكر الذى تسمعه الحفظة سبعين ضعفاً) .

وأما عن آداب الطريقة النقشبندية فيقول القطب بهاء الدين :

(لهذه الطريقة ثلاثة آداب : أدب مع الله سبحانه وتعالى ؛ وهو أن يكون المرید فى الظاهر والباطن مستكماً للعبودية بامتثال الأوامر واجتناب النواهى معرضاً عن سواء بالكلية .

وأدب مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو أن يستغرق فى مقام (فاتبعونى) ويراعى ذلك فى جميع الأحوال وجوباً ، ويعلم أنه - صلى الله عليه وسلم - واسطة بين الحق والخلق، وأن كل شئ تحت تصرف أمره العالى .

وأدب مع المشايخ وهو لازم للطالبين ؛ لأنهم سبب فى متابعتهم - صلى الله عليه وسلم - ووصلوا إلى مقام الدعوة إلى الحق فينبغى للمرید حضوراً أو غيبة أن يكون مراعيّاً لأحوالهم مقتدياً بهم متمسكاً بأذيالهم) (١) .

ويصرح الشيخ بعناية الشيخ بمريده قائلاً : (كل من مال إلينا أو انتسب إلى محبتنا بعيداً كان أو قريباً لابد أن نلاحظ نسبته كل يوم وليلة ونمده من منبع عين الشفقة والترية بالإمداد الدائم إن كان حافظاً لأحواله منقياً لطريق الإمداد من أدناس العلاقات وأوساخها) (٢) .

ولقد أكد سيدى بهاء الدين رضى الله عنه استمداد طريقته من السنة المحمدية المطهرة إذ قال : (إن طريقتنا من النوادر وهى العروة الوثقى وما هى إلا التمسك بأذيال متابعة السنة السنية واقتفاء آثار الصحابة الكرام . ولقد أدخلونى

(١) . (٢) انظر : الحقائق الوردية للشيخ الخانى ص / ١٣٣ .

فى هذا الطريق من باب الفضل فىنى لم أشهد أولاً وآخرأ إلا فضل الحق تعالى والعمل فيه يحصل منه فتوح كثيرة؛ لأن رعاية السنة السنفة من أعظم الأعمال^(١) لقد شيد الإمام بهاء الدين طريقته على السنة المحمدية ورى بها رجالأ صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وسارو على الدرب حتى وصلوا إلى غايتهم السامية .
وممن شرف بهم عصرنا من أقطاب هذه الشجرة النقشبندية المباركة :
الإمام العارف قطب الوجود سيدى الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنه وأمدنا بمدده مع سائر أئمة هذا الطريق وكل طريق يوصل إلى الله تعالى .
(وأخيراً) : وبعد هذه المسيرة الروحية مع إمام الطريقة النقشبندية نسال الله تعالى أن يغمرنا بنفحات وبركات سيدى محمد بهاء الدين ، وأن يحشرنا فى زمرة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقأ ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

(١) انظر : الحقائق الوردية ص / ١٢٥ .

القرن التاسع

- ١ - سيدنا السلطان الحنفى رضى الله عنه سنة ٨٤٧
- ٢ - سيدنا إبراهيم المتبولى رضى الله عنه وعنا به
سنة ٨٨١

قطب أقطاب عصره مولانا السلطان شمس الدين الحنفى رضى الله عنه

أظهر الحق تبارك وتعالى أولياءه إلى الوجود أقباساً من النور يهتدى بها السابحون فى محيط الحياة ، وأبرز فيهم من الشواهد والصفات الدالة على اجتباؤه لهم مالا يدع مجالاً للارتياح إلا فى نفس حجبت عن النور . وها نحن أولاء نتعرف على تلك الشواهد والصفات فى شخصيات أولئك الخاصة الأتقياء - ماوسعنا التعرف - علنا نقتفى أثرها فتمضى من ورائهم إلى أشرف غاية وأكرم سبيل .

وشخصية العارف الكبير مولانا السلطان الحنفى تحمل من مواهب الاصطفاء ودلائل العناية ما لا يتسع له تصور ولا يقوى على استشراف آفاقه خيال . ولقد صدق الإمام الشعرانى رضى الله عنه إذ قال : (لو رام الولي نفسه أن يتكلم على مقام نفسه لا يقدر)^(١) .

ونحن إنما نقف وراء الكلمات المأثورة والأحداث المروية نستخبرها ونستكنه ما وراءها من معطيات ودلالات تقرينا من شخصية هذا القطب الريانى الذى أجمعت آراء أهل التحقيق على بلوغه أسمى مراتب العرفان وترقيه لأعلى مراقى الولاية .

فهو أحد صدور الأئمة المارفين والأقطاب الواصلين سيدى محمد شمس

(١) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : ٧٩/٢ .

الدين الحنفى الصديقى الذى ينتهى نسبه إلى سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو حنفى المذهب . ولد رضى الله عنه سنة ٧٦٧ هـ ، وتوفى سنة ٨٤٧^(١) .

وقد نشأ نشأة أهل العناية يتيم الأبوين ، وقضى طفولته فى بيت خالته . فلما بلغ من العمر سبع سنين مضى به زوج خالته إلى بعض أصحاب الحرف ليعلمه حرفة يكتسب منها . فكان سيدى محمد يهرب من عند صاحب الصنعة إلى الكتاب ليحفظ القرآن الكريم . وتوالى هروبه إلى الكتاب حتى كان هو المنتصر برغبته على ميول زوج خالته . وكان من رفقاته فى الكتاب : شيخ الإسلام ابن حجر ، وجلال الدين بن المطوع وغيرهما^(٢) .

ولما أتم سيدى محمد الحنفى حفظ القرآن الكريم : صار يبيع الكتب فى سوقها فمر عليه بعض الأولياء فقال (يا محمد ما للندى خلقت)^(٣) ! فكانت هذه الكلمة هى الحد الفاصل بين حياتين شتان ما بينهما ، إذ كانت فاتحة الذهاب إلى الله تعالى .

فدخل الخلوة للعبادة وهو ابن أربع عشرة سنة ومكث فيها سبع سنين حتى سمع وهو فى الخلوة هاتفا يقول : (يا محمد : اخرج انفع الناس) ثلاث مرات ، وهدد بالقطيعة إن لم يخرج^(٤) . إذ لم تكن له رغبة فى ترك الخلوة والخروج إلى الناس ، ولكن العناية كانت تؤهله لمنصب جليل هو دلالة الخلق على الله تعالى وسوقهم إليه . وتوالى الفتح الإلهى على الشيخ الحنفى حتى صار أوحده زمانه وفريد عصره علما وعملا وولاية وتحققا .

والسلطان الحنفى شاذلى الطريقة . وقد بشر به سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، إذ أسر إلى بعض خواص أصحابه (سيظهر بمصر رجل يعرف بمحمد الحنفى يكون فاتحا لهذا البيت ويشتهر فى زمانه ويكون له شأن عظيم)^(٥)

(١) انظر تاريخ مولده فى الكواكب الدرية للإمام المناوى مقيدا له بقوله (تقريبا) ١٦٦/٢ وتاريخ وفاته فى الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٢ / ٧٩ ، ٨٩ .

(٢) انظر الطبقات الكبرى الشعرانية ٧٩/٢ والكواكب الدرية المناوية ١٦٧/٢ .

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٧٩/٢ .

(٤) ، (٥) المصدر نفسه ٨٠/٢ .

كما قال رضى الله عنه أيضا : (الحنفى خامس خليفة من بعدى)^(١) . وسرت هذه المبشرات من سيدى أبى الحسن إلى سيدى أبى العباس المرسى ومنه إلى سيدى ياقوت العرشى ثم إلى الشيخ ابن اللبان الذى أخبر الشيخ حسن الخباز المعاصر للسلطان الحنفى ، وقد كان الأمر كما أخبر سيدى أبو الحسن . إذ تلقى سيدى محمد الحنفى الطريقة الشاذلية بعد خروجه من الخلوة عن الشيخ ناصر الدين بن المليك عن جده سيدى شهاب الدين بن المليك عن سيدى ياقوت العرشى عن سيدى أبى العباس عن شيخه رأس الطريقة سيدى أبى الحسن الشاذلى^(٢) رضى الله عنهم أجمعين وأرضانا بهم دنيا وأخرى آمين .

هذا ولم يكن تلقب سيدى محمد الحنفى بالسلطان وليد المصادفة أو اتفاقاً عفويا . فلم يشتهر بهذا اللقب إلا بعد عدة وقائع وأحداث جرت له مع سلاطين عصره وحكامه الذين وقعوا تحت طائلة كراماته وخوارقه فدأبوا له بالولاء حتى صاروا منفذين لأمره ورهنا لإشارته .

ومن ذلك ما رواه الشيخ شمس الدين بن كتيلة من أن السلطان فرج بن برقوق كان يرمى الرمايا والأذى على المسلمين ، وكان الشيخ يعارضه . فأرسل وراء الشيخ وأغلظ عليه القول وقال له : المملكة لى أو لك ؟ فقال سيدى الحنفى : (لا لى ولا لك . المملكة لله الواحد القهار) ثم قام الشيخ متغير الخاطر فأصيب السلطان ابن برقوق على الفور بداء عضال فى جسده (ورم فى محاشمه) كاد يهلك منه وعجز الأطباء عن إبرائه فقال له بعض خواصه العقلاء : هذا من تغير خاطر الشيخ محمد الحنفى ، فأرسل أمراءه خلف الشيخ لاسترضائه فلم يجيبهم . فما زالوا به حتى استرضوه فأرسل للسلطان ابن برقوق رغيماً مبسوساً يزيث قائلًا لأمرائه : (كل هذا تبرأ ولا تعد لقله الأدب نملخ آذانك)^(٣) .

(١) انظر : السر الصفى فى مناقب السلطان الحنفى للشيخ على البتونى ص ١٢ .

(٢) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ١٦٦/٣ .

(٣) انظر : السر الصفى للشيخ عمر البتونى ج ١ ص ١٩ والطبقات الكبرى للشعرانية ٨١/٢ .

وعلى أثر هذا الحادث طارت شهرة السلطان الحنفى فى الآفاق وعلت منزلته فى أعين العامة على منزلة الملوك والسلاطين . وتأكيذا لهذه الحقيقة يقول شيخ الإسلام العيني فى تاريخه الكبير :

والله ما سمعنا ولا رأينا فيما حوينا من كتبنا وكتب غيرنا ولا فيما اطلعنا عليه من أخبار الشيوخ والعباد والأستاذين بعد الصحابة إلى يومنا هذا أن أحدا أعطى من العز والرفعة والكلمة النافذة والشفاعة المقبولة عند الملوك والأمراء وأرباب الدولة والوزراء عند من يعرفه ومن لا يعرفه مثملا أعطى الشيخ شمس الدين الحنفى - ثم قال :- وأبلغ من ذلك أنه لو طلب السلطان أن ينزل إليه خاضعا حتى يجلس بين يديه ويقبل يديه لكان ذلك اليوم أحب الأيام إليه ^(١) .

وذكر الإمام الشعرانى رضى الله عنه فى طبقاته : أن الملك المؤيد نزل إلى سيدى محمد الحنفى فجاء إلى الزاوية فوجد الشيخ فوق سطح البيت . فطلع إليه سيدى أبو العباس - أحد مريديه - وأخبره . فقال له : قل إنه ما يجتمع بأحد فى هذا الوقت . فوضع السلطان المؤيد يديه على رأسه ورجع إلى القلعة ولم يتغير من الشيخ إجلالا له ^(٢) .

هذه هى منزلة سيدى محمد الحنفى عند الملوك والسلاطين . ومن أجل هذه المنزلة الرفيعة والمرتبة السامية : لقب بالسلطان .

وأما فيما يتعلق بمنزلته العلمية : فهو البحر الذى لا يدرك له ساحل ولا قرار؛ ولقد حضر مجلسه يوما الشيخ جلال الدين البلقينى - رضى الله عنه - فسمع تفسير الشيخ للقرآن الكريم فقال :- (والله طالعت أربعين تفسيرا للقرآن الكريم ما رأيت فيها شيئا من هذه الفوائد التى ذكرها الشيخ محمد) . وكذلك كان يحضر مجلسه شيخ الإسلام البلقينى - وهو غير الشيخ جلال الدين - وشيخ

(١) ، (٢) المصدر الأخير : ٢ / ٨٢ وانظر الكواكب الدرية للعلامة المناوى ١٧٠/٣ .

الإسلام العيني وشيخ الإسلام البساطي المالكي وغيرهم (١) .

وكان إذا سأل أحد من المنكرين عن مسألة أجابه فإن سألته عن أخرى أجابه وهكذا حتى يكون المنكر هو التارك للسؤال فيقول له الشيخ رضى الله عنه : (أما تسأل ؟ فلو سألتني شيئاً لم يكن عندي أجبتك من اللوح المحفوظ) (٢) .

هذا هو المثل الأعلى لأهل العلم الحقيقي . إنه طراز فريد من العلماء الذين يأخذون علمهم من الله تعالى ولم يندسوا بهاء عملهم بدنس الدنيا وعرضها الفانى . وإن الدنيا لتخدم هؤلاء وهى صاغرة ؛ لأنهم أخلصوا دينهم لله فأثرهم الله بفضله وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة .

وأما عن مكانة سيدى محمد الحنفى رضى الله عنه فى طريق القوم : فهو قطب أقطاب عصره وإمام أهل التحقيق فى زمنه . صاحب المحل الأرفع فى الولاية والمعراج الأسنى فى مراقى الحقائق . وناهيك بإمام أقام فى درجة القطبانية ستاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر كما أخبر بذلك سيدى الشيخ إسماعيل رضى الله عنه ، وذكره الإمام الشمرانى فى طبقاته (٣) .

ومع ذلك فالأمر الذى يحير الألباب : هو أن السلطان الحنفى يقول (والله لقد مرت بنا القطبية ونحن شباب فلم نلتفت إليها دون الله عز وجل) (٤) !!

ولكنه وإن لم يلتفت إليها فهى قد التفتت إليه ، إذ لم يوجد فى عصره من هو أكثر صلاحية لها منه .. إنها تربية الرجال . ولقد قام الشيخ رضوان الله عليه بهذه المهمة خير قيام ، إذ ترى على يديه صفوة من الأولياء الذين نهلوا من نبعه المصفى . ولقد تحدث عن ذلك سيدى طلحة المدفون بالمنشية الكبرى رضوان الله عليه قائلاً : (قال لى سيدى محمد الحنفى : يا طلحة : خرج من زاويتي هذه أربعمائة ولى : وفى رواية ثلثمائة وستون على قدمى . كلهم داعون إلى الله تعالى .

(١) ، (٢) انظر : الطبقات الكبرى للإمام الشمرانى رضى الله تعالى عنه ٨٦/٢ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ٨١ / ٢ .

(٤) انظر المصدر نفسه : ٨٤/٢ وانظر السراصفى للشيخ عمر البتونى ٣٥/٢ .

وأصحابنا بالمغرب كثير وبالروم والشام أكثر . وأكثر أصحابنا باليمن وسكان الكهوف والبرارى والمغارات (١) .

وفى جذب الشيخ لقلوب الخلق إلى الله أسرار عجيبة . فقد جاء رجل إليه وقال : يا سيدى أنا ذو عيال فقير الحال فعلمنى الكيمياء . فقال الشيخ : أقم عندنا سنة كاملة بشرط أنك كلما أحدثت توضأت وصليت ركعتين . فقام على ذلك . فلما بقى من المدة يوم جاء إلى الشيخ . فقال له غدا تقضى حاجتك . فلما جاءه قال له : قم فاملاً من البئر ماء للوضوء فملاً دلوا من البئر فإذا هو مملوء ذهباً . فقال: يا سيدى ما بقى فى الآن شعرة واحدة تشتهي . فقال له الشيخ : صُبّه مكانه واذهب إلى بلدك فإنك قد صرت كلك كيمياء . فرجع إلى بلده ودعا الناس إلى الله تعالى (٢) . ولقد سأل الشيخ يوماً عن الصالح من هو ؟ فقال : (الصالح هو من صلح لحضرة الله عز وجل . ولا يصلح لحضرة الله عز وجل إلا من تخلص عن الكونين) (٣) .

إنه ينطق عن الله تعالى بمفهوم الصلاح الأمثل الذى يجدر بصاحبه أن يعد فى زمرة الصالحين .

هذا ، وللكرامات والخوارق فى حياة السلطان الحنفى جانب يعز وصفه ويبعد استقصاؤه . ولقد كان صدور الكرامات منه إبرازاً من الله تعالى لفضله وعلو شأنه ، ولكى يرسخ اعتقاد المريديه ومعاصريه فى رسوخ قدمه فى الولاية . أما عن نفسه هو : فقد كان حظه من الله تعالى فوق الكرامات والخوارق . إنه مع الله تعالى فى استغراق دائم . ولئن كان له جانب من معاشره الخلق فإن هذا الجانب لا ينال إطلاقاً من استغراقه مع ربه ، فهو معهم بالجسد ومع مولاه بالقلب والروح . وسنذكر مثالا واحداً من كراماته الخارقة كشاهد صدق على ولايته لمن يهمهم رؤية

(١) انظر الطبقات الكبرى الشمرانية ٨٥/٢ - ٨٦ .

(٢) انظر طبقات الإمام الشمرانى الكبرى : ٢ / ٨٦ والكواكب الدرية للإمام المناوى ١٧٢/٣ .

(٣) انظر الطبقات الكبرى الشمرانية ٨٩ / ٢ .

الولاية من هذا الجانب :- لقد دعاه بعض الأمراء مرة إلى وليمة - وكان في نفس ذلك الأمير من جهة السلطان الحنفى حسد على إقبال الخلق عليه - فوضع له طعاماً مسموماً في إناء وقدمه للشيخ . وكان لا يجرؤ أحد على الأكل مع الشيخ من إنائه . فأكل منه وحده وهو يعلم أنه مسموم ثم قام وركب إلى زاويته فاختلطت الأواني فجاء ولدا الأمير فأكلا من إناء الشيخ فماتا معا . ولم يضر الشيخ شيء من السم (١) .

وتلقى الأمير في ولديه - كما تلقى ابن برقوق وغيره من قبل - درساً من السلطان الحنفى تعلم فيه معنى التعرض لغضب الأولياء ، كما عرفوا فضل ملوك الآخرة على ملوك الدنيا . فكان منهم بعد ذلك منتهى الإجلال للسلطان الحنفى وصاروا عوناً له على مصالح المسلمين .

هذا هو السلطان الحنفى الإمام العالم والسلطان الولي والقطب الواصل والعارف المحقق الذى تحدث بنعمة الله تعالى عليه قائلاً: (نحن أسرار الوجود) (٢) ! لقد سرنا في نور طرف من مناقبه نذكر فيه وبه هدى السلف الصالح أولياء الله تعالى .

ويعد : فمازلنا على الشاطئ نستشيق نسمات ساقها هدير أمواج هذا البحر المتلاطم ، وليس لنا قدرة على خوض عبابه ، إذ ليس معنا سفين المعرفة ولا شراع نور البصيرة ، وليكن مبلغ علمنا به أنه لا ساحل له ، فلتنهأ أمة فيها السلطان الحنفى الذى لم نسطر عنه إلا حرفاً من كتاب ولم نرتشف من بحره إلا قطرة من عباب . وليكن حديثنا عنه بمثابة إشارة من بنان تشير - وهى فى الأرض - إلى كوكب درى فى السماء . أهواء الله علينا من بركاته وعطفه الأبدى دنيا وآخرة . آمين .

* * *

(١) انظر جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى : ١ / ٢٦٥ وانظر أيضاً الطبقات الكبرى للإمام الشعراوى رضى الله تعالى عنه ٢ / ٨٤ .

(٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراوى رضوان الله تعالى عليه : ٢ / ٨٨ .

« ٤٣ »

سيدنا إبراهيم المتبولى

رضى الله عنه سنة ٨٨١

فى محراب الولاية لله عز وجل ينعم أهل الاصطفاء بما حباهم به مولاهم من جزيل العطاء ، فهم البدور الساطعة فى أفق هذا الوجود ، وهم البروق اللامعة أهل الكشف والشهود ، بذكرهم تنزل الرحمات ، وفى رحابهم تجاب الدعوات ويحبهم تقبل الشفاعات . رضى الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله إلا أن حزب الله هم المفلحون .

من أولئك الصفوة الأتقياء والخاصة الأنقياء قطب الولاية وريبب المنايا الوارث المحمدى سيدى إبراهيم بن على بن عمر الأنصارى المتبولى الأحمدي رضى الله عنه .

إنه إمام من أئمة الطريق وعلم من أعلام التحقيق ، صاحب الفتوحات الباهرة والمناقب الفاخرة . وهو أحد من أبرزهم الله تعالى فى الوجود لتعريف الخلق بآداب العبودية ، وحقوق الربوبية . فأحيوا موات القلوب وأعتقوا رقاب النفوس من أصفاد الذنوب .

ولو ذهبنا نستطلع آراء حملة الأقلام الصوفية وأصحاب الطبقات لنستخيرها عن مكانة العارف المتبولى لوجدنا أن تلك الشخصية الفذة قد حوت من الأسرار ما تنوء به شم الرواسى وتضيق به زواجر البحار .

وفى فاتحة تلك المنح اللدنية التى حفلت بها شخصية العارف المتبولى أنه محمدى التربية إذ إنه لم يتلق الطريق إلا عن سيدنا رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - كما أخبر بذلك لسان الطريق سيدي عبد الوهاب الشعراني رضى الله عنه قائلًا عنه في صدر ترجمته : (ولم يكن له شيخ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم)^(١) .

ولقد قال عنه أيضاً أنه : (كان من أصحاب الدوائر الكبرى في الولاية)^(٢) .
ولهذه العبارة مغزاها الذي يدركه أهل الفتح والعرفان .

أما عن التربية المحمدية التي حظى بها سيدي إبراهيم المتبولي فهي موضوع له مقوماته ونتائجه . إذ إنه من أساسيات التربية الصوفية أن تكون على يد شيخ يأخذ بيد المرید ويرشده إلى معالجة نفسه بتصفيتها من الرذائل ثم بتحليلتها بالفضائل ، وهكذا حتى يصبح المرید صوفياً بمعنى الكلمة .

بيد أن هناك نخبة مختارة وصفوة مجتابة قد اختارهم الرسول صلى الله عليه وسلم من أ خيار أمته ليربيهم بنفسه تربية روحية صوفية محمدية . وهذه النخبة المصطفاة تستمد مشربها في الطريق من النبع المحمدي مباشرة كما شرب سيدي أويس القرني من منهل سيد الوجود - صلى الله عليه وسلم - حيث كان لذلك سيد التابعين .

ومن ثم فإن تلك النخبة المختارة هم في المقام الأول ورثة محمديون .

ولقد كان العارف المتبولي محمدياً بكل دلالات هذه الكلمة ، محمدي الروح والقلب والسلوك والمشرّب .

ولقد كان في بداية أمره لشدة تعلقه بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وهوائك محبته له كثيراً ما يراه في المنام فيخبر بذلك أمه فتقول : (يا ولدي إنما الرجل من يجتمع به في اليقظة)^(٣) ١١١ .

وتحسس سيدي إبراهيم في كلمة أمة هذه أملاً عزيزاً لا ينال إلا بالاصطفاء

(١) ، (٢) انظر : الطبقات الكبرى لسيدي عبد الوهاب الشعراني رضى الله تعالى عنه : ٧٥ / ٢ .

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضى الله تعالى عنه : ٧٥ / ٢ .

الإلهي ، وتمشقت روحه هذا اللقاء المحمدي الذي هو قمة منازل الفتح الرياني فتوالت عليه إمدادات الفتوح حتى تحقق مأربه ، وغرقت روحه في محيط النور المحمدي وصار يرى النبي - صلى الله عليه وسلم - يقظة ومشاهدة بعد أن كان يراه مناما، فأخبر والدته بذلك فقالت له : (الآن شرعت في مقام الرجولية)^(١))) لله دُرُّها من أم عليمة بمقامات الرجال^(٢) ولله دره من رجل تربع على قمة تتهافت الأمانى حسرى دونها .

لقد ذكر الإمام الشعراني تلك الواقعة في طبقاته كشاهد صدق على أن العارف المتبولى قد نال فتحه المحمدي الأكبر وبلغ أرقى منازل العارفين .

ولقد ولد العارف المتبولى قدس الله سره في مطلع القرن التاسع حوالى سنة ٨٠٠ هـ وقدم من بلده (متبول) - مركز كفر الشيخ - إلى (طنطا) وأقام بضريحها في رحاب الإمام البدوى مدة ثم قدم القاهرة فأقام بالحسينية ، وصار يبيع الحمص المصلوق بقرب جامع شرف الدين ، ثم أقام بزاوية بدرب التتر تعرف بالشيخ رستم وتحول لزاوية بقرب دار السباع^(٣) .

إن العطاء الذى حفلت به شخصية القطب المتبولى قلما تتسع له شخصية صوفية أخرى على امتداد الأعصر والأزمان . لقد كان رضى الله عنه يقول : (وعزة ربي لتتوزع أحوالى بعدى على سبعين رجلا ولا يحملون)^(٤) إن الإرث الذى سيخلفه فيه من يأتى بعده من الأقطاب لن يقوى على تحمله سبعون من الرجال . وقد سبق أن عرفنا مفهوم الرجولية في الطريق .

ألا يخلق بهذه القمة الشامخة أن تتعرف على أمجادها بصائر أولى الألباب ؟

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضى الله تعالى عنه ٢ / ٧٥ .

(٢) قال الإمام المناوى في ترجمة الإمام المتبولى رضى الله عنه في (الكواكب الدرية : ٢ / ٨٤) : (وكانت أمه من الصالحات ، أرباب الأحوال ، وكان الشيخ على الحواص - مع علو مقامه في التصريف إذا جاءت حملة شديدة يذهب إلى قبرها ، ويحكى لها ذلك عند القبر فتقضى الحاجة - قال الشعرانى - وقبرها معروف بذلك إلى الآن) ١

(٣) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى : ٣ / ٨٣ نشر : الأزهرية للتراث .

(٤) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني رضى الله تعالى عنه : ٢ / ٧٦ .

ولقد ذكر أصحاب التراجم الصوفية أنه كان يجتمع بالخضر - عليه السلام - ولاعجب فهو نديم الحضرة المحمدية . ثم هو الرجل الذى استغرق فى مقامات الفناء فى الله حتى فنى عن فئاته . وبعد ذلك هو العارف الذى وقع عليه الاختيار المحمدى ليكون أخا فى الطريق لسلطان الأولياء سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه وأمدنا بمدده . يقول العارف المتبولى (وعزة ربى ما رأيت فى الأولياء أكبر فتوة من سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه . ولذلك آخى بينى وبينه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولو كان هناك من هو أكبر فتوة منه لآخى بينى وبينه) (١) .

ومن خلال تلك العبارة نتبين أن مناسبة إخائه للقطب البدوى إنما هى الفتوة فى الطريق . واصطلاح الفتوة عند الصوفية يدل على التخلق بخلق الرحمة والإيثار . إنه الإرث المحمدى الذى يستمد سناه وإشراقه منفيض قوله تعالى : (بالمؤمنين رءوف رحيم) (٢) . فالأولياء هم معدن الشفقة والرحمة بالامة المحمدية . ومن ثم انجذبت حول الشخصية المتبولية قلوب وأرواح تاقبت إلى النور وتمطشت للضياء فقادها الشيخ إلى الله على بصيرة وهدى .

ولقد كان الشيخ المتبولى رضوان الله عليه متأسيا بالهدى المحمدى تأسيا لانظير له فى سلوكه وأحواله وأوصافه . إن عينى الشريعة والحقيقة لا تفيبان عنه طرفة عين . فهو ينظر بنور الله ويطبق معالى الأوصاف والكمالات فى مسلكه القويم ويرفق العلم بالعمل . إنه مسلك القدوة الحسنة .

لقد كان يعمل بيده فتارة يشتغل بالزراعة وأخرى يتجر بالحسينية ، وكان يلبس الصوف ويتعمم به . وكان يتخذ من اللون الأحمر فى زيه شعارا لاتحاده فى المشرب مع سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ويقول : (أنا أحمدى) (٣) .

(١) انظر الطبقات الشعرانية الكبرى : ٧٦ / ٢ .

(٢) سورة التوبة / ١٢٨ .

(٣) انظر فى ذلك : الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ٧٧ / ٢ وفى الكواكب الدرية (٨٧/٣) للعارف المناوى قال فى ترجمة الإمام المتبولى . وكان يتعمم بالصوف ، ويتطيلم بشملة حمراء ويقول : (أنا أحمدى المقام) رضى الله عن سيدى أحمد البدوى وعن سيدى إبراهيم المتبولى .

ولقد مكث رضوان الله عليه نحو الثمانين سنة إلى أن انتقل إلى جوار حبيبته ومولاه سنة نيف وثمانين وثمانمائة هـ ، وقد عاش هذه الحياة في جو إلهي لم يشبهه ماربٌ شخصي أو دنيوي قط . وقد ظل طيلة حياته عزياً لم يتزوج ولم يغتسل قط من جنابة لأنه لم يحتلم أبداً ، فإذا ما سأله مريد عن سبب عزيمته قال : (ما في ظهري أولاد حتى أتزوج بسبيهم) (١) .

إنه يرى لكل شيء وجهته الشرعية وهو لا يياشر الشيء إلا من هذه الوجهة . أما عن جانب الكرامات في حياة القطب المتبولى : فإن كراماته لا تتسع لها الصفحات ولا تتحملها العقول . فمنها أنه رضى الله عنه لم يكن يصلى الظهر في مصر أبداً فكان بعض الفقهاء ينكر عليه ذلك فساخر ذلك الفقيه المعترض إلى الشام فوجد سيدى إبراهيم المتبولى يصلى هناك في الجامع الأبيض برملة لد . فسلم عليه وسأل قيم الجامع عنه قائلاً : سيدى إبراهيم دائماً يصلى الظهر عندكم ؟ فقال : نعم !! فرجع الفقيه عن إنكاره واعتقد الشيخ (٢) :

ومن كراماته أيضاً ، أن امرأة أوقفته في الطريق مستتجدة به ، فقال لها : ما حاجتك ؟ فقالت : ابنى أخذوه الإفرنج وأريد منك أن تدعو الله لي رجع . فقال : باسم الله . ثم دعا الله ، ولم تمض لحظات إلا وقال لها : ها هو ولدك هرات ولدها أمامها في الحال (٣) !!

وكان الشيخ رضى الله عنه إذا رأى إنساناً يعلم ما في نفسه وما هو مرتكبه من الفواحش (٤) . وتعرض جماعة من الظلمة إلى بعض رجاله في الحقل فانتصر بعض الوزراء للظلمة تصدياً لجماعة الشيخ وقال : إن كان المتبولى شيخاً ينفخنى فقال الشيخ : يا ولدى ما أنا أنفخ وإنما أفوق سهمى فلا يرد : فدخل الوزير بيت الخلاء فانتظروه فلم يخرج . فدخلوا عليه ، فوجدوا لحيته ووجهه في حلق الخلاء

(١) انظر الطبقات الشعرانية الكبرى ٢ / ٧٥ .

(٢) انظر الكواكب الدرية للعارف المناوى ٢ / ٨٦ ، ٩٠ والطبقات الشعرانية ٢ / ٧٧ .

(٣) انظر جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى : ١ / ٤٠٤ .

(٤) انظر الكواكب الدرية للإمام المناوى ٢ / ٨٧ .

وهو ميت^(١) . فاعتقد الناس كافة وخاصة الأمراء والوزراء مكانة الشيخ رضى الله عنه . ومن كراماته رضى الله عنه ما نقله الإمام النبهانى عن الإمام الشعرانى إنه قال : أخبرنى سيدى على الخواص رحمه الله تعالى أن الكعبة طافت بالشيخ إبراهيم المتبولى حجراً حجراً ثم رجع كل حجر إلى مكانه^(٢) .

أما فيما يتعلق بجانب الوصايا فى الطريق والحكم المشرقة التى تفيض من ينبوع هذا الإمام العارف : فإنها كلمات كالدر المنثور تملأ القلب إيماناً وإشراقاً : إنه يقول : (طهر قلبك من محبة الدنيا يجر ماء الإيمان فى قلبك جداول ، ومن لم ينظف قلبه من ذلك لا يجرى فى قلبه ماء الإيمان)^(٣) .

وللعارف المتبولى وصية فى الطريق تشتمل على جملة من النصائح الثمينة، وهى وصية سامية المرقى ، وقد اشتهرت فى الأوساط الصوفية وشرحها الإمام الشعرانى رضى الله عنه شرحاً يعتبر قمة فى التصوف وأطلق عليه (المنح السنية على الوصية المتبولية) وفى تلك الوصية يقول القطب المتبولى ، (عليك أيها الأخ بالاستقامة فى التوبة) (واحذر من دقائق الرياء ومن أذى الخلق ومن أكل غير الحلال وجاهد نفسك بالجوع وإتاعبها فى الأعمال الشاقة) (وقلل النوم ما أمكنك ، والزم العزلة والصمت ولا تترك قيام الليل) (وتباعد من الوقوع فى مظالم العباد وأكثر من الاستغفار والزم الحياء والأدب ولا تغفل عن ذكر الله تعالى ولو مع الغفلة فإنه عمدة الطريق) . إن هذه النصائح الثمينة قد أثمرت وآتت من دنان المحبة هارتوى وأروى وأشرفت منه فيوضات ربانية تجل عن الوصف ، وأضحى فى عصره شمساً تتلألأ بالنور وتفيض بالضياء فكان خليقاً بلقب (إمام الأولياء فى عصره) كما ذكره الإمام النبهانى فى صدر ترجمته بجامع كرامات الأولياء .

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشافعى ٧٦ / ٢ .

(٢) انظر جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى ١ / ٤٨ .

(٣) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٧٧ / ٢ .

القرن العاشر

١ - سيدى على الخواص رضى الله تعالى عنه وعنا به
سنة ٩٤٥ هـ.

٢ - سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه
وعنا به سنة ٩٧٣ هـ.

مَفْخَرَةُ الْأَوْلِيَاءِ الْعَارِفِ الْأُمِّيِّ « سيدى على الخواص رضى الله عنه »

اصطنع الحق تعالى أحبابه لنفسه ، ورياهم على عينه ، وجعل قلوبهم خزائن معرفته . فأودع فيهم من دقائق سره ما لا تدركه العقول . إلا إنهم أنوار الله المتلألئة فى سماء مملكته ، وعباده الساجدون على بساط خدمته . من دنا من ساحتهم أحلوه خير مقام ومن فاز بصحبته نال الوصول إلى الملك العلام . من أولئك الأئمة الواصلين والأعلام المربين ، معدن التقى والإخلاص ، وصفوة الأولياء الخواص سيدى نور الدين على الخواص البرلسى رضى الله عنه .

سيد من سادات القوم وركن من أركان الطريق ، وشيخ ترى على يديه أئمة وأعلام وحسبك أن من أبنائه فى الطريق : الإمام العارف ترجمان التصوف سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه .

والإمام الخواص شخصية صوفية تحتل الذروة فى عرفانها وتحققها بأسمى المقامات ؛ فلو ذهبنا نتعرف على تلك المواهب الإلهية التى منحها القطب الخواص لضاقت بنا السطور وتحيرت منا العقول إزاء هذه المنح الاصطفائية التى لا يحدها وصف ولا حصر ، ولكن سنسبر من عمق هذه الشخصية ما تهيأ لنا .

فليسبح لنا العارف الخواص أن نقبس من أضواء سيرته المباركة ونسبح فى بحر عطائه بالفكر والتأمل لنعرف فضل الله تعالى على أوليائه ، وفضلهم على سائر الناس .

وفى مقدمة التعرف على العارف الخواص نتساءل عن المنهل الصوفى الذى شرب منه ثم سقى منه غيره . ولكم نطمئن إلى كل ما سنعرف عن الخواص من

مواهب إلهية وفتوحات ربانية حين نعلم أنه تربى صوفياً على يد القطب المحمدي سيدي إبراهيم المتبولي رضي الله عنه . يقول العلامة المناوي في الترجمة الشخصية للعارف الخواص (وكان في ابتداء أمره يبيع الجميز وهو شاب عند الشيخ إبراهيم المتبولي بالبركة ، ثم أذن له أن يفتح دكان زيات ، فمكث بها نحو أربعين سنة ، ثم ترك ، وصار يضر الخوص حتى مات) (١) . ومكانة القطب المتبولي غير خافية على من له قدم في المعرفة الصوفية . ويكفي أن نشير هنا إلى سمو منزلته كشيخ للعارف الخواص من خلال تلك العبارة التي قالها متحدثاً بنعم الله عز وجل : (نحن في الدنيا خمسة لا شيخ لنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الجميدي - يعني نفسه - والشيخ أبو مدين والشيخ عبد الرحيم القناوي والشيخ أبو السعود بن أبي العشائر والشيخ أبو الحسن الشاذلي) إن هؤلاء الخمسة الذين ذكرهم العارف المتبولي يمثلون المدرسة المحمدية في عصرهم : وهم سادة أهل الأرض في عرفانهم بالله وصدق عبوديتهم له .

وانطلاقاً من مضمون هذه الحقيقة التي تعرفنا بمقام القطب المتبولي شيخ العارف الخواص فإننا ولا شك سنجد الكثير والكثير من ثمار هذه التربية . فلقد أسلم سيدي على نفسه لشيخه ليوصله إلى مقامات الرجال ، فتعهد شيخه بالصقل والتربية حتى صارت صورة شيخه منعكسة في شخصه .

ولقد كان القطب المتبولي يعد له لكي يكون خليفته من بعده.

ولقد أثر عن سيدي على الخواص ما يشير إلى أنه كان إبراهيمي المقام إذ ذكر الإمام الشمراني في مننه أن شيخه كان يقول : (أخذت طريقى هذه عن سيدي إبراهيم المتبولي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتارة يقول : أخذت طريقى هذه عن أبينا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام) (٢) .

واجتماع الولي بالنبي إنما هو اجتماع في عالم الأرواح بعد صفاء روح الولي

(١) انظر . الكواكب الدرية للإمام المناوي : ٩٠/٤ نشر المكتبة الأزهرية للتراث .

(٢) انظر لمناقب المن والأخلاق لسيدي عبد الوهاب الشمراني رضي الله تعالى عنه ٧١/٢ ط/الميعنية.

وتحررها من كثافة ترابيته . ولا تتنافى تلك المتابعة الإبراهيمية التي أشرنا إليها مع متابعة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ما هو لسيدنا إبراهيم عليه السلام . إنما هو بالأصالة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأنه نبي الأنبياء .

ثم لقد تحقق سيدي على الخواص فيما بعد بالإرث المحمدي بحكم وراثته لمقام شيخه المتبولى رضى الله عنه . فلقد ذكر الإمام الشعراني عن الشيخ أبي الفضل الأحمدى أن سيدي عليا لم يمت حتى صار يأخذ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بلا واسطة ^(١) .

ولذلك يفخر القطب الشعراني بأن بينه وبين الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى التربية رجل واحد هو شيخه الخواص . ولقد ورث سيدي على الخواص سيدي إبراهيم المتبولى وصار بعده قطبا راسخا فى الولاية . ولقد كان من مظاهر هذا الإرث أن شيخه كان يقام له سماط كل سنة على سد يأجوج ومأجوج ويحضره جميع الأولياء من سائر أقطار الأرض وهو بمثابة حفل تكريم يحتفل فيه الأقطاب بسيدي إبراهيم وتتلاقى أنوار العارفين فى هذا المشهد الروحي العظيم وتعم النفحات والبركات أرجاء الكون .. وقد ظل هذا السماط يقام للقطب المتبولى حتى انتقل إلى جوار مولاه . فلما ورثه القطب الخواص صار يقيم السماط الذى كان يقام لشيخه ، بل لقد زاد سماطه على سماط شيخه بأن صار يحضره أرواح الشهداء والأنبياء إضافة لجمع الأولياء . رضى الله عنهم أجمعين ^(٢) .

وقبل أن نترك الحديث عن تربية الإمام الخواص الصوفية : نضيف أنه نهل إلى جوار المورد المتبولى من مورد شيخ آخر هو سيدي محمد أبو البركات الخياط؛ وهو الذى دفن الشيخ الخواص بضريحه المقام بالحسينية بمصر . ولقد أنبأه شيخه أبو البركات بذلك مسبقاً وهو حى . إذ قال له : (يا على : لا يشتهر هذا

(١) انظر اجتماع سيدي على الخواص رضى الله عنه بسيد الخلق صلى الله عليه وسلم يقظه فى (تذكرة أولى الألباب فى مناقب الشعراني سيدي عبد الوهاب للشيخ محمد معبى الدين المليجي ص / ٥٢ ط / ١ / أمين عبد الرحمن .

(٢) انظر . المطبقات الكبرى للإمام الشعراني : ٧٧/٢ والمناقب الكبرى للشيخ المليجي ص ٥٢ - ٥٤ .

الضريح والمزار (إلا بك) وقد تحقق ما قاله الشيخ ، إذ لم يشتهر الضريح إلا بعد أن لحق سيدي على بربه وانتقل إلى جوار شيخه سنة ٩٤٩ هـ. فعرف المزار واشتهر بسيدي على الخواص مع أنه أصلاً لشيخه أبي البركات رضى الله عنه (١).

والآن وبعد تطوافنا بمنابع التأثر الروحي التي استمد منها العارف الخواص ذاتيته الصوفية : لنتعرف على ثمار هذا التأثر ونتسلى ذرى هذه القمة الشامخة لنقف على مشارف الفتح الإلهي في شخص العارف الخواص . وهنا نجد لزماً علينا أن ندخل البيت من بابه .

وباب الخواص هو الإمام الشعراني الذي تتلمذ على يديه ونال فتحه الإلهي . لقد ذهب إليه وهو من أعلم أهل الأرض بشرع الله وأفقههم في دينه وأكثرهم موسوعية إماماً بشتى فنون المعرفة ، ذهب هذا الإمام بكل ما يحمله من مواهب إلى رجل أُمي ليدخله إلى حضرة الله ، ولكن هذا الأُمي - رغم أميته - كان كنزاً مخفياً من كنوز الله في أرضه ، فتسلم هذا الأُمي ذلك العالم ليقول له : « إنك لست بمعالم بعد ، لأنك تأخذ علمك عن المحدثات . وأما نحن فنأخذ علمنا عن الله بلا واسطة » وهذا العلم الذي بلا واسطة هو العلم اللدني . والسبيل إليه هو تربية النفس ، وتطهير القلب من الأغيار لتحل فيه الأنوار . وأمره أن يبيع كل كتبه ويتصدق بثمنها وأن يترك طلب العلم تماماً لمدة سنة كاملة ثم يحضر إليه . ففعل ذلك وأتاه بعد عام فقال له : (بقيت فارغاً والفارغ يملأ ولا يتغير ما فيه ، ثم أجلسه بين يديه ولقنه الذكر ، وأخذ عليه المهدي وأعطاها الورد وقال له : يا عبد الوهاب لا يفتح عليك إلا بروضة المقياس فاذهب إليها في غد بالدواة والقرطاس ، وانتظر الفتح الإلهي) .

فامتثل الإمام الشعراني أمر شيخه .

وفي روضة المقياس جاءه الفتح الإلهي فأخذ يُدَوِّن في قراطيسه من فيض إلهامه ويعرضها على شيخه لكن الشيخ يأمره بمحوها لأن فيها شائبة علم مكتسب

(١) انظر تذكرة أولى الأبواب في مناقب الشعراني سيدي عبد الوهاب (المناقب الكبرى) ص ٥٨ .

وما زال يكتب ويمحو حتى تمحض له العلم اللدنى فقال له الشيخ : (لقد تم أمرك وعلا قدرك وشاع ذكرك وروى قلبك عن ربك فاكذب ما شئت) (١).

ويخبرنا الإمام الشعراني أنه بعد فتحه قد غطس في بحر علوم شيخه القطب الخواص خمس مرات وفي كل مرة وجد صيدا من خزائن علومه اللدنية ، فلما أراد أن يغطس السادسة استحال البحر حجرا إذ قد نال نصيبه من بحر علوم شيخه العارف . وحديث الإمام الشعراني عن هذه الغطسات الخمس : قد لا يجد متسعا في عقول الكثيرين أو في تصورهم . ولكن موضوعية البحث تلح في طلب الحقيقة أيا كان مدى تصورها .

يقول العارف الشعراني أنه حينما غطس في المرة الأولى في بحر علوم شيخه وجد جملة العلوم التي برزت من اللوح المحفوظ إلى جميع هذا العالم على اختلاف طبقاته من الصديقية العظمى إلى آخر درجات الولاية (٢) .

وفي المرة الثانية وجد جملة آيات القرآن الكريم وتحت كل آية تفسيرها بما شاء الله من العلوم .

وفي الثالثة : وجد جملة الأحاديث النبوية الشريفة بشروحها ودلالاتها وعلومها التي لا تحصى .

وفي الرابعة : وجد علم التأويل الخاص بتأويل ما أخذ عن الكمل من أهل الله تعالى .

وفي الخامسة وجد جملة من الحقائق المتفرقة التي لا تتنازع فيها العقول الإنسانية .

والأمر الذي يحير الألباب بعد كل هذا العطاء الإلهي الذي لا يحده تصور أن الإمام الشعراني يصرح بأن ما وقف عليه في غطساته الخمس لا يمثل حقيقة ما

(١) انظر : المناقب الكبرى : تذكرة أولى الألباب في مناقب الشعراني سيدي عبد الوهاب للشيخ محمد محيي الدين الملبجي ص ٥٤ - ٥٥ .

منحه شيخه الخواص من فتح إلهى ، إذ يقول : إن بحر علوم شيخنا رضى الله عنه لا يدرك له قرار ، ولذلك قصدت حين غطست فيه المواضع القريبة من الساحل رفقاُ بالسامعين إذ الفور فى ذلك لا مرقى لغالب الأولياء إليه فضلاً عن غيرهم^(١) !! ترى ماذا يخامر عقولنا إزاء تلك المواهب الإلهية وقد جاوزت مدى التفكير وخرجت عن حد التصور ٩٩.

حقيقة : لا يسعنا إلا أن نردها فى خشوع وإجلال : (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (٢) .

ولنتابع السير مع هذا الولي العارف لنعرف فى حدود قدرتنا ما آتاه الله من فضله : لقد كان هذا الشيخ الأمى إذا تحدث فى معانى القرآن أتى بما يحير أفهام جهابذة العلماء . ومع ذلك فقد كان يترفق على عقولهم ويمسك عما لا يطيقونه من خزائن علمه .

ولقد كان يقول : (من العلماء - ويعنى نفسه - من يعطيه الله حكمة كل حرف تكرر فى القرآن العظيم . ومنهم من يعطيه الله من العلم والقوة ما يقدر به على تخريج جميع أحكام القرآن وجميع الكتب المنزلة من أى حرف شاء منه . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (٣) .

ومرة أخرى يقول : (لا يصير الرجل عندنا معدوداً من أهل الطريق إلا إن كان عالماً بالشريعة المطهرة مجملها ومبينها ناسخها ومنسوخها خاصها وعامها . ومن جهل حكماً واحداً منها سقط عن درجة الرجال) (٤) .

ولقد قصدنا أن نشبع الحديث عن الجانب العلمى عند الخواص لنؤكد تلك الحقيقة الصوفية الراسخة (ما اتخذ الله من ولى جاهل ولو اتخذ له لعله !!) .

(١) انظر نفس المصدر الأخير : ص / ٥٥ - ٥٧ .

(٢) سورة الحديد / ٢١

(٣) انظر : المناقب الكبرى (تذكرة أولى الألباب) للشيخ المليجى ص ٥٨ .

(٤) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٣٢/٢ .

ولقد أكدت تلك الحقيقة ذاتها من قبل حينما رأينا الولي الأمل سيدى علياً الخواص فى موقف الأستاذ المعلم لإمام العلماء فى عصره القطب الشعرانى الذى صنف كتاباً من إجابات شيخه الأمل على أسئلته فى مختلف آفاق العلوم والحقائق والمتشابهات . وقد كان الشيخ يجيبه عنها تارة بالسريانية وتارة بالعبرية أو العربية . وقد أسمى الإمام الشعرانى كتابه (درر الغواص على فتاوى سيدى على الخواص) . وهذا الكتاب آية فريدة فى علوم الحقائق ولسان الإشارات . ثم لنخرج الآن على أحوال الشيخ ومناقبه وكراماته التى تخبرنا بمنزلته بين أهل الله تعالى ؛ لقد ذكر الإمام الشعرانى أن سيدى علياً رضى الله عنه كان ينظر إلى الشخص فيعرف من أنفه جميع ما ارتكبه من المعاصى والآثام بفراسته الصادقة ^(١) . وكان ينظر فى الميضأة التى يتوضأ فيها الناس فيعرف جميع الذنوب التى غفرت وخرت فى الماء من غسالتها ، ويعرف أهل تلك الذنوب التى غفرت على التعمين ويميز بين غسالة كل ذنب وآخر من كبائر وصفائير ومكروهات ^(٢) . وكان إذا نظر فى دواة الحبر يرى الحروف التى تكتب منها إلى أن يفرغ الحبر ^(٣) ، وقد أخبر تلميذه سيدى أفضل الدين ذات مرة حين رأى دواة بالسطر الأول الذى سيكتب منها فترقب الكاتب حتى كتب فوجد كتابته منطبقة مع ما أخبر الشيخ حرفاً حرفاً .

ويقول الإمام النبهانى عنه فى (جامع الكرامات) « وكان رضى الله عنه أمياً لا يكتب ولا يقرأ ، وكان رضى الله عنه يتكلم على معانى القرآن العظيم والسنة المشرفة كلاماً نفسياً يحار فيه العلماء »

ثم ينقل عن الإمام الشعرانى قوله (وكان شيخنا الشيخ على الخواص يعرف بين الأولياء بالنسابة ؛ لأنه ينسب كل حيوان للجد الأول لذلك الجنس) ^(٤) .

وكان رضى الله عنه يرى فى الليل والنهار معاريج أعمال الناس إلى السماء على التعمين . وكان كشيخه المتبولى لا يصلى الظهر بمصر أبداً بل يصليه بالجامع الأبيض (برملة لد) وقد شهد له من هناك بصلاته الظهر دائماً .

(١) ، (٢) ، (٣) انظر : تذكرة أولى الألباب للشيخ الملبى ص ٥٢ .

(٤) انظر : جامع كرامات الأولياء للإمام النبهانى . ٣٧٢/٢ .

وكان رضى الله عنه من أرباب الفتوة الذين يتحملون عن الأمة البليات والمحن بأجسامهم وأرواحهم ، وكان من أصحاب التصريف النافذ . ولقد سمع الإمام الشعرانى سيدى محمد بن عنان يقول : (الشيخ على البرلسى أعطى التصريف فى ثلاثة أرباع مصر وقراها)^(١) . وسمعه مرة أخرى يقول : (لا يقدر أحد من أرباب الأحوال أن يدخل مصر إلا بإذن الشيخ على الخواص رضى الله عنه)^(٢) .

ويذكر الإمام الشعرانى أن سيدى عليا كان يعرف أصحاب النوبة فى سائر أقطار الأرض، ويعرف درجات الفتح فى قلوب العارفين ... رضى الله عنه وعن سائر أولياء الله أجمعين^(٣) .

(وبعد) فمعمزة لمولاي القطب الخواص إذ لم أف بحق مقامه السامى فى حديثى القصير القاصر . وأنى يستطيع من هو راسف فى قيود أنيته الترايبية أن يصف من تحرر من كل القيود وتجرد لمولاه وحبيبه فقرب منه وأنس به حيث هناك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . رضى الله عنك يا مولانا الخواص وسقانا من نبعك المصفى أحلى وأصفى ما يختص به الخواص من عباد الله تعالى آمين .

✱ ✱ ✱

(١) . (٢) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١٣٠/٢ .

(٣) انظر المصدر نفسه .

ترجمان الصوفية العارف الريانى سيدي عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه

على عرش الولاية المحمدية تربع أقطاب الصوفية الذين اجتباهم الحق تعالى لمعرفة ومحبته ولقيادة خواصه إلى حضرته ، فهم شمس الهداية فى كل عصر ، وحملة الإرث المحمدى فى كل زمان من أولئك الأئمة العارفين ، والأساطين الواصلين قطب السلوك إلى الله تعالى : كنز الفتح الريانى أبو المواهب سيدي الإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه وعنا به .

ولقد أثرت البدء بالحديث عن الإمام الشعرانى رضى الله عنه كإمام فى علوم الشريعة والفقه بوجه خاص - وإن كان التصوف يمثل الجوهر الأعم فى شخصيته - قاصداً بذلك إبراز نقطتين على جانب كبير من الأهمية .

أولاهما : أن التصوف الحقيقى لا يقوم أساسا إلا مرتكزا على دعائم قوية من العمل بالشريعة المحمدية والتخلق بها..

وهذا بالطبع يستلزم الإحاطة الدقيقة بالعلوم الشرعية والإمام بأصولها وفروعها حتى يمكن أن تطبق سلوكيا عمليا ومن ثم تقضى العبادة بالعباد إلى المعبود . وهنا حقيقة التصوف .

أما النقطة الثانية : فهي إزالة اللبس عن فريق من الناس يعتقد أن ثمة انفصالا أو تباينا بين الشريعة والحقيقة ، وهذا اعتقاد يجانب الصواب بالكلية. فما الشريعة والحقيقة إلا وجهان لشيء واحد أحدهما ظاهر للعام والخاص . والآخر

باطن لا يطلع عليه إلا الخواص ، وشاهد ذلك هو تمثّل الجانبين (الشرعى والحقيقى) على أوسع نطاق فى شخصية الإمام الشعرانى رضى الله عنه . ولكى نتعرف على الشخصية الشعرانية فى صورتها العلمية الفريدة ، نجد لزاما علينا أن نتتبع المسار التاريخى لهذه الشخصية حتى نلتقى بالمسار العلمى الذى نرى من خلاله أبعاد هذه الصور بوضوح .

ولد الإمام الشعرانى سنة تسع وتسعين وثمانمائة هجرية ببلدة قلقشندة بإقليم القليوبية من أصل شريف ينتمى إلى الدوحة العلوية الهاشمية .

فهو : أبو المواهب سيدى عبد الوهاب ابن الشيخ أحمد بن الشيخ على بن الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن الشيخ موسى بن السلطان فاشين بن السلطان محيى بن السلطان زوفا بن السلطان ريان بن السلطان محمد بن السيد موسى بن سيدى محمد بن الحنفية ابن سيدنا على كرم اله وجهه ^(١) . وجده السابع هو السلطان أحمد الزغلى سلطان تلمسان بالمغرب . وفى أصله العريق يتلاقى الملك والشرف ولكل منهما انطباعه النفسى والبيئى فى حياته رضى الله عنه .

وترجع تسميته بالشعرانى لانتسابه إلى قرية أبيه (ساقية بنى شعرة) ^(٢) التى انتقل إليها بعد أربعين يوما من مولده والتى عاصرت صباه الحافل ببوادر الفتوح الإلهى إذ أتم حفظ القرآن الكريم وهو فى السابعة من عمره .

وقد نشأ رضى الله عنه يتيم الأبوين (محمديا) حيث توفى والده شهاب الدين أحمد وهو فى التاسعة ، وكان له عمان وعشرة إخوة لوالده وشقيقه سيدى عبد القادر، أما والدته فقد توفيت وهو فى سن التمييز .

(١) انظر : المناقب الكبرى (تذكرة أولى الألباب فى مناقب الشعرانى سيدى عبد الوهاب) للشيخ محمد محيى الدين المليجى ص ٢٨ .

(٢) ذكر صاحب المناقب الكبرى (تذكرة أولى الألباب) ص ٢٨ أن (ساقية أبى شعرة) كانت قرية من قرى مدينة (منف) ثم صارت بإقليم المتوفية على نهر نيل مصر تجاه بلد يقال لها (الراشيم) بإقليم القليوبية : وقد جرى بسيدى عبد الوهاب إليها من بلد جده لأمه (قلقشندة) من إقليم القليوبية لأن والدته كانت إذ ذاك عند أهلها فانتقلا به إلى بلد أبيه التى نسب إليها وهى (ساقية أبى شعرة) .

وكان وهو فى الثامنة يقوم الليل بالقرآن تهجداً وتعبدًا ، وشرع بعد حفظه للقرآن الكريم فى حفظ متون العلم فقها ونحوها وقراءتها ثم أخذ فى شرحها ودراستها على يد أخيه سيدى الشيخ عبد القادر . وكان رضى عنه الله كثيراً ما يصلّى بالقرآن كله فى ركعة واحدة وهو دون البلوغ^(١) .

وفى سنة ٩١١ هـ ارتحل مع أخيه إلى القاهرة طلباً للعلم فى الأزهر الشريف واتصل بأقطاب العلم فى عصره كالإمام السيوطى والإمام اللقانى وشيخ الإسلام سيدى زكريا الأنصارى وشهاب الدين الرملى الشافعى^(٢) وأفرغ كل منهم خلاصة علمه وصفوة فكره فى صدر الإمام الشعرانى اعتزازاً منهم بنبوغه وإقباله على العلم بهمة نادرة وعزيمة جبارة .

لقد كان يعشق العلم ويبذل فى سبيله أغلى ما لديه .

كان يقضى الليالى ساهراً يتنقل بين رياض الكتب وذخائر المصنفات بنهم وولع يفوقان حد الدهشة ، أجل كان يعشق العلم لأنه كان يجد فيه ذاته وحقيقته ؛ ولأنه وسيلته للتقرب من ربه عز وجل ، ولكى يزاوج الإمام الشعرانى بين تربيته العلمية وتربيته الروحية اتصل بأول شيوخه فى الطريق سيدى على الشونى رضى الله عنه ونهل من مورده المذهب النورانى قوت روحه وغذاء قلبه . وبعد خمس سنوات قضاهما الإمام الشعرانى فى الأزهر الشريف طالباً لعلوم الشريعة وتحت إشراف شيخه نور الدين الشونى طالباً لعلوم الحقيقة : انتقل إلى مسجد سيدى أبى العباس القمى ، وكان هذا المسجد يعد بمثابة معهد علمى يضم إلى جانب صفوف الصلاة ومجالس الذاكرين حلقات العلم ، ويقوم بالتدريس فيه جهابذة العلماء .

فانتجع الإمام الشعرانى هذا الروض مزاجاً بين العلم الوهبى والعلم الكسبى مؤتمراً بأمر مربيّه ومرشده سيدى الشونى فى عقد مجلس فى هذا المسجد للصلاة على النبى - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) ، (٢) انظر المناقب الكبرى للشيخ محمد محيى الدين المليجى : ٣٨ - ٤٠ .

وبعد أن قضى فى هذا المسجد ما شاء الله له انتقل إلى مدرسة تدعى (أم خوند) بخطط كافور الإخشيدى، وهناك تألق نجمه وغمرت شهرته سائر بقاع الأرض إماماً فى علوم الشريعة والحقيقة . هذا عرض موجز يمثل الخطوط العريضة للحياة العلمية التى حفلت بها شخصية الإمام الشعرانى رضى الله عنه .

ويهمس فى خاطر من يعنى بدراسة هذا الإمام تساؤل حائر : أى سر يكمن فى شخصية هذا الرجل جعله يقتحم غمار العلوم بشكل لم يعهد له مثيل لا فى قرنائه فحسب بل على امتداد الصعيد العلمى فى طول البشرية وعرضها .

لقد كان يطالع أوسع الشروح فى ليلة واحدة ، ويكتب عليه من الحواشى والزوائد ما يفوق به الأصل . ثم يرفق هذا بذلك ويرسله إلى شيخه الذى يقرأ عليه فيتمجّب شيخه من سرعة مطالعته لهذه المواد ويقول : لولا أنك تلخص زوائدها لقلت : إنك لم تتظر فيها فضلاً عن أن تطالعها كلها .

ولنقرأ ما كتبه بنفسه عن اطلاعاته العلمية فى كتابه الميزان .

لقد ذكر من أسماء المصنفات التى قرأها فى شتى هروع العلم ما يفرق العقول فى الدهشة : إذ قسم هذه الاطلاعات إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : فيما حفظه من الكتب عن ظهر قلب ، ويشمل ذلك حشداً هائلاً من متون العلم من فقه ونحو ولغة وحديث، أمثال كتب المنهاج والإيضاح وألفية ابن مالك وألفية السيوطى وألفية العراقي والشاطبية وغيرها .

والقسم الثانى : فيما قرأه من شروح هذه المتون وغيرها على كبار علماء عصره كشيخ الإسلام سيدى زكريا الأنصارى ، والشيخ أمين الدين والإمام السيوطى. وعد من هذا القسم حوالى مائة شرح حافلة بالروائع المصنفة من شروح الصحيحين وأسفار التفسير . بل ذكر أنه طالع بعض هذه الشروح على أساتذته عشر مرات .

أما القسم الثالث : فذكر فيه ما طالع له لنفسه من مئات المصنفات التى يبلغ

أحدها وهو تفسير ابن النقيب المقدسى مائة مجلد وهو أوسع ما رثى فى علم التفسير ، ويسترسى فى ذكر مطالعته بصورة مذهلة .

فمن الكتب ما قرأه ثلاثين مرة كتفسير الجلالين ، ومنها ما قرأه ثلاث مرات كالأم للإمام الشافعى .

بل إن منها ما طالعه بإشارة باطنية من الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - ككتاب المدونة الكبرى فى فقه المالكية .

وتفصيل الكتب التى طالعتها مذكور فى كتاب الميزان (١) . ويدهى أن هذه الصورة التى نراها فى اطلاع الإمام الشعرانى على مصنفات العلوم - وهى صورة موسوعية إلى حد بعيد - لابد أن تثمر قطوفا دانية وجنى شائقا من تأليف هذا الإمام العالم .

وحقا كانت كذلك فقد تمخضت عبقرية هذا الإمام عن نتاج غزير ومثمر إذ ذكر صاحب المناقب الكبرى أن مؤلفات الإمام الشعرانى جاوزت الثلاثمائة كتاب فى مختلف العلوم من تفسير وحديث وطب ولغة وتصوف وفقه فى مختلف المذاهب. وبعض هذه المؤلفات يقع فى خمسة مجلدات. ومن أشهر مؤلفاته: الطبقات الكبرى، والميزان فى الفقه المقارن، واليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الأكابر، ولوامع الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية، ولطائف المنن والأخلاق، إلى غير ذلك (٢) .

وله كتاب يدعى (تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء) ذكر فيه نحو واحد وسبعين ألف علم ، ثم لما رأى غالب العقول تحيرت منه غسله فى البحر (٣) .

من أى طراز كان هذا الرجل ؟ إنه نسيج وحده . وإنه ما وصل إلى هذه الدرجة من العلم إلا بالمفتاح القرآنى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » (٤) .

(١) انظر : الميزان الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٧٥/١ - ٧٨ ط / عيسى الحلبي .

(٢) انظر : المناقب الكبرى للشيخ المليجي ص / ٧١ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ص ٥٨ .

(٤) سورة البقرة / ٢٨٢ .

ولننظر إليه فقيها يتريع على قمة لم يصلها إلا الأقلون .
إن مؤلفين من مؤلفاته وهما (الميزان الكبرى) و (كشف الغمة عن جميع
الامة) لم يحظ بمثلها فقيه .

وحقا أقول إن كتاب الميزان خاصة لم يسبق إلى مثله عالم بل ولم يلحق
أيضاً إذ يقول عن سبب وضعه أنه (الوصول إلى مطابقة القلب للسان في صحة
اعتقاد أن سائر المسلمين على هدى من ربهم في سائر أقوالهم) ؛ (فلذلك أمعنت
النظر لهم في سائر أدلة الشريعة وأقوال علمائها فرأيته لا تخرج عن مرتبتين :
تخفيف وتشديد ؛ فالتشديد للأقوياء والتخفيف للضعفاء) (١) وقد أمسك الإمام
الشعراني ميزان الشريعة بيده مستندا إلى كشفه وذوقه لعين الشريعة من جهة وإلى
الأسانيد النقلية التي حصلها من جهة أخرى ، وأخذ يعرض لسائر أبواب الفقه
ومسائله في كفتي ميزانه ثم يحللها ويقارن بينها ويرجع الراجح منها في مقدرة
فائقة بحيث يستشف الباحث من خلال تحليله ومقارنته وترجيحه عمق أحكام
الشريعة واتساع أفقها ورسوخ أقدام أئمتها ورفع الحرج عن المتلمسين لسبل
الهداية على ضوئها .

وليت شعري كيف نترك تراثنا الإسلامي العريق في ميادين التشريع
الإسلامي حبيس المكتبات ونعكف على تراث الغرب تاركين زادنا الأصيل إلى ما
أخذته الغير منا . فلنستمع إلى شهادات رجال الاستشراق أنفسهم وأقوالهم عن
إمامنا الشعراني : يقول المستشرق فولرز : (إن الشعراني كان من الناحية العلمية
والنظرية صوفيا من الطراز الأول ، وكان في الوقت نفسه كاتباً بارزاً أصيلاً في
ميدان الفقه وأصوله وكان مصلحاً لا يكاد يعرف له نظير ، وإن كتبه التي تجاوزت
السبعين عداً من بينها أربعة وعشرون كتاباً يعتبر ابتكاراً محضاً أصيلاً لم يسبق
إليه أبداً ولم يعالج فكرتها أحد قبله) (٢) .

ويقول عنه ماكسدونالد : (إنه كان يجمع بين أعظم المميزات تضاداً وإنه كان
مشرعاً ذا أصالة ونفاذ . كان عقله من العقول النادرة الخلاقة في الفقه بعد القرون
الثلاثة الأولى في الإسلام) (٣) .

(١) انظر : الميزان الكبرى للإمام الشعراني : ١ / ٤ .

(٢) ، (٣) انظر : الشعراني : إمام التصوف في عصره للدكتور توفيق الطويل من ١٤٤ ط / عيسى العلي .

والآن نقول : إن هذه الآراء التى أدلى بها المستشرقون عن الإمام الشعرانى لا تضيف له مجدا جديدا بقدر ما تحملنا نحن تبعة التقصير فى حق تراث هذا الإمام الأعظم ، وأن كتابا آخر له وهو كشف الغمة عن جميع الأمة لينضيف إلى تراثه الفقهى تعزيزا مشرفا إذ جمع فيه أدلة المذاهب الأربعة وغيرها فى شتى فروع الفقه ومسائله ، وأودعه معظم أدلة المجتهدين واستوفى فى كل باب منه ما روى فيه من الأحاديث الصحيحة مع توجيه الأدلة وكشف غوامض المباحث فى أسلوب سهل ممتع ، وفى إطار روحى عذب وأصاله منهجية .

وأما عن مقام سيدى عبد الوهاب الشعرانى فى الولاية فإنه لا يتاح فى هذا المقام إلا اقتباس إشارات إلى مقامه الرفيع ، مع استحضار ما أسلفناه فى الحديث عن شيخه سيدى على الخواص رضى الله تعالى عنه من تلقيه للطريق على يديه كما تلقى الطريقة الأحمدية على يد سيدى محمد الشناوى حيث أخذ عليه العهد فى القبة الأحمدية وخرجت له يد الإمام البدوى من الضريح وصافحها بعد سماع القطب المثلث وهو يقول (نعم نعم) إثر قول سيدى محمد الشناوى (يكون خاطرك على عبد الوهاب واجعله تحت نظرك) (١) .

وقد ذكر سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه أن الله تعالى من عليه بأن جعله من ورثة شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لكونها تجمع مقامات الرسل كلها ، فكان محمدي المقام وتلميذاً لحضرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (٢) .

وكان من ثمرة هذا الإرث المحمدي أنه كان ليلة الأحد من الأسبوع تمام عيناه وقلبه لا ينم إرثا محمديا (٣) .

كما ذكر فى (المنن) أنه كان لشدة قربه من النبى صلى الله عليه وسلم تطوى له المسافة بينه وبين قبره الشريف فى أكثر الأوقات حتى إنه كان يضع يده على مقصورته صلى الله عليه وسلم وهو جالس بمصر (٤) .

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى ١ / ١٥٧ .

(٢) انظر : لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعرانى : ٢ / ٧١ .

(٣) ، (٤) لطائف المنن والأخلاق للإمام الشعرانى : ٢ / ٧١ .

وذكر رضى الله عنه أنه كمل مقام سبعين وليا فى البرزخ وأنه ذكر منهم سيدى عمر بن الفارض وسيدى أبا السعود الجارحى رضى الله عنهما حيث كشف له عن درجاتهم فى الجنة فوجد أن حصولهم على ما وعدوا به متوقف على أعمال فقام بها عنهم^(١) ولقد أخبرنى أحد العارفين المعاصرين بأن سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه قد أعطى درجة قطبانية السلوك وهى أعلى درجة للقطابة فى عالم الولاية . وهذه إشارات وجيزة إلى مقام هذا الولي العظيم فرضى الله تعالى عن الإمام الريانى سيدى عبد الوهاب الشعرانى وجمعنا به فى الفردوس الأعلى مع شيخنا الشيخ جوده إبراهيم الذى تربى فى المدرسة الشعرانية فى المعرفة وقال حينما سئل عن إطالة الزيارة فى مقامه الكريم : (رضى الله عنه : إن كتبه هى التى ربتنا) لا فرضى الله عنهما وعن والدى محبوب الإمام الشعرانى سيدى محمد أبى اليزيد المهدى وأمدنا بمددهم العميم فى الدنيا ويوم الدين .

وبعد :

فالإمام الشعرانى قد أسدى إلى أمة الإسلام خدمات جليلة وأضاف إلى العلم تراثا لم يأخذ حقه من العناية به والإفادة منه .

وأثرى حياتنا العلمية والروحية بفيض زاخر قدمه من ذوب وجدانه قربانا خالصا لله لينفع به أمة الإسلام .

فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين أحسن ما يجازى به أولو الفضل المخلصون، ونفعنا بعلمه وبركته فى الدارين ، إنه سميع مجيب .

✱ ✱ ✱

(١) انظر : المناقب الكبرى للشيخ المليجى ص / ١٣٤ .

القرن الثاني عشر

١ - سيدنا علي البيهقي رضي الله تعالى عنه
١١٠٨-١١٨٣ هـ.

« ٤٦ »

سلطان الموحدين سيدى على البيومى رضى الله عنه ١١٠٨ - ١١٨٣ هـ

يرتفع الخاصة من أولياء الحق تعالى إلى مقام تتلاشى فيه أنية العبد مع سيده فيتحقق بفناء ذكر الأشياء عن قلبه ، ويتفرد بسره وروحه لربه قائماً بين يديه تجرى عليه تصارييف تدبيره وأحكام قدرته فانياً عن نفسه وحسه بقيام الحق تعالى له فى مراده منه فيكون كما هو قبل أن يكون فى جريان حكمه سبحانه عليه . ذلك عبد جذبه الحق تعالى منه إليه ، وأسدل ستر العناية عليه ، فهو مخصص الحضرة القدسية ومجتبى الذات العلية ، وتلك مرتبة خواص الموحدين . رضى الله عنهم وعنا بهم وأورثنا درجاتهم فى الدنيا ويوم الدين .

من عيون أقطاب تلك النخبة المصطفاة ، والثلة المجتابة : إمام نهل من بحار التوحيد حتى تشعشت روحه وفاضت أنواره ، وولى أخذته جذبة الرحمن فلم تدع له فى نفسه بقية ، فحلّق فى سماء الحب يردد مع الموحدين نداء الحضرة وكلمة التوحيد : (فاغلم أنه لا إله إلا الله) (١) .

قالها بتحقيق وذوق ويقين فانتقشت فى قلبه وسرى نورها فى كيانه حتى صار نوراً محضاً يسبح فى محيط النور الإلهى .

إنه الإمام العارف مجذوب الذات الإلهية ومحبوب الحضرة المحمدية سيدى على نور الدين البيومى قدس الله سره ورضى عنه وعنا به وأمدنا بمدده المحمدى دنيا وآخرة . اللهم أمين .

(١) سورة (سيدنا) محمد صلى الله عليه وسلم : الآية / ١٩ .

والقطب البيومى هو أحد فروع الدوحة المحمدية الشريفة ، فقد ذكر المؤرخون ومشيخة عموم السادة البيومية نسبة الشريف على النحو التالى . هو : سيدى على بن السيد حجازى بن السيد داود بن السيد مصباح بن السيد عمر بن السيد حرفيش بن السيد عبد الرحيم بن السيد حسن بن السيد حماد بن السيد عثمان بن السيد عطية بن السيد معيد بن السيد عيسى بن السيد حماد بن السيد داود بن السيد تركى بن السيد قرشلة بن السيد أحمد بن السيد على بن السيد موسى بن السيد يونس بن السيد عبد الله بن السيد إدريس بن السيد إدريس الأكبر بن السيد عبد الله المحض بن السيد الحسن المثنى بن السيد الإمام الحسن بن سيدنا الإمام على كرم الله وجهه وابن سيدة نساء العالمين السيدة فاطمة الزهراء بنت رحمة الله للعالمين سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ورضى عنهم وعنا بهم أجمعين دنيا وآخرة . آمين (١) .

هذه هى الشجرة المحمدية التى تفرع منها العارف البيومى وهى الشجرة التى تتألف من نوراً على نور ؛ لذا تبركت بإثباتها هنا لنتابع مسار النور حتى نصل إلى الكوكب البيومى المضى .

وقد بزغ فجر ميلاد هذا الكوكب المحمدى سنة ثمان ومائة وألف هجرية حسبما ذكره الجبرتي فى تاريخه والزركلى فى الأعلام .

وكان مولده فى بلد (بيوم) التى ينسب إليها . وقد وصفها على مبارك فى الخطط التوفيقية بقوله : (... قرية من مديرية الدقهلية بمركز منية غمر بحرى شنبارة الميمونة بنحو ثلاثة آلاف متر ، وفى شرقى ناحية مسكة بنحو ثلاثة آلاف ومائتى متر ، وفى جنوب ناحية جصفا بنحو ألفين وخمسمائة متر ، بها مسجد وأنوال لنسيج الأقمشة ...) .

وقد نشأ سيدى على البيومى نشأة المصطفين الأخيار من عباد الحق

(١) انظر : مجموعة أوراد الطريقة البيومية الصادرة عن مشيخة عموم السادة البيومية للشيخ حامد أحمد فضل شيخ عموم المادة البيومية بمصر ص ٣٣ .

الأطهار فكفلته الرعاية الإلهية وأمدته بالمواهب اللدنية . فدرج فى سلم المجد الاصطفائي مرتقيا إلى مصاف الورثة المحمدين . حفظ القرآن الكريم وبادر إلى التفقه فى الدين ففشى مجالس الشيوخ والعلماء ونهل على أيديهم من فيض علوم الشريعة . فتفقه على مذهب إمامنا الإمام الشافعى - رضى الله عنه وعنا به - وتلقى علوم التفسير والحديث واللغة وغيرها على أفاضل علماء عصره ، وقد ذكر الجبرتى فى تاريخه أن الإمام البيومى قد أخذ الحديث والمسلسلات عن الشيخ عمر بن عبد السلام التطوانى كما تلقى عن نخبة من أشياخ عصره .

وهكذا أخذ سيدى على البيومى فى تحصيل العلوم الشرعية الكسبية أولاً حتى نال منها حظاً وفيراً ومدداً غزيراً . ثم شاعت له العناية الإلهية أن يشرع فى الانخراط الفعلى فى سلك القوم ، وأن ينهل من شربهم الأصفى غذاء روحه وقلبه . فأخذ فى المجاهدات الروحية والرياضات النفسية التى تصقل مرآة القلب وتصفى النفس من شوائبها لترتقى عبر مقاماتها السبع لتصل إلى مرتبة النفس الكاملة . ولكننا نجد - ونحن بصدد دراسة الجانِب السلوكى عند العارف البيومى - أنه قد سلك أكثر من طريقة .

فقد ذكر الجبرتى أنه تلقن طريقة الخلوتية من السيد حسين البمرdash العادلى وسلك فيها مدة . ثم أخذ طريقة الأحمدية عن جماعة من الأفاضل . ولم يعين شيخه فى الطريقة الأحمدية . ثم نجد كذلك عند تصفح مؤلفات الإمام البيومى أنه ألف رسالة فى طريق السادة النقشبندية رضى الله عنهم وعنا بهم أجمعين . وقد تحدث فى هذه الرسالة عن تلقين الطريقة النقشبندية مما يدلنا دلالة قاطعة على أنه سلك الطريقة النقشبندية أيضاً ، إذ لا يتأتى - فى المحيط الصوفى خاصة - أن يكتب أحدهم فى علوم القوم إلا عن ذوق وتجربة علمية . ولكننا نجد فى النهاية أن الصبغة الصوفية الغالبة على عارفنا الإمام البيومى هى الصبغة الأحمدية التى يستمد فيها من مورد أبى الفتىان سيدى أحمد البدرى سلطان الأولياء رضى الله عنه وعنا به . ومن ثم فالإمام البيومى يعد أحد أركان

الطريقة الأحمدية التي شيدها القطب النبوى باب المصطفى صلى الله عليه وسلم
ورضى عنه وعنا به .

على أن سيدى على البيومى قدس سره مع كونه أحد أركان الطريقة
الأحمدية قد نسبت إليه طريقة مستقلة تعرف بالطريقة البيومية لها معالمها
ومنهجها وأورادها المتميزة . مما يدلنا على أن سيدى عليا البيومى قد اكتمل
صوفيا وصار إماماً ربانياً صاحب مدرسة روحية واضحة المعالم متميزة المنهج .
وقد يتساءل البعض - كما سئلت مراراً بقاعات الدرس فى كلية أصول الدين - عن
سر تعدد الطرق الصوفية مع أن الهدف واحد هو الوصول إلى الله عز وجل .

والجواب - وله بموضوعنا ارتباط وثيق - أن هذا التعدد لا يعنى الاختلاف
فى الجوهر على الإطلاق ، وإنما هو تمييز فى طريقة المعالجة ، والصوفية رضوان
الله عليهم يطلقون دائماً فى هذا الصدد تلك العبارة (إلى الله تتعدد الطرائق بعدد
أنفاس الخلائق) . فإن لكل نفس معدنها ونوعيتها المتميزة وفطرتها التى فطرها
الله عليها . وما من شك فى أن الطبائع الإنسانية متفاوتة فى درجة الانقياد إلى
الحق والإذعان له والمسك به ، كذلك فإن قابليتها للسلوك الصوفى متفاوتة كماً
وكيفاً .

وأيضاً فإن نسبة تغفل الأمراض القلبية متفاوتة من شخص لآخر ، وتبعاً
لذلك فإن وسائل التقويم السلوكى الصوفى لا تعطى تأثيراً متساوياً لدى مختلف
النفوس . والشيخ فى الطريق كالطبيب للمريض ، ورب داء قلبى لمريد ما لا يجد
علاجه عند شيخ يجده عند آخر حسب طبيعة المريد وقابليته للإفادة من منهج
ذلك الشيخ . ولكل شيخ خصوصية منحه الله إياها فى أسلوب معالجة القلوب
وتوصيلها إلى الله عز وجل .

ومن ثم فالتعدد مزية وليس مطعنا فى الطريق الصوفى ، ففريق من
السالكين قد لا يجد دواءه إلا عند طريقة الإمام الغزالى رضى الله عنه مثلاً
لأنبائها على كثرة المجاهدات بينما فريق آخر يجد سلم الوصول ممهداً فى طريقة

سیدی محمد بهاء الدین النقشبندی التي تتهل من منهل الصديق الأعظم رضوان الله عليه ، والتي يتقدم فيها جذب المريد على سلوكه ، وبالمثل قد يجد السالك قلبه وروحه في طريق سیدی أبی الحسن الشاذلی رضی الله عنه . على أن ثمة رجالاً من أفذاذ الصوفية تتسع طاقاتهم الروحية لسلوك أكثر من طريقة كما كان شأن شيخنا العارف بالله تعالى الشيخ جودة إبراهيم قدس الله سره ورضی عنه وعنا به ، فقد تلقن أكثر من أربعين طريقة . لكن على الرغم من ذلك يبقى لهذا النوع من الأقطاب تخصص في طريقة . فقد كان سیدی على البيومي رضی الله عنه ولا يزال طابعه الغالب هو المشرب الأحمدي، كما أن طابع شيخنا الشيخ جودة رضی الله عنه وعنا به هو الطابع النقشبندی . وبميزد تلك الخصوصية يتسع المدد ويمم ويدخل أهل العناية عن طريق أولئك الأقطاب في طريق الله أهواجاً يسبحون بحمد الله ويستغفرونه إنه كان تواباً .

ومن خلال أحمديية القطب البيومي وكثرة الفيوضات التي اختصه الله بها صار صاحب طريقة بالاستقلال هي الطريقة البيومية التي هي أصلاً وروحاً ومشرىاً: الطريقة الأحمديية ، نسبت إلى أحد أركانها الأفذاذ ، وحتى لا نعبر إلى النتيجة قبل المقدمة التي تتبنى عليها أو نتخطى إلى الغاية قبل بيان الوسيلة . لا يعزب عن ذهننا ولا يغيب عن تصورنا أن سیدی عليا البيومي قدس الله سره قد قطع مرحلة سلوكية فلما تطمح إليها همة سالك . مرحلة كان طابعها الجهاد الروحي الشاق الذي يمحو علائق السالك بأوشاب التراب لكن تنفتح أمامه المساتير وتتجابه الحجب ويستشرف الآفاق العليا لعالم القرب والوصول .

فمنذ البدء وميزان الشريعة لم يفارقه طرفه عين . حتى وإن خيل لبعض المحجوبين أن بعض تصرفات الشيخ لم تتفق مع الشريعة . فهؤلاء المعتبرضون لم تنزل على قلوبهم أقفالها فلم يصلوا بعد إلى فيصل التفرقة الشرعية بين الطاعة والمعصية بينما وصل العارفون من أمثال القطب البيومي إلى مستوى التربية المحمدية على أيدي المحمديين من الأقطاب ، وما يزال يترقى حتى صار أهل الحضرة المحمدية بتعلق روحه بروح جسد سيد الكونين صلى الله عليه وسلم ، وقد

بدأت المرحلة السلوكية عند الإمام البيومي بعد أن نال من علوم الشريعة قسطه الكسبي الذي برز به بين علماء عصره وشهد له به أساطين العلماء وعلى مستوى مشيخة الإسلام . ثم بعد أن اكتمل علمياً أخذ يكتمل عملياً . وكانت صورة مشرفة بحق . فقد ألقى بنفسه في محراب العبودية على لهفة وتعطش وتحرق للطاعة والوصول . فدخل الخلوة ليخلو بحبيبه الأكبر فلا يشغله شاغل عنه ، وأخذ يستغرق في الذكر والقيام والتفكير حتى فنى عن نفسه وحصلت له الجذبة الإلهية التي لا يعرف الخلق عنها إلا الاسم ، وآه لو يعرفون حقيقتها . (إن كلمة مجذوب التي يرددها العامة وفي تصورهم لها لا يترأى لهم من مضمونها سوى صورة الإنسان المسلوب العقل ، يكمن في طيات مضمونها صورة العبد الإلهي الذي أخذه الحق تعالى منه إليه فذهب إليه بالكلية فأصبح عقله وروحه وقلبه مع مولاه ، فالرسم مع الخلق والحقيقة مع الحق . فتارة يضمن الحق تعالى بوليّه عن خلقه فيمسكه معه ويصبح في عداد الضنائن ، وتارة بعد أن يجذبه ويصطفيه يرده لقيادة الخلق ودلائهم على الله سبحانه وتعالى .

وهكذا كان شأن العارف البيومي رضي الله عنه . بعد أن حصلت له الجذبة ، وانقدحت في قلبه الأنوار الإلهية ، وسبغت روحه في محيطات الكشف والإلهام والواردات وترقى من وصف (متصوف) إلى وصف (صوفي) ومن مرتبة الصفاء إلى مرتبة المشاهدة . بعد أن نال تلك المنح والمطاءات الإلهية أراد الله له أن يكون داعية من دعاة الحق ومسلكاً للحضرة . فالتفت القلوب حوله ومنذ أن تألفت في وجهه نورانية القرب حيث كان لا يزال ببلدته بيوم .

فلقد صار الشيخ من الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل كما أنبأ بذلك الحديث الشريف عن حقائق الأولياء . وكما جذب الشيخ إلى الحضرة أصبح عليه أن يجذب بدوره قلوب الصالحين ليوصلها إلى الحضرة . ومن ثم فقد نيطت به رسالة المعلم الرباني ، وقد كان أهلاً للمسئولية على مستوى القادة الروحيين الوارثين لإمداد النبوة بمقتضى العلم بالله تعالى ، فقد عرّف القلوب كيف تعتمص بحبل الله ولا

تميل عن صراطه المستقيم . وعلمها كيف تذكر الله فتخس قرناتها من الشياطين
المقيضة لمن يعيش عن ذكر الرحمن ، وتطمئن بذكر الله الذى يذكره تلمئن
القلوب . وعلم تلك القلوب كيف تزهد فى الدنيا فلا تتكالب عليها تكالب الكلاب
على الجيفة ، بل وطنها على أن تبتغى الدار الآخرة ولا تنسى نصيبها من الدنيا ، وهو
النصيب الكفاف الحلال المعين على طلب الآخرة . علم المرید كيف يرجل بقلبه
عن الدنيا رغبة فيما عند الله من متاع سرمدى لا يزول ، وقد يصل إلى قمة النعيم
وهو مشاهدة المولى عز وجل .

ويا طالما وصل الإمام البيومى قلباً إلى الله وجذب نفوساً من برائن
القطيعة والشهوات القاتلة إلى رحاب الأمن والطمأنينة فى محراب التعامل مع الله !
وقد وجدت تعاليم الشيخ منذ البداية صداها القوى فى نفوس أهل بلدته فتكويبت
الجموع حوله تتشد النور . وضافت به قريته (بيوم) فارتحل إلى القاهرة واتخذ
مقراً له فى الحسنية المنسوبة إلى سيد شباب أهل الجنة رضى الله تعالى عنه
وعنا به ، والتى سمت كذلك لأنها كانت موطناً لأحباب سبط الرسول صلى الله
عليه وسلم ورضى عنه وعنا به .

فاتخذ سيدى على البيومى مسكناً له تجاه مسجده الحالى بالحسنية . كما
اتخذ من مسجد الظاهر مركزاً له ولأتباعه لإقامة شعائر العبادة ^(١) . فكان يعقد
فيه حلق الذكر ومجالس العلم والصلاة على سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله
عليه وسلم . وأقام فى هذا المسجد جامعة روحية قوامها الطاعة والعبودية لله
سبحانه ، والعمل المشيد على العلم ، والتعلق بالله تعلقاً لا يترك فى العبد فضلة
لحفظ النفس وشهواتها .

وكان الإمام البيومى مثلاً أعلى لأتباعه فى سمته النورانى وإعراضه عن لهو
الدنيا ولعبها وعرضها الفانى . وكان فى حياته الخاصة بسيطاً متواضعاً وكان زيه
أحمدياً . فكان يلبس قميصاً أبيض وطاقيّة من الصوف الأبيض عليها عمامة من

(١) انظر : مجموعة أورد الطريقة البيومية للشيخ حامد أحمد فضل ص / ٣١ .

شملة صوف حمراء تمثل شعار سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه وعنا به .
وتواترت الإمدادات والفتوحات على الشيخ البيومى فى مقامه بالقاهرة فبعد أن
حدد لأتباعه منهاج طريقه اختلى فى بيته بالحسينية فكان لا يخرج منه إلا مرة فى
الأسبوع يذهب فيها إلى المشهد الحسينى الشريف فى موكب صوفى رائع . فكان
يمتطى بفلته ويحف به أتباعه من كل جانب ويسيرون حوله معلنين بالتوحيد والذكر
الجهرى مهللين ومكبرين حتى يصلوا إلى المسجد الحسينى الشريف . فيدخلون فى
مظهر صوفى يأخذ بمجامع القلوب ، ويعقدون فى رحاب بضعة الرسول صلى الله
عليه وسلم ورضى عنه وعنا به حلق الذكر ويظلون ضحوة النهار فى ذكر متصل
يصعد إلى عنان السماء وتقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . أما عن الإمام
البيومى فى رحاب مولانا الحسين رضى الله عنه وعنا به فحدث عن فتوحات الله
لوليه ولا حرج .

يقول عنه الجبرتى فى تاريخه : (وإذا زار المشهد الحسينى يغلب عليه
الوجد فى الذكر حتى يصير كالوحش النافر ، وإذا جلس بعد الذكر تراه فى غاية
الضعف) هذا عن المظهر والأثر الخارجى . أما عن الأحوال والواردات التى تفيض
على الشيخ البيومى ويحدث من جرائها ما وصفها الجبرتى فهنا بيت القصيد ..
فيوضات سماوية منهمة وأمداد متصلة وسبحات ونفحات وارتقاءات سبحان من
من بها وسبحان من أنعم . وكان المشهد والمجلس الذى يعقده الإمام البيومى
وأتباعه كل يوم ثلاثاء بمسجد مولانا الإمام الحسين رضى الله عنه وعنا به ملتقى
النفحات الريانية ومهوى الأفئدة السماوية ، ولكن قوماً قد حجبت بصائرهم عن
مكانة أهل الوصول قد سولت لهم نفوسهم أن ينتقدوا هذا المشهد الخالد ، وأن
ينكروا على أتباع الإمام البيومى من أهل الجذب والتجريد والذين كانوا فى حالة
جذبهم يدخلون المسجد حفاة حاملين عصيهم وأعلامهم رافعين أصواتهم بالذكر
والتكبير والتهليل . وتوسط لهؤلاء الطاعنين بعض العلماء وذوى النفوذ لمنع الإمام
البيومى وأتباعه من إقامة حضراتهم فى المسجد ، لكن صوتاً للحق قد قيضه الله
لنصرة وليه وأتباعه هو الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الأزهر عليه رحمة الله
ورضوانه .

كان ذلك الشيخ على قدم فى الصلاح وعرفان بحقوق أولياء الله ومنازلهم فقام منتصباً لسيدى على البيومى مؤيداً دعواه فى المناصرة بالدليل . فقال إن الشيخ البيومى رجل من رجال الله وعالم ريانى يقود القلوب إلى الله ، وإذا كانت مجالس الذكر لم تعط للمحجوبين شاهداً على صلاحه وولايته فليكن مجلس العلم . ودعا كل من سولت له نفسه الاعتراض على الشيخ البيومى ليشهد مجده العلمى ، وطلب من سيدى على البيومى أن يلقى درساً فى علوم الشريعة أمام أولئك الخصوم ، وتواكبت الجموع محتشدة فى مجلس الشيخ حتى غص المسجد بالحاضرين . وجلس العالم الريانى سيدى على البيومى رضى الله عنه على كرسى التدريس وشرح فى شرح الأربعين حديثاً النووية التى كانت تدرس بالأزهر الشريف وأخذ يخرج للناس من خزائن علمه فوق طاقات الحاضرين عجباً عجاباً حتى تراءى لهم بجرأ لاساحل له ، وعجزت فطاحل العلماء أن تستوعب ما جاء به فلم يملكوا إلا أن يهللوا ويكبروا عرفاناً وإجلالاً لسيدى على البيومى رضى الله عنه (١)

وإذا ما أردنا مزيداً من التعرف على الجانب العلمى عند سيدى على البيومى رضى الله عنه فإن مؤلفاته التى لا تزال أكثرها قيد المخطوطات فى انتظار أن تتناولها يد التحقق والإخراج لتشهد بفسوخ قدم هذا الإمام الريانى فى العلم والمعرفة ، وهذه طائفة من مصنفاته كما ذكرها المؤرخون :

- ١ - شرح الأريمين النووية .
- ٢ - شرح الجامع الصغير .
- ٣ - شرح الحكم العطائية .
- ٤ - شرح الإنسان الكامل للجبلى .
- ٥ - رسالة فى خواص الأسماء الإدرسية .
- ٦ - رسالة الوجدانية - وهذه المؤلفات السابقة قد ذكرها الزركلى فى الأعلام ثم ذكر الجبرتى فى تاريخه من مؤلفات الشيخ .

(١) انظر : مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن . للأستاذ على عبد العظيم ١ / ٩٥ - ٩٦ نشر مجمع البحوث الإسلامية .

- ٧ - شرح على الصيغة الأحمدية وعلى الصيغة المطلسة .
- ٨ - رسالة فى الحدود .
- ٩ - مؤلف فى طريق القوم خصوصاً فى طريق الخلوتية الدمرداشية ألفه سنة أربع وأربعين ومائة وألف . كما ذكر بعض من كتبوا فى طبقاته بالإضافة لما سبق عديداً من المؤلفات مثل :
- ١٠ - رسالة فى طريق النقشبندية أو تلقين الطريقة النقشبندية .
- ١١ - رسالة التنزيه المطلق .
- ١٢ - رسالة فى تلقين الأسماء السبعة .
- ١٣ - رسالة فى الصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم .
- ١٤ - المنتخب النفيس فى الفقه على المذاهب الأربعة .
- ١٥ - النور الساطع فى الاسم الجامع .
- ١٦ - الفوز والانتباه فى بيان من لا يلتفت إلى سواء .
- ١٧ - شرح حكم أبى مدين رضى الله عنه .
- ١٨ - شرح الأسماء السهروردية .
- ١٩ - دعوة حسبنا الله ونعم الوكيل .
- ٢٠ - رسالة غريق النور .

وهناك مصنفات أخرى للإمام البيومى لم نذكرها خشية الإطالة . وفيما ذكرناه دلالة، وأى دلالة على أن الشيخ كان بحراً من العلم اللدنى لا ساحل له . أما عن منزلة مولانا الإمام البيومى فى طريق القوم فلا تفى بالإشارة إليها مجلدات ؛ لأن العارف من أولياء الحق تبارك وتعالى حينما يصير من أصحاب الدوائر الكبرى يتعذر الوقوف على كنه منزلته لأنه صار ربانياً .

- شيخنا البيومى رضى الله عنه قد عرف لدى أوساط الولاية وعند الخواص والعوام منذ عصره إلى الآن بلقب انفراد به فى محيط الولاية وهو لقب (سلطان الموحدين) وهو لقب يدل على أن سيدى على البيومى قد تحقق بقمة منازل

التوحيد في عصره . ولقد سألت والدي في ذلك - وهو أحد رجال التصوف الذين تجردوا لله ، كما أنه من خواص أبناء شيخنا جودة إبراهيم رضى الله عنه ، ومحسوب الحضرة الأحمدية - فأجابني عن سر تلقيب العارف البيومي بـ (سلطان الموحدين) : بأنه استغرق في مقام التوحيد الذي هو قمة مقامات التصوف السبعين ألفاً كما ذكر ذلك شيخ شيخنا العارف بالله تعالى سيدي أحمد ضياء الدين الكمشخانوي رضى الله عنه وعنا به في كتاب (جامع أصول الأولياء) حيث جعل التوحيد خاتمة المقامات السبعين ألف التي يقابل كل مقام منها حجاب للبشر. إذ للبشر سبعون ألف حجاب ظلماني وسبعون ألف حجاب نوراني. فمن وصل إلى مقام اخترق حجاباً يقابله. وباختراق جميع الحجب يصل العبد إلى الله تعالى^(١) .

وشاهد رسوخ قدم مولانا البيومي في مقام التوحيد أنك ترى حزيه الذي ألفه للطريق مشتملاً على آيات التوحيد (النفي والإثبات) بصورة غالبية مثل : « الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم »^(٢).

« وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون »^(٣) « ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون »^(٤) ومن أكبر دلالات الفتح البيومي أن سيدي عليا رضى الله عنه كان يرى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم مناماً ويقظة ؛ يقول رضى الله عنه في آخر رسالة الخلوتية : (وكنت أرى النبي صلى الله عليه وسلم في الخلوة في المولد فقال لي في بعض السنين لا تخف في الدنيا ولا في الآخرة^(٥)) .

ورآه يقول لأبي بكر رضى الله عنه : اسع بنا نطل على زاوية الشيخ

(١) انظر جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم وأوصافهم لسيدي أحمد ضياء الدين الكمشخانوي النقشبندی رضى الله تعالى عنه ص ٢١٥ ط / الحلبي .

(٢) سورة النمل / ٢٦ .

(٣) سورة القصص / ٧٠ .

(٤) سورة القصص / ٨٨ .

(٥) انظر جامع كرامات الأولياء للإمام التبهاني : ٢ / ٢٨٢ .

دمرداش- أى شيخ سيدى على - وجاءا حتى دخلا فى الخلوة ووقف عندى وأنا أقول: الله الله وحصل لى فى الخلوة وهم فى رؤية النبى - صلى الله عليه وسلم - فرأيت الشيخ الكبير يقول لى عند ضريحه : مد يدك إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فهو حاضر عندى (١) .

وقال رضى الله عنه : (ودخلت مرة على السيد أحمد البدوى وعنده النبى - صلى الله عليه وسلم - فحكم فى وأنا استغيث بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وكان سبب ذلك التردد فى نزولى مولده هفائى الله بعد ذلك ببركة النبى - صلى الله عليه وسلم - وكان - أى سيدى أحمد البدوى - قد ألبسنى بيده الزى الأحمر مرتين مرة فى بركة الحج ومرة فى مقامه داخل الضريح، وقال : اذهب إلى الكردى (٢) . وقد ذكر الإمام النبهانى من كراماته أيضاً أنه لما كان بمصر مصطفى باشا مال إليه واعتقده وزاره فقال له : إنك ستطلب إلى الصدارة فى الوقت الفلانى، فكان كما قال الشيخ ، فلما ولى الصدارة بعث إلى مصر وبنى له المسجد المعروف بالحسينية وسبيلا وكتابا وقبة وبداخلها مدفن للشيخ على يد الأمير عثمان أغا وكيل دار السعادة (٣) .

هذا هو سلطان الموحدين الإمام الواصل والعارف الكامل . رضى الله عنك يا سيدى على يا بيومى وعنا بك وجعلنا من خواص أحبابك فى الدنيا والآخرة .

* * *

(١) انظر جامع الأولياء للإمام النبهانى ٢ / ٢٨٢ .

(٢) انظر المصدر نفسه : ٢ / ٢٨٣ .

(٣) انظر المصدر نفسه : ٢ / ٢٨٣ .

القرن الرابع عشر

١ - سيدنا الشيخ جودة إبراهيم رضى الله عنه وعنا به
سنة ١٣٤٧ هـ .

العارف بالله تعالى وزير الحضرة المحمدية مولانا الشيخ جودة إبراهيم الحسنى النقشبندى رضى الله عنه

إلى سماء الحقيقة تعرج أرواح الصفوة الأولياء الذين أختارهم العناية منذ الأزل ليكونوا دعاة للحضرة الإلهية . إنهم أحباب الله وخاصته الذين اصطفاهم لمعرفة وأجلسهم على بساط قربه فأرواحهم سابحة فى بحار أنواره مستفرقة فى مشاهدة جلاله وجماله ، وقلوبهم فانية فى محبته عامرة بذكره ومعرفته ، أولئك هم أولياؤه الذين استخلفهم فى كل عصر دلائل إليه وسدنة لحصن شريعته وحقيقته .

وممن أشرقت شمس ولايتهم فى هذا العصر : الإمام الريانى قطب دائرة العارفين وشمس سماء الواصلين الوارث المسمى سيدى الشيخ جودة إبراهيم .

إمام أئمة المربين وعلم شامخ من أعلام الصوفية المحققين وهو شيخ الطريقة النقشبندية ذات المفاخر العلية . المنعوت بأنه عالم الأولياء وولى العلماء .

لقد أجمعت على إمامته وتفردت فى أعلى مقامات الولاية جمهرة العارفين من شتى البلاد والأقطار ، وسارت بذكره ركبان العامة والخاصة فى العمران والقفار .

ولنسر من أول الطريق مع تاريخ هذا العارف النقشبندى لنتعرف على ملامح الشخصية الجودية فى إطارها التاريخى . لقد ولد سيدى الشيخ جودة رضى الله عنه ببلدة : العزيزية بمركز منيا القمح فى إقليم الشرقية . وكان مولده فى الثلاثين من شعبان سنة ألف ومائتين وأربع وستين هجرية . ومن أب شريف ينتهى نسبه إلى مولانا الإمام الحسن بن سيدنا على كرم الله وجهه ، ومن أم شريفة يتصل نسبها

بمولانا الإمام الحسين رضى الله عنه ^(١) بزغ فجر هذا الولي التقى . فتربى في أحضان الرعاية في هذا البيت الشريف مستهلاً نشأته النورانية بحفظ كتاب الله تعالى . وكانت بوابر الفتوح والنجاة بادية على صفحات وجهه يقرأها كل ذى بصيرة نيرة . ولقد بشر بفتوحه وعرفانه أقطاب الولاية في الشام وبلاد الأتراك وهو لا يزال صبيًا . فذات يوم بينما هو يقرأ القرآن على شيخه في الكتاب : إذ حضر إليه شيوخ من بلاد الشام والترك يتبركون به ويستحثون شيخه على تمام العناية به لأن له في ديوان الولاية مقامًا ساميًا ينتظره . وما أن أتم سيدي الشيخ جودة حفظ القرآن الكريم حتى التحق بالأزهر الشريف لينضم إلى صفوف طلاب العلم ورجال الدين . وهناك أقبل على تحصيل العلم الشريف بروح توافقة متعطشة للمعرفة . فوقف على مناهل الشريعة السمحة يقترب من بحارها ويتزود من نورها قوتا لروحه وغذاء لقلبه . لقد أخلص النية في طلب العلم فأثمر العلم في قلبه نورا كشف له الطريق إلى حضرة المولى عز وجل . وآية ذلك أنه كان يقضى سحابة نهاره يتنقل بين رياض العلم وقطوف المعرفة في الأزهر الشريف ، ثم إذا جن الليل انقطع لربه كأن لم تكن له صلة بدنيا الناس . وآوى إلى الخلوات يتعبد لربه وترجم ما حصله من العلم في نهاره إلى عمل تفتح له أبواب السماء في ليله .

ولطالما عمرت به خلوات مسجد سيدي الدمرداش المحمدى ومسجد سيدي عبد الوهاب الشعراني رضى الله عنهما .

إن وقته كله وقف على طاعته لربه نهارا في العلم وليلا في العبادة . لقد كان هذا السلوك النوراني مثار تعجب معارفه ومعاصريه حتى شيوخه في الأزهر : الشيخ الأشمونى العلامة النحوى المتوفى سنة ١٢٣١ هـ والبجيرمى الفقيه الشافعى، والشيخ الخضرى الدمياطى المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ والشيخ إبراهيم السقا

(١) انظر : الأنوار القدسية في مناقب السادة النقشبندية للشيخ يمين إبراهيم السنهوتى ص ٢٦٦ ط / السعادة .
وانظر : النفعات الجودية في مآثر وأوراد الطريقة النقشبندية ومناقب مولانا الشيخ جودة إبراهيم قدس الله سره لخادم الحضرة الجودية الدكتور جودة محمد أبو اليزيد المهدي : ص / ٩٩ ط / دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ وغيرهم .^(١) كل أولئك كانوا يمتزون به ويفخرون بأن من بين أبنائهم فى العلم : الشيخ جودة إبراهيم .

وكان شيخنا - رضى الله عنه - آية الآيات فى معرفة طرق الأحاديث والجرح والتعديل وتخريج الأحاديث من الكتب المسنة وغيرها كما ينبئ عنه تضلعه ورسوخه فى علوم الحديث على ما سنبينه بعد .

وكذلك كان شيخنا الشيخ جودة رضى الله عنه حجة لا يبارى فى علوم العربية من لغة ونحو وتصريف ومعانى وبيان وبديع وشعر وأمثال إلى غير ذلك، كما كان حجة فى العلوم العقلية من علم الكلام والمنطق وآراء أهل الفرق، وقد تفرد بتحصيل المطولات والمشكلات فى كل علم درسه .

مكانة الشيخ فى علم الحديث:

ومما يؤكد مكانة شيخنا الشيخ جودة رضى الله عنه وعلو مرتبته العلمية ما نص عليه الشيخ محمد زاهد الكوثرى من إدراكه للإسناد العالى فى علم الحديث بأخذه عن محدث العصر سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانى صاحب كتاب راموز الأحاديث وشرحه لوامع العقول والمؤلفات التى تزيد على خمسين مصنفا إذ قال الشيخ الكوثرى فى كتابه «التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز»:

«وتخرج به طبقتان من أهل العلم وشارك حرب روسيا مع إخوانه، ثم حج ثانية سنة ١٢٩٤ هـ وأقام بعد الحج بمصر ثلاث سنوات. وختم فى خلالها (راموز الأحاديث) فى جامع سيدنا الحسين سبع مرات ، ومن جملة من أخذ عنه الإجازة بالحديث: الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية ومحمد بن سالم طموم المنوفى والعارف الشيخ جودة والسيد محمد بن عبدالرحيم الطنطاوى والشيخ مصطفى بن يوسف الصعيدى وغيرهم...»^(١)

(١) انظر . الأنوار القدسية للشيخ يس السنهوتى ص / ٢٦٦ .

(٢) انظر: التحرير الوجيز للشيخ محمد زاهد الكوثرى ص ٢٦، ٢٧، ٢٤ .

وقد نوه الشيخ الكوثري بعلو هذا السند إذ ذكر في نفس المصدر أنه قد أخذ الإجازة عن القسطموني تلميذ الكمشخانوي ثم قال : وبذلك علا سندی والله الحمد^(١).

لمحات عن مكانته الصوفية:

وأما في علم التصوف فدونك البحر الذي لا ساحل له!! لقد شرب مصنفات القوم شرباً وغرق في محيط إشاراتهم وعلومهم، وقد أعدته العناية ليكون منهم بل ومن أكابر أئمتهم ، وقد أدرك عليه الرضوان بثاقب بصيرته أن الطريق سلوك وتحقق فسارع إلى رحاب القوم ليترجم العلم إلى عمل والنظر إلى بصر، والظاهر إلى باطن، ووضع نصب عينى قلبه غاية لا يغيب عنها طرفة عين، إنها الوصول إلى الله عز وجل ، إنها الولاية لله الحق. إنه الطريق الذي ذابت فيه مهج العاشقين وتحرقت فيه أكباد العارفين، ولقد كانت تلك الغاية تريده كما كان يريد لها لأنه ما خلق إلا لها فمضى إليها في ركب النور، ووضع قدمه في الطريق إلى الله عز وجل وقلبه مشرق بوهج المحبة وروحه متعطشة للنور المطلق، فاتصل سيدي الشيخ جودة رضى الله عنه بأكابر صوفية عصره، ونهل من منابعهم الروحية حتى انتهت إليه أسانيد سلاسل أكثر من أربعين طريقة عن أساطين شيوخ وقته، وكان كل منهم يسلمه مفتاح طريقته ليكون مرجعاً للسلوك فيها، ولنتعرف على:-

الطرق الصوفية التي سلكها مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه:

- ١ - تلقى رضى الله عنه الطريقة الخلوتية المسلمية عن سيدي عبدالله بن السيد سليم (المسلمي) عن الشيخ الشرقاوي عن القطب الحفنى رضى الله عنه .
- ٢ - وتلقى رضى الله عنه الطرق الأحمدية والبرهامية والقادرية، والرفاعية والجشتية عن الشيخ الترمذى عن الشيخ أبى رباح عن الشيخ الصاوى عن الإمام الدردير عن القطب الحفنى رضى الله عنه .

(١) انظر: التحرير الوجيز للشيخ محمد زاهد الكوثري ص٣٦، ٢٧، ٢٤.

كما تلقى شيخنا هذه الطرق مرة أخرى عن العارف الشيخ محمد الأشموني عن الترمذي رضى الله عنهما.

٣ - وتلقى مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه الطريقة الشاذلية أيضا عن سيدى عبدالقادر الفاسى عن سيدى محمد بن جمرة ظافر المدني عن سيدى العربى ابن أحمد الدرقاوى الفاسى عن سيدى على الجمل العمرانى الخصاصى عن سيدى عبدالرحمن الفاسى عن سيدى والد سيد أحمد المتقدم عن سيدى يوسف الفاسى عن سيدى عبدالرحمن المجذوب عن سيدى أحمد بن عقبة الحضرمى الصنهاجى عن سيدى يحيى القادري عن سيدى على وفا عن سيدى محمد وفا عن سيدى داود الباخلى عن سيدى أحمد بن عطاء الله السكندري عن سيدى الإمام أبى العباس المرسى عن مولانا الإمام أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه وعنا به.

٤ - ثم التقى سيدى الشيخ جودة - رضى الله عنه - وعنا به بقطب الواصلين وإمام المحققين سيدى أحمد ضياء الدين بن مصطفى بن عبدالرحمن الكمشخانوى المتوفى بتركيا سنة ١٣١١هـ.

وكان رضى الله عنه إماما فى الشريعة والطريقة والحقيقة جامعاً لأصول الولاية وباباً من أبواب الحق تبارك وتعالى. فشاءت الإرادة العلية أن يلتقى بمن أعدته العناية ليكون مركزاً للهداية ورأساً للأولياء.

وكانت قصة اللقاء آية تشهد بعظمة المنصب وجلالة المقام، فبينما كان سيدى أحمد ضياء الدين بالقسطنطينية إذ رأى ذات ليلة فى منامه أشرف الخلق مولانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأمره بالذهاب إلى مصر ليلتقى بسيدى الشيخ جودة رضى الله عنه ويلقنه الطريقة ويعطيه البيعة الروحية.

وفى نفس الليلة يرى مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه مولانا رسول الله الأعظم صلى الله عليه وسلم يأمره بالحضور إلى حجرة المخلفات النبوية الشريفة بحرم مولانا الإمام الحسين - رضى الله عنه ليأخذ العهد عن سيدى أحمد ضياء

الدين؛ ويلتقى الشيخان لقاء القمة فى رحاب مولانا الإمام الحسين عليه رضوان الله دائماً وبتبايعان فى الطريق ويأخذ مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه العهد المحمدى ويلتقى من سيدى أحمد ضياء الدين رضى الله عنه وعنا به أصول اثنتين وأربعين طريقة انتهت إليه بأسانيدها وهذه الطرق هى:

- | | | |
|---|-----------------|------------------|
| ١ - النقشبندية. | ٢ - القادرية. | ٣ - الأحمدية. |
| ٤ - الرفاعية. | ٥ - الدسوقية. | ٦ - الشاذلية. |
| ٧ - الأكبرية (نسبة للشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى، قدس الله سره). | | |
| ٨ - المولوية. | ٩ - الكبروية. | ١٠ - السهروردية. |
| ١١ - الخلوتية. | ١٢ - الجلوتية. | ١٣ - الغزالية. |
| ١٤ - السعدية. | ١٥ - الجشتية. | ١٦ - البكرية. |
| ١٧ - العمرية. | ١٨ - العثمانية. | ١٩ - العلوية. |
| ٢٠ - الحضرية. | ٢١ - الشطارية. | ٢٢ - البيومية. |
| ٢٣ - الملامية. | ٢٤ - الميروسية. | ٢٥ - المتبولية. |
| ٢٦ - الكننشية. | ٢٧ - الحمزوية. | ٢٨ - البيرامية. |
| ٢٩ - العشاقية. | ٣٠ - المغربية. | ٣١ - البحورية. |
| ٣٢ - الحدادية. | ٣٣ - الفيبية. | ٣٤ - الخضرية. |
| ٣٥ - العباسية. | ٣٦ - الزينية. | ٣٧ - العيسوية. |
| ٣٨ - البكداشية. | ٣٩ - الرومية. | ٤٠ - الشعبانية. |
| ٤١ - السنبلية. | ٤٢ - الأوسية. | |

وهذه الطرق مسطرة فى الأنوار القدسية ومذكورة بأصولها فى كتاب (جامع أصول الأولياء) لسيدي أحمد ضياء الدين الكمشخانوى^(١)، وقد لقن سيدي أحمد ضياء الدين قدس سره مولانا الشيخ جودة هذه الطرق بأصولها ولقنه سبعة أسماء ساطعة وقال له: (هذه لأصول الطرق جامعة ماعدا النقشبندية السابقة والشاذلية اللاحقة) وأذن له بتلقين الذكر وإعطاء العهد فى جميع تلك الطرق المذكورة.

وأشرقت أنوار الفتح والعرفان فى قلب مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه، وقطع مرحلة سلوكية لا يقوى عليها إلا الفحول من الرجال، فوقته كله كان لربه منذ نشأته فكان وهو بالأزهر الشريف يقضى سحابة نهاره فى العلم والتحصيل ثم إذا جن الليل انقطع لربه كأن لم تكن له صلة بدنيا الناس، وآوى إلى الخلوات يتعبد لمولاه ويترجم ما حصله من العلم فى نهاره إلى عمل تفتح له أبواب السماء فى ليله، وكان يتحنث لربه فى خلوات مسجد سيدي الدمرداش المحمدى ومسجد سيدي عبدالوهاب الشعرانى رضى الله عنهما ، وبعد حصوله على درجة العالمية من الأزهر الشريف تفرد للعبادة وانقطع إلى الله، لقد انتهى من الوسائل وشرع فى الغايات فاشتغل بالذكر الخفى الذى عرف به أقطاب الطريقة النقشبندية ولازم المراقبة لله عز وجل والسهر الدائم صافا قدميه لله سبحانه فى حندس الليل وشمس الحقيقة دائمة السطوع فى قلبه.

وكان رضى الله عنه آخذًا بالعزائم فى أموره كلها محاسبًا نفسه أشد المحاسبة حتى لقد سمعت من أحد مريديه الصادقين^(٢) أنه كان يصل الليل بالنهار بلا نوم ويتحرز من النوم بعد الفجر حتى مطلع الشمس، فغلبته عيناه ذات يوم فأغفى قبل طلوع الشمس إغفاءة خفيفة، وكان هذا الوقت مخصصا لبعض أذكاره فقام بعدها فزعا وآلى على نفسه أن يصوم سنة كاملة بلا انقطاع!!

(١) انظر جامع الأصول لسيدي أحمد ضياء الدين ص ٢، ٣ تجد هذه الطرق جميعا بمراجعتها. وانظروا أيضا فى الأنوار القدسية للشيخ يس إبراهيم ص ٣٦٧.

(٢) حدثنى بذلك روح كريمة مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه صهرى الحاج السيد أحمد عفىمى وذكر لى أن الشيخ محمد ابو عزب الولى المدفون بالسويس كوشف بهذه الواقعة فقدم إلى الشيخ ليتحايلى لإفطاره شفقة عليه رضى الله عنهما

إنه جهاد المقربين وعزم الراسخين.

وكان رضى الله عنه ملازما لمودة سادتنا أهل بيت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يزورهم وأولياء مصر جميعا سيرا على قدميه الشريقتين ولا يركب إليهم أدبا مع مقامهم السامى.

وكان يمكث أطول مدة فى زيارته عند مولانا الإمام الشعرانى رضى الله عنه وعنا به، فإذا سئل فى ذلك قال عليه الرضوان (إن كتبه هى التى ربتنا)!!

وليت شعرى كيف يجهل تراث الإمام الشعرانى حتى الآن فلا ينشر منه إلا القليل وحتى القليل يعانى من هجوم أعداء الصوفية بينما هو مدرسة صوفية رفيعة تربي فى أحضانها أفذاذ الصوفية وأساطين المعرفة، لقد كانت كتب الإمام الشعرانى الموجودة فى حياة مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه تدرس فى مجلسه ليققات من أنوارها مريدوه ومحبووه.

ولقد كان مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه دائما فى حضور مع الله تعالى، فى مراقبة ومشاهدة، ومؤانسة ومنادمة، لقد وصل فى القرب إلى درجة الفناء الكامل فى الله:

وفى مقام الفناء يشهد العارف الحقيقة المطلقة ويشهد الجمال القدسى ويكون بلا هو فى الحضرة الإلهية حيث لا يشهد سوى الله تعالى ثم يتحقق بمقام البقاء بعد الفناء، فبعد أن يفنى فى الله يبقى بالله ويعمر دائرة الملك كما عمر دائرة الملكوت.

لقد تحقق سيدى الشيخ جودة رضى الله عنه بأرفع المقامات التى تحقق بها ولى لله تعالى ، ومهما تحدثت أو وصفت فلن أفى بحق مقامه فالعين كليله عن أن ترنو إلى القمة التى تربع عليها الشيخ ، وهى أيضا لا تقوى على التحديق فى جوهر الشمس لكى تتعرف حقيقتها وقصارى ما أملكه أن أصف مبلغى من العلم وأن أستطلق شواهد الحقيقة كما نطق بها العارفون والإثبات الواصلون.

إشارات إلى مقام سيدنا الشيخ جودة في الولاية:

١ - في علياء المقام القادري:

روى صاحب (الأنوار القدسية) في ترجمة شيخنا رضى الله عنه أن العارف الترمذى - وهو من جملة شيوخ شيخنا في الطريق كما أسلفنا - قد قال لسيدى الشيخ جودة رضى الله عنه يوما: (إن أحد الأكابر رآك وسيدى عبدالقادر - أى الجيلانى رضى الله عنه - فى مكان واحد لا فرق فى ذلك بينكما وأنا وراءكما من خلفكما، فهذه أمانة أسلمها إليك ولا فضل لى فى ذلك ياقرة عينى عليك)!!

وبالوقوف على عبارة الشيخ الترمذى والتأمل فيها ندرك أن مولانا الشيخ جودة عليه الرضوان قد وصل إلى مقام سيدى عبدالقادر الجيلانى أحد أركان الولاية، ووقف على تلك القمة الشامخة التى وقف عليها القطب الجيلانى متقلدا سيادة الأولياء فى عصره حتى قال بلسان الصدق والتحقيق (قدمى هذه على رقبة كل ولى لله)!! وما قالها إلا بأمر من الحضرة العلية.

إنها مرتبة غوث الزمان وقطب الأوان!!

٢ - رتبة الوزارة المحمدية:

ولقد اشتهر مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه فى حال حياته ويمد انتقاله بلقب (وزير النبى صلى الله عليه وسلم) كما اشتهر سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه وعنا به بلقب (باب النبى صلى الله عليه وسلم) ولم يلق هذا اللقب من كبار أولياء عصره أدنى اعتراض، بل لقى كل الإذعان، وكيف لا وهو الوارث المسمى إنسان عين الولاية فى عصره، وعرف سيدى الشيخ جودة رضى الله عنه بهذا اللقب حتى لدى محبيه فى بعض الأقطار الإسلامية كبلاد الشام وتركيا الذين يفدون لزيارته ويغضبون باشتهاره عندهم بوزير المصطفى صلى الله عليه وسلم بإقرار العارفين فى بلادهم إياهم على ذلك!!

وقد وفقنى الله تعالى لتأصيل هذه الحقيقة علميا من التراث الصوفى الأصيل؛ إذ نقل البحاثة الصوفى الأستاذ عبدالقادر عطا عن سيدى عبدالغنى

النايلسى وصول السالك النقشبندى إلى مقام الوزارة المحمدية فقال (وفى الطريقة النقشبندية يتحدث النايلسى عن المراقبة فيقول: «ومن بركة المراقبة أن يحصل المراقب على مرتبة الوزارة والنيابة عن (سيدنا) محمد صلى الله عليه وسلم بمعنى الخلافة عن صاحب المراقبة في الظهور والتصرف في عالم الملك والملوك فيكون هو صاحب الوقت الذي يخواطره تتصرف الملوك في ممالكها والرعية في أملاكها.. وصاحب المراقبة إذا نظر غيره من أهل الحجاب والغفلة وسرى ذلك النظر بقبول ذلك الغير استحالة ذلك الغير إلى ما صار عليه صاحب المراقبة من الكمال»^(١)).

٣ - قرة عين أولياء عصره:

ومن شواهد سمو مقام سيدى الشيخ جودة أيضا أن الشيخ محمد الأشمونى - وكان من أكابر الواصلين - قد جلس إليه أحد مريديه ليتعرف منه على مراتب أولياء عصره، فأخذ يسرد عليه أسماءهم واحدا تلو الآخر والشيخ الأشمونى يعطى كل واحد مرتبته قائلا: هذا ولى وذلك عارف وذلك مدعى إلى غير ذلك... إلى أن ذكر المريد اسم مولانا الشيخ جودة فأمسك الشيخ بيده وقال (جودة طيب قوى قوى - وظل يكرر كلمة قوى بكثرة مذهلة - ثم قال: نفع الله به المسلمين)).

لقد سما شيخنا رضى الله عنه إلى قمة مراتب الصديقين المقربين وارتفع عن الغوثية إلى الفردانية فكان من الأفراد الذين هم خارج دائرة القطب يهيمنون في جلال الله وجماله وثمة على ذلك شواهد يضيق عنها نطاق المقال.

٤ - مولانا الشيخ جودة امتداد النسبة الضيائية بالديار المصرية:

ولقد سجل أساطين علماء العصر لسيدنا الشيخ جودة - عليه رضوان الله تعالى - مكانته المتفردة في عصره كإمام صوفى وباب من أبواب الحق تبارك

(١) انظر: التصوف الإسلامى بين الأصالة والاقتباس (فى عصر النايلسى) للأستاذ عبد القادر أحمد عطا: ص ٢٤٢ نشر دار الجيل ببغروت وانظر مفتاح المعية فى شرح الطريقة النقشبندية لسيدى عبد القنى النايلسى. ورقة ٢٤ بمخطوطة الظاهرية.

وتعالى، فهذا هو ذا العلامة الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري الذي تولى وكالة المشيخة الإسلامية في تركيا يذكر - رضوان الله عليه - في إجازته الحديثية أن مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه هو الامتداد الحى للنسبة الضيائية بمصر - أى النسبة الصوفية إلى ضياء الدين سيدى أحمد الكمشخانوى رضوان الله عليه، الذى تلقى عنه إسنادة العالى في الحديث النبوى الشريف - كما قدمنا قبل - فيقول الشيخ الكوثري:

(ودامت النسبة الضيائية في الديار المصرية بواسطة العارف المغفور له الشيخ جودة في منيا القمح - من أجل أصحاب الكمشخانوى - وبواسطة نجله وتلاميذه رحمه الله تعالى) (١).

أى أن سيدنا الشيخ جودة رضوان الله عليه كان يمثل المدرسة النقشبندية الممتدة إلى عصره متفرعة عن العارف الضياء الكمشخانوى عليه رضوان الله تعالى، باعتباره من أجل أصحابه وأكملهم معرفة وتحقيقا، ثم إن هذه النسبة قد قدر لها الامتداد من بعد مولانا الشيخ جودة قدس الله سره بواسطة نجله وخليفته الأجدد مولانا الشيخ عيسى جودة رضى الله تعالى عنهما وأمدنا بنورهما.

كما حق لها الامتداد أيضا بواسطة من تتلمذوا على يد مولانا الشيخ جودة من نجباء مريديه وأبناء قلبه لتمتد فروع الشجرة المباركة في آفاق الكنانة العزيرة وارفة الظلال طيبة الأعراف مباركة الثمار تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها))

هـ - وامتداد النسبة الأكبرية بمصر:

وكذلك كان سيدنا الشيخ جودة رضوان الله عليه يمثل الامتداد الأكبرى في عصره حيث انتهت إليه النسبة الأكبرية - ضمن نسب الطرق الصوفية الاثنتين والأربعين التى أوردناها من قبل - وهى نسبة طريق الشيخ الأكبر سيدى محيى بن عربى رضى الله تعالى عنه التى تلقاها عن شيخه الضياء الكمشخانوى عن شيخه

(١) التحرير الوحيد فيما يبتغيه المستجيز للشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري ص ٢٤ ط: الأنوار سنة ١٣٦٠هـ وانظر ترجمة الكوثري بالأعلام للزركلى ١٢٩/٦ وجمع المؤلفين لعمد كعالة ٤/١٠.

سيدي أحمد بن سليمان الطرابلسي الذي ألف في آداب الطريقة الأكبرية رسالة سماها: «النور المظهر في طريقة سيدي الشيخ الأكبر»^(١).

إذ يقول الدكتور أبو الوفا التفتازاني شيخ مشايخ الطرق الصوفية^(٢): (وقد أعطى الكمشخانوي الطريقة الأكبرية بمصر في أواخر القرن الماضي، فكان له خلفاء كثيرون، وأعظم من سرى إليهم سر نسبته: الشيخ جودة إبراهيم، أحد الصوفية المصريين الذين عاشوا في أواخر القرن الماضي، وإلى منتصف هذا القرن، ولد سنة ١٢٦٤هـ بالمعزية إحدى قرى مركز منيا القمح بمحافظة الشرقية، ودرس بالأزهر الشريف، وتلقى طرقاً صوفية كالخلوتية والشاذلية عن بعض شيوخ عصره).

ولما وفد الشيخ أحمد ضياء الدين الكمشخانوي إلى مصر تلقى عنه الشيخ جودة فيما تلقى من طرق: الطريقة الأكبرية (على عادة بعض المتأخرين من الصوفية في تلقى أكثر من طريقة صوفية واحدة في وقت واحد ثم أذن له بتلقين الذكر، وإعطاء المهود في جميع الطرق التي تلقاها عنه، ومنها الأكبرية).

وقد توفي الشيخ جودة بعد سنة ١٢٤٤هـ، وقد لقي كاتب هذه السطور بعض تلاميذه من الصوفية وعلماء الأزهر، ويقوم على طريقته الآن نجله الشيخ عيسى جودة، ولطريقته أتباع كثيرون إلى الآن، وخصوصاً في الشرقية.

فإذا تبين ذلك: عرفنا أن طريقة ابن عربي الأكبرية قد كتب لها الاستمرار في الوجود إلى العصر الحاضر^(٣).

(١) انظر: الكتاب التذكاري: محيي الدين بن عربي - الفصل الثاني عشر: الطريقة الأكبرية للدكتور: أبو الوفا التفتازاني ص ٣٤٨ - ٣٤٩ نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر.

(٢) يشغل حالياً منصب رئيس المجلس الصوفي الأعلى بمصر، ونائب رئيس جامعة القاهرة.

(٣) نفس المصدر السابق: ص/ ٣٥٠ - ٣٥١ وانظر جامع الأصول لسيدي أحمد ضياء الدين النقشبندى ص ٢٠٨٠ (والأنوار القدسية) للشيخ يس بن إبراهيم السهنوتي ص/ ٣٦٧.

٦ - عيسوى المقام:

لقد اشتهر شيخنا الشيخ جودة رضى الله تعالى عنه وعنا به بأنه كان عيسوى المقام ، وأكد ذلك خليفته ونجله المبارك مولانا الشيخ عيسى رضى الله عنه - وفى تسمية نجله الكريم بهذا الاسم إشارة إلى تحقق مولانا الشيخ جودة بالمقام العيسوى فى الفتح الإلهى كسيدى أحمد البدوى رضى الله عنه الذى ظهر على يديه من الكرامات من جنس معجزات سيدنا عيسى عليه السلام: فالعيسوى من الأولياء: هو من ورث من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ما لو كان سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام موجوداً وتابعاً للنبي صلى الله عليه وسلم ما ورث ذلك إلا منه ^(١).

٧ - مولانا الشيخ جودة محمدى القدم:

ثم لقد ترقى العارف بالله تعالى شيخنا الشيخ جودة إبراهيم رضوان الله عليه فى معاريج الولاية والقرب من الحق تبارك وتعالى، فبعد أن أتم مراتب الولاية فى لطائف عالم الأمر الخمس حصل له التحقق بكمالات النفس المطمئنة والعناصر الأربعة التى هى لطائف عالم الخلق، وحصلت له كمالات الاسم الباطن والتحقق بالولاية العليا والوراثة المحمدية العظمى فتم له بحمد الله الترقى من القدم العيسوى إلى القدم المحمدى ^(٢)

ولقد كان فى عروجه الروحى - قدس الله سره - عبر مقامات اللطائف الخلقية متحققاً بالجهاد الأكبر الذى قال فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» ^(٣)

ويوضح مولانا الإمام أحمد الفاروقى طبيعة هذا الجهاد فى هذه المرحلة

(١) انظر جامع الأصول لسيدى أحمد الكمشغانوى ص ١٠٨.

(٢) خرجه المحلوى فى (كشف الحما: ص ٥١١) عن البيهقى عن سيدنا جابر رضى الله عنه - بسند ضعيف - لم خرجه عن الخطيب فى تاريخه عن سيدنا جابر رضى الله عنه بلفظ «قدم النبي صلى الله عليه وسلم من غزاة فقال عليه الصلاة والسلام: قدمتم من خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا وما الجهاد الأكبر؟ قال: مجاهدة العبد هواه» أ.هـ.

بأنه ليس جهاد النفس الأمارة التي هي شر جميع الخلائق. لأنها صارت بعد الاطمئنان - أي بلوغها إلى مقام المطمئنة وحصول رضا حضرة الرحمن: رئيس لطائف عالم الأمر - مع كونها من عالم الخلق - ورئيس جميع الأقران.

ومن ثم: فالجهاد حينئذ لا يتصور مع النفس وقد بلغت حد الاطمئنان وصارت راضية مرضية «وإنما يكون مع اختلاف طبائع العناصر الأربعة التي هي أجزاء القالب الإنساني، وصورة الخلاف والبغي من أجزاء القالب عبارة عن: إرادة ترك الأولى، وارتكاب الأمور المرخصة وترك العزيمة لا إرادة ارتكاب المحرمات أو ترك الفرائض والواجبات، فإن هذه الأشياء قد صارت في حقها نصيب الأعداء^(١).

ومن هنا كان مولانا الشيخ جودة رضى الله عنه - وهو في قمة الوصول لا يترخص في عباداته فكان وهو فوق الثمانين من عمره الشريف يقوم الليل على قدميه ويؤثر العزيمة على الرخصة، ولا يتأول في الأحكام وإنما ملء قلبه وجوانحه شريعة محمدية محضة نقية من الشوائب والتأولات.

ولبلوغ مولانا الشيخ جودة عليه رضوان الله كمالات مراتب عالم الخلق وتشرفه بالورثة المحمدية: كان من أهل الصحو والبقاء بعد الفناء ولم يكن من أهل الشطح أو السكر شأن أولياء عالم الأمر لأنه بلغ درجة الكاملين في الولاية أهل الإرث المحمدي.

يقول مولانا الإمام الفاروقي رضى الله عنه: (أيها الولد: إن كمالات العناصر الأربعة - وإن كانت فوق كمالات المطمئنة كما مر - ولكن بواسطة مناسبتها لمقام الولاية، وصيرورتها ملحقة بعالم الأمر: صاحبة سكر^(٢) وفي مقام الاستغراق، فلا

(١) انظر: مکتوبات الإمام الرباني سيدي أحمد الفاروقي السرهندي قدس الله سره: المجلد الأول ص ٢٥١.

(٢) لفظ السكر بسكون الكاف هنا ليس معناه اللغوي المعروف الذي هو حالة تمرض بين المرء وعقله - كما ذكره الراغب في مفرداته ص ٢٣٦ - وإنما هو مصطلح في علم التصوف يعرف بأنه غيبة بوارد قوى، وهو لا يكون إلا لأصحاب المواجيد وهو مقابل في عرف الصوفية للصحو، فالمعبد في حال سكره يشاهد الحال، وفي حال صحوه يشاهد العلم!!

(انظر الرسالة لمولانا أبي القاسم القشيري رضى الله عنه ٢١٧/١ - ٢١٩).

جزم لا يبقى فيها مجال المخالفة، وحيث كانت مناسبة العناصر بمقام النبوة أزيد: كان الصحو غالبا فيها. فبالضرورة تبقى فيها صورة المخالفة^(١) لأجل تحصيل بعض المنافع والفوائد المربوطة بها فافهم^(٢).

ولقد حظى شيخنا الشيخ جودة رضى الله عنه بأوفر حظ من كمالات الإرث النبوى المحمدى بحكم التبعية الكاملة لأشرف الخلق صلوات الله وسلامه عليه، فورث من العلوم المحمدية مالا يمكن تسطيره فى كتاب، وورث من المقامات ما يعز إدراكه، ثم تفرد بفردانيته فوق المقامات المعهودة شأن الأفراد المحمديين.

يقول سيدى محيى الدين بن عربى قدس الله سره فى شأن الورثة المحمديين:-

(ولا يقال فى أحد من أهل هذه الطريقة إنه «محمدى» إلا لشخصين:

إما شخص اختص بميراث علم من حكم لم يكن فى شرع قبله، فيقال فيه «محمدى».

وإما شخص جمع المقامات ثم خرج عنها (لا منها) إلى (لا مقام) كأبى يزيد وأمثاله.

فهذا أيضا يقال فيه: محمدى، وما عدا هذين الشخصين فينسب إلى نبي من الأنبياء؛ ولهذا ورد فى الخبر: «إن العلماء ورثة الأنبياء»،^(٣) ولم يقل ورثة نبي خاص، والمخاطب بهذا: علماء هذه الأمة^(٤).

وقد أشار سيدى الإمام أحمد الفاروقى رضوان الله عليه - فى مکتوباته إلى

(١) يقصد بها: المخالفة المركزة فى طبيعة العناصر السابق تبيانها نحو إرادة ترك الأولى وإثبات الرخص على المزايم.

(٢) مکتوبات الإمام الريانى (١/٢٥١).

(٣) خرجه الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (١/١٢٠ ط) البهية المصرية عن أبى داود والترمذى وابن حبان والحاكم - مصححا - من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه، وأورده الإمام البخارى فى ترجمته لباب (العلم قبل القول والعمل).

(٤) الفتوحات المكية لسيدى محيى الدين بن عربى رضى الله عنه ٣/ ٢٥٨ - ٢٥٩.

أن دولة كمالات الإرث المسمى التي كانت في أوج ازدهارها على عهد أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجدد ازدهارها بعد مضي الألف الأول من عهده صلوات الله وسلامه عليه، حيث شرف هو رضوان الله عليه بهذه الدولة وبجلال هذا المنصب وكان مجددا للألف كما شهد له أئمة الراسخين في العلم والتحقيق، وكان في هذا تبشيرا بدخول إمامنا الشيخ جودة هذه الدولة العلية حيث إنه من أقطاب ما بعد الألف من الورثة المسميين . يقول سيدي أحمد الفاروقي قدس الله سره:

ينبغي أن يعلم: أن منصب النبوة كان ^(١) مختوما بخاتم الرسل عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ولكن لأتباعه صلى الله عليه وسلم نصيب كامل من كمالات ذلك المنصب بالتبعية، وهذه الكمالات كانت في طبقة الأصحاب أزيد منها في غيرها، وسرت هذه الدولة أيضاً على سبيل القلة إلى التابعين وتبع التابعين، ثم شرعت بعدهم في الاختفاء والاستتار، وانتشرت كمالات الولاية الظلية وغلبت وشاعت، ولكن المرجو أن تتجدد هذه الدولة المستترة بعد مضي الألف، ويحصل لها الفلبة والشيوع ، وأن تظهر الكمالات الأصلية، وتستتر الظلية، وأن يكون المهدي عليه الرضوان مروج هذه النسبة العلية ^(٢).

وبالوراثة المحمدية تحقق مولانا الشيخ جودة - رضوان الله عليه بالمرتبة العليا بانطواء جميع المقامات عنده، ونهل منها بقدر قسمت له المشيئة الأزلية، فشرب من جميع الأذواق وتواردت عليه جميع الأحوال التي كانت في حقه - لكمال ولايته - مقامات.

وقد تحدث قطب الواصلين وإمام المحققين سيدي عبدالوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه وعنا به عن تحقيقه بهذه الوراثة المحمدية التي لا يتحقق بها إلا أكمل الأولياء ، وبين سر تعدد وراثة الولي لأكثر من قدم لنبي أو لا ينالها رسول فقال عليه الرضوان:

(١) المراد بلفظ (كان) هنا: الكينونة الدائمة أي كان ولا يزال وسيظل مختوما بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

(٢) مكتوبات الإمام الرباني ١/ ٢٥١.

(ومما من الله تبارك وتعالى به على: أنه جعلنى من ورثة شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، لكونها تجمع مقامات الرسل كلها فلا يخرج عنها مقام، وقل فقير يعطى ذلك، إنما يكون أحدهم وارثاً لموسى، أو عيسى أو زكريا أو يحيى ونحوهم عليهم الصلاة والسلام.. فعلم أن من كان محمدي المقام: فقد انطوى عنده جميع مقامات الرسل - بقدر حظه ونصيبه منها - لأنه لا يصح لغير نبي أن يرث مقام نبي على التمام أبداً)

وقد كان أخى الشيخ أفضل الدين: إبراهيمى المقامى، وسيدى على الخواص: محمدي المقام، وسيدى إبراهيم المتبولى: محمدي إبراهيمى، فكان تارة يقول: شيخى السيد إبراهيم الخليل وتارة يقول: شيخى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قلت: ويجمع بينهما بأنه كان تلميذاً فى بدايته للخليل عليه السلام، ثم صار تلميذاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى نهايته^(١).

وأقول: وكذلك كان شيخنا الشيخ جودة إبراهيم رضى الله عنه عيسوى المقام ثم محمدي القدم، وقد ظهرت على يديه من الكرامات من جنس ما ظهر على يدي مورثه الأول ثم مورثه الثانى الأعظم صلى الله عليهما وسلم من المعجزات كما سيأتى فى موضعه من الكتاب بمشيئة الفتاح الوهاب.

* * *

(طائفة من كرامات مولانا الشيخ جودة إبراهيم رضى الله تعالى عنه)

١ - كرامة إحياء الموتى بإذن الله:

تواترت على السنة أتباع الشيخ ومحبيه رضى الله عنه هذه الواقعة، وهى أن رجلاً كان ينذر للشيخ رضوان الله عليه مبلغاً من المال لينفقه فى الخبرات كل عام ويرسله إليه مع ابنه وبينما هذا الابن قادم ذات مرة للوفاء بنذره اعترضه عند قرية

(١) لطائف المنن والأخلاق فى بيان وجوب التحديث بنعمة الله على الإطلاق لسيدى الإمام عبدالوهاب الشعرانى رضى الله عنه. ٧١/٢ ط الميمنية.

العزيزية رجل كان آنذاك معينا فى قوة الأمن وكان يعلم بأمر هذا الرجل فصمم على أخذ المال منه وتحايل لذلك فلما لم يفلح دبر لقتل هذا الابن إذ دعاه للمبيت عنده فذهب إليه بدابة وفى المساء ذبحه ونقل جسده ليلا فوضعه أمام منزل الشيخ بالعزيزية بعد أخذ ما معه، ولما كان رجال الأمن بصدد التحقيق وجهت التهمة لمولانا الشيخ جودة بقتل الرجل فما كان منه إلا أن قال: أحضروا القتل وضموا رأسه إلى جسده فأحضروه أمامه فقال له: قم بسم الله وقل من قتلك!! وتحقق الكرامة الكبرى ويتحرك القتل وينطق باسم قاتله على مرأى ومسمع من رجال الأمن وجمهرة المحتشدين من أتباع الشيخ وعوام الناس وقد قيدت هذه الواقعة بمحاضر شرطة منيا القمح آنذاك.

ولقد كان الشيخ رضى الله عنه آنذاك عيسوى المقام يحيى الموتى بإذن الله، وهذا أمر مصطلح عليه عند السادة الصوفية إذ إنه ما من ولى لله إلا وهو على قدم نبي من الأنبياء وله من الكرامات مثلما لذلك النبي من المعجزات تكريما لسيد النبيين صلى الله عليه وسلم كما تقدم بيانه.

٢ - تسليمه باليد الشريفة على حضرة مولانا المصطفى صلى الله عليه وسلم:

ذكر الثقات من أتباع الشيخ رضى الله عنه أنه كان يعجّ فى سنة من السنين وبينما هو فى زيارة سيد الوجود عليه أفضل صلوات الله وتسليماته إذا به يقترب من الحجرة النبوية الشريفة ويقرأ السلام على جده المصطفى صلى الله عليه وسلم وإذا باليد المحمدية الشريفة تمتد إليه من شباك الحجرة النبوية فيقبلها الشيخ رضوان الله عليه على مرأى من خواص أحبابه وقد أمرهم بالكتمان فلم تدع تلك الكرامة للعامة إلا بعد انتقاله رضى الله عنه.

وقد حكى لى هذه المنقبة العظمى شيخى فى حفظ القرآن الكريم الشيخ حسن محمد عثمان من العزيزية شرقية رواية عن جده الذى شهد الواقعة عيانا .

وهذه الكرامة قد ثبت نظيرها لسيدى أحمد الرفاعى رضى عنه الملقب بصاحب مد اليد لتسليمه على مولانا المصطفى صلى الله عليه وسلم.

٣ - ومن كراماته رضى الله عنه أنه كان فى يوم عرفة من كل عام يكون فيه موجودا بمصر يأمر بإغلاق باب خلوته عليه وعدم الدخول إليه من مطلع الشمس إلى غروبها، ويأتى الحجاج من مريديه فيقسم بعضهم أنه رأى الشيخ واقفا بعرفات فى ذلك العام ولا يكاد يخلو عام يوجد فيه الشيخ بمصر من أحد يراه إما بجوار الكعبة وإما بعرفات. أو نحوها من المشاهد المقدسة.

٤ - ومنها أنه أخبر الشيخ الأحمدي الطواهرى بإعادته إلى معهد طنطا الذى كان شيخا له بعد نقله إلى معهد أسيوط حيث جاء الشيخ الأحمدي إلى سيدنا الشيخ جودة متوسلا به إلى الله تعالى فى ذلك فقال له شيخنا رضوان الله عليه ستمود لمعهد طنطا وسترقى شيخا للأزهر فكان الأمر كما قال ، وكان الشيخ الطواهرى بعد أن صار شيخا للأزهر يأتى لزيارة الشيخ والتوسل به إلى الله عز وجل والتبرك به وبآثاره.

٥ - ومنها أنه كان يلتقى بسيدى أحمد البدوى رضى الله عنه فى البرزخ ويخاطبه فى ضريحه الشريف ويسمع خطاب سيدى أحمد البدوى له. بل ذكر خواص أبناء الشيخ قدس سره أن سيدى أحمد البدوى جاء إليه يعوده فى مرضه ورأى أهل بيت الشيخ القطب البدوى عيانا وهو مع الشيخ بحجرته.

٦ - ومنها أن الشيخ محمد الخضرى - من علماء الأزهر ومؤلف كتاب «نور اليقين» - جاء لزيارة الشيخ بصحبة محمد باشا أباطة وحسين بك مرعى عمدة العزيزية ولم يكن عنده حسن اعتقاد آنذاك فى الشيخ فرأى بمجلس الشيخ أحد المريدين يقرأ فى بعض كتب التصوف ويلحن فى العربية وكان الشيخ يتجاوز - تخفيفا - عن بعض الأخطاء اللغوية ما دامت ليست فى قرآن أو حديث لكن الشيخ الخضرى ظن أن الشيخ لا يعرف خطأ القارئ ولم يتفوه بكلمة بل جذب الكتاب من القارئ دون استئذان الشيخ ليقرأ ويظهر علمه وعندما شرع الشيخ الخضرى فى القراءة لم يقدر على أن ينطق عبارة واحدة صحيحة، وكان شيخنا رضى الله عنه يصحح له أخطاءه فأقر للشيخ رضى الله عنه بعظم مكانته واعتذر عما أسره فى

نفسه. وناشد الشيخ قائلا لا تكن سببا فى سلب نعمة العلم منى فإنها ثروتى وأخذ عنه الطريق وصار من مريديه.

٧ - ومن كرامات سيدنا ومولانا الشيخ جودة إبراهيم رضى الله تعالى عنه وعنا به - التى هى من قبيل مكاشفاته بالخواطر القلبية - ما ذكره حضرة نجله وخليفته المكرم مولانا الشيخ عيسى جودة رضوان الله عليهما: أنه فى غضون سنين نشأته المباركة - وقد شاع ذكر شرف نسبه الحسينى فى الأفاق - أراد أن يتحقق من ذلك من حضرة والده الأجد - رضوان الله عليه - فقصد خلوته المباركة لذلك مضمرا قصده فى نفسه وبينما هو داخل إلى الحضرة الجودية بادأه مولانا الشيخ جودة قدس الله سره بالإجابة قبل السؤال قائلا: نعم يا عيسى نحن أشرف ومن نسل مولانا الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه (١)}}

٨ - وأيضا من كراماته رضوان الله عليه - التى تعد من إطلاع الله تعالى له على المغيبات بإذنه وبمشيئته سبحانه - أن حضرة نجله مولانا الشيخ عيسى عليه الرضوان عندما كان بصدد التأهل وإحراز شطر دينه أراد التزوج من إحدى قريباته - من جهة والدته رضى الله عنها - إذ وجد فيها صلاح الدين والدنيا، فلما دخل على حضرة والده الأجد رضوان الله عليه وأبدى له كمال رغبته فى هذه الزيجة وقد قدم أهل المروس المختارة إلى الساحة الجودية ساعين لشرف هذه المصاهرة بمجرد علمهم باختيار مولانا الشيخ عيسى، فما كان من مولانا الشيخ جودة رضوان الله عليه إلا أن أشار إلى نجله المبارك أن اختر غيرها فإنها ليست لك. دن إبداء سبب، فما كان منه بعد إلا التسليم والامتثال لأمر الشيخ قدس الله سره ولم يمض إلا ثلاثة أيام وجاء خبر وفاة تلك الفتاة (٢) رحمها الله.

★ ★ ★

(١) عن لسان حضرة شيخنا الشيخ عيسى جودة رضى الله عنهما وعنا بهما أمين.

(٢) انظر: الأنوار القدسية للشيخ يس المنهوتى ص ٢٦٩ وقد سمعتها من شيخنا الشيخ عيسى أيضا بمزيد من التفصيل.

٩ - ومن كرامات شيخنا الشيخ جودة رضى الله تعالى عنه وعنا به أنه كان يبشر مريديه ببعض ما أطلعه الله عليه من الخيرات المغيبة المستقبلية لهم تثبيتاً لهم وتأكيداً لرعايته القلبية وعنايته بشئونهم يقظة ومناماً، فمن ذلك: ما أنقله عن أحدهم من ورقة بخطه عندي نصها:

«رأيت خيراً إن شاء الله، رأيت عمى فضيلة المرحوم ولى الله الشيخ جودة فى المنام، زارنى بزيه المحترم وقال: أبشرك بأنه سيولد لك ولد بعد سبعة عشر يوماً!! فكان كما قال الشيخ عليه رضوان الله، فرزقنى الله بمولود كما قال الشيخ، فسميته محمد كمال، جعله الله من السعداء آمين.

محمد الخضرى هلال

المقيم بسمنود بشارع سعد / ٩٨

امام المحطة المصرية

والشكر لله على بشيخى صلة نسب

★ ★ ★

١٠ - ومن كرامات شيخنا الشيخ جودة رضوان الله عليه - التى تدخل فى نطاق المكاشفات بالحقائق العلمية وتميز الأصيل من الدخيل فى أمهات كتب الصوفية - ما ذكره مريده الشيخ يس بن إبراهيم السنهوتى مصنف كتاب «الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية» من أنه كان يقرأ فى كتاب «الإنسان الكامل» لسيدى عبدالكريم الجيلوى رضى الله عنه. فلما وصلى إلى مسألة: انقطاع العذاب عن أهل النار، حصل فى نفسه شئ بالطبع لما فى ظاهر ذلك من ظاهر مخالفة الشرع، فذهب على الفور إلى شيخنا الشيخ جودة رضى الله تعالى عنه وعنا به، ليسأله عن مطالعة الكتاب المذكور مضمراً فى نفسه السؤال عن تلك المسألة بالذات - أى التى توقف فى قبولها - فلما سأل شيخنا قدس الله سره: أقرأ الإنسان الكامل؟ ضحك مولانا الشيخ جودة وقال له متعجباً: أنت تقرأ بنفسك؟ - مشيراً بهذا الاستفهام التعجبى إلى صعوبة الكتاب ومحدراً من الوقوف عند ظاهر

عبارته - ثم قال مكاشفا للسائل عما أضرر السؤال عنه - «طيب، أعرفه، وقرأته غير أن به مسألة انقطاع العذاب عن أهل النار، ولعل ذلك مدسوس على صاحبه به» ثم أردف قائلاً وموجهاً: لا ينبغي الخروج عن ظاهر الشرع!! فقال الشيخ يس سيدنا الشيخ جودة رضى الله عنه: إن فى ذلك الكتاب «قل هو» أى الإنسان «الله أحد»!!

فضحك مولانا الشيخ جودة رضوان الله عليه أكثر من الأول وقال: بل هى كذلك - أى معناها - «قل هو» يا إنسان «الله أحد» (١) !!

ففسر شيخنا رضى الله عنه لفظة «أى» بأنها للنداء بمعنى «يا» وليست تفسيرية، حتى لا يفسر ضمير الهوية المعنى به الذات الأقدس جل وعلا بالإنسان!! أرايت نورانية مكاشفة شيخنا العظيم ورسوخ قدمه المحمدى فى التمسك بالشرعية وتزويها عن دخیل الرأى وشطط الشطح الذى جلب للتصوف أقاويل المرجفين وتمنت المبطلين؟

رضى الله عنك يا شيخنا الشيخ جودة إبراهيم وأمدنا بمددك العميم.

* * *

(١) انظر. الانوار القدسية للشيخ يس السنهوتى ص ٢٧١.

العارف بالله تعالى

مولانا الشيخ عيسى جودة رضى الله عنه

فى سماء المعارف الإلهية يتحقق للصفوة الريانيين إيلاد الأرواح - وهو الميلاد الثانى بعد ميلاد الأشباح فى أرض الطبيعة - فيلج العارف ملكوت السموات والأرض، ويتحقق بحق اليقين بعد الترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ، فيكون كائنا بائنا ، مع الخلق بجسده ، ومع الحق تعالى بقلبه ، مناجيا مناجاة العارفين ، ولسان حاله يردد :-

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبعت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجلوس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

من أولئك الصفوة الصادقين مع الله تعالى : ولى عاش سراجا يضىء للناس طريق السلوك إلى ملك الملوك ، ويغذى أسرار السائرين إلى جناب رب العالمين ، وحقيقته عند الله تعالى مضمون بمعرفتها على غير أهلها ، فهو فى الحضرة نشوان من سكر المحبة الإلهية ، إنه المخبت الأواب ، رفيع الجناب ، عيسوى المقام ، محمدى الإقدام ، سيدى الشيخ عيسى جودة إبراهيم الحسنى الحسينى النقشبندى رضى الله تعالى عنه وأرضاه.

شريف تدلى فرعه من الدوحة الهاشمية العلوية الحسنية الحسينية المباركة، فوالده مولانا الشيخ جودة بن السيد إبراهيم بن السيد مصطفى جودة الذى ينتهى نسبه (أباً) إلى سيدنا الحسن بن سيدنا على كرم الله وجهه ، كما ينتهى نسبه (أما) إلى مولانا الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه.

ولقد شاع واشتهر شرف هذا النسب الذى دوى صداه فى سمع مولانا الشيخ عيسى وهو لا يزال فتى يافعا ، حتى عزم على تحقيقه باليقين ، فدخل ذات يوم على والده الكريم - وهو فى خلوته - وفى صدره أن يتحقق منه من صحة النسب . فإذا بمولانا الشيخ جوده قدس الله سره يكشفه بما يضره فى سره دون أن ينبس ببنت شفة فيقول له مبادئا : (نعم يا عيسى ، نحن أشراف ومن نسل سيدنا الحسين رضى الله تعالى عنه) !!

فكانت هذه المكاشفة الجودية أقوى توثيقا من مجامع الأنساب ، لأنها نتيجة الكشف الصحيح ، ومع ذلك : فالأسرة الجودية والعيسوية مسجلة بنقابة السادة الأشراف بجمهورية مصر العربية، وبطاقات النسب الشريف فى حوزة أفراد الأسرة.

وقد ولد مولانا الشيخ عيسى رضى الله تعالى عنه بقرية (العزيزية) مركز منيا القمح بمحافظة الشرقية - وهى بلدة والده الأمجد وأسرته المباركة - وذلك سنة ١٣٢٦هـ = سنة ١٩٠٨م حيث كان مولده بحى الشيخ جوده بالمنزل الذى آلت ملكيته إلى ابن خالته الحاج عبد الرحمن خطاب (وهو ملاصق للمنزل الذى ولد به الفقير إلى الله تعالى مؤلف هذا الكتاب) .. وقد رأيت بنفسى الإبريق الذى لم يزل معلقا بحجرة ولادته حتى أواخر الخمسينيات .

ووالدة مولانا الشيخ عيسى هى السيدة مريم بنت الحاج عيسى أبو سرور من قرية بيت بشار شرقية. ولسيدنا الشيخ عيسى إخوة أربعة ذكور هم : السيد محمد الطاهر ، والسيد محمد الطيب ، والسيد عبد الرحمن - وهم إخوته لوالده من الحاجة السيدة البرماوى من العزيزية .. ثم السيد عبدالله ، وهو أخوه لوالده أيضا من السيدة التركية.

وله ست أخوات هن : السيدة فاطمة الزهراء - وهى جدة الفقير إلى الله كاتب هذه السطور لأمه - والسيدة آمنة ، والسيدة عائشة ، والسيدة خديجة^(١).

(١) كانت السيدة خديجة بنت مولانا الشيخ جوده رضى الله عنهما من أهل الكشف الظاهر، وكان أهل العزيزية وما حولها يأتون إليها بمرضاهم لتدعو لهم فكانت تدعو لهم وتبشر بشفاء من يشفى وتخبر بموت من دنا أجله ويتحقق ما أخبرته به دون تفاوت مطلقا . وقد رأيت فى رؤيا منامية فى إحدى ليالى جمادى الأولى سنة ١٤١٨ أن السيدة خديجة تحققت بمقام سيدى أحمد حجاب فى الولاية وكان من أوتاد الأرض .

وهن أخواته لوالده من الحاجة السيدة البرماوى ، ثم شقيقتاه : السيدة فاطمة النبوية والسيدة منيرة - والدته زوجة الفقير - رضى الله تعالى عن الجميع .

وقد نشأ مولانا الشيخ عيسى عليه الرضوان نشأته الأولى بالعززية فى أحضان أسرته المباركة وفى رحاب أولياء العززية سيدى الحجازى أبى عثمان عفان (خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها) وسيدى حسن أبى المواهب ، وسيدى إدريس بن سيدى غنيم الفنىمى ، والإمام العزيزى شارح الجامع الصغير للإمام السيوطى رضى الله عنهم أجمعين . فى ربوع هذا البلد الطيب استوى عوده على سوقه ، وطاب نباته بإذن ربه ، فكانت النشأة المباركة على عين وزير النبى صلى الله عليه وسلم . فحفظ القرآن الكريم ، وأمدّه مولانا الشيخ جوده رضى الله عنه بنظرة النخبة والاصطفاء وهو فى المقام العيسوى ، لذا أسماه (عيسى) وأنجبه من السيدة (مريم بنت عيسى) ليكون - بعد الاكتمال - على القدم المحمدى كشأن الورثة المحمديين .

وما أن انتقل مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضى الله تعالى عنه بأسرته إلى مدينة (منيا القمح) حتى بدأت مرحلة جديدة فى انتشار دعوة الطريقة النقشبندية الخالدية الجودية ، وأيضاً: فى نضج الشخصية العيسوية ، حيث كان نضجه مبكراً ، فبرزت أمارات النجابة ولوائح السلوك الصوفى على محياه وفى سمته الجودى ؛ فكان يعد من بين إخوته للخلافة الجودية .

وسطع نجمه وهو فى أوائل العقد الثانى من عمره المبارك حتى كان محل إجلال وإعجاب الأسرة الجودية وأتباع سيدنا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه ، فتقدمت الأسر العريقة المحبة لسيدنا الشيخ جوده ونجلاه تطلب التشرف بمصاهرة وزير النبى صلى الله عليه وسلم بتزويج مولانا الشيخ عيسى لإحدى بناتها ، ولكن حدث فى هذا الأمر مفارقات وكرامات :- منها أن سيدنا الشيخ عيسى قد عزم على التزوج من إحدى قريباته - من جهة والدته رضى الله عنها - إذ وجد فيها صلاح الدين والدنيا ، فلما دخل على حضرة والده الأمجد قدس الله سره ليبدى

رغبته فى هذه الزيجة : إذا بسيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه يقول له : (اختر غيرها فإنها ليست لك)))

هذا وقد قدم أهل تلك العروس إلى الساحة الجودية - وهى معهم - بمجرد علمهم باختيار مولانا الشيخ عيسى لها ، ولكن لم يكن فيه إلا التسليم والامتثال لأمر الشيخ قدس الله سره . وكانت المفاجأة : أنه لم يمض سوى أيام ثلاثة وجاء خبر وفاة تلك الفتاة رحمها اله تعالى^(١).

ولكن المشيئة الإلهية قدرت زواج مولانا الشيخ عيسى من السيدة فاطمة بنت الحاج أحمد حمدي الصفتي ، وكان والدها رحمه الله من أحباب سيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه وكان يمتلك خمسمائة هدان إلى جانب أموال أخرى وظفها لتتفع المسلمين ، وكان له مسجد يحمل اسمه فى (عين شمس) بالقاهرة.

فتزوج مولانا الشيخ عيسى هذه الزيجة المباركة وهو فى الثالثة عشرة من عمره.

سلوكه الصوفى :

كان مولانا عيسى - عليه الرضوان - من أهل الفتح الذين تقدم جذبهم على سلوكهم ، حيث شهدت طفولته المباركة ألوانا من الكرامات - سيأتى ذكرها فى موضعها من الترجمة - ولكن الوظائف السلوكية الظاهرة قد تحقق بها وهو فى الرابعة عشرة من عمره ؛ حيث أذن له سيدنا الشيخ جوده إبراهيم رضى الله تعالى عنه بدخول الخلوة آنذاك والذكر بالأسماء السبعة الجامعة لأصول الطرق قاطبة - عدا النقشبندية السابقة والشاذلية اللاحقة - بالإضافة إلى الذكر الخفى باسم الذات ، بعد الذكر بالنفى والإثبات ، وهما من الأسس التربوية السلوكية للطريقة النقشبندية ، وقطع مراحل الذكر بلطائف عالم الأمر ، والترقى منها إلى الذكر بلطائف عالم الخلق.

(١) انظر هذه الكرامة فى الأنوار القدسية للشيخ يس السنهوتى ص ٢٦٩ ، وقد حكاها لى مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه بمزيد من التفصيل .

فأما الذكر بالأسماء السبعة : فإنه لقطع عقبات النفس السبع لبلوغ مقاماتها وتحقيق مراتبها ، والتحقق بمعرفة الله تعالى بعد معرفة النفس (فإنه من عرف نفسه فقد عرف ربه) ومن ثم ترقى إلى ذروة المراتب ، ويبان الأذكار السبعة كما يلي -

والذكر الأول : (لا إله إلا الله) وهو للنفس الأمانة - التي تأمر صاحبها بالسوء - ولون نورها : أزرق وعدده : مائة ألف مرة .

والذكر الثاني : (الله) ، وهو للنفس اللوامة - التي تلوم صاحبها بعد وقوع المعصية - ولون نورها : أصفر ، وعدده : مائة ألف مرة .

والذكر الثالث : (هو) ، وهو للنفس الملهمة - التي تلهم صاحبها فعل الخيرات - ولون نورها : أحمر ، وعدده : تسعون ألف مرة .

والذكر الرابع : (حى) ، وهو للنفس المطمئنة - أى اطمأنت وسكنت من اضطرابها وسلمت للأقدار - ولون نورها : أبيض ، وعدد هذا الذكر سبعون ألف مرة .

والذكر الخامس : (قيوم) ، وهو للنفس الراضية - التي رضيت من الله بكل حال - ولون نورها : أخضر ، وعدده : تسعون ألف مرة .

والذكر السادس : (رحمن) ، وهو للنفس المرضية - التي صارت مرضية عند الحق وعند الخلق - ولون نورها : أسود ، وعدده : خمسة وتسعون ألف مرة .

والذكر السابع : (رحيم) ، وهو للنفس الكاملة - التي كملت أوصافها وصارت رحيمة لجميع الخلق - وليس لها نور مخصوص ، فنورها يتموج بين هذه الأنوار الستة ، وعدد هذا الذكر : مائة ألف مرة .

وهذه المراتب والأذكار عند جميع الطرق إلا عند النقشبندية والشاذلية ، فإن عندهما يذكر اسم الذات (الله) والنفى والإثبات (لا إله إلا الله) فى القلب واللطائف ، وذلك مع كثرة التوجهات والمراقبات ، والرياضات ، والخلوات .

وإنما ذكر مولانا الشيخ عيسى - بتوجيه والده رضى الله عنهما - بالأسماء السبعة بالإضافة إلى الذكر باسم الذات وبالنفى والإثبات : ليستجمع أصول الطرق فى سلوكه ، وذلك شأن الكبار من الأولياء ، الذين صلحت ذواتهم - بالاجتباء الإلهى - لاستجماع أنوار الطرق جمعاء ، وسبحان من يختص برحمته وعطائه ومده من يشاء .

وأما نظام الخلوة وتوجهاتها التى سلك بها مولانا الشيخ عيسى جوده رضى الله تعالى عنه وعنا بهما فى الدارين : فقد تلقيته منه بمنزلنا الجودى الأحمدي بطنطا فى غرة شعبان المكرم سنة ١٤٠٩ هـ ويتمثل هذا النظام بشروطه فيما يلى :
أولا : مدة الخلوة أربعون يوما كاملا ، لا انقطاع فيها .

ثانيا : الإذن من الشيخ المرشد للمريد بدخول الخلوة والاشتغال بأذكاره .

ثالثا : أن يكون المريد دائما على طهارة من الحديثين الأكبر والأصغر .

رابعا : الانقطاع الكامل من المريد عن كافة الشواغل الدنيوية ؛ ليتبتل إلى ربه تبتيلا .

خامسا : عدم اختلاط المريد خلال مدة الخلوة بأحد إلا بإذن من الشيخ المرشد .

سادسا : الاقتصار فى المأكل والمشرب على ما يأمر به الشيخ - وهو الأغذية النباتية غالبا - إلا إن أذن له بغيرها ؛ وذلك ليكون عوناً للمريد على السهر للذكر وتلطيفا لكثافته الترابية .

سابعا : الاعتكاف الدائم بالخلوة ، وعدم الخروج منها بتاتا إلا لقضاء الحاجة وصلاة الجماعة .

وقد أخبرنى مولانا الشيخ عيسى جوده - رضى الله عنهما - أن مولانا الشيخ جوده عليه رضوان الله كان يصرح لأهل الخلوة بإقامة الجماعات فى الفرائض بها .

وأما نظام الذكر بالخلوة وتوجهاتها :

فقد أخبرني مولانا الشيخ عيسى عليه الرضوان : بأنه على النحو التالي :-

أولا : الذكر فى لطيفة (القلب) - الموجودة تحت الثدى الأيسر بقدر إصبعين - وهو على قدم سيدنا آدم على نبينا الأعظم وعليه الصلاة والسلام ، ويستمر هذا الذكر لمدة ثمانية أيام.

والتوجه الخاص به : أن يقول الذاكر - بعد الذكر بلطيفة القلب - : «إلهى بفيض تجلى أفعالك الذى أرسلت من قلب النبى صلى الله عليه وسلم إلى قلب سيدنا آدم ، ومن قلب سيدنا آدم عليه السلام بواسطة قلوب المشايخ : أرسل إلى قلبى».

وثانيا : الذكر فى لطيفة (الروح) - الموجودة تحت الثدى الأيمن بقدر إصبعين - وهى على قدم سيدنا : نوح وإبراهيم على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ويستمر هذا الذكر لمدة يومين .

والتوجه الخاص به أن يقول بعد ذكر لطيفة الروح : «إلهى بفيض تجلى صفاتك الثبوتية الذى أرسلت من روح النبى صلى الله عليه وسلم إلى روحى سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ، ومن رُوحى سيدنا نوح وسيدنا إبراهيم عليهما السلام بواسطة أرواح المشايخ أرسل إلى روحى».

وثالثا : الذكر فى لطيفة (السّر) - الموجودة فوق الثدى الأيسر بقدر إصبعين - وهى على قدم سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وذلك الذكر لمدة يومين أيضا .

والتوجه الخاص به : أن يقول بعده : «إلهى بفيض تجلى شئون ذاتك الذى أرسلت من سرّ النبى صلى الله عليه وسلم إلى سر سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، ومن سر سيدنا موسى عليه السلام بواسطة المشايخ أرسل إلى سرّى».

ورابعا : الذكر فى لطيفة (الخفى) - الموجودة فوق الثدى الأيمن - وهى على قدم سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهو لمدة يومين أيضا .

والتوجه الخاص به : أن قول بعده : «إلهى بفيض تجلى صفاتك السالبة الذى أرسلت من خفاء النبى صلى الله عليه وسلم إلى خفاء سيدنا عيسى عليه السلام ، ومن خفاء سيدنا عيسى عليه السلام بواسطة خفاء المشايخ أرسل إلى خفائى .

ثم خامسا : الذكر بلطيفة (الأخفى) - الموجودة فى وسط الصدر - وهى تحت قدم نبينا الأعظم سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه دائما وسلم ، وهذا الذكر لمدة يومين كذلك .

والتوجه الخاص به أن يقول بعده : «إلهى بفيض تجلى شئون جامعيتك الذى أرسلت إلى إخفاء النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن إخفاء النبى صلى الله عليه وسلم بواسطة إخفاء المشايخ أرسل إلى إخفائى».

★ تلك هى أذكار اللطائف الأمرية - المنسوبة إلى عالم الأمر - الخمس ، بتوجهاتها. ويليهما فى نظام الخلوة أذكار لطائف عالم الخلق كما يلى :-

وسادسا : الذكر فى لطيفة (النفس) - وهى فى الجبهة - لمدة يومين .

وسابعا : الذكر فى العناصر الأربعة التى هى قوام الجسد كله لمدة يومين .

ثم ثامنا : الذكر بحبس النفس - بفتح الفاء - بالنفى والإثبات (لا إله إلا الله) بعدد وتر على قدر اتساع النفس ، بحيث يتلفظ قبل نهايته بـ (سيدنا محمد رسول الله) ، وذلك لمدة ثلاثة أيام .

ثم تاسعا : المراقبة ، وحقيقتها : معنى النفى والإثبات من غير ملاحظة حروف الكلمة الطيبة ، وهى فى اصطلاح أهل الحقيقة : استدامة علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه فى جميع أحواله . والمراقبة هى الطريق الرابع من طرق الوصول عند السادة النقشبندية قدس الله أسرارهم العلية .

ويظل المرید فى الخلوة متحققا بمقام المراقبة ثلاثة أيام حسب نظامها

الدقيق الذى رسمه مولانا الشيخ جوده - ومن بعده مولانا الشيخ عيسى رضى الله
عنهما - لأبنائه ومريديه .

ثم عاشرا : المرور على كل لطيفة من اللطائف الأمرية والخلقية بالذكر باسم
الذات (ألفا) ، وبعد كل ألف من ذكر اللطائف الأمرية بتوجه إلى كل لطيفة منها
بالتوجه المناسب لها - كما مرّ آنفا - ومدة هذا المرور فى الخلوة : ثلاثة أيام .

ثم حادى عشر : التهليل - أى الذكر بلا إله إلا الله - على قدر سماح نفس
الذاكر (لمدة أربعة أيام) .

وقد أفادنى شيخنا الشيخ عيسى جوده رضى الله تعالى عنهما : أن ذكر
اللطائف المذكورة فى نظام الخلوة إنما هو باسم الذات ، حيث يتم المختلى الذاكر
به أحد عشر ألفا منها خمسة آلاف قبل دخول الخلوة ، فيكون ذكره باسم الذات
الأقدس فى الخلوة ستة آلاف .

ثم بعد إتمام ما مر ذكره : يعكف الذاكر المختلى على الذكر الخفى باسم
الذات حتى يتم أربعين يوما ، بعدد أيام وليالى ميقات الكليم سيدنا موسى على نبينا
وعليه الصلاة والسلام ، حيث قال ربنا عز وجل فى محكم كتابه العزيز : (وواعدنا
موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) . (١)

★ ★ ★

هذا قبس من الجانب السلوكى التعبدى الذى سلك به مولانا الشيخ عيسى
رضوان الله عليه تحت إشراف والده الأمجد مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضى الله
تعالى عنه وعنا به فى الدارين آمين ، حيث كانت الخلوة فى بيته ثم فى المسجد
الجودى . (٢)

(١) سورة الأعراف / ١٤٢ .

(٢) من ترتيبات القدر الإلهى أن يكون مكان الخلوة الملحق بالمسجد الجودى الشريف هو مكان
ضريح مولانا الشيخ عيسى جوده رضوان الله عليه ، فيا لها من منقبة شريفة أن يكون متعبده
هو المكان الذى دفن فيه ، فأنعم به من روضة من رياض الجنة !!

ومن ثم كان مولانا الشيخ عيسى قد قطع المراحل السلوكية في شبابه الباكر على عين مربييه وزير حضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وخاض بحار المجاهدات وحظى بالمكاشفات وظهرت على يديه الكرامات منذ كان في المهد صبيا ، فظلت تتوالى على يديه حتى لقي ربه ، بل وبعد انتقاله إلى جوار مولاه عز وجل .

جانب من كراماته رضى الله تعالى عنه :

١ - مما يؤثر عن مولانا الشيخ عيسى جوده رضى الله عنهما وعنا بهما من الكرامات وهو لم يبلغ الحلم بعد : أنه قد شرع بعض الضالين في بناء مقر للضلال والعصيان بالقرب من المسجد الذي أسسه والده الأمجد رضوان الله عليه ، وبمجرد علم مولانا الشيخ عيسى بشروعهم في البناء اصطحب أحد اتباع الشيخ - وهو الشيخ إبراهيم أبو حبيب الكبير إلى ذلك المقر وأخذوا يقرآن الفاتحة لسيدنا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه ثم يأمر أبا حبيب فينادى شيخنا الأكبر بالمدد ، فما يصبح الصباح إلا وقد صار البناء أثرا بعد عين (١١)

وقد تكررت هذه الكرامة ثلاث مرات ، مع كل إعادة لبنائه حتى قدم أصحابه إلى سيدنا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه مستغيثين به لما علموا بكرامة نجله رضى الله عنه وتابوا عن غيهم .

٢ - ومن كراماته رضى الله تعالى عنه - في صغره أيضا - أنه كان مع حضرة والده رضوان الله عليه ببلدة (الشموت) مركز بنها ، فكان بعض أتباع الشيخ رضوان الله عليه يقومون بدراسة القمح ، فعرض إليهم سيدنا الشيخ عيسى - وهو في حوالى العاشرة من عمره المبارك ، بطلب منهم ركوب آلة الدراسة المسماة بـ (النورج) ولكنه لم يكن هناك دواب تجر (النورج) ، فأصر على ركوبه بدون دواب ، وقال له (سر بأمر الله تعالى) فسار النورج وحده بقدره الله تعالى بدون أى شيء يجره وسط دهشة الحاضرين !!

وقد تكررت هذه الكرامة نفسها في بلدة (بَنَدَفْ) التابعة لمركز منيا القمح بمحافظة الشرقية وبيرونها شهود العيان ، وتتأقلمها الجموع الفقيرة .

٣ - ومن كراماته رضى الله عنه : أنه كان في زيارة لبلدة (دنديط) مركز ميت غمر - في حياة والده الأجدد قدس الله سره - نائباً عنه ، وهو لا يزال فتى يافعاً دون البلوغ ، فاحتفى به أهل البلدة احتفاءً بالغا أثار حفيظة عمدة البلدة فأخذ يستنكر الالتفاف حول الشيخ عيسى وهو في هذه السن بهذه الصورة .

وعلى إثر استنكاره ذلك : وبينما هو داخل من باب دَوَّارِه الكبير إذا به يصطدم بشق الباب المغلق مع أن شقه الآخر مفتوح ، فوقع على الأرض وسط دهشة أهله ، فأدرك من فوره أن هذه الواقعة لوقوعه في ولى الله الشيخ عيسى رضى الله تعالى عنه واعتراضه عليه .

ثم كانت تتمه الكرامة : أن يرى أحد سالكى الطريقة النقشبندية بالبلدة في الليلة التالية مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره وهو يقول له في رؤياه : إني أرى نجلى عيسى وأعرف من يكرمه ممن لا يكرمه .

ولقد كانت هذه الزيارة بما وقع فيها من الكرامة - كما حكى لى مولانا الشيخ عيسى سببا في إقبال معظم أهل البلدة على الدخول في الطريقة النقشبندية واستقامتهم على مبادئها ، لدرجة أنه كان بها (خواجه) من أصل إفرنجى يتاجر في الخمر ، فأعرض عنه الجميع ، فخرج منها مدبرا بعد أن أغلق محله ، فلما سئل أثناء مفادرتها عن السبب قال : (وماذا أصنع هنا في هذا البلد والكل قد صار نقشبنديا)!! ألا فليُنظر الجهلة المنكرون على الصوفية والأولياء : ماذا يفعل التصوف النقي والأولياء المتحققون في المجتمع الإسلامي؟؟ إنهم يقهرون الظلام بنورهم الساطع الوهاج .

٤ - ومن الكرامات التي أجراها الله تعالى على يد مولانا الشيخ عيسى رضى الله تعالى عنه - وهو في صغره أيضا - أنه كان مع حضرة والده الأجل مولانا الشيخ جوده - عليهما الرضوان الإلهي - في ضيافة محمد بك منصور نصير

عمدة قرية (ملامس) بالشرقية ، وأثناء مدة الضيافة : فقدت مصوغات حرم المضيف - وكانت جواهر غالية ومعادن نفيسة - فشكوا ذلك إلى مولانا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه ، وإذا بمولانا الشيخ عيسى - وهو فى حوالى السابعة من عمره يشير بيده نحو امرأة ريفية كانت تحمل وعاء فوق رأسها ، ويصيح (هذه هى السارقة) مع أنه آنذاك لم يغادر مجلس والده ، فأمسك بها ، وفتش الوعاء الكبير الذى تحمله (القفة) فوجدت المصوغات المسروقة مخفية بداخله ، فشهد الجميع بأنها كرامة الشيخ عيسى .

وكتب السيد محمد منصور نصير بعد ذلك إلى مولانا الشيخ جوده يشيد بكرامة نجله ، ثم أهداه هدية قيمة . (١)

٥ - ومن كرامات سيدنا الشيخ عيسى رضى الله عنه أيضا : ما حدثنى به الشيخ داود عبدالدايم - من نقشبندية (تصفا) أبناء الشيخ أحمد نور - أنه حج إلى بيت الله الحرام حوالى سنة ١٩٦٧م فالتقى فى (عرفات) بمولانا الشيخ عيسى رضى الله عنه ، وصحبه فى الموقف وجالسه هناك مع أن فضيلة الشيخ عيسى لم يسافر إلى الحج فى ذلك العام ، فلما عاد الشيخ داود من الحج ، وذهب لزيارة سيدنا الشيخ جوده ومولانا الشيخ عيسى بمنيا القمح : قال لشيخنا الشيخ عيسى : متى عدت من الحج ؟ فأدركه شيخنا على الفور قائلاً: (اسكت لا تتكلم واحفظ السر) . (٢)

٦ - وهذه كرامة أخرى من هذا القبيل السالف ، وصاحبها الذى وقعت له هو فضيلة الشيخ شوقى الموالى مدير الوعظ بمحافظة القليوبية ، وقد رواها بنفسه فى الاحتفال بالذكرى الأولى لانتقال مولانا الشيخ عيسى جوده رضوان الله عليهما - بالمسجد الجودى بمنيا القمح - حيث قال أنه اعتزم الحج فى إحدى السنين وخشى ألا يمكن من ذلك ، فجاء إلى مولانا الشيخ عيسى وسأله

(١) انظر : النفحات الجودية للدكتور جوده محمد ابو اليزيد المهدي ص ١٩٨ ط الأولى .

(٢) حدثنى بهذه الكرامة الشيخ داود المذكور فى الجمعة الختامية للمولد الرجبي الأحمدي سنة ١٤٠٩ بمزلنا بطنطا مشافهة .

أن يدعو الله تعالى له بذلك حيث إنه مستجاب الدعوة ، فقرأ له الفاتحة على هذه النية ، ثم بشره بأنه من حجاج ذلك العام ، وقد يسّر الله تعالى له ذلك وسافر وشافه الكعبة الغراء ، وبينما هو فى الطواف وقد أطبق عليه الزحام من كل جانب حتى توقف عن الحركة تماما وكاد أن يهلك ، وإذا به ينادى يا سيدنا الشيخ عيسى مدد .. أدركنى !!

ويقسم الشيخ شوقى العوالى أنه أبصر أمامه على الفور مولانا الشيخ عيسى بجسمه وشخصه وأخذ يفسح له فى المطاف حول الكعبة حتى أتم طوافه وأدى مناسكه بحمد الله تعالى وعاد سالما غانما ، ومولانا الشيخ عيسى لم يبرح وطنه هذا العام !!

٧ - ومن كرامات مولانا الشيخ عيسى قدس الله سره :- وهى مما يدل دلالة قاطعة على كمال تحققه بالخلافة الجودية ، والنيابة عن حضرة والده الأكرم رضوان الله تعالى عليهما :-

ما حدثنى به أحد مريديه من أنه كان فى فترة السبعينيات يقوم بخدمة المسجد الجودى ، ويؤدى الابتهاالات وأذان الفجر ونحو ذلك ، فتعرض له أحد شيوخ الطرق الصوفية الأخرى محاولا أن ينقله من السلوك النقشبندى إلى سلوك طريقة ذلك الشيخ ، فأمله السالك النقشبندى حتى يستخير الله تعالى .

وإذا بهذا المريد النقشبندى يرى فى ليلته مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره يأتية فى منام كفلق الصبح ، فى منظر جلالى مهيب ، ويقول له :-

«يا فلان ، إن العهد الذى أخذته من نجلي عيسى هو منى» ثم قال له :-

«انظر ورائى» ، فنظر المريد فوجد خلف مولانا الشيخ جوده رضى الله عنه مجموعة من القصور الفخمة الرائعة التى لا نظير لها فى الدنيا جمالا وروعة ، فقال له سيدنا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه : (لقد بُنِيَتْ لك هذه القصور بيدي وهى لك ، فإن تركت عهدنا وطريقتنا هُدِمَتْ وخسرتها) !!

فقام الرجل من نومه ذاهلاً مما رأى وسمع ، وقد امتلأ كيانه بحب الطريقة النقشبندية وشيخها مولانا الشيخ جودة وخليفته مولانا الشيخ عيسى رضى الله تعالى عنهما ، وحشرنا فى معيتهما المشرفة يوم الدين . اللهم آمين .

٨ - ومن كرامات مولانا الشيخ عيسى رضى الله تعالى عنه :- ما حدثنى به الأستاذ إسماعيل سليمان المحامى - شقيق اللواء حسين سليمان مدير المباحث الجنائية بالشرقية سابقا - :

أنه كان فى زيارة لمولانا الشيخ جودة رضى الله تعالى عنه فى إحدى سننى السبعينات على وجه التقريب ، فلما وقف أمام مقصورة ضريح سيدنا الشيخ جودة رضوان الله عليه : خطر بباله تساؤل : - هل الشيخ عيسى وليّ حقاً ؟ أم هو مجرد شخص عادى يحمل اسم والده ؟؟

قال الأستاذ إسماعيل : فسمعت بأذننى من داخل الضريح صوتاً عالياً مدوياً يقول : (وراءك وليّ منى) !!

فالتفتُ ورائى فوجدت الشيخ عيسى واقفا ورائى فجأة وليس معه أحد !! فتحققت ولايته يقيناً بتزكية أبيه الأجد رضوان الله عليهما . آمين .

٩ - ومن كراماته الظاهرة رضى الله تعالى عنه ما حدثنى به المرید النقشبندى الشيخ يحيى دياب صهر السيد محمد بن مولانا الشيخ عيسى رضى الله عنه : أنه أثناء تجديد بناء مسجد مولانا الشيخ جودة رضى الله تعالى عنه : وكان مباشراً للبناء تحت إشراف سيدنا الشيخ عيسى عليه رضوان الله تعالى - كان يسمع بأذنه الظاهرة صوت مولانا الشيخ عيسى من منيا القمح وهو ببلدته (السيفا) بمحافظة القليوبية يناديه قائلاً : (يا يحيى ، أحضر خمسة بنائين غدا معك لبناء حائط المسجد). والأعجب أن يجد الشيخ يحيى البنائين الخمسة فى انتظاره مستعدين للذهاب لبناء حائط المسجد وكأنهم على موعد سابق متفق عليه !!

١٠- ومن كراماته أيضا رضى الله تعالى عنه : معرفته - بنور الله - بموعد انتقاله إلى جوار مولاه عز وجل ، حيث إنه قبل وفاة زوجته (السيدة فاطمة) رضى الله عنها التى توفيت قبله بعام ، عز عليها فراق زوجها وشيخها المبارك فقالت له وقد استشعرت دنو أجلها (يعز على فراقك يا مولانا) ، وإذا بسيدنا الشيخ عيسى رضوان الله عليه يقول لها على مسمع من الحاضرين (لن أفترق عنك إلا سنة واحدة)، وإن هو إلا عام واحد وكان الانتقال إلى الرفيق الأعلى فى غرة ذى القعدة سنة ١٤١٥هـ رضى الله تعالى عنه وأرضاه !! إنها مكاشفة المؤمن الذى ينظر بنور الله.

(مكانته فى الولاية وتحققه بالوراثة المحمدية) :-

لقد ارتقى شيخنا العارف بالله تعالى مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه مكانة عزيزة شامخة فى عالم الولاية ، حيث إنه كان عليه الرضوان :-

١ - الخليفة الأعظم لمولانا الشيخ جودة رضوان الله عليه ، ومن المقطوع به أن الخليفة يرث مستخلفه فى مقاماته الولاية الاصطفائية ، ولقد كان مولانا الشيخ جوده رضوان الله عليه وزيراً لحضرة النبى صلى الله عليه وسلم فى عالم الباطن ووارثا لسيدنا أبى بكر الصديق رضوان الله عليه الذى قال فيه مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من نبى إلا له وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض ، فأما وزيراي من أهل السماء فجبريل وميكائيل وأما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر) .^(١) فكان مولانا الشيخ عيسى خليفة لوالده الأمجد فى الوزارة المحمدية .

٢ - إمام الطريقة النقشبندية الخالدية الجودية وحامل لوائها ومربى أبنائها ومسلك مريديها وناشرها فى ربوع الديار المصرية ظاهرا وباطنا .

فلقد قلده والده الأمجد رضوان الله عليه هذه الإمامة - كما تؤكد أحداث كل من الكرامتين : السابعة والثامنة فيما أوردناه آنفا - فظل طوال حياته قائما على

(١) أخرجه الترمذى فى سننه : ١٦٦/٥ ط/ الحلبي .

أمر الطريقة حتى اللحظة الأخيرة من عمره المبارك ، داعيا إلى الله على بصيرة وفاتحا للطريق مرييا للسالكين ، ولم تنقطع رحلاته لنشر رسالة الطريق في مختلف البلدان حتى أثناء وفاته رضى الله عنه .

فكان سيدنا الشيخ عيسى رضى الله عنه يربى أبناء قلبه بالنظر كحضرة والده قدس الله سره ، وكان كلامه في الطريق بالإشارة الخفية ، وكان يؤثر إخفاء مقامه الباطنى ومنزلته الولائية إثارا للإخلاص مع الله تعالى ، وإذا أراد إعلام أحد أبنائه ومريديه بشيء من مقاماته ، أفصح له على الخصوص وربما بطريق الرمز أو الرؤيا أو بظهور كرامة كمكاشفة بأمر خاص أو نحو ذلك .

ونظرا لشدة حرصه على إخفاء مقامه فقد تستر عن الأغيار بستار كثيف من التمسك بالظاهر لقصر معرفته على من يصلح لها في طريق الله عز وجل .

ومن ثم وقع أهل الشقاء والحرمان في شرك الإنكار عليه ليزدادوا من الله بعدا .

٣ - ★ كان ولا يزال رضوان الله عليه محل إجلال أولياء وعلماء عصره ، ومناط تكريمهم وتقديرهم لمكانته الصوفية ، ولا سيما من خلفاء مولانا الشيخ جوده رضى الله عنه كمولانا الشيخ عليوة عطية وسيدى محمد ابن أبى اليزيد رضى الله عنهما .

فلقد كان سيدى الوالد الشيخ محمد أبو اليزيد يعظم قدره ويتبرك به - وهو من هو في الولاية والعرفان - حتى إننى عندما طلبت من سيدى الوالد أخذ العهد على يديه في منتصف عقد الستينات - وأنا طالب بكلية أصول الدين - أخذنى إلى منيا القمح وسلمنى لمولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه بالمقام الجودى وقال لى (خذ العهد من خالك سيدنا الشيخ عيسى) وأخذت العهد منه بحمد الله تعالى وسلكت على يديه الطريقة النقشبندية ، وقد رأيتة في رؤيا وهو يلقننى اسم الموافقة (ياحى) ثمانى عشرة مرة في نفس واحد . كما رأيتة في رؤيا أخرى وهو يقدمنى إلى جمهور غفير في سرادق عظيم بصفة صوفية أسأل الله تعالى أن أكون

أهلا لها مع التحقيق بلا سلب بعد عطاء ، بجاء رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

★ ومن الأولياء الذين عاصروا مولانا الشيخ عيسى وشهدوا له بالرسوخ والتمكين وسمو المنزلة في الولاية : مولانا السيد حسن المسلمي رضوان الله عليه حيث كان يتوسل به إلى الله عز وجل ويقيم خدمته في رحابه في المولد الجودي كل عام بمنيا القمح .

★ ومن الأولياء المعاصرين له العارف بالله الشيخ مصطفى عبدالجليل مجاور مولانا السيدة زينب رضى الله عنها وعنا بها في الدارين ، وكانت إقامته الأخيرة بمنيا القمح حيث كانت له مدرسة روحية في الطريق ، فكان يقول رضى الله عنه (إن سيدنا الشيخ عيسى قد طارت فيه رقاب) أى من المنكرين على ولايته رضى الله عنه،

★ ومن شيوخ الأزهر وعلمائه الذين عرفوا فضله ومنزلته شيخ الاسلام الشيخ محمد الأحمدى الظواهري الذى سعى معه في إقامة مولد سيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه وقد صحبه في السفر لمقابلة السيد عبدالحميد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية آنذاك لإتمام إجراءات المولد . وفى الطريق إلى السيد البكرى قال الشيخ الأحمدى - شيخ الأزهر - لمولانا الشيخ عيسى : (إن الشيخ البكرى سيطلب منك ضم الطريقة النقشبندية الجودية إلى المشيخة العامة وتميينك من قبله شيخا لها ، وهذا خلاف ما وصى به سيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه فلا توافقه في ذلك) . (١)

★ ثم كان من كبار العلماء الأولياء المعاصرين لمولانا الشيخ عيسى المعظمين لقدرة في الولاية : الشيخ محمد التجدى سالم شيخ الشافعية بمصر، والملقب بالشافعى الصغير ، وهو الذى صحب مولانا الشيخ عيسى إلى المجلس الصوفى ومقر المشيخة العامة بسراى الخرنفش بالقاهرة لأخذ

(١) انظر النفعات الجودية للدكتور محمد ابى اليزيد المهدي ص ١٨٤ - ١٨٥ ط/ الاولى .

الموافقة النهائية على عمل المولد الجودى ، وقد ذكر لى مولانا الشيخ عيسى أنه عندما قصد تجديد وضوئه فى خلال هذه الرحلة حمل الشيخ النجدى شيخ علماء عصره فى الفقه : الملابس الخارجية - كالجبة وحزام القفطان - لمولانا الشيخ عيسى حتى فرغ من وضوئه لا حقا إنما يعرف الفضل من الناس ذوهه .

٤ - أنه - فضلا عن كونه امتداداً للنسبة الضيائية النقشبندية المنسوبة إلى سيدى أحمد ضياء الدين ^(١) فهو كذلك امتداداً للنسبة الأكبرية - المنسوبة إلى الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى قدس الله سره - كما صرح بذلك العلامة الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى شيخ مشايخ الطرق الصوفية الأسبق حيث ذكر فى (الكتاب التذكارى محيى الدين بن عربى) أن سيدنا الشيخ جودة إبراهيم رضى الله عنه قد تلقى من سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى قدس الله سره : الطريقة النقشبندية ومعها جملة من الطرق منها : الطريقة الأكبرية ، ثم قال : (.. وقد توفى الشيخ جودة بعد سنة ١٢٤٤هـ وقد لقي كاتب هذه السطور بعض تلاميذه من الصوفية وعلماء الأزهر ، ويقوم على طريقته الآن نجله الشيخ عيسى جوده ، ولطريقته أتباع كثيرون إلى الآن ، وخصوصا فى الشرقية). ^(٢)

ومن ثم يعتبر مولانا الشيخ عيسى شيخا للطريقة الأكبرية فى عصره أيضا .

٥ - ومما يثير دهشة عند الكثيرين : أن يبرز فى سجل أمجاد مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه أنه حاز - فى الباطن - مقام الخلافة الأحمدية البدوية

(١) انظر الكتاب التذكارى : محيى الدين بن عربى : الفصل الثانى عشر ، الطريقة الأكبرية .
للدكتور أبو الوفا التفتازانى ص/ ٣٥٠ - ٣٥١ .

(٢) هو الإمام الجامع سيدى أحمد ضياء الدين بن مصطفى الكمشخانوى النقشبندى المتوفى بتركيا سنة ١٣١١هـ صاحب المؤلفات العظام مثل راموز الأحاديث وجامع الأصول وهو شيخ مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنهما .

أيضا، باعتباره وارث والده الأجد الذي كان - مع كونه إماما للنقشبندية -
متحد الذات مع سيدي أحمد البدوي رضوان الله عليهما .

ومما أكد لى هذه الحقيقة : أن أحد السالكين النقشبندية المتسلكين على يد
والدى العارف بالله تعالى سيدي محمد أبى اليزيد المهدي رضوان الله تعالى عليه :
وهو الشيخ عبدالله أمين خفاجى - من كفر أبى داود مركز طنطا - قد حكى لى
أثناء حياة مولانا الشيخ عيسى حوالى سنة ١٩٩٤م أنه رأى عقب الاحتفال بالمولد
الأحمدى أنه يسير خلف شيخنا الشيخ فى ساحة المولد البدوي المبارك ، فسمع
صوتا ينادى ويقول (الشيخ عيسى هو الخليفة الأول لسيدي أحمد البدوي رضى الله
عنه) لا ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

٦ - ومن الحقائق المؤكدة عند عارفى مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه : أنه
كان (عيسوى المقام) كحضرة والده مولانا الشيخ جوده رضى الله عنهما ،
الذى كان - وهو فى خلوته - ينادى بصوت عال حبيبه الذى شاركه فى هذا
المشرب - وهو سيدي أحمد البدوي رضوان الله عليه - قائلا : (يا عيسوى
المقام) ، وقد سمعه حضرة والدى السيد محمد أبو اليزيد رضى الله عنه وهو
يردد هذا النداء ، ومن ثم فقد سمى نجله وخليفته (عيسى) وهو متحقق بهذا
المقام .

★ وتفسير هذا المقام - بإيجاز - كما وضعه سلطان العارفين سيدي محيى
الدين بن عربى قدس الله سره : أن السالك لطريق الله ، العامل بشريعة سيدنا
محمد صلى الله عليه وسلم لابد أن يصادف فى عمله - فيما يفتح له منه فى قلبه
وطريقه ويتحقق به - طريقة من طرق نبي من الأنبياء المتقدمين مما تضمنته هذه
الشريعة ، فإذا فتح له فى ذلك فإنه مع كونه محمديا ملة وشريعة وطريقة ينتسب
إلى صاحب تلك الشريعة ، فيقال فيه عيسوى أو موسوى أو إبراهيمى ، وذلك
لتحقيق ما تميز له من المعارف ، وظهر له من المقام جملة ما هو داخل تحت حيلة
شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .^(١)

(١) انظر : الفتوحات المكية لسيدي محيى الدين عربى رضى الله عنه بتحقيق د. عثمان يحيى :

٣٥٦/٣ - ٣٥٨ نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ومن ثم يظهر على يد ذلك الولي من الكرامات من جنس ما ظهر على يد ذلك النبي من المعجزات كإحياء الموتى والإنباء بالمفبيات ونحو ذلك .

ولولا إيثار مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه للستر والكتمان لرأينا على يديه - فوق ما ظهر لنا - من الكرامات الكثير والكثير .

★ ومما يظاهر تحقق سيدنا الشيخ عيسى بالمقام العيسوي أيضا ما رواه أحد مريديه وهو الشيخ عطايا .. من المنشية الكبرى أنه قال (كنا بصحبة شيخنا الشيخ عيسى رضى الله عنه ببلدة «إنشاص البصل» فسألته : لماذا سماك سيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه «عيسى» ؟ فقال : عيسى بن مريم يا ولد . ثم أمضينا ليلتنا .

وفى الصباح : ذهبنا لزيارة أحد المريدين ، فطرق سيدنا الشيخ عيسى الباب - وكان قرآن الصباح يقرأ فى المذيع - فقال صاحب البيت : من بالباب ؟ وإذا بالقارئ يقرأ : «ذلك عيسى بن مريم قول الحق» لا فنظر سيدى الشيخ عيسى إليّ وضحك .

٧ - تحققه بالوراثه المحمدية وتخلقه بالخلق المحمدى . أجل ، لقد حظى هذا الولي بحظ وافر من الوراثة المحمدية فى حاله ومقامه ، فكان متخلقا بمكارم الأخلاق المحمدية ، ومن أخصها : الشفقة على خلق الله ، والنظر إليهم بعين الرحمة ، وما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما ، وكان معظما للشرعية المحمدية غيورا على حقوق الله تعالى ، بارا بأهله ، رحيفا بأبناء قلبه خاصة ، وبالمسلمين عامة .

وهذه واقعة تجسيد رحمته حتى بالعصاة الذين اجتروا على حقوقه ، فقد روى صهره الحاج السيد أحمد عفيقى أنه ضُبط لص يسرق حقل الشيخ فى الأرض المخصصة لإقامة مولد والده مولانا الشيخ جوده قدس الله سره ، وقد جمع اللص قدرا كبيرا من (القول) المزروع فى أرض الشيخ وعباه فى (جوال) كبير ، ولما هم بنقله ضبط متلبسا ، وذهب بعض الحضور لإحضار الشيخ لينفذ فيه العقاب عن

طريق رجال الأمن ، لكن الشيخ لما حضر ورأى الرجل فى حاله المؤسف ، سألته :
لم تسرق حق غيرك ؟ فتعلل بأنه فقير ولا يجد مالا ، فأطلق الشيخ سراحه ، ولما
هم اللص بالانصراف فى دهشة وتمجب قال له الشيخ : خذ ما جمعته من الفول
معك وامض به إلى عيالك !!

فذهل الحضور من فعل الشيخ ، وأخذ صهره الحاج السيد أحمد يلوم الشيخ
على تسامحه . وفى تلك الليلة : رأى الحاج السيد أحمد مولانا الشيخ عيسى واقفا
بثيابه البيضاء على ساحل بحر عظيم ، وسمع قائلا يقول : إن الشيخ عيسى على
القدم المحمدى ومتخلق بالخلق المحمدى !!

رضى الله عن ولى الله مولانا الشيخ عيسى وجزاه عن الأمة المحمدية كفاء
ما قدمه من عطاء ونفع وإمداد ، وجمعنا وإياه فى الفردوس الأعلى مع الورثة
المحمديين .

اللهم آمين

★ ★ ★

العارف بالله تعالى

سيدى الشيخ عليوة عطية الحسينى النقشبندى رضى الله تعالى عنه

فى حضرة الصديقية يتجلى الحق تعالى باسمه «المؤمن» على خواص من عباده - وهم الصديقون من الأولياء - فيشهدهم بنور الكرم الإلهى عين ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم عن رب المزة من خلف حجاب الغيب ، وتقع لهم المكاشفات فى حضرة مطلقة ترتفع فيها حجب التقيد بالماضى وبالمستقبل ، ويكون لهم الاطلاع الوجودى الحاضر حيث تطلع ذواتهم من خلف حجب هياكلها بنور عين البصيرة فتبصر حقائق الأشياء ، كما وقع لسيدنا حارثة حيث قال فى جوابه عن حقيقة حق الإيمان «... وكأنى أنظر إلى عرش ربي بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاوون فيها ، وكأنى أسمع عواء أهل النار ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم ، مؤمن نور الله قلبه» (١) ومرتبة الصديقية عند أكابر العارفين - كالإمام محيى الدين بن عربى قدس الله سره - مستندها من الأسماء الإلهية «المؤمن» ، وأعظم من تحقق بها فى الأمة سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، فهو المصدق بالصدق على كماله فأثنى عليه التنزيل فى قوله تعالى ﴿والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك المتقون﴾ لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ﴿ . (٢) فالذى جاء بالصدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى

(١) أخرجه الطبرانى فى معجمه ، والبيهقى فى الشعب والبزار فى مسنده . (انظر تخريجه فى

كتاب الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام للحافظ عبد الله الصديق الغمارى ص/٢٤ .

(٢) سورة الزمر : ٢٣ - ٢٤ .

صدق به سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه (٣) ، ومن حضرة الصديقية : يصدق الحق تعالى عباده المؤمنين ، وأثرها فى المخلوقات هو الإيمان ، ومن ثم : كان المؤمنون الصديقون لهم النور التام ؛ لصدقهم ؛ إذ لولا النور لما عاينوا صدق المخبر وصدق الخبر من خلف حجاب هذا الهيكل ، فطوبى لهم ، ثم طوبى لهم وحسن مأب .

من أولئك الصديقين المقربين فى عصرنا : كوكب تألق فى سماء الحضرة الجودية المباركة ، وفرد تفرد بالعلواء فى الحضرة الصديقية المشرفة ، ترجمه أحد خواص أتباعه العارفين بقوله : «نزهة أبصار دائرة الملك ، ومتعة أرواح سراح حضرات الملكوت ، ومجمع مراكز أسرار الجبروت ..» (٤) .

إنه العارف المحمدى الشريف الحسينى العلوى مولانا الشيخ عليوه بن الشريف السيد بن الشريف عطية الحسينى النقشبندى رضى الله تعالى عنه .

إنه فرع الدوحة المحمدية الحسينية الذى تدلى فى دائرة قطب الفوئ فى عصره مولانا الشيخ جوده إبراهيم الحسنى الحسينى النقشبندى رضوان الله تعالى عليه ، فكان امتداداً لسلسلة الشرف العرقى والتحقيقى فى عصره .

وثيقة نسبه الشريف :-

لقد وقفت بحمد الله تعالى على وثيقة شجرة النسب المتصل من مولانا الشريف عليوة السيد عطية إلى سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم ، وهى الموجودة بحوزة حفيده السيد مصطفى بن السيد محمد بن السيد عليوة رضى الله عنه المقيم بسنيطة أبى طوالة مركز منيا القمح بمحافظة الشرقية ، وهى مصدرة - فى أعلاها - بشهادة عمدة ومشايخ وأعيان (سنيطة أبى طوالة) المحررة بتاريخ : الرابع والعشرين من رجب سنة ١٣٣٠هـ ، ويلى هذه الشهادة : توثيق مطابقتها لما فى كتاب (بحر الأنساب) للنجفى ، الموجود لدى

(٣) انظر تفسير البيضاوى ٢/٢٥٦ ط/ الحلبي .

(٤) الشيخ يس إبراهيم السنهوتى : النفحات الإلهية ص ٢ .

الشاهد بصحة المطابقة : السيد محمد منصور من السنطة غربية - والشهادة
ممهورة بخاتمه - وقد أثرت إثبات محتوى هذه الوثيقة - على طوله - لما تحويه من
درر نفيسة.

★ فأما صلب الوثيقة : فمصدر بديباجة رائعة فى بدء الخليقة الآدمية ،
وتنقل النور المحمدى فى أصلابها ، ثم سياق نسب سيد الخلق سيدنا محمد صلى
الله عليه وسلم إلى سيدنا آدم - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - ثم بيان أبنائه
وبناته صلى الله عليه وسلم ثم نسل سيدنا على والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله
تعالى عنهما وعنا بهما ، وبيان تفرع هذا النسل حتى السيد (جعفر بن السيد على
الهادى) ، وقد أقام السيد (جعفر) بمدينة (همدان) وابنه السيد (على) أعقب السيد
(عبدالله) الذى أنجب السيد (أحمد) المشهور بالعباسى الذى أعقب السيد
(محمود) الذى أعقب السيد (على) الذى أعقب السيد (حسين) الذى أعقب السيد
(جلال الدين) الذى أعقب السيد (محمد) الذى تزوج بفاطمة بنت يعقوب بن الإمام
أبى إسحق الشيرازى بن إبراهيم الهمدانى بن إبراهيم القطب - من ذرية مسلم
السلى - وأعقب السيد (أيوب) الذى أعقب السيد (جمال الدين يوسف الهمدانى)
من أئمة رجال الطريقة النقشبندية ، وقد تلقى عنه العلم كل من القطبين السيد
أحمد الرفاعى والسيد عبدالقادر الجيلانى رضى الله تعالى عنهما .

وتذكر الوثيقة : أن السيد (يوسف الهمدانى) قد تزوج من السيدة زينب بنت
حجة الإسلام الإمام أبى حامد الغزالى رضى الله تعالى عنه ، وأعقب منها سيدى
(سليم أبو مسلم) العراقى ، الذى تزوج بأخت سيدى عبدالقادر الجيلانى وأعقب
منها السيد (مسلم) العراقى الكائن ضريحه بالكوم الأخضر بناحية (ميت يزيد
غربية) كما تذكر : أن السيد (سليم أبو مسلم) قد تزوج بالسيدة (فاطمة) أخت
سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه ، وذلك حين حضوره إلى مكة المكرمة مع
الأريمين العراقية ، وقد ذكر هؤلاء الأريمين بأسمائهم ومراقدهم ، وعداً منهم :
سيدى إبراهيم اليمانى ، وضريحه بالمحلة الكبرى وسيدى يوسف الخواص

وضريحه بقرية (برما) بالفربية ، وسيدى (خضر أبو نجاح) وضريحه بقرية (أبونجاح) مركز منيا القمح شرقية - وهو جد الفقير إلى الله تعالى مؤلف هذا الكتاب -

ثم ذكر طرفا نفيسا من مناقب وأقوال سيدى سليم أبو مسلم رضى الله تعالى عنه ومنها أنه حضر وفاة سيدى على البدرى والد سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه بمكة ، وتزوج ابنته السيدة فاطمة رضى الله عنهم أجمعين .

ثم ذكرت الوثيقة أن سيدى (سليم أبو مسلم) قد توفى سنة ٦٥٧هـ أو سنة ٦٥٨هـ ودفن بجزيرة بقره بنى إسرائيل رضى الله تعالى عنه .

★ أما سيدى (مسلم العراقى) - وهو الذى أقام بميت يزید غربية : وله من الذرية : السيد (حسن) الكائن ضريحه بجوار قبلة الدعاء بقرافة الإمام الشافعى رضى الله عنه بمصر وكذلك : السيد (مسلم الأكبر) وضريحه بمشتهر بالقليوبية ، وكذا سيدى (مسلم الأوسط) وضريحه بالقباب الصفراء ، ثم سيدى (مسلم الأصغر) وضريحه بزاويته بناحية (زمران الكوم) بالبحيرة ، وسيدى (سالم أبو مريم) وضريحه بزاويته بالحاجر بناحية (حوش عيسى) بالبحيرة ، وسيدى (محمد أبو مسلم) وضريحه بناحية (جناج) بالفربية . وسيدى (سليمان أبو مسلم) وضريحه بناحية (صفط تراب) بالفربية ، وسيد (على العراقى) وضريحه بالسنتة غربية .

وقد توفى سيدى (مسلم العراقى) رضى الله عنه سنة ٦٩٤هـ ودفن بالكوم الأخضر شرقى (ميت يزید) بالفربية .

★ وأما سيدى (عبدالله بن سيدى سليم العراقى) : فإن له من الذرية : سيدى (عبيد) وضريحه بالمصلوجى بالشرقية . وسيدى (محمد) ، وسيدى (سميد) وضريحه بالميمونة بالشرقية ، وسيدى (على بهدر) وضريحه بالشوبك بجوار مدينة (بسطة) .

وقد أقام سيدى (عبدالله) بميت زافر ، وأقام معه ولده (محمد) وتوفى ودفن بها سنة ٦٩٥هـ ولهم ذرية مذكورة فى بحر الأنساب .

★ وأما سيدي يوسف الهمداني بن سيدي سليم العراقي رضى الله عنه : فقد أعقب ذرية ورد ذكر أسمائهم (عشرة) فى الوثيقة وقد توفى سنة ٧٢٣هـ .

★ وأما سيدي (علوان بن سيدي سليم أبو مسلم العراقي رضى الله تعالى عنه: فقد أعقب السيد (عمر) الكائن ضريحه بعمريط ، والسيد (جمال الدين) الكائن ضريحه ببني عامر ، والسيد (محمد) ، والسيد (على) . وقد توفى سيدي (علوان) ودفن بمقام والده ، أما السيد (محمد) والسيد (على) فإنهم أقاموا بناحية (طيمای البوطة) بالشام .

وقد أعقب السيد (محمد) : السيد (مسلم) ، والسيد (سليم) .

★ فأما السيد (مسلم) : فقد أعقب السيد (سلام) وضريحه بغزة بالشام .

★ وأما السيد (سلام) : فقد أعقب السيد (سليم) والسيد (مسلم) وتوفى ودفن بغزة .

★ وأما السيد (سليم) فقد أعقب السيد (مسلم) والسيد (على) ولهم ذرية بالشام .

★ وأما السيد (عمر) : فإنه أقام بعمريط وأعقب السيد (بُكَيْرَة) وضريحه بأرض عمريط بالشرقية ، والسيد (سلامة) الكائن ضريحه بأرض عمريط ، والسيد (عبيد) وضريحه ببني عامر بالشرقية ، والسيد (أحمد) والسيد (حسن) والسيد (محمد الصامت) وضريحه ببخطيط ، والسيد (جمال الدين) .

★ وأما السيد (جمال الدين) والسيد (عبيد) والسيد (أحمد) فأضرحتهم ببني عامر . وقد أعقب السيد (جمال الدين) السيد (محمد) الذى أعقب كلا من السيد (محمد) والسيد (على أبو جمامة) الكائن ضريحه ببني عامر . وهو الذى أعقب كلا من السيد (قاسم) ، والسيد (على) ، والسيد (زين الدين) وضريحه ببني عامر .

★ فأما السيد (قاسم) فقد أعقب كلا من السيد (محمد) والسيد (على) وتوفى ودفن ببني عامر ، ولابنيه ذرية بكفر المسلمية بأرض بني عامر .

★ وأما السيد (محمد الصامت) فقد أعقب كلا من السيد (زين الدين قاسم) والسيد (أحمد) والسيد (شعبان) وتوفى ودفن ببخطيط .

★ وأما السيد (زين الدين قاسم) فقد أعقب كلا من سيدي (محمد خضر) الكائن ضريحه بفزالة الخيس بالشرقية ، والسيد (تاج الدين) ، والسيد (على الدين) الكائن ضريحه بخلوته بناحية (سنيطة أبوطواله) بولاية الشرقية ، والسيد (جلال الدين) والسيد (محيى الدين) ، والسيد (أبوبكر) ، والسيد (عبد) وقد توفى زين الدين قاسم ودفن بأرض (بنى عامر) .

★ وأما السيد (على الدين) فقد أعقب كلا من : سيدي (سعد) وضريحه بأرض أولاد سيف بولاية الشرقية ، وسيدي (محمد ميدان) بالسنيطة بالشرقية .

★ ثم إن السيد (سعد) قد أعقب السيد (محمد) وتوفى ودفن بأرض أولاد سيف .

★ ثم إن السيد (محمد ميدان) بن سيدي (على الدين) قد أعقب السيد (حسن) ، وتوفى ودفن (بسنيطة عوض) .

★ وأما السيد (حسن) فقد أعقب كلا من : السيد (إبراهيم) والسيد (عبدالله) ، والسيد (سليم) وتوفى ودفن مع والده .

★ وأما السيد (سليم) فقد أعقب كلا من السيد (أحمد) والسيد (على) وتوفى ودفن مع والده .

★ ثم إن السيد (أحمد) قد أعقب كلا من السيد (محمد) والسيد (صالح) والسيد (سليم) والسيد (سليمان) وتوفى ودفن مع والده .

★ وأما السيد (على) بن السيد (سليم) المذكور آنفا : فإنه أقام بسنيطة أبي طواله وكان معه بعض من العريان أقاموا معه مدة من الزمان ، ثم إنهم أقاموا بالتّئين .

★ ثم إن السيد (على بن السيد سليم) الذى أقام بسنيطة أبي طواله فقد أعقب كلا من السيد (أحمد) والسيد (محمد) وتوفى ودفن بجبانة (أبي طواله) .

★ ثم إن السيد (أحمد بن السيد على بن السيد سليم) قد أعقب السيد (عطية) وهذا غاية التعقيب الموجود فى (بحر الأنساب) . ثم تقول وثيقة النسب العليوى :

★ وأما السيد (عطية) فقد أعقب السيد (محمد) ، وتوفى السيد (عطية) ودفن بجوار مقام سيدى (عبدالله أبى طوالة) .

★ وأما السيد (محمد) بن السيد (عطية) فقد أعقب كلا من : السيد (عطية) والسيد (محمد) والسيد (السيد) والسيد (إسماعيل) ثم توفى السيد محمد ودفن بجوار سيد عبدالله أبى طوالة .

★ وأما السيد (محمد) بن السيد (عطية) فقد أعقب كلا من : السيد (عطية) والسيد (محمد) والسيد (السيد) والسيد (إسماعيل) ثم توفى السيد محمد ودفن بجوار سيدى عبدالله أبى طوالة .

★ وأما السيد (السيد) فقد أعقب كلا من السيد (محمد) والسيد (عليوة) - شيخنا المترجم له رضى الله تعالى عنه - والسيد (أحمد) ، ثم استشهد السيد (السيد) فى حرب أحمد عرابى برأس الوادى فى (التل الكبير) بالشرقية .

★ وأما السيد (عليوة) - المترجم له - : فقد أعقب كلا من السيد (محمد) والسيد (جوده) - على اسم شيخه مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره - والسيد (محمود) والسيد (حامد) والسيد أحمد .

وهنا ينتهى بيان الوثيقة الشريفة لنسب مولانا الشيخ عليوه عطية الحسينى رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

وقد نظم العارف بالله تعالى الشيخ يس إبراهيم حليجل السنهوتى رضى الله عنه نسب مولانا الشيخ عليوة السيد عطية رضوان الله عليه فى منظومته الرائعة المثبتة فى رسالته الغراء (النفحات الإلهية : توسلات بآل البيت ورجال السلسلة النقشبندية ، فرع مولانا الحاج عليوة السيد عطية) فقال فيها بعد المقدمة الشعرية :-

فمبدؤها الهادى المنير محمد
فلولاه ماكننا ولا كان كوكب
سألناك يا الله خير مؤمل
حبيبته الأولى وبضعة نوره
بسيد شبان الجنان بأسرها
حسين حبيب الله وابن حبيبه
كذلك بزين العابدين وفخرهم
نزيه السجايا أكرم الناس باسم
وبالباقر الفخر النزيه محمد
جميل المحيا محسن الفعل باذل
وبالصادق العزم المهند جعفر
عميد البرايا فى هداية ربه
وهبنا بموسى الكاظم الفيظ قدوة
فضائله كالشمس تسطع بالضحي
بحق على الملقب بالرضا
هو البحر علما والسحائب منحة
بعبد الجواد بن الكرام محمد
بسرّ على الهادى الغياث وجعفر
ثلاثة أقمار تكامل نورهم
وبالقطب عبدالله نور بصيرتى
وبسرّ محمود سبيل رشادنا
بحق جلال الدين فخر زمانه
وبالكامل القطب الكبير محمد
بسرّ جمال الدين جمل خصالنا
وعطف علينا يا إلهى بيوسف

أجل الورى قدرا وفخرا وموطنا
ولولاه لم نعرف بحق إلهنا ..
بفاطمة الزهرا بفضلك جد لنا
وقرّته بعد الإله ولا عنا
وخير شهيد فى سبيلك ما ونا
وصفوة شمس الحسن هبنا مرادنا
وفرع الأصول الطاهرات أمدنا
تخال الثايا من بشاشته سنا
غياث الورى عند الشدائد نجنا
كريم العطايا للبرية هننا
ووارث سر الفار جهرا وباطنا
وقطب الولا حقق رجانا وقونا
على النفس عند المؤلمات ونقنا
ويقصده الباكي فيضحك معنا
تكرمّ علينا يا إلهى ورضنا
فأكرم به أصلا وفرعا وموطنا
ملاذ لمن ضاقت به الأرض فاحمنا
وحق على جد بفضلك واهدنا
أزاحوا عن الدنيا المشقة والعنا
بأحمد بلغنا المحامد والمنا
كذا بعلى ذى الجلال أجلنا
حسين لدى البأسا يقول لها أنا
بأيوب يسمى يا إلهى أعزنا
ويسرّ لنا من فضل جودك سؤلنا
نتيجة همدان بفضلك أغننا

كذا بسليم من تعالت فروعه
 وأعل بعلوان عن النقص عزمننا
 وبالصامت الشهم الرفيع محمد
 وزين بزين الدين لبي وظاهري
 وبالصالح القطب السنيطي أعزنا
 وأكرم بميدان محمد خاضعا
 وحسن نوايانا بسيدنا حسن
 بحق على يا إلهي وأحمد
 وبالبطل القطب الشهيد وأحمد
 بمبدك ذي القدر الرفيع محمد
 وبالبطل الفرد النزيه عليوة
 هو الفوئث تلقاه لكل ملمة
 لدى الناس مشهور بزهد وعفة
 به فتمسك يا خليلي ولا تخف
 فيارب أكرمنا به وشقيقه
 بشقيقه الثاني المكرم أحمد
 وهذا تمام العقد يا قاصد العلا
 وصل وسلم يا إلهي مدى المدى
 كذا الأمل والأصحاب ثم من اهتدى

بسرك يا رحمن سلم قلوبنا
 ومن عُمَرِ عَمَّرَ حشانا وسرنا
 عن اللهو بالأغيار يارب كفنا
 ومن علينا بالحماية وارعنا
 فإن على الدين يرفع من دنا
 حسيبا على الأسياد بالحب أعلننا
 كذا بسليم صد عنا همومنا
 بفضلك يا الله كبر شئوننا
 تحن علينا يا إلهي وهننا
 وبالسيد العالي المقام أعزنا
 سألناك يا الله هبنا مرادنا
 رعوف رحيم لا يقدر بالدنا
 وقد نال عند الله قدرا ومأنا
 وحسبك فخرا أن تتال به المنا
 محمد المشهور بالقنع والغنا
 من اللطف والإحسان عمم وخصنا
 فقم سحرا وأنشده تدرك ميامنا
 على المصطفى الهادي الشفيع نبينا
 ومن فضلك امنحنا وبالخير أغنا

★ ★ ★

مولده وموطنه ونشأته الصوفية المباركة

لقد ولد هذا الإمام الشريف العارف بره : في الثاني عشر من شهر ربيع
 الأول سنة سبع وثمانين ومائتين بعد الألف هجرية (١٢٨٧هـ) الموافقة لسنة (١٨٧٠
 ميلادية) فكان رضوان الله عليه وارثا محمديا حتى في تاريخ مولده وفي عمره

المبارك أيضا حيث إنه عاش ثلاثة وستين عاما حيث كانت وفاته قدس الله سره في ربيع الأول سنة ١٢٥٢هـ اثنتين وخمسين وثلاثمائة بعد الألف هجرية حسبما أفادنى بذلك حفيده الأستاذ محمد جوده عليوة المحامى ، وكذا الشيخ صلاح النقشبندى من بلدة (التلين) شرقية .

ولقد نشأ الولي الشريف سيدى عليوة عطية رضوان الله عليه فى بيت الولاية الهاشمية فى أسرته المسلمية بسنيطة أبى طوالة بالشرقية نشأة أهل النور فى مدارج المعالى الاصطفائية فى أحضان أب يجرى الدم المحمدى فى عروقه وهو الشريف (السيد) وأم كريمة الأرومة والحسب واسمها (السيدة) أيضا ، فتواصلت سيادة الأبوين لتجرب سيدا سما به علو النسب إلى المحتد العلوى فسمى (عليوة) (١)

ولقد كانت نشأة هذا الولي فى رحاب علم من أجلاء أعلام الإسلام وهو الإمام قاضى المدينة المنورة سيدى عبدالله بن عبدالرحمن بن معمر بن حزم الأنصارى النجارى المدنى التابعى - أحد الأئمة الألبات - (١) المتوفى بعد الثلاثين ومائة فى آخر عهد بنى أمية ، وهو المشهور بسيدى عبدالله أبى طوالة الذى سميت باسمه بلدة (أبو طوالة) - التى تتاخمها وتتسب إليها (سنيطة أبو طوالة) موطن سيدى عليوة رضى الله عنه - وهذه القرية قد أقيمت على أطلال بلدة قديمة كانت تسمى «دمشتير» وكانت من كفور «التلين» بولاية الشرقية ، وتقع بالقرب منها قرية (القبة) التى وردت فى (تحفة الإرشاد) باسم (قبة دمشتير) . وقد ذكر صاحب (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية) أنه بسبب خراب قرية (دمشتير) أضيف زمامها إلى ناحية (الصفرا) وهى قرية قديمة تعرف اليوم باسم (سنيطة أبو طوالة) (٢).

(١) ترجم له الحافظ شمس الدين الذهبى فى سير أعلام النبلاء ٢٥١/٥ نشر مؤسسة الرسالة تحت عنوان (أبو طوالة) وذكر أنه حدث عن سيدنا أنس بن مالك وعامر بن سعد ، وحدث عنه الإمام مالك بن أنس وهليح وسليمان بن بلال ، وله ترجمة فى تهذيب الكمال : ٧٠٤ وتهذيب التهذيب (٢/١٦٤/٢) وتاريخ الإسلام ٢٦٧/٥ وتهذيب التهذيب ٢٦٧/٥ وخلاصة تهذيب الكمال ٢٠٤ وصنف فى ترجمته الأستاذ محمد على الطوخى ناظر مدرسة أبى طوالة كتيباً بعنوان (سيرة الأمير أبو طوالة قاضى المدينة) .

(٢) انظر القاموس الجغرافى للبلاد المصرية للأستاذ محمد رمزى ص ١٣٦ .

على هذه الربوع وفى تلك الرحاب المتوهجة بنور هذا الإمام العالم الولي (سيدى عبدالله أبو طوالة) رضى الله عنه نشأ مولانا الحاج عليوة فى جو الولاية ، وفى أسرة عريقة فى الشرف والفضل والمكانة الاجتماعية . فقد كان عمدة (السنيطرة) المعاصر لسيدى الحاج عليوة هو ابن عمه السيد/ محمد محمد عطية، ثم تسلسلت العمدية فى الأسرة وكان شقيقه الأكبر السيد أحمد من أهل الكشف الخارق ، حيث حدثنى السيد/ عبدالمعبود ابن شقيقة سيدى عليوة - السيدة حميدة - بأن السيد أحمد شقيق سيدى عليوة قد أمسك يوماً بحديدة سكين كانت فى بيته ثم توجه بالخطاب إلى أمه فسألها : ما هذه يا أماء؟ فقالت له : حديدة ، فقال لها على وجه المكاشفة بما سيجد من مخترعات : يا أماء ، عما قريب ستطير هذه الحديدة فى جو السماء ، وعما قريب ستتكلم هذه الحديدة ، وعما قريب سيكون منها كذا وكذا من الصناعات - وهذا الحديث كان فى أواسط القرن التاسع عشر قبل ظهور الطائرات والراديو وما إلى ذلك !!

★ وقد كان جل أفراد أسرة مولانا السيد (عليوة) من حملة القرآن الكريم حتى النساء ، فقد كانت السيدة (حافظة) بنت شقيقة السيد (محمد) الذى أثبتنا طرفاً من مكاشفاته آنفاً - كانت تحفظ القرآن كله عن ظهر قلب بأحكام التجويد، وكانت على جانب من التفقه فى الدين والإمام بسيرة الأجداد الأشراف إلى درجة منقطعة النظير !!

★ ولقد كان من أبرز أقران مولانا الحاج عليوة لدى نشأته المباركة الشيخ محمد أبو حجازى من بلدة (بهنية) مركز (ديرى نجم شرقية) وقد كان هذا الرجل لشدة اتصاله بمولانا السيد عليوة يعد بمثابة توأم له وكان من أقرانه فى تاريخ المولد وملاصقاً له فى النشأة والسلوك ، وكان يعد آية من آيات الله تعالى ؛ إذ يذكر عارفوه أنه لم يشرب قط إلا من ماء النيل ، وأنه لم يذهب إلى طبيب قط !!

★ وقد ذكر الشيخ يس إبراهيم السنهوتى رضى الله عنه : أن مولانا الشيخ عليوة قد سلك فى شبابه المبكر طريقة الخلوتية لكنه لم يعين له شيخاً فيها ، وربما

كانت هى طريقة المسلمية الخلوتية التى سلكها آباؤه وأجداده الكرام ، لكن العناية الإلهية كانت تدخره وتدخر له سلوك الطريقة النقشبندية على يد إمام العصر وغوث الدهر وزير حضرة النبى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مولانا الشيخ جوده إبراهيم الحسنى الحسينى النقشبندى قدس الله سره ورضى عنه وعنا به فى الدارين ، آمين .

سلوكه على يد مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره :-

يروى صاحب (الأنوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية) أن مولانا السيد عليوة السيد عطية رضوان الله عليه كان متملذا لبعض الأشياخ أول أمره وسلك طرقا كثيرة كالخلوتية فى عهده ، وصاحبه مدة من السنين ، وأعطاه الإجازة ، وأذن له بتلقين المريدين غير أن أمه رأت ليلة من الليالى - وكانت صالحة عابدة زاهدة تقية - أن الملك أخذ ابنها مولانا وسيدنا السيد عليوة عطية ، وحصل لها من ذلك خوف وشك ، ولم تعلم عند ذلك من هو الملك ؟

فلما كان النهار حصل لولدها الأكرم حب يشغفه نار وشوق أليم ووجد عظيم لحضرة ذى العلم والسلطان فضيلة مولانا الشيخ جوده قطب الدهر وغوث الزمان)) وفى الحال : حضر عنده ، وتلقى عنه النسبة الشريفة ، وحقر ما كان فى دهره حصل له ؛ لما رأى من رفعة مولانا الشيخ - رضى الله عنه - وعلو همته - وما زال إلى وقتنا هذا فى صحبته - وانتفع به أتم انتفاع . وكان ببركته رضى الله عنه أكمل الأتباع) . (١)

لقد انخرط مولانا الشيخ عليوة رضى الله عنه فى سلك الملك ، أى ملك الولاية فى عصره مولانا الشيخ جوده رضوان الله عليه الذى كانت له رئاسة الأولياء فى عصره ، وكان سيدنا الحاج عليوة هو مطلوب الحضرة الجودية ، بدلالة أن والدته الكريمة رضى الله تعالى عنها رأت فى منامها قبل التقائه بشيخه الأكبر أن

(١) الشيخ يس إبراهيم السنهوتى : الأنوار القدسية ص/ ٢٧٠ .

الملك يستدعى ابنها المبارك للديوان الملكي الباطنى . إنها إشارات أهل الحقيقة!!
وبمجرد مثل مولانا الشيخ عليوة فى الحضرة الجودية كان الميلاد الروحى
الحقيقى ، وكان سريان سرّ السلسلة النقشبندية المباركة ، بل وأصول إحدى
وأربعين طريقة صوفية إلى قلب مولانا الشيخ عليوة فسلك الطريق إلى الله عز وجل
بنظرة شيخه الأمثل وزير حضرة النبى صلى الله عليه وسلم الذى أولاه أتم عناية
وأعده للخلافة مع حضرة نجله مولانا الشيخ عيسى عليهما الرضوان .

ولقد شهد سيدى عليوة من مولانا الشيخ جوده قدس الله سره عجائب
الفتوحات وبدائع الكرامات الدالة على كمال عنايته به .

فمن ذلك : مارواه صاحب (الأنوار القدسية) قائلا :- (ومنها : أن حضرة
مولانا السيد عليوة كان راكبا قطارا مع الشيخ سيد البل ، وتركها متاعهما به ، وذهب
القطار به وسار مدة كبيرة فى وجهته ، وبعد أن ذكرنا متاعهما توسلا بفضيلة مولانا
الشيخ جوده فردّ الله القطار إلى المحطة ببركته عليهما) . (٢)

ومن ذلك ما ذكره الشيخ يس أيضا فى كتابه المذكور بقوله : (ومنها - أى
الكرامات الجودية - ما حدثنا به مولانا السيد عليوة المتقدم ذكره : أنه مرض
مرضا أعيا الأطباء أمره ، ففى ليلة من الليالى : أتاه فضيلة الشيخ فى المنام ،
ودهنه بدهن مخصوص وبشره بالشفاء التام ، فبرئ صبيحة ذلك اليوم من مرضه
ببركة فضيلة مولانا الشيخ ..) . (٣)

ثم من ذلك أيضا ما ذكره (صاحب الأنوار القدسية) فى سياق ذكر الكرامات
الجودية، حيث قال : (ومن كراماته - أطال الله عمره (٤) ونقمنا به : ما ذكره صاحب

(٢) المصدر السابق ص/ ١٧١ .

(٣) المصدر السابق ص/ ١٧٠ .

(٤) هذه العبارة تدل على أن الشيخ يس السنهوتى قد صنف كتاب (الأنوار القدسية) فى حياة
شيخه مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره ، وذلك سنة ١٣٤٤هـ قبل انتقال مولانا
الشيخ جوده بعامين كما هو مؤرخ بنهاية الكتاب .

الأخلاق الزكية مولانا الأكرم السيد عليوة بن السيد بن عطية - أكبر خلفائه وخلاصة خاصة أصحابه بعد فضيلة نجله - قال : بينما كنت ذات ليلة في لذة المنام ، غير دار بنوايا الأيام إذ جاء قرة عيني وسيدى ومولاي الشيخ جوده ، وأيقظني من مرقدى وقال : - إن جماعة من اللصوص جاءوا لسرقه بيتكم على الخصوص ، وهم الآن داخلون من النافذة وعلى الجدار ، فقم يا بنى وانتبه لحراسة الدار .

فقمتم مسرعا لأمره ، فإذا هم به كإخباره ، فلما رأوني فروا ، وكلهم خابوا وخسروا ، وأصابهم جميعا الردى وما أحد منهم نجا (١) .

إنها الرعاية الكاملة - ظاهرا وباطنا - من الشيخ الكامل لأحب أبناء قلبه إليه، تحوطه في جميع تقلباته وأحواله الدنيوية والأخروية .

★ ولقد كان مولانا الشيخ عليوة رضوان الله عليه معظما لحضرة شيخه الذى ملأ عليه أقطار نفسه وشغل قلبه فلم يترك لغيره من الخلق بقية (١)

فما أن التحق بخدمة شيخه حتى لازمه ملازمة كاملة ، وترك بلده وأرضه ليتولاهما أفراد أسرته وأقام بالساحة الجودية ليل نهار ، فلم يكن يعود لأهله وبلده إلا في نهاية الأسبوع بعد عصر الجمعة .

واعتراه الوله والإخبات والوحشة من الخلق والإنس بالحق جل وعلا . فلم يعد فيه فراغ لمجالسة أهل الدنيا ، حتى إنه كان يغادر بلدته (السنيطرة) ليلا أو قبل شروق الشمس ويدخلها كذلك في غبشة الظلام . ومن طريق خلفى غير الطريق المعهود (١)

وكان لا يركب سيارة من بلده إلى حضرة شيخه بمنيا القمح ، وإنما كان يسير إليه على قدميه تبجيلا وتعظيما ، بل وتقول بعض الروايات إنه كان يمشى إليه حافى القدمين (١)

(١) انظر الأنوار القدسية ص/ ٢٦٩ .

★ وخلال المرحلة السلوكية لمولانا الشيخ عليوة رضى الله عنه كان بآدى
التقشف ، شديد الزهد فى الدنيا ، وظل كذلك إلى آخر عهده بالدنيا .

لقد هجر الكرى فلم يعرف النوم سبيلا إلى عينيه إلا دقائق معدودة فى اليوم
والليلة وفى ثورة جهاده النفسى قام بشق السرير الذى كان ينام عليه بالمنشار وأثر
أن يكون هجوعه اليسير منطرحا على الأرض حتى لا يستلذ لين الفراش ، وطوى
(المرتبة) نهائيا !! وحتى مرضه الأخير تحايل نجله الشيخ جوده وصنع له (كنبة) من
الخشب فلم ينم عليها إلى فى مرض الاحتضار (١) !!

وكذلك طرح ملابسه الصوفية الرائقة وأثر جلبابا من (الدمور) ، وذات يوم
جاءه نجله الشيخ جوده بملابسه الصوفية القيمة فرفضها وقصد التصديق بها مؤثرا
خشن الثياب ، ولما حزن نجله لذلك رأى فى منامه من يقول له (إن والدك حين
كان يلبس الصوف والثياب الفاخرة لم يكن يعرفه أحد ، ولكنه لما لبس (الدمور)
صارت العلماء والعظماء يقبلون يده (١) .

لقد ارتقى مولانا الشيخ عليوة رضى الله عنه إلى أوج التحقق والعرفان ،
وصار بتوجه حضرة شيخه مولانا الشيخ جوده قدس الله سره إليه وإغداق مدده
عليه : أكسيرا ربانيا محضا ، عارفا بالله تبارك وتعالى ، مرتقيا بهمة قلبه إلى
حضرة القدس ، وصار مستغرق الروح فى الذات المحمدية ، فكان رجلا كاملا فى
الطريق إلى الله تعالى .

★ ومن الإشارات الجودية التى تدل على مكانته فى الطريق وعند حضرة
شيخه العظيم رضوان الله عليه : ما حدثنى به والدى العارف بالله تعالى سيدى
محمد أبى يزيد المهدي رضى الله تعالى عنه : أن سيدنا الشيخ جوده قدس الله
سره كان خارجا من خلوته يوما - وقد أضناه العشق الإلهى وأنجل جسمه - فتسابق
العلماء والشيخوخ المريدون بساحته لأخذ يد شيخهم والتشرف بصحبته فى مشيته ،

(١) عن لسان حفيده الأستاذ محمد جوده عليوه المحامى فى مساء الخميس الموافق
١٩٩٧/١١/٦ .

لكنه أثر مولانا الشيخ عليوة رضى الله عنه قائلا : (أتوكأ على الشيخ عليوة) !!
ونعمت الإشارة بدلالاتها العظمى على أن مولانا الشيخ عليوة صار ركنا فى الطريق
إلى الله تعالى يعتمد عليه شيخه الجليل !!

★ ولقد ابنتى سيدنا الشيخ عليوة رضوان الله عليه خلوة فى بيته بالسنيطة
واستمرت عامين قبل انتقاله رضى الله تعالى عنه بنحو خمس عشرة سنة . (١)

وفى شأن هذه الخلوة العليوية : يقول صاحب (الأنوار القدسية) :-

(ومنها : ما حكاه لنا حضرة مولانا وسيدنا وسندنا السيد عليوة السيد؛ قال
رضى الله عنه : والخلوة عندى بالسنيطة ببيتنا ، وكان فضيلة مولانا الشيخ جوده
يرسل من يرى فيه الأهلية لدخولها إلينا ، لاعتقاده بنا).

وكذلك أمرنى - جزاه الله أحسن الجزاء - وقال : «يا شيخ عليوة ، أدخل
الخلوة ممن ترى فيه الأهلية من تشاء» !!

قال سيدى عليوة : سألتى من بالخلوة أن أوصى الشيخ عليهم ، وأن أسأله لهم
الدعاء والنظر إليهم .

فلما حضرت عنده ، لم أقل له - سهوا لا عمدا - فقال حضرته رضى الله
عنه :- «سبحان الله ، أنا لا أغفل عن أهل الخلوة أبدا» (٢) !!

لقد كان مولانا الشيخ عليوة مريبا فى حياة شيخه مولانا الشيخ جوده وفى
حضرته بإذنه رضى الله تعالى عنه ، لأنه صار من كمل الرجال ونظير سيدى
عبدالعال من حضرة سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنهما وعنا بهما فى
الدارين ، ولا يخفى أن وارث القطب قطب كما أن وارث الفرد من الأفراد ، أما
مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه فهو خارج عن التنظير والقياس والمفاضلة

(١) أخبرنى بذلك الشيخ عبدالمعبود محمد عطية (ابن شقيقة مولانا السيد عليوة عطية) وذلك
بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجودى الشريف بمنيا القمح فى رجب ١٤١٨ الموافق
١٩٩٧/١١/٧ .

(٢) انظر : الانوار القدسية فى مناقب السادة النقشبندية للشيخ يس السنهوتى ص/٢٧٢ .

لأنه قطعة من سيدنا الشيخ جوده وهو منه بمنزلة شخصه ، رضى الله عنه وأرضاه
فليفلطن أهل النظر السليم .

طرف من كرامات مولانا الشيخ عليوة قدس الله سره :-

للكرامات دلالاتها على تحقق الولي ومدى ارتقائه في معراج الولاية ، ولكنها
عند كبار الأولياء من طراز سيدى الشيخ عليوة ليست مطمح همهم العلية ، لأنهم
أهل الصدق مع الله تعالى ومقصدهم هو الله وحده ، كما هو شعار السادة
النقشبندية قدس الله أسرارهم العلية «إلهى أنت مقصودى ورضاك مطلوبى» .

ومع ذلك : فقد ظهرت كرامات عديدة على يد مولانا الشيخ عليوة رضى الله
تعالى عنه رغم شدة حرصه على الخفاء والتستر ، وفيها أيما دلالة على شموخ
هذا الولي ، وسنجزئى بذكر عشر كرامات منها على سبيل التبرك :-

فالكرامة الأولى :- وهى ذروة المعالى - هى رؤيته واجتماعه فى اليقظة
بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد صرح بهذه المنقبة العظيمة صفيه وتابعه
الشيخ يسن إبراهيم السنهوتى مصنف تكملة «الأنوار القدسية» والعالم الأديب
الشاعر ؛ حيث قال فى نهاية رسالته «النفحات الإلهية : توسلات بآل البيت ورجال
السلسلة النقشبندية» ما نصه :-

(يكفى مولانا الحاج عليوة فخرا أنه بضعة محمدية ، ورؤيته للنبي صلى الله
عليه وسلم فى اليقظة كلما أحب) . (١)

والكرامة الثانية : ما ذكره لى فضيلة والدى سيدى محمد أبو اليزيد المهدي
رضوان الله عليه من أن مولانا الحاج عليوة عليه رضوان الله تعالى كان إذا شرع فى
التسبيح يسبحُ معه حصى المسجد بصوت مسموع .

أقول وهذه الكرامة من جنس تسبيح الحصى فى كف حضرة مولانا
المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومن جنس تأويب الجبال مع سيدنا داود على

(١) انظر النفحات الإلهية توسلات بآل البيت ورجال السلسلة النقشبندية ص/ ١٠ .

نبينا وعليه الصلاة والسلام كما قص علينا القرآن العظيم فى قوله تعالى (يا جبال أوبى معه) . (١)

والكرامة الثالثة : أنه كان لشدة استغراقه فى ذكر الله تعالى يستج الله وهو نائم ؛ حيث روى حفيده الأستاذ محمد جوده عليوه عن والده أنه فى المرض الأخير لسيدنا الحاج عليوة وبينما كان نائما على (كنبة) ومستغرقا فى نومه رأى إصبعه الكبير يتحرك بالتسبيح ، فلما استيقظ تحقق منه أنه كان يسبح الله تعالى وأمره بكتمان ما وقف عليه فكتمه ولم يظهره إلا بعد وفاته .

والكرامة الرابعة : مكاشفته بولادة حفيده الأستاذ محمد جوده ، حيث ولد قبل انتقال جده مولانا الشيخ عليوة بنحو ثلاث سنين ، وكان سيدى عليوه فى هذه الحقبة ملازماً لساحة شيخه مولانا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه طوال الأسبوع ولا يعود إلى بلده إلا فى نهاية الأسبوع عصر الجمعة - كما أسلفنا - بيد أنه قطع هذه العادة وفاجأ الأسرة بحضوره وسط الأسبوع فى اليوم الذى ولد فيه حفيده . أ (محمد جوده) لحضور يوم مولده الذى عرفه بنور الله بطريق المكاشفة ، فحضر وسماه محمدا .

والكرامة الخامسة : أنه كاشف الأسرة بأن حفيده محمدا هذا سيكون فى مستقبل الأيام محاميا ، إذ توسم فيه ذلك وكان يقبله لدى طفولته فى فمه ولسانه كما كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل مع سيدتنا فاطمة الزهراء وسيدنا الحسن وسيدنا الحسين رضى الله عنهم أجمعين ، فكانت الإشارة فى ذلك: أن الله تعالى سيمنحه قول الحق وأداء أمانة الكلمة .

والكرامة السادسة : وهى من قبيل المكاشفات أيضا : ما حكاه نجله الشيخ جوده عليوة أنه فى عنفوان شبابه قد أغراه البعض بزراعة التبغ (الدخان) فى حقله بين شجيرات القطن فى الخفاء دون أن يعرف أحد ففعل ذلك ، وإذا بمولانا الشيخ عليوه يكشف بما حدث ويأتى من منيا القمح على غير عادته ويركب الدابة إلى

(١) سورة سبا / ١٠ .

الحقل ، ويعتمد إلى المكان الخفى الذى زرعت فيه تلك الشجيرات الملعونة وأخذ يعنفُ ابنه على زراعتها وأمره باقتلاعها فوراً لتطهر الأرض من دنس الدخان . وهذه شيم أهل الصفاء والنقاء والتزكية))

والكرامة السابعة : أن صديق عمره الشيخ محمد أبو حجازى رضى الله عنه - وهو الذى لم يكذب يفارقه يوماً ما - فاجأه المرض يوماً - وهو المعروف بأنه لم يذهب إلى طبيب قط - فزاره مولانا الشيخ عليوه رضى الله عنه وناولوه إناء فيه مشروب عادى غير الدواء فتناولوه من يده وشربه فقام من مرضه كأن لم يكن به مرض على الإطلاق ببركة الشيخ))

والكرامة الثامنة : أنه كان بصحبة الحاج سيد عزام من بنى قريش (شرقية) فى زيارة لأحد معارفه فى إحدى البلاد المجاورة ، ولكنه عندما التقى مع ذلك الرجل المضيف أحسّ بثقل روحه وبعدم تألف الأرواح ، فخرج الجميع إلى زمام القرية ومشوا بجوار مصرف للمياه (رشاح) فتظاهر سيدنا الحاج عليوة بأنه يريد قضاء حاجة على ضفة ذلك المصرف مستتراً وقصد ذلك المكان القصى بعيداً عن الأعين ، وطال انتظار الرفقة فذهبوا إليه وفتشوا كل ناحية حول المصرف فلم يجدوه ، لقد اختفى تماماً ، ولما عادت الرفقة إلى بلدة (السنيطرة) وجدوه فى البلدة، وعرفوا أنه وجد بالبلدة منذ اختفى عن أعينهم فأيقنوا أنه كان من أهل الخطوة ممن تطوى لهم الأرض بإذن الله تعالى على سبيل الكرامة))

والكرامة التاسعة :- وهى من الوقائع التى حدثت لى شخصياً - أنه أعطانى عهد الطريقة مناما ، حيث إننى كنت أتوق إلى رؤيا أرى فيها عمى الحاج عليوة رضى الله تعالى عنه وعنا به ، من كثرة ما حدثنى فضيلة والذى رضى الله تعالى عنه وعنا به عن علو مقامه ومكانته عند جدى الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه وعنا به فمن الله تعالى على برؤيا جمعتنى بحضرته فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٩٤هـ وكانت ليلة أربعاء فرأيتُه معى فى منزلنا الأحمدي بطنطا فى الطابق الأرضى وأدخلته على حضرة والدى فى حجرة الضيافة فاستقبله بترحاب بالغ ثم

جلست إليه أشكو ثقل المسئوليات والهموم فطمأننى ، ثم قلت لحضرته فى لهفة بالغة : (مش حاتأخذونى بقى يا عمى الحاج عليوة) ٩٩

فأجابنى بقوله رضى الله عنه : (دى الوقت حنأخذك أو بعدين حنأخذك) :
أى أنك محسوب علينا غير أن أخذة الجذب الكلى قد تتأخر زمنا إلى وقت لاحق تقتضيه الحكمة والمشينة الإلهية .

ثم رأيتى ويدى فى يده الشريفة وهو يدعو لى دعوات كثيرة وقد استغرقت فى معيته الشريفة حتى أحسست أننى أخذت العهد المبارك على يده الشريفة ليتحقق لى أخذ القبضة المباركة من حضرات الخلفاء الثلاثة لمولانا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنهم أجمعين وهم مولانا الشيخ عيسى ، ومولانا الشيخ عليوة ووالدى الكريم رضى الله عنهم أجمعين .

بيد أنى فى نفس الرؤيا أردت أن أتحقق من أخذ العهد من مولانا الشيخ عليوة، فكان على كتفى (فوطه) فأراد بعض الحاضرين من أهل المنزل أخذها من على كتفى لكن مولانا الشيخ عليوة منعه من أخذها قائلاً بالنص «خليها له لأنه أخذ فيها العهد» فكانت كرامة كبرى لسيدى عليوة رضى الله عنه أن أكرمنى بما كنت أتمناه من رؤياه والتشرف بتلقى عهد الطريقة من يده المباركة.

ثم الكرامة العاشرة :- وهى من قبيل كراماته بعد وفاته رضى الله عنه كسابقتها - ما أخبرنى به الأخ النقشبندى الشيخ صلاح ... من (التلين) أنه فى بعض السنين عندما تراخى نجله الشيخ جوده عن الإعداد لإقامة الخدمة بمولد شيخنا الأكبر مولانا الشيخ جوده رضى اله تعالى عنه وعنا به لظروف صحية : جاء سيدنا الشيخ عليوة فى منامه وعنفه على ذلك وهدده ببلاء أكبر إذا لم يقم بالخدمة المعتادة فى سرادق (السنيطرة) الذى يقام بساحة مولد سيدنا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه كل عام ، والذى يعد خدمة سيدنا الشيخ عليوة فى المولد الجودى المبارك . فكانت تلك الكرامة من قبيل مكاشفته البرزخية وتصريفه النافذ رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

★ إن لتلك الكرامات دلالاتها العميقة على سمو مقام مولانا القطب الشريف الشيخ عليوة عطية ، وإنها لمكانة شامخة نالها بتفانيه في حب شيخه وزير حضرة المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، وغيرته المحرقة على حرمة شيخه العظيم ، لدرجة أن نجله الشيخ جوده عليوة لما عظم قدر والده عنده بمشاهدة أحواله السنية وكرامته العلية قال له يوما (انت مثل سيدى الشيخ جوده) ، وهنا تعاضمت غيرة سيدى عليوة على مقام شيخه الذى لا يقاس به أحد في عصره وما بعده فانتهره بحدة بالفة وبلغ من انفعاله أنه قذف ابنه بكوب مملوء بالماء في وجهه لأنه قاسه بشيخه ذى المقام الأرفع في عالم الولاية ، أجل فالشئ من معدنه لا يستغرب ، هذا شأن الرجال مع أشياخهم .

وإن المقام ليضيق عن استقصاء مناقب هذا الغوث الفرد الجامع ، ولله در صاحب النفحات الإلهية إذ قال فيه متوسلا في منظومته النقشبندية :-

وبالإمام رفيع الشأن سيدنا	عليوة صاحب الأسرار والمنن
قطب الوجود مجيب سؤل قاصده	ورحمة للورى بل زينة الزمن
ووارث المصطفى علما وفي عمل	وكاشف الغم والأحزان والدرن

رضى الله عن القطب الشريف سيدى عليوة الحسينى المحمدى وألحقنا بمعيته في الدارين. آمين .

★ ★ ★

**القطب الفريد .. سيدى
محمد أبو اليزيد المهدى الحسينى
رضى الله تعالى عنه**

من رحيق الحب الإلهى نهلت أرواح خاصة الخاصة من أولياء الله المقربين
الذين تطهرت ذواتهم من شهود السوى بماء الغيب المتدفق من صفاء بحار
الجبروت إلى حياض رياض الملكوت ، فسالت به أودية قلوبهم ، فتحررت من
الأغيار ونفدت إلى نور الأنوار قاطعة مراحل السير إلى الحق تعالى فى منازل
النفس إلى الوصول إلى الأفق المبين ومبدأ التجليات الأسماوية ، ثم بالتعلق
بالأسماء والصفات إلى الأفق الأعلى ونهاية الحضرة الوجدانية ، ثم بالترقى إلى
عين الجمع والحضرة الأحدية ، ثم إلى مقام السير بالحق عن الحق للتكميل ، وهو
مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع ، وإلى ذلك أشار العارف بقوله :

ليس من لَوَّح بالوصل له	مثل من سير به حتى وصل
لا ولا الواصل عندى كالذى	طرق الباب وللدار دخل
لا ولا الداخلى عندى مثل من	سارروه فهو للسّر محل
لا ولا من سارروه كالذى	صار إياهم ^(١) فدع عنك الملل

(١) المراد هنا : التعبير عن غاية القرب دون إرادة الاتحاد أو الحلول ، فقد قال قائل هذه الأبيات
وهو الشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى قدس الله سره (ما قال بالاتحاد إلا أهل
الإلحاد وما قال بالحلول إلا من دينه معلول) وانظر الأبيات فى لسان التعريف بحال الولي
الشريف سيدى إبراهيم الدسوقي رضى الله عنه للعلامة الشيخ أحمد جلال الدين الكركى

ولقد شهد عصرنا هذا ثلة من خواص الخواص المقربين ، أنعم الحق تعالى علينا برؤيتهم وصحبتهم والاستمداد من بحار أنوارهم ، والسقيا من رحيق تربيتهم ومحبتهم والتحقق من شموخ ولايتهم .

من أولئك الصفوة المقربين : ولي الله العارف بالله تعالى فرع الشجرة المحمدية ونائب الحضرة الجودية النقشبندية ، ووكيل الحضرة الأحمدية البدوية ، فرد زمانه وغوث أوانه ، الحسيب النسيب القطب الفريد : سيدى محمد أبو اليزيد ابن محمد المهدي الحسينى رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

مولده ونشأته

لقد بزغ نجم مولد هذا العارف الريانى سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة بعد الألف هجرية فوافق ميلاده الثامن والعشرين من إبريل سنة ١٩٠٠م تسعمائة وألف ميلادية . وقد تدلى هذا الفرع الشريف من الدوحة الهاشمية المحمدية ، فوالده - رضوان الله عليه - هو الداعية القرآنى الشيخ محمد المهدي بن السيد مصطفى ابن السيد خليل من نسل السيد عبدالظاهر الذى هو رأس من رؤوس الأشراف الحسينيين بناحيته «كفر تصفا» و«الزمرونية» ، وهو فرع من أبناء سيدى خضر أبى نجاح الحسينى الكائن ضريحه ببلدة (أبى نجاح) التابعة لمركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية .

وقد تعاهد فرع أسرة (عبدالظاهر) ببلدة (كفر تصفا) التابعة - الآن - لمركز كفر شكر بمحافظة القليوبية - شجرة النسب الحسينى الشريف المثبتة فى سجل مرقوم انتهى إلى بيت العالم الجليل الشيخ حسن عبدالظاهر الذى كان مدرسا بمعهد القاهرة الدينى وتخرج على يديه فيالق من العلماء . وأذكر من بينهم الدكتور عبدالفتاح بركة الأمين العام الأسبق لمجمع البحوث الإسلامية ، وقد كان العم الشيخ حسن عبدالظاهر رئيس لجنة امتحانى الشفوى فى الشهادة الابتدائية بمعهد طنطا الأحمدي سنة ١٩٥٩م .

ومن علماء فرع عبد الظاهر الحسينى كذلك الشيخ يوسف عبد الظاهر الذى كان واعظا عاما بالمنصورة .

أما فرع عبد الظاهر بالزمرونية - التى كانت تتبع مركز ميت غمر وصارت تابعة لمركز كفر شكر - فإنه يتمثل فى الشريف السيد / مصطفى خليل الذى أنجب سيدى محمدا المهدي والد القطب أبى اليزيد ، كما أنجب السيد على والد الشريفين مصطفى وعزب خليل.

وكان سيدى محمد المهدي رضوان الله عليه ممن يشار إليهم بالبنان فى التقوى والورع . وقد صدق فيه قول الرسول العظيم - صلوات الله وسلامه عليه - «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» ؛ فالأسرة الخليلية الظاهرية كانت - ولا تزال بحمد الله تعالى أسرة قرآنية تشع قرآنا وعلما أزهريا ولدنيا .

وقد نال الجد الشريف محمد المهدي رضوان الله عليه تلقيبه بالمهدي من السنة الخلق التى هى أقلام الحق تعالى ، حيث كان من شدة ورعه وتقواه يفيض بصره عن المحارم فى الطريق حتى يظن أنه فاقد البصر فتستفسر الرائحات والغاديات من أسرته وأهله عن حال بصره فيجبن بأنه حديد ؛ فينطق الله الألسنة بأنه المهدي لا ومن ثم لقب بالمهدي .

وقد قدرت المشيئة الالهية أن ينتقل الشريف محمد المهدي إلى جوار ربه ولم يزل ابنه المترجم له جنينا فى بطن أمه السيدة (مبروكة) فولد رضى الله تعالى عنه يتيما كالدرة اليتيمة .

ومن ترتيب القدر الإلهي كذلك : أن يكون محل ميلاد القطب الفريد أبى اليزيد هو بلدة : (الزمرونية) التى تقل ضريحا عظيما لولى شامخ من أئمة الصوفية هو سلطان العارفين سيدى أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى رضى الله تعالى عنه المتوفى سنة ٢٦١هـ .

وهو الذى لقبه العارف الخوافى رضى الله عنه بلقب (سلطان بالعارفين) ، وكان سيدى محيى الدين بن عربى رضى الله تعالى عنه يسميه : أبأ يزيد الأكبر ،

ونص على أنه كان القطب الفوث في زمانه ، وأنه كان على قلب إسرافيل ، له الأمر ونقيضه . (١)

وقد اشتهر - في الدوائر الصوفية - أن لسيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله تعالى عنه أربعين مقاما في مختلف بقاع الأرض ، ومما زرته - شخصا - منها : ثلاثة مقامات أحدها في قرية (سديمة) مركز كفر الزيات بمحافظة الغربية ، وثانيها : في منيل الروضة بالقاهرة حيث يوجد ضريحه بمسجد يحمل اسمه في شارع يحمل اسمه أيضا .

أما ثالث تلك المقامات اليزيدية البسطامية ، فكان بالزمرونية ، حيث شاء العلى القدير أن ينبت منها العارف أبو يزيد الثانى - المعروف بالمهدى - الذى سأل شيخه وزير الحضرة المحمدية مولانا الشيخ جوده إبراهيم الحسنى الحسينى النقشبندى رضى الله تعالى عنه : عن سر تعدد مقامات بعض الأولياء كسيد أبى يزيد البسطامى رضوان الله تعالى عليه ، فأجابه : بأن الولي في البرزخ بمثابة الفواص في بحر لجى ، يمكنه أن يبرز ويظهر في أى بقعة شاء من سطح البحر ، فحيثما ظهر في بقعة من الأرض شيد له مقام لا وقد دفن سيدى محمد المهدى إلى جوار ضريح سيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله عنهما .

وكانت والدته سيدى محمد أبى اليزيد - رضوان الله تعالى عليهما - من القانتات الصالحات ، وكانت محبة للأولياء وعلى صلة روحية بكبار الأقطاب ، فما أن نشطت بعد وضعها إياه ، واستجمعت قواها بعد مدة وجيزة حتى حملته بين ذراعيها وذهبت به على قدميها إلى ضريح قطب الأرض في زمانه سيدى داود المعزب رضى الله تعالى عنه ببلدة (تفهنا المعزب) وسألت الحق تعالى أن يجعل وليدها في رعاية هذا القطب الكبير ، واستجاب الله تعالى دعائها . ومن ثم كانت هناك رابطة روحية وثيقة العرى بين سيدى محمد أبى اليزيد وبين سيدى داود المعزب رضى الله تعالى عنهما .

وفى رحاب القطب البسطامى رضى الله تعالى عنه كانت نشأة العارف أبى

(١) انظر : الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للعلامة المناوى بتحقيق د. عبد الحميد

حمدان : ٤٤٢ ، ١ .

يزيد الثانى - أو نقول - (أبا يزيد الكبير) حسبما تومئ إليه إشارة سيدى محيى الدين بن عريى - قدس الله سره - فى تلقيبه للعارف البسطامى بأبى يزيد الأكبر!! فهذا الشبل من ذاك الأسد !!

فقد نشأ سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله عليه فى أعطاف العناية الإلهية نشأة العارفين ، حيث كان المنطلق الأول إلى عالم الولاية أن يتضلع من كتاب الله تعالى ، فحفظ القرآن الكريم فى نعومة أظفاره فى بيت أسرته القرآنية وعلى يد عمه الشريف (على أبوخليل) الذى كان شيخ كتاب القرية ومحفظ علمائها كتاب الله تعالى ، وقد أخذ على عاتقه تحفيظ أفراد أسرته - رجالا ونساء - آيات الذكر الحكيم ، ومبادئ العلوم الشرعية التى يجدر إلمام كل مسلم بها .

وما أن أتم سيدى الوالد الماجد - سى البسطامى - حفظ كتاب الله تعالى حتى التحق بالأزهر الشريف فى أقرب معهد دينى من بلدته ، وهو معهد (كشك) الدينى بزفتى ، الذى أنشأه كشك باشا بها ، وأخذ الشيخ الشريف أبو يزيد فى دراسة العلوم الشرعية والعقلية واللغوية بالمعهد ، وكانت الدراسة فى المطولات منذ بدئها حتى إن دراسة النحو منذ السنة الأولى. كانت فى شرح الكفراوى على الأجرومية ، ولا يزال هذا الكتاب موجودا ضمن مكتبة العارف أبى اليزيد ضمن فرائد المصنفات . وظل الشيخ يواصل طلبه للعلم فى الأزهر الشريف حتى كانت نقطة التحول الكبرى فى حياته ألا وهى :- لقاءه بشيخه مولانا الشيخ جوده رضى الله عنه وبدء سلوكه الصوفى .

بينما كان مخطوب الملا سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله عليه يتزود من علوم الشرع فى ريعان شبابه فى منتصف العقد الثانى من عمره : كانت أضواء الحقيقة تصوب أشعتها صوب موطنه فى الرحاب البسطامى ، فقد كان قطب عصره العارف بالله تعالى سيدى الشيخ جوده إبراهيم الحسنى شيخ الطريقة النقشبندية الخالدية بالديار المصرية يقوم برحلاته الصوفية لفتح الطريق فى شتى بلاد مصر، وكان للبلاد المجاورة لمنا القمع منها حظ وفير أخذ شكل العادة فى ميقات معين على مدار العام .

وفى يوم من أيام النفحات الإلهية التى ورد فيها الحديث الشريف (إن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتمعرضوا لها) كان موكب الأنوار الجودية متوجها إلى رحاب القطب البسطامى رضى الله تعالى عنه فى (الزمرونية) فتوجهت الجموع الغفيرة لاستقبال مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضى الله تعالى عنه ، وكان محط رحاله فى روضة سيدى أبى يزيد الأكبر رضوان الله عليه : ودنا وقت الصلاة ، وطلب سيدى الشيخ جوده رضى الله عنه ماء ليتوضأ ، وتاهب شيوخ البلد وشبانها ومعهم كبار أتباع الشيخ كلهم يأمل أن يحظى بشرف المثل بين يديه وصب ماء الوضوء فى راحتيه ، إلا شابا واحدا وقف فى حياء وخشوع يرمق الشيخ بنظراته فحسب ولم ير نفسه أهلا للتقدم لتوضئة هذا الإمام الجليل الذى تشع أنوار الجلال والجمال من محياه ، وكان ذلك الشاب المنبهر فى خشوع هو سيدى محمد أبو اليزيد الذى قنع بالنظر إلى الشيخ ووجد فى هذا النظر سعادة الدنيا والآخرة. **وفجأة:** أشار سيدى الشيخ جوده إلى ضالته المنشودة وارث السر والحال وقال: هذا الفتى هو الذى سيوضئنى !! ووسط نظرات التعجب من الجمع : تقدم الشاب الأزهرى الشيخ محمد أبو اليزيد وأمسك بالإبريق . وبينما هو يصب ماء الوضوء فى يدي القطب النقشبندى إذا بسيدى الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه يرفع بصره فى وجه الشيخ محمد ويرمقه بنظرة نخبة واصطفاء فكانت الجذبة النقشبندية الأبدية ، جذبة القلب إلى حضرة القدس مع الصبحو التام !! ومن لحظتها صار الشيخ محمد مريدا لقطب عصره سيدى الشيخ جوده رضى الله عنه ، حيث وجد فيه الشيخ ، والقدة ، والمرى ، والمعلم ، والواصل ، والموصل ، لقد رأى فيه الشيخ الكامل ، والمثل الأعلى . فلزمه من ساعته ، وتعلقت روحه بساحته ، فكان يذهب إليه يوميا من بلدته (الزمرونية) عقب صلاة الفجر ماشيا على قدميه مسيرة عشرة كيلو مترات إلى منيا القمح ليصل ساحته قبل شروق الشمس ، على مدى اثنى عشر عامًا .

وفى الساحة الجودية بمنيا القمح كان مركز السلوك الصوفى المحمدى الرفيع ، على أعلى مستوياته ، وكان لسيدى محمد أبى اليزيد حظ أعلى من العناية

الجودية ، كان وزير النبي صلى الله عليه وسلم يؤمله للوراثة الجودية كما أهل نجله
الأمجد مولانا الشيخ عيسى ، وخليفته الأنور سيدى الشيخ عليوه عطيه الحسينى
رضى الله عنهم أجمعين .

وسيدى الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنه هو الذى لقب سيدى محمدا
المهدى بأبى يزيد كما أخبرنى بذلك ، إذ نظر إليه ذات يوم بعين الإمداد والتحقيق
وقال له : أقبل يا أبا يزيد !! ولم يكن معروفا من قبل بهذا اللقب ، وفى تلقيبه به :
إشارة إلى حظ وافر من وراثة مقام سيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله عنه .

سنده فى الطريق النقشبندى :

وبتلقى سيدى محمد أبى اليزيد المهدى رضوان الله عليه عن شيخه الواصل
إلى الله تعالى مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره : الطريقة النقشبندية
، وأخذة القبضة والعهد والبيعة على يديه : تحقق له شرف النسب الروحى الصوفى
إلى سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم حقيقة وباطنا ، كما
تحقق له شرف النسب الحسنى المحمدى عرفا وظاهرا ، فصار شريف النسبتين
غريم المحتدين ، وهذا هو سنده ونسبه الصوفى :-

لقد أخذ القبضة عن حضرة قطب عصره سيدنا الشيخ جوده إبراهيم
الحسنى عن سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوى ، عن سيدى أحمد بن سليمان
الطرابلسى ، عن سيدنا ضياء الدين خالد العثمانى المجددى البغدادى عن سيدنا
عبدالله الدهلوى ، عن سيدنا حبيب الله مظهر ، عن سيدنا نور محمد البدوانى ،
عن سيدنا محمد سيف الدين ، عن سيدنا محمد المعصوم ، عن سيدنا أحمد
الفاروقى - الإمام الريانى مجدد الألف الثانى - عن سيدنا محمد الباقر بالله ، عن
سيدنا محمد الخواجكى الأمكنكى عن سيدنا درويش محمد ، عن سيدنا محمد
الزاهد عن سيدنا عبيدالله أحرار ، عن سيدنا يعقوب الجرخى ، عن سيدنا علاء
الدين العطار عن سيدنا ومولانا محمد بهاء الدين الحسينى الأويسى (شيخ الطريقة
النقشبندية ومجدها الأعظم) وهو عن سيدنا الأمير كلال ، عن سيدنا محمد بابا

السماسى عن سيدنا على الراميتتى العزيزان عن سيدنا محمود الإنجير هفغوى عن سيدنا عارف الريوكرى عن سيدنا عبد الخالق العجدوانى - الذى أخذ عن سيدنا الخضر عليه السلام عن حضرة سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . كما أخذ سيدنا عبد الخالق عن سيدنا يوسف الهمدانى عن سيدنا أبى على الفارمدى (ملتقى السلاسل النقشبندية الثلاث) : فقد أخذ عن سيدنا أبى الحسن الخرقانى عن سيدنا أبى يزيد البسطامى عن سيدنا جعفر الصادق عن سيدنا القاسم بن سيدنا محمد بن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم . كما أخذ سيدنا أبو على الفارمدى عن سيدنا أبى القاسم الجرجانى عن سيدنا أبى عثمان المغربى عن سيدنا أبى على الكاتب عن سيدنا أبى على الروزابارى عن سيدنا الإمام الجنيد (سيد الطائفة الصوفية) عن خاله سيدنا السرى السقطى عن سيدنا معروف الكرخى (ملتقى السلسلتين الصديقية والعلوية) فقد أخذ عن سيدنا داود الطائى عن سيدنا حبيب المعجمى عن سيدنا الحسن البصرى عن باب مدينة العلم سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم . كما أخذ سيدنا معروف الكرخى عن سيدنا على الرضا عن سيدنا موسى الكاظم عن سيدنا جعفر الصادق عن سيدنا محمد الباقر عن سيدنا على زين العابدين عن حضرة سيدنا الإمام الحسين عن أبيه سيدنا على عن حضرة الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم . هذا هو السند الصوفى النقشبندى لسيدى محمد أبى اليزيد رضى الله تعالى عنه وهو سند الفقير إلى الله تعالى نجله ومريده وخادمه مؤلف هذا الكتاب عفا الله تعالى عنه وغفر له وحشره مع آبائه وأجداده تحت قدم سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وآله وصحبه أجمعين . آمين. يارب العالمين .

لقد ارتبط سيدى محمد أبو اليزيد بشيخه مولانا الشيخ جوده إبراهيم - رضوان الله تعالى عليهما - ارتباطاً الفرع بأصله فى الشجرة المحمدية ، فصار منه يستمد النور والعلم والمعرفة والسلوك والتربية ، وتحقق على يديه بالشرعية ، والطريقة ، والحقيقة .

★ ولقد كان مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره يرى أبناءه ومريديه بالنظر ، إذ ينظر لمريده نظرة الاصطفاء فيملؤه مددا .

★ وقد حدثني والدي سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله عليه أنه كان في حضرة شيخه سيدنا الشيخ جوده - قدس الله سره - في ساحة التربية الجودية التي كانت حافلة بالمريدين - وموضعها الآن بيت مولانا الشيخ عيسى رضوان الله عليه ، المواجه للمقام الجودى الشريف بمنيا القمح - وقد أطرق والدي في شبه استغراق في الحضرة الجودية ، وفجأة جاء الصحو فرفع بصره إلى شيخه ، فوجد سيدنا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه يركز بصره عليه ، ويخصه بالنظر العالى الحافل بالأنوار .

★ وكانت حياة العارف بالله تعالى سيدى محمد أبى اليزيد رضى الله عنه خلال معاشته لشيخه مولانا الشيخ جوده رضوان الله عليه إقامة دائمة في مركز الطريقة الجودية من شروق الشمس إلى غروبها ، لا ينقطع اللقاء إطلاقا حتى خلال المرض ، فقد مرض سيدى محمد أبو اليزيد يوما بالحمى ، وأشارت عليه أسرته أن يلزم الفراش ببلده ، فأبى إلا أن يركب مطية ليقطع بها المسافة إلى رحاب شيخه - وكان دأبه في الصحة أن يسير إليه على قدميه تأدبا - وما أن دخل ساحة شيخه ورآه مولانا الشيخ جوده رضوان الله عليه داخلا مريضا على ظهر مطيته حتى قال : (عجائب ، هل جاءتك الحمى ؟) وما أن نزل الشيخ أبو اليزيد عن دابته حتى عوفى تماما من مرضه ، فمكث في حضرة شيخه ما قدر له ثم أذن له الشيخ في العودة إلى بلده ، وما أن غادر الحضرة الجودية حتى ظهرت أعراض الحمى على مولانا الشيخ جوده رضوان الله عليه ، فأدرك أبناء الشيخ ومريدوه وعلى رأسهم مولانا الشيخ عليوه عطيه الحسينى رضى الله عنه أن مولانا الشيخ جوده قد تحمل (حملة الحمى) عن مريده العزيز سيدى محمد أبى اليزيد رضى الله عنه .

★ ولقد أخذ الشيخ أبو اليزيد دوره البارز في مركز التربية الجودية ، فكان

الابن القلبي المصطفى المتقى المغمور برعاية شيخه ، كان هو المؤذن ، والمقيم للصلاة ، وكان هو قارئ القرآن الكريم تجويدا وترتيلا ، ولقد قرأ القرآن الكريم عن ظهر قلب على شيخه سيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه ولم يخطئ فى حرف واحد - كما أخبرنى بذلك - فلما أتم ختم القرآن العظيم نظر إليه مولانا الشيخ جوده نظرة الفتح والاجتماع ، وقال له : فتح الله عليك !! ودعاء الأقطاب مستجاب !

★ وكان الشيخ أبو اليزيد كذلك قارئاً لسيدنا الشيخ جوده - رضى الله عنهما - فى أمهات الكتب والمصادر العلمية ، حيث إن مجلس سيدنا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه كان مجلس قرآن وعلم شرعى ومعرفة صوفية وتربية قلبية وروحانية ، فكان يقرأ فى مجلسه صحيح البخارى بشروحه وصحيح مسلم وأمهات كتب التفسير والتصوف وكتب الشمائل النبوية .

ولقد أخبرنى شيخى الوالد سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله عليه أن من بين ما قرأه بحضرة شيخه كتاب (المواهب اللدنية) للإمام القسطلانى رضى الله تعالى عنه .

★ وكان سيدى محمد أبو اليزيد يدخل إلى خلوة شيخه الخاصة ويشهده فى عباداته وسبحاته الروحية ، وقد وصف لى عبادة شيخه رضوان الله عليه واستغراقه فى صلاته مع الله تعالى قائلا (آه يا ولدى : لو رأيت جدك الشيخ جوده مرة واحدة وهو يصلى مستغرقا فى مشاهدة ربه وفى مناجاته لقلت على الفور إنه لم يصل أحد لله فى هذا العصر إلا هذا الرجل) !! أجل : إنما يعرف الفضل من الناس ذووه ! «

★ وكان سيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه يكشف مريده أبا اليزيد بخواطر قلبه : فبينما كان حاضرا فى مجلس شيخه طلب سيدنا الشيخ جوده فنجانا من القهوة ، وأخذ يشرب من الفنجان وعين سيدى الوالد لا تفارقه ، فقال فى نفسه : لو يمن الله تعالى على برشفة من سؤر شيخى من هذا الفنجان ٩٩ وفى الحال التفت سيدنا الشيخ جوده رضى الله عنه لمريده الشيخ أبى اليزيد من بين عشرات

المريدين الحاضرين ومد يده الشريفة إليه بالفنجان قائلاً : خذ واشرب ما تبقى من القهوة !!

★ ومن بين سلوكيات التربية الجودية : عدم الغفلة عن ذكر الله تعالى ، وتعهد قراءة القرآن الكريم بالتزام ، ومن ثم كان سيدى محمد أبو اليزيد رضى الله عنه يجلس مع حبه فى الله تعالى سيدى الشيخ عليوه عطية الحسينى ويقرأ كل منهما القرآن كله على الآخر ، وكانا إذا أخذوا فى التسبيح يسمعان تسبيح الجماد - حصى المسجد - من حولهما كترجيع الجبال مع سيدنا داود على نبينا الأعظم وعليه الصلاة والسلام .

★ لقد تقلد سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله تعالى عليه مفاتيح الفتح الإلهى من شيخه مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله تعالى سره ، وتحمل من الأسرار ما لا تتحمله شم الرواسى من الجبال ، ولكنه كان المستقر والمستودع الأمين ، وصدق فيه قول الصوفية الأخيار «صدور الأحرار قبور الأسرار» !!

لقد تحمل الأمانة ، ونال خلعة الخلافة ، وأذن من شيخه وزير النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته أن يكون مركزه فيما بعد انتقال الشيخ فى المقام الأحمدى البدوى الشريف ؛ فقد حدثنى شيخى الوالد رضوان الله تعالى عليه ، بأنه كان فى الحضرة الجودية قبيل انتقال مولانا الشيخ جوده رضى الله تعالى عنه ، وخلال المجلس الجودى صرح قطب عصره سيدنا الشيخ جوده قدس الله تعالى سره بأنه قد دنا وقت انتقاله إلى جوارمولاه عز وجل ، فانخلعت قلوب الحاضرين وذرفت الدموع من العيون ، فتوجه سيدى محمد أبو اليزيد إلى شيخه مولانا الشيخ جوده رضوان الله عليهما قائلاً : «ياسيدى : نذهب إلى من بعدك» ؟ فرد عليه بصيغة الإفراد والتخصيص : «أنت تذهب إلى جوار سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه !!» .

وانتقل مولانا الشيخ جوده رضوان الله عليه إلى الرفيق الأعلى فى السابع عشر من شهر شوال سنة ١٢٤٦هـ ، ورأى سيدى محمد أبو اليزيد إثر انتقال شيخه

العظيم فى منامه أن مولانا الشيخ جوده - قدس الله سره - قد أمسك به وأحاط
أوسطه بيده الشريفة وقذف به فى جو السماء فطار حتى هبط فوجد نفسه أمام
مقصورة قطب الأقطاب سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه وباب المقصورة
الشريفة مفتوح على مصراعيه ، فنظر إلى كسوة الضريح الأحمدي الشريف فرأى
مكتوباً عليها : «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» فكان ذلك إيذاناً بالفتح الأحمدي الذى
تحقق به سيدى محمد أبو اليزيد رضى الله عنه بعد فتحه الجودى .

إنتقال سيدى محمد أبو اليزيد إلى جوار

مولانا السيد البدوى رضى الله تعالى عنهما :

وتوجه مولانا العارف أبو اليزيد رضوان الله تعالى عليه بتوجيه شيخه وزير
حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنه إلى جوار باب النبى صلى الله عليه
وسلم لتبدأ مرحلة صوفية ولائية أخرى فى حياة هذا العارف .

ولم يكن هذا التوجه والانتقال من قبيل المصادفة أو الاختيار الشخصى ،
فليس فى حياة الأولياء مآرب شخصية ، ولا دواعى نفسية ، وإنما هى خطوات
ريانية على مدارج الاصطفاء والاجتباء . وكل مرحلة زمنية لها مضمونها السلوكى
والعرفانى . وآية ذلك : ما سمعته ذات يوم فى حضرة العارف بالله تعالى الشيخ
عبد الجليل قاسم خليفة العارف بالله تعالى الشيخ عبدالفتاح القاضى - شيخ شيخ
الاسلام الإمام الدكتور عبد الحليم محمود رضى الله تعالى عنه - من أحد رجالات
الطريقة الشاذلية القاضية من بلدة العزيزية شرقية أنه سمع أحد المكاشفين من
العزيزية - واسمه الشيخ صالح الهرييتى - يقول : لقد تنازع فى الشيخ محمد
أبى اليزيد قطبان كبيران :

أحدهما : سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه .

وثانيهما : سيدى أحمد البدوى رضوان الله تعالى عليه . وذلك فى حضرة
برزخية : فقال سيدى أبو الحسن لسيدى أحمد : أترك لى الشيخ محمد أبى اليزيد ،
فإنى أريده للإقامة عندى إلى جوارى فى (حميثرا) .

فقال له القطب البدوي : ولكنى أريده عندى يا شيخ أبا الحسن لينتفع به الخلق فى (طنطا) ؛ إذ أنه لو ذهب إليك فى (حميثرا) لن ينتفع به إلا القليل ، فاتركه لى . عندئذ قال سيدى أبو الحسن رضى الله عنه : لقد تركته لك يا أبا الفتيان !

ولقد كان تعلق سيدى محمد أبو اليزيد بالقطب البدوي - لا سيما بعد تصريح شيخه له بالمقام عنده - عجيبا ، فكان قبل ارتحاله إلى طنطا يتردد عليه سعيًا على القدم من بلده (الزمرونية) إلى طنطا !!

وأصبح الشيخ أبو اليزيد رضوان الله تعالى عليه مجاورا لسلطان الأولياء باب حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا ، لقد اختاره القطب البدوي لحضرته داعيا إلى الله على بصيرة .

ولقد كان لسيدى محمد أبى اليزيد رضى الله تعالى عنه - فى الجوار الأحمدي - مضماره السلوكي التعبدى ، ومرقاؤه التحققي العرفانى .

فلقد تهيأت له الأسباب واتخذ لنفسه (خلوة) بالجامع الأحمدي فى الطابق الثانى بناء على تعليمات من مدير الفرية آنذاك إثر رؤيا منامية رأى فيها الإمام البدوي يكلفه بتخصيص خلوة بمسجده للشيخ أبى اليزيد ، وقد استجاب للأمر .

وفى تلك الخلوة اليزيدية بالرحاب الأحمدي: كان سيدى محمد أبو اليزيد رضى الله تعالى عنه صوام النهار قوام الليل ، يقطع الليل تسبيحا وقرآنا وتهجدا .

لقد هجر زخرف الدنيا الزائف وسكن إلى سيده وخالقه ومولاه ، متقللا مخشوشنا فى عيشه ، حازفا عن المتاع القليل ، مقبلا على الله تعالى بكلية حيث النعيم الحقيقي الذى قال فيه سلطان الزاهدين سيدى إبراهيم بن أدهم - رضوان الله عليه - (لو يعلم ملوك الدنيا ما نحن فيه من النعيم: لجالدونا عليه بالسيوف) !!

ومما تناقله مريدو الشيخ أبى اليزيد عن شيخهم : أنه مكث أحد عشر عاما يصوم صوم سيدنا داود - على نبينا وعليه السلام - ؛ يصوم يوما ويفطر يوما !!

وأنه كان يتلو القرآن على الدوام ، فى المصحف أو عن ظهر قلب ، وقد ظل هذا دأبه إلى آخر حياته ، وقد حدثنى الشيخ عبدالحميد سلام - أحد شيوخ المقرأة الأحمدية - أنه استمع لسيدى محمد أبى اليزيد وهو يقرأ عليه القرآن حتى ختمه فى نهار يوم واحد ، وأكد لى أن هذا كان ديدنه خلال السنوات الأخيرة من عمره المبارك . حدثنى بذلك بعد مضى أربعين يوما من انتقاله إلى جوار مولاه .

وكان كبار الصوفية المعاصرين يترددون على سيدى محمد أبى اليزيد فى خلوته كالمعارف بالله سيدى أحمد حجاب والمعارف بالله الشيخ محمد خليل الخطيب الذى درس لى الحديث الشريف وعلم التصريف بالمعهد الأحمدى ، وقد سألته يوما عن معرفته بسيدى محمد أبى اليزيد صوفيا فأجابنى بقوله (كفى والدك شرفا أنه جالس البدوى خمسين عاما) !!

ومن أجلاء أحباب والدى من المعارفين المعاصرين سيدى الشيخ صالح الجعفرى إمام الجامع الأزهر الشريف ، واذكر أننى زرتة قبل انتقاله بنحو عام بالجامع الأزهر الشريف فقال لى : (لقد تخرج من خلوة والدك علماء وأولياء ، وأنا منهم) - والله شهيد على ما أقول - إنها شهادة الكبار للكبار من أفذاذ المدرسة المحمدية !

إن هذه الشهادة التى أدلى بها العالم الولى الريانى لتقطع بوضوح جلى أن سيدى محمدا أباليزيد رضوان الله عليه كان مربيا للعلماء والأولياء فى مركز الدعوة إلى الله تعالى بالجامع الأحمدى ، وكانت خلوته امتدادا لجامعة السطح الأحمدية التى أسسها سيدى أحمد البدوى رضوان الله تعالى عليه .

فلقد كان سيدى محمد أبو اليزيد يتلقى تربيته المباشرة من سيدى أحمد البدوى رضى الله عنهما بعد تربيته الجودية ، ويربى بها أتباعه ومريديه بالروضة الأحمدية كما صرح بذلك المعارف بالله تعالى الشيخ عطية محمود خليفة سيدى سلامة الراضى والقطب الإمام الشاذلى رضى الله عنهم أجمعين كما صرح بثأقب مكاشفته وعرفانه بجملة من الحقائق منها :

★ أن سيدى أحمد البدوى رضوان الله عليه قد أخذ سيدى محمدا أبا اليزيد بسلسلته وصبغه بصبغته فصار كأنه سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه .

★ وأن سيدى أحمد البدوى قدس الله سره قد أولى الشيخ أبا اليزيد ثقته فى التصريف فكان كل ليلة جمعة يتلقى منعة من سيدى أحد البدوى وجملة من التكاليف ينفذها حرفيا طوال الأسبوع .

★ وأنه كان لوظيفة العارف أبى اليزيد جانبان بالمقام الأحمدى : أحدهما : تلاوة القرآن الكريم والأوراد والإنفاق على الفقراء والتعهد الظاهرى والباطنى لمريديه وأتباعه والجانب الآخر : هو الجانب التصريفى بتنفيذ ما يتلقاه من الإمام البدوى من تعليمات وأوامر وتكليفات تلقى إليه ليلة الجمعة ، ولذلك كان لا يتغيب عن المقام الأحمدى ليلة الجمعة إطلاقا .

★ وكان من اختصاصات الشيخ أبى اليزيد من فيض عطاء الله تعالى رفع البلاء بتوجهه إلى جناب الحق جل جلاله ، ولاسيما للشفاء من الأمراض العضال .

★ وأن الركن الذى كان يلزمه سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله عليه بالمقام الأحمدى الشريف هو الركن المطل على القبة المحمدية الخضراء المعظمة والمواجه لها من المقام الأحمدى ، ولذلك لم يعرف عنه الجلوس فى مكان سواه منها .

★ وأن سيدى محمدا أبا اليزيد رضى الله تعالى عنه قد تحققت له الخلافتان : الجودية النقشبندية ، والأحمدية البدوية ، باعتبار أن مولانا الشيخ جوده إبراهيم رضى الله عنه مع إمامته للنقشبندية كان قطبا فى الدائرة الأحمدية أيضا فورثه سيدى محمد أبو اليزيد فى هذا الجانب وترقى به إلى المقام الأحمدى ، وكان بالنيابة عنه يمثل (الجودية الأحمدية) ، وأنه كان صديقا حميما لسيدى (أحمد البابلى) رضى الله عنه .

★ وأن سيدى أحمد البدوى قدس الله سره كان زعيم الاستغراق الإلهى ، وقد

ألقى على سيدى محمد أبى اليزيد خلعة الاستغراق واكتملت فيه قبل انتقاله بأربع سنين .

★ وأن سيدى محمدا أبا اليزيد فى ذروة اكتماله كان غريق محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بدا لأهل الكشف غرقه قبل انتقاله إلى جوار مولاه بتسع سنين .

★ كما أخبرنى العارف بالله الشيخ عطيه محمود الشاذلى المكاشف بأنه ما من لقاء يلتقى فيه مع سيدى محمد أبى اليزيد إلا وجده قد ترقى عن المقام السابق الذى شهد فيه قبل ذلك إلى مقام أعلى منه ، فكان رضوان الله عليه فى ترقى دائم وعلو مقام مستمر .

المنهج التحقيقى لسيدى محمد أبى اليزيد قدس الله سره :

لقد اتسم منهاج هذا الإمام العارف بره بجملة من المعالم البارزة التى يتمثل أبرزها فيما يلى :

أولا : أنه كان يقدس الشريعة ويلتزم بأوامر الشرع ويجتنب نواهيه بصورة فريدة ، كالحفاظ على الجماعات فى الصلاة والإكثار من الصدقات الخفية فضلا عن الزكاة المفروضة ، وكان يرسل رواتب شهرية لعدد من الأسر الفقيرة فى طنطا وضواحيها ، بل وفى محافظات نائية ، ويتعهد اليتامى وينفق فى وجوه الخير مباشرة وتسميبا ، ومن الجدير بالذكر أنه توسط لدى وزارة الأوقاف لإعطاء حصص من صناديق النذور لأعضاء مقارئ القرآن الكريم بمساجد الجمهورية ، وكانوا من قبل لا ينالون إلا الفتات ، وهذا من حبه للقرآن وأهله فتم على يديه تكريم أهل القرآن .

وثانيتها : أنه كان شديد الفيرة على حرمانات الله تعالى ، وكان يحرص على عدم اختلاط الرجال بالنساء سواء أكان ذلك فى خلوته الأحمديه أم فى مجلسه بالمقام الأحمدي أم فى منزله الذى جعله من ثلاثة طوابق بحيث لا يرى رجل امرأة،

ولا عكس ذلك ، بل كان يؤدب مريديه بألا يخالطوا المرء - جمع أمرء - ولا يظهر أحدهم بأى مظهر يثير الريبة فى الخلوة أو الجلوة فكانت مدرسته التربوية صورة مشرفة تتجسد فيها الآداب المحمدية بصفاتها ونقائها . قائمة على طهارة الظاهر والباطن .

وثالثها : أنه كان شديد التعظيم لشعائر الله تعالى . حريصا على إظهار تلك الشعائر للأمة ، وقد حدث فى الستينيات أنه منعت الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بعد الأذان فى المذيع ، فكان وزير الأوقاف وقتها - السيد أحمد عبدالله طعيمة فى زيارة لسيدى محمد أبى اليزيد فى منزله بطنطا فسأله عن أى مطلب له ، فأجابه بطلب إعادة الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بعد الأذان ، وقد لى الوزير مطلبه بعدها بأيام حيث أذيعت الصلاة على سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه بعد الأذان وظلت مدة مديدة بأصوات كبار القراء كالشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبدالباسط وغيرهما .

ورابعها : إثارة الخفاء وعدم الظهور للخلق وتجنب الشهرة ، إشارا لجناب الحق جل وعلا ، وكان يتمثل بحكمة سيدى أحمد بن عطاء الله السكندرى رضوان الله عليه (ادفن وجودك فى أرض الخمول ، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه) كما كان يردد لأبناء قلبه الأقوال المأثورة فى هذا الصدد ، ومنها : (الظهور يقصم الظهور) و (من قال أنا وقع فى العنا) ونحو ذلك .

وكان رضى الله عنه إذا زار بلده (الزمرونية) أو بلد أهله (المزيرية) يدخل بعد غروب الشمس ويمكث يوما أو يومين ملازما للمنزل ثم يفادر القرية بعد الفجر وقبل شروق الشمس !

وخامسها : دوام ذكر الله تعالى فى السر والعلن ، والإعراض عن اللغو بكافة صوره ، فلم ير الشيخ إلا تاليا للقرآن الكريم أو منشغلا بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم بالصيغ المأثورة عن كمل العارفين ولا سيما فى (دلائل الخيرات) التى كان مواظبا عليها وملزما مريديه بها يوميا فى مجالس الدلائل أو فى بيوتهم .

وكان للشيخ صيغ فريدة يعطيها لمريديه لقضاء الحاجات والشفاء من الأمراض ، ومنها تلك الصيغة التي أعطاها للسيد الدكتور محمد إسماعيل مدير مستشفى الأزهر السابق وأنجزت الشفاء لحرمة من مرض عضال وهى (اللهم صل على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها وعافية الأبدان وشفائها ونور الأبصار وضياؤها وعلى آله وصحبه وسلم فى كل لمحة ونفس بعدد كل معلوم لك يا الله صلاة وسلاما تامين دائمين متلازمين بدوام ملك الله وعلى آله وصحبه وسلم . مدد يا سيدنا الشيخ جوده أنت ومن معك ثلاثا -) وكان تلقيها سحر الثلاثاء السادس من جمادى الآخرة سنة ١٣٩٤هـ .

وكذلك أعطى لأخى فى الله تعالى الشيخ عبدالحميد أبو النضر هذه الصيغة ليواظب عليها ألا وهى (اللهم صل على سيدنا محمد النبى الأمى الحبيب العالى القدر العظيم الجاه وعلى آله وصحبه وسلم فى كل لمحة ونفس بعدد كل معلوم لك ، صلاة وسلاما تامين دائمين متلازمين بدوام ملك الله ، تتجينا بها من جميع الأحوال والآفات وتقضى لنا بها جميع الحاجات ، وترفعنا بها أعلى الدرجات ، وتبلغنا بها أقصى الغايات من جميع الخيرات فى الحياة وبعد الممات) . إنها أكسير مجرب لقضاء الحاجات .

وسادسها : التحبب إلى الله تعالى بموالاتة أولياء الله تعالى ومحبتهم ومودتهم وزيارتهم ولا سيما سادتنا أهل بيت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد كان سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله عليه آية من آيات الله فى محبة أوليائه ومعرفة مقاماتهم ومداومة زيارتهم متأسيا بشيخه مولانا الشيخ جودة رضى الله تعالى عنه ، وكان يرى أن موالد آل البيت والصالحين إنما هى مواسم رحمت ومواقيت فيوضات وتجليات ربانية حجب عن رؤيتها أهل الإعراض والاعتراض ، ففى كل مولد : جمعية لأهل الله تعالى تغمر فيها الأنوار وتتوزع الهبات والنفحات الإلهية مع التبرى من كل ما يخالف الشرع من منكرات ، فليس لنا فى الموالد إلا الطاعات والقربات ، وما سواها نبرأ منه وندعو إلى تطهير ساحات الأولياء من أدناسه فلا تحجبنا الأكدار عن الأنوار .

وكان سيدى محمد ابو اليزيد قدس الله سره يقول (إن الله تعالى يطلع عليه على نية من يزوره قبل أن يغادر بيته بنور الله ^(١) فيستقبله في ضريحه بموائد الكرم والعطاء لأنهم أحياء في قبورهم ويتحفون زوارهم بالهبات والعطايا ، وإذا كان كبراء الدنيا يقدمون لزوارهم موائد الضيافة عنوانا على كرمهم أفيترك أولياء الله زوارهم يعودون من رحابهم دون عطاء وهم أكرم خلق الله ٩٩ حاشا وكلا !)

وسابعا : التواضع والتذلل لجنان الحق تعالى ، وخفض الجناح للمسلمين، وقتل حظوظ النفس الأمارة بسيف الجهاد الأكبر ليصبح شعار النفس (الذل والانكسار) وعدم رؤية النفس على أحد من خلق الله تعالى ، إنه فناء الإنية تحت سطوة أنوار الربوبية ، فكان شعار هذا العارف الريانى الذى يردده ويمهر به كتب مكتبته العلمية (أحوج المبيد محمد أبويزيد) رضى الله عنه .

وكان من معالمه التربوية : حث مريديه بقوة على إماتة النفس ، وبيهاى أبناءه بمن تحقق له ذلك منهم قائلا : (فلان أصبح بلا نفس) !

وكثيرا ما كنا نرى شيخنا أبا اليزيد بملو قدره يفترش الثرى لجلوسه فى رحاب الصالحين ، ويطعم الفقراء بيديه ، ويخدم أضيافه بنفسه ، ويواسى أهل البلاء ، ويسمى على قدميه فى قضاء حوائجهم . إنها مثاليات الإسلام المتألقة فى سلوكيات الصوفية الصادقين .

وثامنا : الزهد فى الدنيا ، بطرح زخارفها ومفاتنها ، واحتقار متاعها الشاغل عن الله تعالى ، فكنت أتعجب فى صباى أنتى لم أر سيدى الوالد أبا اليزيد مرة واحدة عند (بقال) أو (جزار) أو (ترزى) كسائر الناس !! إنه منشغل بربه على الدوام، وهذه الأماكن يرتادها من يقوم بخدمته من أسرته أو مريديه ، لقد رزقه الله من الحلال كفايته وأسرته ، وكان أهله وبعض أفراد الأسرة يراعون المصالح ولكنه

(١) يؤيد ذلك قوله تعالى فى سورة يوسف / ٩٤ : (ولما فصلت العير قال أبوه إنى لأجد ربح يوسف) .

لقى ربه ولم يذهب إلى ضيعة أو مساحة من الأرض يمتلكها ، بل لقد صدق فيه ما ورد فى الحديث (أوحى الله إلى الدنيا : من خدمنى فإخدميه ومن خدمك فإستخدميه) و(من جعل همه واحدا كفاه الله سائر الهموم) !

ولم يكن رضى الله عنه مباليا فى ملبوسه أكان من القديم أم من الجديد ، ولكن الحق تعالى قد ألبسه تاجا من الوقار والجلال ومسحة من النور والجمال بحيث كان وجهه الشريف يتلأأ نورا . وكان إذا نزع ثيابه لفعلها تفجرت منها رائحة أطيب من المسك !!

وكان متقللا فى طعامه لا يبالى من أى صنف أكل مادام الطعام من صافى الحلال ، وكان لا يأكل إلا عن جوع ولا يشبع من الطعام ، وما عهدته يتناول إبطارا فى الصباح فى حال عدم صيامه ولا يتناول عشاء إنما هو فتنجان من القهوة حتى عند سحوره فى الصيام!!

وتاسعا : الورع عن المحرمات والشبهات بل وعن السوى ، فقد كان سيدى محمد أبواليزيد قدس الله سره محتاطا لدينه ، نائيا عن مناط الشبهات ، حتى إنه دعاه أحد محبيه ممن كان يتعامل مع بعض المصارف الربوية إلى مأدبة عنده فرفض الشيخ بشدة ، وكان إذا دعاه البعض ممن يشبهه فى ماله مع ستر حاله يذهب إليه ويطلب من بعض مريديه أن يشتري له قطعة من الجبن والخبز فيتناولهما معرضا عما لذ وطاب من الطعام إيثارا لطيب المطعم ، ومن ثم كان الشيخ مستجاب الدعوة ، وكان مؤثرا لمولاه على كل ما سواه ، فلم يشغله عن الله شاغل أنى كان . إنه العبد الريانى فى سموه الصمدانى .

وعاشرا : إخلاص العبادة لله عز وجل ، فلم يكن سيدى محمد أبو اليزيد رضوان الله عليه ممن يعبد الله لمأرب سواه ، وكان يؤدب أبناءه على هذا المبدأ .

وشاهد ذلك : أننى كنت فى شرح الشباب شغوفا بنعيم الجنة لما كنت أقرأ عن هذا النعيم المتعدد الألوان فى تفاسير القرآن والسنة ، حتى أننى قلت لشيخى الوالد قدس الله سره : إننى أرجو النهم بالطاعات والعبادات لأظفر بهذا النعيم ،

وإذا به رضى الله عنه يتعجب لما أقصده من العبادة ، ويلتفت إلى قائلا : (اعبد الله لا لعل ، اقصد وجهه الكريم ومرضاته فذلك مقصد أهل الله من طاعته) . أجل إنها عبادة الأحرار التي تترفع فوق طلب الجنة وخشية النار ، إنه الطراز الأعلى من الأولياء ، خواص الذات الإلهية ، جعلنا الله تعالى منهم وحشرنا في زميرهم وحزبهم المفلحين ، لقد جسدت سيدتنا رابعة العدوية رضى الله تعالى عنها هذا المشرب الرفيع بقولها :-

كلهم يعبدونك من خوف نار ويرون النجاة حظا جزيلا
وليس لى فى نعيم الجنان حظ أنا لا أبغى بحسبى بديلا

★ ★ ★

منزلة سيدى محمد أبى اليزيد ومقاماته فى عالم الولاية :

لقد ارتقى هذا الإمام العارف بربه إلى قمة خواص الخواص من أولياء الله تعالى ، وعرف ذلك أهل الفتح والعرفان بكشفهم البصيرى ، وأتيح لنا بفضل الله تعالى الوقوف على شموخ مقام هذا العبد الريانى من خلال تصريحات وتلويحات وإشارات ومبشرات تتجسد فى المراتب الآتية :-

أولا : مرتبة الخلافة الجودية ؛ فلقد أجمع أتباع مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره ، ومعهم سائر أولياء العصر على أن سيدى محمدا أبا اليزيد رضوان الله عليه قد شرف بالخلافة الجودية وصار أحد كبار خلفاء وزير النبى صلى الله عليه وسلم كما صرح بذلك أولو الكشف الصحيح كالشيخ عطية محمود رضى الله عنه وغيره .

وسيدى محمد أبو اليزيد يقوم بمهام التربية فى الدائرة الجودية ، حيث من الله تعالى على برؤيته خلال العام الماضى وكنت أسأله فى الرؤيا عن دوره فى المدرسة الجودية ، فأجابنى رضى الله عنه بقوله : (أبوك هو المزكى) أى المربى والمكمل للنفوس .

وثانيا : مرتبة وزير سيدي أحمد البدوي رضى الله عنه . وشواهدا كثيرة ، ومنها ما حكاه لى العالم الزاهد الورع الأستاذ توفيق الضبع مريى الأجيال بمدرسة الخديوية الثانوية بالقاهرة والعارف النقشبندى من أنه كان فى زيارة لسيدي أحمد البدوي رضى الله تعالى عنه منذ نحو أربعين عاما فالتقى بأحد أرباب الأحوال بالمسجد الأحمدي وجرت له معه أمور ومكاشفات وكان من بينها أن قال له : أتعب أن تعرف وزيرى سيدي أحمد البدوي رضى الله عنه ؟ فأجاب بنعم فأخبره بأنهما سيدي محمد أبو اليزيد والشيخ على بكر رضى الله عنهما . كما يعاضد ذلك ما يلى :

ثالثا : وكان رضى الله عنه وكيل سيدي أحمد البدوي وخليفته باطنا رضى الله تعالى عنه ، ومن شواهد ذلك : ما سطره بخطه الأستاذ محمود محمد العسال- أحد رجالات الطريقة الشاذلية بطنطا - فى شهر المحرم سنة ١٣٨١هـ ونصه (رأيت فى منامى سيدي أحمد البدوي رضى الله تعالى عنه ، وسألنى عما يشغلنى ، فسكت ، ثم وجدت فى هذه اللحظة الحاج الشيخ محمد أبو اليزيد أمامى ، فقال لى سيدي أحمد البدوي رضى الله تعالى عنه : إن الشيخ محمد أبو اليزيد وكيلى ، فأخبره عما يشغلك ، وهو يصرفك . وبعدما صحوت من النوم علمت بأن الشيخ محمد أبو اليزيد له سر عظيم) .

وهذه الرؤيا تؤكد ما ذكره الشيخ عطية محمود عن الشيخ أبى اليزيد من قوله : (وهو خليفة كبير من خلفاء سيدي أحمد البدوي رضى الله تعالى عنه ، والآن بعض أهل الكشف يذهبون إليه ويعرضون قضاياهم عليه) ، هذا بالإضافة لما أوردناه آنفا .

رابعا : تحققه بالوراثة المحمدية ، وترجمته فى طبقات الإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ، فقد رأيت فى رؤيا منامية أننى أقرأ فى كتاب (الطبقات الكبرى) لسيدي الإمام عبد الوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه وعنا به فضوجئت بترجمة لسيدي محمد أبو اليزيد رضى الله عنه نصها : (ومنهم أبو يزيدي)

وتحتها : (أبو يزيد يفعل كما يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم) ومفاد هذا أنه رضى الله عنه قد ورث حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وصار متحققا بالافتداء به فى أفعاله صلى الله عليه وسلم .

كما يؤيد ذلك أيضا قول العارف بالله تعالى الشيخ عطية محمود فى شريط مسجل له عن مناقب سيدى أبى اليزيد رضوان الله عليه (الشيخ وارث محمدى) .

خامسا : تحققه بالاستغراق ثم الفرق فى المحبة المحمدية ، وهو ما نوه به الشيخ عطية محمود فى حق شيخنا رضى الله تعالى عنه وأرضاه وذكر أنه قد أخذ فى التحقق بهذا المقام قبل تسع سنوات من انتقاله رضى الله تعالى عنه .

سادسا : شهوده فى ديوان أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين ، ومما يشهد لذلك : إن سليمة آل البيت رابعة عصرها الشيخة زكية عبدالمطلب الحسينية رضى الله تعالى عنها - وكانت من كبار أولياء العصر ودفنت بمقامها جوار سيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله تعالى عنه - كانت فى زيارة لولى الله سيدى محمد أبى اليزيد أوائل السبعينيات ، فقالت له : ألا تأتى معنا لزيارة سيدى أبى الحسن رضى الله عنه ؟ وهنا استدركت بقوة الحال فقالت عن الشيخ أبى اليزيد : إنه هناك على الدوام . ثم توجهت إلى بالخطاب قائلة : (إن والدك له كرسى فى ديوان أهل البيت) رضى الله عنهما مع آل البيت أجمعين وعنا بهم فى الدارين آمين .

سابعا : تحققه بدرجة القطبانية التى هى أعلى درجات الولاية ، وقد دل على ذلك شواهد وإشارات صدرت منه ومن كبار عارفى عصره ، كما نطقت بها الإلهامات والرؤى الصادقة والقرائن المحتفة ، فإن مقام القطبية لعزته وسموه لا يكشف للعامة ، من تلك الشواهد والإشارات ما يلى :

١ - لقد عاد سيدى محمد أبو اليزيد رضى الله عنه من المسجد الأحمدي إلى منزله ذات ليلة متهللا ، طاويا بين جوانحه سعادة غامرة تجلت شواهدا فى محياه ، فسألته ما الخبر ؟ فقال أن عمك الشيخ أحمد حجاب - العارف الكبير بالمقام الأحمدي - كان جالسا إلى جوارى فى مجلس دلائل الخيرات الذى يعقد

بالقبة الاحمدية ، فتزاحم الناس على المجلس حتى ضاق المكان بالشيخ أحمد حجاب ، فجنح إلى جانبى قائلا (أفسح قليلا يا رئيس الدولة) ! ما دلالة تعبير (رئيس الدولة) هنا على لسان كلیم أبى الفتیان ؟ إنها رئاسة دولة الولاية التى يجتنب إلیها الحق تعالى من یشاء من عباده . ألا إنها القطبية .

٢ - ثم لقد أخبرنى الشيخ عبدالرؤوف عبدالکريم من علماء الأزهر فى السابع والعشرين من يناير سنة ١٩٧٤ أنه رأى نفسه مع زميل له فى منامه يسیران فى طريق مهيب ، وإذا بقائل یقول لهما (ستسلمان الان على ملك الملوك) فانتابتهما الدهشة والهيبة ، وبعد برهة فتح باب عظیم فظهرت لهما ساحة كبيرة بها قاعة ومنصة ، وإذا بالشيخ محمد أبى الیزید جالسا على المنصة فى هيئة الملوك ، فسلما علیه واستأذنا للانصراف بعد التسليم على ملك الملوك رضى الله تعالى عنه وأرضاه .. وملك ملوك هنا رمز لقطب الوقت الذى تدين له رؤوس الولاية بالطاعة والإجلال .

٣ - كما حدثنى أخى فى الله تعالى الشيخ أحمد عمارة أنه كان بمدينة (شبين الكوم) فى الثامن عشر من أغسطس سنة ١٩٧٥ وكان معه صهره الحاج محمد خطاب - الذى تلقن العهد من الشيخ - ومعه زميل له ، فالتقوا بسيدي محمد أبى الیزید رضى الله عنه فى مصلى ، فأراد ذلك الزميل أن ينال شرف القبضه من الشيخ لكن الشيخ أحمد عمارة یعلم أنه قد سبق له أخذ العهد على شيخ آخر فى الطريقة البيومية ، فهمس إلى الشيخ بذلك فإذا بسيدي محمد أبى الیزید رضى الله عنه یرد علیه قائلا (الولة كثيرون وأمیر المؤمنین واحد) ! فكان هذا تصريحاً من الشيخ فى اليقظة بأنه فى مقام الرئاسة لأولياء عصره ، وليس ذلك إلا القطب .

٤ - وكذلك حدثنى الشيخ داود ابوطبل البرهامى أنه رأى بعد انتقال الشيخ بعشرين يوماً من يؤكد له أن سيدي محمد أبا الیزید ينال رتبة لم ينلها ولى منذ ثلاثمائة سنة .

٥ - ثم كان القطع عندي بتحقيق الشيخ بالقطبية فيما رأيته من رؤيا منامية رأيته فيها حافظ العصر الشيخ عبدالله الصديق الغماري رضى الله عنه ، ففرحت جدا برؤيته - لما أعلمه عن علمه وفضله - فأثيت عليه في رؤياي قائلا :

«أنت حافظ الحديث وخادم السنة ورافع راية الإسلام ..» ثم قلت «وأنت قطب عصرك» فقال لى : «لا بل أبوك قطب عصره ، وقد صلى بالأولياء إماما في قبة مولانا الإمام الحسين رضى الله عنه» .

٦ - ومما يعاضد ذلك أيضا : ما حكاه لى أخى الشيخ نصر شهاب الدين واعظ مركز فوه من أنه حينما كان في السنة النهائية بكلية أصول الدين سنة ١٩٧٥م - وقد درست له في ذلك الحين وأنا مدرس مساعد بقسم التفسير - رأى في رؤيا منامية أنه يزور سيدى عبدالوهاب الشعرانى رضى الله تعالى عنه وعنا به في صحبة سيدى محمد أبى اليزيد بعد صلاة العصر فلما كانا خارجين من المسجد حمل نعال شيخه ثم بعد الخروج لبس حذاء الشيخ وألبس الشيخ حذاءه ثم سار خلف الشيخ وأخذ يصيح قائلا : «هذا قطب عصره ، هذا عظيم وقته ، هذا وحيد دهره» .

فلما التقى بالشيخ - يقظة - وأنا معه ، قص عليه رؤياه ، فأقرها ، وقال لى : «اسمع يا جوده ما يقوله نصر» فكان ذلك لإشعارى بمنزله شيخنا رضى الله عنه .

فإنه كان - لعظيم صدقه وإخلاصه مع الله تعالى - لا يتحدث عن نفسه ، ولا يصف نفسه بالمشيخة ، ولا يتحدث بشرف نسبه ، ولا بمنزلته في الباطن .

لقد كان أكسيرا من العبودية المحضة لله تعالى ، ومدرسة في الإخلاص ، يرفض الدعاوى ، ويتجنب الشهرة ، وما عرف عنه ما عرف إلا من حديث المقربين منه ، ومن مبشرات الرؤى الصالحة التى هي جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة .

مدرسته العلمية ومشربه الذوقى :-

لقد كان شيخنا أبو اليزيد رضى الله تعالى عنه - مع فتحه الربانى الكبير -
طلعة فى العلوم الشرعية ، وله مكتبة علمية فريدة تضم أمهات المصادر والمراجع
فى التفسير والحديث والفقه - المذهبى والمقارن - والشمائى المحمدية ،
والتصوف ، وغير ذلك ، وله عليها تأشيرات بخط يده تتم عن تبخره فى قراءتها
واستيعابها .

كما أن له اختيارات ومنتقيات لدرر العلم وفرائده تدل على عمق غوصه
وصيده للآلى الفريدة وغرائب الأحكام الفقهية التى تؤصل للرخص الشرعية
كمسافة القصر عند الإمام داود الظاهرى مثلاً ، ومسألة وقوع رؤية الله تعالى
بالبصر فى الدنيا ^(١) وغرائب الكرامات الواقعة على أيدي الأولياء رضى الله تعالى
عنهم ^(٢) ، وتفسير العبارات الموهمة المعروفة بشطحات الصوفية ومسلك الصوفية
فى تقبيل أعتاب الأولياء ^(٣) وغير ذلك . هذا : والذى تعرفناه من أحاديث الشيخ
رضوان الله عليه أنه قد تضيع علمياً من مصنفات الإمامين الكبيرين : حجة
الإسلام الإمام أبى حامد الغزالى وشيخ الإسلام سيدى الإمام عبد الوهاب الشعرانى
رضى الله تعالى عنه .

فقد كان شيخنا رضى الله تعالى عنه يشيد بموسوعة «إحياء علوم الدين»
للإمام الغزالى رضوان الله عليه مردداً للقول المأثور «من لم يقرأ الإحياء فليس من
الأحياء» ، كما كان يتمثل بقول شيخه مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره
حينما سئل عن سر إطالة زيارته لمقام الإمام الشعرانى عليه رضوان الله فيجيب
بقوله : «إن كتب الإمام الشعرانى هى التى ربتنا» !!

من ثم كان مولانا الشيخ أبواليزيد رضوان الله عليه منتمياً لمدرسة الإمام

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه ٦٣/٢ ط الشرفيه .

(٢) المصدر السابق ١٥٦/١ .

(٣) المصدر السابق ١١٤/٢ .

الغزالي ومتضلعا من مشرب الإمام الشعراني حتى إنه كان يضع كتاب الطبقات الكبير له على وسادته باستمرار ، مع الميزان الكبرى له والإبريز للإمام الدباغ والعظة والاعتبار لسيدى أحمد حجاب .

وقد اطلعت يوما على قائمة كتب الإمام الشعراني التي اقتناها سيدى محمد أبو اليزيد فأحصيت بها أسماء خمسة وعشرين مؤلفا ، ويندر أن تضم مكتبة خاصة هذا العدد من مؤلفات القطب الشعراني وحده . وما ذاك إلا لحبه العظيم لهذا القطب العظيم وشغفه بمصنفاته التي لا نظير لها في التراث الإسلامى .

أما فى مجال التفسير القرآنى : فقد كان الإمام فخر الدين الرازى رضى الله تعالى عنه محل الإعجاب الشديد للقطب الفريد سيدى محمد أبى اليزيد رضوان الله عليه ، فكان كان مشدوها لموسوعيته المتبحرة فى أمهات المسائل العقيدية والفقهية والمباحث الكونية والعقلية وغيرها مع مسحة التصوف المطلة من وراء سطورهِ .

وكذلك كان للإمام السيوطى رضى الله عنه حظوة عند سيدى أبى اليزيد ، لتبحره فى موسوعة (الإتقان) فى علوم القرآن وحسن تشعيبه لفروع هذا العلم .

وكان لسيدى محمد أبى اليزيد تبحر فى الفقه المذهبى مقتنيا عدة مصنفات فى كل مذهب على حدة ، وكان منتجعه فى الفقه الشافعى : حاشية الإمام الباجورى على ابن قاسم بصفة خاصة ، وفى الفقه الحنفى (مجمع الأنهر بشرح ملتقى الأبحر) للعلامة شيخ زاده وفى الفقه المالكى أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك لسيدى أحمد الدردير . وفى الفقه الحنبلى (نيل المآرب بشرح دليل الطالب) للعلامة عبدالقادر الشيبانى .

أما فى الفقه المقارن : فقد كان (الميزان) للإمام الشعراني هو المرجع المحبوب ، وكذا كشف الغمة عن جميع الأمة له أيضا ، ثم بداية المجتهد لابن رشد . وفى علم التصوف كان للشيخ أبى اليزيد رضوان الله عليه سياحات وإبحارات فى مصادره الكبرى ، وكان للإمام محيى الدين بن عربى قدس الله سره - بصفة

خاصة - أيما إجلال ، فكان إذا ذكر أمامه قال فى استغراق : (إنه الشيخ الأكبر) !!
وكان ينصح بقصر قراءة مصنفاته - كالفتوحات المكية وفحصوص الحكم - على
من سلك طريق المجاهدة ، وارتقى فى أوج العرفان . تلك إشارة إجمالية إلى
المدرسة العلمية لسيدى محمد أبى اليزيد رضى الله عنه وزاده علواً وارتقاء .

كرامات العارف بالله تعالى سيدى محمد أبى اليزيد :

لقد أكرم الحق تعالى أولياءه بظهور الكرامات على أيديهم ، وجعلها آيات
مصدقة لتحقيقهم بولاية الله عز وجل ، كما جعل المعجزات للرسل والأنبياء آيات
مصدقة لتحقيقهم بالنبوة والرسالة . فكانت الكرامات بمثابة مفاتيح لتصديق الولي
وتمييزه من الدعى المتصوف الدخيل على ساحة الأولياء ؛ ليصح الاقتداء بالولي
المتحقق فى سلوك طريق الله عز وجل على هدى وبصيرة .

فعلى هدى كرامات الأولياء : دخل إلى رحاب التصوف والولاية جهابذة من
أساطين العلم وجموع وأفواج من أنقياء العامة الذين سبقت لهم من الله الحسنى !!
وكان من الذين دخلوا تحت مظلة الصوفية من أئمة العلماء - بعد سبق
الإنكار - سلطان العلماء الإمام عز الدين بن عبدالسلام رضى الله عنه الذى أذعن
لحقيقة الكرامات ودورها فى اكتشاف الطريق الحق الموصول إلى الله تعالى ، يقول
الإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه - فى طبقاته الكبرى :-

«وكان الشيخ عز الدين بن عبدالسلام - رضى الله عنه - يقول بعد اجتماعه
على الشيخ أبى الحسن الشاذلى وتسليمه للقوم :-

من أعظم الدليل على أن طائفة الصوفية قعدوا على أعظم أساس الدين :
مايقع على أيديهم من الكرامات والخوارق ، ولا يقع شئ من ذلك قط لفقيه إلا إن
سلك مسلكتهم كما هو مشاهد .

وكان الشيخ عز الدين - رضى الله عنه - قبل ذلك ينكر على القوم ويقول :

هل لنا طريق غير الكتاب والسنة ^(١) ٩٩ فلما ذاق مذاقهم ، وقطع السلسلة الحديد
بكراسة الورق صار يمدحهم كل المدح . ^(٢)

وإن الإنكار على الكرامات إنما هو ناتج عن سوء الفهم لحقيقتها ، فإن
الكرامة في الشرع : أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم
بشرع الله تعالى ومستغرق في ذكره وطاعته .

وبمقتضى أن الكرامة أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد الولي فهي
إذاً ليست من خلق الولي حتى تستكر ، وإنما هي من خلقه تعالى - وهو قادر على
كل شيء - وليس الولي إلا مظهرها لها ومجلى ظهرت على يديه بسبب تقواه لله عز
وجل ، ومن ثم فإن منكر الكرامة في الحقيقة مصادر بزعمه على صلاحية القدرة
وطلاقتها ولذلك كان معادى الأولياء هو في الحقيقة معادى الله عز وجل وداخل
تحت طائلة قول الله عز وجل في الحديث الشريف (من عادى لي ولياً فقد آذنته
بالحرب) . ^(٣)

من هذا المنطلق العلمى الشرعى نشرع في ذكر كرامات ولي الله تعالى
سيدى محمد أبى اليزيد وهى كرامات بلغت من الكثرة حداً طائلاً ولكن نجتزئ منها
بذكر ما يلى :-

الكرامة الأولى : هى استقامته على منهج الله تعالى وتطبيق شرعه بالقدر
الذى يندر وجوده ورعا وزهدا وغيره على حدود الله تعالى واتقاء الشبهات . وهذه
الكرامة المعنوية يؤثرها كبار العارفين على مئات الكرامات الحسية من الطيران فى
الهواء والمشى على الماء وطى الأرض ، وقد كان شيخنا أبو اليزيد رضوان الله عليه

(١) هذه العبارة من المنكر للتصوف : قوله حق يراد بها باطل : فإن التصوف الحقيقى مستقر
من روح الكتاب والسنة ولا يعرف ذلك إلا من زالت الأفتال عن قلبه : «أفلا يتدبرون القرآن
أم على قلوب أفعالها» .

(٢) الإمام الشعرانى رضى الله تعالى عنه : الطبقات الكبرى : ١٢/١ ط/ الشرفية .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق من صحيحه (٨٧/٤ ط/ حجازى) .

كثيرا ما يتمثل قول شيخه مولانا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سره : «الاستقامة خير من ألف كرامة» !

الكرامة الثانية : مكالمته لسيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه وعنا به - يقظة - كما شهد الكبار من أولياء عصره ومنهم مولانا الشيخ إسماعيل عبده ، حيث أخبرنا الشيخ كامل أبو النضر - من أبناء الشيخ فى التربية ومن أهل قبريط مركز فوة - أنه كانت له حاجة عند الله تعالى فذهب لزيارة سيدى أحمد البدوى رضوان الله عليه فوجد الشيخ إسماعيل عبده جالسا بالضريح فسأله أن يرفع حاجته إلى الإمام البدوى متوسلا به إلى الله تعالى لقضائها فقال له : انظر إلى باب المقام فإن أول من يدخل منه الآن هو كلیم سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه فاقصده فى رفع حاجتك إليه ، فنظر إلى الباب فإذا بأول داخل منه هو سيدى محمد أبو اليزيد رضى الله تعالى عنه فأيقن أن شيخه هو كلیم السلطان أحمد البدوى عليهما الرضوان .

والكرامة الثالثة :- وهى من روائع مكاشفات الشيخ ومن دلائل تقدير أولياء عصره لمنزلته - فقد حكى الشيخ كامل أبو النضر - المذكور آنفا - أنه فى مبادئ مراحل سلوكه على يد شيخه أبى اليزيد رضى الله عنه كان واقفا نفسه لخدمته فى خلوته الأحمدية بالمسجد الأحمدى ، وهى ذلك اليوم كان الشيخ إسماعيل عبده يزور سيدى محمدا أبا اليزيد فى خلوته فكلف الشيخ أبو اليزيد مريده الشيخ كامل بالخروج لإحضار طعام للإفطار ، فلما خرج لذلك وجد الشيخ محمدا أبا رمضان أمسك بكرسى وقذفه فى وجه الشيخ كامل فأدماه فجلس يضمد جرحه ، فتذكر أنه مكلف بإحضار إفطار شيخه وضيئه فأسرع بإحضار الإفطار للشيخ فلما دخل عليه وجدته والشيخ إسماعيل ينظران إليه ضاحكين ، ثم قال الشيخ إسماعيل (هل يليق بالمريد إذا كلفه شيخه بإحضار الإفطار أن ينشغل عنه بسماع الشيخ أبى رمضان؟)

فأتبعه سيدى محمد أبو اليزيد بقوله : لقد نال جزاءه من الشيخ أبى رمضان حتى لا يعود لمثلها ! ثم بعد برهة قال له الشيخ : الآن اذهب لسماع أبى رمضان ، فأسرع بالذهاب إلى القهوة الأحمدية فوجد الشيخ أبا رمضان منتظره صامتا من

وقت أن ضربه فلما رآه عانقه ثم قال له : يا حبيبى عندما يكون المرید فى حاجة شيخه لا ينبغي له أن يقف عند أبى رمضان . لكن بعد أن ينفذ أوامر شيخه ويأتى بإذنه لسماع أبى رمضان يرحب به أبو رمضان ويسمعه المعب ، ثم قام فأنشد له روائع الإنشاد الصوفى الحافل بجليل المعانى فى الحقائق والأذواق .

الكرامة الرابعة - وهى من عجائب مكاشفاته أيضا - ما حدثنا به الأستاذ أحمد لييب وكيل وزارة الأوقاف الأسبق وصديق الدكتور محمود حب الله أمين عام مجمع البحوث الإسلامية الأسبق أن الدكتور حب الله ذكر له أنه كان على خلاف فى اختصاصات العمل مع الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف الأسبق فأفضى به الأمر إلى كتابه استقالته ووضعها فى درج مكتبه ولم يعلم بها أحدا من الناس ، وفى صباح اليوم التالى : فوجئ بدخول سيدى محمد أبى اليزيد عليه وهو منفرد بمكتبه وقال له مكاشفا : (يا دكتور حب الله - إن سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه يأمرك بسحب استقالتك التى تتوى تقديمها وتخفيها بمكتبك وبيشرك بتغيير الأوضاع قريبا جدا) فتعجب الدكتور حب الله من معرفة الشيخ بأمر الاستقالة الذى لم يعلمه أقرب الناس إليه ، فقام بتمزيق طلب قبول الاستقالة ، وإن هى إلا أيام معدودة وأجرى التعديل الوزارى وأطلقت له الاختصاصات ، فأيقن بأن سيدى محمدا أبا اليزيد كريم سيدى أحمد البدوى رضى الله عنهما ونائب الحضرة الأحمدية البدوية .

الكرامة الخامسة : ما حدثنى به الأستاذ محمد توفيق عويضة أمين عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ونائب وزير الأوقاف الأسبق ؛ من أنه عندما كان رئيسا لهيئة الاتصال بالشعوب الإسلامية فى عهد الرئيس جمال عبدالناصر حدث خلاف بينه وبين بعض قيادات الثورة أفضى إلى إقالته من منصبه ، وفى منتصف اليوم التالى لإقالته دق جرس باب شقته بالزمالك ففتح بنفسه الباب فوجد سيدى محمدا أبا اليزيد أمامه - ولم يدر بخلده أن الشيخ يعرف عنوانه فجلس معه وشرب الشيخ القهوة وكاشفه بما حدث وقدم إليه البشرى بتفريج الأزمة ، ثم قام منصرفا ، فصحبه الأستاذ محمد توفيق عويضة حتى نهاية كوبرى السلطان أبى العلا رضى

الله عنه ، وفجأة وقف الشيخ وقال له : اذهب الآن فوراً إلى مسكنك ولا تتوقف في الطريق حتى وإن قابلتك أحد معارفك . وأسرع الأستاذ محمد توفيق بك إلى شقته ، وبمجرد دخوله سمع رنين التليفون ، فكان المتحدث سكرتير الرئيس عبدالناصر يطلبه للحضور مساء لمقابلة الرئيس ، وأثناء المقابلة لطفه الرئيس وقال له : غدا توجه إلى مكتبك وعد إلى منصبيك ، وكانت هذه نقطة التحول لتأسيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وظل الأستاذ محمد توفيق عويضة أميناً له - في عهده الذهبي - حتى سنة ١٩٧٨م.

الكرامة السادسة : ما حدثني به الأستاذ أحمد عوض مأمور الضرائب بطنطا ان خاله الحاج أحمد عبدالقادر - عمدة محلة روح - كان يعتزم الحج بنظام القرعة، فجاء لسيدى محمد أبى اليزيد رضى الله عنه بالمقام الأحمدي وسأله أن يدعو له بتيسير الحج والزيارة ، فقال له الشيخ إنك ستحج هذا العام إن شاء الله تعالى ، ولكن إذا حملتك أمانة أتوديعها ؟ قال : نعم ، وما هي ؟ قال أن تقرئ عنى السلام لحضرة النبى صلى الله عليه وسلم وتتوسل لى به صلى الله عليه وسلم أن يمنحنى الله عفوه وغفرانه . فقال الحاج أحمد . نعم . حبا وكرامة . فيسر الله له الحج فى عامه ، لكنه لما كان بالمدينة المنورة نسي - لانشغاله بقضاء مهامه وحاجاته من شراء الهدايا ونحو ذلك - أن يؤدى أمانة الشيخ وإذا به - وقد أوشك على الرحيل- يرى الشيخ أبا اليزيد فى منامه يقول له : لماذا قصرت فى أداء الأمانة ؟ فقال الحاج أحمد وهرع إلى الروضة المحمدية الشريفة وقام بأداء أمانة الشيخ ثم لما عاد إلى وطنه قدم لزيارة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه فوجد الشيخ أبااليزيد فى انتظاره فقال له الحاج أحمد عبدالقادر : لقد أديت الأمانة التى حملتها ، فرد عليه الشيخ بقوله (وهل أديتها إلا بعد أن ذكرناك بها) لا رضى الله عن أوليائه!

الكرامة السابعة : (تسليمه باليد - يقظة - على مولاتنا السيدة زينب رضى الله عنها) فقد حدثنا الشيخ كامل أبو النضر أنه كان مع شيخه سيدى محمد أبى اليزيد رضى الله عنه فى رحاب مولانا الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه

بالقاهرة، وبعد حضورهما مجلس (دلائل الخيرات) بالساحة الحسينية بالباب الأخضر فحضر أحد الرجال لصحبة الشيخ ، ثم قام الشيخ متوجهاً إلى زيارة رئيسة الديوان سيدتنا زينب رضوان الله عليها ، ولكن (الشيخ كامل) اعتذر إلى الشيخ لعدم تمكنه من صحبته في هذه الزيارة لسبق ارتباطه بموعد . فتوجه الشيخ وصاحبه إلى الحرم الزينبي الشريف .

وفى اليوم التالى : التقى الشيخ كامل بذلك الرجل الذى صحب الشيخ فى زيارته الزينبية فأخذ الرجل فى تعنيف الشيخ كامل على فوات صحبة الشيخ فى هذه الزيارة قائلاً : لقد فاتك عالم تكن تحلم به من العطاء ، فلقد ذهبنا إلى الروضة الزينبية المباركة وظل الشيخ أبو اليزيد بالمقام الزينبي - وأنا معه - حتى خلا المقام الشريف من الزوار ، ولم يعد به سوانا ، وفجأة أبصرت بعينى رأسى - وأنا فى تمام اليقظة - مولاتنا السيدة زينب رضى الله تعالى عنها تخرج من المقصورة الشريفة فى قمة الجلال والبهاء فأقدم سيدى محمد أبو اليزيد للسلام عليها وقبّل يدها الكريمة وأنا أنظر إليه عياناً !!

فسبحان من يعطى من يشاء من عباده ما شاء من جوده وعطائه ، وويل لمن يحجر بعقله ويصادر على عطاء الله لأحبابه . اللهم ارزقنا حسن التسليم . آمين .

الكرامة الثامنة : (تسليمه باليد - يقظة - على سيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله عنه) روى هذه الكرامة : الشيخ محمد مصطفى خليل إمام مسجد الزمرونية ومحفظ القرآن الكريم بها - وابن أخت سيدى محمد أبى اليزيد رضوان الله عليه - حيث كان مولانا الشيخ أبو اليزيد فى إحدى زيارته المعتادة لبلده (الزمرونية) وكانت عادته دخول البلد ليلاً والمكث بها يوماً أو يومين ، ثم يغادرها بعد الفجر وقبل الشروق ، وكان الشيخ محمد مصطفى رفيقه لدى سفره من البلدة، وكان الشيخ معتاداً زيارة مقام سيدى أبى يزيد البسطامى رضى الله عنه قبل مغادرة البلد . وفى تلك الزيارة كان الشيخ متوجهاً إلى مقصورة القطب البسطامى يقرأ سورة (يس) ، ولدى الفراغ من القراءة كان الشيخ محمد مصطفى يركز بصره

عليه ، وإذا به يرى المقصورة الخشبية لسيدى أبى يزيد رضوان الله عليه ترتفع عن الأرض رويدا رويدا ثم تخرج يد الإمام أبى يزيد البسطامى من الضريح فيتلقاها سيدى محمد ابو اليزيد ويقبلها ، ثم يعود إلى الضريح .

ولما انتهت الزيارة توجه سيدى محمد أبو اليزيد إلى ابن شقيقته قائلا (إياك أن تخبر أحدا بما رأيت) فلم يذع نبأ هذه الرؤية اليقظية طوال حياة الشيخ رضى الله عنه .

الكرامة التاسعة : وقد رواها لنا فضيلة الشيخ محمد حماد - شيخ الجامع الأحمدى بطنطا - ونحن بمنزل صديقنا الدكتور مجدى عوارة بطنطا فى صحبة كريمة ومعنا الشيخ زين العابدين أحمد رضوان ولفيف من المحبين لآل البيت والأولياء :-

حكى لنا الشيخ محمد حماد عن الشيخ السيد عنبه شيخ الجامع الأحمدى السابق : أنه لما عيّن شيخا للمسجد لم يكن يتقاضى من حصص صناديق النذور بينما كان الخدم والملاحظون بالمسجد لهم نسبة مقررة من عائد صندوق شيخ العرب حتى كانت دخولهم أضعاف دخل شيخ المسجد ، فبلغ الغضب بشيخ المسجد آنذاك أنه قرر تقديم استقالته .

وفى ذات ليلة رأى الشيخ سيد عنبه فى منامه أنه فى ضريح سيدى أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه أمام المقصورة ، وفجأة انفجرت المقصورة عن عدة رجال عليهم الوقار والجلال ، ويرتدون الثياب البيضاء ، فحدق الشيخ سيد عنبه فى وجوههم فلم يعرف منهم إلا سيدى محمد أبو اليزيد رضى الله عنه ، وهو الذى تولى مخاطبته من بينهم فقال له : (يا شيخ سيد : اكتب مظلمتك وارفعها إلى المسئولين وسيتم إنصافك إن شاء الله تعالى) .

وفى اليوم التالى قام الشيخ سيد برفع مظلمته - التى سعى مرارا فى الشكوى منها دون جدوى - ولكن تم الحسم فيها سريعا وعدلت اللوائح وصار لشيخ

المسجد نسبة مقررة فى صندوق النذور ببركة سيدى أحمد البدوى على يد وكيله
ووزيره سيدى محمد أبى اليزيد رضى الله تعالى عنه وأرضاه .

والكرامة العاشرة : هى معرفة الشيخ بموعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ؛ فقد
كان من عادة سيدى محمد أبى اليزيد رضوان الله عليه : السفر من طنطا إلى
القاهرة لزيارة آل البيت وشهود ليلة الثلاثاء عند مولانا الإمام الحسين رضى الله
تعالى عنه ، وقد سألته فى سر هذا التوقيت ، فأجابنى بأن أحد العارفين
المكاشفين أخبر بأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضر كل ليلة الثلاثاء
عند سبطه الإمام الحسين رضى الله تعالى عنه .

وفى ليلة الثلاثاء الموافق ٢٩ من ديسمبر ١٩٧٦ كانت آخر زيارة له فى حياته
الدنيوية وكان من عادته فى كل زيارة أن يعود إلى منزله بطنطا قبل ظهر الثلاثاء
لكنه فى هذه المرة تأخرت عودته لآخر النهار ، فلما رجع إلى منزله الأحمدى سأله
بعض أهله : لماذا تأخرت يا مولانا فى عودتك هذه المرة ؟

فأجاب قائلا : (إننى كنت أستاذن من آل البيت) إلا إنه استئذان الرحيل إلى
جوار الملك الجليل ، ولم يسبق أن قال هذه العبارة فى أى زيارة سابقة ، ولكنه
كشف العارفين بموعد لقاء رب العالمين . رضى الله تعالى عن سيدى محمد أبى
(اليزيد مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

★ ★ ★

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣

من أعلام الصوفية فى القرن الثانى

١ - سيدنا الإمام الحسن البصرى	٢٧
٢ - سيدنا مالك بن دينار	٤٥
٣ - سيدنا أبو حنيفة النعمان	٥٧
٤ - سيدنا سفيان الثورى	٧٠
٥ - سيدنا إبراهيم بن أدهم	٨١
٦ - سيدنا داود الطائى	٩٢
٧ - سيدنا الليث بن سعد	١٠٦
٨ - سيدنا الإمام مالك بن أنس	١١٨
٩ - سيدنا الإمام عبد الله بن المبارك	١٢٩
١٠ - سيدنا الفضيل بن عياض	١٤٣
١١ - سيدنا سفيان بن عيينة	١٥٤
١٢ - سيدى معروف الكرخى	١٧١

القرن الثالث

١٣ - سيدنا الإمام الشافعى	١٧٩
١٤ - سيدنا أبو سليمان الدارانى	١٩٤
١٥ - سيدنا بشر الحافى	٢٠٨
١٦ - سيدنا الإمام أحمد بن حنبل	٢١٧
١٧ - سيدنا الإمام المحاسبى	٢٣٠
١٨ - سيدنا أبو تراب التخشبى	٢٣٨
١٩ - سيدنا ذو النون المصرى	٢٥٠
٢٠ - سيدنا السرى السقطى	٢٦٣
٢١ - سيدنا يحيى بن معاذ	٢٧٦
٢٢ - سيدنا أبو اليزيد البسطامى	٢٩٠
٢٣ - سيدنا أبو سعيد الخراز	٣٠١
٢٤ - سيدنا الإمام سهل التسترى	٣١٦
٢٥ - سيدنا الإمام الجنيد	٣٢٥
٢٦ - سيدنا ممشاد الدينورى	٣٣٢

القرن الرابع

- ٢٧ - سيدى رويم بن أحمد البغدادي ٣٤٧
 ٢٨ - سيدنا أبو بكر الكتاني ٣٥٧
 ٢٩ - سيدنا الإمام الشبلى ٣٧٠

القرن الخامس

- ٣٠ - سيدنا أبو حامد الغزالي ٣٨١

القرن السادس

- ٣١ - سيدى عبد القادر الجيلاني ٣٩٩
 ٣٢ - سيدى أحمد الرفاعي ٤١١
 ٣٣ - سيدى أبو مدين المغربي ٤٢٧
 ٣٤ - سيدى عبد الرحيم القنائي ٤٤١

القرن السابع

- ٣٥ - سيدنا محيي الدين بن العربي ٤٥٩
 ٣٦ - سيدنا أبو الحسن الشاذلى ٤٧٤
 ٣٧ - سيدنا داود الأعزب ٤٩٠
 ٣٨ - سيدنا أحمد البدوى ٤٩٩
 ٣٩ - سيدنا إبراهيم الدسوقي ٥١٣
 ٤٠ - سيدنا الإمام أبو العباس المرسى ٥٢٧

القرن الثامن

- ٤١ - سيدى محمد بهاء الدين النقشبندى ٥٤٥

القرن التاسع

- ٤٢ - سيدنا السلطان الحنفى ٥٥٩
 ٤٣ - سيدنا إبراهيم المتبولى ٥٦٦

القرن العاشر

- ٤٤ - سيدى على الخواص ٥٧٥
 ٤٥ - سيدى عبد الوهاب الشعرانى ٥٨٣

القرن الثانى عشر

- ٤٦ - سيدنا على البيومى ٥٩٣

القرن الرابع عشر

- ٤٧ - سيدنا الشيخ جودة إبراهيم ٦٠٧
 ٤٨ - سيدنا الشيخ عيسى جودة ٦٢٩
 ٤٩ - سيدنا الشيخ عليوة عطية ٦٥٠
 ٥٠ - سيدنا محمد أبو اليزيد المهدي الحسينى ٦٧١

رقم الإيداع ٩٨ / ٣١٨٩
I. S. B. N. 977 - 215 - 300 - 9

